

أ.د. أحمد عبد الرازق أحمد

العمارة الإسلامية في مصر

منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي

(٢١-٩٢٣هـ/ ٦٤١ - ١٥١٧م)

العمارة الإسلامية في مصر

منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي

(٢١-٩٢٣هـ/ ٦٤١-١٥١٧م)

أ.د/ أحمد عبد الرازق أحمد

أستاذ الآثار الإسلامية

كلية الآداب - جامعة عين شمس

الحائز لجائزة الدولة التشجيعية

وجائزة جامعة عين شمس التقديرية

١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٧٩٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

٦ أ شارع جواد حسني - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧

www.darelfikrelarabi.com

info@darelfikrelarabi.com

٧٢٣,٣ أحمد عبد الرازق أحمد.
أ ح ع م العمارة الإسلامية في مصر: منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي/ تأليف أحمد عبد الرازق أحمد. ـ القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م.
٥٦٠ ص: إيض؛ يشتمل على ملاحق صور؛ ٢٤ سم.
بيليوجرافية: ص ٤٢٩ - ٤٦٤.
تدمك: ٣ ــ ٢٥٠٢ ــ ١٠ ــ ٩٧٧.
١ ـ العمارة في عصر الولاة. ٢ ـ العمارة في الدولة الطولونية. ٣ ـ العمارة في الدولة الإخشيدية. ٤ ـ العمارة في الدولة الفاطمية. ٥ ـ العمارة في الدولة الأيوبية. ٦ ـ العمارة في دولة المماليك. أ ـ العنوان.

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

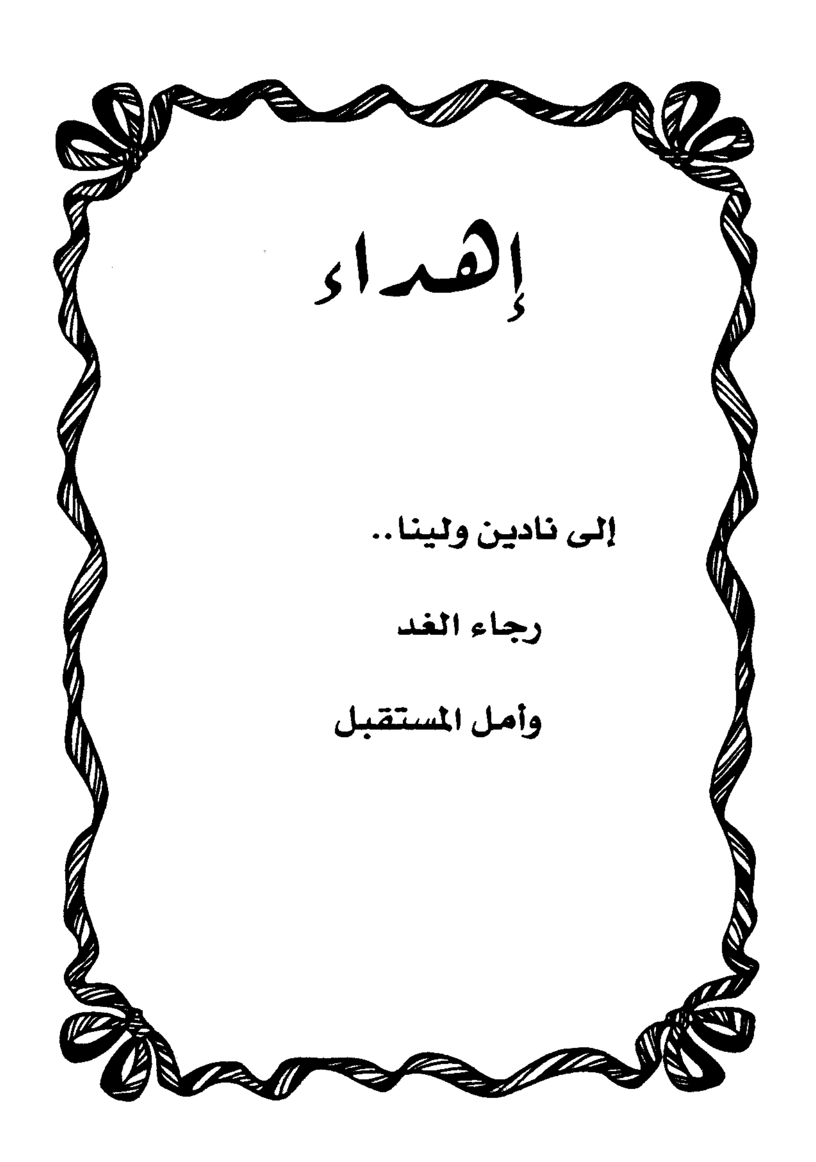
التصميم والإخراج الفني

محيى الدين فتحى الشلودى

رقم الإيـــداع

٢٠٠٩ /١١٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إلى نادين ولينا..

رجاء الغد

وأمل المستقبل

تمهيد

تعد المؤلفات التي تتناول عمائر مصر الإسلامية منذ الفتح العربي وحتى نهاية العصر المملوكي قليلة ويصعب الحصول عليها لندرتها ونفاد طبعاتها، كما أن أغلبها يقتصر على معالجة فترة زمنية بعينها دون باقي الفترات التاريخية الأخرى التي شهدتها مصر الإسلامية. وهذه المؤلفات القليلة تنقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية:

المجموعة الأولى يمثلها بضعة مؤلفات أجنبية سواء باللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية مثل كتاب بسكال كوست الذي صدر في عام ١٨٩٣ تحت عنوان: Architecture arabe ou monument du Caire، والمقال الموجز الذي نشره عالم الآثار البريطاني كريسويل في مجلة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية في عام ١٩١٩ تحت عنوان: Brief Chronology of the Muhammadan Monuments of Egypt to A.D. 1517، وما تلاه من دراسات مستفيضة بدأت بالعمارة الإسلامية المبكرة في كتابه: Early Moslem Architecture، الذي صدر في عام ١٩٣٢، ويشتمل في قسم منه على عمائر مصر في عصر الولاة، وانتهت بالدراسة الضخمة عن العمارة الإسلامية في مصر: Moslem Architecture in Egypt التي صدرت في مجلدين، الأول في عام ١٩٥٢، ويشتمل على آثار العصرين الإخشيدي والفاطمي، والثاني في سنة ١٩٥٩ ويشتمل على عمائر العصر الأيوبي وبضعة من عمائر عصر المماليك البحرية. ولا يفوتنا أيضا مؤلفات السيدة ديفونشير عن مساجد القاهرة التي صدرت في الأعوام ١٩٢١، ١٩٢٥ مثل كتابها بالإنجليزية الذي يحمل عنوان Some Cairo Mosques and their founders، وكتابها بالفرنسية بعنوان: Quatre vingt mosquées et autres monuments musulmans du Caire، وكتاب بريجز الذي صدر في عام ١٩٢٤ عن عمائر مصر

وفلسطين ويحمل عنوان Muhammadan Architecture in Egypt and Pal-estine، وكتاب كل من هوتكوير وفيت: Les Mosquées du Caire الذي صدر في سنة ١٩٣٢، وكتاب دافيس عن نفس الموضوع: The Mosques of Cairo، الذي صدر في سنة ١٩٤٤.

ولا ننسي كذلك كتاب ديتريش براندنبرج الذي صدر بالألمانية في عام ١٩٦٦ عن عمارة مصر الإسلامية: Islamische Baukunst in Ägypten، وهناك أيضا مؤلفات دوريس أبو سيف مثل كتابها الذي صدر عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة في عام ١٩٨٩ عن عمارة القاهرة الإسلامية: Islamic Architecture in Cairo, An Introduction، وكتابها عن قاهرة المماليك الذي صدر في عام ٢٠٠٧ عن نفس الجامعة تحت عنوان: Cairo of the Mamluks, A History of the Ar-chitecture and its Culture، وكذا المؤلف الضخم الذي خلفه لنا عالم الآثار الإسلامية الراحل ميشيلماينكه عن العمائر المملوكية في كل من مصر وبلاد الشام Die Mamlukische Architektur in Ägypten und Syrie، الذي صدر في عام ١٩٩٢.

ويمثل المجموعة الثانية أيضا بضعة مؤلفات عربية تناولت الحديث عن عمائر مصر الإسلامية عامة أو من خلال تناول عصر بعينه مثل كتاب المرحوم عبد العزيز مرزوق بعنوان: مساجد القاهرة قبل عصر المماليك، الذي صدر للمرة الأولى في عام ١٩٤٢، وكتاب المرحوم حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية الذي صدر في عام ١٩٤٦، والأسفار الثلاثة التي أصدرها المرحوم أحمد فكري فيما بين ١٩٦١ - ١٩٦٩ تحت عنوان: مساجد القاهرة ومدارسها، التي توقفت بنهاية العصر الأيوبي، والجزء الأول من كتاب العمارة العربية في مصر في عصر الولاة للمرحوم فريد شافعي، الذي صدر عن الهيئة المصرية للكتاب في عام ١٩٧٠، والدراسة الموجزة التي صدرت بدورها في نفس العام للمرحوم كمال الدين سامح تحت عنوان: العمارة الإسلامية في مصر، والموسوعة الضخمة التي أصدرتها المرحومة سعاد ماهر محمد فيما بين ١٩٧١ - ١٩٨٣ عن مساجد مصر وأوليائها الصالحين، ودراسة صالح لمعي مصطفى عن التراث المعماري الإسلامي في مصر

التي صدرت في سنة ١٩٧٥، ويجب ألا نغفل أيضا المؤلف الضخم والهام الخاص بمنظمة العواصم والمدن الإسلامية، الذي صدر في سنة ١٩٩٠، الذي يعد بحق عملا علميا مفيدا، وان كان صعب التداول لضخامته وكبر حجمه بالنسبة لأغلب الدارسين. ويندرج تحت هذه المجموعة من جهة أخرى كتابات كل من المرحوم مصطفى عبد الله شيحة بعنوان الآثار الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الأيوبي الذي صدر في أواخر القرن الماضي عام ١٩٩٢، وكتاب أحمد عبد الرازق عن تاريخ وآثار مصر الإسلامية منذ الفتح العربي وحتى نهاية العصر المملوكي، الذي صدر الجزء الأول منه في عام ١٩٩٣، والثاني في عام ٢٠٠٧، وكتاب آمال العمري وعلى الطايش عن العمارة الإسلامية في العصرين الفاطمي والأيوبي الذي صدر في عام ١٩٩٦، وكتاب حسني نويصر عن العمارة الإسلامية في مصر في عصر الأيوبيين والمماليك الذي صدر بدوره في نفس العام. ويمكننا أن نضيف إلى هذه المجموعة من المؤلفات المتفرقة أطلس عاصم محمد رزق بعنوان: أطلس العمارة الإسلامية والقبطية بالقاهرة الذي صدر في ثمانية مجلدات في عام ٢٠٠٣، بيد أن ما جاء به من أخطاء علمية وتاريخية ومطبعية، يجعلنا ننبه إلى ضرورة توخي الحذر عند التعامل معه والاعتماد عليه خاصة من قبل المتخصصين في مجال الآثار الإسلامية.

أما المجموعة الثالثة والأخيرة فيمثلها مجموعة من المؤلفات والكتب السياحية التي نشرت باللغة العربية أو بإحدى اللغات الأجنبية، وتعرضت لعمائر مصر الإسلامية في إيجاز مثل كتاب محمود أحمد بعنوان: دليل موجز لأشهر الآثار العربية الذي صدر في عام ١٩٣٨ باللغتين العربية والفرنسية في آن واحد، والمرشد لزيارة آثار القاهرة الإسلامية لأحمد عزت الذي صدر في عام ١٩٥١، والدليل العلمي للآثار الإسلامية في القاهرة، لكل من ريتشارد باركر وروبن سابن الذي صدر للمرة الأولى في سنة ١٩٧٤، وأخيرا الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة لأبي الحمد محمود فرغلي الذي صدرت طبعته الأولى في عام ١٩٩١.

فيما عدا هذه المؤلفات السابق الإشارة إليها، لا نعرف شيئا من الدراسات الهامة عن عمارة مصر الإسلامية منذ الفتح العربي وحتى نهاية العصر المملوكي، وباللغة العربية على وجه الخصوص؛ لذلك كان لزاما علينا أن نسارع بوضع مؤلف شامل عن عمائر تلك الفترة التاريخية الهامة ليكون عونا لأبنائنا من طلاب قسم الآثار الإسلامية وقسم الإرشاد السياحي، وأيضا لجميع الدارسين المهتمين بعمائر مصر الإسلامية في عصورها المختلفة.

والكتاب الذي نقدمه اليوم إلى المكتبة العربية يتألف من سبعة فصول، خصصنا الفصل الأول منها لعمائر عصر الولاة، والثاني لعمائر الدولة الطولونية، والثالث لعمائر الدولة الإخشيدية، والرابع لعمائر الدولة الفاطمية، والخامس لعمائر الدولة الأيوبية، والسادس لبعض النماذج من عمائر دولة المماليك البحرية والسابع والأخير لبعض النماذج من عمائر دولة المماليك الجراكسة.

وقد حرصنا أيضا على تذييل هذه الدراسة بثبت مفصل لأهم المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي اعتمدنا عليها أثناء إعدادنا لهذا الكتاب، كما حرصنا على تزويد هذه الدراسة بعدد كبير من الرسوم التوضيحية للقطاعات الرأسية والمساقط الأفقية لأغلب المنشآت المعمارية التي تعرضنا لها بالدراسة والتحليل في هذا الكتاب قامت بمراجعتها وتبويبها الدارسة سهيلة مصطفى محمود المعيدة بقسم الإرشاد السياحي بكلية الآداب - جامعة عين شمس التي ندين لها بهذا الجهد، وزودت الدراسة أيضا بعدد كبير من الصور الفوتوغرافية لهذه العمائر، التي ندين بأغلبها إلى السيد/ وليد أحمد صلاح الدين المدرس المساعد بقسم الإرشاد السياحي بنفس الكلية والجامعة، الذي كان نعم العون لنا في إعادة تصوير تلك المنشآت الأثرية، فشكرا له على الصور التي أمدنا بها، وعسى أن نكون قد وفقنا في دراستنا هذه والله الموفق.

أ.د. أحمد عبد الرازق أحمد

المعادي/ مارس ٢٠٠٩

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



عمائر عصر الولاة

٢١ - ٢٥٤هـ / ٦٤١ - ٨٦٨م



الفسطاط

استطاع العرب بعد فتحهم مصر الامتزاج فى الشعب المصري مما كان له أكبر الأثر في تغلب الثقافة الإسلامية والدين الإسلامي، كما شجع الخلفاء وفود القبائل العربية إلى مصر مما أفضى بدوره إلى زيادة عدد المسلمين بها، إذ يمكننا أن نقدر جيش الفتح الذى استقر بمصر نحو ستة عشر ألفًا من الرجال، ولا ندري في الواقع كم كان عدد سكان مصر حينذاك، وإن كان ابن عبد الحكم قد أشار أنه كان بها أكثر من ستة ملايين رجل ممن تجب عليهم الجزية، وهذا طبعا باستثناء الشيوخ والنساء والأطفال، وبفرض أن الذين وجبت عليهم الجزية كانوا يمثلون فقط ثلث سكان مصر، فإن هذا يعني بمنتهى البساطة أن عدد سكان مصر وقت الفتح العربي لها كان يقدر بثمانية عشر مليون نسمة، وهذا عدد مبالغ فيه، خاصة ونحن نعلم أن عدد سكانها تحت الحكم البيزنطي أي قبل الفتح كان لا يتجاوز السبعة ملايين نسمة باستثناء الإسكندرية التي بلغ عدد سكانها حوالي ثلاثمائة ألف نسمة.

خلاصة القول أن الفاتحين كانوا يمثلون أقلية ضئيلة بالنسبة لأهل البلاد وفضلاً عن ذلك فإنهم لم يختلطوا بهم، وإنما اختطوا لهم مدينة عربية إسلامية في وسط المحيط المصري المسيحي. والحق أن ظاهرة تخطيط المدن كانت تعد من أهم الظواهر التي سار عليها العرب جنبا إلى جنب مع الفتوحات الإسلامية، وذلك رغبة منهم في إنشاء مراكز إدارية وحربية ودينية في البلاد المفتوحة.

ولقد دخل عمرو بن العاص في بادئ الأمر مدينة الإسكندرية عاصمة مصر قبل الفتح فرآها مدينة عامرة وقصورها فخمة فهمّ أن يسكنها وقال: «مساكن قد كفيناها» وأسرع بالكتابة إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك. فسأل الخليفة رسول عمرو: هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل. فكتب عمر إلى عمرو: إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف. كما روى المؤرخ ابن عبد الحكم أيضًا

أن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمدائن كسرى والي عامله بالبصرة والي عمرو بن العاص وهو نازل بالإسكندرية «أن لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت» ولهذا السبب تحول سعد ابن أبي وقاص من مدائن كسرى إلى الكوفة، وتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط.

فالخليفة عمر رأى بثاقب بصره أن يكون الطريق بين عواصم الولايات الجديدة وبين مركز الخلافة في المدينة المنورة آمنا سهلا ميسورا لا تقطعه موانع طبيعية حتى يسهل عليه إذا لزم الأمر إرسال المدد لها في أي وقت، والإسكندرية كانت بالنسبة له متطرفة وبعيدة عن أن تكون قاعدة متوسطة صالحة لمركز الحكم العربي بمصر، وليس الغرض كما يفهم من عبارته هو خوفه من ركوب البحر أو تأمين طريقه شخصيا عند قدومه إليها. وعلى ذلك تحول عمرو بن العاص عن الإسكندرية إلى الفسطاط، وكان هذا الموقع فضاء ومزارع يحده شرقا جبل المقطم، وغربا نهر النيل، وجنوبًا بركة الحبش، وشمالا جبل يشكر.

وكما جرت العادة لدى العرب اختط عمرو أول ما اختط المسجد الجامع الذي عرف بتاج الجوامع، وبالجامع العتيق، وبجامع عمرو بن العاص. وكان المسلمون يقيمون فيه الصلوات الخمس ويجمعون الجمع، كما كان بمثابة مدرسة دينية يتعلم فيه الناس الدين الإسلامي، ومركز للقضاء. وقد ظل مسجد عمرو المسجد الجامع الوحيد بمصر في عهد الولاة إلى أن شيَّد الفضل بن صالح بن علي العباسي في أثناء ولايته على مصر من قبل الخليفة المهدي جامع العسكر في سنة ١٦٩هـ/ ٨٧٥م. وبعد ذلك اختط عمرو داره بجوار المسجد، حيث عرفت أيضًا بالدار الكبرى وجعل بينهما طريقا، كما اختط حول داره والمسجد أحياء العرب وقبائلهم من قريش والأنصار وأسلم وغفار وجهينة وأهل الراية وغيرهم من أقوام الفرس والروم الذي سبق لهم الدخول في الإسلام وشهدوا مع عمرو بن العاص فتح مصر.

ولقد بدئ في بناء مدينة الفسطاط سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م، أما عن سبب تسميتها بالفسطاط فقد اختلفت الآراء وتنوعت القصص والروايات، ومن أشهرها أنها سميت كذلك نسبة إلى فسطاط عمرو أي خيمته، التي تركها في ذلك المكان عندما أراد التوجه إلى الإسكندرية بعد فتح حصن بابليون، إذ وجد يماما قد فرخ فقال عمرو: «لقد تحرم منا بحرم» وأقر فسطاطه كما هو وأوصى به صاحب القصر، ولما عاد المسلمون من الإسكندرية، قالوا: أين ننزل؟ قال: الفسطاط، أي فسطاطه الذي كان خلفه.

على حين ذهب بعض الباحثين إلى أن كلمة فسطاط هذه مأخوذة من اللفظ اليوناني فساطن، ذلك اللفظ الذي اشتق من اللفظ اللاتيني Fossatum أي العسكر أو الحصن أو الخندق الذي كان عند بابليون ثم حرفه العرب إلى فسطاط بعد ذلك. بيد أن هذا الزعم لا يستند على أي دليل تاريخي، ولا يتفق أيضًا مع منطق الأحداث، ولا سيما أن لفظة فسطاط لفظة عربية كانت تطلق أيضًا على المدينة ومجتمعها، فقد جاء في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط» أي مع المدينة التي بها مجتمع الناس؛ ولذا فمن المرجح أن العرب قد أطلقوا على المدينة التي شيَّدوها في مصر اسم الفسطاط بمعنى المدينة أو الخيمة كما أطلق على البصرة كذلك الاسم نفسه.

وكانت الفسطاط في أول أمرها مدينة متواضعة مشيدة باللبن لا يعلو بنيانها عن الطابق الواحد، بدليل أن خارجة بن حذافة عندما بنى بها غرفة أي دارا مرتفعة وبلغ ذلك عمر بن الخطاب، كتب إلى عمرو بما نصه: «أما بعد فإنه بلغني أن خارجة بن حذافة بنى غرفة، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه، فإن أتاك كتابي هذا فاهدمها إن شاء الله والسلام». وكان هذا يتفق في الواقع مع حياة البساطة التي كان عليها المسلمون حينذاك.

على أن العرب سرعان ما تخطوا البساطة وتوسعوا في البناء، إذ شيَّد عبد الله بن سعد بن أبي السرح والي مصر من قِبَل عثمان بن عفان قصرا كبيرا عرف في المصادر التاريخية باسم قصر الجن، كما ابتنى مروان بن الحكم لنفسه بعد

أن ولي الخلافة دارا عظيمة عند قدومه إلى مصر سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م. كذلك شيَّد بها عبد العزيز بن مروان دارا ضخمة أطلق عليها دار الذهب وجعل لها قبة ذهبية كانت إذا طلعت الشمس عليها لا يستطيع الناظر التأمل فيها خوفًا على بصره، ويقال إن هذه الدار كانت من الضخامة لدرجة أنها سميت بالمدينة لعظم سعتها.

كذلك اشتملت الفسطاط على الميادين والأسواق كما أسس بها المصانع المختلفة والحمامات وغير ذلك مما يصعب علينا حصره في هذا المجال.

ورغم ما تعرضت له الفسطاط أولى عواصم مصر الإسلامية من تدمير خلال الاضطرابات التي تعرضت لها بعد ذلك، فإن المدينة أخذت تنمو حتى أصبحت تثير دهشة الرحالة القادمين من كل مكان، فقد وصفها الإصطخري المتوفى سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م بأنها مدينة كبيرة غاية من العمارة والخصب، كما أشار إلى أن مبانيها بالطوب طبقا، وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثماني طبقات.. على حين ذهب المقدسي المتوفى سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م إلى أن دورها تتألف من أربع طبقات وخمس كالمنائر، يدخل إليها الضياء من الوسط، وأنه يسكن الدار الواحدة نحو مائتي نفس.

أما الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زارها في غضون القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فقد روى أنها تبدو من بعيد كالجبل لارتفاع منازلها التي تتراوح بين سبع طبقات وأربع عشرة طبقة، كما أشار إلى أن شوارعها كانت تضاء نهارا بالقناديل لأن ضوء الشمس كان لا يصل إلى أرضها.

كذلك حدثنا القضاعي أنه كان بالفسطاط إبان القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أيضًا ستة وثلاثون ألف مسجد، وثمانية آلاف شارع مسلوك، وألف ومائة وسبعون حماما.

ومن الملاحظ أنه رغم بناء عواصم أخرى لتصبح مقرا للحكم بمصر فقد ظل للفسطاط مكان الصدارة والأهمية، وظلت تزدحم بالسكان، وكان ساحلها عامرا بالمراكب الصاعدة والنازلة والراسية، كما كان بها داران للصناعة، ونعني بهما

صناعة السفن، هما صناعة الروضة وصناعة الفسطاط، وقد دهش المقدسي أثناء وجوده بها من كثرة المراكب التي رآها راسية وسائرة بها.

والحق أن المتتبع لتاريخ هذه المدينة سوف يلاحظ أنها تعرضت لكثير من التخريب والتدمير إذ منيت بأول محنة عندما فر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أمام جيوش العباسيين إلى مصر سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م وعندما اضطر إلى الانسحاب من الفسطاط أمر بإحراقها.

كذلك تعرضت المدينة للنهب عندما قدم محمد بن سليمان على رأس الجيوش العباسية سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م بهدف القضاء على الدولة الطولونية، إذ نهب أصحابه الفسطاط.

ويفهم أيضًا من المصادر التاريخية أن المدينة تعرضت مرارا للنهب على يد جنود الفاطميين وخصوصا في زمن الخليفة الحاكم بأمر الله، والخليفة الظاهر ومع هذا فإن أخطر ما تعرضت له الفسطاط من محن كان في أيام الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر بسبب الأزمة الاقتصادية العنيفة التي استمرت سبع سنين من سنة ٤٥٧ - ٤٦٤هـ/ ١٠٦٥ - ١٠٧١م، حيث تخربت الفسطاط كثيرا، كذلك في أثناء الفتنة التي نشبت بين شاور وضرغام وزيري العاضد آخر خلفاء الفاطميين عندما أمر شاور بإخلائها في سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م وبعث إليها بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار، وفرق ذلك فيها لمنع الجيش الصليبي بقيادة عموري ملك بيت المقدس من الاستيلاء على مصر، حيث استمرت النيران مشتعلة فيها لتمام أربعة وخمسين يوما.

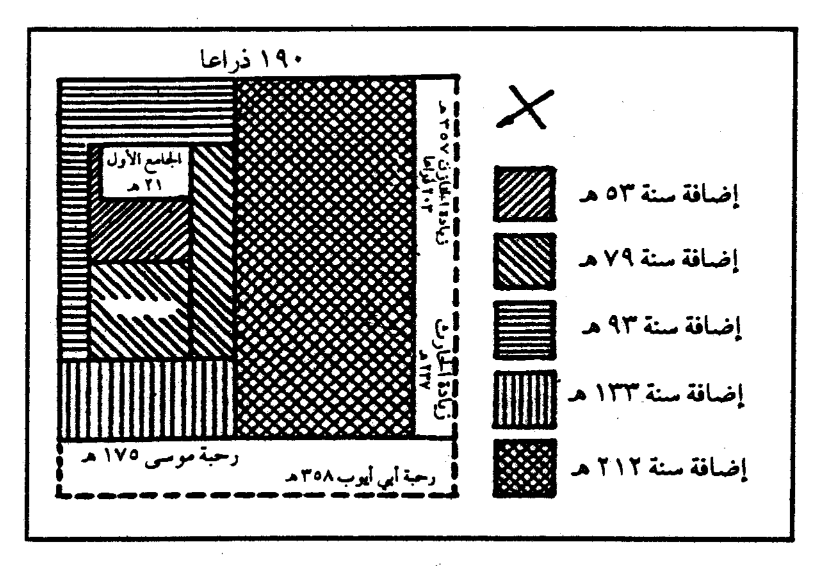
ومن وقتها أفل نجم المدينة رغم أن صلاح الدين الأيوبي حاول أن يجمع بين القاهرة وما بقي من الفسطاط بسور واحد، إذ تحولت الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن بكيمان مصر، وحسبنا دليلا على ما أصاب المدينة من تدهور ذلك الوصف الذي خلفه لنا الرحالة المغربي علي بن سعيد الذي زار مصر في سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م، إذ يقول: ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرة وتأملت أسوارا مثلمة سوداء، وآفاقا مغبرة، ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضي إلى

خراب مغمور بمبان مشتتة الوضع، غير مستقيمة الشوارع، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف، ويغض طرف الظريف».

وهكذا ساءت أحوال أولى عواصم مصر الإسلامية وتحولت إلى أكوام من التراب وتلال من الأنقاض حتى أتاح الله لهذا العالم الأثري علي بهجت والمهندس الفرنسي ألبير جبرييل فكشفا فيها بين عامي ١٩١٢، ١٩٢٠ عن أجزاء ليست بقليلة من مخلفات تلك المدينة البائدة التي لم يتخلف عن بقاياها سوى جامع عمرو.

جامع عمرو بن العاص

هو أول جامع أنشئ في مصر الإسلامية، شيده عمرو بن العاص بعد فراغه من فتح الإسكندرية في سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م على شاطئ النيل في منطقة بها أشجار وكروم، وكان غاية في البساطة يشغل مساحة طولها ٥٠ × ٣٠ ذراعا، أي ما يقرب من ٢٩ × ١٧م.



شكل (١)

جامع عمرو بن العاص، الإضافات المتعاقبة التى طرأت عليه. عن كمال الدين سامح

يطيف به الطريق من كل جهة وجعل له بابان يقابلان دار عمرو في الجهة الشمالية التي كان يفصلها عنه طريق عرضه سبعة أذرع، أي حوالي أربعة أمتار. وبابان في غربه، وبابان في جنوبه، وكان سقفه مطأطأ جدا ولا صحن له ولا مئذنة، أما محرابه فلم يكن مجوفا، وقد وقف على تحديده ثمانون صحابيا، ومع ذلك فقد جاء مائلا في اتجاه الشرق. وقيل أنه بعد أن فرغ عمرو من بنائه اتخذ له منبرا من عمل بقطر النجار من أهل دندرة، يخطب عليه فكتب إليه الخليفة عمر ابن الخطاب يأمره بكسره قائلا: «أما يكفيك أن تقوم قائمًا والمسلمون جلوس تحت عقبيك» فكسره. وقيل أيضًا أنه أعاده بعد وفاة عمر.

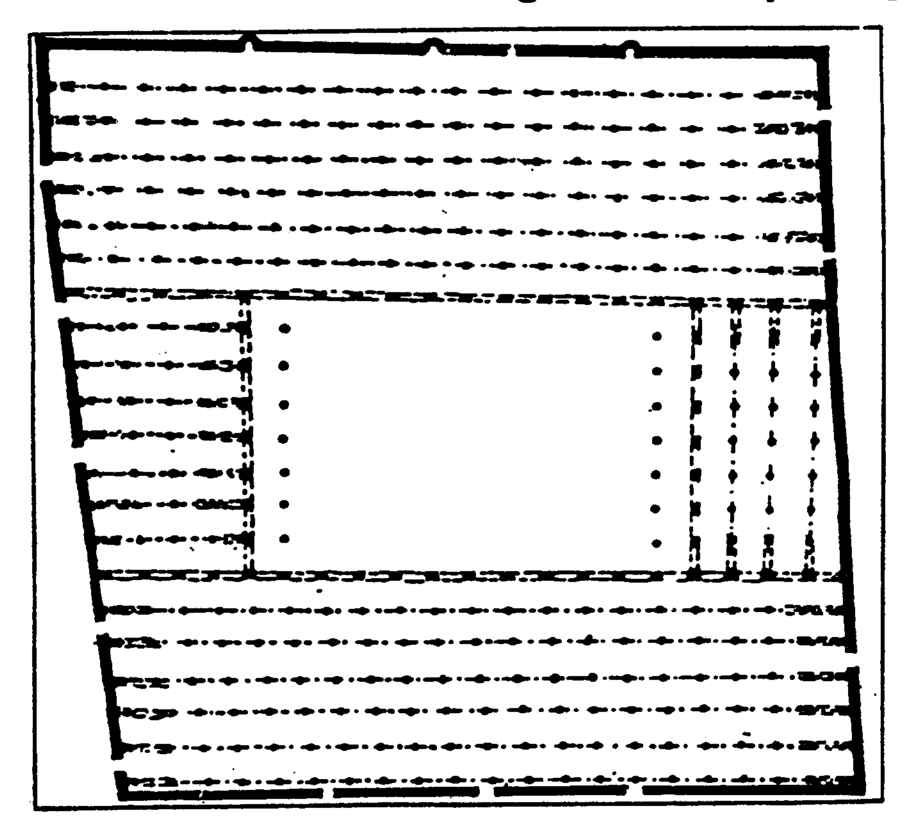
وما زال الولاة والحكام يتناولون مسجد عمرو على تعاقب السنين بالزيادة والتعمير والتجديد حتى بلغت سعته أضعاف الجامع العتيق الذي لم يبق منه سوى قطعة الأرض التي شُيِّد عليها. وأول من زاد فيه هو مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر من قِبَل معاوية بن أبي سفيان في سنة ٥٣هـ/ ٦٧٣م، وذلك عندما ضاق المسجد بأهله، فزاد فيه من الجهة الشمالية مما يلي دار عمرو بن العاص، ومن الجهة الغربية، وجعل له رحبة في تلك الجهة، كان الناس يصيفون فيها، ولاطه بالنورة وزخرف جدرانه وسقفه، وجعل له أربع صوامع في أركانه الأربعة، نقش عليها اسمه، وأمر مؤذني الجامع أن يؤذنوا الفجر إذا مضى نصف الليل وألا يضرب بناقوس عند أذان الفجر، كما فرشه بالحصر بعد أن كان مفروشًا بالحصباء.

وفي سنة ٧٩هـ/ ٦٩٨م أزال والي مصر عبد العزيز بن مروان جدرانه ووسعه من ناحية الجنوب وأدخل فيه الرحبة التي كانت في غربه، كذلك أمر عبد الله بن مروان والي مصر من قِبَل أخيه الوليد برفع سقف الجامع وكان مطأطأ وذلك في غضون سنة ٨٩هـ/ ٧٠٨م.

وبعد ذلك بثلاث سنوات أمر قرة بن شريك العبسي بهدم الجامع وإعادة بنائه من جديد، استجابة لأوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك وفرغ من ذلك في سنة ٩٣هـ/ ٧١٢م، بعد أن زاد فيه من ناحية الشرق وناحية الشمال بعد أن أدخل فيه دار عمرو وبعضا من دار ابنه عبد الله وبقايا الطريق الذي بين المسجد وبينهما،

ونصب فيه منبرا جديدا من الخشب في العام التالي بدلا من منبر عبد الله بن سعد ابن أبي السرح، كما أمر بعمل المحراب المجوف على غرار المحراب الذي عمره عمر بن عبد العزيز في المسجد النبوي بالمدينة، وذهب تيجان الأعمدة الأربعة التي تتقدمه، وفتح فيه أحد عشر بابا، أربعة في شماله ومثلها في جنوبه وثلاثة في غربه، وأضاف إليه مقصورة على غرار مقصورة معاوية لمسجد دمشق.

وفي خلافة سليمان بن عبد الملك بنى أسامة بن زيد التنوخي، متولي الخراج بمصر، في سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م بيت المال الذي يعلو الفوارة التي أضيفت إلى الجامع في أيام العزيز بالله الفاطمي في سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م، ويعتقد أن هذا النوع من المباني كان مخصصا لإيداع أموال اليتامى.



شكل (٢)

جامع عمرو بن العاص بعد إضافة عبد الله بن طاهر، مسقط أفقي. عن فريد شافعي

وفي سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠م أدخل فيه صالح بن علي دار الزبير بن العوام التي كانت تشغل الركن الشمالي الغربي من الجامع، وأضاف بابا خامسا في الجدار الشمالي عرف بباب الكحل لأنه يقع في مواجهة زقاق الكحل. وقد ظل الجامع على هذا النحو حتى أضاف إليه موسى بن عيسى الهاشمي والي مصر من قِبَل الرشيد في سنة ١٧٥هـ/ ٧٩١م نصف الرحبة المعروفة بأبي أيوب التي كانت تقع في مؤخرة المسجد بالجهة الغربية.

وفي ربيع الأول سنة ٢١٢هـ/ يونيو ٨٢٦م قام عبد الله بن طاهر بإضافة مساحة جديدة إلى المسجد من ناحية الجنوب تعادل مساحته التي كان عليها، وهي خاتمة الزيادات بالجامع الذي أصبحت مساحته الحالية ١٢٠,٥ × ١١٢,٥م.

وإلى جانب تلك الإضافات شهد جامع عمرو بن العاص العديد من أعمال التجديد والتعمير، لعل أهمها تلك الأعمال التي قام بها خمارويه بن أحمد بن طولون في سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م وأنفق عليه ستة آلاف وأربعمائة دينار، كما أضاف إليه الوزير يعقوب بن كلس بأمر من الخليفة الفاطمي العزيز بالله الفوارة التي تحت قبة المال في سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م، كما سبق أن نوهنا من قبل، ونصب فيه حباب للماء من الرخام.

وفي سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م أهداه الخليفة الحاكم بأمر الله تنور من الفضة زنته مائة ألف درهم فضة. وفي رواية أخرى خمسة وعشرون قنطارا، لم يتسع له باب من أبواب المسجد لكبره فخلعوا واحدا وأدخلوه فيه ثم ردوا الباب مكانه.

وفي عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م تصدعت جدران جامع عمرو نتيجة للحريق الذي أشعله الوزير شاور في مدينة الفسطاط فأصلحه صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م وجدد بياضه وجلا عمده وأصلح رخامه.

وشهد الجامع أيضًا العديد من الإصلاحات والإضافات في أيام سلاطين المماليك لعل أهمها ما قام به السلطان عز الدين أيبك والسلطان الظاهر بيبرس الذي أبطل جريان الماء إلى الفوارة، ثم أعيد جريانه إليها ثانية في أيام السلطان المنصور قلاوون من البئر التي بزقاق الأقفال في سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م، كما قام

الأمير سلار بعمارة الجامع عقب زلزال سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م، وهي العمارة التي تخلف عنها الشبابيك الجصية الموجودة بالواجهة الغربية والمحراب الجصي الخارجي الذي عمل برسم المالكية، وكان يشتمل على شريط من الكتابات العربية بخط النسخ المملوكي، وقد تهشم في الإصلاحات الأخيرة بالجامع وصمم محرابا آخر على نمطه.

ويمدنا بعض مؤرخي عصر سلاطين المماليك بوصف مفصل لجامع عمرو في سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م يفهم من أنه كان يشتمل على أربع وعشرين بلاطة، سبع في ناحية الشرق ومثلها في الغرب وخمس في شماله ومثلها في جنوبه، وكان فيه ثلاثمائة وثمانية وسبعون عمودا، وبصدره (أي في رواق القبلة) ثلاثة محاريب، وذكروا أيضًا أنه كان يشتمل على ثلاثة عشر بابا لكل منها اسم يخصه، واحد في جانبه الشرقي يعرف بباب الزنزلختة نسبة إلى شجرة ضخمة كانت بجواره، وثلاثة في جداره الغربي، وخمسة في جداره الشمالي وأربعة في جداره الجنوبي، كما كان فيه خمس مآذن، اثنتان في الشرق: عرفة في الجنوب الشرقي والكبير في الشمال الشرقي، وثلاث في الغرب: المستجدة في الجنوب الغربي والسعيدية في الوسط والجديدة في الشمال الغربي.

ويحدثنا الجبرتي بدوره عن بعض الإصلاحات التي شهدها جامع عمرو في أيام مراد بك، الذي قام في سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٨م بتعديل رواق القبلة فهدم بائكاته وأعاد بناءها مع تغيير اتجاهها الذي كان يوازي جدار القبلة في الأصل وجعله يتعامد عليه دون مراعاة لوضع الشبابيك بهذا الجدار مما أفضى إلى تقابل عقود بعض البائكات الجديدة بفتحات النوافذ في جدار القبلة، وتطلب الأمر سد جميع النوافذ وحرمان هذا القسم من الضوء. كما شيِّد به مئذنتين هما الباقيتان إلى الآن، وأثبت تاريخ هذه العمارة في ألواح تاريخية فوق الأبواب الغربية وللمحرابين الكبير والصغير برواق القبلة.

وهكذا توالت أعمال الإصلاح والتجديد في جامع عمرو حتى وقتنا الحالي، إذ يشهد الجامع أكبر عملية تعمير تقوم بها هيئة الآثار المصرية، نرجو أن تنتهي في القريب العاجل حتى يعود لهذا الجامع رونقه وعظمته ولا سيما أنه لم يتبق منه

سوى بعض العناصر المعمارية التي ترجع إلى أصوله الأولى مثل العقود المدببة التي أصبحت من مميزات العمارة الإسلامية ونجدها في الشبابيك الصغيرة برواق القبلة، كما استخدمت لـلطواقي الزخرفية الخاصة بالحنيات التي نقشت بين الشبابيك في أعلى الجدار الجنوبي، كـذلك الضريح المنسوب إلـى عبد الله بن عمرو في الركن الشمالي الشرقي من المسجد الذي قيل أنه قُبِر في داره بعد وفاته بيد أننا لا نستطيع أن نسـلم بصحة هـذا الرأي لعدة أسبـاب منها أن دار عـبد الله بن عمرو لم تكن تشـغل مكان الضـريح بل كانت إلى الغرب مـنه، كما أن هذا الـركن كان يشغله المنارة المعروفـة بالكبير، هذا فـضلاً عن أن الرحالة عبد الـغني النابلسي الذي زار الجامع وتجول فيه إبان سنة ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م لم يشر إلى هذا الضريح من قريب أو بعيد، ولا ننسى أيضًا طراز القبة المتأخر.

بقي أن نشير في النـهاية إلى أن جامع عمرو لم يـقتصر على أداء الفرائض الدينية فحسب، بل كانت تـعقد فيه حلقات العلـم التي بلغت في منتصف القرن الرابع الهجري/ العـاشر للميلاد، مائة وعشر حلـقات، خصص بعضها للسيدات التي تصدرتها في سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م واعظة زمانها أم الخير الحجازية، كما كان يـعقد فيه مجالس القضاء أو مجـالس القصص، الأمر الذي جعل منه أقدم جامعة علمية في مصر الإسلامية بمعنى أنه يسبق الأزهر في هذا المجال بنحو ستمائة عام.

العسكر

والحديث عن منشـآت عصر الولاة يحتم عـلينا الإشارة إلى مديـنة العسكر ثاني مدن مصر الإسلامية، إذ من المعروف أن مـدينة الفسطاط ظلت عاصمة لمصر حتى دخلت جيوش العـباسيين تطارد مروان بن محمـد آخر خلفاء بني أمية، كما سبق أن أشـرنا من قبل، حيث نزلت هذه الجيوش بقيادة صالح بن علي في شمال شرقي الفسطاط، أي في المنطقـة المعروفة بالحمراء القصوى التي كان يسكنها الروم الذين قدموا مع عمرو بن العاص والتي صارت صحراء جرداء.

وبعد هزيمة مروان بن محمد وقتله في أبوصير أصبحت الخلافة خالصة لبني العباس، عندئذ أمر صالح بن علي بـالبناء في هذا المكان فبنوا وكان ذلك في عام

١٣٣هـ/ ٧٥٠م. وكان حد هذه المدينة من الجنوب عند كوم الجارح، حيث تمتد الآن قناطر مجرى العيون، ومن الشمال شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب، حيث قناطر السباع أم المشهد الزينبي، ومن الغرب شارعا السد والديورة، ومن الشرق خط تصوري يمتد من جوار خانقاة سلار وسنجر الجاولي بشارع مراسينا إلى باب السيدة نفيسة.

وقد شيِّد في العسكر دار للإمارة ظل ينزلها الولاة العباسيون، كما أذن السري بن الحكم بعد ولايته سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٦م، للناس في البناء فابتنوا حيث اتصل بناء العسكر ببناء الفسطاط. كذلك شيَّد بها الفضل بن صالح بن علي مسجدا جامعا في سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م، لم يكتب له بكل أسف البقاء طويلا وأصبحنا نجهل موقعه من المدينة وكذا معالمه.

ومن المعروف أيضًا أن العسكر ثاني عواصم مصر الإسلامية أصبحت مقرا لشرطة خاصة غير شرطة الفسطاط، عرفت بالشرطة العليا، وبذا صارت مدينة ذات محال وأسواق ودور عظيمة لم يبق من أطلالها الشيء الكثير.

والحق أن مدينة العسكر ظلت مقرا لولاة العباسيين حتى قدم أحمد بن طولون إلى مصر فسكنها مدة، ثم تحول عنها إلى مدينة القطائع التي شيَّدها إلى الشمال الشرقي منها، فلما زالت الدولة الطولونية وخربت القطائع، عاد ولاة مصر للنزول بالعسكر من جديد حتى دخل جوهر الصقلبي مصر وبنى مدينة القاهرة سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م فتحول مركز الحكم إليها.

ويفهم من رواية أحد المؤرخين أن السبب في بناء العسكر يرجع إما لكره العباسيين أن ينزلوا في العاصمة القديمة الفسطاط وأنهم فضلوا إقامة عاصمة جديدة لهم. أو ربما لأن الحريق الذي أشعله مروان بن محمد خرب دار الإمارة بالفسطاط، وهو رأي له وجاهته في الواقع، وإن كنا نميل إلى الترجيح بأن السبب الرئيسي في بناء هذه العاصمة مرجعه إلى الرغبة في إيواء جند العباسيين القادمين لفتح مصر، لأن الفسطاط وخططها كانت آهلة بمن فيها، فاختاروا موضعا خاليا لإقامة خططهم فيه خارج الفسطاط، مع ملاحظة أن منطقة العسكر كانت في

الـواقع جزءا من الفسطاط درس كـما سبق أن أشرنا من قبل لـسبب نجهله تماما. وعلى هذا فإن ضـيق الفسطاط عن استـيعاب هذا العدد الكـبير من الجند كان هو الدافع إلى إقامة العسكر كثكنة للجند أولا كما هو واضح من اسمها، ثم شيِّد بها دار الإمارة فيمـا بعد، ولم يبن المـسجد الجامع فـيها إلا فى سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م أثناء ولاية الفضل بن صالح بـن علي، أي بعد بناء العـسكر بست وثلاثين سنة، ومن هذا الوقت فقط يمكننا القول بأن الـعسكر صارت مدينة مستقلة عن الفسطاط لأنه حسب رواية المقدسي «لا مدينة إلا بمنبر» أي بمسجد جامع.

ويعد هـذا الجامع ثاني مسـجد جامع أقـيم في مصر الإسلاميـة بعد جامع عمرو بن العـاص، وقد بقي على حاله حتى ولي مصر عبد الله بن طاهر في ربيع الأول سنة ٢١٢هـ/ يونيو ٨٢٦م، فجدده وزاد فيه وصار الناس يصلون فيه الجمعة حتى قام أحمد بن طـولون بتشييد مسجده في مـدينة القطائع فانصرفوا عنه، ومع هذا فقد ظل باقيا حتى سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م ثم أصبح بعدها أثرًا بعد عين وكان يعرف بجامع ساحل الغلة.

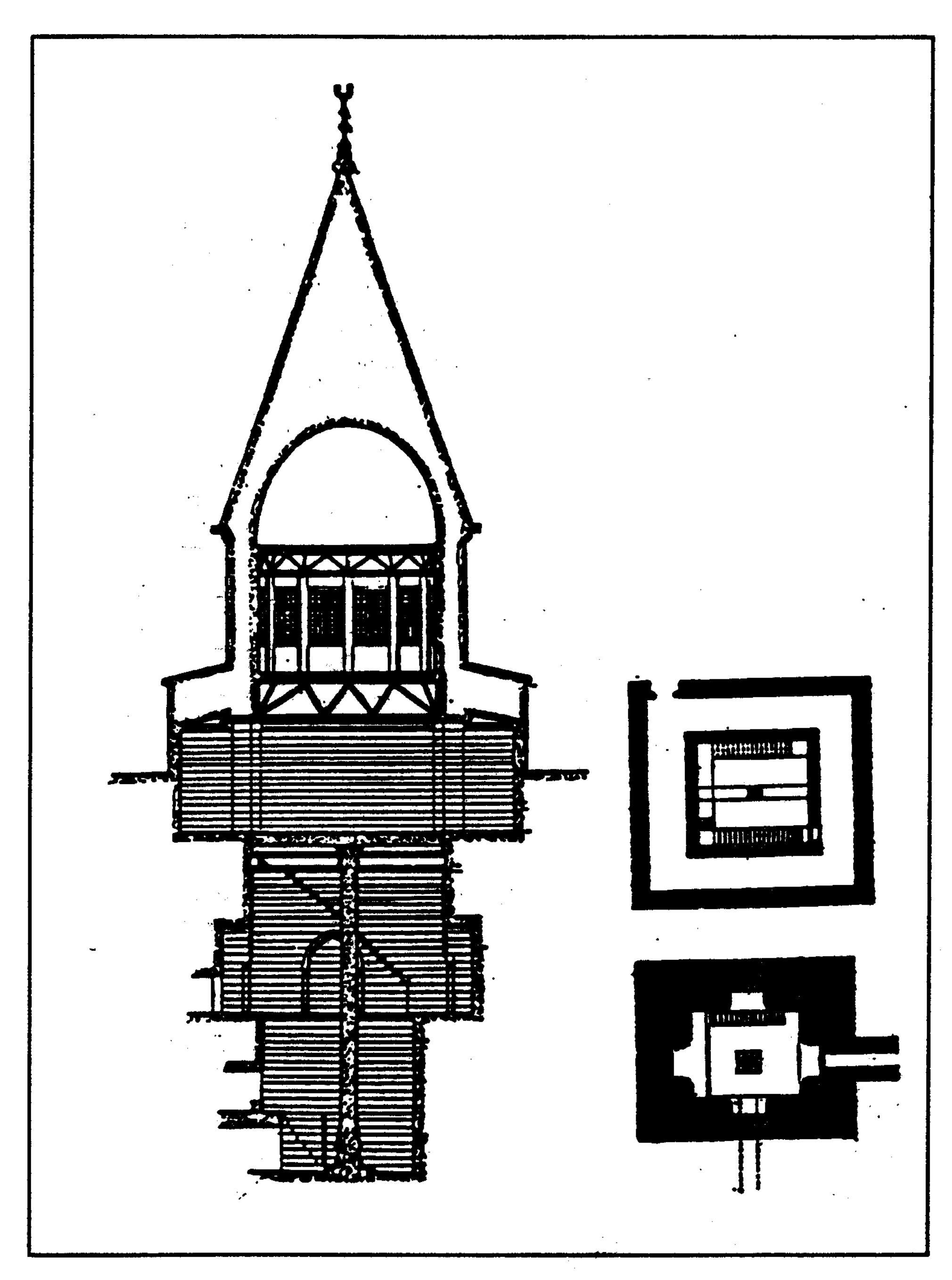
مقياس النيل بالروضة

ومن منشـآت عصر الولاة نشير أيضًا إلى مقياس النيل بجزيرة الروضة، فقد عرف المصريون منذ أقـدم العصور تشيـيد المقاييس في شتى أنحـاء البلاد ليتعرفوا عـلى ارتفاع النيل نظرًا لعلاقته الوثـيقة بري الأرض وتحصيل الخراج. هذا وتفيض المصادر الـعربية بالعـديد من الروايات عن إنشاء المـقاييس في مصر قبل الإسلام، لعـل أطرفها ما روي بصدد خصـيلم السابع أحد ملوك مـصر بعد الطوفان، الذي روى أنه صنع بـركة لطـيفة وركب علـيها صـورتي عقاب من نـحاس ذكر وأنثى يجتمع عنـدها كهنتهم وعلمـاؤهم في يوم مخصوص من الـسنة ويتكلمون بكلام فـيصفر أحد العقابين، فإن صفر الـذكر استبشروا بزيادة النيل، وإن صفرت الأنثى استشـعروا عدم زيادته وهيئوا ما يحتاجـون إليه من الطعام لتلك السنة، على حين ذهب ابن عبد الحكم إلى أن يـوسف - عليه السلام - هـو أول من وضع مقياسا بمنف، ثم أنشأت الـعجوز دلوكة مـقياسين أحـدهما في أنصنـا والآخر بأخميم. وتشير المصادر العربـية أيضًا إلى العديد من المقايـيس التي أنشئت بمصر بعد الفتح

العربي لها بعضها من إنشاء عمرو بن العاص مثل مقياس أسوان ومقياس دندرة، وبعضها من إنشاء معاوية بن أبي سفيان مثل مقياس (أنصنا) الذي بقي مستخدما حتى شيَّد عبد العزيز بن مروان مقياسًا غيره بحلوان في سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م. كما بنى أسامة ابن زيد التنوخي عامل الخراج مقياسا كبيرا في جزيرة الروضة في خلافة الوليد عام ٩٢هـ/ ٧١١م، أبطل الخليفة سليمان بن عبد الملك العمل به فأقام أسامة بن زيد مقياسًا آخر في سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م.

وفي سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م أمر الخليفة المتوكل على الله بإنشاء المقياس الحالي الذي عرف بالهاشمي، أو بالمقياس الجديد، أو بالمقياس الكبير، أو بمقياس الروضة إذ يذكر المؤرخ ابن خلكان أن اسم الخليفة المتوكل كان منقوشًا في شريط من الحجر يحيط بأعلى فوهة البئر ويحمل تاريخ رجب سنة ٢٤٧هـ/ سبتمبر ٨٦١م، وأنه شُيِّد على يد أحمد بن محمد الحاسب. ومع هذا فقد ذكر البعض أن الذي بنى المقياس هو مهندس عراقي استقدم خصيصا لهذا الغرض اسمه محمد بن كثير الفرغاني، وذلك في ولاية يزيد بن عبد الله التركي، وقيل أيضًا أن اسمه ابن كاتب الفرغاني وأنه كان قبطيًا. بيد أن كريسويل عارض هذا الرأي على أساس أن هذا الرجل ينتسب إلى فرغانة التي كانت جزءا من أعمال فارس، تركستان الروسية في الوقت الحالي، ومن ثم فلا يمكن أن يكون قبطيا، كما زعم أن أحمد بن محمد الحاسب وأحمد بن كثير الفرغاني ما هما إلا شخص واحد، في الوقت الذي زعم فيه بوبر أن أحمد بن محمد الحاسب ما هو إلا أحمد بن المدبر الذي ولي خراج مصر، مما جعل الشك والغموض يحيطان بشخصية هذا المهندس ولا سيما أن النص الذي أشار إليه المؤرخ ابن خلكان قد فقد أثناء إصلاحات أحمد بن طولون بالمقياس، كما أنه لم يذكر صراحة أن أحمد بن محمد الحاسب كان مهندسًا الأمر الذي يدفع إلى الترجيح بأنه كان أيضًا مشرفا إداريا أو ماليا، خاصة ونحن نعلم أن أحمد هذا كان أحد مشاهير علم الحساب وخلف لنا كتاب الجمع والتفريق.

خلاصة القول أن هذا المقياس الذي يشغل الطرف الجنوبي الشرقي من جزيرة الروضة، يعد من أهم آثار عصر الولاة التي احتفظت حتى الآن بكثير من



شكل (٣)

مقياس النيل بالروضة، مسقط أفقي وقطاع، عن برندنبرج

معالمها الأثرية وهو عبارة عن عمود رخامي مدرج ومثمن القطاع، يتوسط بئرًا مربعة مشيدة بأحجار مهذبة، روعي في بنائها أن يزيد سمكها كلما زاد العمق فقد شيدت البئر من ثلاث طبقات السفلى على هيئة دائرة، يعلوها طبقة مربعة ضلعها أكبر من قطر الدائرة، والمربع العلوي والأخير ضلعه أكبر من ضلع المربع الأوسط. وهذا التدرج في سمك الجدران يدل على معرفة المسلمين بالنظرية الهندسية الخاصة بازدياد الضغط الأفقي للأتربة كلما زاد العمق إلى أسفل.

ويجري حول جدران البئر من الداخل درج يصل إلى القاع، ويتصل المقياس بالنيل بواسطة ثلاثة أنفاق يصب ماؤها في البئر من خلال ثلاث فتحات في الجانب الشرقي بعضها فوق بعض حتى يظل الماء ساكنا في البئر، صممت واجهاتها على هيئة دخلات غائرة في الجدران يعلوها عقود مدببة ترتكز على أعمدة مندمجة في الجدران ذات تيجان وقواعد ناقوسية أو رومانية مقلوبة.

ويقوم في وسط البئر عمود من الرخام يعلوه تاج روماني مركب يبلغ طوله تسعة عشر ذراعا حفر عليه علامات القياس بالأذرع والقراريط، يقوم فوق قاعدة من الخشب من جذوع النخيل. ومثبت من أعلى بواسطة كمرة أو رباط من الخشب المجوف المحشو بالرصاص، عليه كتابات كوفية، يرتكز على جدران البئر من الداخل المزينة في أعلاها بكتابات كوفية أيضًا تشتمل على آيات قرآنية، تعد أقدم أمثلة الكتابات الأثرية في عمائر مصر الإسلامية، خاصة في الجانب الشمالي والجانب الشرقي، أما الكتابات المنقوشة في الجانبين الجنوبي والغربي فهي ترجع إلى أيام أحمد بن طولون الذي قام بإصلاح المقياس في سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م، وأنفق عليه ألف دينار. ومن وقتها تناولت مقياس الروضة يد الإصلاح والتجديد فقد عهد الخليفة المستنصر إلى وزيره بدر الجمالي بتجديد المقياس فأتم ذلك في سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م وبنى مسجدا في جانبه الغربي عرف بمسجد المقياس.

وتتحدث المصادر أيضًا عن قيام السلطان الظاهر بيبرس البندقداري بإضافة قبة فوق بئر المقياس في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر للميلاد، كما تشير إلى بعض الإصلاحات التي تمت في عهد السلطان الأشرف قايتباي. كذلك شهد

المقياس العديد من الإصلاحات التي تمت في عهد السلطان الأشرف قايتباي. وشهد المقياس أيضًا العديد من الإصلاحات في العصر العثماني على يد كل من السلطان سليم الأول والسلطان سليمان الأول والسلطان سليم الثاني وإن كانت المصادر قد ضنت علينا بطبيعة تلك الأعمال وتاريخها، في الوقت الذي أشارت فيه إلى قيام علي بك الكبير ببعض الإصلاحات في عام ١١٣٣هـ/ ١٧٢١م وإلى قيام حمزة باشا والي مصر بتجديد الرباط الخشبي الذي يثبت عمود المقياس من أعلى في سنة ١١٧٠هـ/ ١٧٥٦م.

وحظي المقياس كذلك بنصيب وافر من جهود الحملة الفرنسية التي قامت في سنة ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م بتنظيف بئر المقياس من الطمي المتراكم في قاعه، كما قامت بإضافة قطعة من الرخام مقدارها ذراع إلى عمود المقياس وتاج جديد، ونقشت تاريخ سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م على واجهته الشرقية.

وفي سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م قامت وزارة الأشغال العمومية بتنظيف بئر المقياس مرة ثانية من الطمي المتراكم بداخله، حيث عثر بقاعه على أجزاء من أعمدة القبة التي كانت تعلو البئر وعلى قطعة الرخام التي أضافتها الحملة الفرنسية إلى بدن العمود. وقامت أيضًا بإصلاح جوانب البئر واستبدلت تاج العمود بآخر يشبهه وسجلت تلك الأعمال على لوحة رخامية تحمل تاريخ سنة ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م، وضعت بأعلى الجانب الغربي للبئر. وبعد هذه الإصلاحات هبط عمود المقياس بمقدار ثلاثة سنتيمترات ثم ستة سنتيمترات فقامت مصلحة المباني وتفتيش ري الجيزة بالاشتراك مع لجنة حفظ الآثار العربية باتخاذ الاحتياطات اللازمة لإيقاف الهبوط في سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م، كما أقيم في السنوات الأخيرة فوق المقياس قبة خشبية مخروطية الشكل يزينها زخارف ملونة.

وقد ظل النصارى يتولون قياس النيل حتى بناء الخليفة المتوكل لمقياس الروضة فأمر بعزلهم وتعيين مسلم للقيام بهذا العمل فاختير عبد السلام بن الرداد المؤذن وأجرى عليه صاحب الخراج سبعة دنانير، وبقي هذا العمل في ذريته من بعده.

وكـان بلوغ الـنيل ستـة عشر ذراعًـا يعد بـشيرا بـوفاء النـهر وإيذانًـا ببدء الاحـتفالات التي اختلفت من عصر لآخـر، فقد جرت العادة أن ينادي على زيادة النيـل كل يوم من أواخر شهر بـؤونة، حتى أمر الخـليفة المعـز لدين الله الفاطمي بإبـطال النداء في شوال سـنة ٣٦٢هـ/ يوليو ٩٧٣م، حتـى تصل الزيادة إلى ستة عشر ذراعًا منعًا لاحتكار الأقوات وتخزينها في حالة عدم الوفاء. بيد أن هذا المنع لم يستمر طـويلاً فقد روى الرحالة الفارسي نـاصر خسرو الذي أقام في مصر في الفـترة ٤٣٩ - ٤٤٢هـ/ ١٠٤٧ - ١٠٥٠م أنه من أول يـوم للـفيـضان يـطوف منـادون في المدينة بـأن الله تعالى قد زاد النـيل إصبعًا ويـذكرون مقدار زيادته كل يوم، وحين تبلغ الزيـادة ذراعًا كاملا تضرب البشائـر ويفرح الناس. كما ذكر ابن مماتي أن النيل «يُقاس في الخامس والعشرين من بؤونة وينادى به».

وبعد الـزيادة يعلق على الشباك الكبير في الجهة الشرقية من دار المقياس ستر أصفر فيعلم الناس بالوفاء. وفي ليلة الوفاء يجتمع قُرّاء القرآن الكريم بدار المقياس ويـتناوبون القراءة طوال الليل، كما يحـضر المغنون الذين يغنون لمن يكون موجودًا في دار المقيـاس طوال الليل. وفي صـباح اليوم التـالي يبدأ الاحتفـال بوفاء النيل بـحضور الحاكم أو من يقوم مقامه، وفي خدمته كـبار رجال الدولة وأعيان المملكة في الحراريق المزينة بالأعلام والسناجق وسائر أنواع الزينات حتى يصل الموكب إلى دار المقياس، وهناك يعمل سماط حافل بـالشواء والحلوى والفاكهة يحضره الحاكم وكبار رجال الـدولة، ويتخـاطف العامـة السماط ولا يمـنع أحد عن ذلك. وبعد الـفراغ من الطعام يتم تخـليق المقياس، ذلك التـعديل الذي أدخل على احتفالات وفاء النيل في الـعصر الفاطمي، حيث يذاب الـزعفران والمسك في إناء من الفضة ويعطى لابن أبي الرداد الذي يـلقي بنفسه في فسقية المقياس وعليه غلالة وعمامة، فيتعلق بعامود المقياس برجله ويده اليسرى ويخلقه بيده اليمنى. والقراء من الجانب الآخر يقرأون القـرآن نوبة نوبة. وكان يعقب تخلـيق المقياس احتفال آخر هو كسر الخليج الذي كان يتم في أول الأمر ثـالث يوم التخليق أو رابعه، ثم أصبح تخليق

المقيـاس وكسر السـد يتم في يوم واحـد، حيث يمسك الحـاكم بمعول من الذهب الخـالص ويضرب السد ثلاث ضربـات، ثم يأتي جمع غفيـر من الناس بفؤوسهم فيحفرون هذا السد حتى يجري الماء في الخليج. وقد ظلت مظاهر الفخامة والأبهة تحيط باحتفالات وفاء النيل وكسر الخليج حتى أواخر عصر سلاطين المماليك.

* * *





عمائر الدولة الطولونية

٢٥٤ - ٢٩٢هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥م



القطائع

بعد وصول أحمد بن طولون إلى مصر نزل في دار الإمارة بمدينة العسكر العباسية، ومكث فيها على مدى عامين حتى ضاقت به وبأتباعه بعد أن استكثر من العبيد والرجال؛ لذلك شرع في غضون سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م في تأسيس مدينة جديدة لتكون مقرا جديدا لحكومته ورجال دولته، أراد بها أن يشبع طموحه نحو الترف والأبهة الذى عايشه شطرا من شبابه الباكر في مدينة سامراء حاضرة الخليفة المعتصم التي بقيت صورتها ماثلة في ذهنه، وأراد أن تكون عاصمته الجديدة أشبه شيء بالبيئة التي نشأ وترعرع فيها. فركب إلى جبل المقطم ونظر إلى ما حوله، فرأى إلى الشمال الشرقي من العسكر بقعة من الأرض مساحتها ميل مربع، لا شيء فيها من العمارة سوى بضعة قبور لليهود والنصارى فأمر بحرثها، واختط فى موضعها مدينته الجديدة، وبنى القصر والميدان وأذن لأصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة العسكر والفسطاط، وأقطع كل جماعة منهم قطيعة سميت باسم من سكنها، فكانت للنوبة قطيعة، وللروم قطيعة، وللفراشين قطيعة؛ لذلك سميت بالقطائع، وكان يخترق المدينة شارع كبير يصل بين قصره وجامعه الذي شيده فوق جبل يشكر سمي الشارع الأعظم تشبيها له بالشارع الأعظم الذي كان يخترق سامراء ويمتد عدة كيلومترات إلى قصر بلكورا وجامع أبي دلف في شمال سامراء، وتفرقت فيها السكك والأزقة، وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران وسميت أسواقها، فقيل سوق العيارين، وكان يجمع العطارين والبزازين، وسوق الفامين وكان يجمع الجزارين والبقالين والشوائين، وسوق الطباخين ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين، كما أفرد لكل صنف من جميع الصنائع سوقا حسنا، حتى نافست القطائع ما كان في الفسطاط من عمران، وصارت أعمر وأحسن من الشام على حد تعبير البلوي، ومتأثرة إلى حد كبير بتخطيط مدينة سامراء التي التي شيدت في العراق سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م بما في ذلك عمائرها، فقد ألحق أحمد بن

طولون بقصره ميدانا فسيحا يضرب فيه بالصوالجة فسمي القصر كله بالميدان، وكان كل من أراد الخروج من صغير أو كبير إذا سئل عن ذهابه يقول: إلى الميدان. وعمل للميدان تسعة أبواب لكل باب اسم خاص به مثل باب الميدان الذي خصص لدخول وخروج معظم الجيش، وباب الصوالجة، وباب الخاصة الذي خصص لخاصة أحمد بن طولون، وباب الجبل لأنه كان يلي جبل المقطم، وباب الحرم الذي خصص للخصيان والحريم، وباب الدرمون نسبة إلى حاجب أسود عظيم الخلقة كان يجلس عنده، وباب دعناج نسبة إلى حاجب آخر كان يجلس عنده، وباب الساج؛ لأنه عمل من خشب الساج، وباب الصلاة لأنه كان يفتح على الشارع الأعظم، وهو على الأرجح شارع الصليبة الحالي ومنه يتوصل إلى جامع ابن طولون، وقد عرف هذا الباب أيضًا باسم باب السباع لأنه كان عليه صورة سبعين من الجص، كما كان يعلوه مجلس يشرف منه ابن طولون في ليلة العيد على القطائع، ليرى أفراد جيشه وتأهيلهم وتصرفهم في حوائجهم، وكان يشرف منه أيضًا على النيل، ولم تكن هذه الأبواب تفتح كلها إلا في يوم العيد أو في يوم عرض الجيش أو يوم الصدقة.

وقد زاد خمارويه في هذ القصر الذي بناه أبوه ووسع فيه إلى أبعد الحدود. وأضاف إليه قصرا جديدا خصصه لزوجات أبيه، وأفرد لكل واحدة منهن جناحا خاصا، بلغت نفقات بنائه سبعمائة ألف دينار. وبنى فيه أيضًا قبة سماها الدكة وجعل لها الستور التي تقي الحر والبرد، وكان كثيرا ما يجلس في هذه القبة ليشرف منها على جميع ما في قصره من البساتين والصحراء والنيل والجبل والمدينة، كما أقام أمام القصر بركة طولها خمسون ذراعا في خمسين ذراعا ملئت بالزئبق، ليخلص مما أصابه من الأرق، وجعل عليها سريرا من أدم يحشى بالريح لينام عليه، شد بخيوط من حرير إلى عمد من فضة، كان يرى لها في الليالي المقمرة منظر عجيب إذا تآلف نور القمر بنور الزئبق. وحول ميدان الصوالجة إلى بستان كبير غرس فيه أنواعا فريدة من الزهور وكسا أجسام النخيل نحاسا مذهبا، وجعل بين النحاس وأجساد النخيل أنابيب من الرصاص، ينحدر منها الماء إلى

أحواض كبيرة، ثم ينحدر الماء من هذه الأحواض ليسقي أرض البستان، وشيد في هذا البستان برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص وزوقه بشتى أصناف الأصباغ، وبلط أرضه، وجعل فيها مجاري الماء وأطلق فيه شتى أنواع الطيور. كما شيد في داره مجلسا سماه بيت الذهب، طلى جدرانه بالذهب واللازورد وجعل فيه على مقدار قامة ونصف، نقوشًا بارزة من الخشب تمثل حظاياه والمغنيات، نقشت ثيابها بالأصابع العجيبة، وجعل على رؤوسهم الأكاليل من الذهب الخالص، والكوادن المرصعة بأصناف الجوهر، وفي آذانهن الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة، فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا.

ولم يقف إسراف خمارويه وترفه عند هذا الحد، بل اتخذ في داره بيوتا للسباع عمل فيها بيتا لكل سبع ولبؤته وزود تلك البيوت بأبواب تفتح في أعلاها بحركات، كما جعل لكل بيت طاقا صغيرا يدخل منه الرجل الموكل بخدمة البيت وفرشه، وجعل في جانب كل بيت حوض من الرخام له ميزاب من نحاس يصب فيه الماء، كما جعل بين يدي هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة مفروشة بالرمل يوجد في جانبها حوض كبير من الرخام يملأ بالماء بواسطة ميزاب كبير، فإذا أراد سائس سبع تنظيف بيته أو وضع اللحم لغذائه رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح بالسبع فيخرج إلى القاعة المذكورة ويرد الباب، ثم ينزل إلى البيت من الطاق، فيقوم بتنظيفه ويبدل الرمل بغيره، ويضع اللحم في المكان المعد لذلك، ثم يغسل الحوض ويملؤه بالماء، ويخرج ويرفع الباب من أعلاه فيعود السبع إلى مكانه.

وكانت هذه البيوت مملوءة بالسباع من جملتها سبع أزرق العينين يقال له زريق، قد أنس بخمارويه، وصار مطلقا في الدار لا يؤذي أحدا، وكان إذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه ولا يغفل عنه لحظة واحدة، كل ذلك أصبح مجرد ذكرى على يد محمد بن سليمان الكاتب الذي أحال القصر والميدان إلى خرائب طمرها الزمان.

البيمارستان العتيق

ومن الآثار الطولونية التي أصبحت أثرا بعد عين تحدثنا المصادر عن البيمارستان العتيق أو الأعلى الذي شيده أحمد بن طولون بمدينة العسكر في سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م في منطقة الكيمان والصحراء التي فيما بين جامع ابن طولون وكوم الجارح، وفيما بين قنطرة السد التي على الخليج ظاهر مدينة مصر، وبين السور الذي كان يفصل بين القرافة ومصر، وأنفق على بنائه ستين ألف دينار، أخذ الجزء الأكبر منه من الكنز الذي عثر عليه في تنور فرعون، وأوقف عليه عدة أماكن لضمان استمراره، وشرط أن لا يعالج فيه جندي مملوك، كما شرط أنه إذا جيء بالعليل تنزع ثيابه، ويودع ما معه من المال عند أمين البيمارستان وتقدم له ثياب خاصة من البيمارستان، ويخصص له مكان تتوفر له فيه الراحة ويباشره الأطباء بالعلاج، ويصرف له الدواء مجانا حتى يتم شفاؤه.

وكانت علامة الشفاء أن يقدم له فروج ورغيف فإذا استطاع أكلهما عد علاجه منتهيًا وأذن له بمغادرة البيمارستان بعد أن ترد إليه ثيابه ونقوده، وفي حالة وفاة المريض فإنه يجهز ويكفن على نفقة البيمارستان.

ويفهم من المصادر التاريخية أن البيمارستان كان يشتمل على قسمين، أحدهما خاص بالذكور والآخر خاص بالإناث، وأن كل قسم كان مجهزا بما يحتاجه من آلات وعدد وخدم وفراشين من الرجال والنساء، كما كان كل قسم يشتمل على عدة قاعات للأمراض الباطنية وللجراحة والكحالة والتجبير، بالإضافة إلى قسم خاص بالأمراض العقلية. وكان ملحق به أيضًا حمامان أحدهما للرجال والآخر للنساء.

وكان أحمد بن طولون حريصًا على تفقد البيمارستان وزيارته يوم الجمعة من كل أسبوع، حيث يطوف على خزائن الأدوية ويتفقد أعمال الأطباء ويشرف على سائر المرضى من المجانين حتى غافله في يوم أحدهم ورماه برمانة عريشية كبيرة كادت تقضي عليه، فلم يعاود النظر في البيمارستان بعد ذلك.

حصن الجزيرة

ومن آثار الدولة الطولونية الدارسة تتحدث المصادر عن الحصن الذي شيده أحمد بن طولون في جزيرة الروضة سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م ليكون معقلا لحرمه وذخائره وماله، بعد أن وقع الخلاف بينه وبين الموفق طلحة ولي عهد الخليفة المعتمد العباسي وما تبع ذلك من محاولة لإخراج ابن طولون من مصر، لذلك لم يجد أمامه من بد سوى المحاربة ليدافع عن نفسه، وتأمل مدينة الفسطاط فوجدها لا تؤخذ إلا من جهة النيل، فأمر ببناء حصن على الجزيرة، في نفس مكان الحصن القديم الذي قيل أنه كان قائمًا وقت فتح عمرو بن العاص لمصر، ولجأ إليه المقوقس وأصحابه عندما اشتد المسلمون في حصار حصن بابليون. وأخذ ابن طولون يجد في البناء وألزم قواده وثقاته أن يقوم كل منهم بالإشراف على جزء منه، وكان يتعاهدهم بنفسه كل يوم، ويبذل لهم المال الكثير، مما جعل العمال يغادرون منازلهم في الأسحار بكرة كل يوم من تلقاء أنفسهم من غير استحثاث؛ لكثرة ما سخا به عليهم من أموال، حتى قيل أن كل طوبة في الحصن وقفت عليه بدرهم صحيح. وقد استمر العمل في بناء الحصن ما يقرب من عشرة أشهر أنفق ابن طولون خلالها ما يقرب من ثمانين ألف دينار ذهبا. ومع هذا فمجرد أن بلغته الأنباء بوفاة موسى بغا، قائد الجيش العباسي المكلف بالهجوم على مصر، أمر بإبطال العمل فيه، ولم يعد يرى أحدا من العمال التي كانت فيه مع كثرتهم، الأمر الذي أثار دهشة البلوي فكتب يقول: «كنار صب عليه ماء فخمد من وقته».

ولم تصلنا آثار من ذلك الحصن، كما لم تزودنا المصادر التاريخية بأي وصف له، واكتفت بالقول أنه ظل عامرا بالجزيرة في أيام بني طولون حتى أخذه النيل شيئًا بعد شيء، وأقام السلطان الصالح نجم الدين أيوب في موضعه قلعة الروضة في طرف الجزيرة الجنوبي بجوار المقياس التي اندثرت بدورها.

مسجد التنور

ومن الآثار الطولونية التي اندثرت ولم يعد لها وجود نشير أيضًا إلى مسجد التنور الذي بناه أحمد بن طولون بأعلى جبل المقطم وراء قلعة الجبل إلى الشرق منها في شهر صفر سنة ٢٥٩هـ/ ديسمبر ٨٧٢م، في موضع تنور فرعون وجعل له منارة وصهريجا فيه ماء، وذلك بعد أن ضاق جامع العسكر بالمصلين من جند الأمير وعامة الشعب، وكان ينفق عليه من وقف البيمارستان العتيق والعين بالمعافر.

والواقع أننا نجهل تماما شكل هذا المسجد وأسلوب تخطيطه بسبب صمت المصادر وإن كنا نعلم أنه ظل عامرا حتى عهد المقريزي في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر للميلاد لقوله: «وأدركته عامرا، وفيه من يقيم به».

قناطر المياه

مع أن أغلب آثار الدولة الطولونية قد اندثرت وأصبحت أثرا بعد عين إلا أنه وصلنا بعض عمائر هذه الدولة التي استطاعت أن تقاوم عوادي الزمن مثل قناطر المياه أو العين التي أقامها أحمد بن طولون في سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م بمنطقة المعافر، جنوب شرق الفسطاط. وقد أرجعت المصادر سبب بنائها إلى قصة مؤداها أن أحمد بن طولون خرج يوما إلى تلك المنطقة وسبق من كان معه من الجند فمر بمسجد الأقدام وقد نال منه العطش، فوجد خياطا فطلب منه ماء فأخرج له كوزا فيه ماء وطلب منه أن يقتصد في الشرب، ولكن ابن طولون شرب أكثره، ثم علم من الخياط أن طلبه الاقتصاد في الشرب مرجعه إلى أن الموضع منقطع والماء عزيز المنال، وبعد عودة ابن طولون إلى قصره أرسل في طلب الخياط وبعث معه بالمهندسين فحفروا بئرا عرفت بالعفصة الكبرى وبنوا فوقها القناطر، وأجرى الماء إلى الفسقية التي بقرب درب سالم، وأشارت المصادر أيضًا إلى أن المهندس الذي شيدها كان رجلا نصرانيا، كما أشارت إلى تكاليف البناء الذي قدره البلوي بمائة ألف وأربعين ألف دينار، على حين ذكر المقريزي أنه كان أربعين ألف دينار، الأمر

الذي يصعب معه تصديق هـذه الرواية؛ لأنه ليس من المعقول أن ينفق ابن طولون هـذا المال الوفير لمجرد نقل المياه إلى هذه المنطقـة المقفرة من القرافة التي لا يسكنها إلا الـنزر اليسير من الناس، لذلك يرى البـاحثين أن السبب الرئيسي وراء بناء هذه الـقناطر هو حمل الماء إلى كل من قـصره المترامي الأطراف وإلى البـساتين الملحقة به، بالإضافة إلى منطقة المـعافر، ولا سيما أن بداية هـذه القناطر كانت تقع على حدود بركـة الحبش التي كانت تقع إلى الجـنوب من مدينة الفـسطاط، وتمتد إلى شمال بساتين الـوزير، وكانت تستمد ماءها من الـنيل مباشرة. ويفهم من المصادر أيضًا أن هـذه القناطر كانت غاية في البناء ولم يـكن لها نظير لدرجة أن المادرائيين اجتهدوا ليـحاكوها، وأنـفقوا الأموال الـكثيرة، ومع ذلك فـقد عجزوا عن ذلك بسبب موضعهـا الذي جعل جميع الجيران محتـاجين إليها؛ لذلك أمر ابن طولون بأن تـظل مفتوحة طول النهـار لمن كشف وجهه للأخذ منها، ولمن كان له غلام أو جارية، أما الليل فقد خصصه للفقراء والمساكين والمستورين.

وتعرف بـقايا هذه القناطر حاليًا بمجرى الإمام، وهي عبارة عن برج للمأخذ مـشيد من الأجـر بداخله بـئر مفـرغ مفتوح إلى الـسماء، وعـلى جانبـيه غرفتان يغطيهـما قبوان، وينقـسم البئر إلى قسمـين، ويسحب الماء منها بـواسطة ساقيتين ترفعانه إلى المجرى فـوق ظهر البرج، ثم يسير مـنه في مجرى وضع فوق القناطر التي تخرج من البـرج في انحراف يبلغ ١٤٠ درجة عـلى جانب البرج الشمالي، وبعد نحو سبعة عشر مترا ينحرف اتجاه القناطر من الشمال الغربي إلى الشمال بميل قلـيل نحو الغرب، ثم يـنحرف مرة أخرى بـعد ١٢٢ مترا نحـو الشمال بميل إلى الـشرق، ويمتد بعد ذلك في خط مستقيم نحـو مئذنة شاهين أغا الخلواتي، وعقود هذه القناطر التي تهدم أغلـبها من النوع المدبب وتشبه عقود الجامع الطولوني، أي عقود مدببة ذات مركزين.

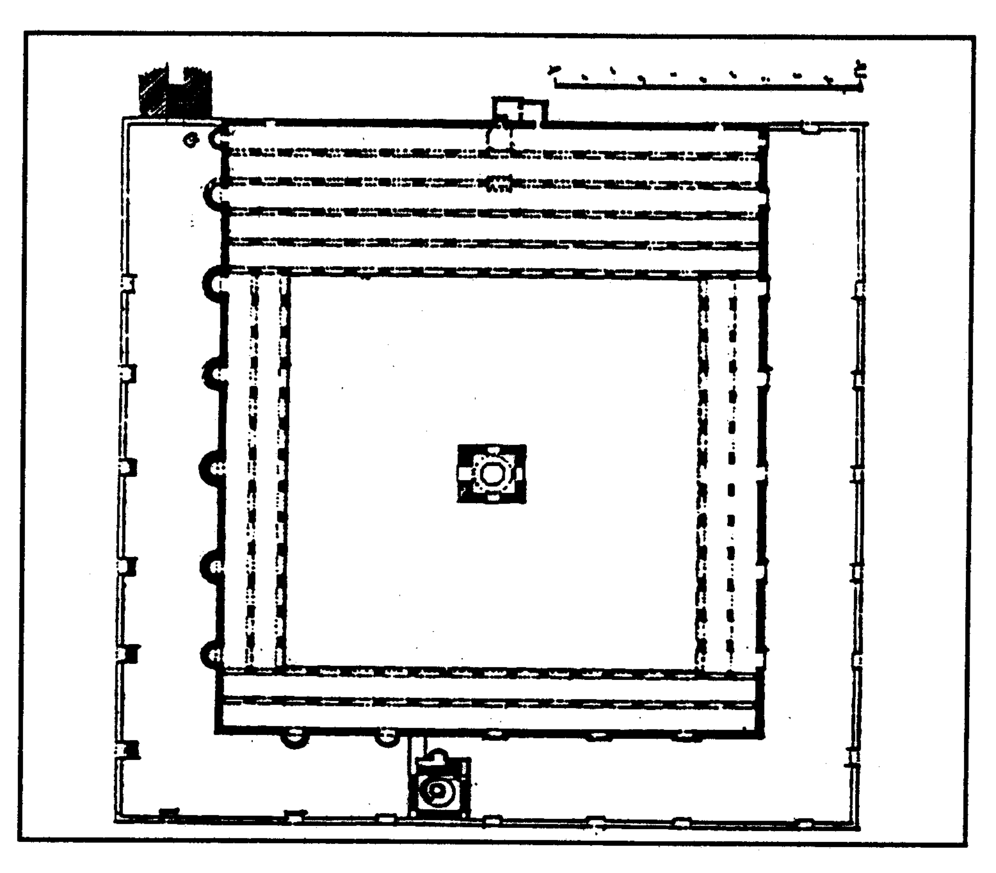
الجامع الطولوني

يعتبر جامع أحمد بن طولون ثالث المساجد الجامعة التي شيدت بمصر الإسلامية بعد جامع عمرو بن العاص، الذي شيده هذا القائد العربي بمدينة الفسطاط، غداة فتحه لمصر في عام ٢١هـ/ ٦٤٢م، والذي توالت عليه أعمال الترميم والإصلاح، بحيث لم يصلنا من الجامع الأصلي سوى بقعة الأرض التي شيد عليها، وجامع العسكر الذي شيده في العصر العباسي سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م الفضل بن صالح بن علي في مدينة العسكر، ثانية عواصم مصر الإسلامية، والذي ظل باقيا إلى سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م، ثم صار بعدها أثرا بعد عين، وذلك على العكس من جامع ابن طولون الذي لا يزال يحتفظ بأغلب عناصره المعمارية، منذ أن شيده أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية، في الطرف الجنوبي لمدينة القطائع التي شيدها إلى الشمال الشرقي من مدينة العسكر لتكون عاصمة لدولته، فوق الربوة الصخرية المعروفة بجبل يشكر، وهي على حد تعبير بعض المؤرخين بقعة مباركة، إذ ناجى موسى عليه السلام ربه من عليها، كما أنها كانت مشهورة بإجابة الدعوات.

بيد أنه من الواضح أن السبب الرئيسي وراء اختيار أحمد بن طولون لهذه البقعة هو أن يصير المسجد مشيدًا فوق أساس متين من الصخر وحتى يكون بمنأى عن فيضان النيل، فضلا عن كون هذه البقعة كانت تشرف على الميدان الذي أنشأه أمام قصره، كما أنها تقع في الجزء الفاصل بين مدينة العسكر ومدينة القطائع العاصمة الجديدة المصرية.

ويجمع المؤرخون على أن أحمد بن طولون بدأ في بناء هذا المسجد في سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م وانتهى منه في شهر رمضان سنة ٢٦٥هـ/ مايو ٨٧٩م، حسبما جاء في اللوحة التأسيسية المثبتة فوق إحدى دعامات رواق القبلة وهذا يعني أن عملية التشييد استغرقت حوالي ثلاث سنوات.

ويعد جامع ابن طولون من أكبر جوامع مصر الإسلامية مساحة إذ يغطي مع الزيادات التي تحيط به من الشمال والجنوب والغرب ما يقرب من ستة أفدنة



شكل (٤)

جامع أحمد بن طولون مسقط أفقي، عن فريد شافعي

ونصف، تأخذ شكلا مربعا يبلغ طول ضلعه حالي ١٦٢م، يشغل المسجد منها شكلا مستطيلا تبلغ أطواله حوالي ١٣٨ × ١١٨م، على حين ترتفع الجدران من منسوب أرضية الأروقة الداخلية إلى قمة شرافاته العليا إلى ما يقرب من ثلاثة عشر مترا، وهو مصمم على النظام التقليدي، أي صحن أوسط مكشوف مربع الشكل تبلغ أبعاده ٩٢,٣٥ × ٩١,٨٠م، يحيط به أربعة أروقة مسقوفة بالخشب أكبرها رواق القبلة الشرقي الذي يشتمل على خمسة صفوف من الدعامات يعلوها عقود تمتد بموازاة جدار القبلة وتضم خمس بلاطات، جدددت المطلة منها على الصحن في عام ١٩٢٠ على يد لجنة حفظ الآثار العربية.

أما باقي الأروقة ونعني بها الرواق الغربي المقابل لرواق القبلة والرواقين الجانبيين الشمالي والجنوبي فيشتمل كل منهم على صفين من الدعامات تسير في موازاة جدار الرواق.

ويلاحظ أن الدعامات تحل هنا محل الأعمدة في أغلب المساجد الإسلامية، حيث يصل عددها إلى مائة وستين دعامة ذات قاعدة مستطيلة شيدت من الآجر، ذات أركان مخلقة بأعمدة مشيدة أيضًا من الآجر، لها تيجان ناقوسية الشكل مكسية بالجص يعلوها عقود من النوع المدبب ذي المركزين يرتكز عليها سقف الجامع، فتح بينها فتحات صغيرة معقودة، مخلق في نواصيها عمد صغيرة مشيدة من الآجر تشاهد من الداخل والخارج، قصد منها تخفيف ثقل البناء فوق الدعامات بالإضافة إلى زيادة الإضاءة والتهوية.

ورغم أن استخدام الدعامات هنا بدلا من الأعمدة قد أفضى إلى توفير ما يقرب من مائتي عمود، وأنه يعكس هنا أحد تأثيرات مدينة سامراء التي شيدها الخليفة العباسي المعتصم إلى الشمال من بغداد في سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م، إلا أنه ارتبط ببعض الأساطير التي كانت تدس على المؤرخين والكتاب العرب في العصور الإسلامية الوسيطة فيرددونها بغير تحقيق أو تمحيص إذ يذكر المقريزي نقلا عن جامع السيرة الطولونية أن أحمد بن طولون لما أراد بناء الجامع قدر له ثلاثمائة عمود، فقيل له ما تجدها أو تنفذ إلى الكنائس في الأرياف والضياع والخراب فتحمل ذلك، فأنكر ذلك ولم يختره، وتعذب قلبه بالفكر في أمره، وبلغ النصراني، الذي تولى بناء العين (وكان قد غضب عليه وضربه ورماه في المطبق)، الخبر فكتب إليه يقول أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد إلا عمودي القبلة، فأحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه فقال له: ويحك ما تقول في بناء الجامع، فقال: أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانًا بلا عمد إلا عمودي القبلة، فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت وصوره له فأعجبه واستحسنه، وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار فقال له: أنفق وما احتجت إليه بعد ذلك أطلقناه لك، فوضع النصراني يده في البناء في الموضع الذي هو فيه وهو جبل يشكر فكان ينشر منه ويعمل الجير ويبني إلى أن فرغ من جميعه وبيّضه...».

والمتأمل لهذه الرواية وغيرها سوف يلاحظ بوضوح أنها تريد النيل من الإسلام ومن المسلمين عن طريق تصوير أن النصارى كانوا دائمًا مضطهدين تحت الحكم الإسلامي، وأنهم كانوا يعانون من تخريب كنائسهم للاستيلاء على عمدها واستخدامها في عمائر المسلمين، الذين صوروا على أنهم كانوا دائمًا في حاجة إلى خبرة النصارى في مجال العمارة والفنون مع أن فكرة بناء الدعامات ظهرت من قبل في جامعي سامراء وأبي دلف، أي أنها ابتكار عراقي، لا بد أنه جاء إلى مصر مع بعض التأثيرات العراقية الأخرى مع أحمد بن طولون.

والواقع أن هذه الأسطورة تذكرنا برواية أخرى توضح لنا كيف كان بعض مؤرخي الفترة الإسلامية يفسرون بعض الظواهر المعمارية الهامة، من ذلك ما يرويه المقريزي أيضًا بصدد استخدام مهندس الجامع لمادة الآجر في البناء إذ يقول نقلا عن القضاعي: «إن أحمد بن طولون قال أريد أن أبني بناء إن احترقت مصر بقي، وإن غرقت بقي، فقيل له يُبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوي للنار إلى السقف، ولا يجعل فيه أساطين رخام فإنه لا صبر لها على النار، فبناه هذا البناء».

وذلك على الرغم من أن استخدام الآجر في البناء قد شاع في عمارة مصر الإسلامية، حيث نلاحظه في بعض أجزاء من جدران جامع عمرو بن العاص التي شيدت على يد قرة بن شريك في سنة ٩٣هـ/ ٧١٢م واستمر بعد ذلك إلى العصر الفاطمي الذي عرف استخدام الحجر لأول مرة في الواجهة الغربية لمسجد الحاكم بأمر الله وفي منارتيه.

ويزين جميع الباتكات من الداخل والخارج، باستثناء الواجهات المطلة على الصحن شريط من زخارف جصية تلتف حول إطارات العقود، يعقبها إلى أعلى تحت السقف مباشرة إزار من الخشب، نقش عليه بالحفر البارز آيات قرآنية بالخط الكوفي البسيط من سورتي البقرة وآل عمران. وقد حاول البعض أن يربط بين هذا الإزار وبين رواية ثالثة للمقريزي أشار فيها إلى أنه رأى من يقول: «أنه عمل له منطقة دائرة بجميعه من عنبر» كما ذكر «أنه شخصيا لم ير مصنفا بذلك رغم أنه مستفاض من الأفواه والنقلة»، وذلك على الرغم من أن المؤرخ ابن دقماق قد أشار

إلى هذه الرواية إذ قال في هذا الصدد أن ابن طولون لما أكمل بناء جامعه أراد أن يعمل بدائره منطقة عنبر معجون ليفوح ريحها على المصلين.

وقد فتح في النصف العلوي لجدران المسجد الأربعة صف من الشبابيك ذات عقود مدببة، لم يفتح مثلها في جدران الزيادات الشمالية والجنوبية والغربية، خلقت نواصيها بأعمدة قصيرة ملتصقة تشبه تلك التي تطالعنا في جامع عمرو بن العاص، يبلغ عددها مائة وتسعة وعشرين شباكا ملئت بالجص المفرغ بزخارف هندسية نفذت حسب أسس مدروسة، يرجع أربعة منها إلى عصر بناء الجامع حيث نشاهدها جميعا في رواق القبلة، وهي تعد ثالثة الأمثلة الباقية من العصر الإسلامي المبكر، إذ وجدت لأول مرة في الجامع الأموي بدمشق، ثم في قصر هشام بخربة المفجر. ولا شك أن هذه النوافذ كانت تقوم بحجب الرياح والغبار عن المسجد مع السماح بإدخال النور المناسب بالإضافة إلى إسهامها في الخطة الزخرفية بالجامع، يفصل بين هذه النوافذ حنيات غائرة زودت بطواقي مروحية ذات أضلاع وقنوات تبدو أكثر تطورا عن نظائرها في جامع عمرو بن العاص.

ويلاحظ أن المسجد زود باثنين وأربعين بابا، وزعت توزيعا متناسبا على طول امتداد واجهات المسجد وعلى جدران الزيادات التي تحف به من ثلاث جهات، إذ يخترق حائط الزيادة الغربية سبعة أبواب يقابلها سبعة أبواب تفضي إلى الرواق الجنوبي بالمسجد، وبحائط الزيادة الشمالية ستة أبواب يقابلها سبعة أبواب تفضي إلى الرواق الشمالي بالمسجد، بالإضافة إلى باب آخر في نهاية هذه الزيادة من جهة، الشرق يؤدي إلى متحف جاير أندرسون الذي يقع خلف جدار القبلة الذي يشتمل بدوره على ثلاثة أبواب، الأوسط منها كان يؤدي إلى دار الإمارة التي شيدها أحمد بن طولون ملاصقة لجدار القبلة وأثثها بالفرش والستور لينزل بها عند ذهابه إلى صلاة الجمعة فيجلس فيها ويجدد وضوءه، ثم يدخل منها إلى مقصورة المسجد، بيد أن هذه الدار قد اندثرت ولم يبق منها سوى مدخلها وبقايا كوابيل للسقف شكل كل منها على هيئة رأس فيل بنابيه.

ولعل السبب في كثرة هذه الأبواب يرجع إلى الرغبة في تسهيل عملية الدخول والخروج من المسجد نظرا لاتساع رقعته أو لكثرة المساكن والأسواق التي

كانت مشيدة حول ساحته الخارجية، إذ يروي المؤرخ ابن تغري بردي أنه كان يوجد خلف الجامع مصطبة مساحتها ذراع بلغت أجرتها كل يوم اثني عشر درهما، يستغلها ثلاثة أفراد، أحدهم في بكرة النهار لبيع الغزل، والثاني لخباز بعد الظهر إلى العصر، والثالث من العصر إلى المغرب لبيع الحمص والفول، مما جعل بعض الباحثين يعتقد بأن السبب الرئيسي وراء قيام أحمد بن طولون بعمل زيادات حول الجامع من الشمال والجنوب والغرب، يرجع بصفة أساسية للفصل بين الجامع وبين ضوضاء الحياة الخارجية حتى يتوفر للمصلين الهدوء والسكينة داخل الجامع، وذلك في الوقت الذي يشير فيه ابن دقماق إلى أن السبب الرئيسي وراء تشييد ابن طولون لهذه الزيادات يرجع إلى ضيق الجامع بالمصلين.

ومن المرجح أيضًا أن السبب في بناء هذه الزيادات يعود إلى بناء الجامع فوق ربوة مرتفعة، حيث كان من الصعب توفير رقعة كبيرة مسطحة من الأرض على مستوى واحد، لذا لجأ مهندس الجامع إلى فكرة الزيادات حتى يتمكن من بنائه على مستويين. وحسبنا دليلا على ذلك أن زيادات الجامع تبدو أقل انخفاضا من أرضية الجامع الداخلية، وذلك على الرغم من أن فكرة الزيادات قد وجدت في كل من جامع سوسة في تونس وفي المسجد الجامع، وفي مسجد أبي دلف بسامراء بالعراق.

وجدير بالذكر أن النهايات العليا لجدران الزيادات ولجدران المسجد زودت بشرافات فريدة في شكلها شيدت من الآجر، لا نجد مثيلا لها في العالم الإسلامي، شبهها البعض بشكل عرف الديك وأطلق عليها البعض اسم العرائس، لأنها تشبه أشكالا آدمية تجريدية صفت متجاورة متشابكة الأذرع تقوم أرجلها على صف من المربعات، بداخل كل منها دائرة مفتوحة.

وتعد ظاهرة تعدد المحاريب في الجامع الطولوني من الخصائص المميزة لهذا المسجد، إذ يلاحظ أن رواق القبلة يشتمل على ستة محاريب أقدمها المحراب الرئيسي في منتصف جدار القبلة وهو مجوف، يكتنفه على الجانبين أربعة أعمدة قديمة من الرخام، يمتاز تاجا الأماميين منها بأنهما من نوع شوكة اليهود

(الأكانتـاس) على حين نجـد تاجا العـمودين الآخرين من الـنوع المعروف بـالسلة المـشبكة، وذلـك في الوقت الذى كـسى تجويفه بـألواح من الرخـام والفسـيفساء الرخامية، يتوجها شريط من الفسيفساء الزجاجية الملونة والمذهبة بها كتابات نسخية تـشتمل على الشهادة بقسمـيها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» على حين كسيت طاقـية المحراب ووجه الـعقد من الخـارج بالخشب المـلون المنـقوش، أثنـاء تجديد السلطان المملوكي لاجين للجامع في سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م، الذي شملت عمارته أيضًا عمل قبـة فوق هذا المحراب تقوم فـوق مقرنصات مكـسوة بالخشب الملون، وضع بينها شمسيات جصية معشقة بقطع من الزجاج الملون على الطراز المملوكي.

ويفهم من المقريزي أن هذا المحراب منحرف إلى الجنوب عن سمت محراب الـصحابة بجـامع عمرو بن العاص؛ لأن أحـمد بن طولون لما عـزم على بناء هذا المسجد بعث إلى محـراب مدينة رسول الله ﷺ من أخذ سمته، فإذا هو مائل عن خط سمت القبـلة المستخرج بالصناعة نـحو العشر درج إلى جهة الجنوب، فوضع حـينئذ محراب مـسجده هذا مائلا عن خط سـمت القبلة إلى جهـة الجنوب بنحو ذلك اقتـداء منه بمحراب مسجد الرسول ﷺ، كما أشار المؤرخ نفسه إلى أن أحمد ابن طولـون رأى الرسول ﷺ في منـامه وقد خط له المحراب، فلـما أصبح وجد النمل قد أطاف بالمكان الذي خطه له رسول الله ﷺ في المنام.

وينسب إلى عصر السلطان المـملوكى لاجين محراب آخر، وهو مسطح من الجص، حافل بالزخارف النباتية والكـتابات العربية بالخطين الكوفي والنسخ يعرف بمحـراب السيـدة نفيسـة، يقع على يسـار المحراب الرئيـسي المجوف بنحـو سبعة وعـشرين مترا، كمـا نجد بنفس الرواق الـشرقي للمسـجد محرابا ثـالثا من النوع الجـصي المسطح ينسب أيضًا إلى السلـطان لاجين ثبت على واجهة إحدى دعامات البائـكة الثانية من جهة الصحن، يعد في الواقع تقليدا لمحراب رابع من عمل وزير الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، الأفضل شاهنشاه في سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م.

أما المحرابان الخـامس والسادس فـنجدهما على واجـهتي الدعامـتين اللتين تكتـنفان دكة المبلغ وهما أيضًا من النوع الجصي المسطح أرجعهما فلوري إلي القرن ٤هـ/ ١٠م. وإن كنا نفضل نسبة الأيمن منهما إلى العصر الطولوني.

ولـقد حاول بعض الباحثين أن يـربط بين تعدد المحاريب وبين تعدد المذاهب استناداً إلى مـا جاء على لـسان المؤرخ ابن كـثير من أن الصـاحب تقي الدين بن مراحل ناظر الجامع الأموي بدمشق عمل فيه محـرابين للحنفية، والحنابلة في سنة ٧٦٤م/ ١٣٦٢م بيد أننـا نرى في تعدد المحاريب بالمسجـد نوعا من تخليد وإحياء الذكرى والتقرب إلى الله.

ويشتمل رواق القبلة الشرقي أيضًا على منبر خشبي يجاور المحراب الرئيسي المجوف، يتبع في تصمـيمه النظام المألوف في تشييد المنابر الخشبية من حيث الباب المثبت داخل إطار يعـلوه صفوف من المقرنصات، يتوجها صف من الشرافات على هيئة أوراق نباتية صـغيرة، يفضي هذا الباب إلى سلالم تـنتهي في أعلاها بالمقعد المخـصص لجلوس الإمام وهـو مغطى بجـوسق بصلي الشـكل، وللمنـبر ريشتان مسدودتـان، يزين كلا منهما حشوات من خشب الساج الهندي والأبنوس، نقشت بزخارف نباتيـة دقيقة الحفر، تؤلف في مـجموعها أطباقـا نجمية الشكل، تعد من خصائص الـفن الإسلامي، حيث بدأ ظهورها في الـعهد الأيوبي، واكتملت زمن سلاطين المـماليك، وهذا يعني أن المـنبر الحالي قد حل مكـان المنبر الأصلي الذي نقله الـسلطان المملوكي لاجين إلى جامع الظـاهر بالمنشاة على شاطئ النيل ووضع مكانه هذا المنبر، الذي أمر بصنعه خصيصا برسم هذا المسجد في العاشر من صفر سنة ٦٩٦هـ/ ٨ ديسمبر ١٢٩٦م، حسبما جاء في اللوحة الخشبية التي تعلو بابه. وقد تم تجديـده على يد لجنة حفـظ الآثار العربية بعـد أن تعرضت أغلب حشواته للنهب والسلب.

ويفهم من المصادر التاريخـية أن أحمد بن طولون شيد بوسط صحن الجامع فوارة ألزم الأولاد بـصلاة الجمعة فيها، كان يـعلوها قبة مذهـبة مشبكة من جميع جوانبـها، ترتكز على عشرة عمد رخامية يلتف حولها ستة عشر عمودا من الرخام أيضًا، أقيمت في جـانبها، كما فرشت أرضيـتها بالرخام، وكان يـتوسطها قصعة رخامية قطرها أربعة أذرع بوسطها فوارة تفور بالماء، يحيط بسطحها العلوي، الذي يشـتمل على علامـات الزوال، درابـزين من خشب الـساج. وقد تـعرضت هذه

الفوارة للحريق في أوائل العصر الفاطمي في سنة ٣٧٦هـ/ ٩٨٦م، حيث أمر الخليفة العزيز بالله أو أمه السيدة تغريد ببناء واحدة أخرى، فتولى عمارتها ابن الرومية وابن البناء في سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م بيد أنها احترقت بدورها وأقيم مكانها القبة الحالية على يد السلطان المملوكي لاجين ضمن الإصلاحات التي قام بها في المسجد في سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م. وهي على هيئة بناء مربع طول ضلعه أربعة عشر مترا، زود بأربعة مداخل محورية، يعلو كلا منها عقد مدبب ذو مركزين ويعلو المبنى قبة ذات قطاع مدبب، يبلغ ارتفاعها من أرضية الصحن إلى نهاية قمتها ما يقرب من ثلاثة وثلاثين مترا، ترتكز فوق أربعة صفوف من المقرنصات تحول المربع إلى مثمن، تستند عليه دائرة القبة، التي نقشت رقبتها الداخلية بآيات قرآنية بخط النسخ المملوكي تشير إلى الضوء مما أوضح الغرض من بنائها ولا سيما أنه يتوسط أسفلها من الداخل حوض رخامي مثمن الشكل كان يملأ بالماء للوضوء.

ويفهم من المقريزي أن الجامع كان في بداية أمره بلا ميضأة مما جعل الناس يتقدون أحمد بن طولون على ذلك، فكان يقول: «وأما الميضأة فإني نظرت فوجدت ما يكون بها من النجاسات فطهرته منها وها أنا أبنيها خلفه ثم أمر ببنائها».

هذا وقد زود الجامع بمنارة شيدت من الحجر في الزيادة الغربية خارج المسجد تعتبر الوحيدة في مصر ذات السلم الخارجي، وهي تتألف من قاعدة مربعة التخطيط، تعلوها منطقة أسطوانية، فوقها مثمن علوي يحمل مثمنًا آخر أصغر منه، يتوجه قبة صغيرة مضلعة تعرف في المصطلح المعماري المحلي باسم المبخرة. يبلغ ارتفاع قمتها عن أرضية الجامع نحو أربعين مترا ويصعد إليها عن طريق سلم خارجي يرتقى في عكس اتجاه عقارب الساعة، كما يربطها بسطح الجامع قنطرة حجرية ترتكز على عقدين على شكل حدوة الفرس، ويزين باطنها كوابيل حجرية مفصصة الشكل من النوع المألوف في المغرب الإسلامي وخاصة في شمال أفريقية والأندلس، وذلك بالإضافة إلى جملة تأثيرات من أساليب عربية إسلامية مختلفة بعضها محلي وبعضها وافد من الغرب وآخر من الشرق.

والطـريف أن هذه المنارة قـد استرعت انتـباه علماء الآثـار الإسلامية الذين اختلـفوا في تحديد الـعصر الذي تـنسب إليه، إذ أرجعـها البعض إلـى عصر بناء الجامع في أيـام أحمـد بن طولون، بـينـما رأى الـبعض الآخر أنـها من الـعصر الفاطمي، على حين ذهب فريق ثالث بأنها من بناء السلطان المملوكي لاجين الذي عمـر المسجد في سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م، وهو الرأي الذي استقر عليه حاليا أغلب علماء الآثار الإسلامية.

كذلك أثارت هذه المنارة بشكـلها الغريب انتباه الـكتَّاب العرب في العصور الـوسطى، الـذين اتخـذوا من هذا الـشكل مادة طـيبـة لمواصـلة نـسج الروايات والأساطير حـول الجامع الطـولوني فذكروا أن أحـمد بن طولـون، كان لا يعبث بشيء قط فاتفق أنه أخـذ درجا أبيض بيده وأخرجه ومده واستيقظ لنفسه وعلم أنه قـد فطن به وأخذ عـليه لكونه لم تـكن تلك عادته، فـطلب المعـمار على الجامع وقال: «تبنى المنارة التي للتأذين هكذا، فبنيت على تلك الصورة». كما ربطوا بينها وبين منارة المسجد الجامع في سامراء المشهورة باسم الملوية، رغم أن الأخيرة تتميز بقاعدة أسطوانيـة وبدرج يدور ست مرات صاعدا بـانحدار قليل إلى أعلى، على النقيض من المنارة الطولونية ذات السلم والقاعدة المربعة.

والحق أن هذا التشابه الذي جذب أنظار بعض المؤرخين في العصور الوسطى قد دفع ببـعض علـماء الآثار الإسلامـية إلى الـربط بين مـنارات المسـجد الجامع ومسجـد أبي دلف في سامراء، والجامع الطولـوني في مصر وبين المعـابد العراقية القـديمة المعـروفة بـاسم الزيجـورات أو الزيقـورات من جهة، وبـين معابـد النار الساسـانية المعـروفة باسم اتش كاه من جهـة أخرى، كما ربط بعـضهم بين المنارة الطولونية وبين فـنار الإسكندرية، بل ذهب البعض الآخر أبعد من ذلك حين ربط بين هذه المنـارة وبين الكثيـر من المباني الصـينية المنـسوبة إلى أسرة تانج (٦١٨ - ٩٠٧م).

ويفهم أيضًا من كتـابات بعض المؤرخين أنه كان بـأعلى هذه المنارة عشاري (مركب صغـير) عثر عليه أحـمد بن طولون، ضمن الكـنز الذي أصابه وشيد منه

الجامع، يزعمون أنه كان يدور مع الشمس، بيد أن المقريزي يؤكد أنه كان يدور مع الريح.

ويفهم من الجبرتي أن هذا العشاري قد ظل باقيا في مكانه حتى سقط في غضون سنة ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م، حيث استبدل بالهلال الحالي الذي يتوج قمة المنارة، رغم أننا نشاهده في الرسوم التي أمدتنا بها الحملة الفرنسية عن هذه المنارة.

ومن طريف ما يروى بصدد هذه المنارة أن أحفاد ابن طولون باعوا هذا المسجد إلى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بثلاثين ألف دينار مغربي، وبعد مدة شرعوا في هدم المنارة بحجة أنها لم تكن ضمن الصفقة، فأرسل إليهم الحاكم بأمر الله قائلاً: لقد بعتموني هذا المسجد فكيف تهدمونه؟ فأجابوا: نحن لم نبع المئذنة، فأعطاهم خمسة آلاف دينار ثمنًا لها.

والحق أن هذه المنارة لم تكن الوحيدة بجامع أحمد بن طولون، إذ أضاف إليه السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون منارتين أسطوانتي الشكل بطرفي جدار القبلة الشرقي، هدمت الجنوبية في القرن ١٣هـ/ ١٩م والشمالية في عام ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م لخلل أصابهما. وهذا يعني أن جامع أحمد بن طولون قد شهد العديد من الأحداث على مر الزمان، لعل أهمها تلك العمارة التي تمت على يد الوزير الفاطمي بدر الجمالي في صفر سنة ٤٧٠هـ/ أغسطس ١٠٧٧م، كما جاء في اللوح الرخامي الذي يعلو سور الزيادة الشمالية فوق المدخل الحالي للمسجد، تعرض الجامع بعدها للخراب وصار مأوى للحجاج المغاربة وهم في طريقهم إلى الأراضي المقدسة الذين صاروا ينزلون فيه بأباعرهم ومتاعهم، كما اتخذ فيه السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري مخبزا في القرن ٧هـ/ ١٣م، يعمل فيه مائة أردب خبز توزع يوميا على أرباب الزوايا. واستمر على هذا الحال حتى كانت تلك الفتنة التي أعقبت مقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م فاختفى فيه الأمير حسام الدين لاجين خوفا من أن يقع في أيدي منافسيه من الأمراء المتصارعين على السلطان ونذر إن سلمه الله من هذه

المحنة ومكّنه من كرسي السلطنة أن يجدد عمارة هذا الجامع وما تخرب منه، فلما حدث ذلك أنفق على عمارته من خالص ماله عشرين ألف دينار، وابتاع له من بيت المال منية أندونة من أرض الجيزة ووقفها على المدرسين والمؤذنين والفراشين وغيرهم من المشتغلين في الجامع ورتب فيه دروسا للحديث والتفسير والفقه، ودرسا للطب، كما أنشأ به مكتبا لإقراء أيتام المسلمين وسبيلا جدده السلطان الأشرف قايتباي فيما بعد، يعد من أقدم الأسبلة في مصر الإسلامية، بعد سبيل المدرسة الظاهرية بشارع المعز لدين الله.

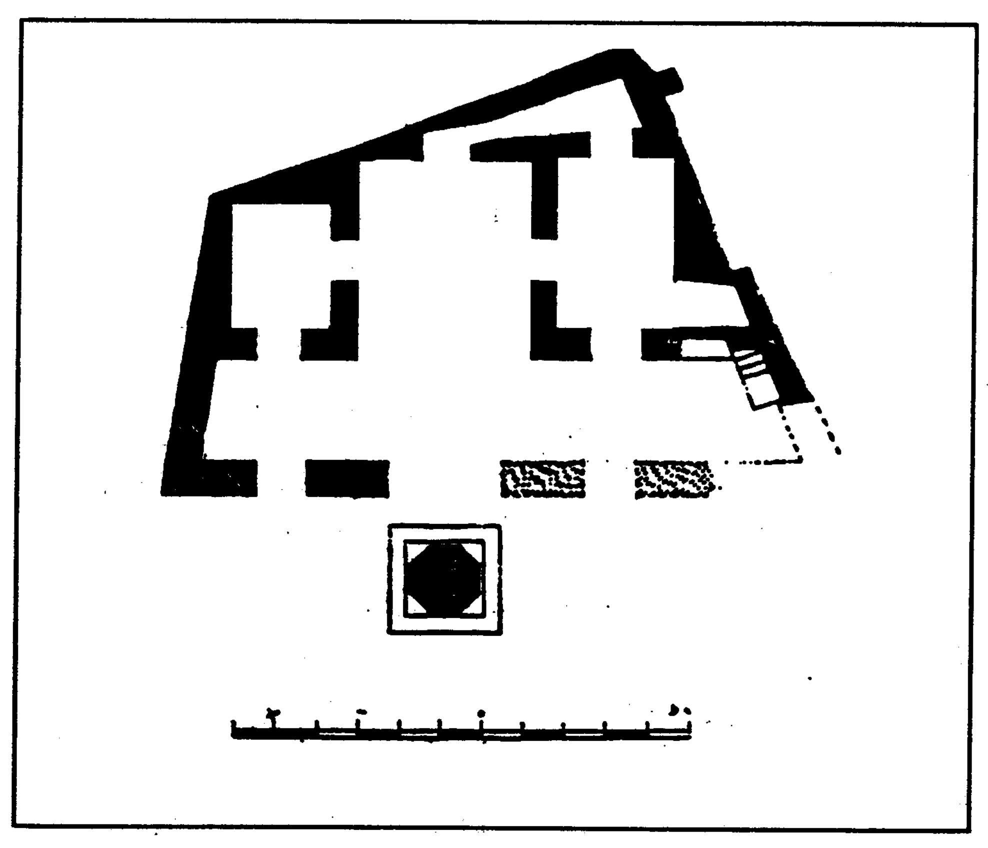
واستمر الجامع الطولوني في مسيرته التاريخية حتى تعرض للخراب فأنشئ فيه مصنع لعمل الأحزمة الصوفية إبان القرن ١٢هـ/ ١٨م، ثم تحول إلى ملجأ للعجزة والمتقدمين في السن تحت إشراف كلوت بك اعتبارا من سنة ١٢٦٣هـ/ ١٨٥٧م فلحق به خراب عظيم حتى أدركته أخيرا لجنة حفظ الآثار العربية فأعادته إلى سابق عهده من روعة وبهاء بعد جهود مضنية استمرت من سنة ١٨٩٠ - ١٩١٨م، وما زال جامع أحمد بن طولون يحظى باهتمام ملحوظ من هيئة الآثار المصرية التي تشمله بعين الرعاية والصيانة نظرًا لما يتمتع به من شخصية ذات طابع محلي وصريح، رغم ما يشتمل عليه من تأثيرات ليست بالقليلة وفدت إليه مع مهندسه، الذي لا شك في أصله العراقي، إذ من المرجح أنه جاء من مدينة سامراء التي أمضى أحمد بن طولون فيها فترة شبابه ونقل الكثير من معالمها المعمارية والفنية إلى مدينة القطائع التي شيدها عاصمة لملكه في مصر.

الدور الطولونية

يفهم من المصادر التاريخية أن مدينة الفسطاط كانت تضم أيضًا العديد من الدور الطولونية التي جذبت أنظار المؤرخين، فقد حدثنا الكندي أن القاضي محمد ابن عبده شيد دارا عظيمة بها أنفق على بنائها ألف دينار، كما ذكر المقريزي أن فائقًا غلام أحمد بن طولون ابتاع دارا فيها بعشرين ألف دينار وسلم الثمن لأصحابها وأمهلهم شهرين لمغادرتها فلما عز عليهم مغادرتها وهبها لهم وترك لهم الثمن. وروى أيضًا أن بدر الخفيفي غلام أحمد بن طولون بنى دارا عظيمة بالقرب

من المصلى القديم في الفسطاط انتزعها من أحمد بن طولون بعد أن غضب عليه، فسكنها طاهر بن خمارويه، ومن بعده الحمامي غلام ابن طولون، بيد أن هذه الدور تعرضت للخراب شأنها شأن الدور السكنية لمدينة القطائع التي هلك سكانها أثناء الشدة المستنصرية وكانت تنيف على حد زعم المقريزي على مائة ألف دار، نزهة للناظرين محدقة بالجنان والبساتين، وبذلك أصبح من الصعب علينا التعرف على مكونات تلك الدور وتخطيطها المعماري، وإن كانت الحفائر الأثرية قد كشفت لنا عن بقايا بعض الدور السكنية بمدينة الفسطاط أمكن نسبة ثلاثة منها إلى العصر الطولوني، عثر على أقدمها في حفائر متحف الفن الإسلامي عام ١٩٣٢ في الفضاء بين كوم الجارح وجامع أحمد بن طولون، أي في موقع مدينة العسكر. وهي عبارة عن بقايا دار تمثل القسم الجنوبي منها وهو يتألف من إيوان أوسط مستطيل الشكل يكتنفه من يمين ويسار غرفتان صغيرتان، ويتقدم الوحدات الثلاث سقفية مستعرضة تفتح على فناء مكشوف يقع إلى الشمال منها بواسطة ثلاث فتحات يفصلها دعامتان ضخمتان بقي منهما الدعامة الشرقية، وقد عثر في منتصف الفناء على بقايا فوارة ذات تخطيط مربع، بداخلها تجويف مثمن الشكل، يتصل بها في الزاوية الجنوبية الشرقية أنبوب من الفخار كان يغذيها بالمياه، وقد أمكن نسبة تلك البقايا إلى حوالي سنة ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م استنادا إلى الزخارف الجصية التي كانت تكسو الجدران لأنها تشبه إلى حد كبير الطراز الثالث من زخارف سامراء الجصية. وقد عثر بينها على محراب جصي مسطح يزين أعلاه الشهادة بقسميها، نقشت بالخط الكوفي البسيط وهو يشبه بدوره أحد محاريب الجامع الطولوني.

ومع أن تلك البقايا لا تعطي صورة واضحة عن تخطيط الدور في العصر الطولوني، إلا أنها ظلت زمنًا طويلا بمثابة المثل الوحيد الذي وصلنا من هذه الفترة حتى استطاع أحد الباحثين في عام ١٩٦٨، نسبة إحدى الدور التي سبق أن عثر عليها المرحوم علي بهجت في حفائر الفسطاط إلى العصر الطولوني استنادًا إلى بعض الزخارف الجصية التي كانت تزين بعض جدرانها. وهذه الدار لا ينقص



شكل (٥)

البيت الطولوني الأول، مسقط أفقي، عن فريد شافعي

تخطيطها سوى القليل وإن كانت جدرانها لا ترتفع أكثر مما ترتفع جدران الدار الأولى التي كشفت عنها حفائر المتحف الإسلامي في عام ١٩٣٢.

ويتألف تخطيط هذه الدار من فناء أوسط مكشوف يتعامد عليه من الشمال والجنوب جناحان، يشتمل كل منهما على إيوان أوسط مستطيل الشكل، يكتنفه من يمين ويسار غرفتان صغيرتان، ويتقدم الوحدات الثلاث سقفية مستعرضة تفتح على الفناء الأوسط من خلال فتحات ثلاث كما هو الحال في الجزء المكتشف من الدار الأولى. كما يوجد جناح ثالث أصغر حجمًا في الركن الجنوبي الشرقي يتصل بممر المدخل الرئيسي لهذه الدار وهو من النوع المنكسر الذي يعرف عند

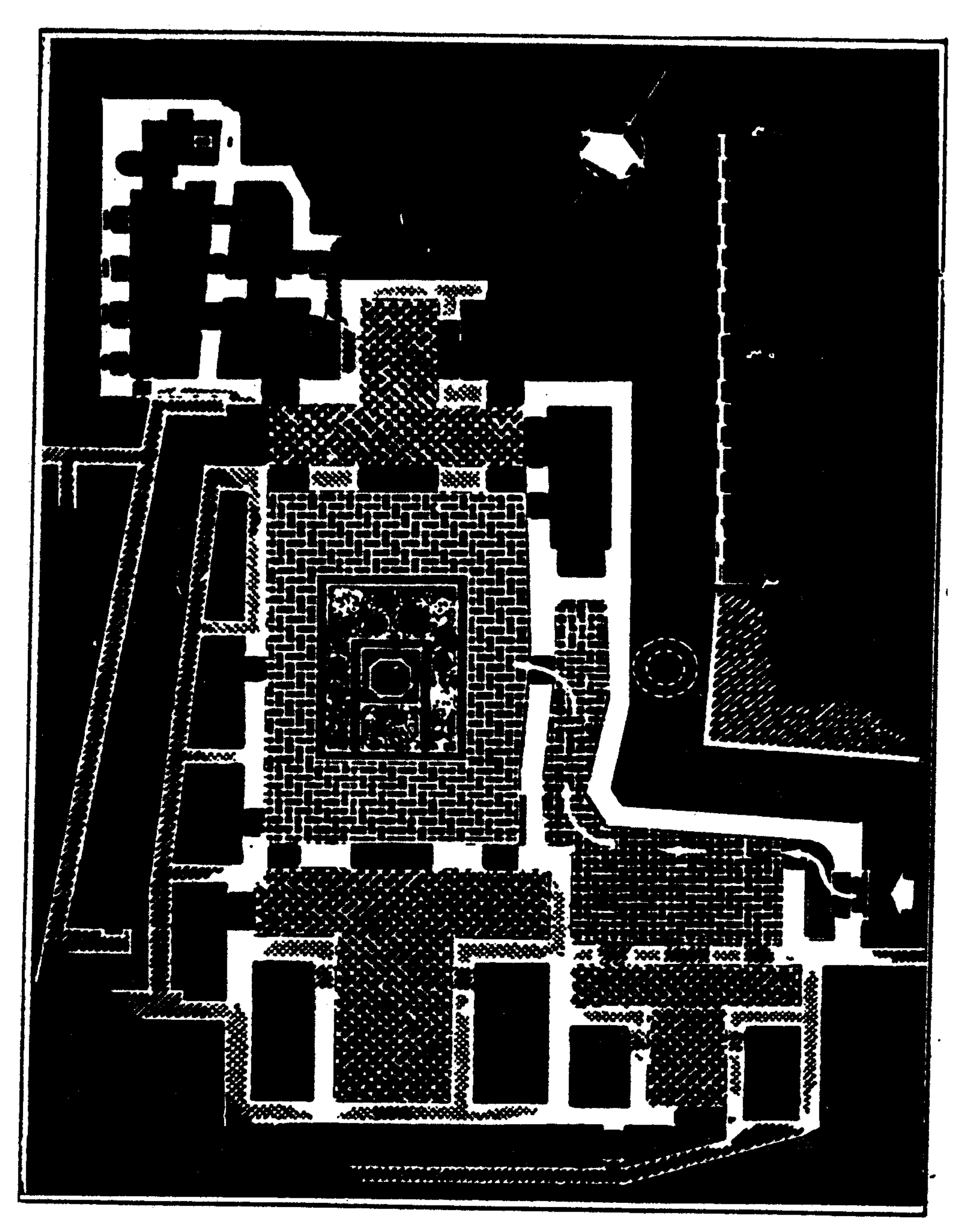
المؤرخين العرب باسم الباشورة، الذي شاع استعماله في الدور السكنية التي كشف عنها علي بهجت في حفائر الفسطاط. وكان هذا النوع من الداخل يهدف إلى حجب أنظار المارة في الطريق من كشف من بداخل الدار إذا ما فتح الباب الخارجي في وقت شاع فيه الحجاب بين أفراد المجتمع المصري، إذ كان الداخل من الباب ينحى يمينا أو يسارا نحو دهليز ومنه ينحرف إلى الفناء الداخلي كما كان يساعد أيضًا على زيادة فرص الدفاع عن الدار إذا ما قامت قلاقل أو فتن داخلية أو خارجية.

أما باقي الغرف والوحدات فقد تم توزيعها حول الفناء والأجنحة السابق الإشارة إليها، نجد بينها غرفة تشغل الزاوية الشمالية الشرقية يرجح أنها كانت المطبخ الرئيسي لهذه الدار، عثر بجوارها على بقايا سلم يفضي إلى الطوابق العليا المخصصة للحريم ولحجرات النوم التي لم يعد لها وجود في الوقت الحالي.

وقد ساعد اكتشاف هذه الدار ونسبتها إلى العصر الطولوني على نسبة دار ثالثة من بين مكتشفات المرحوم علي بهجت بمدينة الفسطاط إلى نفس الفترة الزمنية وهي الدار التي أطلق عليها اسم الدار السادسة وذكر بصددها أنها تشذ من حيث التخطيط عن بقية الدور المكتشفة لاحتوائها على جناحين متماثلين، كما ذكر أنها تشبه نظائرها من الدور العراقية بمدينة سامراء.

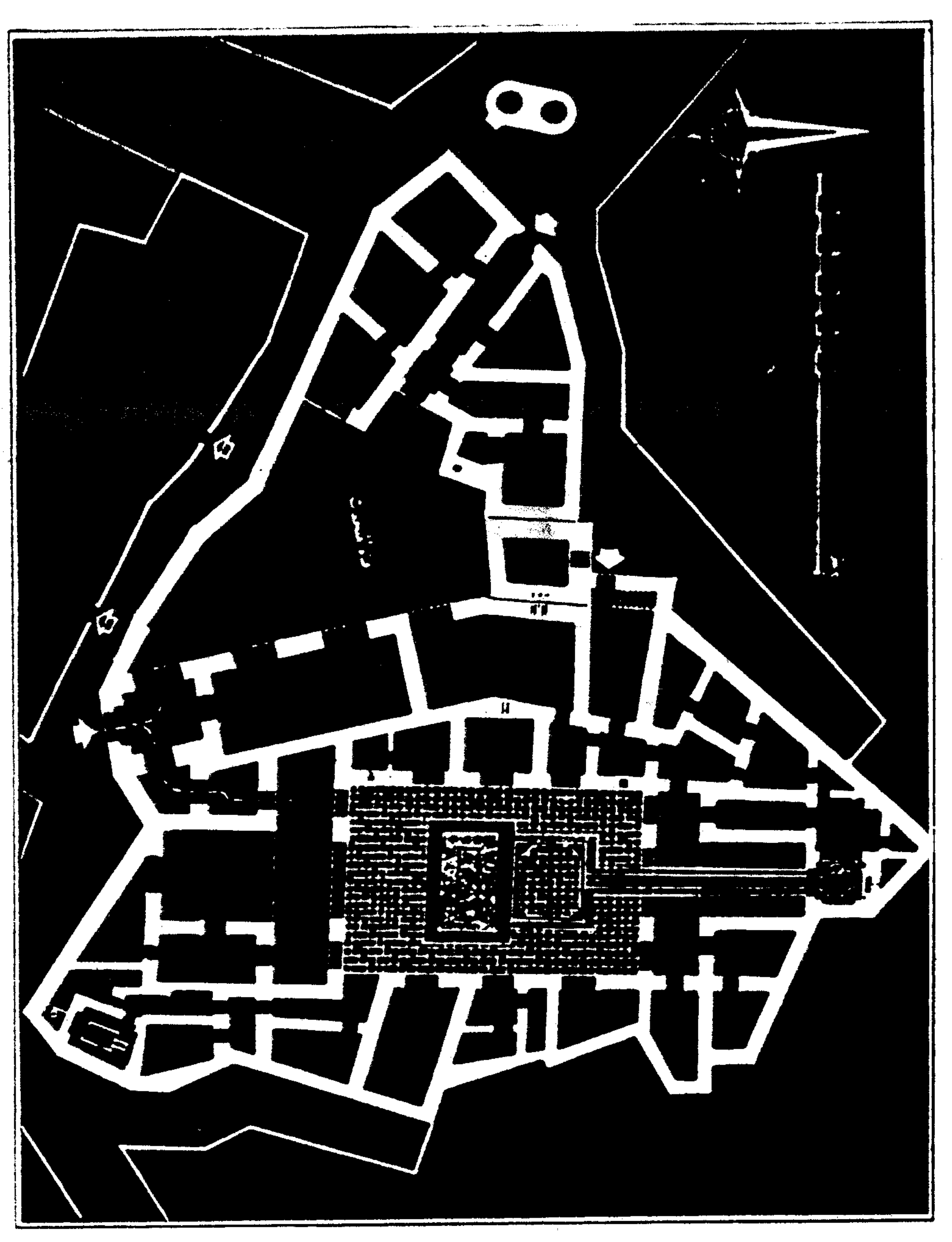
والحق أن هذه الدار تشبه إلى حد كبير من حيث التخطيط الدار السابق الإشارة إليها، فهي تشتمل على فناء أوسط مكشوف يتعامد عليه من الشمال والجنوب جناحان يتألف كل منهما من إيوان أوسط يكتنفه غرفتان من شرق وغرب ويتقدم الجميع سقفية مستعرضة تفتح على الفناء من خلال فتحات ثلاث، على حين وزعت بقية وحدات الداار على جانبي الفناء الشرقي والغربي، أي أنها تشبه تخطيط الدور الطولونية.

ومن المعروف أن هذا النوع من التخطيط أي الإيوان الأوسط والغرف الجانبية والسقفية المستعرضة، وجد للمرة الأولى في بعض بيوت قصر الأخيضر الذي عثر عليه في بادية العراق، والذي ينسب إلى حوالي سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٧م، كما



شكل (٦)

البيت الطولوني الثاني، مسقط أفقي، عن فريد شافعي



شكل (٧)

البيت الطولوني السادس، مسقط أفقي، عن فريد شافعي

استخدم كذلك في بيوت مدينة سامراء التي تنسب إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع للميلاد، ولعله منقول عن قصر شرين الذي ينسب إلى كسرى الفرس خسرو أبراويز الذي حكم فيما بين ٥٩٠ - ٦٢٨م.

بقي أن نشير إلى أن هذه الدور كانت مزودة بشاذروان، أي بلاطة مستطيلة من الرخام أو الحجر، يعلو سطحها زخارف متنوعة بالحفر البارز، كانت تثبت في صدر الإيوان في وضع مائل يعلوها صنبور يسيل منه الماء متعرجا فوقها فيلطف جو المكان ويضفي عليه منظرا جميلا وهو يسيل منحدرا أسفل البلاطة، ومنها إلى قناة تمتد فوق أرضية الإيوان أو أسفلها حتى تصل إلى الفوارة التي تتوسط فناء البيت.

كما كانت هذه الدور مزودة بآبار منقورة في الصخر لتزويدها بالمياه اللازمة التي كانت تجلب من نهر النيل على ظهور الحمالين أو بواسطة الدواب، فقد ذكر المقريزي أن الدار الواحدة كان يصب لمن فيها، إبان هذا العصر، أربعمائة راوية ماء في كل يوم، كما ذكر أن عدد الأسطال التي كانت بالطاقات المطلة على النيل، ستة عشر ألف سطل مؤيدة ببكر وأطناب بها ترخى وتملأ.

كنيسة العذراء بدير السريان

ووصلنا أيضًا من العصر الطولوني أثر معماري أخير يوجد في بقعة من الصحراء في الشمال الغربي من مدينة القاهرة في وادي النطرون، حيث شيدت أديرة لرهبان المسيحيين كدير البراموس، ودير الأنبا بشواي ودير أبي مقار، ودير السريان.

إذ يوجد في دير السريان كنيسة صغيرة عبارة عن قاعة تعرف بكنيسة العذراء، زينت الأجزاء العليا من جدرانها بأشرطة وحشوات مسطحة وغائرة، تنتشر داخلها وفيما حولها زخارف جصية معظمها من النوع النباتي المتطور من طراز سامراء الثالث، تبدو أوثق صلة بهذا الطراز من زخارف الجامع الطولوني نفسه؛ لذا يرجع نسبتها إلى حوالي سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م.

ثبت بأسماء حكام الدولة الطولونية

*	أحمد بن طولون	٢٥٤هـ/ ٨٦٨م.
*	خمارويه بن أحمد بن طولون	٢٧٠هـ/ ٨٨٣م.
*	أبو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢هـ/ ٨٩٥م.
*	أبو موسى هارون بن خمارويه	٢٨٣هـ/ ٨٩٦م.
*	شيبان بن أحمد بن طولون	٢٩٢هـ/ ٩٠٥م.

* * *



عمائر الدولة الإخشيدية

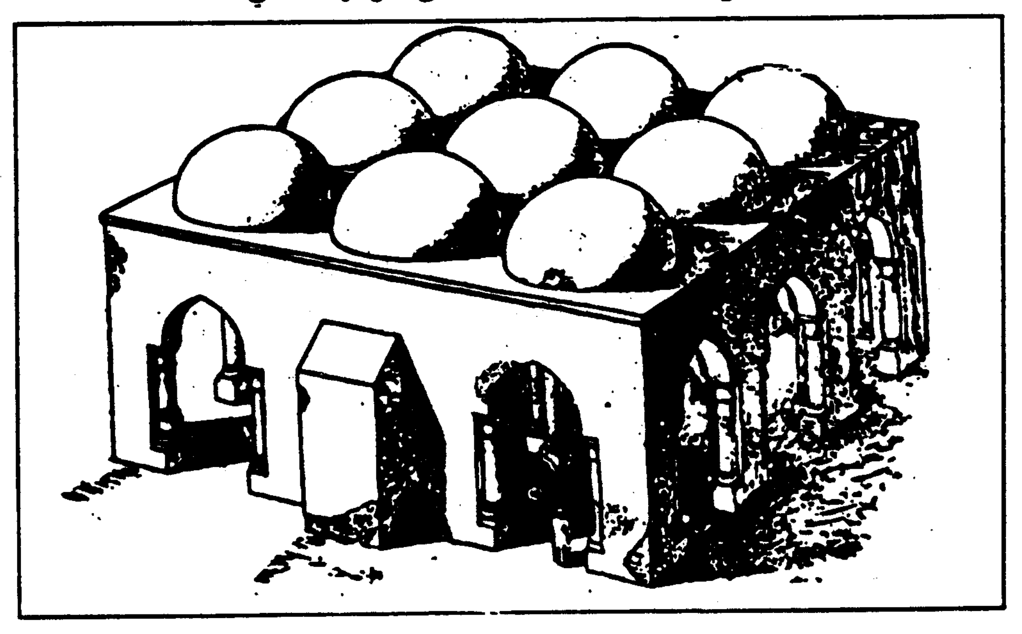
٣٢٣ - ٣٥٨هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩م



مشهد آل طباطبا

شهد العصر الإخشيدى على قِصره تشييد العديد من العمائر التي لم يصلنا منها سوى مشهد آل طباطبا الذي يرجع إلى سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م. وهو يقع على بعد خمسمائة متر غربى مشهد الإمام الشافعي وعلى نحو مائتين وثلاثين مترا شمالي حمامات عين الصيرة بالقاهرة، وهو عبارة عن مساحة مستطيلة غير منتظمة الشكل يبلغ طولها نحو ثلاثين مترا، وعرضها نحو عشرين مترا، يشغل طرفها الجنوبي قبتان ويحيط بها جدار به مدخل في الجهة الشمالية الشرقية، يوجد على يساره حجرة حديثة البناء مربعة الشكل يعلوها قبة، تضم بداخلها بئرا كانت تغذي المشهد بالمياه، يتصل بها بناء مستطيل الشكل يضم ست غرف يعلوها قباب وأقبية بعضها متقاطع تضم مقابر أسرة طباطبا، تفضي من جهتها الغربية إلى مصلى مربع الشكل يبلغ طول ضلعه ثمانية عشر مترا مشيد من الآجر يشتمل على ثلاث بلاطات بواسطة صفين من الدعامات ذات أعمدة ملتصقة في الأطراف الأربعة، على عكس الحال بالنسبة لدعامات الجامع الطولوني ذات الأعمدة المخلقة في الأركان الأربعة. ويغطي المصلى تسع قباب، بكل بلاطة ثلاث منها، كما يتصدر الجدار الشرقي محراب بسيط له بروز خارجي، ويشبه هذا المشهد في تصميمه، مشهد السبعة والسبعين وليا بأسوان وكذا مئذنة بلال بالقرب من السد العالي، مما دفع كريسويل عالم العمارة الإسلامية الراحل، إلى نسبته إلى سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، أي إلى سنة وفاة الشريف طباطبا الأصغر حسبما ورد في تاريخ ابن الزيات الذي أشار إلى أسماء كل من دفن في هذا المشهد من أسرة طباطبا من بينهم عبد الله بن أحمد أخو طباطبا الأصغر الذي توفى سنة ٣٤٨هـ/ ٩٥٩م، والذي كانت تربطه علاقات وثيقة مع كافور، فقد اعتاد أن يبعث إلى كافور كل يومين بصحنين من الحلوى ورغيف في منديل مختوم. فحسده بعض الأعيان وقال لكافور أن إرسال الرغيف إلى الأمير أمر لا يليق، فأرسل كافور إلى الشريف العلوي يسأله أن يعفيه من الرغيف، فأدرك عبد الله أنهم حسدوه وقصدوا إبطال

شكل (٨) مشهد طباطبا، مسقط أفقى، عن فريد شافعي



شكل (٩) مشهد طباطبا، منظور لحالته الأصلية، عن فريد شافعي

عـادته فذهب إلى كـافور وقـال له: «أيدك الله إنا لا نـنفـذ الرغـيف تطاولا ولا تعاظمـًا، وإنما هي صبية حسنية تعجنه بيدها وتخبزه فنرسله على سبيل التبرك فإذا كرهته قطـعناه» فقـال كافور: «لا والله لا تـقطعه ولا يكـون قوتي سواه». وعاد العلوي إلى ما كان عليه من إرسال الحلوى والرغيف.

ومن المنشآت الإخشيـدية الدارسة تتحدث المصادر التاريخية عن قصر المختار والبسـتان الذي شيـده الإخشيـد في جزيرة الروضـة سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م، وكان يفاخر به أهل الـعراق. وهناك أيضًا الـبستان الذي أنشأه شـمالي الفسطاط والذي عـرف فيما بعد باسم البستان الكافـوري، وأصبح جزءا من مدينة القاهرة الفاطمية واتخـذه الفاطميون متـنزهًا لهم، وتشيـر الروايات التاريخـية أيضًا إلى العديد من المساجد الـتي شيدت إبان هـذه الفترة ومـنها مسـجد الريح، ومسـجد عبد الله، ومسـجد الزمام ومسجد ابن عروس، ومسـجد الأقدام، ومسجد موسى، ومسجد الفـقاعي في سفح جبل المقطم وقد بناه كافور. ويفهم كذلك من هذه الروايات أن كافورا شيَّد بـعض القصور الجميلة في مصر مثل دار الفيل التي عرفت بهذا الاسم لأنها كانت تـضم عددا من الأفيلـة وقد سكنـها من سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م إلى أن تـوفى سنـة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م. وكان هنـاك أيضـًا البيـمارسـتان الـذي ينسب إلى الإخشيد ويـعرف في المراجع باسم الـبيمارستـان الأسفل تميـيزا له عن المارستان الطـولوني، الذي يـنسب خطـأ إلى كافور في سـنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م. ويجب ألا ننسى كذلك الجوسق الذي شيده في القرافة الوزير أبو بكر محمد بن علي المادرائي وكان على هيئة الكعبة. وكان الناس يجتمعون عنده في الأعياد ويوقد كله في ليلة النصف من شـعبان ويجتمع القراء حوله لقراءة القرآن الكريم. هذا عدا العديد من القيساريات لبيع المنسوجات التي كان يحبس دخلها على البيمارستان الإخشيدي.

ومن العمائـر الإخشيدية الدارسة نـشير في النهايـة إلى السبع سقايات التي شـيدها الوزيـر جعفر بن الـفرات في سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م لجـلب الماء إلى سكان مدينة الفسطاط في موسم الجفـاف، من منطقة الروضة وحفر لـها بئرا لينقل منها الماء إلى تـلك السقايـات التي أنشأها وحـبسها لجـميع المسلـمين التي كانت بخط

الحمـراء ونقش عليها الـنص التالي «بسم الله الرحـمن الرحيم. لله الأمر من قبل ومن بعد وله الشكـر، وله الحمد ومنه المن على عبده جـعفر بن الفضل بن جعفر ابن الفرات، وما وفـقه له من البناء لهذه الـبئر وجريانهـا إلى السبع سقايات التي أنشأها وحـبسها لجـميع المسلمـين وحبسه وسبـله وقفا مؤبدا لا يـحل تغييره ولا العدول بشيء من مائه، ولا ينقل ولا يبطل ولا يساق إلا إلى حيث مجراة السقايا المسبلة، فمن بدله بعدما سمـعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم، وذلك في سنة خمس وخمسين وثلثمائة وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم».

وبمرور الوقت تخربت تلك السقايات وبـني فوق البئر المذكورة، وتولد فيها كثير من الوطاويط، فعرفت ببئر الوطاويط.

وقد عثر بـالفعل علـى لوحة حجريـة كبيرة في حـي الصليبـة عند مدخل الشارع الصغـير الذي يصل شارع الصـليبة بجامع أحـمد بن طولون، والذي كان يعرف باسم عطـفة بئر الوطاويط، تهـشم أغلبها ولم يبق مـنها سوى ثلاثة أسطر تؤكد رواية المقريزي.

* * *

ثبت بأسماء حكام الدولة الإخشيدية

*	محمد بن طغج الإخشيد	٣٢٣هـ/ ٩٣٥م.
*	أبو القاسم أنوجور	٣٣٤هـ/ ٩٤٦م.
*	أبو الحسن علي بن الإخشيد	٣٤٩هـ/ ٩٦٠م.
*	أبو المسك كافور	٣٥٥هـ/ ٩٦٦م.
*	أبو الفوارس أحمد بن علي	٣٥٨هـ/ ٩٦٩م.



عمائر الدولة الفاطمية

٣٥٨ - ٥٦٧هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م

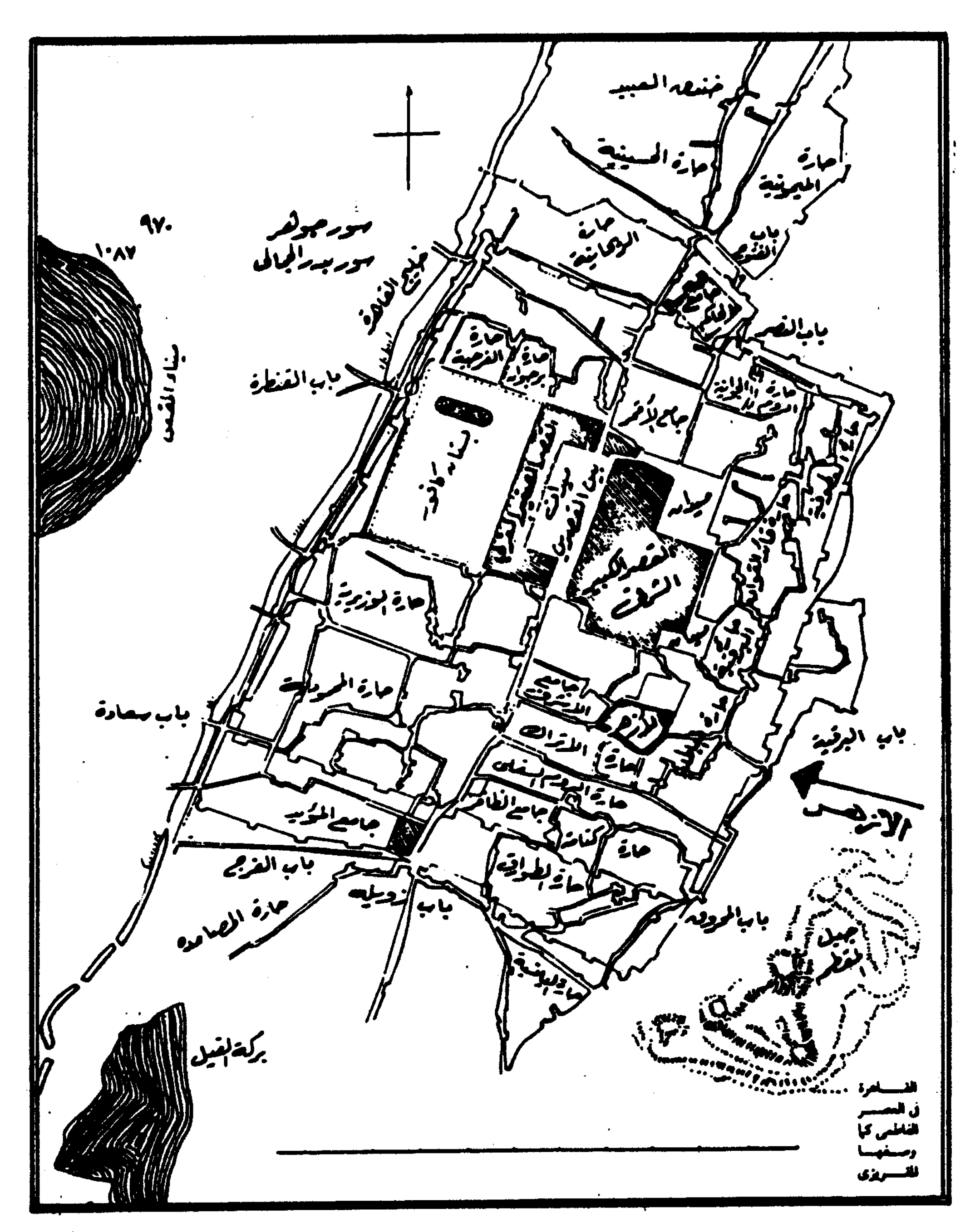


يـرتفع عدد الآثار الباقية من العصر الـفاطمي إلى سبعة وعشرين أثرً عدا ما اندثـر منها، بيد أنـنا لن نستطيع أن نـتعرض هنا إلا للـبارز والهام من هذه الآثار الفاطمية.

مدينة القاهرة

في ١٧ شعبـان سنة ٣٥٨هـ/ ٦ يوليـو ٩٦٩م سار الجيش الفـاطمي بقيادة جوهر الصقلبي في مديـنة الفسطاط، بعد الاستيلاء عـليها من بقايا الإخشيديين، وهو يحمل لواء الـنصر، حتى حط الرحال في الســهل الرملي الواقع إلى الشمال من الفسطـاط، وهو سهل يحده من الشرق جبل المـقطم، ومن الغرب خليج أمير المؤمـنين. وكان هذا الـسهل خالـيا من البنـاء إلا قليلا، مثل بـقايا بسـتان كافور الإخـشيد، وحصن صغير يسمى قصر الشـوك، ودير مسيحي يعرف بدير العظام، وهو المكان الذي يشغله حاليا الجامع الأقمر.

في هذا السهل اختط جوهر في ليلة وصوله رابع مدن مصر الإسلامية، التي قرر تـأسيسها لتـكون مدينة مـلكية حصـينة للخلـيفة وأتباعه؛ كـما اختط القصر الـفاطمي، الذي أعده ليستقبل فيه مـولاه المعز لدين الله. وحينما أتت وفود أعيان الـفسطاط في صبـاح اليوم التـالي لتهنـئته بالفـتح، وسلامة الوصول، وجدوا أن مواضع أسس البناء الجـديد كانت قد حفرت. وبنى جوهر سورا خارجيا من اللبن على هـيئة مربع. طول كل ضلع من أضـلاعه حوالي ١٢٠٠ متر، أدرك المقريزي في القرن التاسع الهجري/ الخـامس عشر الميلادي جزءًا منه فيـما بين باب البرقية ودرب بطوط، خـلف السور الحالي الـذي بناه فـيما بـعد صلاح الدين الأيوبي، وأبدى دهشته من كبر حجم الـطوب المستخدم في البناء، إذ بلغ طول الواحدة منه قدر ذراع في ثلـثي ذراع، كما أشـار إلى أن هذا الســور كان من الســمك بحيث يـستطيع أن يمر فوقه فارسان جنـبا إلى جنب. ومن الظريف أن ياقوت الحموي قد أشار إلى روايـة مشابهة عند حديـثه عن جدران مدينة المهديـة، عاصمة الفاطميين



شكل (١٠)

خريطة لمدينة القاهرة في العصر الفاطمي، عن الأزهر في عيده الألفي

الأولى في شمال أفريقيا. ولعل السبب في بناء الأسوار بهذا السُمك راجع إلى تمكين الحامية المدافعة عن المدينة من التجمع السريع عند أية نقطة معرضة لأن يتسورها الأعداء، أو يهاجموها بطريقة أو بأخرى.

ونظرا لأن الأعمال الإنشائية قد تمت في ليلة وصول الجيش الفاطمي، فإن جوهر الصقلبي قد لاحظ في صباح اليوم التالي أن جدران السور والقصر جاءت غير معتدلة، فلم تعجبه، ومع ذلك فقد تركها على حالها، واستمر في تشييد البنيان حتى أكمله. وكان كل ضلع من أضلاعه يواجه إحدى الجهات الأصلية إلى حد كبير، فقد كان الضلع الشرقي في محاذاة جبل المقطم، والضلع الغربي في محاذاة الخليج، والضلع الجنوبي في مواجهة مدينة الفسطاط، والضلع الشمالي في مواجهة السهل الرملي. وقد ضم هذا السور جميع المنشآت الداخلية بالقاهرة، فبدت المدينة كأنها حصن عظيم يدور حوله سور سميك. وقد اختلف المؤرخون في الغرض الذي أقيم من أجله، فمن قائل أن جوهرًا «قصد باختطاط القاهرة - حيث هي اليوم - أن تصير حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها، فأدار السور اللبن على مناخه الذي نزل فيه بعساكره، وأنشأ داخل السور جامعا وقصرا، واعتبرها معقلا يتحصن به، وتنزله عساكره، واحتفر الخندق من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراءها من المدينة». على حين رأى بعض آخر في هذا السور هدفا أرستقراطيا يختلف عن هدف التحصين، كما يفهم من عبارة المؤرخ ابن دقماق حين يقول إن جوهرًا «بنى لسيده القاهرة والقصور، ليكون هو وأصحابه وأحفاده بمعزل عن العامة. وعلى هذه العادة فعل ملوك بني عبد المؤمن ذلك في مراكش وتلمسان وغيرها».

وعلى هذا فمن المرجح أن يكون جوهر قد قصد الغرضين معا، بمعنى أنه استطاع أن يحصن المدينة تحصينًا كافيا، وأن يعوق في الوقت نفسه عامة الشعب في كل من الفسطاط والعسكر والقطائع من الوصول إلى القاهرة، فقد كان محظورًا على أي فرد اجتياز أسوار القاهرة إلا إذا كان من جند الحامية الفاطمية، أو من كبار موظفي الدولة، كما كان الدخول إليها وفق تصريح خاص، عن طريق

الأبواب الثمانية التي فتحها جوهر في السور، وهي: اثنان في السور الشمالي هما باب الفتوح، وفي شرقه باب النصر، وباب بعقدين في السور الجنوبي يطلق عليه باب زويلة، وافتتح جوهر إلى الغرب منه بابا آخر أسماه باب الفرج. أما بابا الضلع الشرقي للسور فهما باب البرقية، الذي كشف عنه في عام ١٩٥٧م في أثناء إزالة تلال البرقية، وهو يعرف أيضًا بباب التوفيق. أما الباب الثاني في هذا الضلع فهو باب القراطين، الذي عرف فيما بعد بالباب المحروق. وقد عرف بهذا الاسم نتيجة لما فعله سبعمائة مملوك كانوا قد هربوا من القاهرة عندما علموا بمقتل الأمير أقطاي في ٢١ شعبان سنة ٦٥٢هـ/ ٦ أكتوبر ١٢٥٤م، حيث تركوا منازلهم في أثناء الليل، وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقًا كما جرت العادة بذلك، فأوقدوا النار في الباب حتى سقط من الحريق، وخرجوا منه. ومنذ ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق.

وفي الضلع الغربي كان هناك بابان كذلك، أولهما باب القنطرة الذي بناه جوهر بعد سنتين من بناء السور نفسه، وأقام أمامه قنطرة فوق الخليج ليمشي عليها إلى المقس ليدافع عن القاهرة ضد القرامطة الذين هاجموا مصر في شوال سنة ٣٦٠هـ/ أغسطس ٩٧١م. أما الباب الثاني فهو باب سعادة، الذي عرف بهذا الاسم تيمنًا باسم سعادة بن حيان، غلام الخليفة المعز لدين الله، الذي يقال إنه دخل بجيشه مدينة القاهرة من هذا الباب في رجب سنة ٣٦٠هـ/ مايو ٩٧١م.

ويجمع الباحثون الذين تناولوا موضوع تأسيس مدينة القاهرة على صحة القصة المتواترة في المصادر بصدد اعتماد جوهر على المنجمين عند ابتداء بناء السور، إذ أصدر إليهم الأوامر باختيار طالع سعيد لتأسيس أسوار القاهرة وأبوابها وقصورها. وعندما حفرت الخنادق لبناء أسس الجدران، ثبتت فيها قوائم ربطت بحبال علقت عليها أجراس، حتى إذا حانت الساعة المحددة، أرسل المنجمون الإشارة الخاصة بالبدء فى العمل، وأمر العمال بأن يقفوا على تمام الأهبة لإلقاء مواد البناء في الخنادق المعدة لذلك، عندما تصدر إليهم الإشارة بذلك، وهي دق الأجراس. ولكن قبل أن تحين اللحظة المقررة، وقع غراب على الحبال المشدودة،

فدقت الأجراس، فظن العمال أن المنجمين قد أعطوا إشارة البدء في العمل، فألقوا الأحجار ومواد البناء في الخنادق المحفورة. وفي هذه اللحظة كان كوكب المريخ في الطالع، وكان يطلق عليه قاهر الفلك، فسميت المدينة «القاهرة». ومع هذا هناك بعض الباحثين الذين يشكون في صحة هذه الرواية، استنادًا إلى قصة مشابهة رواها المسعودي بصدد بناء الإسكندر لمدينة الإسكندرية. وهذا يدفع إلى الاعتقاد أن هذه الرواية خرافة من الخرافات التي أراد بها المؤرخون القدامى تفسير إطلاق اسم القاهرة على هذه المدينة، فقد عرفت في أول الأمر باسم المنصورية تيمنًا باسم المنصورية، التي أنشأها المنصور بالله، ثالث الخلفاء الفاطميين، خارج مدينة القيروان بشمالي أفريقيا، ولم تعرف بالقاهرة إلا بعد أربع سنوت، بعد أن حضر الخليفة المعز إلى مصر، ورأى من قراءاته الخاصة للطالع أن هذه التسمية فأل حسن، إذ رأى أن اسم القاهرة مشتق من القهر والظفر، فأطلق عليها اسم القاهرة. ومع هذا أشارت بعض المصادر إلى أن موقع القاهرة لم يرق في نظر الخليفة لأنها بغير ساحل، وأنه وجه اللوم إلى جوهر قائلاً: «فاتك عمارة القاهرة على الساحل» - عند المقس - «فهلا كنت بنيتها على الجرف» أي منطقة الرصد في جهة مصر القديمة؛ لأن هذه المنطقة كانت تشرف على النيل وبركة الحبش، وجمعت بين السهل والجبل، وبين الخضرة والماء.

ويفهم من المصادر التاريخية أن سور القاهرة الذي بناه جوهر لم يعمر أكثر من ثمانين سنة، إذ كان قد تهدم في عصر الخليفة المستنصر بالله، فاستبدال به بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر سورا آخر بناه ثلاثة من الإخوة، أحضرهم من مدينة «الرها» في شمال العراق بأرض أرمينية وذلك بعد أن وسع رقعة القاهرة بمقدار ١٥٠ مترا إلى شمال السور القديم، وحوالي ثلاثين مترا إلى الشرق، ومثلها إلى الجنوب. وقد تم تشييد هذا السور فيما بين سنة ٤٨٠ - ٤٨٥هـ/ ١٠٨٧ - ١٠٩٢م، سورا موازيا للأسوار والأبواب القديمة، من الحجر المنحوت، المصقول السطح، المثبت في مداميك منتظمة، ليكون أوفى بأغراض الدفاع عن القاهرة. وقد بقي من هذا السور الجديد ثلاثة أبواب مهمة، هي: باب النصر،

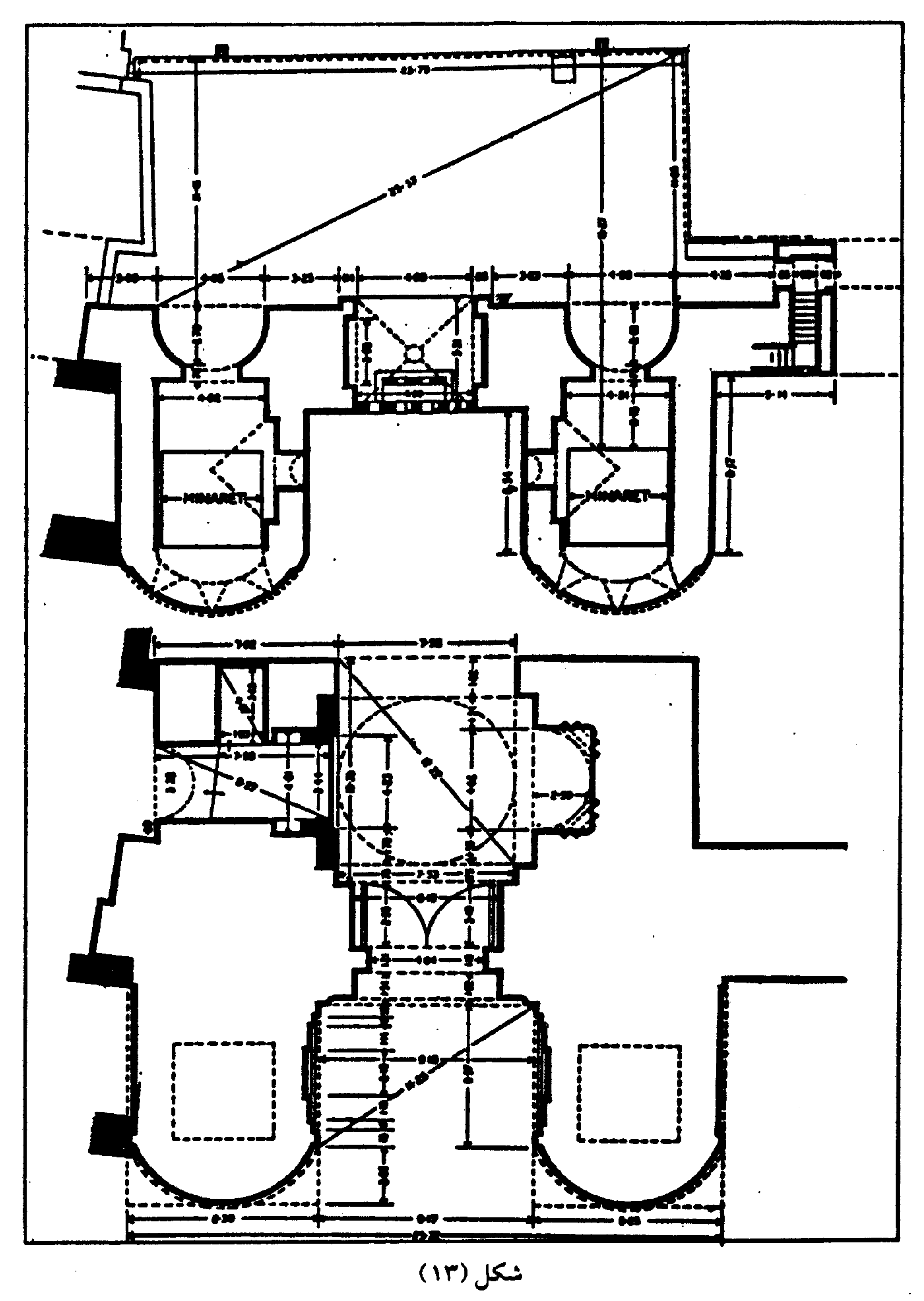
شكل (١١) باب النصر، مسقط عن كريسويل

شكل (١٢) باب الفتوح، مسقط أفقي عن كريسويل

وباب الفتوح شمالا، وباب زويلة جنوبا. وأقدمها جميعًا باب النصر المعروف بباب العز، الذي شيد بين برجين مربعين، نقش على أحجارهما رسوم تمثل بعض آلات القتال من دروع وسيوف. ويعلو الباب فتحات أعدت لكي تصب منها المواد الحارقة على العدو المهاجم. وممر الباب يغطيه قبو متقاطع ولكل برج سلم يوصل إلى دورين آخرين فوق الدور الأرضي المصمت. وبالدور الأوسط حجرات تسقفها قباب ضحلة على مثلثات كروية شيدت من أحجار منحوتة. ويتوج باب النصر شريط به نقش كتابي بالخط الكوفي، يسجل لنا تاريخ إنشاء هذا الباب والسور الشمالي في سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م. ويعلو المدخل عقد مستقيم من صنج معشقة في شكل زخرفي، يعد الأول من نوعه في عمارة القاهرة الفاطمية.

وقد أقيم باب الفتوح المعروف بباب الإقبال في السنة نفسها، ولكنه يختلف من حيث التخطيط عن باب النصر، إذ نجد أن برجيه مقوسا القاعدة، وقد حليت جوانبهما بعقدين مغلقين نحتت حجارتهما على هيئة وسائد حجرية صغيرة متلاصقة، تعد الأولى من نوعها، كما يتوج مدخله مجموعة من العقود، زينت بأشكال متنوعة من معينات وأزهار ونجوم ومحارات وفصوص تذكرنا بزخارف العمارة المغربية في تونس. كما أن ممر البوابة تعلوه قبة ضحلة، مشيدة من الحجر فوق مثلثات كروية، على حين سقفت أبراج الدور الأوسط بأقبية متقاطعة.

أما باب زويلة فقد تم تشييده مع السور الجنوبي للقاهرة في سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م. وكان يتقدمه زلاقة كبيرة تغير بعض مظاهرها في زمن السلطان الكامل الأيوبي. ويفهم من المقريزي أن بدنتي هذا الباب كانتا أكثر علوا مما هما عليه الآن، إلا أن السلطان المؤيد شيخ هدم أعلاهما عند بناء مسجده في سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، وأقام عليهما مئذنتي مسجده. وبرجي باب زويلة مقوسي القاعدة، ويشبهان برجي باب الفتوح، ولكنهما أكثر استدارة، وممر الباب يعلوه أيضًا قبة ضحلة، ترتكز على مثلثات كروية، وإن كانت أغلب زخارف واجهته قد اختفت تمامًا، في الوقت الذي بقيت فيه جدرانه خير شاهد على عظمة فن البناء في زمن الدولة الفاطمية. وبذا صدق الشاعر محمد بن علي النيلي حين قال:



شكل (١٣)

باب زويلة، مسقط أفقي، عن كريسويل

يا صاح لو أبصرت باب زويلة لعلمت قدر محله بنيانا

لو أن فرعونا رآه لم يرد صرحا ولا أوصى به هامانا

في قلب هذه المدينة نمت أول بذور العمارة الفاطمية، حيث وضع جوهر أساس السور المحيط بالقاهرة، والقصر الكبير الذي أعده لنزول الخليفة المعز. وقد تلاشى هذا القصر عقب سقوط الدولة الفاطمية، ولم يبق لنا منه سوى الوصف الذي جاء في بعض المصادر التاريخية، ويفهم منه أنه كان يشتمل على تسعة أبواب، وأنه كان يشغل مساحة تقرب من سبعين فدانًا من جملة مساحة القاهرة البالغة ٣٤٠ فدانًا، وأنه كان يتألف من خطط وأحياء تخترقها الطرقات والمسالك التي تفضي إلى أجزائه المختلفة فوق الأرض، أو في داخل السراديب المارة تحت الأرض. وكانت تضيئه الرحبات الكبيرة غير المسقوفة، أو الأفنية الداخلية الصغيرة. ويفهم من الوصف الذي جاء بالمصادر التاريخية أن بعض السراديب كان مظلمًا تمامًا، وحسبنا دليلا على ذلك الوصف الفريد الذي وصل إلينا عن هذا القصر عند زيارة رسولي الملك عموري (أملريك) للخليفة العاضد فى سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م ليعقدا معه، باسم سيدهما تحالفا قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتي ألف دينار معجلة، ومثلها مؤجلة، نظير دفاعهم عن مصر وصدٍّ الأعداء عنها. وقد نقل لنا غليوم رئيس أساقفة صور وصف هذه الزيارة، وعبر عن حماسة الرسولين، وإعجابهما بعظمة ما رأياه، بقوله: «وسار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة عظيمان، وفيه زخارف أنيقة نضيرة... ووجدوا في هذا القصر حراسا عديدين، وسار الحراس في طليعة الموكب، وسيوفهم مسلولة، وقادوا الفرنج في دهاليز طويلة ضيقة، وأقبية حالكة الظلمة، ولا يستطيع إنسان أن يتبين فيها شيئًا... ولما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة، كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلحين... ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف، تحيط به أروقة ذات عمد، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان، وفيها تذهيب خارق للعادة بنضارته وبهائه، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة... وكان في وسط الفناء نافورة يجري الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات

مرصوفة بالرخام. . . وكانت ترفرف في الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة. ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة إعجابا بها. . . ومن هذا الفناء سار الموكب إلى أفنية عديدة أشد جمالا وإبداعا، ثم إلى بستان لطيف رأوا فيه أنواعا غريبة من الحيوانات ذات الأربع. وبعد أن عبروا أبوابا عديدة أخرى، وساروا في تعاريج كثيرة، وصلوا إلى القصر الكبير حيث يقطن الخليفة. وقد فاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك. وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين، متقلدين أسلحتهم، وعليهم الزرد والدروع، تلمع بالذهب والفضة. ثم أدخل المبعوثون في قاعة واسعة، تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المتعدد الألوان، وعليها رسوم الحيوان والطير وبعض المناظر الآدمية. وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار الكريمة. . . والخليفة جالس على عرش من الذهب المرصع بالجواهر والأحجار الثمينة».

وكان بالقاهرة عدا هذا القصر قصر آخر إلى الغرب منه، عرف بالقصر الغربي، شيده الخليفة العزيز بالله، ووصفه المسبحي بأنه «لم يبن مثله في شرق ولا في غرب». وكان له أيضًا عدة أبواب، أهمها باب الساباط، وباب التبانين، وباب الزمرد، وكان يتصل بالقصر الكبير الشرقي بواسطة سرداب تحت الأرض كان ينزل منه الخليفة ممتطيا ظهر بغلته، تحيط به فتيات القصر. وقد تم اكتمال بناء هذا القصر في سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م في زمن الخليفة المستنصر، الذي أقام فيه وغرم عليه ألفي ألف دينار وكان يشتمل على عدة أماكن، من جملتها قاعة كبيرة سكنتها ست الملك، أخت الخليفة الحاكم بأمر الله، وأقيم عليها فيما بعد بيمارستان المنصور قلاوون، كما سوف نرى فيما بعد.

وكان أمام القصر الكبير الشرقي، وفيما بينه وبين القصر الغربي، ميدان فسيح، كانت تقام فيه حفلات عرض الجيش، حيث يقف فيه عشرة آلاف فارس بين فارس وراجل، واشتهر فيما بعد باسم بين القصرين، كما كان هناك ميدان آخر بجوار القصر الغربي، يجاور البستان الكافوري المطل على الخليج.

وإلى جانب هـذه القصور التي عرفت فـي المصادر التاريخـية باسم القصور الزاهـرة، احتـوت القاهـرة على مجـموعـة أخرى من المبـاني، نذكر مـنها: دار الضيـافة، ودار الضرب، ونـعني بها دار سك الـنقود، والمنـظرة بالجامع الأزهر، والمنـظرة بجوار الجـامع الأقمر، ودار الحكـمة، والتربـة المعزية التـي عرفت بتربة الزعفران، وغـيرها من المنشآت التي حفلت بـها هذه المدينة، والتي لم تستطع في الواقع أن تقاوم عـوادي الزمن، فاندثرت وتلاشت، ولم تـعد سوى مجرد ذكرى تفيض بأخبارها المصادر والمراجع.

الجامع الأزهر

إلى الجنوب الشـرقي داخل مدينة القاهرة، وعلى مـقربة من القصر الشرقي الكبيـر، فيما بين حي الديـلم في الشمال، وحي التـرك في الجنوب، أقام جوهر الصقـلبي الأزهر، رابع المساجد الجامـعة في مصر، ليكون المـسجد الرسمي لمدينة الـقاهرة. وقد بـدأ في بنائه في يـوم السبت لـست بقين من جـمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ/ ٤ أبريل ٩٧٠م. وانتهى العمل مـنه، وأقيمت أول جمعة فيه في السابع من رمـضان سنة ٣٦١هـ/ ٢٢ يونيو ٩٧٢م، وكتب بـدائر القبة على يمين المحراب ما نصه:

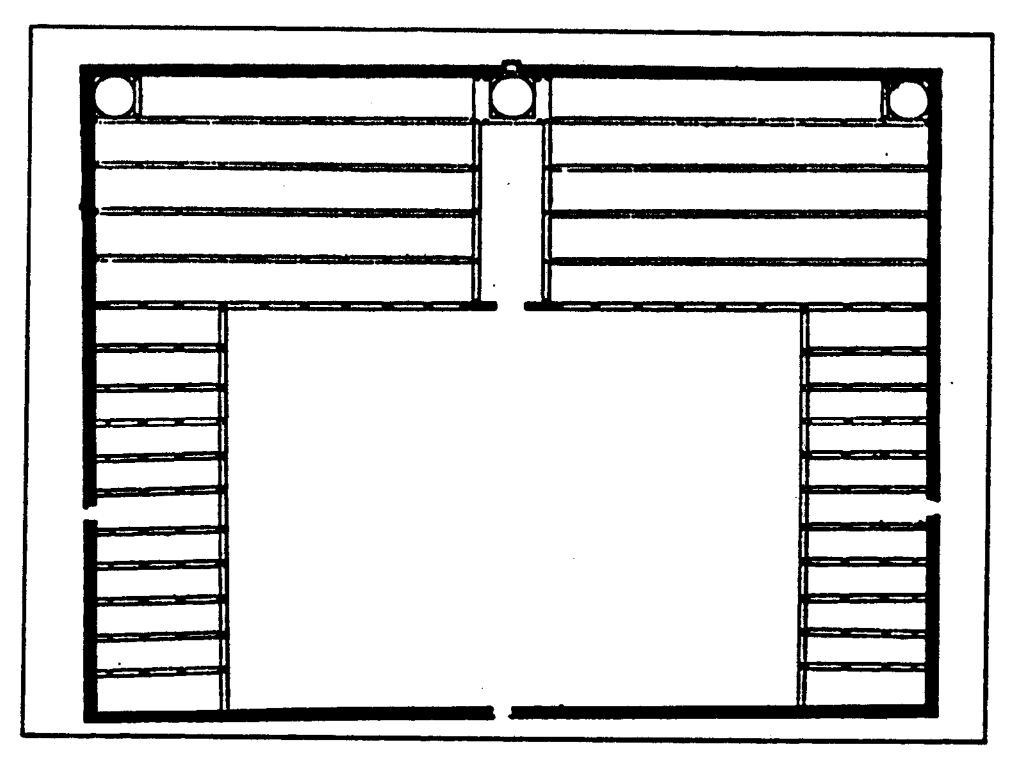
«بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد، الإمام المـعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عـليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلبي وذلك في سنة ستين وثلثمائة». ولكن هذه الكتابة لم تعمر طـويلاً، واندثرت مع القبة بـسبب التغيرات الـتي طرأت على عمارة الجامع على مـر العصور المختلفـة. والجدير بالذكر هـنا أن الجامع الأزهر، وقت إنشائه، كان يشغل مـساحة مستطـيلة، تبلغ مقـاييسها الخارجـية ٨٥ مترا طولا و٧٠ مترا عرضا، ويـتألف من صحن أوسط مكشـوف ومستطيل الـشكل، طوله ٥٩ مترا، وعرضه ٤٣ مـترا، يحيط به ثلاثة أروقة: الشـرقي منها يتألف من خمس بلاطات موازية لجدار القـبلة، عرض كل منها حوالي أربـعة أمتار وربع. وكان يعلو بلاطة

المحراب ثلاث قباب: واحدة أمام المحراب، وواحدة في الطرف الشمالي الشرقي، وثالثة في الطرف الجنوبي الشرقي. وهذا ما يستشف من وقفية الخليفة الحاكم بأمر الله، التي وقفها علـى هذا الجامع، والتي جاء فيها أنه أوقف أربعة وعشرين دينارًا «لمؤنة النحاس والسلاسل والتنانير والقباب التي فوق سطح الجامع الأزهر».

ويقطع امتداد هذه البلاطات الخمس مجاز أو بلاطة تتجه عموديا على المحراب، ارتفعت عقودها على عمد مزدوجة، كما ارتفع سقفها عن مستوى بقية رواق القبلة، وقد زينت حافات عقودها بأشرطة كتابية بالخط الكوفي، تحتوي على آيات قرآنية، كما زينت واجهات عقودها بزخارف نباتية مورقة. ويلاحظ أن ظاهرة استخدام المجاز القاطع تظهر في الجامع الأزهر لأول مرة، ولعلها من بين التأثيرات المغربية التي وفدت على مصر مع الدولة الفاطمية. وكان هذا الرواق الشرقي يطل على الصحن بواسطة بائكة تتألف من ثلاثة عشر عقدا، عرض كل منها فيما بين الدعامات أربعة أمتار تقريبا، فيما عدا بلاطة المجاز العمودية، التي تبدو أكثر اتساعًا، إذ يبدو عرضها حوالي سبعة أمتار تقريبا.

أما بالنسبة للرواقين الشمالي والجنوبي، فهما أقل حجما من رواق القبلة، ويحتوي كل منهما على إحدى عشرة بلاطة موازية للمحراب، لكل منها ثلاثة عقود. أما الحد الغربي فكان يخلو من الأروقة، وكان يتوسطه المدخل الرئيسي للجامع، الذي رجح بعض المؤرخين أنه كان بارزًا على مثال جامع الحاكم بأمر الله، وأنه كانت تعلوه منارة المسجد، التي قيل أنها كانت رشيقة قصيرة، وكان يزين أعلى الجدران شبابيك من الجص، فرغت بأشكال هندسية، تتخللها مضاهيات مزخرفة، يتوجها أشرطة كتابية، نقش بها آيات قرآنية بالخط الكوفي، الذي شاع إبان العصر الفاطمي، وما تزال آثار منها تزين جدران القبلة الشرقية والشمالية والغربية.

بقي أن نشير إلى أن الجامع كان مزودا قت تشييده بثلاثة مداخل في جدرانه الشمالية والجنوبية والغربية، أما عن سبب تسميته بالأزهر فلعله مستمد من لفظ الزهراء، لقب السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ، على نحو ما رجح بعض



شكل (١٤)

الجامع الأزهر في العصر الفاطمي، مسقط أفقي، عن برندنبرج

الباحثين، وبخاصة أنه سميت باسمها مقصورة أنيمت في هذا الجامع. وربما كانت هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة، التي بنيت حينما أنشئت القاهرة، في حين يرى بعض آخر أنه سمي كذلك تفاؤلا بما سيكون له من الشأن والمكانة في ازدهار العلوم، وبخاصة أن هذه التسمية تشبه بعض الأسماء التي أطلقت على بعض منشآت هذا العصر، مثل مدينة الزهراء في الأندلس، التي شيدت سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م، بل ربما كانت هذه التسمية من باب المنافسة لها.

خلاصة القول أن الهدف من إنشاء الأزهر كان واضحًا منذ البداية؛ فقد رأى الفاطميون في إقامته مجاراة للتقاليد الإسلامية التي شرعها المسلمون عند تأسيس المدن، من ضرورة إقامة جامع لأاء فريضة الصلاة، ومناقشة شئونهم السياسية

والاجتماعية، ومن ناحية أخرى فإن جوهر الصقلي رأى من حسن السياسة وبعد النظر، إقامة جامع خاص بالفاطميين الشيعة، ليكون موطن تعاليمهم، حتى لا يفاجأ المسلمون من أهل السنة في جامعي عمرو بن العاص بالفسطاط، وأحمد بن طولون بالقطائع، بخطب الشيعة الدينية، التي تنص على مذهبهم، ودعوتهم لعلي، أفضل الوصيين، ووزير خير المرسلين.

لذلك كان طبعيا أن يحظى هذا الجامع بعناية الفواطم؛ فلم تكد تمضي مدة على إنشائه حتى عني بإصلاحه الخليفة العزيز بالله. وقد استجاب الخليفة لطلب وزيره يعقوب بن كلس بأن يصل رزق جماعة من الفقهاء، فقرر لهم مرتبات، وأعد دارا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حضروا، حسب رواية المقريزي، إلى الجامع، وعقدوا حلقات دروسهم بعد الصلاة إلى صلاة العصر.

وكذلك عني بأمره الخليفة الحاكم بأمر الله، الذي جدد مئذنته في سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، وأوقف عليه، وعلى جامع المقس، والجامع الحاكمي، ودار العلم أعيان دونها في وقفية كبيرة، نقلها إلينا المقريزي في خططه، عن المؤرخ ابن عبد الظاهر، يفهم منها أنه خص الجامع الأزهر بحصة كبيرة، وزعت على جميع مرافقه وشئونه.

وقد بقي من هذا العهد باب من الخشب التركي، محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، يتألف من مصراعين، في كل مصراع سبع حشوات مستطيلة، العليا منها تتضمن كتابات كوفية مورقة، نقشت بالحفر البارز، نصها: «مولانا أمير المؤمنين، الإمام الحاكم بأمر الله، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه». أما بقية الحشوات فيعلوها زخارف نباتية محفورة حفرا عميقا. ويلاحظ على هذا الباب أن الحشوات المكتوبة عليه قد قلبت، ربما عند إصلاحها وإعادة تركيبها.

كذلك جدد الخليفة المستنصر بالله المسجد فى أثناء خلافته الطويلة، التي امتدت من سنة ٤٢٧ - ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ - ١٠٩٤م، في وقت لم تحدده لنا المصادر التاريخية.

وقد بقي من عصر الخليفة الآمر بأحكام الله محراب من الخشب المنقوش وهو محفوظ كذلك في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، يعلوه لوح نقشت عليه كتابات تذكارية بالخط الكوفي المورق، يفهم منها أنه عمل برسم الجامع الأزهر في زمن الخليفة الآمر في شهور سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م.

والجدير بالذكر والملاحظة هنا أن أغلب عمارة المسجد قد ظلت حتى هذا التاريخ محتفظة بحال إنشائها، لم يطرأ عليها أية تغييرات بالحذف أو الإضافة، وأن كل الأعمال التي أجريت بالجامع، طيلة المائتي السنة الأول من حياته، اقتصرت على دعم مبانيه وترميمها، وتجديد زخارفها. ولذا فإن الخليفة الحافظ لدين الله يعد أول من أجرى فيه أعمالا مهمة، أضافت إليه عناصر جديدة فى التخطيط والعمارة والزخرفة في المدة بين سنة ٥٢٤ - ٥٤٤هـ/ ١١٢٩ - ١١٤٩م، إذ أضاف إلى الصحن رواقا يدور حوله من جهاته الأربع، وجعل في منتصف الرواق الملاصق لرواق القبلة مدخلا إلى المجاز، تعلوه قبة، حفلت جوانبها وقطبها بالزخارف والكتابات الكوفية، التي تحتوي على آيات قرآنية، وهي من أجمل نماذج الكتابات الكوفية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي، وتعد القبة كذلك من أقدم النماذج التي وصلت إلينا من القباب المنقوشة من الداخل بعد قبة مشهد الجيوشي. هذا وقد جعل الحافظ هذا الرواق يطل على الصحن بعقود قائمة على أعمدة، بدلا من الدعامات المحيطة بالصحن من عهد جوهر.

ولا يزال الجامع الأزهر يحتفظ حتى الآن بأجزاء مهمة من عناصره المعمارية الأصلية، بالرغم من أعمال التجديد والإضافة التي أجريت فيه على مر العصور المختلفة، فقد بقي مثلا كثير من العقود والدعامات الفاطمية التي أمكن الاستدلال عليها من شكلها ونظام زخارفها، فضلا عن الأوتار والروابط الخشبية بين العقود. وإذا حاولنا أن نلخص البقايا الفاطمية التي كانت في الجامع الأزهر قبل الإصلاحات الأخيرة التي قام بها المجلس الأعلى للآثار نجدها على الوجه التالي:

١ - عقود المجاز الأربعة الأولى من الجانبين، وما اشتملت عليه من زخارف وكتابات كوفية، وهي ترجع إلى عهد جوهر.

٢ - الزخارف الكتابية حول الشبابيك الجصية الباقية في الجانبين الشرقي والغربي، وفي أول الجانب الجنوبي من رواق القبلة، وكلها من عصر جوهر.

٣ - المحراب الكبير الأصلي بكتاباته ونقوشه التي اكتشفها المرحوم حسن عبد الوهاب في سنة ١٩٣٣م.

٤ - زخارف وكتابات مؤخر الجامع من داخل رواق القبلة، وهي ترجع فيما يبدو إلى عصر الخليفة الحاكم بأمر الله، بسبب تشابهها مع زخارف جامع الحاكم.

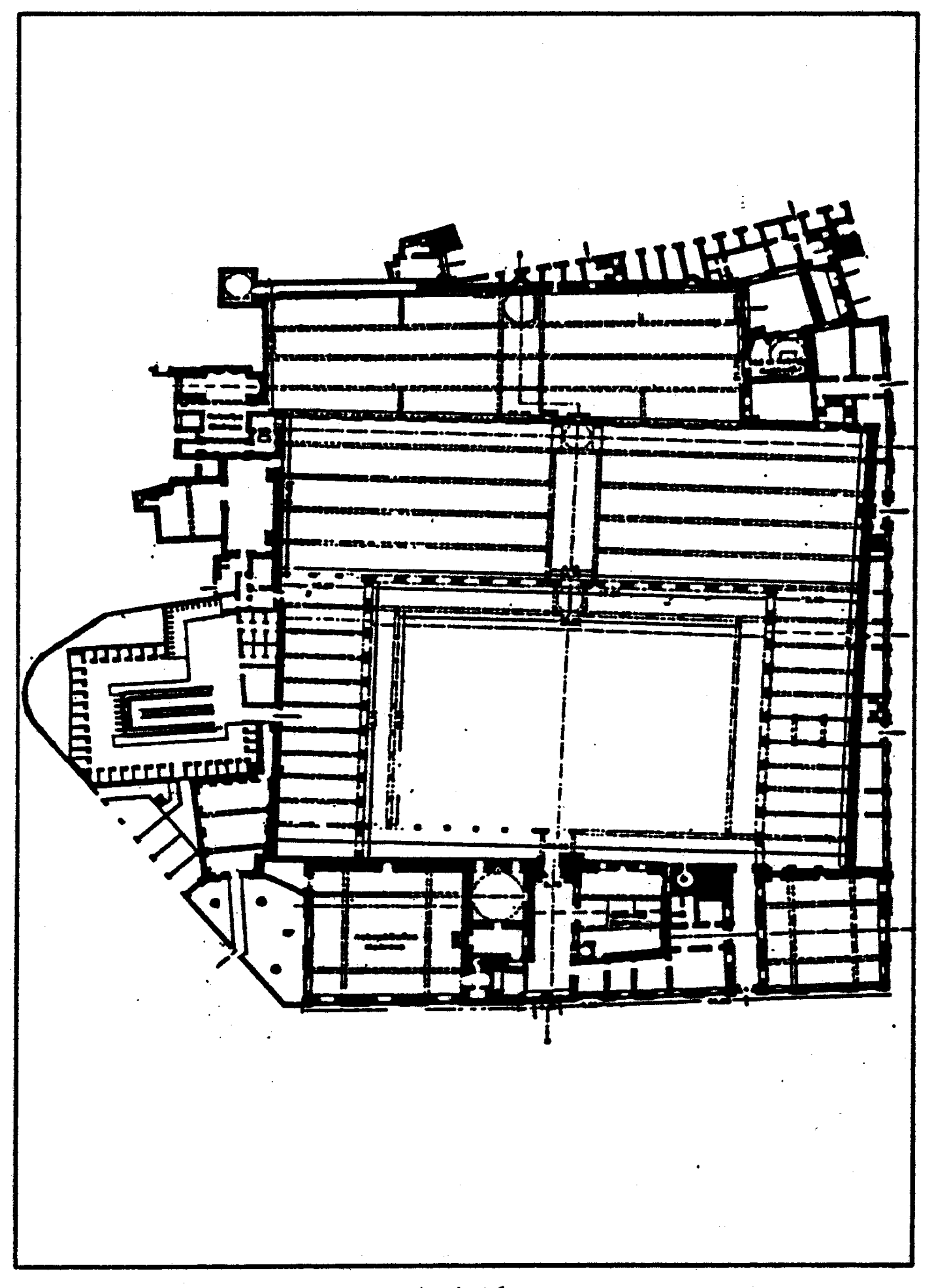
٥ - القبة التي تقع على رأس المجاز من جهة الصحن، وهي من عصر الإصلاحات أو الإضافات التي تمت بالجامع في عصر الخليفة الحافظ لدين الله.

وبسقوط الدولة الفاطمية في سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، أفل نجم الجامع الأزهر، ومرت عليه حقبة انطوت فيها ذكراه، ذلك أن السلطان صلاح الدين الأيوبي أمر بأن تبطل فيه صلاة الجمعة، اكتفاء بإقامتها في الجامع الحاكمي، عملا بمذهب الشافعي، وهو امتناع إقامة خطبتين للجمعة في بلد واحد، كما نقل من محرابه المنطقة الفضية، وكان وزنها خمسة آلاف درهم. واستمر الأزهر في ظل النسيان حتى عصر السلطان الظاهر بيبرس، الذي أذن للأمير أيدمر الحلي في سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م بإعمار الجامع، فشرع في استعادة الأراضي التي اغتصبت من ساحة الأزهر، كما جمع له كثيرًا من التبرعات والأموال. وكذلك أطلق له السلطان الظاهر بيبرس مبلغا كبيرا من المال، ثم شرع الأمير عز الدين بإعمار الواهي من أركانه وجدرانه، وأصلح سقوفه وبلاطه، وعمل له منبرا، ثم فرشه وكساه، حتى عاد للجامع بعض رونقه، ودبت فيه الحياة من جديد، بعد أن احتفل بإقامة صلاة الجمعة فيه يوم ١٨ ربيع الأول ٦٦٥هـ/ نوفمبر ١٢٦٦م. وقد بقي من هذه العمارة الكسوة الخشبية، التي كانت تغطي طاقية المحراب الفاطمي، والشرافات المسننة التي تحيط بصحن الجامع. وبقي من منبره اللوحة التذكارية،

التي توجد حاليا في متحف الجزائر، وتتضمن كتابة تذكارية بخط النسخ المملوكي نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، مما أمر بعمل هذا المنبر المبارك لجامع الأزهر مولانا السلطان الملك الظاهر المجاهد المرابط المؤيد المنصور ركن الدنيا والدين أبو الفتح بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين بالديار المصرية أعز الله أنصاره بتاريخ الثالث عشر من ربيع الأول سنة خمس وستين وستمائة من الهجرة النبوية».

ومنذ ذلك التاريخ أخذ الجامع «يتزايد أمره حتى صار أرفع الجوامع بالقاهرة قدرا». فقد استحدث فيه الأمير «بيلبك الخازندار» مقصورة كبيرة، عين فيها بعض الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الإمام الشافعي، ومحدثا للحديث النبوي، وبذا بدأ الأزهر يشارك بقية مدارس مصر والقاهرة في أداء رسالته العلمية.

ونظرا لما أصاب الجامع من تصدع من جراء زلزال سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م، أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، نائب السلطنة الأمير سلار بعمارته، وتجديد مبانيه، وما تهدم منها، ثم توالت عليه الإضافات والإصلاحات طوال زمن المماليك، إذ أنشأ الأمير علاء الدين طيبرس، نقيب الجيوش في زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، مدرسة على يمين الداخل إلى الجامع، وجعلها مسجدا، وقرر بها دروسا للفقهاء الشافعية، كما ألحق بها ميضأة وحوضا لسقي الدواب، وتأنق في رخامها وتذهيب سقوفها، حتى جاءت في أبدع زي، وأبهج ترتيب. وانتهى من عمارتها في سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م. وقد بقي منها محرابها الذي يتألف الجزء الأسفل منه من طاقات مقرنصة، محمولة على عمد رخامية صغيرة، مزودة بتيجان من الرخام، على حين زينت تواشيح عقودها بزخارف نباتية، استخدمت فيها قطع صغيرة من الرخام الملون. أما باقي المحراب فهو من الرخام الأبيض الملبس بألوان أخرى في أشكال زخرفية بديعة، وحليت تواشيحه وأعلاه بفسيفساء مذهبة. وبقي أيضًا من عمارة هذه المدرسة الشبابيك النحاسية المفرغة في أشكال هندسية، التي تعد في الواقع ثاني مثل من الشبابيك النحاسية، بعد شبابيك قبة الصالح نجم الدين أيوب بشارع المعز لدين الله.



شكل (١٥)

الجامع الأزهر بعد الإضافات التي طرأت عليه، مسقط أفقي، عن كريسويل

ويؤثر عن الأمير طيبرس أنه عند الفراغ من بناء هذه المدرسة، أحضر المشرفين على عمارتها حساب مصروفها؛ فلما قدم إليه، طلب طستا به ماء، وغسل أوراق الحساب كلها من غير أن يقف على شيء منها، وقال: «شيء خرجنا منه لله تعالى لا نحاسب عليه».

وفي سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م أصلح الجامع القاضي نجم الدين محمد بن حسين الأسعردي، محتسب القاهرة، وكان من أثر عمارته الزخارف الجصية ذات التأثيرات الأندلسية الجميلة، التي تعلو عقد المحراب الفاطمي.

كذلك أضيف إلى الجامع مدرسة أخرى في سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م على يسار الداخل إلى الجامع، هي المدرسة الأقبغاوية، التي أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا من عبد الواحد، استادار السلطان الناصر محمد بن قلاوون، مكان دار الأمير أيدمر الحلي، وعهد ببنائها إلى ابن السيوفي، كبير مهندسي عصر الناصر محمد. ويصف المقريزي هذه المدرسة بأنها: «مظلمة ليس عليها من بهجة المساجد، ولا أنس بيوت العبادة، شيء ألبتة». ويفسر لنا المقريزي ذلك «بأن أقبغا أقرض ورثة أيدمر الحلي مالا، وأمهلهم حتى تصرفوا فيه، ثم أعسفهم في الطلب، وألجأهم إلى أن أعطوه دارهم، فهدمها وبنى موضعها هذه المدرسة.. بأنواع الغصب، وأخذ قطعة من سور الجامع حتى ساوى بها المدرسة الطيبرسية، وحشر لها الصناع من البنائين والنجارين والحجارين والمرخمين والفعلة... وحمل إليها سائر ما تحتاج إليه من خشب وحجر ورخام ودهان، من غير أن يدفع ثمنًا ألبتة، وإنما كان يأخذ ذلك إما بطريق الغصب من الناس، أو على سبيل الخيانة من عمائر السلطان، فإنه كان من جملة ما بيده شد العمائر السلطانية». وأتم أقبغا بناء هذه المدرسة في سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م، وجعل بجوارها قبة ومنارة من حجارة منحوتة، بقي منها الآن مدخلها، وواجهة القبة ومحرابها، وكذا محراب المدرسة، والمنارة التي أكملت قمتها مصلحة الآثار في سنة ١٩٤٥م. وتشير بقايا هذه المدرسة إلى أنها كانت حافلة بشتى النقوش والزخارف البديعة الدقيقة الصنع، فقد حفلت محاريبها بالرخام الملون الدقيق الصنع، والفسيفساء المذهبة المتعددة الألوان.

وجددت أيضًا عمارة الجامع الأزهر سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م على يد الطواشي سعد الدين بشير، الجمدار الناصري، الذي أزال المقاصير الكثيرة التي استجدت بالجامع، كما أخرج الخزائن والصناديق التي ضاق المكان بها، وتتبع جدران المسجد وسقوفه بالإصلاح، حتى عاد إليها رونقها، وبدت كأنها جديدة، كما طلى الجامع بالدهان، وبلطه، ومنع الناس من المرور فيه، ورتب فيه مصحفا، وجعل له قارئا، وأنشأ على باب الجامع القبلي سبيلا وكتابا لا أثر لهما اليوم، كما رتب لفقراء المجاورين طعاما يطبخ كل يوم، وقرر فيه درسا لفقهاء الحنفية، ووقف على ذلك أوقافا جليلة.

كذلك أبدى سلاطين المماليك الجراكسة عناية كبيرة بالجامع الأزهر، تجلت بشائرها في ذلك المرسوم الذي استصدره الطواشي بهادر، مقدم المماليك من السلطان الظاهر برقوق في سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م، في أثناء نظارته للجامع. وينص هذا المرسوم على أن من مات من مجاوري الأزهر من غير وارث شرعي، وترك ثروة، فإنها تئول إلى مجاوري الجامع. ونقش ذلك على حجر كان مثبتا، حسب رواية المقريزي عند الباب الكبير، وما زلنا نراه منقوشًا إلى اليوم أمام المكتبة خارج المدرسة الأقبغاوية.

ونفهم من المصادر المملوكية أن مئذنة الجامع هدمت في سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م، وأنها كانت قصيرة رشيقة، فشيد مكانها أخرى أطول منها، ولكنها هدمت بدورها في شوال سنة ٨١٧هـ/ ديسمبر ١٤١٤م، لظهور خلل بها، فأعيد بناؤها من الحجر فوق الباب الغربي للجامع، وقد استلزم هذا هدم الباب وإعادة بنائه بالحجر، حيث ركبت المنارة فوق عقده في سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، ولكنها ما لبثت أن تهدمت كذلك، فأعيد بناؤها في سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م. وفي شهر شوال من السنة المذكورة شرع السلطان الأشرف برسباي في عمل صهريج بالصحن، تم تشييده في صفر سنة ٨٢٨هـ/ ديسمبر ١٤٢٤م، حيث عثر في أثناء حفر الأساس على آثار فسقية قديمة، وعمل بأعلى الصهريج قبة على رقبة مرتفعة، وكان الماء يسيل من تلك القبة أشبه ما يكون بالنافورات التي نراها حديثا، كما غرس بصحن الجامع أربع شجرات، ولكنها لم تفلح وماتت.

كذلك أضيفت إلى الجامع الأزهر في إبان عصر المماليك الجراكسة مدرسة ثالثة في الطرف الشمالي الشرقي عند باب السر، هي المدرسة الجوهرية، أنشأها الأمير جوهر القنقبائي، خازندار السلطان الأشرف برسباي، ودفن بها عند وفاته في شعبان سنة ٨٤٤هـ/ ديسمبر ١٤٤٠م. وهي مدرسة صغيرة، تتألف من أربعة إيوانات، يتوسطها صحن، أرضيته من الرخام الملون، وكذا أرضية الإيوانات. وتمتاز بتماثل أجزائها بعامة، وبأن نوافذها العليا مغطاة بجص مفرغ مملوء بزجاج ملون. وقد ألحق بها في الطرف الجنوبي الغربي غرفة صغيرة مربعة الشكل، يعلوها قبة حجرية تعد أصغر قباب مصر الإسلامية بعد قبة المدرسة القاصدية. وقد حلى سطح هذه القبة الخارجي بزخارف نباتية مورقة.

على أن أهم الإصلاحات التي تمت بالجامع الأزهر، هو ما قام به السلطان الأشرف قايتباي في سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٩م؛ فقد هدم الباب الغربي للجامع، وهو الباب القديم الذي أقيمت فوقه المنارة، وأقام مكانه بابا آخر هو القائم حاليا، وشيد على يمينه منارة رشيقة، حفلت بنقوش وكتابات بالخط الكوفي والنسخ. وتتألف هذه المنارة من ثلاثة طوابق، وتمتاز بدقة الصناعة وجمال التناسب. ويعد الباب من طرف العمارة الإسلامية في مصر، فقد زين بنقوش وكتابات كوفية تحتوي على آيات قرآنية، كما كتب على جانبيه اسم السلطان قايتباي وتاريخ الفراغ من عمارته. ويبدو أن اهتمام السلطان قايتباي بالأزهر كان متصلا، فقد ذكر المؤرخون أنه زار الجامع في سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٧م، وأمر بتجديد الأجزاء والحوائط المتداعية فيه، وترميمه وإصلاحه، كما أمر بهدم الخلاوي، التي كانت بالسطح، وتجديد دورة المياه، وما زال اسمه مسجلا على بابها داخل رنك كتابي.

وفي سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م أذن قايتباي للخواجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومي بإجراء بعض الإصلاحات في الجامع، بقي منها مقصورة خشبية تحيط بالأروقة الشمالية والجنوبية والشرقية من جهة الصحن، مدون عليها بالخط النسخ المملوكي العبارة التالية: «أمر بتجديد هذا الجامع سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي، على يد الخواجا مصطفى بن الخواجا رستم، غفر الله

لهم، بتاريخ شهر رجب عام إحدى وتسعمائة»، وقد بلغ مجموع ما أنفقه الخواجا مصطفى على هذه العمارة نحو خمسة عشر ألف دينار، دفعها من ماله الخاص.

وحظي المسجد كذلك بعناية السلطان قانصوه الغوري، الذي قام في سنة ٩١٥هـ/ ١٥١٠م ببناء منارة ضخمة، ذات رأس مزدوج، ما تزال باقية إلى يومنا هذا إلى جوار منارة السلطان قايتباي. وهي تمتاز بتلبيس القاشاني ببدن طابقها الثاني، كما تحتوي على سلمين فيما بين طابقيها الأول والثاني، لا يرعى الصاعد في أحدهما الآخر، كما هو الحال في منارتي «قوصون» و«أزبك اليوسفي».

وينسب كريسويل إلى السلطان الغوري أيضًا تجديد القبة التي تعلو المحراب الفاطمي، نظرًا للتشابه الشديد بين مقرنصات هذه القبة ومقرنصات قبة الإمام الليث، التي ترجع إلى شهر رجب سنة ٩١١هـ/ نوفمبر ١٥٠٥م.

وتمتع الجامع الأزهر بنصيب كبير من اهتمام ولاة مصر وأعيانها في العصر العثماني؛ فقد أجروا به كثيرا من أعمال الترميم والتجديد، كما وقفوا عليه أوقافا كثيرة، أهمها ما قام به والي مصر السيد محمد باشا في سنة ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م إذ قام بتجديد ما تخرب منه؛ كما أجرى به الوزير حسن باشا، والي مصر، بعض الإصلاحات، وعمر رواق الحنفية في سنة ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م، وفرش أرضيته بالبلاط. وأصلح سقفه الأمير «إسماعيل بك إيواظ» الذي تولى الإمارة والسنجقية في سنة ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م.

وروى الجبرتي كذلك في تاريخه أن الأمير عثمان كتخدا أنشأ سنة ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م زاوية للعميان خارج الأزهر أمام المدرسة الجوهرية، وأن هذه الزاوية كانت تشتمل على أربعة أعمدة من الرخام، ولها محراب وميضأة ومغطس؛ وبها ثلاث حجرات. واشترط هذا الأمير ألا يلي مشيختها إلا كفيف. على أن هذه الزاوية قد اندثرت، وأنشأ كذلك رواق الأتراك، ورواق السليمانية، ورتب لذلك مرتبات من وقفه الخاص.

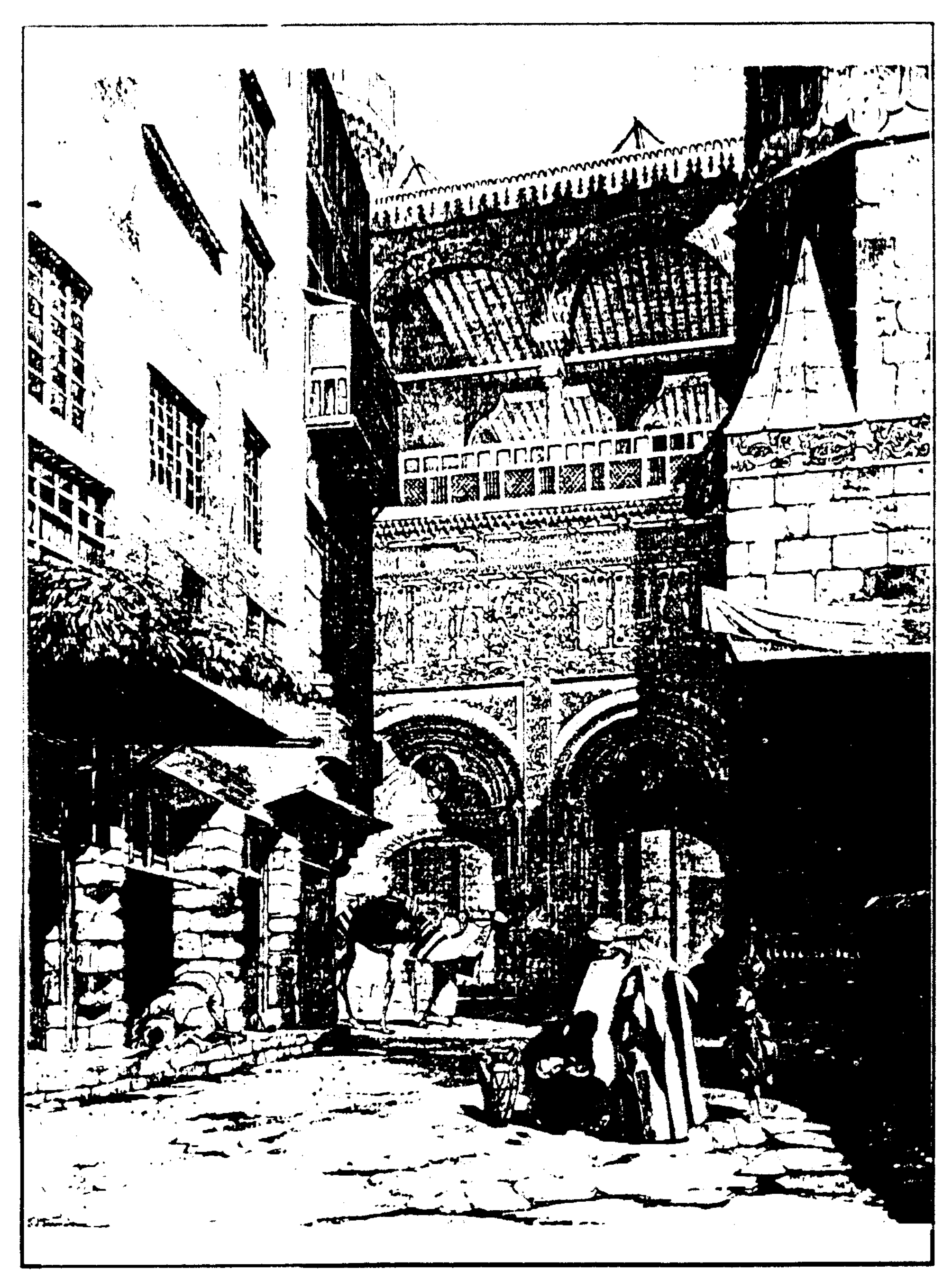
وفي سنة ١١٦٣هـ/ ١٧٥٠م أهدى الوزير أحمد باشا كور، والي مصر، إلى الجامع مزولتين، ما زالت إحداهما مثبتة في أعلى الواجهة الغربية المطلة على الصحن، ومدونًا عليها:

مـزولة متقـنـة	نظـيرها لا يوجـد
راسمها حاسبها	هذا الوزير الأمجد
تاريخـها أتقـنها	وزير مصر أحـمـد

أما المزولة الثانية فقد كـانت ملقاة على سطح الجامع الأزهر، ثم نقلت إلى داخل المكتـبة، وما زالت محفوظة بها. وقد روى عبد الرحمن الجبرتي بصدد هذه الهديـة أن هذا الوالي قـد احترف صـناعة المـزاول على يدي والـده الشيخ حسن الجبـرتي، حتى أتقـنـها، «ورسم على اسمه عـدة منحرفات عـلى ألواح كبيرة من الرخام، صناعة، وحفرا بالأزميل، كتابة ورسما».

ولعل أهم عمارة أجـريت بالجامع الأزهر مـنذ إنشائه ما قـام به الأمير عبد الرحمن كـتخدا في سنـة ١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م، فقد أمر بـهدم جدار القـبلة، عدا المحراب، وجزءا من الجدار على يساره، وأضاف إلى رواق القبلة الشرقي من تلك الجهة رواقا آخـر متصلا به، يشـتمل على أربع بلاطـات موازية للـمحراب وبنى جدارا آخر للقبلة يـتوسطه محراب، تعلوه قبـة، وتبلغ مساحة هذا الرواق الجديد نصف مـساحة الرواق القديم، وهو يشتمل على خمسين عمودا من الرخام، تحمل مثلها من البوائك المرتفعة المـشيدة بالحجر المنحوت، وسقف أعلاها بالخشب النقي أي المدهون.. وأنشأ لتلك الزيادة بابا عـظيمًا من جهة حارة كتامة، وهو المعروف بباب الصعـايدة، وبني بأعلاه مكتبـا بقناطر معقودة عـلى أعمدة من رخام لتعليم الأيـتام من الأطفـال المسلمـين القرآن، وبداخـله رحبة مـتسعة وصـهريج عظيم، وسقاية لشرب المارين، وأنشأ لنفسه مدفنا بتلك الرحبة، عليه قبة معقودة، وتركيبة من رخام بديع الـصنعة، وجعل بها أيضًا رواقا خصص لمجاوري الصعيد المنقطعين لـطلب العلم.. وبنى بـجانب هذا الباب منـارة.. كما أنشأ بابـا آخر جهة مطبخ الجامع، وبجواره منارة أيضًا، هو باب الشوربة.

ولم تقتصر أعمال عـبد الرحمن كتخدا على هـذه الإضافات الكثيرة، التي جعلت من القبلة أكبر أروقة المساجد الجامعة في مصر، بل أنشأ أيضًا بابا كبيرا في الجـهة الغربـية من الجامع، مـقابلا للبـاب العتيق. وهـذا الباب ينـقسم إلى بابين



شكل (١٦) رسم تاريخي للمصور هيز يوضح الباب الغربي في أيام عبد الرحمن كتخدا، يعلوه الكُتَّاب، ويجاوره المنارة

عظيـمين، لكل منهما مصراعان، وعلى يمين هذا الباب منارة، وفوقه مكتب. وقد أدرك هيز هذا الباب المسمى بـباب المزينين؛ وترك لنا صـورة فريدة له، يظهر فيها الكُتَّاب الذي كان يعلوه، والمنارة التي كانت تجاوره جنوبا.

على أنَّ كل هــذه المعالم قد اختفت عند فك مـباني هذا الباب والرجوع بها إلى خط التنـظيم في سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٦م، ومع هذا فقـد تمت المحافظة على طـراز الباب المـعمـاري والفـني عنـد إعادة تركـيبه، ، إذ أعـيدت إلـيه الزخارف والكتابات الرخامية وبلاطات القاشاني على وضعها القديم، الذي يتجلى فيه براعة الخطاط فـي كتابة عجلوا بالصلاة قبل الفوات - الصلاة عماد الدين بشكل زخرفي نادر. وقد سجل في أعـلى الباب أبيات من الـشعر، تضمـنت اسم عبد الرحمن كتخدا وتاريخ تلك العمارة، بحساب الجمل، نصها:

إن للعـلم أزهـرا يتـسامى	كسـماء ما طاولتها سماء
حـين وافـاه ذو البنـاء ولولا	منـة الله ما أقيـم البنـاء
رب إن الهـدى هـداك وآيا	تك نور تهدي به من تشاء
مذ تناهى أرّخت باب علوم	وفخـار به يجاب الدعاء

ويفهم أيضًا مما جاء في تاريخ الجبرتي أن عـبد الرحمن كتخدا قد جدد بناء المدرستين الطيبرسـية والأقبغاوية، لأنه يقول إن البـاب الكبير جاء وما بداخله من الطيبـرسية والأقبغاوية والأروقة من أحسن المبـاني في العظم والوجاهة والفخامة، وما تزال آثار هذه الأعمال تبدو واضحة على الواجـهة الغربية للمدرسة الطيبرسية بأحجـارها الملونة، التي بقي اسـمه منقوشًا عليـها، في الوقت الذي احتفظت فيه هذه الواجهة بشبابيكها النحاسية ذات الطراز المملوكي.

والواقع أنه نتج عن إضافات عبد الرحمن كتخدا للجامع الأزهر أن صار له ست مآذن، وكانت به ثلاث مآذن من قبل، واحـدة أقامها الأمير علاء الدين أقبغا في زمن الـسلطان الـناصر محـمد بن قلاوون، والثانـية أقيمت في أيـام السلطان الأشرف قايتباي، والثالثة تـرجع إلى عهد قانصوه الغوري، غير أن مصلحة الآثار

قد عمدت إلى هدم المنارة التي كانت تقع إلى يمين باب المزينين، استجابة لرغبة الخديو عباس، عند بناء الرواق العباسي. وقد بقي من هذه المآذن خمس، هي منارات أقبغا، وقايتباي، والغوري، ومنارتا كتخدا على بابي الشوربة والصعايدة.

وبقي أيضًا بالرواق الشرقي الذي أضافه عبد الرحمن كتخدا محراب من الرخام الدقيق، على يساره قطعة مثمنة الشكل من الرخام، مدون عليها بالخط الكوفي المربع: الله، محمد، وأسماء العشرة المبشرين بالجنة، وقد كانت هذه اللوحة موجودة في الأصل في مدفن عبد الرحمن كتخدا بالجامع، ثم نقلت إلى جوار المحراب، ويجاور هذا المحراب منبر خشبي، يقع إلى الجنوب منه محراب آخر صغير، يعرف بمحراب الدردير، وبالقرب منه محراب ثالث، أنشأته لجنة حفظ الآثار العربية، لتركيب الكسوة الخشبية المملوكية التي كانت تغطي المحراب الفاطمي القديم.

وقد توالت على الجامع الأزهر بعد ذلك أعمال التجديد والترميم، كما أضيف إليه بعض المنشآت التي تمثلت في مجموعة من الأروقة، مثل رواق الشرقاوية، الذي أقيم شمالي المدرسة الجوهرية وملاصقا لها، على عهد الأمير إبراهيم بك فيما بين سنتي ١١٩٢ - ١٢١٣هـ/ ١٧٧٨ - ١٧٩٨م، تحقيقًا لرغبة الشيخ الشرقاوي.

وهناك أيضًا رواق السنارية، الذي أضيف إلى الغرب من رواق المغاربة مما يلي جنوب الصحن في سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م بناء على طلب الشيخ محمد وداعة السناري، ثم أصاب الأزهر زلزال خفيف في سنة ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م، سقطت على أثره شرفة منه.

كذلك أقبل ولاة مصر من أسرة محمد علي، على تجديد مباني الجامع الأزهر، مثل باب الصعايدة الذي جدد في سنة ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م في زمن الخديو إسماعيل على يد أدهم باشا ناظر الأوقاف، الذي نقش عليه أربعة أبيات من الشعر، نصها:

باليمين اقبل باب سعـد الأزهر	وسمت محاسنه بأعجب منظر
وغدا مجازا للحقـيقة بالهدى	موصـول مورده جميل المصـدر
باب شـريف للنجـاح مجرب	إنشـاؤه نادى بخـير الأعصـر
فى دولة إسماعيل داور عصرنا	يمن يسـر كمـال باب الأزهـر

وفي عهد الخديو توفيق جددت أجـزاء مهمة من رواق القبلة العتيق في سنة ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م. كمـا جدد رواق القبـلة الذي أضـافه عبد الرحـمن كتخدا، وكذلك المدرسة الأقبغاوية، ورواق السنارية، واضيفت عمد إلى الرواقين الشمالي والجنوبي، فاصبحت الـعمد مزدوجة، بعد أن كانت مفردة عند إنشاء المسجد على يد جوهر الصقلبي.

أما الأعمـال التي أجرتهـا لجنة حـفظ الآثار العـربية مـنذ سنة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م لإصلاح الجامع ودعم عـقود الصحن المخـتلة، واستـجابة لرغـبة الخديو عباس حلمي في بـناء رواق باسمه فقـد بدأت بتجديـد العقود المحيـطة بالصحن جميعا، وهي الـتي كانت من إنشاء الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي، ومن حسن الحظ أن هذه الأعمـال قد أبـقت على الـقبـة التي تعـلو مـقدم المجـاز من جهة الصحن، ولم تغير مـعالمها الزخرفية. وشملت هذه الأعمال أيضًا هدم المباني التي تعلو الواجهة الغربية للجامع، ونعني بها الكتاب والمنارة عند باب المزينين كما سبق أن نوهـنا. وقد أصدر الخديو عباس أمره بإنـشاء مكتبة الأزهر في سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م فاختيرت لها المدرسة الأقبغاوية، كما اتخذت بقايا المدرسة الطيبرسية التي تواجهها ملحقا لها.

وهكذا توالـت أعمال التـجديد والإصلاح والـترميم والإضـافة في الجامع الأزهر منذ إتمام بنائه في العصر الفاطمي حتى يومنا هذا لدرجة أنه كادت تتوارى الآن مظاهر عمارته الأولى وصار الجـامع في شكله الحالي بناء فـسيحا يقوم على أرض مساحتها ١٢,٠٠٠ متر مربع، ويحيط به سور مربع الشكل تقريبا به ثمانية أبـواب: في الجانـب الغـربي المطل عـلى ميـدان الأزهر بـاب المزيـنين، والـباب

العباسي، في الجانب الجنوبي باب المغاربة تجاه درب الأتراك، وباب الشوام وباب الصعايدة، وفي الجانب الشمالي بباب الجوهرية، وهو باب صغير كان في الأصل من إنشاء جوهر، وفي الجانب الشرقي بباب الحرمين وباب الشوربة، وهما من إنشاء عبد الرحمن كتخدا.

وينقسم حرم الأزهر الشريف حاليا إلى رواقين، الرواق الكبير وهو العتيق، ويلي الصحن ويمتد من باب الشوام إلى رواق الشراقوة؛ الرواق الجديد الذي أضافه عبد الرحمن كتخدا، وهو يلي الرواق العتيق ويرتفع عنه بعدة درجات وسقف الرواقين من الخشب المتقن الصنع وترتكز عقود المسجد على عمد من الرخام الأبيض يزيد عددها على ٣٨٠ عمودا جلبت تيجانها من المعابد والكنائس القديمة، ويحتوي الجامع حاليا على تسعة وعشرين رواقا. وأربع عشرة حارة، وثلاثة عشر محرابا، بالإضافة إلى المحاريب الموجودة بالمدارس التي ألحقت به، هذا فضلا عن خمس مآذن تسمو فوق جدران المسجد.

جامع الحاكم

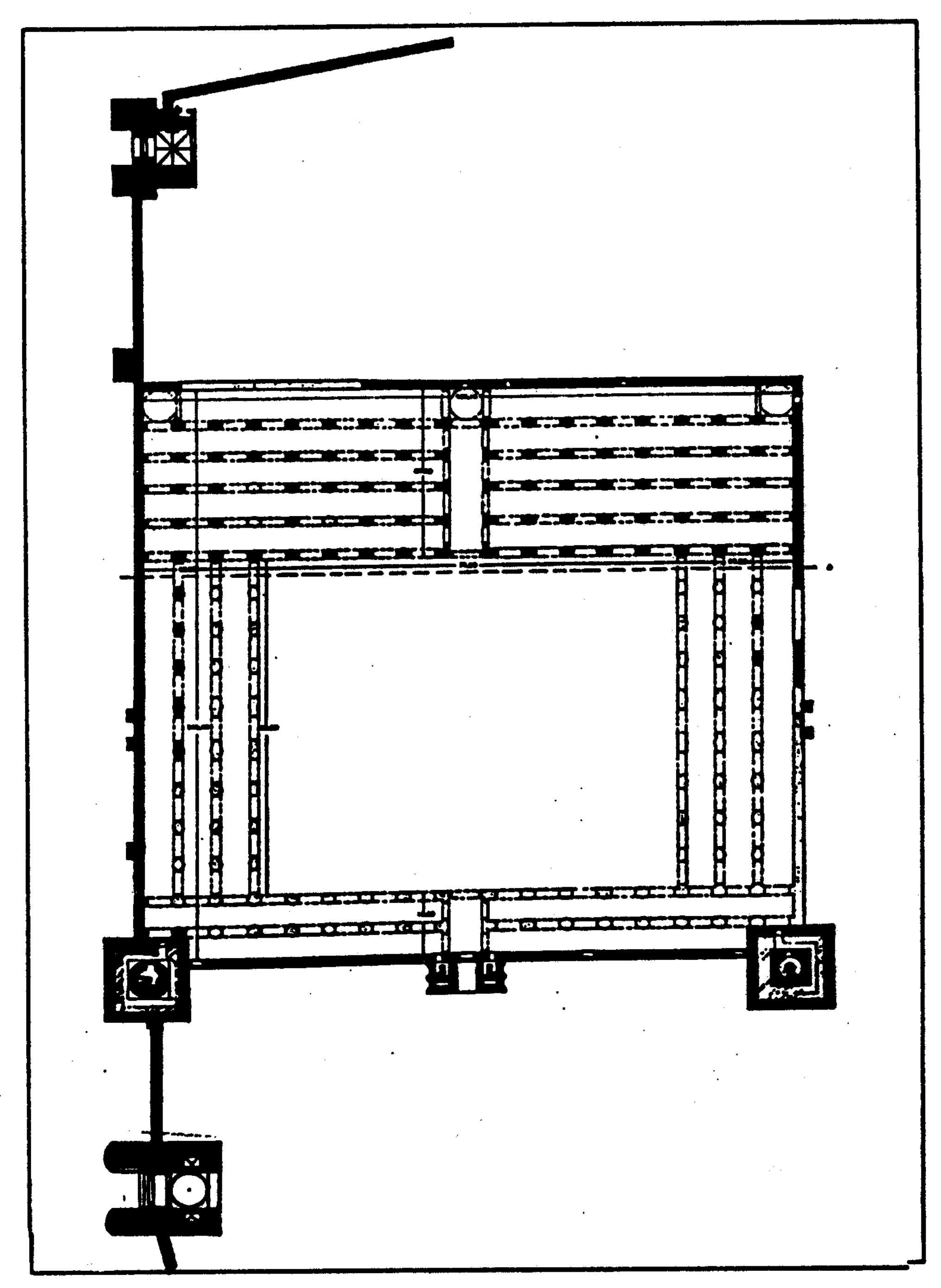
ينسب هذا الجامع إلى الخليفة الحاكم بأمر الله مع أن الذي أمر بإنشائه هو أبوه الخليفة العزيز بالله في شهر رمضان سنة ٣٨٠هـ/ نوفمبر - ديسمبر ٩٠٠م. كما يفهم من المقريزي الذي ذكر أنه صلى وخطب فيه الجمعة مرتين الأولى في الرابع من شهر رمضان سنة ٣٨١هـ/ ١٤ نوفمبر ٩٩١م، والثانية أيضًا في شهر رمضان سنة ٣٨٣هـ/ أكتوبر - نوفمبر ٩٩٣م.

كما يفهم من المقريزي أيضًا أن أعمال البناء لم تكن قد انتهت في أيام العزيز بدليل أنه ذكر في حوادث سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م أن ابنه الخليفة الحاكم بأمر الله أمر أن يتم بناء الجامع، فقدر للنفقة عليه أربعون ألف دينار، وابتدئ العمل فيه. وأشار كذلك إلى أن الخليفة الحاكم أمر في سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م بعمل تقدير ما يحتاج إليه الجامع من الحصر والقناديل والسلاسل، فكان تكسير ما ذرع للحصر ستة وثلاثين ألف ذراع، بلغت النفقة عليها خمسة آلاف دينار، وذكر أيضًا

أنه بعد الفراغ من البناء علق على سائر أبواب الجامع ستور دبيقية عملت له خصيصًا، كما علق فيه تنانير فضة عدتها أربع، بالإضافة إلى كثير من قناديل الفضة، وفرش جميعه بالحصر التي عملت له، ونصب فيه المنبر. ثم أذن في ليلة الجمعة سادس شهر رمضان سنة ٤٠٣هـ/ ٢١ مارس ١٠١٣م لمن بات في الجامع الأزهر أن يمضوا إليه فمضوا، وصار الناس طول ليلتهم يمشون في كل واحد، ولا اعتراض عليهم من عسس القصر ولا من أصحاب الطوف إلى الصبح، وذكر كذلك أن الخليفة الحاكم صلى فيه بالناس صلاة الجمعة بعد الفراغ منه في السنة المذكورة. كما روي أن الحاكم وقف على هذا الجامع عدة قياصر وأملاك في شهر ذي القعدة سنة ٤٠٤هـ/ مايو ١٠١٤م، وأنه كان يعرف أولا بجامع الخطبة، ثم صار يعرف بجامع الحاكم وبالجامع الأنور، وقيل له أيضًا جامع باب الفتوح.

وتخطيط هذا الجامع يذكرنا بتخطيط الجامع الطولوني فهو عبارة عن مستطيل طوله ١٢٠,٧٨م وعرضه ١١٣م، ويتألف من صحن أوسط مكشوف مستطيل الشكل ٧٨ × ٦٧,٥٥م أكبرها رواق القبلة الذي يشتمل على خمسة صفوف من العقود المدببة المحمولة على دعائم مستطيلة أركانها مستديرة على هيئة أعمدة ملتصقة تشبه دعامات الجامع الطولوني، وتسير موازية لجدار القبلة. ويقطع هذا الرواق في الوسط مجاز مرتفع يمتد من الصحن إلى المحراب حيث ينتهي أمامه بقبة، كما نجد في طرفي بلاطة المحراب الشمالي الشرقي، والجنوبي الشرقي، قبتين كما هو الحال في الجامع الأزهر، تقوم كل منها على أربع حنيات تشكل منطقة الانتقال من المربع إلى المثمن تحصر بينها أربع نوافذ معقودة، أما رقبة القبة فقد زينت بثمانية شبابيك معقودة، على حين زين مربع القبة بشريط من الكتابات الكوفية المورقة.

ويطل رواق القبلة على الصحن بواسطة بائكة تتألف من أحد عشر عقدا مدببا شبيهة بواجهة الرواق الغربي المقابل له الذي يشتمل على بلاطتين فقط، موازية لجدار القبلة. أما الرواقان الشمالي والجنوبي فيشتمل كل منهما على ثلاث بلاطات عمودية على جدار القبلة، ويطل كل منهما على الصحن بواسطة بائكة



شكل (١٧)

جامع الحاكم بأمر الله، مسقط أفقي عن برندنبرج

تـتألف من تسعة عـقود مدببة، ويربط عـقود الجامع بين الدعـامات روابط خشبية ضخمة محلاة بنقوش نباتـية، كما فتحت في جدران الجامع نوافذ معقودة، كانت جميعـا مكسوة بستائر جصيـة يزينها زخارف هندسية ونـباتية مفرغة، وكان يحيط بكل نافذة إطار من كتابة كوفية بها آيات قرآنية.

ويتميز هذا الجامع بجدرانه السميكة المشيدة بخليط من الحجارة والآجر فيما عدا الأجـزاء الظاهرة من البوابة الـغربية، فهي من الحجارة المـصقولة، وكان يعلو واجهـات الصحن صف من الشرافات الـهرمية المدرجة، بـكل واحدة منها خمس درجات يـتوسطها فتحة صـغيرة مدببة، تقوم فـوق شريط ضيق به عناصر زخرفية مفرغة تتألف من وريدات وأشكال مضلعة.

ويمتاز جامع الحاكم باحتوائه أيضًا على ثلاثة عشر مدخلا، خمسة بالواجهة الغربية وثلاثة بالواجهة الشماليـة ومثلها بالواجهة الجنوبية، ومدخلين بجدار القبلة نجـد بينها ثلاثة مداخل بارزة تتوسط الواجهات الشمـالية والجنوبية والغربية، يعنينا منها المدخل الرئيـسي الذي يتوسط الواجهة الغـربية لأنه يعد أقدم مدخل بارز في عمارة مصر الإسلاميـة. فهو يتألف من برجين ضخمين من الحجارة المصقولة يبلغ طول كل منهمـا ثمانيـة أمتار، وعرضه سـتة، ويبرز عن سـمت جدران الواجهة المذكورة بـحوالي ستة أمـتار، ويتوسـطه ممر طويل يـعلوه قبـو نصف أسطواني، ويفضي إلى داخل الجامع عن طريق الرواق الغربي.

ومن المـعروف أن هذا النـوع من المداخل البارزة مـنقول عن مسـجد المهدية بتونس الذي يرجع إلى أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وسوف يعاود الـظهور في عمارة القاهرة في مسجد السـلطان بيبرس البندقداري الذي ينسب إلى الفترة الممتدة من ٦٦٥ - ٦٦٧هـ/ ١٢٦٦ - ١٢٦٩م، كما سوف نرى في الفصل السادس.

ويكتنف هذا المدخل البارز في الزاويتين الشمالية والجنوبية منارتين ضخمتين تم بناؤهما في شـهر رجب سنة ٣٩٣هـ/ مايو ١٠٠٣م، كمـا يفهم من الكتابات الأثرية المنقوشة على كل منهما، في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله الذي عاد في شهر صفر سنة ٤٠١هـ/ سـبتمبر - أكتـوبر ١٠١٠م، وأمر بإحاطة كل مـنهما بكسوة

خارجـية من الحجـارة بغرض تـدعيمـهما، تـكون في كل منـارة شكل مكـعبين مدرجين، الأسفل منـهما بارز عن المـكعب العلـوي. وترتفع الكـسوة في المئذنة الجـنوبية أربعة وعـشرين مترا فوق أرضية الـشارع، أما في المئذنة الـشمالية فيصل ارتفاعها إلى ستة وعشرين مترا أي بزيادة مترين فقط.

أما فيما يتعلق بالمنارتين الأصليـتين فقد شيدتا بدورهما من حجارة مصقولة باسـتثناء الأجزاء العـليا التي شيدت من الآجـر بعد زلزال سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م الذي خرب أعالي المـئذنتين. هذا وتتكون المـنارة الجنوبية من ثمـانية طوابق مثمنة تتدرج في ارتفاعهـا تدرجا ملحوظًا حتى تنـكمش في الطابق الخامس الذي يعلوه طابقان مثمنان من الآجر، يلتف حول الـثاني منهما صفان من المقرنصات، ويعلو هذا القسم، الـذي أضيف أثناء الإصلاحات التي قـام بها بيبرس الجـاشنكير، قبة مضلعة، كما تتـميز هذه المنارة بكثرة زخارفها النبـاتية والهندسية والكتابية وبصف من الشرافات التي تذكرنا بشراريف الجامع الطولوني.

وتتكون المئذنة الشمالية أيضًا من قاعدة مربعة يعلوها ثلاث طوابق أسطوانية مستديرة يقوم فوقها أربعة طوابق مثمنة من الآجر من بناء بيبرس الجاشنكير، يحيط بثلاثـة منها صفوف من المقرنصـات، ويتوج قمتها أيضًا قـبة مضلعة. وهذه المنارة تفـوق المنارة الجنوبية طـولا، إذ يصل ارتفاعها إلى حوالـي ستة وأربعين مترا فوق سطح الأرض، أي بزيادة خمسة أمتار.

هذا وقـد شهد جامع الحـاكم بأمر الله العـديد من الإصلاحات والإضافات لعل أولها ما قام به بـدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر عند تجديده لأسوار القاهرة الشمالـية في عام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م فقد أصـبح جامع الحاكم داخل تلك الأسوار بعـد أن كان خارج مدينة القـاهرة، والتصق الجدار الشمالي مـنه بها فيما بين بابي الفتوح والنصر.

ويفهم من المقريزي أيضًا أن الصاحب عبد الله بن علي بن شكر أضاف إلى صحن الجامـع فسقية وأجرى الماء إليها، بـيد أن قاضي القضاة تاج الدين بن شكر سرعان مـا أمر بإزالتها في سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م ويـستشف منه كذلك أن الفرنج

عملوا بالجامع كنائس قام بهدمها الملك الناصر صلاح الدين وجعل مكانها اصطبلات.

وفي ذي الحجة سنة ٧٠٢هـ/ أغسطس ١٣٠٣م تزلزلت أرض مصر والقاهرة فتهدم الجامع الحاكمي وسقط كثير من الدعامات التي فيه وخرب أعالي المئذنتين، وتشعثت سقوفه وجدرانه، فانتدب السلطان الناصر محمد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الذي نزل إليه بنفسه ومعه القضاة والأمراء وأمر برم ما تهدم منه وإعادة ما سقط من الدعامات، فأعيدت وأقام سقف الجامع وبيضه حتى عاد جديداً وأوقف عليه عدة أوقاف بناحية الجيزة وفي الصعيد وفي الإسكندرية، كما رتب فيه دروسا أربعة لإقراء الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوي، وجعل لكل درس مدرسا وعدة كثيرة من الطلبة. وعمل فيه خزانة كتب جليلة. وحفر فيه صهريجا بصحن الجامع ليملأ في كل سنة من ماء النيل، ويسبل فيه الماء في كل يوم ويستقي منه الناس يوم الجمعة، حتى بلغ جملة ما أنفقه على الجامع زيادة على أربعين ألف دينار. ويفهم من النقوش الأثرية التي تعلو عقد المدخل الرئيسي للجامع أن الفراغ من تلك الأعمال تم في شهر ذي الحجة سنة ٧٠٣هـ/ يوليو - أغسطس ١٣٠٤م.

وجدد الجامع مرة أخرى وبلط جميعه في أيام السلطان الناصر حسن في سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م، كما بيض مئذنتيه شخص من الباعة يدعى ابن كرسون المراحلي في حوالي سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٩م.

وفي القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر للميلاد، أضاف أحد الباعة مئذنة ثالثة إلى الجامع أعلى الباب المجاور للمنبر، اكتملت في شهر جمادى الآخرة سنة ٨٢٧هـ/ مايو ١٤٢٤م، بيد أنها اندثرت ولم يعد لها وجود، إذ تعرض الجامع ثانية للخراب إبان هذا القرن كما يفهم من رواية المقريزي الذي كتب يقول: «والجامع الآن متهدم وسقوفه كلها ما من زمن إلا ويسقط منها الشيء بعد الشيء فلا يعاد». ويبدو أنه ظل كذلك حتى أدركته الحملة الفرنسية فاتخذت منه حامية ومن منارتيه برجين للمراقبة. وفي سنة ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م جدد به السيد عمر

مكرم نقيب الأشراف أربع بوائك جـعلها مسجـدا وكسى المحراب بالرخام وجعل بجواره منبرا. ومع ذلك فقـد صار الجامع فى أوائل القرن الثـالث عشر للهجرة/ التاسع عشر للـميلاد مقرا لقوم من أهل الشام، أقامـوا فيه منازل ومعامل لصناعة الزجاج ونسج الحرير.

وفي سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م استخدم بقايـا رواق القبلة كأول متحف للفن الإسلامي أطلق عليـه اسم دار الآثار العربية جمعت فيـه التحف الفنية التي كانت توجد في المساجد والمباني الأثرية، وبقيت هناك حتى نقلت إلى المبنى الحالي بباب الخلق الذي افتتح رسميا في التاسع من شوال سنة ١٣٢١هـ/ ٢٨ ديسمبر ١٩٠٣م وتغـير اسمه من دار الآثار الـعربية إلى متـحف الفن الإسلامي في سنة ١٩٥٢م، وحل محله في الجامع مدرسة السلحدار الابتدائية.

وظل الجـامع خربا حتى قـامت لجنة حفـظ الآثار العربيـة بإصلاح دعامات وعقود النصف الجنوبي من الرواق الشرقي، كما أعادت بناء المجاز ونزعت الكسوة الرخـامية التي وضعها الســيد عمر مكرم على المحراب الـعتيق وأقامت لها محرابا حديثا على يمين المحراب الفاطمى.

بقي أن نـشير في النهاية إلى أن هذا الجامع قد شهد في العصر الحديث أكبر عملية ترميم وصـيانة مرت به منذ إنشائه على أيـدي طائفة البهرة التي رصدت له مبـلغا كبيـرا من المال لإعادته إلى حالته الأولى الـتي كان عليهـا وقت تشييده في العصر الـفاطمي وقد انتهـت بالفعل من إصلاحه وافتـتاحه للصلاة وإن كانت قد وقعت فيه بـعض الأخطاء الفنية أثـناء الترميم لانعدام الـرقابة على ما تقوم به من أعمال.

***

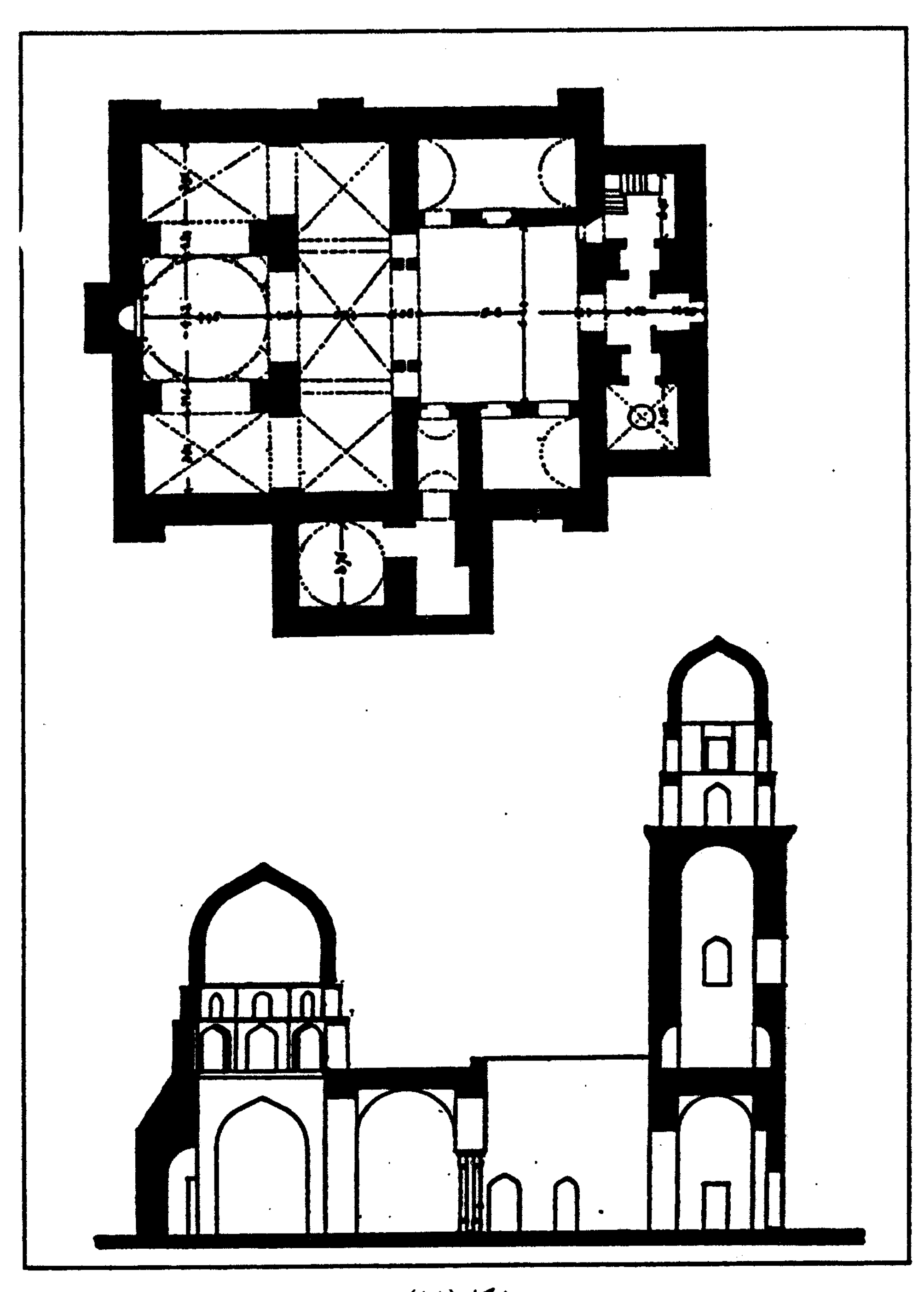
مشهد الجيوشي

أنشاه أمير الجيوش بدر الجمالي في المحرم سنة ٤٧٨هـ/ مايو ١٠٨٥م، أعلى قمة جبل المقطم، فوق مشهد إخوة يوسف مباشرة، لذا كان يشرف على منطقة القرافة الصغرى بالإمام الشافعي وعلى الجزء المطل على النيل من جهة مصر القديمة وعلى المراعي الخضراء المعروفة ببساتين الوزير. ويرجع بعض الباحثين سبب اختياره لهذه البقعة هو رغبته في أن يدفن في موقع مرتفع حتى يشرف منه على قباب البنات السبع الأثيرة لديه.

ويعرف هذا المشهد اليوم لدى العديد من الباحثين باسم مسجد الجيوشي، مع أنه لا علاقة له بطراز المساجد الفاطمية المألوفة فهو عبارة عن بناء مستطيل الشكل طوله ثمانية عشر مترا وعرضه خمسة عشر مترا، يشتمل على ثلاثة أقسام رئيسية: كتلة المدخل، والصحن، وبيت الصلاة، وأضيف إليه في وقت لاحق بناء مستطيل الشكل يتوسط ضلعه الشمالي.

يشكل المدخل كتلة معمارية بارزة بامتداد الجدار الغربي ويشتمل بدوره على ثلاثة أقسام، تشغل فتحة المدخل القسم الأوسط منها، وهو يقع أسفل المئذنة مباشرة ويتألف من باب صغير معقود بعقد مدبب يعلوه لوحة رخامية تتضمن خمسة أسطر بالخط الكوفي المزهر جاء فيها «. . . مما أمر بعمارة هذا المشهد المبارك فتى مولانا وسيدنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الأئمة الطاهرين وأبنائه الأكرمين وسلم إلى يوم الدين/ السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين، عضد الله به الدين، وأمتع بطول/ بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته وأعلى كلمته وكيد عدوه وحسدته، ابتغاء مرضاة الله في المحرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة».

وهو يفضي إلى ممر مغطى بقبو يعلوه ممر آخر مسقوف بقبة صغيرة ترتكز على الجدران مباشرة بدون مثلثات كروية أو أية مناطق انتقال. يوجد على جانبيه غرفتان صغيرتان اليمنى التى تشغل الزاوية الجنوبية الغربية مكشوفة وتشتمل على درج سلم يفضي إلى سطح المشهد وإلى المئذنة، أما اليسرى التي تشغل الزاوية



شكل (١٨)

مشهد الجيوشي، مسقط أفقي وقطاع، عن برندنبرج

الشمالية الغربية فهي مغطاة بقبو متقاطع ويعلو جدارها الشمالي نافذة وكانت تشتمل على صهريج للمياه.

ويفضي هذا المدخل إلى القسم الثاني وهو عبارة عن صحن مكشوف مستطيل الشكل (٦,٤٥ × ٥,٦٠م) يكتنفه قاعتان مستطيلتان يعلو كلا منهما قبو نصف أسطواني، وينفذ إلى داخلهما بواسطة فتحتين معقودتين جهة الصحن اقتطع في وقت لاحق جزء من القاعة اليسرى أي الشمالية وغطي بقبو مستعرض، وفتح به باب في منتصف جداره الشمالي لينفذ منه إلى المبنى المستطيل الذي أضيف لصق الجدار الشمالي خارج المشهد.

وهو يشتمل بدوره على قسمين قسم غربي مستطيل يعلوه بقايا قبو وقسم شرقي مربع يعلوه قبة تقوم على حنيات ركنية يعتقد كريسويل أنه خاص بأحد الأولياء الصالحين.

ويطل على الصحن من الجهة الشرقية باتكة ثلاثية العقود، العقد الأوسط منها أكثر ارتفاعا واتساعا من العقدين الجانبيين، والعقود من النوع المدبب وترتكز على عمودين مزدوجين صنعا من الرخام، لكل منها تاج ناقوسي على هيئة مشكاة وقاعدة ذات شكل مماثل لكنه مقلوب، وتفتح هذه الباتكة على بيت الصلاة الذي يحتل أكثر من نصف مساحة المشهد، وهو يتألف من ثلاثة عقود تسير في موازاة المحراب، تقوم على دعامتين، غطيت البلاطة الغربية منها بثلاثة أقبية متقاطعة، على حين يعلو بلاطة المحراب الشرقية قبوان من نفس النوع يتوسطهما قبة أمام المحراب. ترتفع قمتها اثني عشر مترا فوق الأرضية، وترتكز على عقود من ثلاث جهات وعلى جدار القبلة من الجهة الرابعة، يحيط بمربعها شريط عريض من الكتابات الكوفية المزهرة ويتوج أركانها أربعة حنيات ركنية معقودة، فتح بينها أربعة نوافذ مسدودة في الوقت الحالي، يعلوها رقبة مثمنة بكل ضلع من أضلاعها نافذة معقودة، ويعلو الرقبة قبة ملساء على شكل نصف كرة، يتوسط قمتها من الداخل كتابات قرآنية من سورة يس ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾، وفي الوسط نقش اسما محمد وعلي ثلاث مرات على شكل نجمة ذات ستة رءوس.

ويتـوسط المحراب جدار القبلة الشرقي ويشكل بروزا خارجه، وهو من أجمل المحاريب الفاطمية ذات الزخارف الجصية، ويعلو تجويفه عقد مدبب يرتكز على عمودين لم يعد لهما وجود واستبدلا بعمودين جديدين في الوقت الحالي، ويزينه شريطان من الكتابات الكوفية المزهرة بالإضافة إلى نقوش نباتية بديعة، وقد كسيت جدران القبلة وحنية المحراب في القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر للميلاد بزخارف جصية تتضمن نقوشًا نباتية رسمت باللون الأخضر تشبه زخارف البلاطات الخزفية العثمانية الطراز نجد بينها تاريخ سنة ١١٤٤هـ/ ١٧٣٢م تم إزالتها ومحوها في الترميمات الحديثة.

وللمشهد مئذنة رشيقة تعلو مدخله الغربي شيدت من الآجر تسمو عشرين مترا فوق سطح الأرض، وتضم ثلاثة طوابق، الأول مربع الشكل، فتحت في واجهتيه الشمالية والغربية نافذة، وزينت قمته بإطار يضم صفين من المقرنصات، شيدت من الآجر وكسيت بالجص، تعد نافذة، وزينت قمته بإطار يضم صفين من المقرنصات، شيدت من الآجر وكسيت بالجص، تعد أقدم مثال معروف في العمارة الإسلامية بمصر، يعلوه طابق ثان مربع أقل حجما. فتحت في كل واجهة من واجهاته الأربع نافذة معقودة، يعلوه طابق ثالث عبارة عن رقبة مثمنة بكل ضلع من أضلاعها نافذة ذات عقد مدبب، يتوجه قبة ملساء نصف كروية.

ومن خصائص هذا المشهد أن واجهته الشمالية والجنوبية زودتا بدعامات تعلوها فوق السطح خلاوي صغيرة يغطيها قباب ملساء، بقي اثنان منها في الجهة الجنوبية وهي مزودة من الداخل بمحاريب لتحديد اتجاه القبلة، استند البعض إليها في محاولة تحديد طبيعة هذا المبنى الذي أقامه بدر الجمالي في هذه البقعة المنعزلة من جبل المقطم.

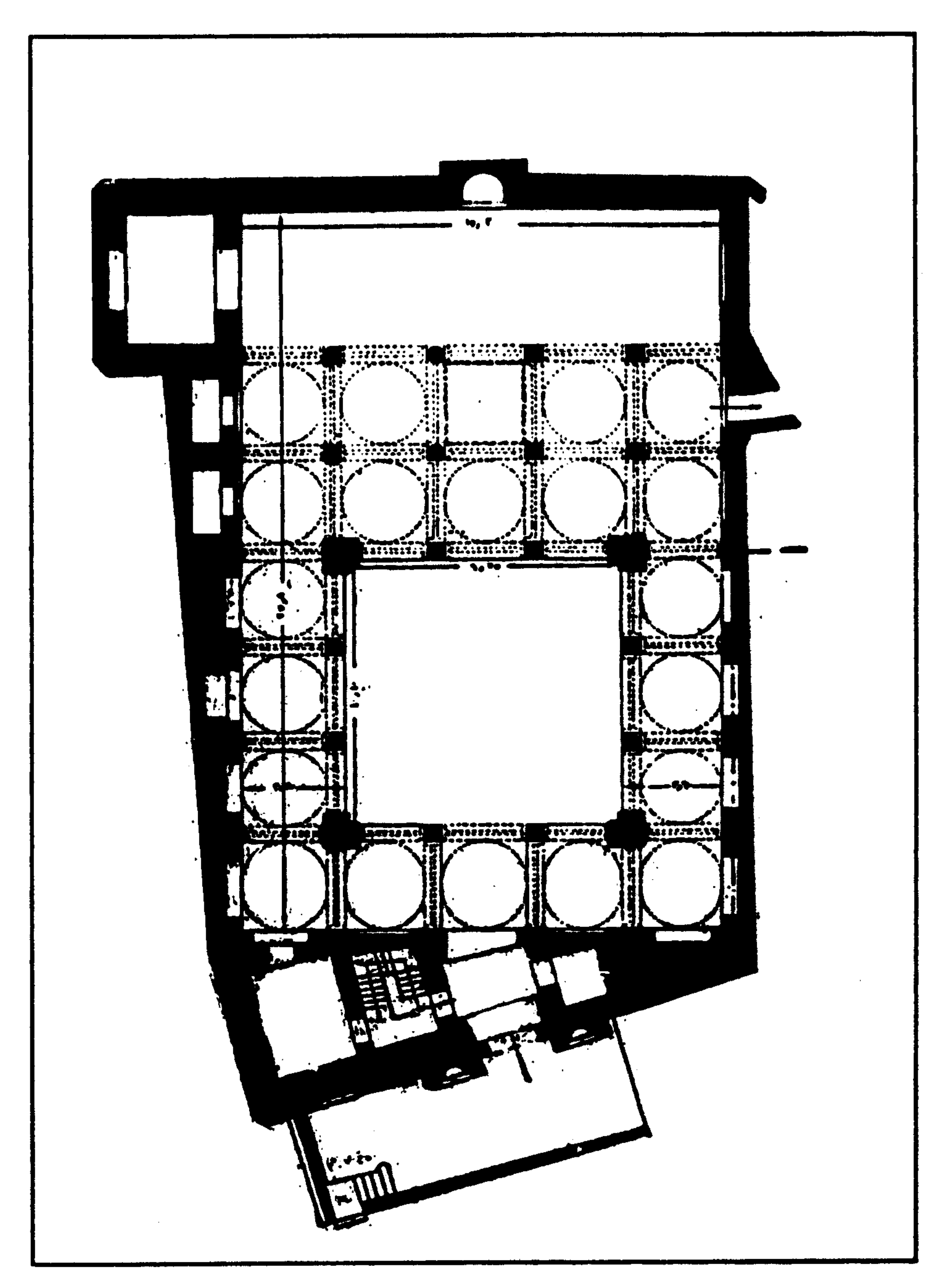
بقي أن نشير إلى أن تصميم هذا المشهد المعماري قد استوحي في العصر الحديث لتصميم ضريح أغا خان الثالث الذي أقامه المرحوم فريد شافعي في مدينة أسوان عام ١٩٥٩.

الجامع الأقمر

أنشأه الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله في سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م، وهو يقع على يمين السالك إلى شارع المعز لدين الله بقرب حارة برجوان وجامع السلحدار. وكان مكانه علافون فتحدث الخليفة الآمر مع الوزير المأمون أبي عبد الله محمد بن مختار بن فاتك البطائحي في إنشائه جامعا، فلم يترك قدام القصر دكانا. ويفهم من ابن ظهيرة أيضًا أن هذا الموقع كان مكانه برية أي صحراء تعرف ببئر العظمة والعظام، وهي بئر قديمة قبل الملة الإسلامية كانت في دير من ديارات النصارى، فلما قدم جوهر بجيوش المعز لدين الله سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، أدخل هذا الدير في القصر، وهو موضع الركن المخلق، وجعل البئر مما ينتفع به في القصر. وقد عرفت بهذا الاسم لأن جوهرا نقل من الدير المذكور عظاما كانت فيه من رمم قوم يقال إنهم من الحواريين، فسميت بئر العظام، والعامة تقول بئر العظمة.

ويذكر ابن عبد الظاهر أنه لما كمل بناء الجامع في سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م ذكر اسم الآمر والمأمون عليه، وهذه الرواية أكدتها النقوش الأثرية التي بقيت على الواجهة الغربية للمسجد، كما يذكر المقريزي أن الخليفة الآمر اشترى له حمام شمول ودار النحاس بمصر وحبسهما على سدنته ووقود مصابيحه، ومن يتولى أمره ويؤذن فيه، وبنى تحته دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح، أي في الجهة الشمالية، مما جعل المرحوم حسن عبد الوهاب يعتقد أنه من المساجد المعلقة رغم أنه منخفض عن مستوى أرضية الشارع ويفضي إليه مجموعة من الدرج ويتقدمه سور من الحديد.

وهو جامع صغير صمم بحيث تتفق واجهته وتخطيط الشارع الذي يطل عليه، إذ نجد أطرافه الخارجية غير منتظمة، وواجهته الغربية ليست في موازاة جدار القبلة الشرقي، بسبب التقاء الشارعين اللذين أقيم الجامع على حافتيهما في زاوية حادة؛ لذا عمد المعمار إلى ملء الفراغ الناتج بين الجدار الشمالي والواجهة الغربية بثلاث غرف؛ واحدة على يمين المدخل واثنتان على يساره.



شكل (١٩)

جامع الأقمر، مسقط أفقي عن أحمد فكري

وتمتد واجهة المسجد الغربية التي حفلت بالعديد من أنواع الزخارف النباتية والهندسية والكتابية، بطول عشرين مترا، وارتفاع اثني عشر مترا، وهي من الحجارة المصقولة وتنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية، الجنوبي منها كان متواريا خلف منزل حديث البناء، قامت إدارة حفظ الآثار العربية بنزع ملكيته منذ زمن بعيد، لكن لم يهدم إلا مؤخرا، وتم إعادة بنائه على نمط القسم الشمالي الذي يمتد أيضًا بطول ٦,٤٢م ويزينه دخلة صماء مستطيلة الشكل يعلوها عقد مفصص يزينه صفان من المقرنصات ويملأ حشواته أضلاع مشعة أشبه بشمس مشرقة حول جامة مستديرة نقش بدائرها اسم محمد عدة مرات بالإضافة إلى اسم علي الذي يحتل مركز الجامة. ويعلو هذ العقد طاقة مستديرة اندثرت زخارفها الجصية، يكتنفها من يمين ويسار نافذتان مستطيلتان تنوعت زخارفهما. صيغت النافذة اليسرى منهما على هيئة محراب يرتكز على عمودين ويتدلى من قمته مشكاة، كأنها ترتل قوله تعالى: ﴿... مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ ... ﴿٣٥﴾﴾ [النور]، تعد أول مثال من نوعه في عمارة مصر الإسلامية، ويوجد أسفل النافذتين في تواشيح العقد نقش لمعينين بهما زخارف نباتية. وينتهي هذا القسم الأيسر من الواجهة الغربية عند التقائه بالواجهة الشمالية للمسجد بشطف يتوجه مقرنص من صفين كتب على جانبيه محمد وعلي، وفي طاقاته ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل]، نجد نظيرا له في الركن الجنوبي الغربي الذي سبق للمقريزي أن عبر عنه بالركن المخلق، وهو يعد أيضًا الأول من نوعه في العمائر الإسلامية في مصر، وسوف نصادفه بعد ذلك بكثرة في العديد من العمائر الدينية.

أما القسم الأوسط من الواجهة فهو بارز عن سمت الجدران بحوالي ثلاثة أرباع المتر ويمتد ما يقرب من سبعة أمتار، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام رأسية، يقع المدخل في القسم الأوسط منها وهو عبارة عن فتحة مستطيلة الشكل يعلوها عقد مستقيم يتألف من صنج معشقة نجد نظيرا لها في بوابتي الفتوح والنصر، ويتوج قمته حنية صماء معقودة بعقد مدبب تملأ حشواته أضلاع مشعة كأنها شمس ينبثق النور من حولها، يتوسطها جامة نقش بمركزها اسما محمد وعلي يحيط بهما

شريط ضيق من زخارف نباتية، يليه شريط آخر من كتابات قرآنية بالخط الكوفي نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب]»، يحيط بها حلقة ثالثة تضم بدورها زخارف نباتية مفرغة، على حين يزين كوشتي العقد زهرة متعددة الشحمات.

يكتنف هذا القسم الأوسط قسمان متماثلان نجد في القسم الأسفل منهما حنية أشبه بمحراب يعلوها عقد على هيئة محارة أو شمس مشعة، يعلوها إطار مستطيل الشكل به أربعة صفوف من المقرنصات الحجرية، تعد الأولى من نوعها بعد مقرنصات مئذنة الجيوشي المشيدة من الآجر والجص، يعلوه حنية أخرى يكتنفها عمودان رشيقان، ويتوجها عقد مدبب به محارة أو شمس صغيرة. ولعل الهدف من وراء نقش هذه الشموس أن تعبر عن قوله تعالى: ﴿... جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ...﴿٥﴾﴾ [يونس] إذ تضم هذه الواجهة سبعة أشكال مختلفة الأحجام منها.

وتضم هذه الواجهة أيضًا ثلاثة أشرطة من الكتابات الكوفية المزهرة تمتد عليها أفقيا من أولها إلى آخرها، الأول أسفل العقد المستقيم الذي يعلو المدخل، والثاني فوق العقد المستقيم والثالث فوق قمة الواجهة ويستمر في امتداده حول الواجهة الشمالية إلى مسافة تبعد أحد عشر مترا ونصه «بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمله... فتى مولانا وسيدنا الإمام الآمر بأحكام الله ابن الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليهما وعلى آبائهما الطاهرين وأبنائهما الأكرمين تقربا إلى الله الملك الجواد... آمين... السيد الأجل المأمون أمير الجيوش سيف الإسلام وناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادي دعات (كذا) المؤمنين أبو عبدالله محمد الآمري، عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته في سنة تسع عشرة وخمسمائة».

ويشكل تخطيط الجامع من الداخل مستطيلا منتظم الأضلاع، طوله ٢٨ مترا وعرضه ١٧,٣٤ مترا، يضم صحنا أوسط مكشوفا تبلغ مساحته ١٠,١٧ × ٩,٧٧م. يحيط به أربعة أروقة يطل كل منها على الصحن بواسطة بائكة ثلاثية

العقود من النوع المنفرج، تقوم على عمودين في الوسط ودعامتين في الأركان. كان يزين حافتها شريط من الكتابات القرآنية، نقشت بالخط الكوفي المزهر. في الوقت الذي زينت فيه تواشيح العقود بجامات تضم وريدات متعددة الفصوص.

ويعد رواق القبلة أكبر أروقة الجامع إذ يتألف من ثلاث بلاطات تفصلها باثكتان، تشتمل كل منها على خمسة عقود موازية لجدار القبلة، تقوم على أربعة أعمدة قديمة ذات تيجان كورنثية الشكل، أكثرها اتساعا بلاطة المحراب التي يغطيها سقف خشبي مسطح، وتنتهي في الركن الشمالي الشرقي بقاعة مستطيلة (٥ × ٣م)، ويرجح أنه كان يفصلها عن بقية الرواق مقصورة خشبية ما تزال آثار قوائمها باقية في قواعد الأعمدة. أما البلاطتان الثانية والثالثة فقد قسمت كل منها إلى خمسة مربعات، يعلو كل مربع قبة ضحلة تقوم على مثلثات كروية باستثناء المربع الأوسط في البلاطة الثانية الذي كان يشغله فتحة مربعة للإضاءة أمام المحراب الذي يتوسط جدار القبلة وهو مكسو برخام دقيق ملون ويعلوه لوحة رخامية تسجل الأعمال التي قام بها الأمير يلبغا السالمي في الجامع عام ٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ ..﴿٥٠﴾﴾ [الروم]، أمر بعمل المنبر والمنارة وغيره بعد اندراسه في أيام مولانا السلطان الملك الظاهر أبي سعيد برقوق حرس الله نعمته، العبد الفقير إلى الله تعالى أبو المعالي عبد الله يلبغا السالمي الحنفي الصوفي. الظاهري لطف الله به في الدارين وجعله. . . في شهر رمضان المعظم سنة تسع وتسعين. وكان بنى هذا الجامع على أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ابن المستعلي في سنة تسع عشرة وخمسمائة من الهجرة النبوية».

وإلى يمين المحراب يوجد منبر من الخشب يرجح أنه من بقايا المنبر الفاطمي، وإن كان يعلوه لوحة خشبية جاء فيها ما يلي: «﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء]. أمر بعمل هذا المنبر في أيام مولانا السلطان الملك الظاهر برقوق نصره الله غرس نعمته العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الله يلبغا السالمي الحنفي الصوفي الظاهري لطف الله به الدارين آمين في شهر رمضان المعظم سنة تسع وتسعين وسبعمائة».

وهذا يعني أن منبر يلبغا قد فقد ولم يبق منه سوى اللوحة التأسيسية التي تعلو منبر الآمر حاليا، وهذا يعني بدوره أن جامع الأقمر كان معدا لصلاة الجمعة، على عكس زعم المقريزي الذي ذكر أنه «لم تكن فيه خطبة، لكن يعرف بالجامع الأقمر»، وأن أول جمعة جمعت فيه كانت في الرابع من شهر رمضان سنة ٧٩٩هـ/ أول يونيو ١٣٩٧م.

أما فيما يتعلق بأروقة الجامع الشمالية والجنوبية والغربية، فيتألف كل منها من بلاطة واحدة نجدها عمودية على جدار القبلة في الرواقين الشمالي والجنوبي ويسقفها ثلاث قباب ضحلة، وموازية في الرواق الغربي ويعلوها خمس قباب من نفس النوع. وظاهرة تغطية الأروقة هنا بقباب ضحلة تقوم على مثلثات كروية سبق أن شوهدت للمرة الأولى في مشهد طباطبا وفي بابي الفتوح والنصر وفي مشهد إخوة يوسف، مما يؤكد أنها فاطمية الطراز وليست من أعمال يلبغا السالمي في زمن السلطان برقوق كما يعتقد كريسويل استنادا إلى ظهورها في خانقاه فرج ابن برقوق (انظر الفصل السابع).

ويستلفت النظر أيضًا في الرواق الشمالي أنه جعل على امتداد جدرانه الداخلية، دخلات أو تجاويف تزداد فسحة واتساعا كلما اقتربنا من جدار القبلة الذي ينتهي عند بلاطة المحراب بغرفة مستطيلة الشكل كما سبق أن أوضحنا من قبل، وذلك تجنبا للانحراف في الجدار الشمالي للمسجد، نجد نظيرا لها على طول امتداد الجدار الجنوبي ولكن أصغر حجما.

وقد شهد هذا الجامع العديد من أعمال التجديد والإضافة فقد روى المقريزي أنه في شهر رجب سنة ٧٩٩هـ/ أبريل ١٣٩٧م قام الأمير الوزير المشير الأستادار يلبغا بن عبد الله السالمي، أحد المماليك الظاهرية بتجديده، وأنشأ بظاهر بابه البحري أي الشمالي حوانيت يعلوها طباق، وجدد في صحن الجامع بركة لطيفة يصل إليها الماء من ساقية، وجعلها مرتفعة ينزل منها الماء إلى من يتوضأ من بزابيز نحاس، ونصب فيه منبرا. وجعل فوق المحراب لوحا مكتوبا فيه ما كان فيه أولا، وذكر فيه تجديده لهذا الجامع، ورسم فيه نعوته وألقابه. كما روى أيضًا أنه بنى

على يمنة المحراب البحري، بالواجهة الغربية مئذنة وبيض الجامع كله ودهن صدره بلازورد وذهب وجدد حوض الجامع الذي تشرب منه الدواب وهو في ظهر الجامع تجاه الركن المخلق.

والحق أن رواية المقريزي هذه تتفق مع نقوش اللوحة الرخامية السابق الإشارة إليها بأعلى المحراب.

ويبدو أن المقريزي لم يستحسن بعض هذه الأعمال وذهب إلى الأمير يلبغا السالمي ليعاتبه عليها وسجل لنا ما دار من حديث بينهما قائلا:

«فقلت له: قد أعجبنى ما صنعت بهذا الجامع، ما خلا تجديد الخطبة فيه وعمل بركة الماء فإن الخطبة غير محتاج إليها ها هنا لقرب الخطب من هذا الجامع، وبركة الماء تضيق الصحن، وقد أنشأت ميضأة بجوار بابه الذي من جهة الركن المخلق» فاحتج عليه الأمير يلبغا قائلا: «أما الخطبة والمنبر فما أنا بالذي أحدثته، فقد قال ابن الطوير في كتاب «نزهة المقلتين في أخبار الدولتين» عند ذكر جلوس الخليفة في المواليد الستة: ويقدم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك، ثم يحضر خطيب الجامع الأقمر ويخطب كذلك. فهذا أمر قد كان في الدولة الفاطمية. وأما البركة ففيها عون على الصلاة لقربها من المصلين».

وفي سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م ولي نظر الجامع بعض الفقهاء، فرأى هدم المئذنة من أجل ميل حدث بها فهدمها، كما أبطل الماء من البركة لإفساد الماء بمروره بجدار الجامع القبلي. ومع ذلك فإن من يتأمل المئذنة التي توجد على يسار المدخل الغربي سوف يلاحظ أن الذي هدم منها هو علوها فقط، لأن قاعدتها المستديرة ما تزال باقية حتى بداية الطابق الأول وهي تحتفظ بنقوشها الغربية وبصفوف من المقرنصات التي تلتف حولها، أما الطابق الأول فمن الواضح أنه بناء حديث أضيف في تاريخ نجهله.

وجدد الجامع الأقمر أيضًا في أيام محمد علي على يد سليمان أغا السلحدار في شهر شعبان سنة ١٢٣٦هـ/ مايو ١٨٢١م، وقد لاحظ ڤان برشم آثار هذه هذه

الأعمال على نفيس بعض العقود المطلة على الصحن. كما عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بإصلاحه في سني ١٣٢٠ - ١٣٤٧هـ/ ١٩٠٢ - ١٩٢٨م.

هذا وقد شهد الجامع الأقمر في الوقت الحاضر أكبر عملية ترميم قامت بها طائفة البهرة التي يرجع إليها الفضل في إعادة بناء القسم الجنوبي من الواجهة الغربية.

الجامع الأفخر

يقع هذا الجامع على رأس حارة خوش قدم بشارع المعز لدين الله بحي الغورية، التي كانت تعرف قديما بسوق السراجين ثم بسوق الشوائين، وكان يعرف قديما بالجامع الأفخر ثم قيل له بعد ذلك جامع الفكهيين. وهو من المساجد الفاطمية المعلقة. عمّره الخليفة الظافر بنصر الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله، ووقف حوانيته على سدنته ومن يقرأ فيه وذلك في سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وقدر به دروسا وفقهاء ومعلمين للقرآن الكريم.

أما عن سبب تشييده فيذكر المؤرخ ابن عبد الظاهر أن مكانه كان زريبة تعرف بدار الكباش، وأن خادما رأى من مشرف عال ذباحا وقد أخذ رأسين من الغنم فذبح أحدهما ورمى سكينته ومضى ليقضي حاجته، فأتى رأس الغنم الآخر وأخذ السكين بفمه ورماها في البالوعة، فجاء الجزار يطوف على السكين فلم يجدها. وأما الخادم فإنه استصرخ وخلصه منه. وطولع بهذه القضية أهل القصر فأمروا بعمل جامعا، ويسمى الجامع الأفخر تعقد به حلقة تدريس وفقهاء، ومتصدرون للقرآن.

وفي سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م كانت الزلزلة العظيمة فسقطت مئذنة جامع الفكهيين فقام السلطان الظاهر جقمق بتجديده في سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م بعد أن تهدم الكثير من أروقته وجدرانه، وألحقت به ميضأة أمر بعملها محمد بن أحمد بن محمد الجلالي المحلي المتوفى سنة ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م. كما جدد ثانية في نهاية هذا القرن على الأمير يشبك من مهدي الذي عنى بزخرفته وتجميله وإزالة المباني التي كانت تحجبه.

وفي العصر العثماني تم هدم الجامع وأعيد بناؤه بعناية أحمد كتخدا الخربطلي الذي عهد بالإشراف على تجديده إلى عثمان شلبي الرومي شيخ طائفة العقادين، الذي انتهى من عمارته في شوال سنة ١١٤٨هـ/ فبراير ١٧٣٦م وجعله معلقا كما كان من قبل، وأقام تحته حوانيت، وألحق به سبيلا، في طرف الواجهة الغربية، يعلوه كتاب، كما أنشأ بجواره وكالة لتجارة الفاكهة. وقد بلغت جملة النفقات عليه مائة كيس. وتاريخ هذه العمارة مدون على لوحة تذكارية فوق الباب الشمالي نصها «بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذا المكان المبارك وقصد الثواب من الملك التواب الفقير إلى الله تعالى الحاج أحمد كتخدا مستحفظان سابقا في شهر رمضان سنة ١١٤٨هـ».

وهكذا لم يبق من الجامع الفاطمي سوى المصاريع الخشبية للبابين الشمالي والغربي وهي منقوشة بزخارف نباتية، كذلك بعض المداميك الحجرية التي تعلو المدخل الغربي كتب عليها بالخط الكوفي عبارة الشهادة بقسميها «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

والجامع الحالي يتألف من صحن صغير مربع الشكل يغطيه سقف منقوش في وسطه فتحة مثمنة الشكل للإضاءة، يحيط به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذي يتصدره محراب مغشي برخام متعدد الألوان، على حين كسيت طاقيته وعقده وكوشتيه ببلاطات من القاشاني ذات الطراز العثماني، يتوسطها واحدة مربعة كتب عليها عبارة «ما شاء الله» وتاريخ سنة ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م. ويعلو المحراب شباك مستدير مكسو أيضًا بالقاشاني.

وللجامع منارة رشيقة، تقع إلى يسار المدخل الغربي، ذات شكل أسطواني ينتهي بقمة مخروطية مدببة تشبه القلم الرصاص شأن باقي المنارات العثمانية.

وفي سنة ١٩٠٨ قامت لجنة حفظ الآثار العربية بتنظيف المصاريع الخشبية، الفاطمية الطراز، وأزالت ما كان يعلوها من دهانات، وأكملت الناقص من كسوتها البرونزية، كما أزالت الدكك التي كانت تتقدم مكسلتي الجامع وأصلحت أرضيته الداخلية.

جامع الصالح طلائع

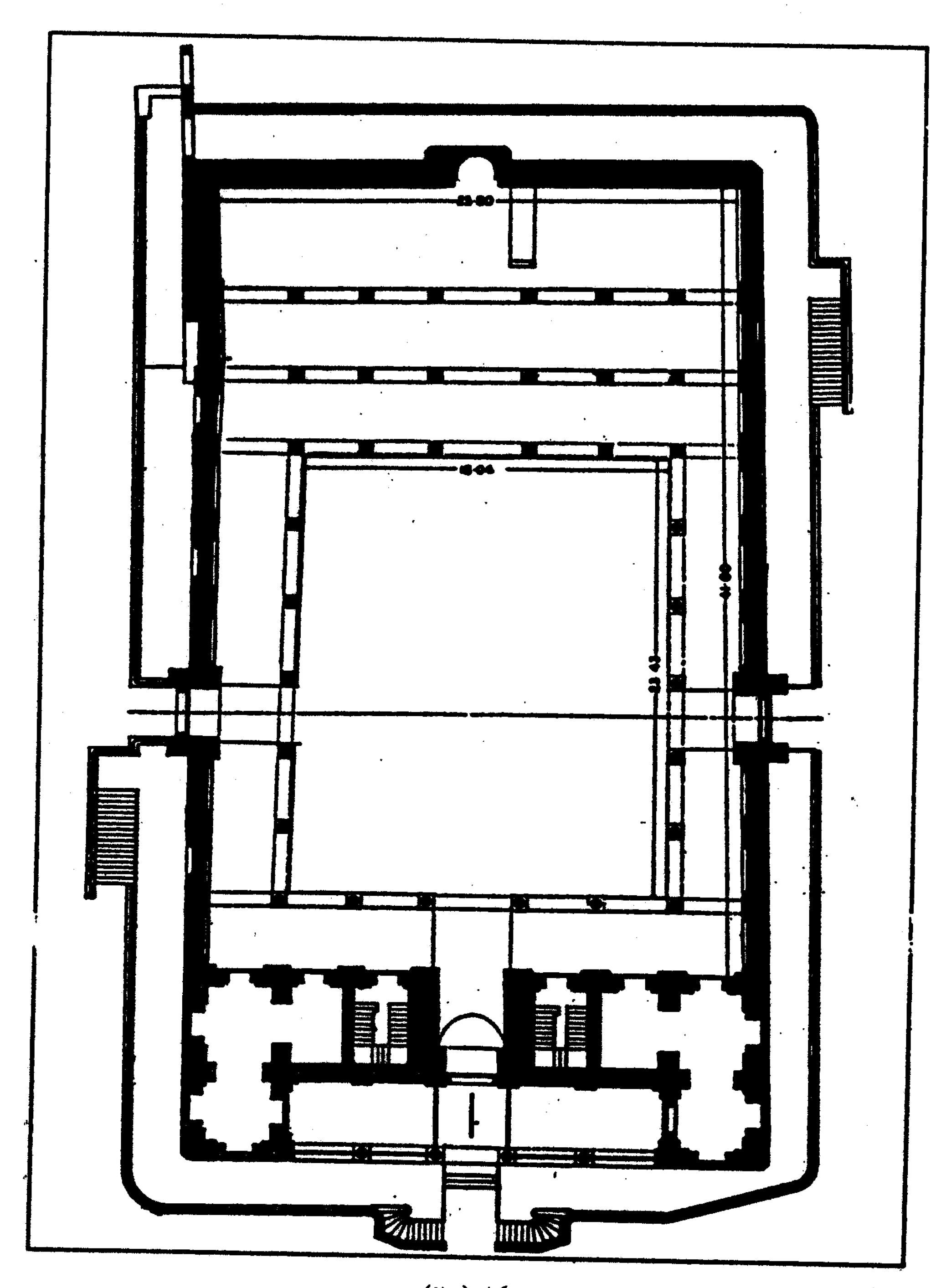
يقع بشارع الدرب الأحمر في أحد المواضع التي عمرت في زمن الخلفاء الفاطميين خارج باب زويلة، أنشأة الملك الصالح طلائع بن رزيك أبو الغارات ووزير الخليفة الفاطمي الفائز بنصر الله في سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م ليدفن فيه رأس الحسين رضي الله عنه، بعد أن خيف على مشهده الذي بعسقلان من استيلاء الفرنج عليها، إلا أن الخليفة لم يمكنه من ذلك وقال لا يكون إلا داخل القصور الزاهرة، وبنى خصيصا المشهد الموجود الآن.

ولما تم بناء الجامع جعل فيه صهريجا عظيما خصص له ساقية على الخليج بالقرب من باب الخرق تملؤه بالماء أيام فيضان النيل. ومع ذلك فإن الجامع لم يستخدم لصلاة الجمعة إلا في أيام السلطان المملوكي عز الدين أيبك في سنة بضع وخمسين وستمائة/ ١٢٥٤م بحضور رسول بغداد الشيخ نجم الدين عبد الله البادراني.

ويعد هذا الجامع آخر الجوامع التي شيدت زمن الخلافة الفاطمية، كما يعد أول جامع معلق في مصر الإسلامية له أربع واجهات حجرية، شيد أسفل ثلاث منها: الشمالية والجنوبية والغربية، مجموعة من الحوانيت يبلغ ارتفاعها ٣,٨٠ متر، يتوجها شريط زخرفي يضم عناصر شتى، نجد نظيرا لها في المنارة الجنوبية لجامع الحاكم بأمر الله، ويسقفها أقبية متقاطعة.

أما أرضية الجامع فترتفع فوق هذه الحوانيت بمقدار نصف متر عن مستوى الشارع في الوقت الذي تسمو فيه جدران المسجد إلى ارتفاع ١٤,٧٥ متر، فيما خلا الشرافات التي كانت تتوج أعلاها وهي تتألف من طابقين الأول مسطح ارتفاعه متر والثاني مدرج ارتفاعه متر وبضعة سنتيمترات.

وتعد الواجهة الغربية أهم اجهات المسجد إذ يتوسطها المدخل الرئيسي الذي أقيم أمامه سقفية تنتهي في طرفيها الشمالي والجنوبي بغرفتين. وهي تطل على الطريق بواسطة بائكة تتألف من أربعة أعمدة رخامية ذات قواعد مرتفعة، يعلوها



شكل (٢٠)

جامع الصالح طلائع، مسقط أفقي، عن برندنبرج

خمسة عقود منفرجة، نقشت إطاراتها بزخارف هندسية وزينت تواشيحها بصرر دائرية، ويسقفها سقف خشبي منقوش بزخارف فاطمية الطراز عثر على بقايا منها أثناء عمارة الجامع في العصر الحديث فأكمل الباقي على نمطه، ويزين صدر هذه السقيفة وجانبيها زخارف على هيئة أشكال محارية تشع ضلوعها حول جامة مركزية، وتنتهي الأضلاع بفصوص يلتف حولها عقد منفرج يزينه إطار من زخارف هندسية، على حين تحتل تواشيحه جامات دائرية.

وكان هذا المدخل يغلق بواسطة باب من الخشب، محفوظ حاليا في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة يتألف من مصراعين غشي وجههما بالنحاس المنقوش بأطباق نجمية مفرغة على حين نقش خلفهما بحشوات مستطيلة قائمة وعمودية زينت بزخارف نباتية محفورة حفرا عميقا، وهو من أقدم الأبواب المصفحة بالنحاس في مصر الإسلامية وقد عمل الباب الحالي على نمطه.

ويعلو نهاية هذه الواجهة وبداية الواجهة الشمالية شريط من الكتابات الكوفية المزهرة نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشاء هذ المسجد [بالقا]هرة المعزية المحروسة فتى مولانا وسيدنا الإمام عيسى أبي القاسم الفائز بنصر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين [وأبنائه الأكرمين الســ]ـيد [الأجل] الملك الصالح ناصر الأئمة وكاشف الغمة أمير الجيوش سيف الإسلام غياث الأنام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين [أبو ا] لغا [رات] طلائع الفائزي عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته ونصر ألويته وفتح له وعلى يديه مشارق الأرض ومغاربها في شهور سنة خمس وخمسين وخمس مائة والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أفضل الوصيين...».

وكان يعلو المدخل الغربي مئذنة سقطت في سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م وشيدت أخرى عوضا عنها، لكنها سقطت بدورها في أكتوبر ١٩٢٣م.

ولجامع الصالح مدخلان آخران، ينتصف أحدهما الواجهة الشمالية، على حين ينتصف الآخر الواجهة الجنوبية في مقابله تماما، وكلاهما يبرز عن سمت

الجدران بحوالي ٩٠ سم ويتوجه من أعلى عقد منفرج فتحت في داخله نافذة معقودة، ويربطه بالمسجد معبرة فوق الحوانيت السفلية كما هو الحال بالنسبة للمدخل الرئيسي الغربي الذي يفضي إلى داخل الجامع عن طريق ممر مسقوف بقبو أسطواني مشيد من الحجارة. والجامع من الداخل عبارة عن مستطيل طوله ٤١,٦٠ متر وعرضه ٢٥,٨ متر، يتوسطه صحن مكشوف ٢٣,٤٣ × ١٨,٧٠م، يوجد أسفله صهريج كبير، لعله الصهريج الذي ذكر المقريزي أنه كان يملأ من ماء الخليج وقت الفيضان، يحيط به أربعة أروقة يتألف كل منها من بلاطة واحدة فيما عدا رواق القبلة الشرقي الذي يشتمل على ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة، وهي تطل على الصحن من الشمال والجنوب بواسطة بائكة ذات ستة عقود، ومن الشرق والغرب ببائكة ذات خمسة عقود يحتل تواشيحها حنية محارية على هيئة محراب، في حين يعلو قمة كل عقد جامة بها وريدات متعددة الشحمات، على عكس العقود الداخلية التي نقشت أطرها من الداخل والخارج بأشرطة من الكتابات القرآنية بالخط الكوفي المزهر، وفتحت في تواشيحها صرر زخرفية فرغ وسطها بأشكال هندسية ونباتية متنوعة، كما يعلو قمة كل عقد نافذة مربعة يغطيها ستائر جصية مفرغة بأشكال نباتية من وجهيها، وتقوم هذه العقود فوق طبالي خشبية يزين الأجزاء الظاهرة منها زخارف نباتية مورقة نجد نظيرا لها على الأوتار أو الروابط الخشبية التي تربط العقود ببعضها البعض التي تذكرنا زخارفها بأسلوب الحفر على الخشب إبان العصر الفاطمي.

ويتصف جدار القبلة محراب مجوف تسوده البساطة يتصدره عمودان من الرخام الأحمر ويعلوه عقد منفرج بداخله طاقية من الخشب المنقوش بزخارف ملونة من المرجح أنها حلت محل الكسوة الرخامية المتعددة الألوان التي شاهد بريس دافن أجزاء منها في عام ١٨٧٧م في الزاوية اليسرى من المحراب ووصلنا بالفعل قطعة منها.

وعلى يمين المحراب يقوم منبر من الخشب، صنعت ريشتاه، أي جانباه، من حشوات مجمعة على شكل أطباق نجمية مطعمة بالصدف والعاج والأبنوس، بها

زخارف نباتية محفورة غاية في الدقة والإبداع، يعلو بابه لوحة خشبية بها نص تذكاري يتألف من سطرين نقشا بخط النسخ المملوكي نقرأ فيها: «أمر بعمارة هذا المنبر المبارك ابتغاء لوجه الله الكريم المقر العالي الأميري الكبيري السيفي سيف الدين مقدم الجيوش بكتمر الجوكندار المنصوري السيفي أمير جندار الناصري وذلك بتاريخ شهر جمادى الآخر سنة تسع وتسعين وستمائة رحم الله من كان السبب».

كما نقش على جلسة الخطيب النص التالي: «﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك الجناب العالي الأميري الكبيري سيف الدين بكتمر الجوكندار أمير جندار وذلك بتاريخ سنة تسع وتسعين وستمئة».

ولقد حل هذا المنبر محل المنبر الفاطمي الذي يرجح البعض أنه كان طرفة نادرة كما يستشف من زخرفة الأخشاب الفاطمية الباقية بالجامع، وكما يستشف من منبر الصالح طلائع بالمسجد العمري بقوص، ومن المقصورة الخشبية التي كانت تغطي واجهة رواق القبلة، وذكر بريس داڤن أنها كانت مصنوعة من خشب الخرط المنقوش بزخارف نباتية محفورة.

ورواق القبلة مزود أيضًا بملقف عبارة عن فتحة مستطيلة الشكل يزينها إطار من الزخارف الجصية المحفورة بعناصر نباتية دقيقة، نفذ فيما بين رأس المحراب والنافذة المجاورة له، فوق الموضع المخصص لظهر المنبر، لعله كان يستخدم لترطيب الهواء على الخطيب أو يجلب له مزيدا من الضوء أثناء النهار، وهو يعد الأول من نوعه في عمارة القاهرة الدينية، وقد وجد نظير له في عمارة العصرين الأيوبي والمملوكي في كل من المدرسة الكاملية ومدرسة الناصر محمد وخانقاه بيبرس الجاشنكير.

ويحيط بجدران الجامع الداخلية مجموعة من النوافذ العلوية نجد سبعا منها في جدار القبلة، وتسعا في كل من الجدارين الشمالي والجنوبي يستدل من بقايا بعضها في رواق القبلة أنها كانت جميعا معقودة بعقود مدببة يحيط بكل منها شريط من الكتابات الكوفية المزهرة، ويغطيها ستائر جصية مزدوجة مفرغة بأشكال

زخرفية متنوعة، يحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة بأحد أمثلتها، على عكس النافذة التي تعلو المحراب والتي يحيط بها إطار مستطيل الشكل، والنافذة التي توجد في أقصى الجنوب إلى يسار المحراب التي استبدلت ستارتها الجصية بسبعة سطور من الكتابات النسخية.

ويستشف من النصوص التذكارية المنقوشة فوق المنبر ومن الكتابات النسخية على النافذة الأخيرة أن الأمير بكتمر الجوكندار قام بعمارة الجامع في شهر جمادى الآخر سنة ٦٩٩هـ/ فبراير - مارس ١٣٠٠م أي قبل زلزال سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م بما يقرب من أربع سنوات، على عكس ما رواه المقريزي الذي ذكر أنه: «لما حدثت الزلزلة سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م تهدم الجامع فعمر على يد الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار».

ولعله عمر مرة ثانية بعد الزلزلة الأخيرة على يد الأمير المذكور وإن كان ينقصنا الدليل المادي على ذلك. كما جدد مرة أخرى في سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م على يد رجل من الباعة يقال له عبد الوهاب العيني وإن كنا نجهل طبيعة الأعمال التي قام بها، وجدد كذلك في أيام السلطان الأشرف قايتباي سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م، وكانت الأرض قد ارتفعت عن منسوب باب زويلة وعن هذا الجامع فقام الأمير يشبك من مهدي دوادار السلطان بالكشف عن عتبة باب زويلة وعن سلم الجامع فانكشفت الدرجات التي كانت مردومة وعدتها عشر كما كشف عن أبوابه وظهر منه عواميد رخام فجلاهم ونعمهم، وأزال ما كان بواجهته من ربوع وحوانيت من بينها ربع لخوند شقراء ابنة الناصر فرج بن برقوق، وأجرى به إصلاحات عديدة.

ومع هذا فقد أدركت لجنة حفظ الآثار العربية هذا الجامع في حالة سيئة للغاية، فالدكاكين أسفله احتجبت تحت الأرض وأقيمت المنازل والدكاكين بداخله ولصق واجهاته فأخفتها، كما تهدمت الأروقة حول الصحن ولم يبق منها سوى رواق القبلة، فوضعت برنامجا شاملا لتخليته منذ سنة ١٩١١، واستطاعت في سنة ١٩١٥ أن تسير في نزع ملكية هذه المنشآت، وأعيدت الأرض إلى مستواها،

وظهرت الدكاكين أسفل الجامع وعمل أمامها خندق، كما هدمت المنازل فانكشفت الواجهتان ففكتا وأعيد تركيبهما واستكمل الناقص منهما على قدر الإمكان، كما تم كشف سلم الجامع القديم بوسط الواجهة الغربية وتم إعادة بناء السقفية التي تتقدم الواجهة المذكورة.

بقي أن نشير في النهاية إلى أنه ظهر في عام ١٩٤٥ أثناء هدم أحد المنازل الملاصقة للجامع عن بقايا أبنية متصلة بالنهاية الشرقية للواجهة الشمالية كانت مختفية خلف المنزل المذكور، وهي من نفس طراز الواجهة وتمتد في اتجاه الشمال وتضم بابا كبيرا يناظر في التفاصيل أبواب الجامع كما عثر على بقايا نقش كتابي مدون بالخط الكوفي أعلى هذا الجدار نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾، أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك فتى مولانا وسيدنا عبد الله أبو محمد»... ويتوقف النص عند نهاية فتحة الباب الذي نقش حول عقده المستقيم النص التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾».

وفي محاولة لتفسير وجود تلك المباني ذكر المرحوم حسن عبد الوهاب أنها تمثل بقايا المشهد الذي أقامه الصالح طلائع لاستقبال رأس الحسين استنادا إلى أن الآية الشريفة المنقوشة على الباب المذكور: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ كثيرا ما تدون على مداخل المدافن، واستنادًا إلى ما ذكره المؤرخ ابن دقماق من أن الصالح طلائع هو الذي بنى جامع الصالح بظاهر باب زويلة، وبنى مشهد الحسين عليه السلام في سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م كما دلل على وجهة نظره هذه بأن المسقط الأفقي الذي رسمه بريس داڤن للجامع يشتمل على بابين في طرفي جدار القبلة، كانا يوصلان على حد زعمه إلى المشهد المذكور.

الحمام الفاطمي

وآخر ما نذكره من آثار العصر الفاطمي، الحمام الفاطمي الذي كشفت عنه حفائر متحف الفن الإسلامي القاهرة، أو دار الآثار العربية كما كانت تسمى في ذلك الوقت في صيف عام ١٩٣٢م بمنطقة كوم الجارح، إلى الشمال الشرقي من ضريح أبو السعود الجارحي، وهو يقع على حافة تل كوم الجارح ومبني على الصخر مباشرة للاستفادة من الانحدار الطبيعي للتل في الإمداد بالماء والصرف.

ويستشف من تخطيطه وبقايا جدرانه أنه ما زال متأثرا بتخطيط الحمامات الرومانية، إذ نجد حجرة فسيحة تمثل القاعة الباردة أي ذات الجو العادي Frigidairum أو Apoditarium وكانت مخصصة لخلع الملابس والاسترخاء وعرفت بالمسلخ أو المخلع في حمامات القاهرة، يوجد إلى اليسار منها حجرة تالية تمثل القاعة الدافئة Tepidarium التي تؤهل المستحم للدخول إلى الغرفة الساخنة، وهي ترتفع فوق غرفة التسخين المعروفة في الحممات الرومانية باسم Hypocaust، ويوجد بها حوض صغير لصق الجدران مشيد من الطوب ومكسو بطبقة من الملاط، ربما كان الغرض منه تعويض بخار الماء المتناقص في الحجرة نتيجة للهواء الساخن المتصاعد من غرفة التسخين أسفلها، وتفضي هذه الأخيرة إلى الوحدة الثالثة وهي القاعة الساخنة أو قاعة الاستحمام التي كان يطلق عليها Calidarium وهي مشيدة أيضًا فوق غرفة التسخين وتضم في صدرها حوض الاستحمام الذي يبلغ عمقه ١,١٠م ويعلوه ما يشبه السلسبيل، على شكل دخلة في الجدار تضم ثلاث حنيات معقودة، الوسطى منهـا أكثر اتساعا من الجانبيتين، وبها أنبوبة أسفل منها اثنتان من الفخار تخترق الجدران لتوصيل المياه من القدور التي تعلو المستوقد بغرفة التسخين.

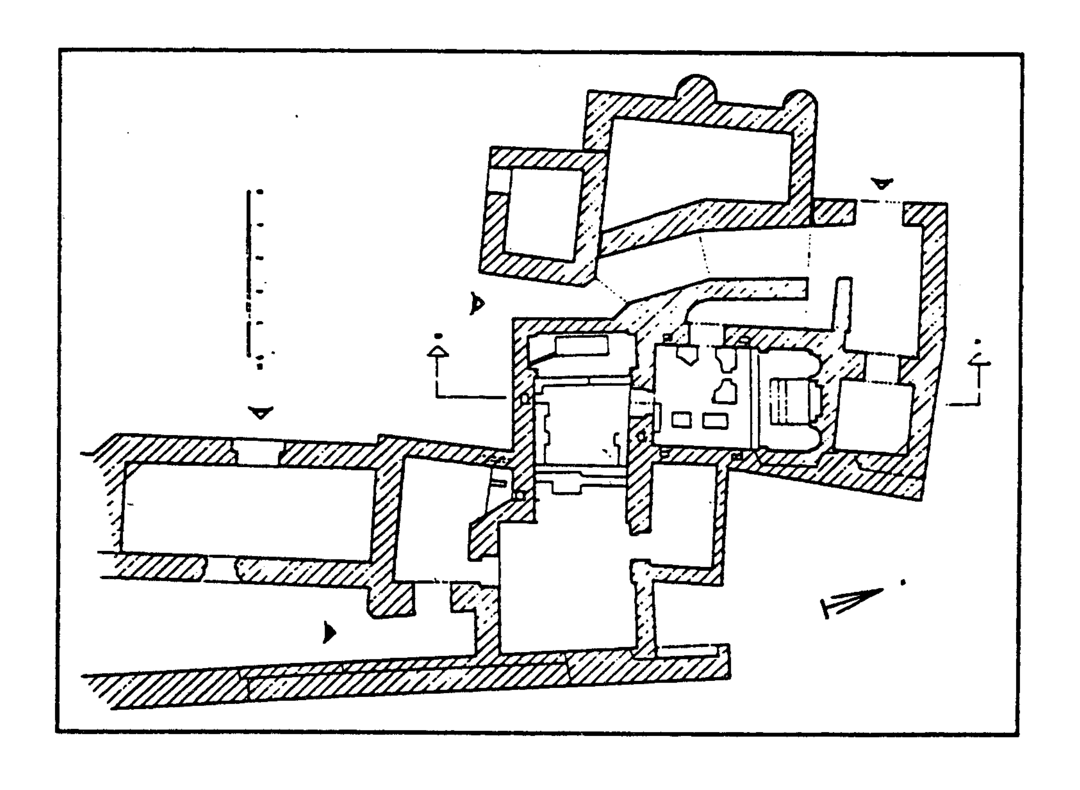
ويستشف من بقايا جدران هذا الحمام أنه كان مزودا بفرن آخر يقع خلف الجدار الشمالي لحجرة الاستحمام، لم يتبق منه سوى أطلال جدران أربعة، لعله كان مخصصا لتسخين قدور المياه، لأنه غير متصل بممرات غرفة التسخين السابق الإشارة إليها.

وقد عثر في أنقاض هذا الحمام على بقايا تصاوير جصية نفذت بطريقة الفريسكو كانت تزين حنايا بعض جدرانه، تطرق التلف إلى بعضها، أهمها صورة تمثل شابا جالسا يمسك بيده كأسا، ويرتدي ثوبا تزينه حليات من زخرفة نباتية حمراء اللون، وحول كل من العضدين شريط، وعلى رأسه عمامة ذات طيات وحول رأسه هالة كاملة الاستدارة. ويضع الشاب حول ظهره وشاحا يخرج طرفاه من تحت الإبطين، وينثيان إلى أسفل مع التعلق في الهواء، ويتدلى من رأسه خصلتان من الشعر إحداهما في الخلف والأخرى في الأمام، وهو منقوش في وضعة أمامية، ولكن وجهه في وضعة ثلاثية الأرباع، ويحف بالحنية شريط من حبات اللؤلؤ.

ومن الصور التي عثر عليها في أنقاض هذا الحمام جزء من رسم يمثل رأس شاب يلتفت إلى اليسار، وصورة سيدة تتدلى عصابة رأسها جهة اليمين، ورسم يمثل طائرتين متقابلين يفصلهما رسوم نباتية ويحف بالحنية أيضًا شريط من حبات اللؤلؤ.

ومع أن أغلب علماء الآثار والفنون الإسلامية قد أجمعوا على نسبة هذه الصور الجصية الملونة إلى القرنين الرابع والخامس للهجرة/ الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، ومن ثم فقد تمت نسبة هذا الحمام وتسجيله ضمن آثار العصر الفاطمي، إلا أن إحدى الباحثات ناقضت الجميع وأرجعته إلى العصر الطولوني تحت زعم أن هذه الرسوم لم يعثر عليها على الجدران القائمة، بل وجدت بين الأنقاض، كما أن الحنيتين لا يصلح أي منهما، بناء على الحسابات الهندسية، لأن تكون منطقة انتقال لأي قاعة من قاعات الحمام. وقد سار على دربها أحد الباحثين الجدد بحجة أنه عثر على بعد خطوت من الحمام على بقايا منزل من العصر الطولوني لا يختلف من حيث طريقة البناء ونوعية وحجم الطوب والملاط عن المواد المستخدمة في بناء هذا الحمام، وهي أدلة واهية ليست جديرة بالمناقشة لأنه فاتهما طرح سؤال هام هو من أين جاءت تلك الرسوم الجصية الملونة التي عثر عليها في أنقاض الحمام والتي أجمع جمهور العلماء المتخصصين على نسبتها إلى العصر الفاطمي؟.

خلاصة القول أنه رغم أهمية هذا الحمام الذي يعد مثالا فريدا لأقدم الحمامات الفاطمية التي أطنب المقريزي في ذكرها والحديث عنها والتي اندرس أغلبها، إلا انه في طريقه أيضًا إلى الزوال بسبب ما يتعرض له من اعتداء مستمر من قبل أصحاب المدابغ الذين اتخذوا منه مركزا لإلقاء نفاياتهم دون أن يتصدى لهم المجلس الأعلى للآثار ناسيا أو متناسيا أن هذا المثال الباقي يعتبر أحد النماذج الذي سارت على نمطه الحمامات المصرية في العصور التالية، فقد ذكر المقريزي أن الحمامات في أيامه، أي في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر للميلاد كانت تنشأ على غرار الحمامات الفاطمية القديمة.



شكل (٢١)

الحمام الفاطمي، مسقط أفقي عن ليلى علي إبراهيم

ثبت بأسماء خلفاء الدولة الفاطمية

*	المعز أبو تميم معد	٣٤١هـ/ ٩٥٢م.
*	العزيز أبو منصور نزار	٣٦٥هـ/ ٩٧٥م.
*	الحاكم أبو علي المنصور	٣٨٦هـ/ ٩٩٦م.
*	الظاهر أبو الحسن علي	٤١١هـ/ ١٠٢١م.
*	المستنصر أبو تميم معد	٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م.
*	المستعلي أبو القاسم أحمد	٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م.
*	الآمر أبو علي منصور	٤٩٥هـ/ ١١٠١م.
*	الحافظ أبو ميمون عبد المجيد	٥٢٤هـ/ ١١٣٠م.
*	الظافر أبو منصور إسماعيل	٥٤٤هـ/ ١١٤٩م.
*	الفائز أبو القاسم عيسى	٥٤٩هـ/ ١١٥٤م.
*	العاضد أبو محمد عبد الله	٥٥٥هـ/ ١١٦٠م.



عمائر الدولة الأيوبية

٥٦٧ - ٦٤٨هـ/ ١١٧١ - ١٢٥٠م



أولا: العمارة الحربية

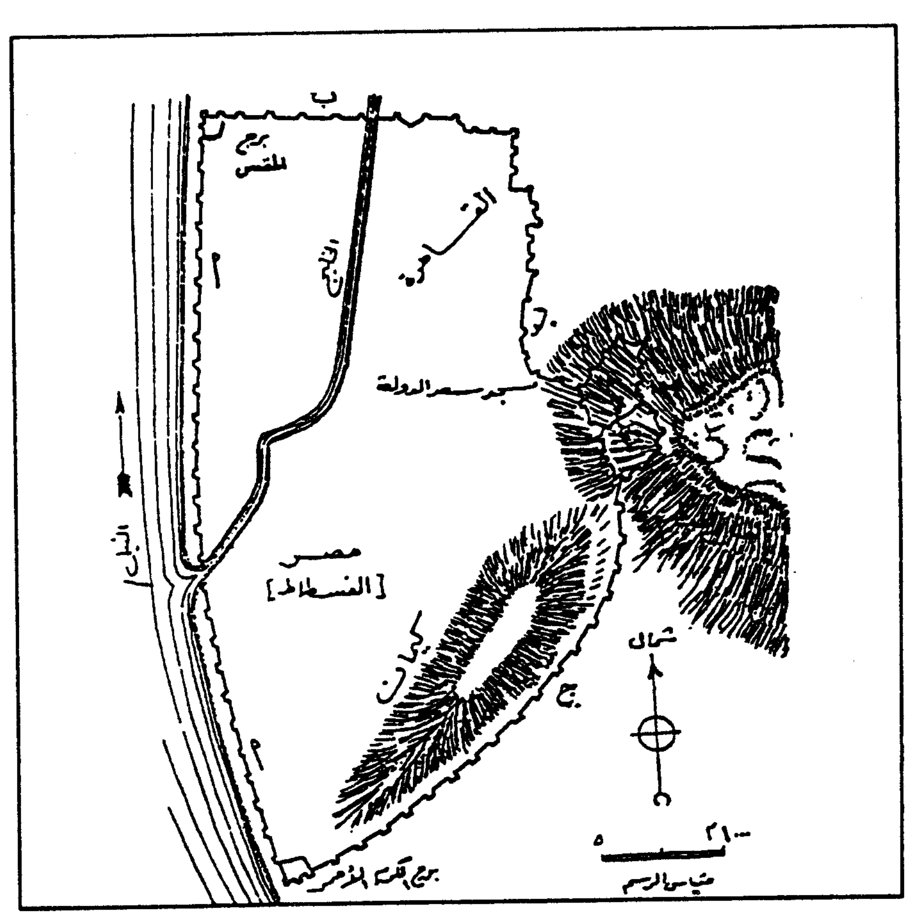
انعكست روح العصر الأيوبى بما ساده من جهاد وحروب ضد الصليبيين على منشآت هذا العصر المعمارية، فقد أولى صلاح الدين عنايته منذ توليه مسئولية الحكم إلى العمائر الحربية، فعمد إلى ترميم أسوار مدينة القاهرة الفاطمية التى سبق للوزير بدر الجمالى أن قام بإعادة بنائها فى الفترة فيما بين سنتى ٤٨٠ - ٤٨٥ هـ / ١٠٨٧ - ١٠٩٢ م، والى إنشاء سور ضخم يلتف حول عواصم مصر الإسلامية: الفسطاط، العسكر، القطائع، القاهرة، ويمتد منها إلى قلعة الجبل التى حرص أيضا على تشييدها فوق جبل المقطم لتكون بمثابة حصن يقيه عدوان شيعة الفاطميين بمصر، وتهديد الصليبيين، كما عمد أيضا إلى إعادة تحصين مدن وثغور الديار المصرية وتزويدها بالحصون والقلاع فى إطار خطة للتصدى للصليبيين والإطاحة بهم، يشهد بذلك العديد من الروايات التاريخية التى وردت فى ثنايا كتب المعاصرين، والشواهد المادية والآثرية التى وصلتنا رغم عوادى الزمن وسوف نستعرضها هنا بالدراسة والتحليل.

أسوار صلاح الدين:

أشار المؤرخ أبو شامة، نقلا عن ابن أبى طى إلى الأسباب التى دعت صلاح الدين إلى القيام بعمارة وترميم أسوار بدر الجمالى فى سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م وذلك أثناء وزارته للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين فقال: «شرع السلطان فى عمارة سور القاهرة لأنه كان قد تهدم أكثره وصار طريقا لا يرد داخلا ولا خارجا، وولاه قراقوش الخادم» الذى كان قد سبق له أن عهد إليه بالإشراف على القصور الفاطمية.

ومع أن هذا النص يفتقر تماما إلى التفاصيل المتعلقة بالأجزاء التى رممت وعمرت من سور بدر الجمالى، إلا أن عالم العمارة الإسلامية كريسويل استطاع أن يحدد لنا ما قام به صلاح الدين من أعمال فى السور الفاطمى فذكر أنه قام

بإعادة بناء السور الغربى بأكمله بعد أن تم نقله بضعة أمتار من موقعة الأصلى إلى الشرق من خليج أمير المؤمنين، الذى تم ردمه كاملا فى عام ١٩٠٠ م، وحل محله شارع بورسعيد الحالى، وكان به ثلاثة أبواب ترتيبها من الشمال إلى الجنوب باب القنطرة الثانى الذى تم الكشف عنه فى عام ١٩٢٠م، وباب الخوخة الذى اندرس فى وقت نجهله، وباب سعادة الثانى الذى ظل قائما حتى سنة ١٨٧٤ م، كما أضاف أيضا جزء صغيرا إلى السور الجنوبى لمدينة القاهرة يمتد من باب الفرج الثانى إلى نهاية الزاوية الجنوبية الغربية للسور الفاطمى.



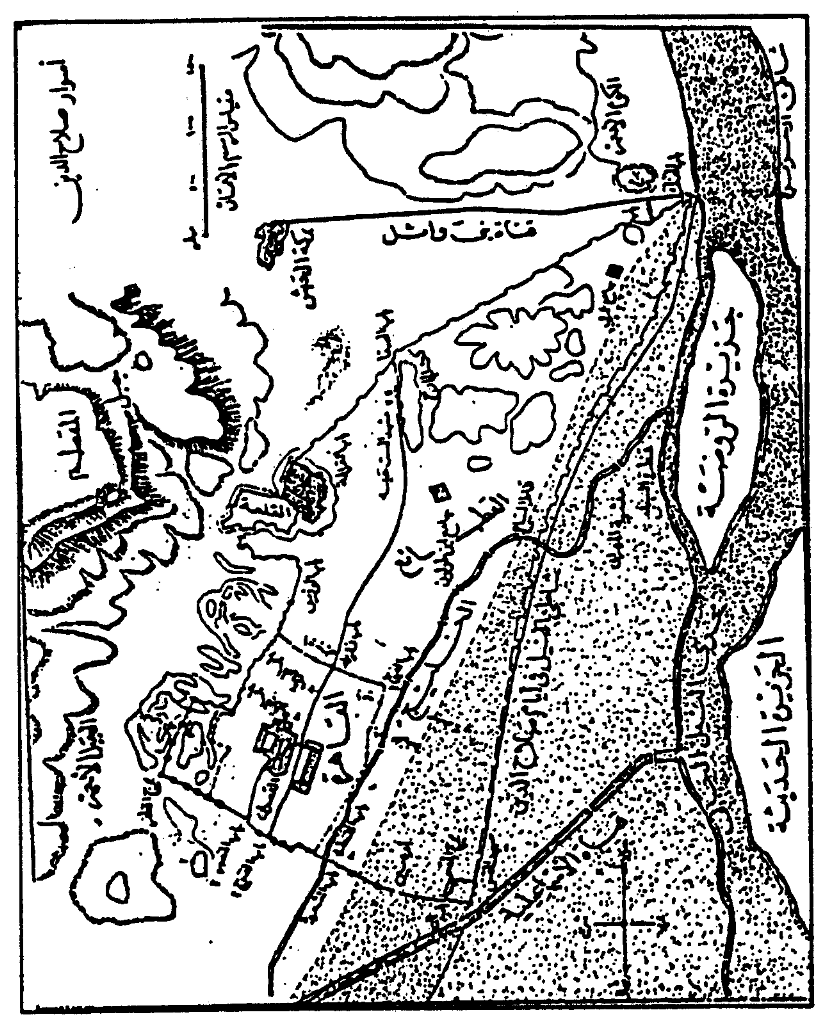
شكل (٢٢)

تخطيط تخيلي لأسوار صلاح الدين، نقلا عن بول كازانوفا

والحق أن تلك الأعمال التى قام بها صلاح الدين فى أسوار مدينة القاهرة كان يتفق مع مكانة صلاح الدين المتواضعة حينذاك كوزير للخليفة العاضد، بيد أنه بمجرد أن استقرت له الأمور ودان له الجميع بالولاء والطاعة، سرعان ما استبدل تلك الأعمال البسيطة بمشروع ضخم فى سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م يتألف من سور يضم مصر أى الفسطاط والعسكر والقطائع، والقاهرة، وقلعة فى الوسط، وهو أمر يتفق بدوره مع مكانة صلاح الدين الجديدة بعد سقوط الخلافة الفاطمية فى سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١م، ووفاة نور الدين محمود فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م، ووصول خلع الخليفة العباسى إليه وتفويضه إياه بحكم مصر واليمن وما فتحه من مدن بلاد الشام وكل ما يفتحه بسيفه، وذلك أثناء تواجده ببلاد الشام عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥م، التى عاد منها إلى الديار المصرية يوم السبت ١٦ ربيع الأول سنة ٥٧٢هـ/ ٢٣ سبتمبر ١١٧٦ م حيث رسم ببناء السور والقلعة كما جاء فى كتابات بعض المعاصرين، إذ يروى كل من البندارى وأبو شامة نقلا عن عماد الدين كاتب صلاح الدين «أن السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر (أى الفسطاط والعسكر والقطائع) والقاهرة، لكل واحدة منها سور لا يحميها، فقال: لو أفردت لكل واحدة سورا احتاجت إلى جند كثير يحميها وإنى أرى أن أدير عليها سورا واحدا من الشاطئ إلى الشاطئ، وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج المقسم (أى المقس) وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم، ووجدت فى عهد السلطان ثبتا وضعه النواب وتكمل فيه الحساب وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألف وثلاثمائة ذراع وذراعان، شرح ذلك قياس ما بين قلعة المقسم على شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعا، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر، سبعة آلاف ومائتا ذراع، قياس دائر القلعة بمسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتا وعشرة أذرع، وذلك بطول قوسه وأبدانه، وأبراجه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع

الهاشمي، بتولى الأميـر بهاء الدين قراقوش الأسدى وتوفى السلطان وقد بقى من السور مواضع والعمارة فيه مستمرة ووظائف نفقاتها مستدرة».

ويفهم أيضا من الروايات التاريخية أن صلاح الدين كان حريصا على مباشرة أعمال البناء فى هذا السور بنفسه فقد أشار المقريزى إلى قيامة بمعاينة السور وبرج



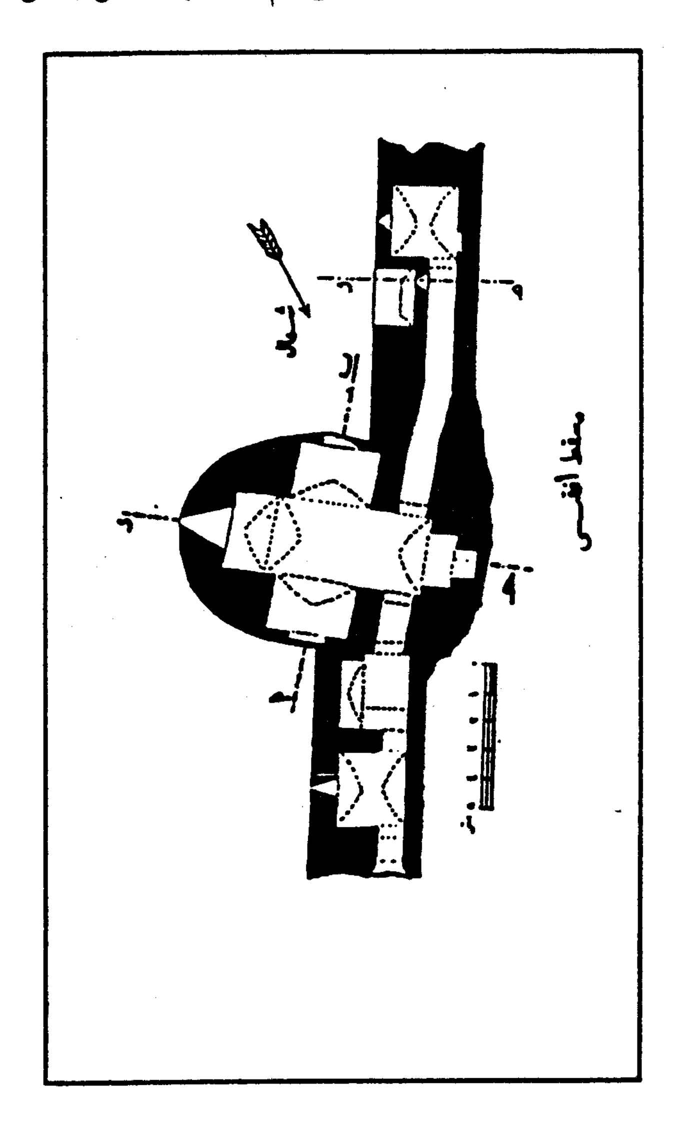
شكل رقم (٢٣)

رسم تخطيطي لأسوار صلاح الدين عام ٥٧٢هـ / ١١٧٦م

المقس فى المحـرم سنة ٥٧٧ هـ/ مايو ١١٨١م، وكان العمل فيهما ما يزال جاريا، كما ذكر المـؤرخ ابن واصل أنه أصدر أوامره فى هذه الـسنة قبل خروجه إلى بلاد الشام إلى بـهاء الدين قراقوش بضرورة إتمام السور. وأكد الرحالة ابن جبير بدوره على استمرار العمل فى السور أثناء وجوده بالقاهرة فيما بين سنتى ٥٧٨، ٥٧٩هـ ١١٨٣/ ١١٨٤م، مما يعـنى حرص صلاح الدين الشـديد على إتمـام هذا العمل بدليل أنه عـندما استدعى بـهاء الدين قراقوش بصـحبة الفنيـين والعمال من مصر لـتجديد أسوار مـدينة عكا فى سـنة ٥٨٤هـ ١١٨٨م، أمره بأن يتـرك عدد ا كافيا منهم فى مصر لكى لا يـتوقف العمل فى بناء الـسور، الذى يفهم من المؤرخ ابن واصل أنه اكتمل قـبل وفاة السلطـان الكامل فى سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧م، أى أن تـشييده استغرق ما يقرب من ست وأربعـون سنة، وإن كنا لا نستطيع أن نغفل أن بناء السلطان الصالح نجم الدين أيوب لقلعة جزيرة الروضة فيما بين سنتى ٦٣٨ / ٦٤١ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٣م قـد أفضى إلى عـدم العنـاية بالـسور الـغربى على النيل، بـعد أن انتـقل مقر الحكـم وخط الدفاع من قـلعة الجبـل وسور العواصم المصرية إلى قلعـة الروضة «فدثر أكثر الـسور وتغيرت معالم غـالبه للصوق عمائر الأملاك به، حتى أنه لا يتـميز فى غالب الأماكن من الأملاك، وسقط ما بين باب البحر إلى الكوم الأحمر حتى لم يبق له أثـر»، حسب رواية القلقشندى فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى.

خلاصة القول أن أسـوار صلاح الدين كانت تمتـد من النيل إلى النيل وفق تعبيـر عماد الدين الكـاتب، وكانت تلتف حـول عواصم مصر الإسلامـية وقلعة الجبل فى مساحة يبـلغ طولها ٢٩,٣٠٢ ذراعا هاشميا أى ما يقرب من ١٩,٢٢٢ مترا باعتـبار أن الذراع الهاشمى يساوى ٦٥,٦ سم حسب زعم المستشرق الفرنسى بول كازانوفا، وأنها كانت تـتخذ شكلا أقرب إلى المثلث، قاعدته فى الشمال فيما بين بـرجى المقس بميدان رمسيس غربـا، والظفر بمنطقة الـدراسة شرقا. أما ضلعاه الشـرقى والغربى فـكانا يلـتقيـان معا فى الجـنوب عنـد الكوم الأحـمر، جنوب الفسطاط، بالقرب من منطـقة دار السلام. وكانت مشيدة من أحجار قديمة أخذت من بعض الأهرامـات الصغيرة المتهـدمة بمنطقة الجيزة، ومن بـعض العمائر القديمة

بوسط الصعيد فى كل من منف أى سقارة، وأنصنا أى قرية الشيخ عبادة بمحافظة المنيا، بعد أن تم نقلها بواسطة المراكب المارة فى النيل إلى القاهرة، بالإضافة إلى مجموعة ضخمة من الأحجار الجيرية التى تم استخرجها من بعض المواقع القريبة



شكل رقم (٢٤)

مسقط أفقي لبرج نصف دائري من طابق واحد، السور الشرقي لصلاح الدين،

عن المجلس الأعلى للآثار

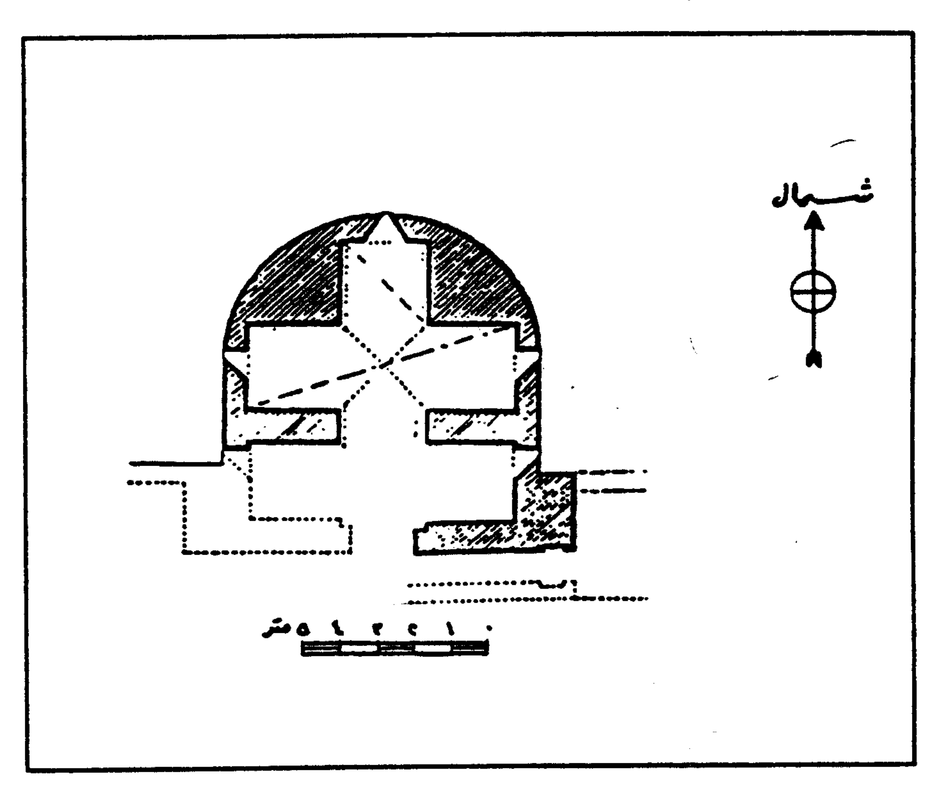
من الأسوار من مناطق البساتين وأثر النبى بجنوب الفسطاط، ومن بطن البقرة شرق قلعة الجبل.

ويبدو أن هذه الأسوار ظلت محتفظة برونقها إلى منتصف القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى كما يفهم من عبارة المؤرخ ابن فضل الله العمرى إذ يقول: «وقد اتصل بعض هذه الثلاثة، أى الفسطاط والقاهرة وقلعة الجبل، ببعض بسور مما بناه قراقوش بها، إلا انه قد يقطع الآن فى بعض الأماكن»، ثم سرعان ما أخذت هذه الظاهرة فى التزايد فأصاب أسوار صلاح الدين ما أصاب بقية الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة من إزالة وتخريب وتعديات، ومع ذلك فقد وصلنا العديد من أجزائها التى استطاعت أن تقاوم عوادى الزمن كما يستشف من خريطة الآثار الإسلامية لمدينة القاهرة عام ١٩٥١، ومن الكشوف الأثرية الحديثة للمجلس الأعلى للآثار، ومن الدراسة التى قدمها لنا الباحث أسامة طلعت عبد النعيم فى رسالته لدرجة الماجستير عام ١٩٩٢م. ويصل إجمالى طول الأجزاء الباقية من هذه الأسوار ما يقرب من ٢٨٧٥ مترا، وهى مزودة بأربعة وثلاثين برجا، منها أربعة عشر برجا فى حالة طيبة، ويمكن الولوج إلى داخلها ودراسة تفاصيلها، أما باقى الأبراج فهو إما متهدم أو مطمور تحت تلال من الرديم والأتربة، أو طمست معالمه وسدت مداخله بواسطة الزحف العمرانى والمبانى الحديثة واعتداءات الأهالى.

ويلاحظ أيضا أن هذه الأبراج ذات مساقط متنوعة نجد بينها نصف الدائرى ذو الطابق الواحد، ونصف الدائرى ذو الطابقين، وثلاثة أرباع الدائرى، ومتعدد الأضلاع، وأغلب هذه الأبراج تتألف من طابقين وسطح علوى مكشوف يحيط بحافته العليا مجموعة من الشرافات نصف الدائرية، وتضم بداخلها حجرات للرماية مغطاة إما بأقبية طولية، أو بأقبية متقاطعة، أو بقباب حجرية ترتكز على مثلثات كروية أو على حنايا ركنية، ويتفرع منها ممرات مغطاة بأقبية طولية أو بأسقف حجرية مسطحة، زودت بمداخل أى بفتحات طولية ضيقة للرمى بالسهام، وبعضها مزود أيضا بسقاطات لإلقاء المواد السائلة والحارقة على كل من يحاول اقتحامها أو الاقتراب منها كما هو الحال فى أسوار وأبواب مدينة القاهرة الفاطمية،

وان بدت أسوار صلاح الدين خالية تماما من الممرات الداخلية التى تربط الأبراج نصف الدائرية ذات الطابق الواحد، وذلك على النقيض تماما من أسوار القاهرة الفاطمية التى يتخلل أسوارها الشمالية ممرات داخلية تربط باب النصر بباب الفتوح وبالبرج الذى يتوسطهما، وكذا أسوار قلعة الجبل كما سوف نشير فيما بعد.

بقى أن نشير إلى أن أسوار صلاح الدين كانت مزودة أيضا بمجموعة من الأبواب بقى بعضها واندثر البعض الآخر إذ كان السور الشمالى يضم بابين هما باب الشعرية الذى ظهر على خريطة الحملة الفرنسية تحت اسم باب العدوى وتم هدمه فى سنة ١٨٨٤م لخلل أصاب مبانيه، وباب البحر الذى عرف أيضا بباب



شكل رقم (٢٥)

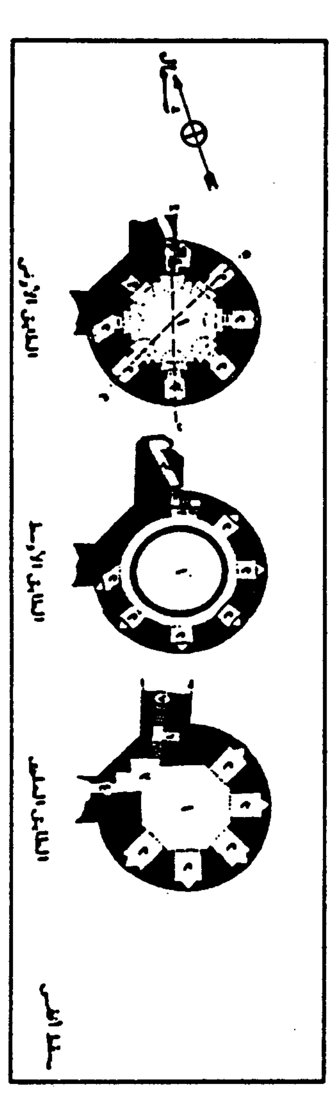
مسقط أفقي لبرج نصف دائري من طابقين، السور الشرقي لصلاح الدين،

عن المجلس الأعلى للآثار

المقسم أو المقس، كما عرف بباب الحديد على خريطة الحملة الفرنسية. وقد هدم بدوره فى عام ١٨٤٧م.

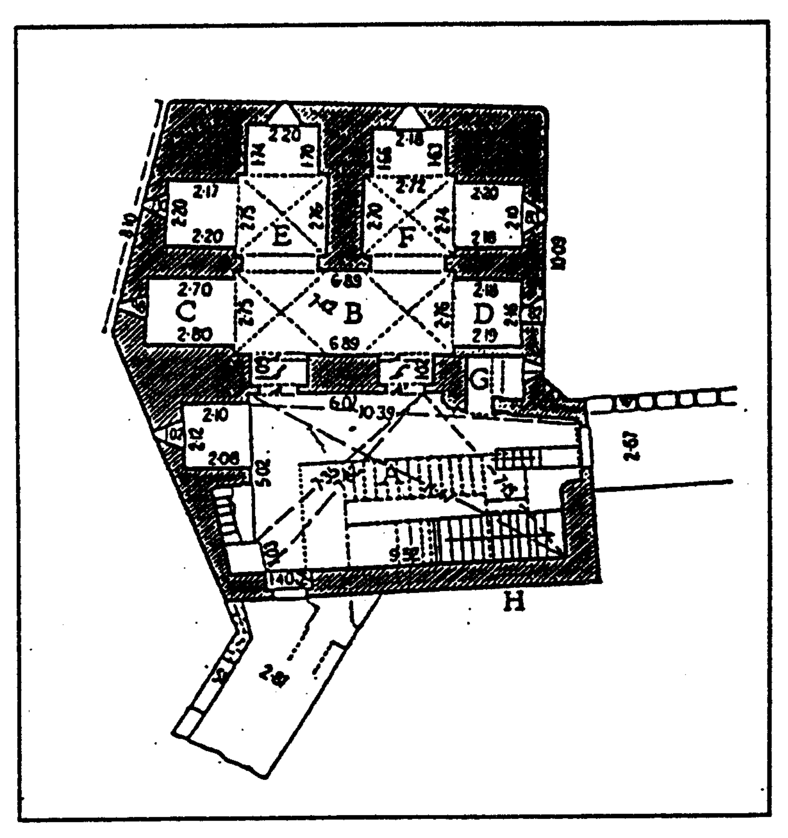
وكان يتخلل السور الشرقى فى القسم الشمالى منه، أى من برج الظفر إلى باب الوزير أربعة أبواب هم من الشمال إلى الجنوب الباب الذى لم يكن له نظيرا ضمن أبواب سور القاهرة الشرقى فعد بمثابة باب جديد أضيف إلى سور المدينة، وما زال باقيا حتى يومنا هذا، وباب البرقية الذى عرف أيضا بباب التوفيق وباب الغريب كما جاء فى تاريخ الجبرتى، وباب القراطين الذى عرف فى العصر المملوكى بالباب المحروق نظرا لقيام مجموعة من المماليك بإشعال النار فيه حتى سقطت بوابته وخرجوا منها بعد مقتل الفارس أقطاى فى شعبان سنة ٦٥٢هـ / سبتمبر ١٢٥٤ م، وقد تم الكشف عنه فى عام ١٩٤٠ م، وباب الوزير الذى جدده الأمير طرباى الشريفى فى عام ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣م، وقد عرف بهذا الاسم نسبة إلى الوزير نجم الدين محمود المعروف بوزير بغداد، ويقع بالقرب من جامع ايتمش البجاسى.

أما القسم الجنوبى من السور الشرقى الذى يطلق علية سور الفسطاط ويمتد من القلعة شمالا حتى شاطئ النيل عند دار السلام، فكان يتخلله أيضا أربعة أبواب هي باب القرافة الذى كان يفضى



شكل رقم (٢٦)

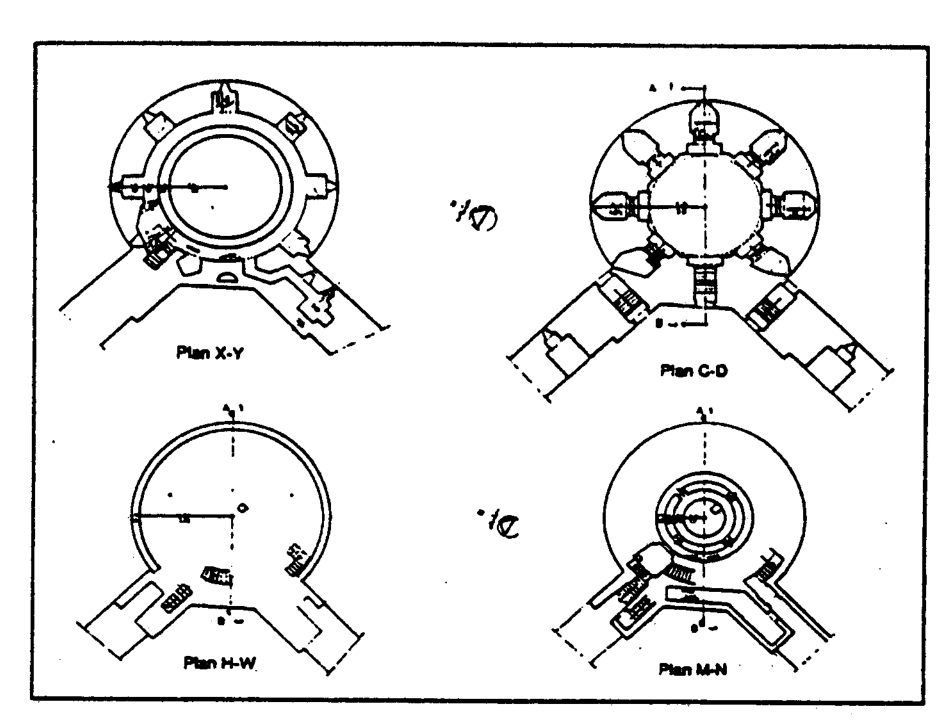
مسقط أفقي لبرج ثلاثة أرباع دائري (درب المحروق)، السور الشرقي لصلاح الدين، عن المجلس الأعلى للآثار



شكل رقم (٢٧)

مسقط أفقي لبرج متعدد الأضلاع، السور الشمالي لصلاح الدين، نقلا عن كريسويل

بالخارج من القرافة إلى ميدان السيدة عائشة، وظل مستخدما حتى مجيء الحملة الفرنسية التى قامت بسد فتحته فى ذى الحجة سنة ١٢١٥ هـ/ مايو ١٨٠٠ م، ثم تهدمت مبانيه وتداخلت مع بعض المنازل الملاصقة له حتى أعاد اكتشافه عباس بدر فى سنة ١٩٤٣ م، **وباب الصفا**، أحد الأبواب الرئيسية للفسطاط، وعرف بهذا الاسم نسبة إلى درب الصفا الذى كان يمثل امتدادا للشارع الأعظم، الذى كان يربط بين الفسطاط والقاهرة وكان يقع عند زاوية انحراف مجرى مياه فم الخليج حيث يوجد حاليا نقشا باسم السلطان الأشرف قايتباى، وقد تم هدمه على يد سيف الدين سلار والى الفسطاط فى أيام السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى فى

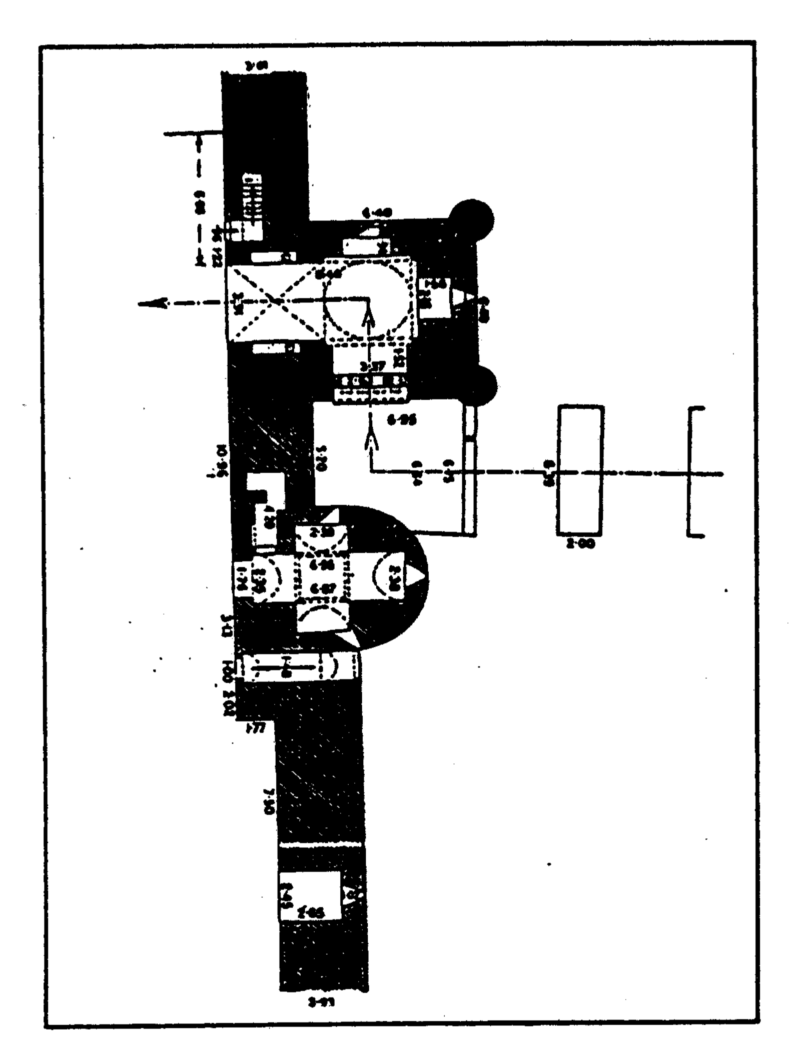


شكل رقم (٢٨)

مسقط أفقي لبرج الظفر، السور الشرقي لصلاح الدين،
نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى، **وباب القنطرة** نسبة إلى قنطرة بنى وائل، الذى ظل قائمـا حتى النصف الأول من الـقرن التاسع الـهجرى/ الخامس عشر المـيلادى، ثم اندرس فى تاريخ غيـر معلوم، **وباب الفـسطاط** الذى كشف المرحوم على بهجت عن بقايا برجيه فى أثناء حفائر الفسطاط.

والحديث عن أبواب السورين الشمالى والشرقى يحتم علينا الإشارة بأنه كان يتقدم هذان السوران خـندقا لزيادة مناعة الأسوار وليحول دون وصول الأعداء إليه بسهولة، وقد أشار المقريزى إلى هذا الخندق، وذكر أن آثاره لا تزال باقية إلى أيامه فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى، بل وحدد لنا أيضا تاريخ البدء فى حفر الجزء الممتد من بين باب الفتوح وبرج المقس بسنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢م.



شكل رقم (٢٩) مسقط أفقي للباب الجديد، السور الشرقي لصلاح الدين، نقلا عن كريسويل

أما السور الغربى الذى كان يسير بموازاة شاطئ النيل،وكان يمتد من برج المقس شمالا إلى برج الكوم الأحمر جنوب الفسطاط فكان يتخلله ثلاثة أبواب شيدت فى أيام صلاح الدين تبدأ شمالا بباب القنطرة الثانى الذى كان يقع على الحافة الشرقية لخليج أمير المؤمنين، وعرف بهذا الاسم لوقوعه تجاه باب القنطرة

الذى شيده جوهر علـى الخليج الكبيـر فى عام ٣٦٢هـ / ٩٧٢م، وكان يقع عند المدخل الغـربى لشارع أمير الجيـوش الجوانى جهة ميدان بـاب الشعرية وقد كشف عن أساسات البـرج الشمالى منه فى عام ١٩٢٠م، بيد أن هذه الحفائر انطمت فى سنة ١٩٢٦م عند فتح شارع الجيش الحـالى، وباب الخوخه الذى شيد فى مواجهة باب الخوخة الفاطمى، وكان يقع بالقرب من جامع القاضى يحي زين الدين، عند تقاطع شارع الأزهر مع شارع بورسعـيد الحالى، ولا يعرف متى اختفى واندرس. والبـاب الثالث والأخيـر هو باب سـعادة الثـانى الذى عرف بـهذا الاسم لوقوعه بالـقرب من باب سـعادة بن حيـان الذى شيـده جوهر بـالسور الـغربى للـقاهرة الفاطميـة، وكان يقع قبل اختفـائه فى سنة ١٨٧٤م، بالقرب مـن الزاوية الجنوبية الغربية لمبنى مديرية أمن القاهرة.

وكـان بعض هـذه الأبواب مـزود بمدخل مـنكسـر وهو الـذى يعـرف عند المؤرخـين العرب باسم البـاشورة، كما هـو الحالى بالنـسبة للبـاب الجديد والباب المحروق فى السور الشرقى، وباب القرافة بالقسم الجنوبى منه وذلك لعرقلة اندفاع المهاجمـين للسور وأبوابه، كما انـفرد الباب الجديد بميزة حـربية أخرى تمثلت فى القنطرة المتـحركة التى كانت تصل بين البـاب والخندق الذى يتقدمه، وكانت ترفع عند غلق الباب أو التهديد بالهجوم عليه، وهى تعد بذلك أقدم مثل إسلامى وجد فى العمـارة الإسلامية بمصر. كمـا تميزت أسور صلاح الدين بمـيزة حربية أخرى تـمثلت فى الأبواب السرية التى كانت تقع عـلى جانبى بعض الأبراج كبرج الظفر بالسـور الشمالى، وبرج درب المحروق بـالسور الشرقى وكان الهـدف منها تسهيل عملية خروج بعض المدافعين عن الأسوار لشن هجمات مضادة ضد المهاجمين عند تعرض الأسوار للحصار.

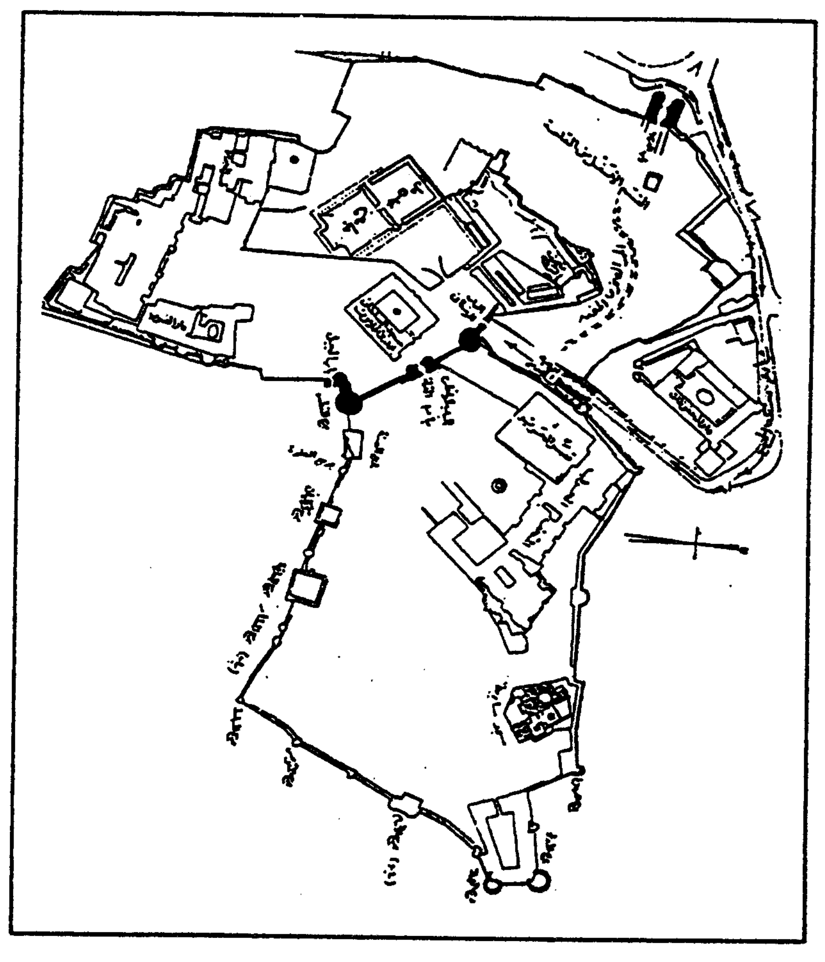
قلعة صلاح الدين:

تعد القلعة جزء من المشروع الضخم الذى رسم صلاح الدين بإقامته فى عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م وعهد بالإشراف عليه إلى بهاء الدين قراقوش الأسدى كما سبق أن نوهنا من قبل، وهى مشيدة على أحد مرتفعات جبل المقطم، وكانت تشرف على القاهرة من الجهة الشمالية، ومدينة مصر والقرافة الكبرى، وبركة الحبش من الجهة الجنوبية، والنيل الأعظم من غربها، وجبل المقطم ورائها شرقا. وكان يشغل موقعها قبة الهواء التى شيدها حاتم بن هرثمة، والى مصر العباسى، فيما بين سنتى ١٩٤ - ١٩٥هـ / ٨١٠ - ٨١١م، وهدمت عن قصد بعد زوال الدولة الطولونية، وصار موضعها مقبرة وعدة مساجد، إلى أن شيدها صلاح الدين وصارت من بعده دارا للملك بالديار المصرية واستمرت كذلك إلى أيام الخديوى إسماعيل الذى نقل مقر الملك إلى قصر عابدين فى سنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤م.

ويفهم من المقريزى أن السبب الذى حدا بصلاح الدين إلى اختيار هذا الموقع هو «أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة، فعلق لحم حيوان آخر فى موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين، فأمر حينئذ بإنشاء قلعة هناك»، فى موقع يكون من القرب بحيث يسهل عليه الاتصال بالقاهرة عاصمة ملكه، ويكون كذلك من البعد بحيث يصلح لأن يكون ملاذا له يعصمه من ثورة يندلع لهيبها فى الداخل من المتشيعين للفاطميين الراغبين فى استعادة ملكهم الذى خرج من أيديهم، أو من ضربة تفاجئه من الخارج من الصليبيين الطامعين فى ملك مصر، والساعين جاهدين إلى الاستحواذ عليها مهما كلفهم الأمر حتى يؤمنوا ملكهم فى بلاد الشام.

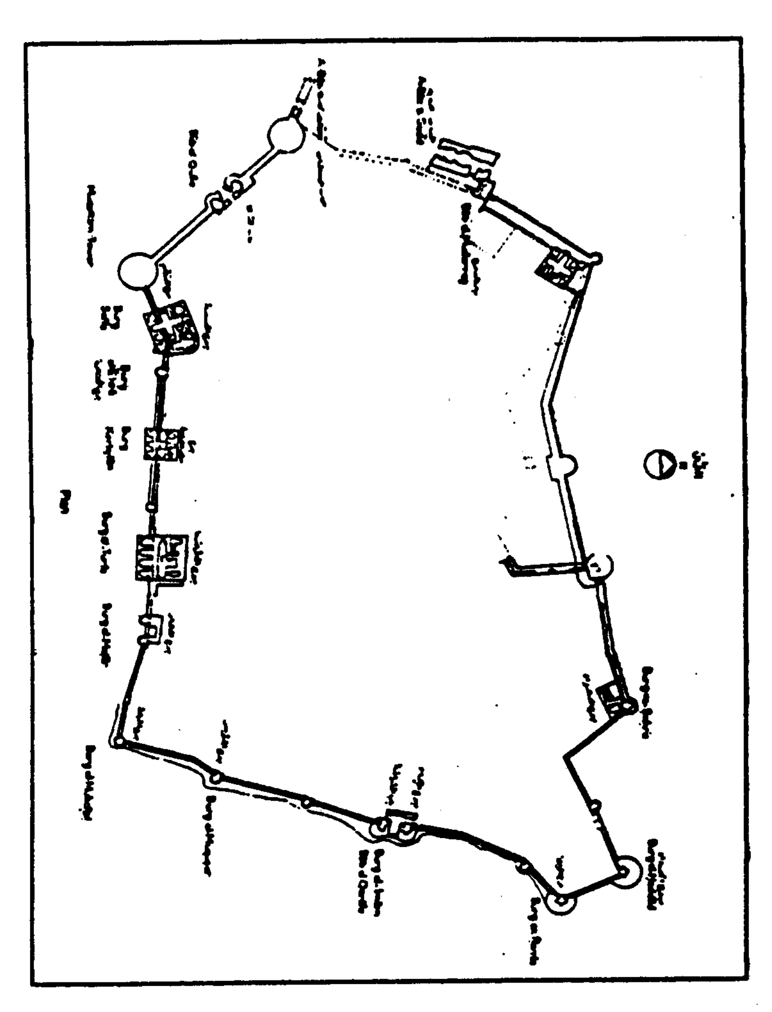
ويخطئ الذين حكموا على عدم صلاحية هذا الموقع من أمثال مييه وجومار Jomard - Maiillet، تطورت إليه فنون الحرب فى عصرنا الحاضر، بل الواجب، إنصافا للحق - أن يحكموا عليه فى ضوء ما كانت عليه تلك الفنون أيام صلاح الدين، فعندئذ سوف يؤمنون بسداد رأى هذا القائد الفذ، ويشهدون بحسن تقديره للظروف المحيطة به.

وتخطيط القلـعة الحالى يتألف من قسمين مخـتلفين تماما من حيث الشكل والمساحة، فالأول وهو الشمـالى الشرقى على هيئة مسـتطيل غير منتظم الأضلاع يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ٥٦٠ مترا، ومن الشمال إلى الجنوب ٣١٧ مترا، ويدور حوله سور سـميك مزود بأبراج ضخـمة، يبلغ محـيطه ما يقرب من ألفى متر، ويفصله عن جبل المقطم خنـدق عميق، محفور فى الصخر؛ لذا يغلب عليه الطابع الحربى.



شكل رقم (٣٠)

تخطيط عام للقلعة بقسميها الحربي والمدني، عن المجلس الأعلى للآثار



شكل رقم (٣١)

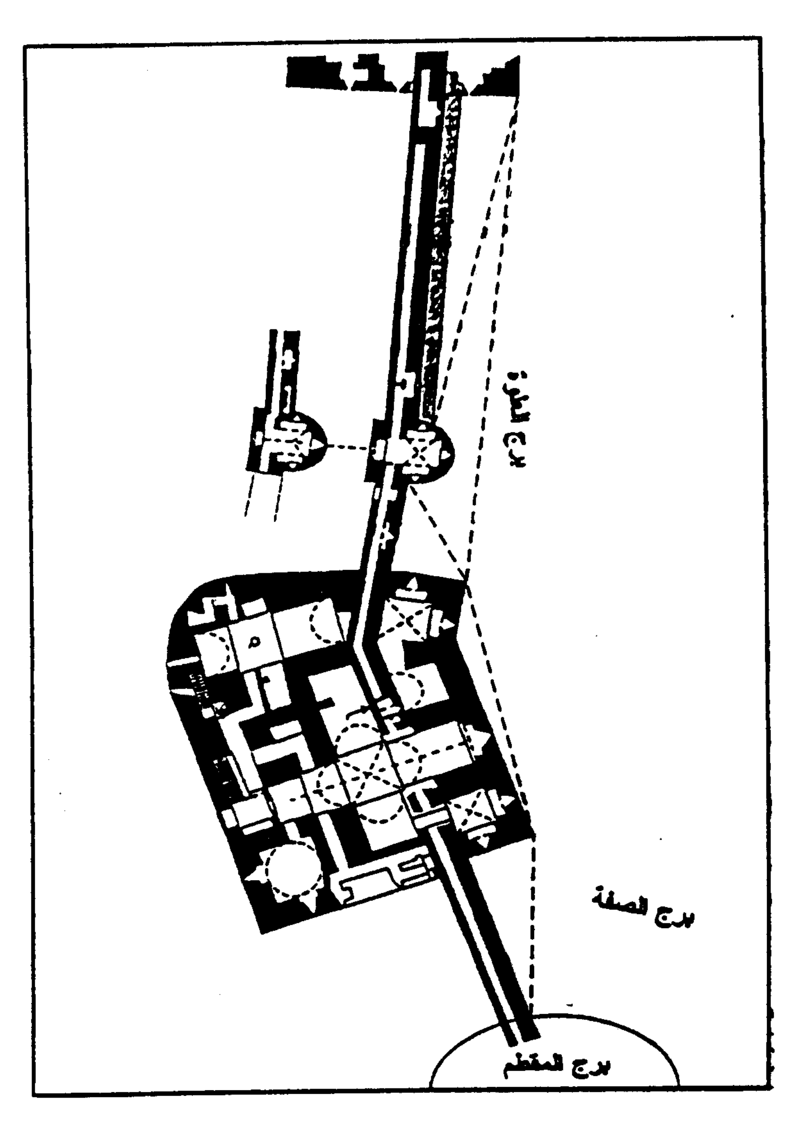
تخطيط عام لقلعة الجبل، نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

أما القسم الثانى الجنوبى الغربى فهو أصغر قليلا من القسم الأول وله شكل غير منتظم، ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب ٥١٠ مترا، ومن الشرق إلى الغرب ٢٧٠ مترا، وتختلف أسواره مظهرا وبناء عن أسوار القسم الشمالى الشرقى ويلتف حوله أسوار تختلف فى المظهر والبناء عن أسوار القسم الأول، إذ تبدو على هيئة ستارة غفل من الأبراج باستثناء برجى باب العزب فى الشمال الغربى،

الذى شيده رضوان كتخدا سنة ١١٦٨ هـ / ١٧٥٤م، ومن ثم يغلب عليه الطابع المدنى. هذا ويفصل بين القسمين حائط سميك ضخم يبلغ طوله ١٥٠ مترا، وينتهى طرفاه ببرجين عظيمين، ويتوسطه بوابة كبيرة تعرف باسم باب القلة، أو برج القلة أو البوابة الداخلية.

ويذكرنا هذا التخطيط غير المتناسق بعبارة المقريزى عند وصفه للقلعة إذ يقول: «وصفة قلعة الجبل أنها بناء على نشز عال يدور بها سور من حجر وأبراج وبدنات، أى أجزاء السور الواصلة بين الأبراج، حتى تنتهى إلى القصر الأبلق، ثم هناك تتصل بالدور السلطانية على غير أوضاع أبراج القلاع»؛ لذلك عرف القسم الأول بقلعة الجبل والثانى بالقلعة فقط.

والفاحص للقسم الأول الشمالى الشرقى سوف يلاحظ بوضوح أن تخطيط هذا القسم يخضع للتكوينات الطبيعية للموقع من حيث المرتفعات والمنخفضات الصخرية، وأيضا من حيث صلابة التربة فى المواضع المختلفة وصلاحيتها لتحمل أوزان جدران الأسوار والأبراج، وكذا مقاومة عوامل التخريب من الأعداء. ويبدأ السور الجنوبى لهذا القسم غربا ببرج ضخم مستدير يعرف ببرج المقطم يبلغ قطره ٢٤ مترا، وارتفاعه ٢٥ مترا، وهو مشيد من الخارج بأحجار ملساء، ومن الداخل بأحجار غير مصقولة (دقشوم)، يصل سمكها إلى حوالى سبعة أمتار، لذا يعتقد كريسويل أنه شيد فى العصر العثمانى لمقاومة حرب المدفعية، وهو يضم بداخله حجرة يعلوها قبة مشيدة من الآجر، ومزود بمدخل منكسر أى باشورة، يليه شرقا على ما يقرب من ١٦,٨٠ مترا، برج قائم الزوايا يعرف ببرج الصفة، يبلغ ارتفاعه ١٥ مترا فوق مستوى سطح الأرض، وطوله ٣٥ مترا وعرضه ٢٥ مترا، وهو مشيد من أحجار مسنمة ويضم بداخلة قاعة مركزية يغطيها قبو متقاطع، ويتعامد عليها أربعة أيونات يعلوها أقبية مدببة، زودت بمزاغل متشابهة، ويشغل أركانها الأربعة حجرات متنوعة زودت بدورها بمزاغل ذات فتحات ضيقة وأشكال مدببة. ويشير كريسويل إلى أن هذا البرج ينفرد بإحكام تخطيطه لأن محور قاعدته المركزية يتعامد تماما على واجهته الرئيسية. وهو أمر نادر الوجود بالنسبة لبقية



شكل رقم (٣٢)

مسقط أفقي لبرج الصفة، السور الجنوبي لقلعة الجبل، عن المجلس الأعلى للآثار

أبراج هذا القسم، كما كان مزودا بأكثر من طابق، وبعدة دورات للمياه، وينسب تشييده إلى العادل بعد وفاة صلاح الدين.

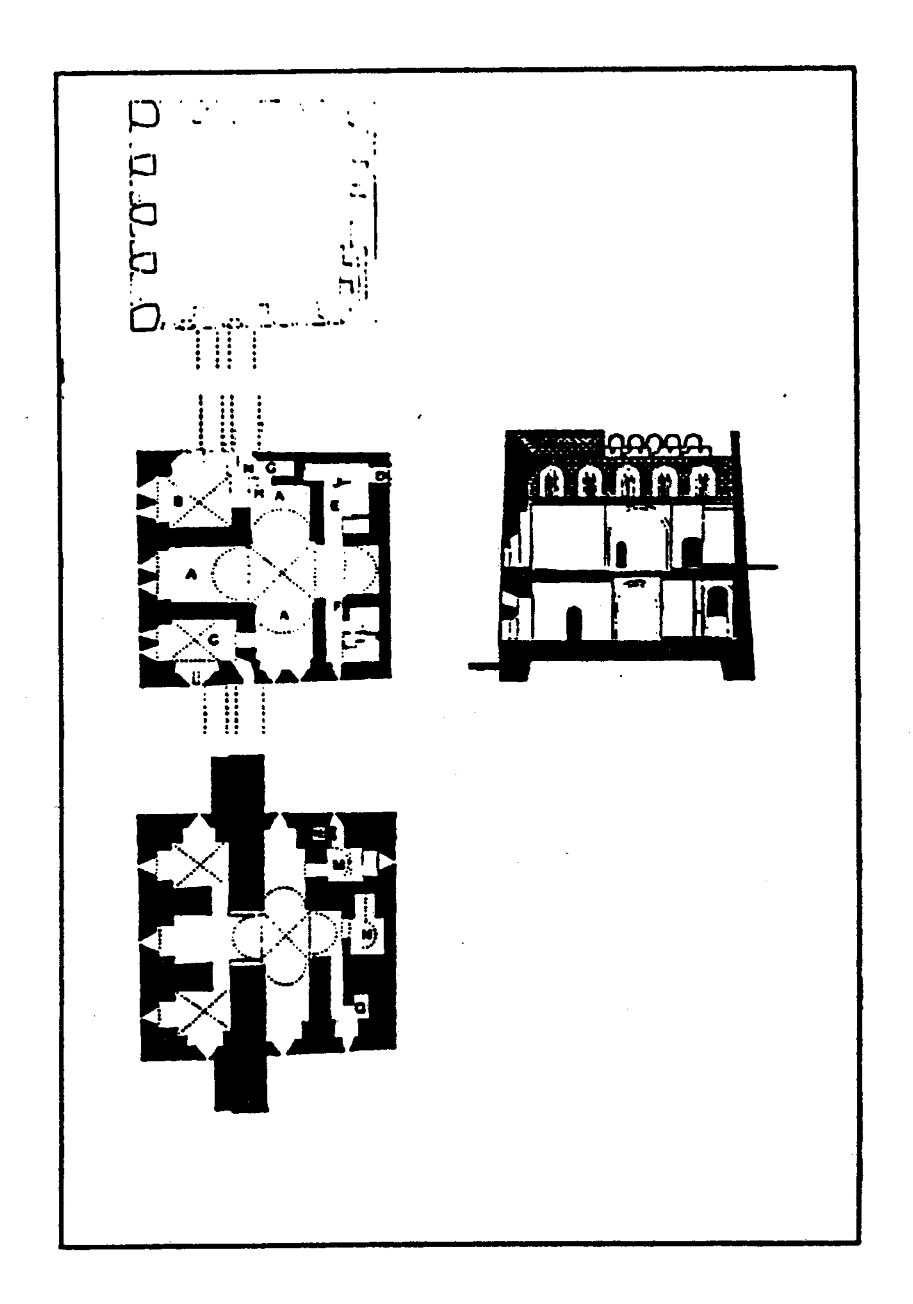
ويعقب برج الصفة على بعد تسعة أمتار شرقا برج صغير نصف دائرى الشكل يتألف من طابقين من أعمال صلاح الدين، يعرف ببرج العلوة، وهو مشيد من أحجار منحوتة ويبرز عن سمت السور بمقدار ستة أمتار، يضم بداخلة قاعة مركزية يعلوها قبو متقاطع، ويتعامد عليها من الجنوب والشرق والغرب ثلاثة أذرع يزدان صدر كل منها بشق سهام يبدأ من أرضية القاعة، على حين يشغل الجهة الشمالية فى مواجهة مدخل البرج دهليز ضيق به فتحة متسعة للإضاءة والتهوية.

ويلى هذا البرج فى اتجاه الشرق وعلى بعد ٣٢ مترا برج كبير مربع الشكل، طول ضلعه ٢١ مترا، وارتفاعه حوالى ٢٠,٥٠م، يعرف ببرج كيركيلان، وهو يشتمل على ثلاثة طوابق مشيدة من أحجار مسنمة، بالأول والثانى منهما قاعة مركزية مغطاة بقبو متقاطع ويتعامد عليها أربعة إيوانات يعلو كل منهم قبو مدبب، يشغل أركانها دخلات وحنايا بها مزاغل لرمى السهام، أما الطابق الثالث فهو عبارة عن سطح سماوى مكشوف يدور حوله سور به دخلات معقودة يعلوها شرافات نصف دائرية، وبكل منها مزغل أو اثنين.

ويمتد السور الجنوبى بعد برج كير كيلان إلى ما يقرب من ثلاثين مترا يقطعها فى المنتصف قبل أن نصل إلى برج الطرفة، برج صغير نصف دائرى، من أعمال صلاح الدين، لا اسم له، يشبه فى مسقطه وتخطيطه الداخلى برج العلوة السابق الإشارة اليه، شيدت جدرانه من حجر جيرى مصقول واستبدلت مزاغله بفتحات متسعة للبنادق.

ويلى هذا البرج فى اتجاه الشرق برج ضخم مربع الشكل، طول ضلعه ٣٠ مترا، يعرف ببرج الطرفة وهو من أعمال السلطان العادل، ويتألف من جزء أمامى أى خارجى وآخر خلفى أى داخلى، شيدا من أحجار مسنمة كما هو الحال بالنسبة لبرجى الصفة وكيركيلان، وكان يشتمل على ثلاثة طوابق، الأول منها أسفل مستوى الأرض حاليا ويصعب الولوج إلى داخله، أما الطابق الأوسط فيتميز بتخطيط منفرد يتألف من قسمين منفصلين تماما فى الوقت الحالى. الأمامى منهما أى الخارجى جهة الجنوب، يشتمل على أربع حجرات مستطيلة يعلوها أقبية





شكل رقم (٣٣)

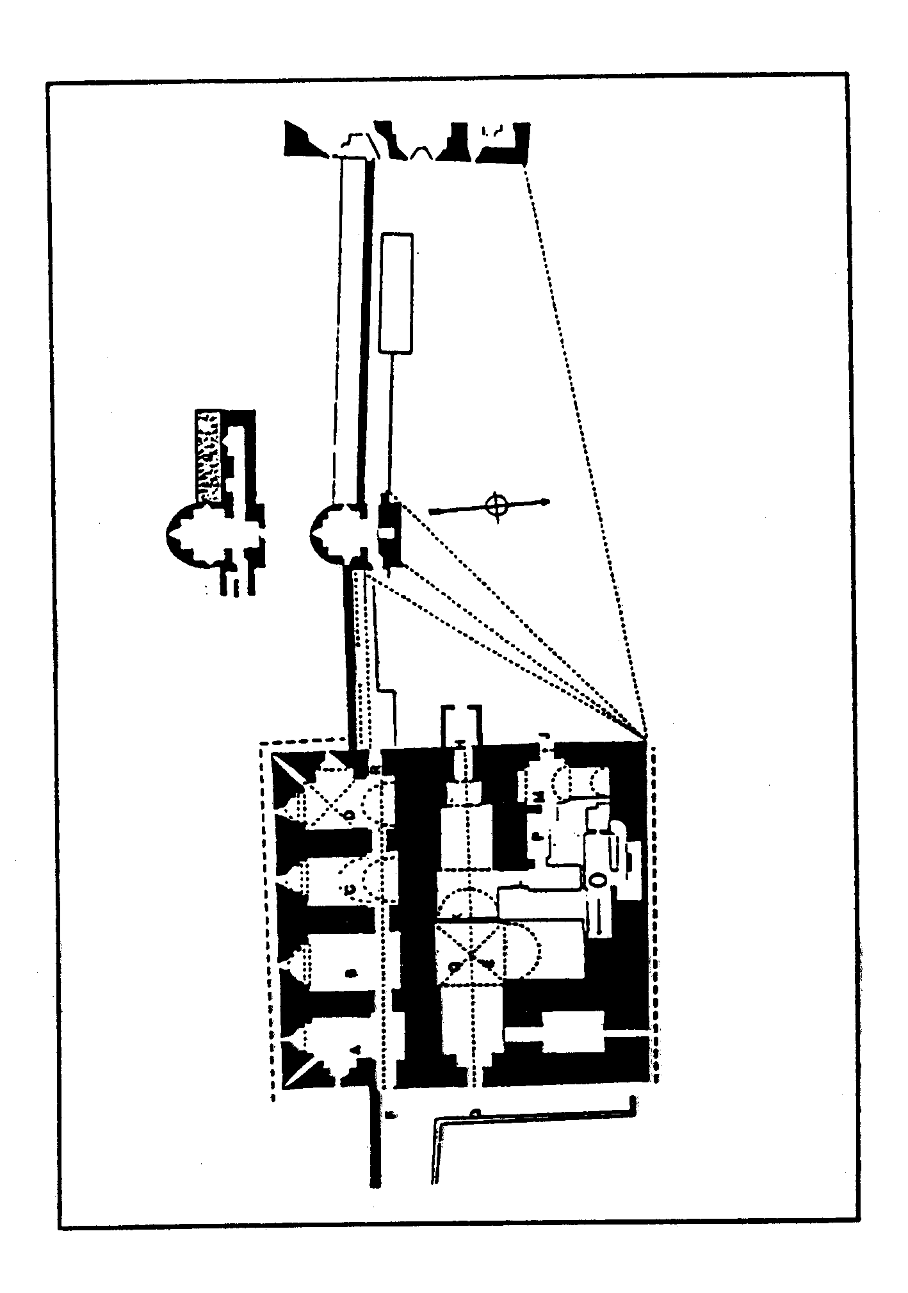
مسقط أفقي، وقطاع رأسي لبرج كيركيلان، السور الجنوبي لقلعة الجبل، عن المجلس الأعلى للآثار

متقاطعة فى الأطراف، وأقبية مدببة فى الوسط، وتزدان بمزاغل فتحت داخل حنايا مقبية، ويصل بين الحجرات الأربع شمالا ممر طويل مستعرض.

أما القسم الداخلى أى الشمالى فيتوسطه قاعة مركزية يعلوها قبو متقاطع، ويتعامد عليها ثلاثة إيوانات يتفرع منها حجرات وممرات سقفت بأقبية مدببة أو متقاطعة. وجدير بالملاحظة أن سور الطابق العلوى المكشوف تهدم فى وقت لاحق وحل محله دروة حديثة لا تمت إلى البناء الأيوبى بصلة.

ويستمر السور الجنوبى لقلعة الجبل فى امتداده شرقا إلى ما يقرب من ٢٥ مترا حيث نقابل برجا جديدا يعرف ببرج أو باب المطار، يرجح أنه عرف بهذا الاسم نسبة إلى استخدامه فى إطلاق واستقبال حمام الرسائل. هذا وينسب إلى السلطان الكامل إقامة أبراج الحمام الزاجل بالقلعة وفقا لرواية المقريزى الذى ذكر أيضا نقلا عن المؤرخ ابن عبد الظاهر أنه «كان بالقلعة أبراج برسم الحمام تحمل البطائق، وبلغت عدتها إلى آخر جمادى الآخرة سنة ٦٨٧ هـ/ يوليو ١٢٨٨م ألف طائر وتسعمائة طائر، وكان بها عدة من المقدمين، لكل مقدم منهم جزء معلوم». ويتكون هذا البرج من بدنتين كل منهما عبارة عن برج نصف دائرى يبلغ ارتفاعه ١٥ مترا، كانا يحصران بينهما مدخل منكسر أى باشورة، سدت فتحته بحائط متماسك بين البرجين فى أواخر العصر المملوكى فى عهد السلطان الأشرف جانبلاط أو خلفه العادل سيف الدين طومان باى الأول بسبب التهديدات العثمانية. هذا ويشغل داخل كل برج قاعة مركزية يعلوها قبو متقاطع، ويتعامد عليها ثلاثة إيوانات زود كل منهم بمزغل أو اثنين.

وعقب برج أو باب المطار يواصل السور الجنوبى امتداده جهة الشرق حتى نصل إلى برج ثلاثة أرباع دائرى، يشغل الزاوية الجنوبية الشرقية من قلعة الجبل، يعرف ببرج المبلط، شيد من حجارة مصقولة كبقية أبراج صلاح الدين، ويشتمل على طابقين متشابهين يشغل كل منهما قاعة مركزية مغطاة بقبو متقاطع، ويتعامد عليها أربعة إيوانات، يتصدر ثلاثة منها فتحة للرمى بالسهام، استبدلت مزاغل الطابق العلوى منها بفتحات متسعة لرماة البنادق.



شكل رقم (٣٤)

مسقط أفقي لبرج الطرفة، السور الجنوبي لقلعة الجبل،

عن المجلس الأعلى للآثار

بعد ذلك ينحرف سور قلعة الجبل عند البرج الأخير أى المبلط ويتجه شمالا فى خط شبه مستطيل، يبلغ طوله حتى برج الإمام شمالا ١٧٥ مترا مشكلا القسم الجنوبى من السور الشرقى لقلعة الجبل، ويتخلله برجان لهما شكل نصف دائرى، من أعمال صلاح الدين، الجنوبى منهما يعرف ببرج المقوصر والشمالى لا اسم له، وكلاهما يتألف من طابقين بكل منهما قاعة مركزية مغطاة بقبو متقاطع ويتعامد عليها أربعة إيوانات، بثلاثة منها ثلاثة مزاغل، يليهما إلى الشمال برج عظيم يتألف من بدنتين لكل منهما قطاع نصف دائرى، يحصران بينهما مدخلا منكسرا إلى الشمال من نوع الباشورة، وهو يعرف ببرج الإمام نسبة إلى سكنى إمام مسجد سارية الجبل به، أو بباب القرافة لانه كان بمثابة المدخل الثانى لقلعة الجبل، وكان يفضى بالخارج منه إلى قرافة مصر أى قرافة الإمام الشافعى، كما كان تخطيطه الداخلى لا يختلف كثيرا عن برج أو باب المطار، لذا يعد من أعمال صلاح الدين، بيدان السلطان العادل عمد إلى تقوية جدران بدنتيه بكسوة ضخمة من الأحجار المسنمة. ضمت بداخلها برجا صلاح الدين، كما تم سد فتحة مدخله فى أيام السلطان الأشرف جانبلاط، أو خلفه العادل سيف الدين طومان باى الأول.

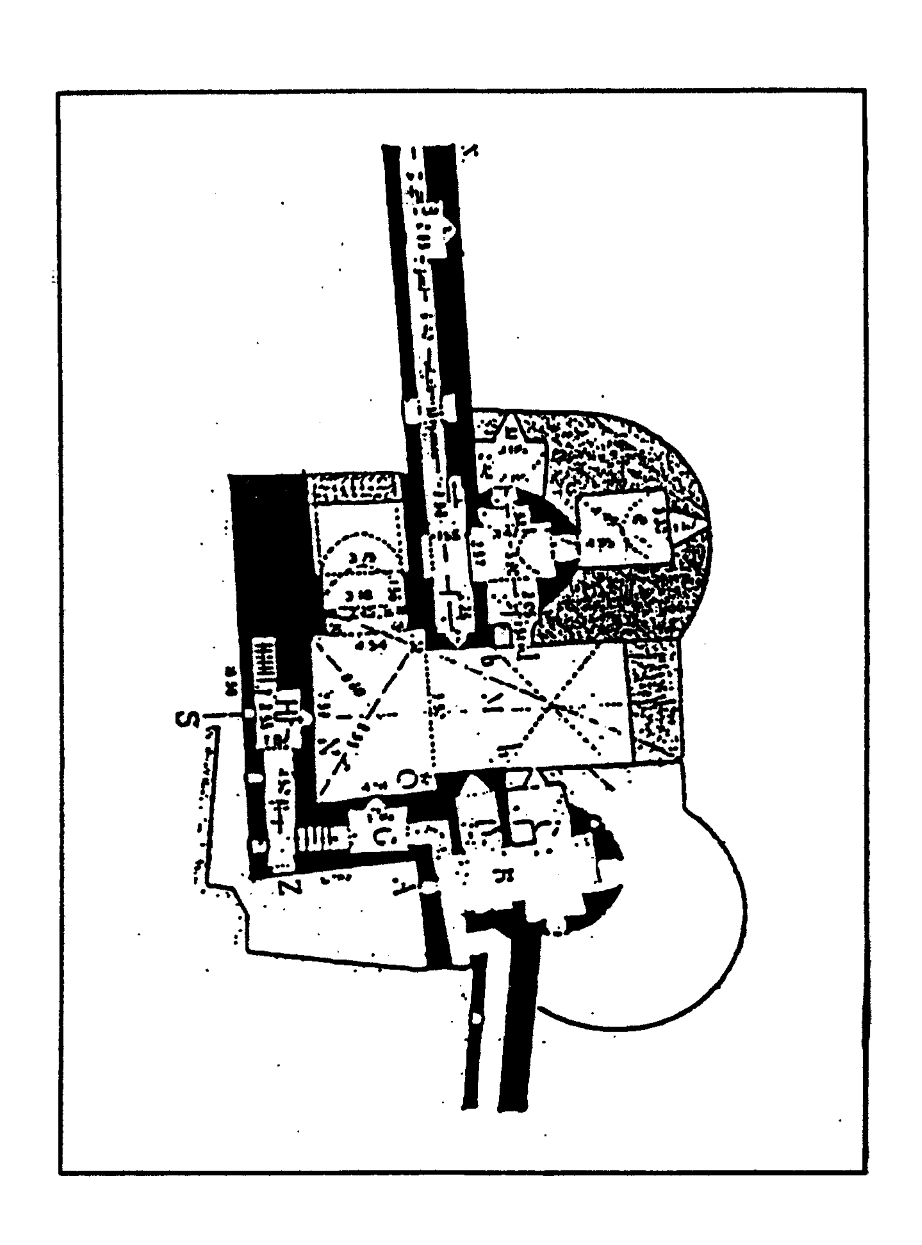
ويقوم إلى الشمال من برج الإمام، على بعد ما يقرب من ٣٠ مترا، برج خامس صغير، نصف دائرى، لا اسم له، من أعمال صلاح الدين، يتألف من طابقين، بكل منهما قاعة مركزية يعلوها قبو حجرى متقاطع ويتعامد عليها أربعة إيوانات مقبية، فتح بثلاثة منهم ثلاثة مزاغل للرمى بالسهام.

ويستمر السور الشرقى بعد هذا البرج فى امتداده جهة الشمال، منعطفا ناحية الشرق لمسافة يبلغ طولها أيضا ٣٠ مترا حتى نصل إلى برج سادس ضخم له قطاع ثلاثة أرباع دائرى، وهو برج الرملة، يبلغ قطره ١٨ مترا وارتفاعة ٢١ مترا ويتألف من طابقين، أضاف إليهما السلطان العادل كسوة خارجية ضخمة من أحجار مسنمة، الأمر الذى تطلب أيضا تغيير تصميمة الداخلى الذى كان يضم فى أيام صلاح الدين قاعة مركزية يتعامد عليها أربعة إيوانات، زودت ثلاثة منها

بثلاثة مزاغل، حولت بعد إضافة العادل إلى ابواب تفضى إلى ثلاث حجرات مستطيلة مقبية، شغلت الفراغ الداخلى لكسوة العادل، وزودت بدورها بشقوق للسهام.

ويعقب برج الرملة فى اتجاه الشمال على بعد ٢٢ مترا، برجا ضخما له قطاع ثلاثة أرباع دائرى، وهو برج الحداد، الذى يصل قطره الحالى إلى ٢٢ مترا، وارتفاعه ٢١,٧٠ مترا، ويتألف من طابقين، أضاف اليهما السلطان العادل أيضا كسوة خارجية ضخمة من أحجار مسنمة، كما هو الحال بالنسبة لبرج الرملة، الأمر الذى تطلب بدوره تغيير تصميمه الداخلى الأصلى، الذى كان يقتصر على قاعة مركزية يتعامد عليها أربعة إيوانات، زودت ثلاثة منها بمزاغل، حولت إلى فتحات متسعة، بعد إضافة العادل، لتفضى إلى ممر نصف دائرى، يفضى بدوره إلى خمس حجرات مستطيلة فى الطابق الأول، ومثلها فى الطابق الثانى الذى تفرع من بعض حجراته، أربع حجرات أخرى صغيرة المساحة، فتح فى جميعها مزاغل للرمى بالسهام. بقى أن نشير إلى أن كل من برجى الرملة والحداد قد زود جدرانهما الخارجية بسقطات أشبه بنوافذ بارزة لإلقاء المواد السائلة والملتهبة على رؤوس المهاجمين.

ومن برج الحداد فى الركن الشمالى الشرقى لقلعة الجبل يبدأ السور الشمالى للقلعة حيث يصادفنا باب سرى صغير على بعد ٢,٢٥ متر، يرجح كريسويل أنه كان مخصصا لخروج بعض أفراد الحامية المدافعة عن القلعة للتصدى للقوات المعادية التى تحاول المرور بين القلعة وجبل المقطم، يمتد بعده السور الشمالى فى اتجاه الغرب حيث يطالعنا برج صغير نصف دائرى لا اسم له، يتفق فى تصميمه الداخلى مع بقية الأبراج المماثلة التى ترجع إلى أعمال صلاح الدين، يستمر السور بعده على شكل زاوية منفرجة حتى نصل إلى برج الصحراء، وهو نصف دائرى، يشبه تخطيطه الداخلى أبراج صلاح الدين، أضيف إليه من داخل السور فى الزاوية المرتدة، فى أيام العادل، بناء مستطيل من حجارة مسنمة، يبلغ طوله ٢١,٣٠ مترا وعرضه ١٢,٧٠ مترا، يخترقه من الداخل ممر مستطيل يعلوه قبو

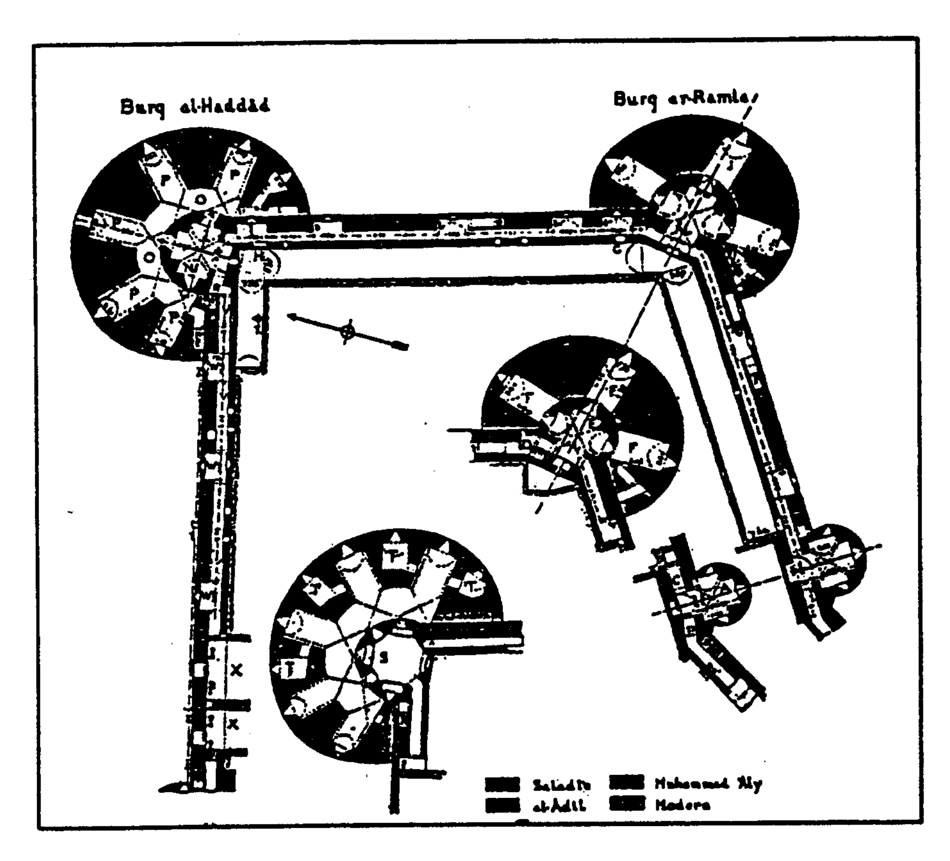


شكل رقم (٣٥)

مسقط أفقي لبرج الإمام أو باب القرافة، السور الشرقي لقلعة الجبل، نقلا عن كريسويل

مدبب، بصــدره باب مسدود، وعلى يمــينه، جهة الشرق قــاعة كبيرة مــغطاة بقبو مدبب ملحق بها دورة لــلمياه، على حين يشغل الجهة اليسرى من هذا الممر، غربا فتحــتان، تفضى الأولى إلى سلم صــاعد إلى الطابق الثــانى من هذا البرج، على حين تؤدى الثانية إلى ممر عمودى ينتهى بقاعة كبيرة ومجموعة من دورات المياه.

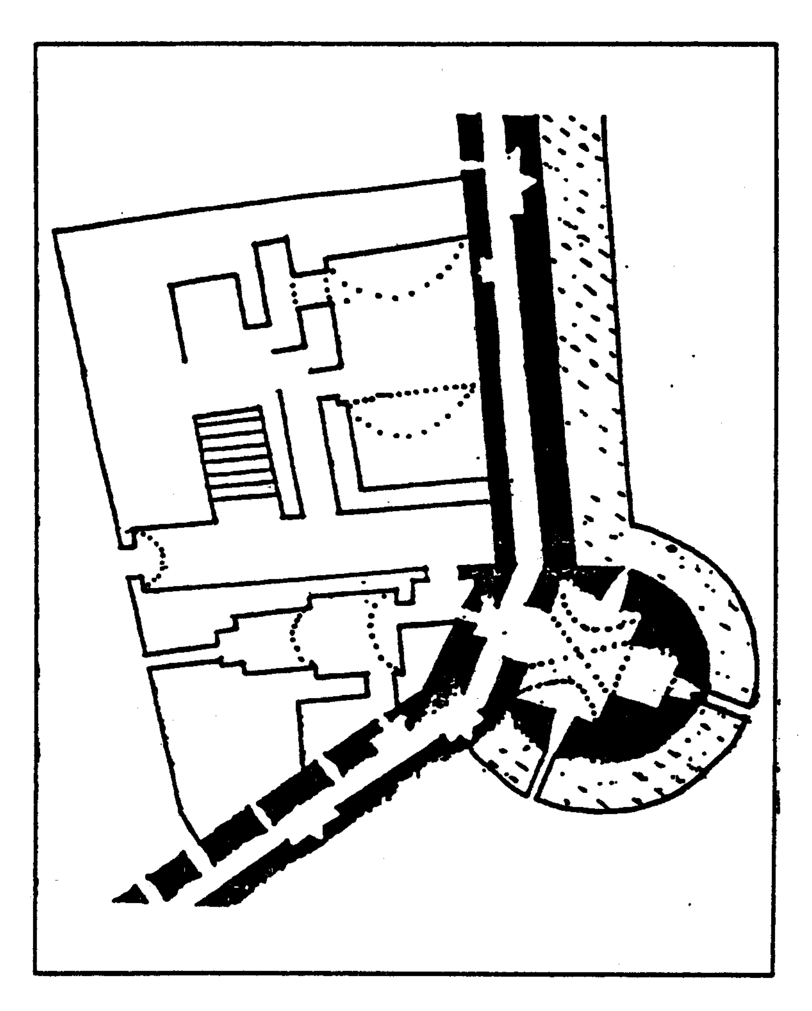
ويســتمر الســور الشمالى لقــلعة الجبل فى امــتداده جهة الــغرب، بعد برج الصحراء حيث يطالعنــا بقايا برج دائرى من أعمال صلاح الدين، أحاطه السلطان العــادل بكسوة خارجية كمــا حدث بالنسبة لبرجى الــرملة والحداد، ينحرف السور بعده جنوبا ثم ينعطف غربا، حيث يختفى السور الأيوبى لقلعة الجبل، ويبدأ مسار



شكل رقم (٣٦)

مسقط أفقي لبرجي الرملة والحداد، السور الشرقي لقلعة الجبل، نقلا عن كريسويل

سور جـديد يسير فى خط مستقيم فى اتجاه الغرب، يرجح كريسويل أنه من أعمال محمد على، وينتهى فى الركن الشمالى الغربى ببرج نصف دائرى مصمت البناء، ينطـلق من السور الغربى لقلعة الجبل فى اتجاه الجـنوب حيث يطالعنا الباب الثالث بهذا القسم وهو باب المـدرج الذى عرف بهذا الاسم نسبة إلى وجود درج حجرى منحوت فى سفح الهضبة التى شيدت قـلعة الجبل فوقها، وكما يستشف من كتابة



شكل رقم (٣٧)

مسقط أفقي لبرج الصحراء، السور الشمالي لقلعة الجبل، نقلا عن كريسويل

أثرية منقوشة على السور الذى يقع على مقربة من هذا الباب جاء فيها «أمر تجديد هذا السلم المدرج بباب القلعة الشريفة...» وعرف أيضا بباب سارية وباب الدرفيل نسبة إلى الأمير حسام الدين لاجين المعروف بالدرفيل. وهو من النوع المنكسر أى الباشورة، ويتألف من فتحة معقودة يبلغ اتساعها أربعة أمتار تفضى إلى دركاه مربعة يعلوها قبة ضحلة تقوم على مثلثات كروية كانت مكسية بثلاث طبقات من الملاط يحمل كل منها نقوشا كتابية بحروف نسخية بيضاء على أرضية حمراء تحمل اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون، على حين نقشت مناطق الانتقال للقبة بزخارف نباتية باللون الأحمر والأخضر والأسود. وبصدر هذه الدركاه شمالا وعلى يسارها غربا حنيتان يفتح بكل منهما مزغل، استبدل فى عصر لاحق بفتحة مدفع. ويوجد إلى يمين الدركاه شرقا ممر مقبى يفضى إلى دهليز مستطيل الشكل يعلوه قبو نصف أسطوانى، كان يفضى إلى داخل القلعة، إلا أنه أضيف فى عصر محمد على جدارا حاجزا يؤدى حاليا إلى الباب الجديد.

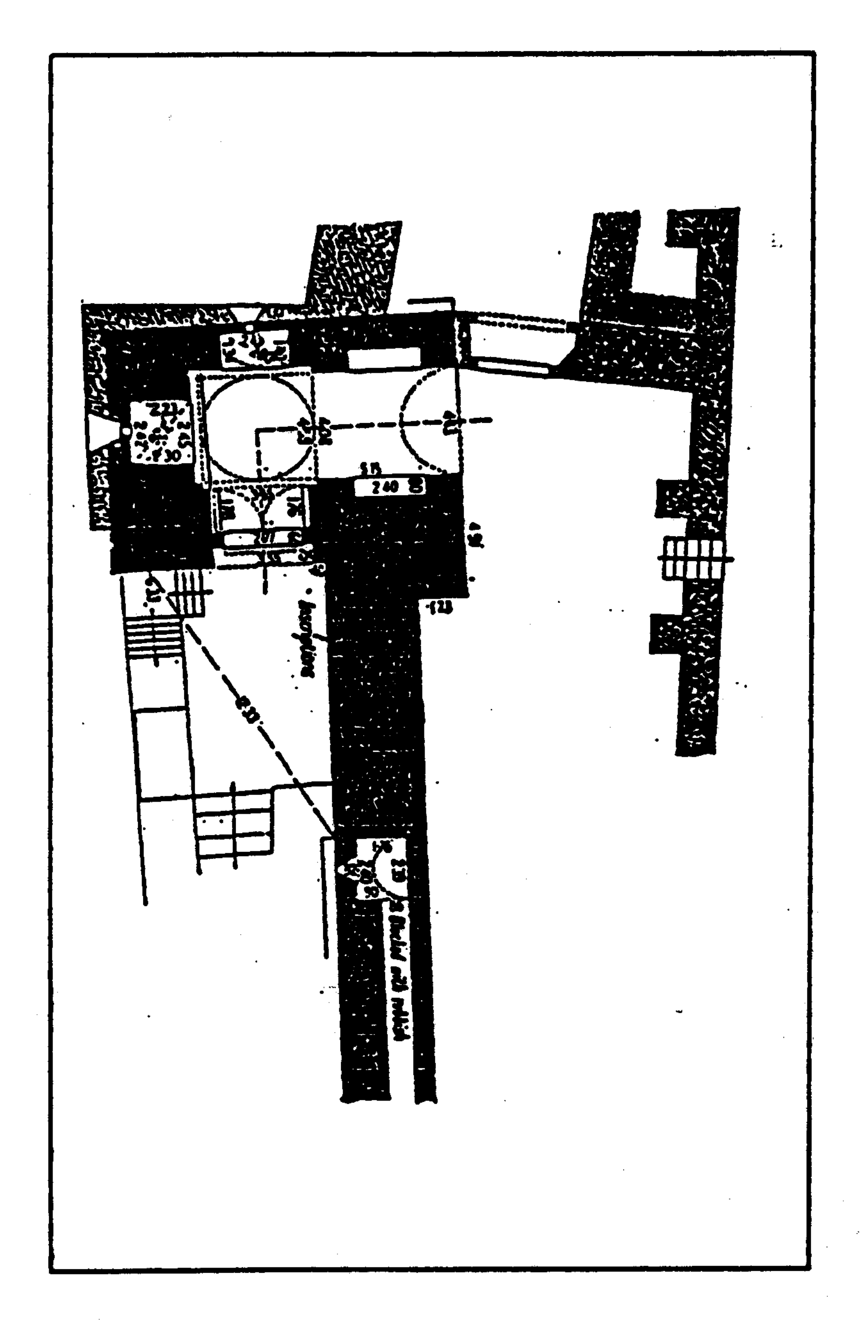
ويعتبر باب المدرج بالسور الغربى لقلعة الجبل، من أغنى أبواب هذا القسم بالنقوش والكتابات الأثرية، إذ يعلو فتحة مدخله نقش تذكارى من تسعة أسطر، مدون بخط النسخ الأيوبى نصه «بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما/ تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما/ وينصرك الله نصرا عزيزا أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة/ القاهرة بالعرمة التى جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجئ إلى ظل/ ملكه وتحصينا مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو/ المظفر يوسف بن أيوب محى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى/ عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين/ على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله الملكى الناصرى فى سنة تسع وسبعين وخمس مائة (١١٨٣)».

ويوجد أسفل هذا النص جامة مستديرة بها عبارة «الملك لله» منقوشة بالخط الكوفى المزهر، كما يوجد أيضا على الجانب الأيمن لباب المدرج ثلاثة نقوش

أخرى بخط النسخ تسجل لنا بعض أعمال التجديدات التى تمت بالقلعة زمن المماليك الچراكسة، النص الأول باسم السلطان الظاهر أبو سعيد جقمق ومؤرخ بشهر جمادى الآخرة سنة ٨٥١هـ/ أغسطس ١٤٤٧ م، والثانى باسم السلطان الأشرف قايتباى، بدون تاريخ، والثالث باسم السلطان العادل طومانباى ومؤرخ بشهر رمضان سنة ٩٠٦هـ / مارس ١٥٠١م.

ويفهم من كتابات بعض مؤرخى العصر المملوكى انه كان بالقلعة باب رابع هو باب السر الذى أشار اليه القلقشندى بما نصه «باب السر ويختص الدخول والخروج منه بأكابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتب السر ونحوهما، ويتوصل إليه من الصوة، وهى بقية النشز الذى بنيت عليه القلعة من جهة القاهرة بتعريج يمشى فيه مع جانب جدارها البحرى حتى ينتهى إليه بحيث يكون مدخله منه مقابل الإيوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان أيام الموكب، وهذا الباب لا يزال مغلقا حتى ينتهى إليه من يستحق الدخول أو الخروج منه فيفتح له ثم يغلق». ويرجح المستشرق الفرنسى بول كازنوفا أنه كان خارج أسوار القسم الأول الشمالى الشرقى أى قلعة الجبل مكان الباب الوسطانى وصنفه ضمن الأعمال التى قام بها السلطان الكامل.

خلاصة القول أنه كان يحيط بقلعة الجبل أى بالقسم الأول الشمالى الشرقى أسوار ضخمة يبلغ سمكها ثلاثة أمتار ويزيد ارتفاعها أحيانا فى الداخل على عشرة أمتار، زودت بأبراج أقيمت على مسافات متقاربة، اتخذت مساقط متنوعة نجد بينها نصف الدائرى وثلاثة أرباع الدائرى وقائم الزوايا، يصل ارتفاع بعضها إلى عشرين مترا أو يزيد، شيدت من حجارة مصقولة كأبراج صلاح الدين أو من حجارة مسنمة كأبراج العادل، وهى تميل إلى الداخل، وينحدر أساسها انحدارا شديدا فى جوف الصخر لزيادة مناعتها ويصعب ثقب الجدران من أسفل، وهى متأثرة فى ذلك ببعض القلاع التى أقامها الصليبيون فى بلاد الشام. والأبراج متصلة ببعضها البعض من خلال ممرات تخترق الأسوار يبلغ عرضها تسعين سنتيمترا، وسمكها ٢,٨٠ مترا، ويخترقها بين الأبراج حنايا زودت بمزاغل



شكل رقم (٣٨)

مسقط أفقي لباب المدرج، السور الغربي لقلعة الجبل، نقلا عن كريسويل

مخروطية الشكل للرمى بالسهام، وبنوافذ عديدة للإضاءة والتهوية، ويغطيها أسقف حجرية مسطحة.

أما فيما يتعلق بالقسم الثانى أى الجنوبى الغربى أى المدينة السكنية أو الملكية كما يحلو للمستشرق بول كازنوفا أن يطلق عليه، فيلاحظ أنه يبدو منخفضا عن القسم الأول الشمالى الشرقى أى قلعة الجبل، بمقدار ملحوظ كما أن معالمه تغيرت كثيرا وازدادت مساحته عما كان عليه فى العصر الأيوبى، وصارت أغلب أجزاء السور المرتفع الذى يلتف حوله من أعمال القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى، وفيه سكن أغلب حكام مصر الإسلامية منذ أن اتخذ السلطان الكامل من القلعة مقرا له فى سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م قبل أن يلى السلطنة، إلى أيام الخديوى إسماعيل الذى غادر القلعة نهائيا إلى قصر عابدين مقر الحكم الجديد فى سنة ١٢٩١هـ / ١٨٧٤ م كما سبق أن نوهنا من قبل.

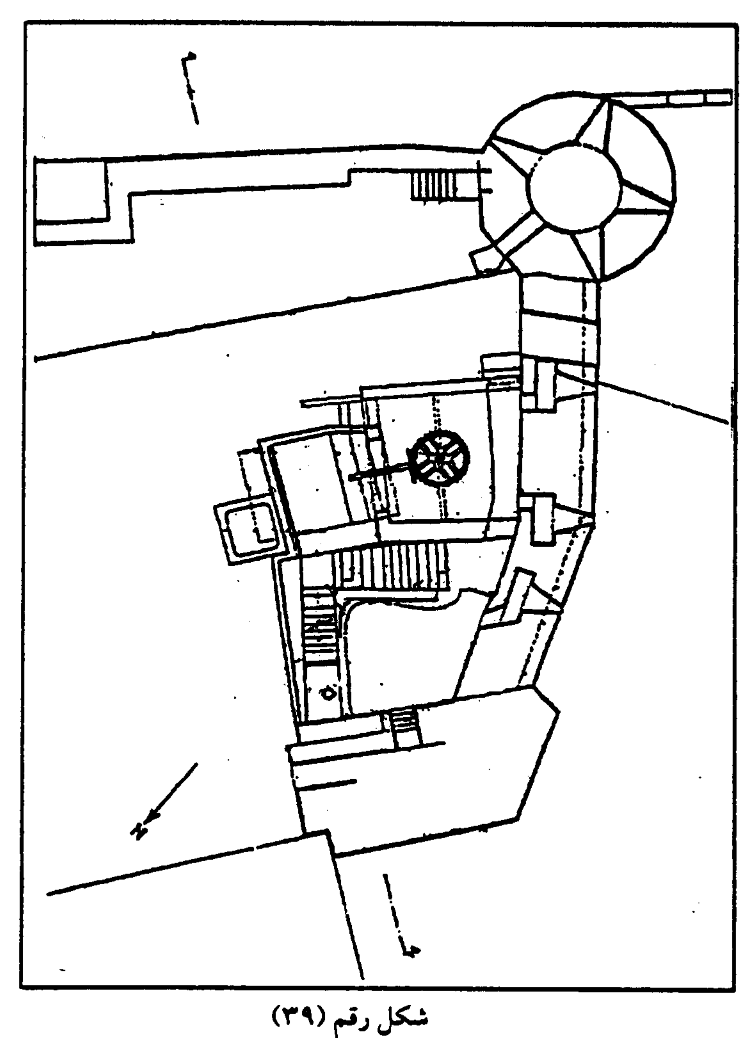
لذلك كان من الطبيعى أن يضم هذا القسم العديد من المنشآت التى تحكى تاريخ هذه القلعة منذ تشييدها فى أيام صلاح الدين إلى عصر محمد على وأفراد أسرته، وإن كان لم يتبق بهذا القسم من منشآت العصر الأيوبى سوى بئر يوسف المعروفة أيضا ببئر الحلزون وهى تقع إلى الجنوب الشرقى من مسجد الناصر محمد ابن قلاوون، وقد أشار إليها المقريزى نقلا عن المؤرخ ابن عبد الظاهر بما نصه «وهذه البئر من عجائب الأبنية تدور البقر من أعلاها فتنقل الماء من نقالة فى وسطها وتدور أبقار فى وسطها فتنقل الماء من أسفلها، ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجاز. وجميع ذلك منحوت ليس فيه بناء، وقيل أن أرضها مسامته أرض بركة الفيل وماؤها عزب. سمعت من يحكى من المشايخ أنها لما نقرت جاء مائها حلوا، فأراد قراقوش أو نوابه الزيادة فى مائها فوسع نقر الجبل فخرجت منه عين مالحة غير حلاوتها. وذكر القاضى ناصر الدين شافع بن على فى كتاب عجائب البنيان أنه ينزل إلى هذه البئر بدرج نحو ثلاثمائة درجة». ويفهم من المؤرخ ابن عبد الظاهر أيضا أنه استخدم فى بناء البئر آلافا من أسرى الفرنج، الأمر الذى يعنى أنه تم حفر هذه البئر بعد أن أنزل صلاح الدين بالصليبيين هزيمة

فـادحـة فى معـركـة حطـين عـام ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م، ووقع فى أسره آلاف من الصليبيين، ومن ببينهم جاى لوز جنان ملك بيت المقدس، وأرناط أمير الكرك الذى قتله صلاح الدين وفاء بنـذره وجزاء له على غدره ومكره كـما سبق أن نوهنا من قبل. وهذا يعنى بدوره أن حفر البئر تم بعد الانتهاء من بناء أسوار قلعة الجبل فى عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣م كما يفهم من النقش التذكارى الذى يعلو باب المدرج.

ويفهـم أيضا من المؤرخ ابن زنبل الرمـاح أن هذه البئر كانت مـتصلة بالنيل بواسـطة سرداب تـنفذ مـنه مياه الـنيل إلى القـلعة، وأنه حـدث فى عصر الولاة الـعثمانيين أن فريـقا من الثوار نفذوا إلى داخل القـلعة عن طريق هذا السرداب إذ يقـول: «ذكر لى بركات البيطار من فمه أنـهم دخلوا السرداب صفارى شمس قبل الـغروب بنـحو عـشرين درجة فـما طـلعنـا منه إلى وقت الـضحى. وأصل هذا السرداب إنما هو مجراة للماء تأتى من بحر النيل إلى بئر الحلزون الذى فى القلعة، فلما انـطرد ماء النيل من ذلك الجانب بطـل عمل ذلك السرداب انطرد وبقى على حاله ولكنه مبـنى بناء متقنا تقوم عـليه القيامة. قال: فلمـا وصلنا إلى البئر قعدنا وأخذنا لأنفسـنا راحة وأكلنـا ما تيسر أكـله ثم أسرعنا فى الطـلوع وتفرقنا داخل القلعة. . .».

وهذه البئر محـفورة فى الصخر على عمق تسعون مترا وتتألف من طابقين، العلوى على عمق خمسـين مترا، والسفلى على عـمق أربعون مترا، وكانت المياه تسـتخرج منـها بواسطـة سواقى تدور بـالأبقار فى كل طابق، وهى مـزودة حاليا بمنحدر حلزونى، يبـدو كأنه نحت فى الصخر، لتـسهيل نزول الدواب إلى هاتين الساقـيتين وصـعودها، مع أنه حل مـكان الدرج الـذى أشار إليه المـؤرخون عند تناولـهم لهذه البئر، واختفى بسبب تـراكم الأتربة على الدرجات لإهمال صيانته، واتخذ شكل المنحدر الحالى حسبما يؤكد المستشرق الفرنسى بول كازنوفا.

ولم تكن بئر يوسف هى المصدر الوحيد للمياه بالقلعة خاصة وأن مياهها لم تكن تتمتع بـالعذوبة الكـافية لذلك، قام السـلطان الكامل بـجلب مياه النيل إلى القلعة بواسطة السـواقى الناقلات وفقا لرواية القلقشندى الذى كتب يقول نقلا عن



شكل رقم (٣٩)

مسقط أفقي لبئر يوسف بالقلعة، عن المجلس الأعلى للآثار

المؤرخ محى الدين ابن عبد الظاهر: «وكان هذا الميدان أى الميدان تحت القلعة، وما حوله يعرف قديما بالميدان وبه قصر أحمد بن طولون وداره التى يسكنها، والأماكن المعروفة بالقطائع حوله على ما تقدم ذكره فى خطط الفسطاط ولم يزل كذلك حتى بنى المالك الكامل بن العادل بن أيوب هذا الميدان تحت القلعة حين سكنها وأجرى السواقى الناقلات من النيل إليه. . .». وقد أكدت حفائر الفسطاط التى قام بها

المرحوم على بهجت وأكملها من بعده حسن الهوارى هذه الرواية، فقد عثر فى بقايا سور صلاح الدين الدائر حول عواصم مصر الإسلامية السابق الإشارة اليه، عثر فى القسم الجنوبى من الضلع الشرقى الممتد من القلعة شمالا عند منطقة عرب اليسار خلف جامع الغورى إلى الفسطاط جنوبا، على بقايا مجرى للمياه منحوت فى أعلى السور تغطيه ألواح حجرية. ومن الرجح أن إمداد القلعة بمياه النيل قد استمر إلى أوائل العصر المملوكى، فقد أشار المؤرخ ابن تغرى بردى إلى قيام الأمير كتبغا بحصار القلعة وقطع المياه عنها فى عام ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٤م، قطعا عن طريق وقف السواقى الناقلات التى سبق للسلطان الكامل أن أجراها من النيل إلى الميدان.

ويبدو أن هذه السواقى قد استبدلت فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بقناطر ضخمة صارت تنقل مياه النيل إلى القلعة، وصلنا بالفعل بعض بقاياها وقد حدثنا المقريزى عنها بما نصه «وجميع مياه القلعة من ماء النيل، تنقل من موضع إلى موضع حتى تمر فى جميع ما يحتاج إليه بالقلعة، وقد اعتنى الملوك بعمل السواقى التى تنقل الماء فى بحر النيل إلى القلعة عناية عظيمة. فأنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢ م أربع سواق على بحر النيل، تنقل الماء إلى السور ثم من السور إلى القلعة، وعمل نقالة من المصنع الذى عمله الظاهر بيبرس بجوار زاوية تقى الدين رجب التى بالرميلة تحت القلعة إلى بئر الإسطبل. فلما كانت سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م عزم الملك الناصر على حفر خليج من ناحية حلوان إلى الجبل الأحمر المطل على القاهرة ليسوق الماء إلى الميدان الذى عمله بالقلعة، ويكون حفر الخليج فى الجبل، فنزل لكشف ذلك ومعه المهندسون، فجاء قياس الخليج طولا اثنين وأربعين ألف قصبة، فيمر الماء فيه من حلوان حتى يحازى القلعة فإذا حازاها بنى هناك خبايا تحمل الماء إلى القلعة ليصير الماء بها غزيرا، كثيرا دائما صيفا وشتاء، لا ينقطع ولا يتكلف لحمله ونقله، ثم يمر من محاذاة القلعة حتى ينتهى إلى الجبل الأحمر، فيصب من أعلاه إلى تلك الأرض حتى تزرع. وعندما أراد الشروع فى ذلك طلب الأمير قطلو بك بن

قراسنقر الجاشنكير، أحد أمراء الطبلخاناه بدمشق... فحضر ومعه الصناع... إلى قلعة الجبل، فأنزلوا ثم أقيمت لهم الجرايات والرواتب، وتوجهوا إلى حلوان ووزنوا مجرى الماء، وعادوا إلى السلطان وصوبوا رأيه فيما قصد وإلتزموا بعمله: فقال كم تريدون؟ قالو: ثمانين ألف دينار فقال: أليس هذا بكثير! فقال: كم تكون مدة العمل فيه حتى يفرغ؟ قالوا: عشر سنين، فاستكثر طول المدة... وصرف رأيه عن العمل وأعاد قطلوبك والصناع إلى دمشق... فلما كانت سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م اهتم الملك الناصر بسوق الماء ثانية إلى القلعة... فطلب المهندسين والبنائين ونزل معهم وسار فى طول القناطر التى تحمل الماء من النيل إلى القلعة حتى انتهى إلى الساحل فأمر بحفر بئر أخرى ليركب عليها القناطر حتى تتصل بالقناطر العتيقة، فيجتمع الماء فى بئرين ويصير ماء واحدا يجرى إلى القلعة فيسقى الميدان وغيره، فعمل ذلك ثم أحب الزيادة فى الماء أيضا فركب ومعه المهندسون إلى بركة الحبش، وأمر بحفر خليج صغير يخرج من البحر ويمر إلى حائط الرصد، وينقر تحت الرصد عشرة آبار يصب فيها الخليج المذكور، ويركب على الآبار السواقى لتنقل الماء إلى القناطر العتيقة التى تحمل الماء إلى القلعة زيادة لمائها... وندب الأمير أقبغا من عبد الواحد لحفر هذا الخليج وشراء الأملاك من أربابها، فحفر الخليج وأجراه فى وسط بستان الصاحب بهاء الدين بن حنا، وقطع أخشابه وهدم الدور، وجمع عامة الحجارين لقطع الحجر ونقر الآبار، وصار السلطان يتعاهد النزول للعمل كل قليل... فقدر الله تعالى موت الملك الناصر قبل تمام هذا العمل، فبطل ذلك وإنطم الخليج بعد ذلك، وبقيت منه إلى اليوم قطعة بجوار رباط الآثار. وما زالت الحيط قائمة من حجر فى غاية الإتقان، من إحكام الصنعة وجودة البناء، عند سطح الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد، قائما من الأرض فى طول الجرف إلى أعلاه، حتى هدمه الأمير يلبغا السالمى سنة ٨١٢هـ/ ١٤٠٩ م، وأخذ ما كان به من الحجر فرم به القناطر التى تحمل إلى اليوم الماء حتى يصل إلى القلعة. وكانت تعرف بسواقى السلطان، فلما هدمت جهل أكثر الناس أمرها ونسوا ذكراها».

ويكشف لنا هذه النص الهام عن الجهود التى بذلها السلطان الناصر محمد ابن قلاوون لتطوير نظام تزويد القلعة بالمياه الذى سبق للسلطان الكامل أن أرساه لأول مرة، وأنه قام بتطوير هذا النظام خلال العامين ٧١٢هـ/ ١٣١٢م، ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠ م وذلك بهدف زيادة قوة دفع المياه إلى السور وتكثيره بها، كما يكشف لنا عن قيام الأمير يلبغا السالمى فى سنة ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م بترميم قناطر المياه هذه، التى يبدو أنها شهدت أيضا ترميما آخر تم فى عهد السلطان الأشرف قايتباى بدليل العثور على رنك كتابى باسمه فوق أحد عقودها.

ومن المؤكد أيضا أن هذا النظام المائى ظل مستخدما لتزويد القلعة بالماء حتى عهد السلطان قانصوه الغورى الذى شرع فى أواخر سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م فى بناء مجرى جديد وأبطل المجرى القديم، إذ يذكر المؤرخ ابن إياس «أن السلطان أبطل المجراة القديمة التى كانت عند درب الخولى بمصر العتيقة، وشرع فى بناء مجراة جديدة، فجمع المهندسين فاختاروا أن يكون مبتدأها من عند موردة الخلفاء بالقرب من الجامع الجديد، فأنشأ هناك بئرا وجعل لها مسربا من بحر النيل، وصنع على هذه البئر عدة سواقى نقالة، وأنشأ من هناك مجراة على قناطر معقودة على دعائم متصلة إلى باب الزغلة ومن هناك تتصل إلى الميدان والقلعة، فجاءت هذه المجارة من العجائب والغرائب لكن أصرف على بنائها ما لا ينحصر من الأموال وغالبه من وجوه الظلم والمصادرات. . .».

وأضاف أيضا أن السلطان كان يقوم بالإشراف على أعمال البناء بنفسه كما حدث فى رمضان سنة ٩١٣هـ / يناير ١٥٠٨م، وفى ربيع الأول سنة ٩١٤هـ/ يونيو ١٥٠٨ م، إلى أن تم انتهاء العمل فيها فى شهر جمادى الآخرة سنة ٩١٤هـ/ سبتمبر ١٥٠٨م «ودارت الدواليب وجرى الماء فى المجراة حتى وصل إلى الميدان الذى تحت القلعة، ثم أن السلطان صنع هناك سواقى وبنى ثلاثة صهاريج تمتلئ من ماء النيل».

ولا يزال هذا المجرى باقيا حتى يومنا هذا حيث يمتد من برج المأخذ بمنطقة فم الخليج شرقا إلى باب السيدة عائشة، وهو مقام على قناطر يبلغ عدد عقودها

الباقية حوالى ٢٧١ عقدا نصف دائرى الشكل، على حين يتخذ رأس المجرى أو المآخذ شكلا سداسيا غير منتظم الأضلاع، تبلغ مساحته حوالى ٦٢٦ مترا مربعا، وارتفاعه حوالى ثمانية عشر مترا، يضم بداخله سداسى آخر، يحيط به من الداخل ستة عقود، ترتكز على دعامات، ويتوسطه عمود قطره حوالى ثلاثة أمتار، ويغطيه ستة أقبية متقاطعة شيدت من الآجر.

ويفضى إلى سطح المجرى أو المآخذ درج صاعد كان يستخدم فيما سبق لصعود الدواب المستخدمة فى إدارة السواقى التى تصب مياهها فى حوض يشتمل على ست فتحات، ومتصل بمجراة تصلها المياه بمجرد امتلاء الحوض، ويسيل منها إلى باقى القناطر، التى يعلوها مجرى عبارة عن تجويف شيد من الملاط يبلغ عرضه ٧٦ سم، وعمقه ٥٠سم، مخصص لجريان المياه. هذا وقد قام عبدى باشا بإصلاح هذا المجرى فى سنة ١١٤٠ هـ/ ١٧٢٧ م، كما قام الفرنسيون بسد معظم عقود قناطر هذا المجرى الذى حظى بعناية لجنة حفظ الآثار العربية التى قامت بترميم العديد من أجزائه، مثلما يحظى حاليا بعناية المجلس الأعلى للآثار المصرية الذى يحاول جاهدا ترميم بقاياه وإزالة التعديات الواقعة عليه.

وفى العصر المملوكى أضيف إلى القلعة أعمالا معمارية كثيرة، فأنشأ السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى برجا وطباقا للمماليك، وقصرا لولده السعيد بركة خان، كما شيد فيها السلطان الأشرف خليل بن قلاوون مقعدا صور على جدرانه أمراء الدولة، ظل باقيا حتى سنة ٧١١هـ/ ١٣١٢م. أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى ولى السلطنة ثلاث مرات آخرها سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م فقد بنى فى القلعة الإيوان الكبير والقصر الأبلق الذى كشفت عن بقاياه حفائر المجلس الأعلى للآثار، وبرجا كبيرا مربعا إلى الشمال الشرقى من جامع محمد على، وذلك بالإضافة إلى جامعه الذى يعد ضمن العمائر المملوكية المميزة للقلعة، الذى أعيد بناؤه فى سنة ٧٣٥ هـ/ ١٣٣٥م.

وفى سنة ٧٦١ هـ / ١٣٥٩م شيد السلطان الناصر حسن بها قاعة البيسرية وجعل لها شبابيك من الذهب، كما أنشأ فيها السلطان قانصوه الغورى إيوانا كبيرا جمع فيه بدائع العمارة الإسلامية.

وفى العصر العثمانى شيد بها سليمان باشا الخادم جامعه المعروف بسارية الجبل فى سنة ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨م، الذى يعد أول مساجد مصر العثمانية، كما أقام فيها أحمد كتخدا العزب مسجده الصغير لجند طائفة العزب المقيمين بمنطقة الاصطبلات على الممر السلطانى المدرج فى سنة ١١٠٩هـ/ ١٦٩٧م، كذلك بنى الأمير رضوان كتخدا الجلفى فى سنة ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧ م، باب العزب المطل على الميدان. ثم جاء محمد على ليضيف إلى منشآت القلعة العديد من المبانى أهمها دار الضرب ودار المحفوظات التى أمر بإنشائها فى سنة ١٢٢٧ هـ/ ١٨١٢م، وسراى الجوهرة والعدل، الذى أمر بانشائهما فى سنة ١٢٢٩هـ / ١٨١٣م، وقصور الحرم التى شيدت عام ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م وأخيرا جامعه الشهير الذى شرع فى بنائه سنة ١٢٤٦ هـ/ ١٨٣٠ م، ومات قبل أن يكتمل البناء، وهو يعد من أبرز أعلام القلعة بل مدينة القاهرة، إذ يستطيع كل وافد إليها أن يراه فى أول ما يرى عند دخوله إلى القلعة من أيه جهة من جهاتها.

وفى سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م جدد الخديوى إسماعيل أسوار القلعة وأثبت هذا التجديد على لوح رخامى بالسور على بعد ما يقرب من خمسين مترا إلى الجنوب من باب العزب.

هذه هى القلعة وأهم عمائرها الأيوبية والمملوكية والعثمانية وكذا عمائر أسرة محمد على التى أثارت خيال جميع الرحالة فخلدوا لنا وصف منظرها فى كتاباتهم ولخص لنا المستشرق الفرنسى بول كازنوفا أحاسيسهم وهم وقوف فى هذا المكان بقوله: «هذه الصور والمناظر التى ترى من هذا المكان بالقلعة تهز مشاعر أكثر الناس برودا، وتدفع بالفيلسوف إلى بحر من التأمل، وتبعث النشوة فى روح الفنان، بل تدفع أبعد الناس عن الإحساس بالجمال إلى عالم من الأحلام والتأملات. حقا إنه ليصعب على المرء أن يفيق من روعة وسحر هذا المنظر الذى لا يوجد له نظير فوق سطح المعمورة».

ثانيا: العمـارة الدينية

اتسعت رقعة القاهرة إبان العصر الأيوبى وازداد العمران ونشطت حركة البناء فيها حيث كان للعـمارة الدينية نصيب كبير منها، بيد أن المبانى الدينية التى شيدت فى هذا العصر، اتخذ بـعضها شكلا جديدا لم يألـفه البناة فى مصر فى العصور السابقـة، فقد أنـشئ بها العـديد من المدارس والخـوانق فى القاهرة والـفسطاط، كمؤسسات سـنية للتصـدى للمذهب الشـيعى وأتباعه، وتطور أيـضا طرز القبة، والمنارة كما سوف نرى من خلال تناولنا لأهم المنشآت الباقية.

(أ) المدارس

لعبت المدارس بصفة غامة دورا هـاما فى النهضة الثقافية والعلمية فى جميع أنحاء الـعالم الإسلامى، حيث عرف هذا النوع من المنشآت التعليمية لأول مرة فى نيسابور بعد الأربعمائـة من سنى الهجرة / أوائل القرن الحادى عشر الميلادى على أساس أن المدرسة التى شيدها أبو بكر بن فورك المتوفى سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م هى أقدم هذه المدارس، يليها المدرسة البيهـقية التى شيدها أبو بكر البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ بعد أن صار مـدرسا فى نيسـابور فى سنة ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م، والمدرسة الـسعيدية التى شيدها الأمير نصر بن سـبكتكين، أمير نيسابور، ومدرسة أبـو سعيد إسماعيل الإستراباذى الـواعظ ومدرسة أبو إسحق الإسفرائينى التى «لم يبن قبلها بنيسابور مثلها». وشهد الرحالة ناصر خسرو أثناء رحلته إلى نيسابور فى شوال سـنة ٤٣٧هـ / أبريل ١٠٤٦م مـراحل إنشاء مـدرسة سادسـة بقرب سوق السراجـين بأمر من الـسلطـان الـسلجوقى طـغرك بك. ومع ذلك فقـد أجمعت الدراسـات التاريخية على أن الازدهار الحقـيقى لإنشاء المدارس لم يتم إلا على يد الوزير الـسلجوقى نظـام الملك (٤٥٦ - ٤٨٥هـ / ١٠٦٤ - ١٠٩٢م) الذى أنشأ مدارس عـديدة فى كل من بغداد والبصرة والموصل وبلخ ونيسابور وهراة وأصبهان ومرو وأمل، عرفـت جميعا بالنظامية، حتى قيل أنه كان «له فى كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة»، لمنـاهضة المذهب الشيعى ونشر السنة، مذهب الخلافة العباسية التى اعتمد عليها السلاجقة فى دعم نفوذهم.

وتعد نظامية بغداد التى شرع أبو سعيد الصوفى فى بنائها على شاطئ دجلة فى سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥ م، وفرغ منها فى ذى القعدة سنة ٤٥٩ هـ / سبتمبر ١٠٦٧ م من أشهر مدارس نظام الملك التى أذاعت صيته ورفعت من شأنه، فقد أنفق عليها ستين ألف دينار، وأوقف عليها الأسواق والضياع والخانات والحمامات.

وتحتل المدرسة المستنصرية التى أمر بإنشائها الخليفة العباسى المستنصر فى سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م، وفرغ منها فى رجب سنة ٦٣١ هـ أبريل ١٢٣٤م، مكانه بارزة فى المصادر التاريخية إلى جانب نظامية بغداد، فقد كانت أشبه بمدينة، تشتمل على إيوانات أربعة، اختص كل منها بأحد مذاهب السنة، قرر لكل مذهب اثنين وستين فقيها تحت إشراف مدرس ونائب وأربعة من المعيدين، بالإضافة إلى دار للحديث وبيوت لإيواء الفقهاء، وخزانة للكتب، ومطابخ وحمامات وبيمارستان، وساعة مائية عند المدخل. وجدير بالذكر أن هذه المدرسة ما زالت محتفظة بأهم عناصرها التخطيطية والمعمارية حتى يومنا هذا، رغم ما تعرضت له مدينة بغداد من كوارث على مر العصور.

وازدهرت حركة إنشاء المدارس أيضا فى بلاد الشام على يد نور الدين زنكى (٥٤١ - ٥٦٩ هـ/ ١١٤٦ - ١١٧٤ م)، فقد ذكر ابن جبير الذى زار دمشق فى أوائل سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م أنه شاهد فيها عشرون مدرسة، وفى حلب ست مدارس.

وشهدت مصر بدورها إنشاء أربع مدارس فى القاهرة والإسكندرية تحت حكم الفاطميين، إذ يروى أن مسجد سيد معاذ الذى بنى فى سنة ٥٥٢ هـ/ ١١٥٧م «كان أصله مدرسة بنيت على مشهد الشريف معاذ بن داود». كما شيد مسرور الخادم، أحد خدام القصر فى نهاية العصر الفاطمى، مدرسة بالقاهرة عرفت بالمدرسة المسرورية. وأنشئت أيضا مدرستان سنيتان للمذهب الشافعى بالإسكندرية إحداهما من تشييد الوزير رضوان بن ولخشى فى سنة ٥٣٢ هـ/ ١١٣٨م، فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله، عرفت بالمدرسة العونية، والأخرى

من إنشاء على بن السلار وزير الخليفة الظافر فى سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١ م، وكانت تعرف بالمدرسة السلفية أو الحافظية.

وشهدت مصر كذلك إنشاء العديد من المدارس على يد صلاح الدين حتى قبيل سقوط الخلافة الفاطمية، ففى عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م، شيد مدرسة للفقهاء الشافعية بجوار جامع عمرو بن العاص، عدت بمثابة أول مدرسة «عملت بديار مصر»، وعرفت أولا بالمدرسة الناصرية، ثم اشتهرت بمدرسة ابن زين التجار، وبالمدرسة الشريفية، وقد روى أنه لما فرغ من بنائها أوقف صلاح الدين عليها الصاغه وكانت تجاورها.

وإلى جوار جامع عمرو أنشأ صلاح الدين أيضا المدرسة القمحية التى خصصها للفقهاء المالكية، وقد شرع فى بنائها فى نفس السنة، وأوقف عليها قيساريه الوراقين وما تحتويه من المبانى بمصر، وضيعة بالفيوم ورتب فيها أربعة من المدرسين، اختص كل منهم بعدد من الطلبة.

وفى سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩م أنشأ مدرسة ثالثة عرفت بالصلاحية أو بمدرسة الشافعى أو مدرسة الخبوشانى، بجوار قبة الإمام الشافعى، لتدريس فقه الشافعية، وكانت بجوار قبة الإمام الشافعى، وقد زارها الرحالة ابن جبير قبل أن يكتمل بناؤها الفسيح الأنيق، ووصفها بأنه «لم يعمر بالشرق الأوسط مثلها من حيث المساحة والبناء حتى أنه يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، وبإزائها الحمام والمساكن للطلاب إلى غير ذلك من المرافق».

ويفهم من المقريزى أيضا أن صلاح الدين «جعل المشهد الحسينى أولا حلقة تدريس وفقهاء، ثم بنى به إيوانا» يعنى مدرسة رابعة، الأمر الذى يؤكده المؤرخ ابن تغرى بردى، إذ روى أن صلاح الدين «بنى مدرسة مجاورة للمشهد المنسوب للحسين بن على رضى الله عنه».

والحق أن إنشاء المدارس لم يقتصر إبان العصر الأيوبى على صلاح الدين فقط بل امتد إلى أمرائه وأفراد بيته وكبار موظفى الدولة حتى بلغ مجموع ما تم تشييده منها خلال هذه الفترة ما يقرب من أربع وعشرين مدرسة فى الفسطاط

والقاهـرة بالإضافة إلى مدرسـين فى الفيوم منها ست مـدارس للمذهب الشافعى وثلاث لـلمذهـب الحنفى، ومـثلهـا للـمذهب المالـكى، وسبع لم تحـدد المصادر التاريـخية مذهب الدراسة بها، ومدرسة للمذهبين الشافعى والمالكى فى آن واحد، وثانيـة للمذهبين الشافـعى والحنفى وعلم القراءات، وثالثـة للمذاهب الأربعة كما سبق أن نوهنا من قبل.

وأغلب مدارس الـعصر الأيوبى فى مصر انـدرست وأصبحت أثرا بعد عين باستثناء بقـايا أطلال مدرستين إحداهما مدرسة الحديث الـكاملية، والثانية مدرسة الصـالح نجم الدين أيوب الـتى روى المقريزى أنـها كانت عبارة عـن مجموعة من المـدارس لأنها كـانت مخصـصة للمـذاهب الأربعة، وقـبل أن نتعـرض بالدراسة والتحليل لكل منهما ينبغى علينا أن نشير فى عجالة إلى أصل المدرسة التى وصلنا بصددها خمس نظريات متنافرة.

أولها ينسب إلى عـالم الكتابات العربية ماكس فان برشم الذى يرى أن نظام المدرسة ذات الإيوانـات الأربعة المتـعامدة حول صحن أوسط مـكشوف مشتق من التخطيط المتعامد للكنائس البيزنطية فى بلاد الشام.

وتنسب النظرية الـثانية إلى عالم الآثار البريـطانى كريسويل الذى يرجح أن هذا النظام مشتق من الـقاعة المصرية الإسلامية فى الـعصر الفاطمى، ويدلل على صدق نظـريته بقاعـة الدردير الـتى توجد خلف الجـامع الأزهر، وأيضـا بتحويل العديد من الدور السكنية فى مصر وبلاد الشام إلى مدارس للتدريس بها.

ويتزعم الـنظرية الثـالثة عالم الآثار الألمـانى هرتزفيلـد الذى يرى أن النظام المذكور مـشتق من الـدور السكـنيـة فى فارس، وأن هذا الـتخـطيط لا علاقة له بالغرض العلمى ولا بتعدد المذاهب.

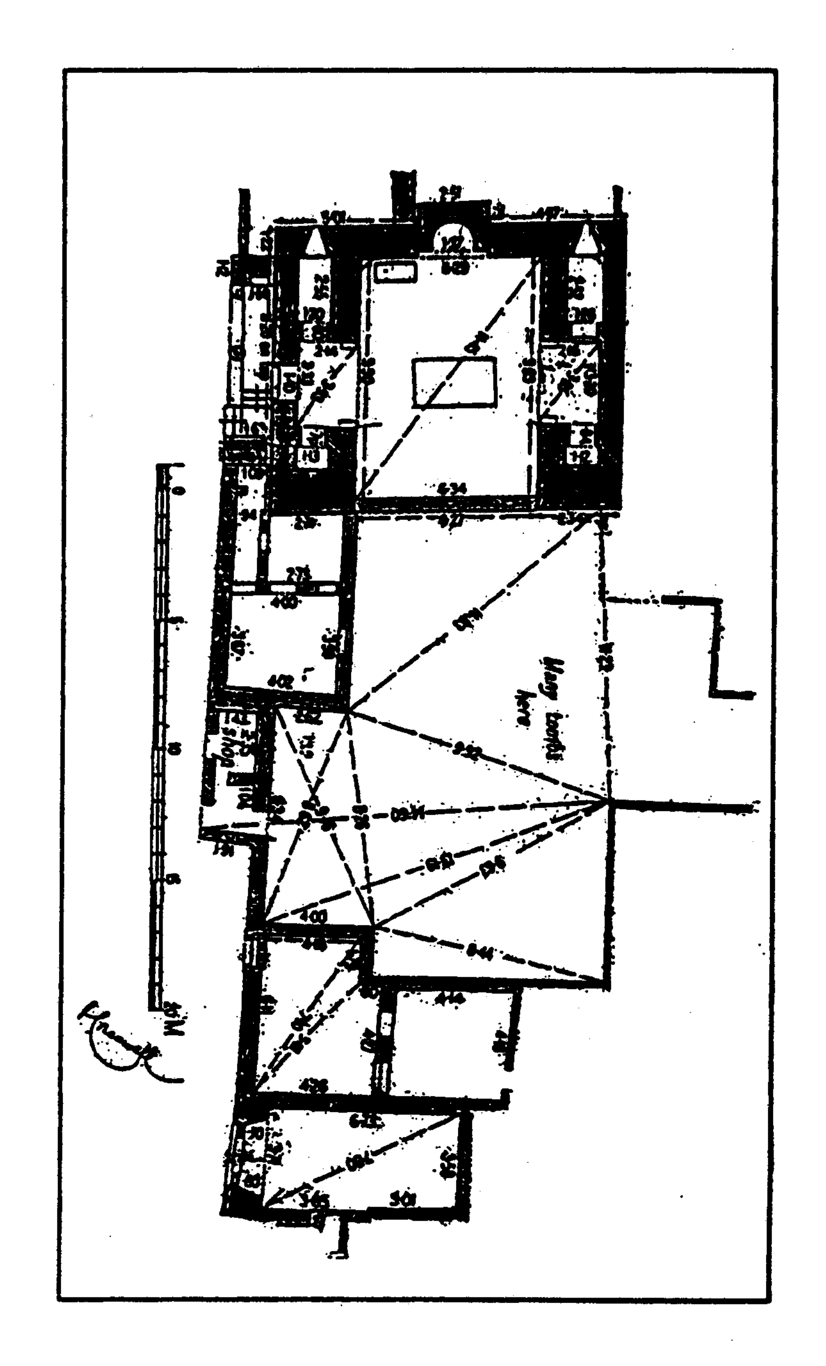
عـلى حين يرى صاحب النظرية الرابعـة، المرحوم أحمد فكرى، أن تخطيط المـدرسة نـابع من تخـطيط المسـاجد ذات الأروقـة المتـعامـدة حول صحن أوسط مكشوف.

وهناك نظرية خامسة حاول المرحوم عباس حلمى الترويج لها وهى تتلخص فى أن تخطيط المدرسة مشتق من تخطيط الدور الطولونية التى عثر عليها فى مدينة الفسطاط، وهو بذلك يتبنى دون أن يدرى نظرية العالم الألمانى هرتزفيلد، على أساس أن تخطيط الدور الطولونية متأثر إلى حد كبير بتخطيط بيوت مدينة سامراء التى شيدت بالعراق فى سنة ٢٢١ هـ/ ٨٣٦ م، ذلك التخطيط الذى وجد من قبل فى بعض بيوت قصر الأخيضر الذى عثر عليه فى بادية العراق وينسب إلى العصر العباسى فى حوالى سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٧ م، وقيل أيضا أنه منقول عن قصر شيرين، أحد القصور الساسانية، الذى شيده كسرى الفرس خسرو ابراويز فيما بين سنتى ٥٩٠ - ٦٢٨م.

ترى أى هذه النظريات أقرب إلى المنطق والصواب؟ نعتقد أن نظرية المرحوم أحمد فكرى المتعلقة باشتقاق تخطيط المدرسة من المسجد الجامع ذى الأروقة هى الأقرب إلى المنطق والصواب على اعتبار أن المسجد الجامع يعد أساس العمارة والفنون الإسلامية، ففى مبانى المساجد تطورت أساليب التخطيط والتصميم التى انتقلت إلى سائر أنواع المبانى الإسلامية من قصور ومدارس وقلاع وغير ذلك، وان كنا لا نستطيع فى الوقت نفسه أن نغفل ما جاء بالنظرية الثانية لعالم العمارة الإسلامية البريطانى كريسويل، الخاصة باشتقاق نظام المدرسة من تخطيط القاعة الفاطمية التى تتألف من إيوانين متقابلين يفصل بينهما دور قاعة، أى صحن، تنخفض أرضيتها درجة واحدة عن أرضية الإيوانين، لاننا سوف نشاهد هذا التخطيط فى بقايا كل من المدرستين الكاملية والصالحية.

مدرسة وقبة السادات الثعالبة:

تقع بقايا هذه المدرسة خلف ضريح الإمام الشافعى، وتطل واجهتها الشمالية على شارع سيدى عقبة بجبانة الإمام الشافعى، وهى من تشييد الأمير الكبير الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل بن حصن الدولة، فخر العرب ثعلب ابن يعقوب بن مسلم بن أبى جميل، الجعفرى الزينبى، أمير الحاج والحرمين، وأحد أمراء مصر فى الدولة الأيوبية، الذى شغل وظيفة أمير الحاج فى سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥ م.



شكل رقم (٤٠)

مسقط أفقي لمدرسة وقبة السادات الثعالبة، نقلا عن كريسويل

ويفهم من المقريزى أن هذا الشريف أنشأ مدرسة فى سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م على رأس حارة الجودرية بالقاهرة، عرفت بالمدرسة الشريفية، ووقفها على فقهاء الشافعية واتخذ منها سكنا له، وهذا يعنى ببساطة أنها ليست المدرسة التى نحن بصددها، كما يعنى أنه شيد مدرسة ثانية ألحق بها قبة ليدفن فيها بقرافة الإمام الشافعى، كما يستشف من مضمون اللوح الرخامى الذى كان يعلو واجهة المقبرة المستحدثة بواسط الإيوان الشرقى بهذا البناء، ثم قامت لجنة حفظ الآثار العربية بنقلة وتثبيته بأعلى مدخل هذه المدرسة لاعتقادها بأنه لم يكن موضوعا فى مكانه الصحيح. وهو يضم أحد عشر سطرا بخط النسخ الأيوبى نصها «بسم الله الرحمن الرحيم / تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا / من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار / ويجعل لك قصورا أمر بإنشاء هذه التربة المباركة لنفسه الشريف السيد الأمير الحسيب / النسيب فخر الدين أمير الحاج والحرمين/ ذو الفخرين نسيب أمير المؤمنين أبو منصور/ إسماعيل ابن الشريف الأجل حصن الدين / ثعلب بن يعقوب بن مسلم بن أبى جميل/ الجعفرى الزينبى وكان الفراغ منها / فى رجب سنة ثلاث عشرة وستمائة (أكتوبر ١٢١٦ م) رحمه الله».

ومن المؤسف حقا أن هذه المدرسة التى يرجح أن المنشئ ألحق بها تربة ليدفن فيها بعد موته، وأغفلت المصادر الإشارة إليها، والتنويه عنها، لم يتبق منها سوى كتلة المدخل التى تشغل الطرف الغربى من الواجهة الرئيسية الشمالية، وإيوان القبلة الذى يشغل الطرف الشرقى من الواجهة. وكتلة المدخل مشيدة من أحجار جيرية مصقولة يبلغ ارتفاعها ٤,٣٠ مترا وعرضها ٤,٤٢ مترا، وهى منخفضة عن أرضية الشارع بحوالى المتر ونصف المتر، ويتوسطها فتحة مدخل مستطيلة الشكل يتوجها عقد مستقيم يتألف من تسع صنجات معشقة يلتف حولها شريط ضيق يتكون من مربعات صغيرة بها زخارف نباتية وهندسية دقيقة منفذة بالحفر البارز تذكرنا بزخارف المئذنة الشمالية الغربية بجامع الحاكم وزخارف جامع الصالح طلائع، كما يزين عضادتى المدخل شريط كتابى بخط النسخ الأيوبى يتضمن آيات قرانية نقشت بحروف بارزة فوق أرضية من الزخارف النباتية، نصها «بسم الله

الرحمن الرحيم إنما يريد الله ليذهب الرجس عنكم أهل البيت ويطهركم تطهيرا / قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى. . .».

ويعلو عقد المدخل المستقيم، مساحة غائرة، مستطيلة الشكل، يتوجها عقد منكسر، ثبت بداخلها النقش التأسيسى السابق الإشارة إليه. ويفضى المدخل إلى دركاه مستطيلة الشكل طولها ٦,٣٧ مترا، وعرضها ٣,٧١ مترا، تحولت إلى غرفة مغلقة، كان يسقفها فيما سبق قبو متقاطع من الآجر المكسى بالملاط استبدل فى وقت لاحق بسقف خشبى حديث غفل من الزخرفة.

أما إيوان القبلة الذى يشغل الجهة الشرقية من بقايا هذه المدرسة فهو عبارة عن مستطيل يبلغ طوله من الخارج ١٢,٥٠ مترا وعرضه ١١,٢٠ مترا، واتساعه من الداخل ٦,٣٤ مترا وعمقه ٩,٩٨ مترا، يعلوه قبو مدبب شيد من الآجر، ويكسوه طبقة سميكة من الجص، يبلغ ارتفاعه حوالى تسعة أمتار، ويمتد على جانبيه الشمالى والجنوبى دخلتان مستطيلتان طول كل منهما ٣,٣٣ مترا وعرضها ٢,١٥ مترا، ويعلوها سقف خشبى مسطح، كما تنتهى كل حنية شرقا بحجرة صغيرة مزودة بنافذة ضيقة أشبه بشق السهام. أما الجهة الغربية لكل منهما، فيشغلهما دخلة صغيرة كانت تستخدم كخزانة للكتب.

ويصدر هذا الأيوان محراب جصى مجوف يتوجه عقد منكسر، كان يستند على عمودين لا وجود لهما فى الوقت الحالى، له طاقية محارية الشكل تزدحم بأربعة صفوف من المقرنصات، تذكرنا بمحاريب المشاهد الفاطمية. ويعلو هذا المحراب ست نوافذ على شكل القمريات القندلية، وزعت على ثلاثة صفوف من أسفل إلى أعلى: ثلاث - اثنان - واحد. ويتوسط أرضية هذا الأيوان تركيبة قبر مستطيلة الشكل شيدت من الآجر وطليت بالجير الأبيض، كان مثبت على أحد جوانبها اللوح الرخامى الذى قامت لجنة حفظ الآثار العربية بوضعه أعلى مدخل هذه المدرسة كما سبق أن نوهنا من قبل.

والحديث عن هذه المقبرة يحتم علينا الإشارة إلى بقايا تركيبة خشبية محفوظة بمتحف الفن الأسلامى بالقاهرة، تتألف من ثلاثة جوانب جاءت من هذا

المبنى، يشتمل كل منها على حشوات مستطيلة ومربعة تزدان بزخارف نباتية وكتابات نسخية تضم آيات قرآنية من سورتى البقرة والأعراف واسم وألقاب هذا الأمير نقشت بدورها فوق مهاد من الزخارف النباتية المتشابكة. ولهذه التركيبة جانب رابع محفوظ بمتحف فكتوريا والبرت يحمل تاريخ صنعه فى سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م، واسم صاحبه فخر الدين إسماعيل بن ثعلب.

بقى أن نشير فى ختام حديثنا عن بقايا هذه المدرسة إلى أن هذا الإيوان، يعد بمثابة أقدم إيوانات المدارس فى مصر الإسلامية، يفصله عن كتلة المدخل، أرض فضاء يشغلها فى الوقت الحاضر الكثير من المقابر المستحدثة، لذا يرجح عالم العمارة الإسلامية البريطانى كريسويل أن البناء الأصلى كان يشتمل على تخطيط بسيط لمدرسة تتألف من صحن أوسط مكشوف يتعامد عليه إيوانان كما هو الحال بالنسبة لبقية المدارس الأيوبية المبكرة التى وصلتنا فى مصر، كما يرجح أيضا أنه كان ملحقا بها مدفن للمنشئ بدليل العبارة التى وردت بالنص التذكارى الذى يعلو المدخل حاليا «أمر بإنشاء هذه التربة المباركة لنفسه...» وبدليل بقايا التركيبة الخشبية التى وصلتنا من هذا البناء وتحمل اسم المنشئ وتاريخ الوفاة. بيد أن مبانى هذه المدرسة تعرضت لعوادى الزمن واندرست أغلب عناصرها، ولم يتبق منها سوى كتلة المدخل وإيوان القبلة الرئيسى.

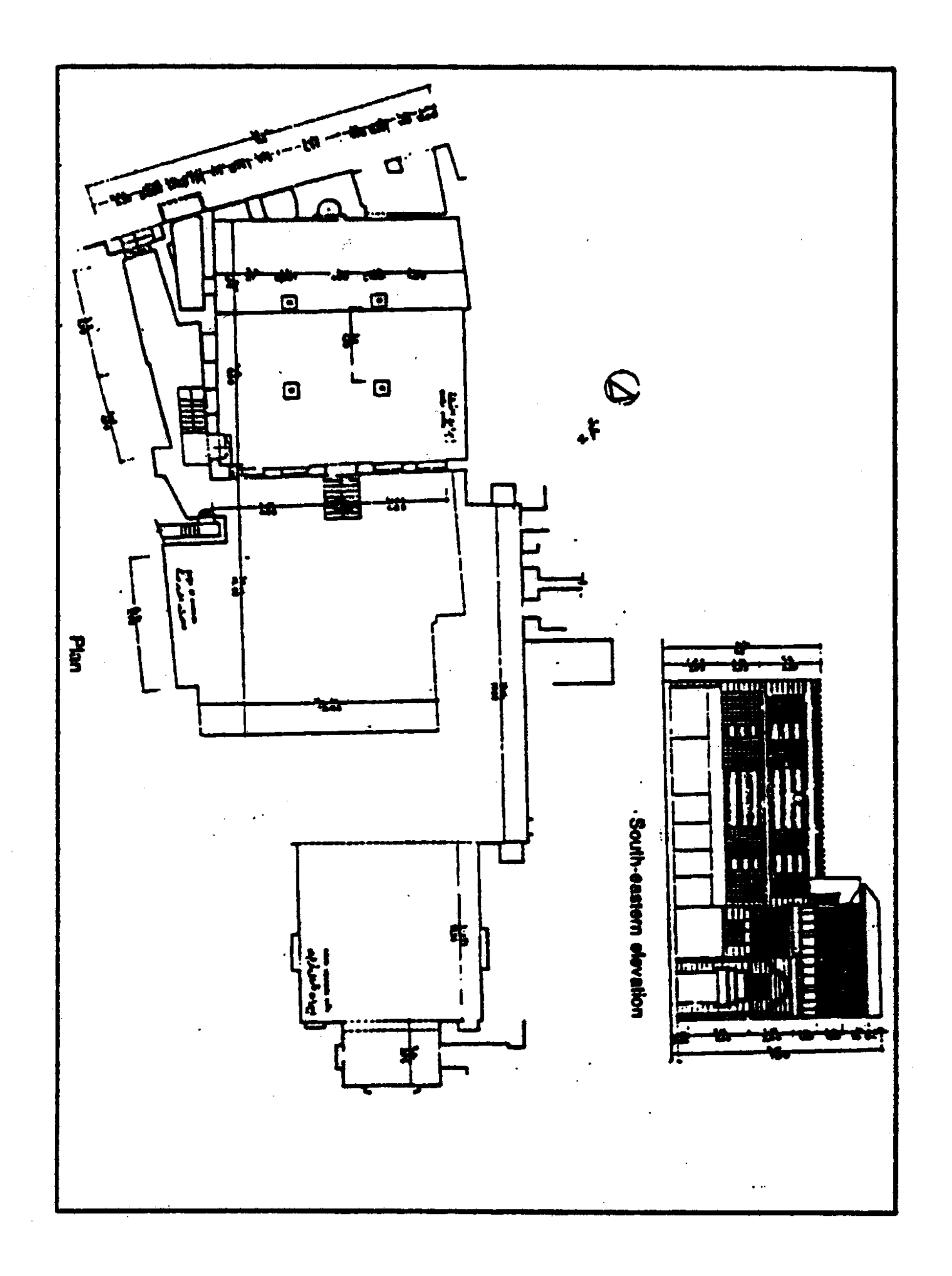
المدرسة الكاملية:

تقع بقايا هذه المدرسة بشارع المعز لدين الله بحى الجمالية بالقاهرة، بجوار مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق، شيدها السلطان الملك الكامل بن العادل فى سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥ م، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى ومن بعدهم على الفقهاء الشافعية كما يفهم من المقريزى الذى يصفها بقوله: «هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة وتعرف بدار الحديث الكاملية، أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة اثنين وعشرين وستمائة (١٢٢٥م)، وهى ثانى دار عملت للحديث، فإن أول من بنى دارا للحديث على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمد بن زنكى بدمشق، ثم

بنى الكامل هذه الدار، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية، ووقف عليها الربع الذى بجوارها على باب الخرنشف ويمتد إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر. وهذا الربع من إنشاء الملك الكامل، وكان موضوعه من جملة القصر الغربى، ثم صار موضعا يسكنه القماحون، وكان موضع المدرسة سوقا للرقيق ودارا تعرف بابن كستول... وما برحت بيد أعيان الفقهاء إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣م فتلاشت كما تلاشى غيرها...» ومع ذلك يفهم من عبارة أخرى لنفس المؤرخ أن مبانى هذه المدرسة كانت لا تزال قائمة فى عهده، أى حتى منتصف القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى. إذ يقول: «المدرسة الكاملية المعروفة بدار الحديث وهى ملاصقة للمدرسة الظاهرية الجديدة» فى مواجهة قصر الأمير بشتاك الناصرى. ويبدو أيضا أن بعض مبانيها ظلت باقية حتى القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى بدليل ما رواه البكرى عنها إذ يشير إلى «أن المدرسة الكاملية صارت الآن موضعا للقسمة العربية، وعندما ينزل قاضى مصر تتحول المحكمة التى عند بين للقصرين إليها»، كما أشار أنها كانت مخصصة للمذهب الحنفى.

ويفهم كذلك من النص الذى يعلو مدخلها أنه أعيد تجديدها فى القرن الثانى عشر الهجرى/ الثامن عشر الميلادى ففقد جاء فى هذا النقش ما نصه: «أحيا هذه المدرسة الكاملية دار الحديث بعد الاندراس وأعادها محكمة البناء والأساس الأمير حسن كتخدا مستحفظان الشعراوى صانه الله من المساوى وكان له وقاية فى الدارين وسببا فى الجمع بين الحسنيين سنة ١١٦٦ هـ/ ١٧٥٢م».

ورغم ما جاء فى هذا النقش من إشارة صريحة إلى قيام الأمير حسن كتخدا بإعادة البناء والأساس بعد الاندراس، إلا أن الفحص الأثرى لمبانى هذه المدرسة، يكشف لنا عن قيام الأمير المذكور ببناء مسجدا صغيرا فقط على جزء من إيوان القبلة الشرقى للمدرسة، وان هذا المسجد استمر عامرا بالصلاة فى أيام على مبارك فى القرن ١٣ هـ / ١٩ م، فقد جاء فى خططه أن هذه المدرسة «عامرة إلى الآن وتعرف بجامع الكاملية»، وذكر أيضا أنها جامع ملوكى عامر بالأذان والصلوات والجمعة والجماعة، ومنافعة لم تزل تامة».



شكل رقم (٤١)

مسقط أفقي وقطاع رأسي لبقايا المدرسة الكاملية،

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

ومع ذلك فقد أدركت لجنة حفظ الآثار العربية بقايا هذه المدرسة وقد أحاطت بها الأتربة فعملت على إزالتها فى سنة ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣، وأجرت بموقعها حفائر بسيطة أسفرت عن اعداد مخطط لمسقط المدرسة يستشف منه من أن البناء الأصلى كان يتالف من صحن أوسط مكشوف مستطيل الشكل تبلغ أطواله ١٩,٩٠ × ١٥,٤٤ مترا، يشغل جزء كبير منه ميضأة مسجد الأمير حسن كتخدا، يتعامد عليه من الشرق والغرب إيوانان، بقى منها الإيوان الغربى وهو عبارة عن مستطيل يبلغ طوله ١٠,٣٥ مترا وعرضة ٩,٥٦ مترا، مشيد من أحجار ضخمة، ويعلوه قبو مدبب من الآجر المغطى بطبقة من الملاط، ينتهى فى صدره بدخلة معقودة يبلغ طولها ٣،٧٥ مترا وعرضها خمسة أمتار، يغطيها سقف خشبى مائل مزود بفتحة تتجه نحو الشمال لاستقبال الهواء وتمريره داخل الإيوان؛ لذا يعده كريسويل بمثابة ملقف للهواء، تلك الظاهرة التى سبق ظهورها فى مسجد الصالح طلائع من سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م برواق القبلة، ويوجد على جانبى هذا الملقف الشمالى والجنوبى فتحتان معقودتان اتساع كل منهما ١,٣٠ متر، يرجح أنهما كانا يفضيان إلى غرفتين لا وجود لهما فى الوقت الحاضر، كما يوجد أيضا بصدره الغربى فتحة أخرى نجد مثلها على جانبى الإيوان الرئيسى، الشمالى والجنوبى، تضم كل منها عتبا من الخشب يعلوه عقد عاتق، ويبلغ سعتها ٢,١٤ متر والفتحات الثلاث مسدودة حاليا بالآجر وكسر الحجر اى الدقشوم.

وبقى من أطلال هذه المدرسة أيضا الضلع الجنوبى للإيوان الشرقى، الذى كان يشرف بواجهته الرئيسية أى الشرقية على شارع المعز لدين الله، والذى ضاعت أغلب معالمه بسبب المسجد الذى شيده الأمير حسن كتخدا فوق أطلاله.

ويرجح أيضًا أنه كان يمتد على جانبى الصحن الشمالى والجنوبى غرف لايواء طلاب المدرسة، كانت موزعة على طابقين، فتحت غرف الطابق الأرضى على الصحن من خلال باثكة تتقدمها، تتألف من أعمدة يعلوها عقود، لتحمى غرف الطلاب من حرارة الشمس صيفا ومن أمطار الشتاء، وكانت الغرف مزودة بنوافذ يزينها أطر من الزخارف الجصية تتألف من إطارين مستطيلين، يزين الإطار

الداخلى كتابات قرآنية منقوشة بالخط الكوفى فوق مهاد من زخارف نباتية بديعة، على حين يزين الإطار الخارجى نقوش نباتية متداخلة ترسم حلقات متناسقة، ويحدد هذين الاطارين ثلاثة أشرطة من خطوط هندسية متشابكة. وتكشف لنا هذه الزخارف الجصية عن تأثيرات أندلسية واضحة، وحسبنا دليلا على ذلك أن أحد الرحالة الأجانب قام بزيارة المدرسة فى عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥ م وذكر أن زخارفها الجصية تشبه زخارف قصر الحمراء بغرناطة بالأندلس. بقى أن نشير فى نهاية حديثنا عن المدرسة الكاملية أن بقايا زخارفها الجصية تم نقلها إلى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة.

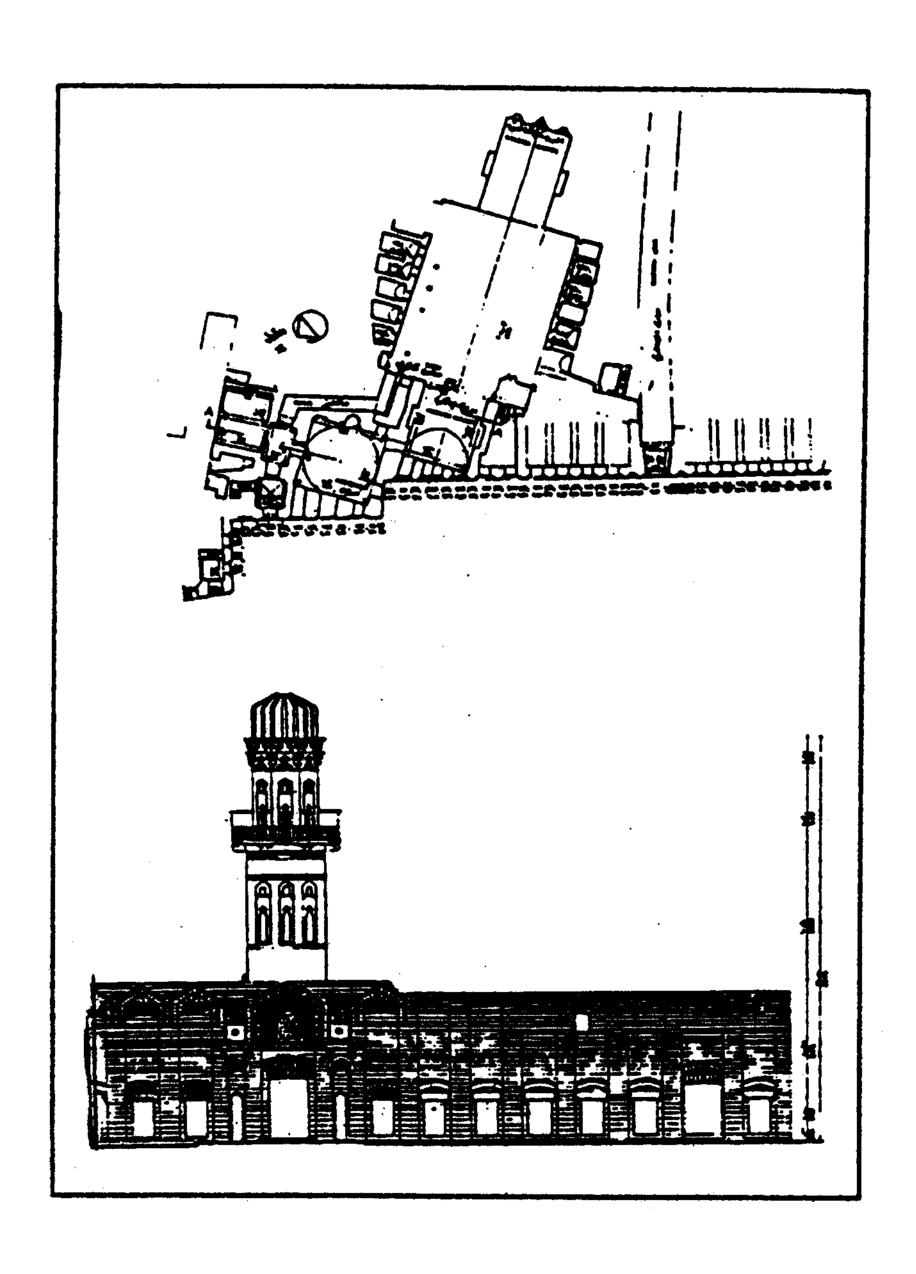
المدرسة الصالحية:

تقع بشارع المعز لدين الله بحى الصاغة بالقاهرة، أنشأها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، فوق جزء من القصر الفاطمى الشرقى الكبير، ورتب فيها دروسا للمذاهب الأربعة فى سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م وفقا لما رواه المقريزى الذى أشار إلى هذه المدرسة بقوله هذه «المدرسة بخط ما بين القصرين من القاهرة، وكان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقى، فبنى فيه الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر هاتين المدرستين، فابتدأ بهدم موضع هذه المدارس فى قطعة من القصر فى ثالث عشر ذى الحجة سنة ٦٣٩هـ (١٤ يونيو ١٢٤٢م) ودك أساس المدارس فى رابع عشر ربيع الآخر سنة ٦٤٠ هـ (١١ سبتمبر ١٢٤٢ م)،ورتب فيها دروسا أربعة للفقهاء المتمين إلى المذاهب الأربعة فى سنة ٦٤١هـ (١٢٤٣م)، وهو أول من عمل بديار مصر دروسا أربعة فى مكان، ودخل فى هذه المدارس باب القصر المعروف بباب الزهومة، وموضعه قاعة شيخ الحنابلة، ثم اختط ما وراء هذه المدارس فى سنة بضع وخمسين وستمائة (١٢٥٢م)، وجعل حكر ذلك للمدرسة الصالحية...». كما أشار إلى التنسيق الداخلى لهذه المدرسة فى موضع آخر فذكر أن «المدارس الصالحية النجمية أقيمت فى موضع القصر الشرقى الكبير وان بابها تجاه الصاغة، يجد السالك اليه عن يمينه المدرسة الصالحية التى للحنفية والحنابلة، وعن يساره المدرسة

الصالحية التى للشافعية والمالك»، وذلك على النقيض مما جاء فى خطط على مبارك الذى أشار إلى المحتوى الداخلى لهذه المدارس بقوله «. . . من داخل بابها الكبير بابان متقابلان أحدهما يوصل إلى محل الحنابلة والشافعية، والآخر إلى محل المالكية والحنفية، وكانت تسمى المدارس الأربع»، وأن هذه المدارس هى جامع «مقام الشعائر وبه خطبة».

ومن الواضح أن على مبارك أخطأ فى تحديد محل المدارس الصالحية حين جعل الحنابلة والشافعية فى بناء، والمالكية والحنفية فى بناء آخر، إذ يتناقض هذا التوزيع مع ما ذكره المقريزى الذى نص صراحة على أن موضع المدرسة المالكية كان فى الموضع الذى يقوم فيه قبة السلطان الملك الصالح أى فى الركن الشمالى الغربى، كما ذكر أن المدرسة المالكية كانت فى قسم واحد مع المدرسة الشافعية، أى أن الأخيرة كانت جهة القبلة فى الركن الشمالى الشرقى، وعلى ذلك يكون موضع المدرستين المخصصتين للمذهب الحنفى والمذهب الحنبلى فى القسم المقابل أى الجنوبى، يؤيد ذلك ما ذكره المقريزى الذى أشار إلى أن باب القصر الشرقى المعروف بالزهومة كان فى موضع قاعة شيخ الحنابلة، وهو باب كان يطل على شارع بين القصرين فى امتداد واجهة المدارس الغربية، أى أن موضع المدرسة الحنبلية كان يشغل الركن الجنوبى المتصل بالجدار الغربى، ولما كانت المدرسة الحنفية فى قسم واحد معها، فيكون موضعها فى الركن الجنوبى الشرقى.

ويستشف من الروايات التاريخية المعاصرة أن السلطان الصالح بعد فراغه من عمارة هذه المدرسة أو بالأحرى المدارس الأربع «ندم وتمنى لو أنه شيد مكانها جامعا يرتب فيه الدروس الأربعة التى رتبها فى المدرسة» ويفهم كذلك من هذه الروايات أن هذه المدارس ظلت تقوم بوظيفتها حتى عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م عندما أمر السلطان المملوكى عز الدين أيبك بتحويلها إلى دار للعدل وأنها صارت محلا لجلوس نائب السلطنة مع أعوانه من نواب دار العدل، بيد أن الأمر لم يستمر طويلا، وسرعان ما أعاد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى المدرسة إلى حالتها الأولى فى سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م، وأوقف عليها الصاغة التى تجاهها وبعض الأوقاف والعقارات والأراضى.



شكل (٤٢)

مسقط أفقي وقطاع رأسي لبقايا مدرسة وقبة الصالح نجم الدين

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

وتشير المصادر التاريخية كذلك إلى قيام الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك بتحويل هذه المدرسة إلى مسجد جامع، حيث استصدر مرسوما من السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٩ م، بإقامة الخطبة فيها، ونصب منبرا بالإيوان الشرقى من القسم الأيسر أى المخصص للشافعية، وعين له خطيبا وإماما ومؤذنا، وأوقف عليه أوقافا جارية، وقد استمرت الخطبة به حتى أيام المقريزى فى منتصف القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى، بل ربما إلى مطلع القرن الحادى عشر الهجرى/ السابع عشر الميلادى ليتم تحويل المدرسة الصالحية من جديد إلى محكمة خاصة بالمذاهب الأربعة، ثم شيدت بعد ذلك دارا خاصة بجوارها انتقل إليها القاضى وأعوانه، لتعود المدارس الصالحية مرة ثانية إلى وظيفتها كمسجد جامع كما كانت فى أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ويبدو أنها استمرت كذلك حتى أيام على مبارك فى القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى بدليل أنه عند إشارته إليها يقول: «جامع الصالح أيوب بشارع النحاسين تجاه الصاغة على يسار الداخل من باب حارة الصالحية إلى خان الخليلى، وهو مقام الشعائر وبه خطبة، وكان إنشاؤه أولا مدرسة عرفت بالمدرسة الصالحية»، كما أضاف أيضا أنه «دخل بعض هذه المدرسة فى الدور المملوكية. . .».

والحق أن استغلال منشآت هذه المدارس فى غير أغراضها قد أفضى إلى خرابها واندراس أغلب مبانيها خاصة القسم الأيمن منها أى الجنوبى، الذى كان يضم مدرسة الحنابلة، ومدرسة الحنفية، الذى تحول إلى أكوام من التراب والحجارة فى عام ١٩٠٢ م، ثم اختفى تماما فى الوقت الحالى وأقيمت مكانه مبان حديثة، ولم يتبق سوى الواجهة الغربية الرئيسية لهذه المدارس التى تطل على شارع المعز لدين الله، والمدخل الذى يتوسطها وكان يفضى إلى داخل هذه المدارس، والمئذنة التى تعلوه بالإضافة إلى بعض الأجزاء الداخلية من القسم الشمالى، خاصة الإيوان الغربى الذى كان مخصصا للمالكية، وبعض جدران الإيوان الشرقى المقابل له، الذى كان مخصصا للشافعية. كما كشفت الحفائر البسيطة التى قامت بها

مصلحة الآثار فى صحن هاتين المدرستين فى أوائل القرن ١٤ هـ / ٢٠م عن العثور على بعض قواعد متفرقة لأعمدة كانت ضمن عناصر هذه المدرسة.

كذلك قامت مصلحة الآثار بمحاولة إعادة بناء القبو الذى كان يسقف إيوان المدرسة الشافعية وتهدم تماما، بيد أن أعمال البناء فيه توقفت ولم تتم. كما اهتمت أيضا بعمل رسوم تخطيطية ومساقط أفقية وقطاعات لمبانى هذه المدرسة، شأنها فى ذلك شأن العديد من علماء الآثار الإسلامية مثل فان برشم، وماكس هرتز، وريشموند، وكريسويل، وأحمد فكرى، الذى حاول كل منهم تفسير وصف المقريزى لمحتويات هذه المدرسة من الداخل حسب فهمه الشخصى لوصف هذا المؤرخ. ومع ذلك فسوف تظل نظرية كريسويل هى الأقرب إلى الصواب والمنطق، رغم الانتقادات التى وجهت إليها، حتى يتم عمل حفائر فعلية فى موقع المدرسة، علها تكشف لنا عن التخطيط الأساسى لها، الذى يرى كريسويل أنه كان يتألف من مدرستين مستقلتين، يفصل بينهما ممر طويل، وأن كل مدرسة كانت تشتمل على إيوانين متقابلين يفصل بينهما صحن أوسط مكشوف، الأولى فى الناحية الجنوبية وتضم إيوانا للحنابلة وآخر للحنفية، والثانية فى الجهة الجنوبية وتضم إيوانا للمالكية ، وآخر للشافعية، كما أضاف محمد رمزى أن هذه المدرسة كانت مشيدة على مساحة لا تقل عن ستة آلاف متر مربع، وأن الممر الفاصل بين المدرستين المعروف حاليا بحارة الصالحية كان مزودا بفتحة مدخل كان يغلق عليها باب حديدى، أزيل فى سنة ١٣١٥ هـ/ ١٨٩٧م.

والمتأمل لبقايا هذه المدرسة سوف يلاحظ بوضوح أن واجهتها الرئيسية أى الغربية مشيدة من حجارة مصقولة وتمتد إلى مسافة تزيد على خمسة وسبعين مترا، تنقسم إلى ثلاثة أقسام رأسية عظمى، تضم عشرين حنية رأسية، تشغل ثلاث منها القسم الأوسط أى كتلة المدخل، وثمان بالقسم الأيمن أى الجنوبى، وتسع بالقسم الأوسط أى الشمالى، هذا ويصل ارتفاع القسم الأوسط اثنى عشر مترا، أما القسمان الشمالى والجنوبى فيقل ارتفاعهما عن ذلك حوالى نصف متر تقريبا، وذلك فيما عدا الشراريف التى كانت تمتد أعلى هذه الواجهة وكان يبلغ ارتفاع الواحدة منها نصف متر تقريبا.

هذا ويلاحظ أن القسم الجنوبى الغربى من الواجهة يمتد إلى مسافة تقرب من ٣٣,٥ مترا ويشتمل كما سبق أن نوهنا على ثمان دخلات رأسية بها شبابيك ذات عقود مستقيمة معشقة باتقان بالغ. تعلوها عقود عاتقة، الشباك السابع منها أكثر اتساعا وارتفاعا، ويطل على إيوان الحنابلة بالمدرسة الجنوبية، وجدير بالذكر أن جزء كبيرا من هذا القسم مغطى حاليا بعدد من المحلات التجارية الحديثة.

ويضم القسم الأوسط من الواجهة كتلة المدخل التى تمتد إلى مسافة ثمانية عشر مترا يشغلها ثلاث دخلات أو حنايا رأسية، تحتل الوسطى منها بوابة عظيمة يعلوها طاقة صماء على شكل محارة ضخمة تضم خمسة صفوف من المقرنصات محصورة دخل عقد منكسر، يتوسطها لوحة منقوشة داخل عقد آخر منكسر، بالخط النسخ الأيوبى نصها «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه المدارس المباركة مولانا السلطان الأعظم الملك الصالح نجم الدنيا والدين أبو الفتح أيوب خليل أمير المؤمنين أعز الله نصره فى سنة إحدى وأربعين وستمائة (١٢٤٣م)»، ويكتنف هذه المحارة على كلا الجانبين دخلة مستطيلة بها زخارف مقرنصة ووريدة متعددة الشحمات ويعلوها شريط به كتابات كوفية بارزة نصها «لا إله إلا الله». ويلى هذه الطاقة إلى أسفل إزار طويل من كتابات نسخية بارزة نصها «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الأعظم الملك الصالح سلطان الإسلام والمسلمين نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ناصر الدين أبي المعالى بن محمد بن أبى بكر بن أيوب سنة إحدى وأربعين وستمائة (١٢٤٣م)».

ويوجد أسفل هذا الطراز فتحة مدخل تقرب من ثلاثة أمتار، وارتفاعها أربعة أمتار، ويعلوها عقد مستقيم يتألف من خمس عشرة صنجة معشقة، يعلوها عقد عاتق يتألف بدوره من خمس عشرة صنجة أخرى مستطيلة غير معشقة ظاهريا، يزين كل منها وريدة متعددة الشحمات، يحيط به إطار زخرفى به نقوش نباتية محفورة حفرا بارزا. ويوجد على جانبى فتحة المدخل، حنية مجوفة أشبه بالمحراب، يعلوها دخلة صماء معقودة بعقد منكسر ذى زخارف مشعة، يرتكز على عمودين لهما قطاع مثمن الشكل.

أما القسم الثالث من الواجهة أى الأيسر أو الشمالى الغربى فيبدو أطول من القسم الأيمن، أى الجنوبى الغربى، إذ يبلغ طوله ثمانية وثلاثون مترا، يشغلها تسع دخلات أو حنايا رأسية كما سبق ذكره، يعلو الثلاث الأولى منها على يسار المدخل عقود منكسرة ذات زخارف مشعة، يتوسطها جامات مفصصة، كما فتح بكل دخلة من الدخلات التسع، شباك مستطيل يعلوه عقد مستقيم من صنج معشقة يرتفع فوقه عقد عاتق، يتألف بدوره من صنج معشقة، ويحيط بكلا العقدين إطار زخرفى من نقوش نباتية محفورة حفرا بارزا، كما جاء الشباك الثامن أكثر ارتفاعا واتساعا لأنه يشرف على إيوان المالكية، ونقش فى نفيس عقده عبارة بخط النسخ الأيوبى نصها «اللهم أدم دولة مولانا السلطان الملك الصالح».

ويقوم فوق مدخل هذه المدرسة مئذنة يبلغ ارتفاعها من سطح الأرض اثنان وثلاثون مترا، وهى مشيدة من الآجر وتتألف من ثلاثة طوابق: الأول الذى يعلو فتحة المدخل مباشرة مكعب مجوف طول ضلعه خمسة أمتار وارتفاعه عشرة أمتار ونصف، يزين كل ضلع من أضلاعة ثلاث حنيات معقودة بعقد منكسر ذى زخارف مشعة، وبداخل كل حنية محراب يعلوه عقد مفصص، فتح العقد الأوسط منها فى الضلع الغربى المطل على الطريق لإضاءة وتهوية سلم المئذنة. ويلتف حول المكعب من الداخل سلم حلزونى من الخشب يفضى إلى الطابق الثانى وهو مثمن الأضلاع، قطره أربعة أمتار ونصف، يزين كل ضلع من أضلاعه دخلة صماء معقودة بعقد منكسر تقوم فوق فتحة مستطيلة يعلوها عقد مفصص، تفضى إلى دهليز ممر يقف فيه المؤذن للأذان، كما يلتف حول هذا الطابق شرفة خشبية ترتكز على كوابيل من نفس المادة. ويرتفع فوق هذا المثمن الطابق الثالث الذى يصل ارتفاعة إلى ستة أمتار ونصف المتر، وهو عبارة عن مبخرة المئذنة أو طاقيتها التى تنتهى بقبة مضلعة ذات قطاع منكسر، تقوم فوق صفين من المقرنصات ذات دلايات.

أما فيما يتعلق ببقايا منشآت المدرسة من الداخل فإن البوابة التى تتوسط كتلة المدخل تفضى إلى ممر أو دهليز يعرف حاليا بحارة الصالحية يعلوه سقف خشبى

«نقى فساقى» أى مكون من قصع أو أحقاق مثمنة كانت مجلدة فى بادئ الأمر بالتذهيب والألوان، بيد أنه يبدو فى حالة سيئة للغاية فى الوقت الحاضر. هذا الممر كان مزودا ببابين يفضى الأيمن منهما إلى المدرسة الجنوبية التى كانت مخصصة لكل من الحنابلة والحنفية واندرست تماما كما نوهنا من قبل ولم يتبق منها سوى الباب الأيسر الذى يؤدى إلى داخل المدرسة الشمالية التى كانت مخصصة للمالكية والشافعية، والمتبقى منها يشكل بقايا إيوانين يفصل بينهما صحن أوسط مكشوف، الإيوان الشرقى كان مخصصا للشافعية، وهو مستطيل الشكل، طوله خمسة عشر مترا، وعرضه عشرة أمتار، ويتصدر جداره الشرقى ثلاثة محاريب مجوفة، كما يوجد بوسط جداريه الشمالى والجنوبى تجويف مستطيل الشكل، وكان يسقفه قبو مدبب من الآجر يصل ارتفاعه إلى ما يقرب من ثلاثة عشر مترا، وقطر فتحته حوالى عشرة أمتار تقريبا، وهو متهدم فى الوقت الحالى نتيجة سقوط أحد المنازل المجاورة علية فى عام ١٩٧٥ م، ويبدو أشبه بتل ضخم من الأنقاض، يطل على صحن سماوى مكشوف مستطيل الشكل، يبلغ طوله ثمانية وعشرين مترا وعرضه حوالى واحدا وعشرين مترا، كان يكتنفه من شمال وجنوب رواق يطل عليه بواسطة بائكة من ثمانية عقود تقوم على تسعة أعمدة، أقيم فى مؤخرتها غرف سكنية لايواء طلاب هذه المدرسة.

ويفتح على هذا الصحن من جهة الغرب، الإيوان المخصص للمالكية، وهو أصغر حجما من إيوان الشافعية الشرقى المقابل له، إذ يبلغ طوله أحد عشر مترا ونصف المتر، وعرضه حوالى تسعة أمتار ونصف المتر، فتح فى جداره الغربى ثلاث نوافذ تطل على شارع المعز لدين الله، وتقابل المحاريب الثلاثة بالإيوان الشرقى، أكثرها اتساعا النافذة الوسطى، كما فتحت نافذة رابعة بهذا الإيوان فى الركن الشمالى الغربى يغطيها مصبعات برونزية تطل على قبة السلطان الصالح التى شيدتها له زوجتة شجر الدر فى عام ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠م كما سوف نرى فيما بعد. وهذا الإيوان مغطى بدوره بقبو مدبب من الآجر يصل ارتفاعة إلى ما يقرب من اثنى عشر مترا ونصف ويتدلى من قمته بضع سلاسل حديدية كانت تستخدم

لتعليق وسائل الإضاءة، ويشغله فى الوقت الحالى مصلى يغطيه سقف خشبى حديث.

بقى أن نشير فى نهاية حديثنا عن المدارس الصالحية إلى أن السلطان الصالح استعان بأسرى الفرنج فى بناء هذه المدرسة فقد روى المقريزى ما نصه: «أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب أسر كثيرا من الفرنجة وأنه سخرهم فى بناء قلعة الروضة وبناء المدرسة الصالحية».

(ب) القباب:

استخدمت القبة فى أول الأمر لتمييز بعض البقاع التى تحتل فى نفوس المسلمين مكانة سامية كصخرة بيت المقدس التى يقال أن النبى ﷺ عرج منها إلى السماء ليلة الاسراء، فشيد عليها الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان تلك القبة العظيمة المعروفة بقبة الصخرة فى عام ٧٢ هـ / ٦٩١ م وبذلك صارت أقدم قبة إسلامية وصلتنا. وقد كان من الطبيعى أن يتطور الأمر من تكريم البقاع المقدسة إلى تكريم القبور التى تضم رفات بعض الشخصيات البارزة سياسيا أو دينيا فشيدت فوقها القباب تميزا لها كالقبة البرمكية التى أقامها الخليفة الرشيد فوق قبر أم الفضل بن يحيى فى أواخر القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى، والقبة التى أقامها الخليفة المأمون فى أوائل القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى فوق قبر كل من الرشيد وعلى بن موسى الرضا، وكالقبة الصليبية التى أقامتها أم الخليفة العباسي المنتصر فى مدينة سامراء بالعراق ليدفن فيها ابنها بعد وفاته فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٤٨ هـ / يونيو ٨٦٢م، والتى أصبحت أقدم مثل باق لمدفن يعلوه قبة فى العالم الإسلامى.

وعرفت مصر الإسلامية أيضا إقامة القباب فوق المدفن منذ منتصف القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى، فقد روت المصادر التاريخية أنه كان بمقابر الصدفيين بالقرافة، أربعمائة قبة، والليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م أوسطها. ومع ذلك فإن مشهد آل طباطبا بعين الصيرة الذى شيد فى العصر الإخشيدى فى سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥م يعد أقدم مثال لهذا النوع من العمائر

الدينية، يلية القباب السبع بعزبة خير الله جنوب الفسطاط، التى تنسب إلى العصر الفاطمى فى سنة ٤٠٠ هـ-١٠١٠/ م، ذلك العصر الذى شهد إقامة الكثير من المدافن ذات القباب، خاصة فوق قبور آل البيت التى عرفت بالمشاهد.

وورث العصر الأيوبى ظاهرة تغطية المدافن بقباب عن العصر الفاطمى، وان اختلفت مناطق الانتقال فى قباب العصر الأيوبى عنها فى قباب العصر الفاطمى حيث استبدلت المثلثات الكروية والحنايا الركنية البسيطة بعدد أكبر من الحنايا الركنية المركبة التى وزعت على ثلاثة صفوف بدلا من صفين، كما استبدلت عقود الحنايا المدببة بعقود منكسرة، واتصلت حنايا مناطق الانتقال بفتحات الشبابيك، بعد أن كان كل منهما مستقلا تماما عن الآخر، كما سوف يتضح لنا من خلال تناولنا لأهم قباب العصر الأيوبى التى بقيت رغم عوادى الزمن كقبة الإمام الشافعى، وقبة الخلفاء العباسيين، وقبة الصالح نجم الدين أيوب، وقبة شجر الدر.

قبة الإمام الشافعى:

تقع هذه القبة بشارع الإمام الشافعى بالقرافة الصغرى، وكانت فى الأصل تربة لأولاد ابن الحكم دفن بها الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن سائب الشافعى بعد وفاته فى سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م؛ لذا عنى بها صلاح الدين بعد توليه السلطنة لانتمائه إلى المذهب الشافعى، بل وشيد مدرسة لتدريس هذا المذهب بجوارها فرغ منها فى رمضان سنة ٥٧٥ هـ / يناير ١١٨٠م ثم جاء السلطان الملك الكامل وبنى قبة كبيرة على هذا القبر قبل أن يلى السلطنة فى جمادى الآخرة سنة ٦٠٨ هـ / نوفمبر ١٢١١ م، ووصل إليها المياه من بركة الحبش بواسطة قناطر، وأنفق عليها خمسين ألف دينار، وذلك بعد وفاة أمه ودفنها بمقبرة الإمام الشافعى، ومع ذلك فقد أشارت بعض الرويات التاريخية إلى أن أم السلطان الكامل هى التى أمرت بتشييد هذه القبة وكتبت اسم الكامل عليها، وأنه «لم تعمر فى الدنيا قبة مثلها».

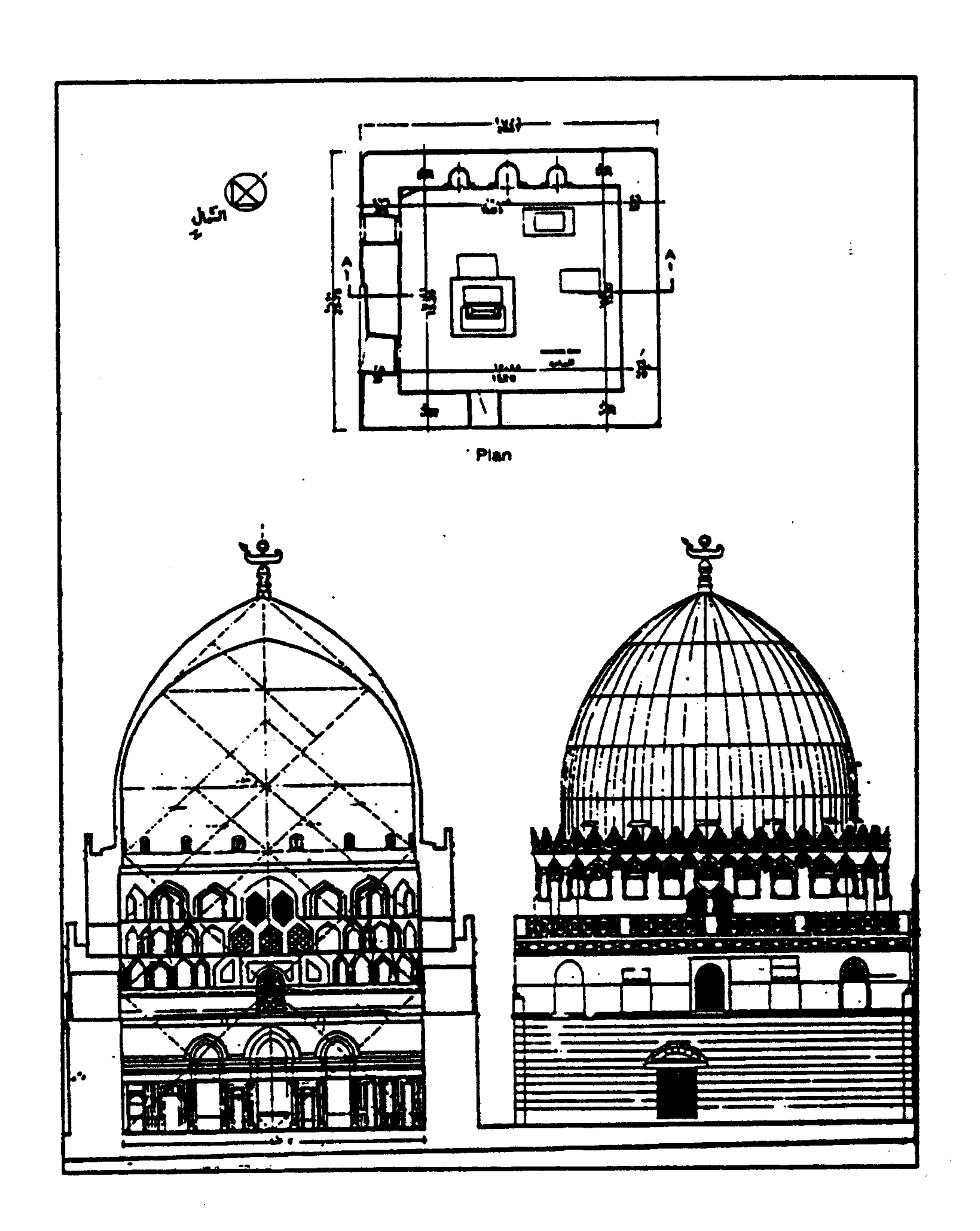
وهى تشكل بناء مربعا طول ضلعه من الخارج عشرون مترا، يتألف من ثلاثة طوابق رئيسية، الطابق السفلى يبلغ ارتفاعه ١٠,٦٢ مترا وهو مشيد من

الحجر وفتحت فى كل واجهة من واجهاته الأربع نافذة وسطى يحيط بها من كل جانب حنيتان معقودتان، وتعلوه شرفة من الآجر يبلغ ارتفاعها حوالى متر تقريبا، يزينها زخارف هندسية مجدولة ومفرغة يقطعها دعمات من الآجر المغشى بالجص، غطيت بزخارف متنوعة تضم كتابات متداخلة نقشت على مهاد نباتية، وعناصر هندسية وزخارف نباتية مفرغة أو شبه مفرغة نسقت جميعا تنسيقا متوازنا بديعا، يعكس لنا تأثيرا مغربيا أندلسيا، يذكرنا بزخارف قصر الجعفرية فى مدينة سرقسطة بالأندلس.

ويشكل الطابق الثانى مثمنا بارتفاع ٦,١٦ مترا، يرتد إلى الداخل فوق الطابق الأرضى بمقدار ثلاثة أرباع متر تقريبا بحيث ينشأ عن ذلك ممر يلتف حوله، ويزين أضلاع هذا المثمن حنيات صماء يعلوها عقود منكسرة ترتكز على زوج من الأعمدة المندمجة، ويتخللها جامات ومعينات على التوالى تزدحم بوريدات وزخارف نباتية، وينتهى هذا الطابق بصف من الشرافات المدرجة.

ويعلو هذا الطابق قبة ذات قطاع مدبب مشيدة من الخشب ومكسية بألواح من الرصاص، فتح برقبتها ست عشرة نافذة لإضاءة داخل القبة وتهويتها، يعلو قمتها هلال مثبت به عشارى من النحاس يبلغ طوله مترين، تتدلى من سلسلة حديدية، يقال انها أعدت ليتسلقها من يريد الوصول إلى هذا المركب، وقد تضاربت الأراء بصدد الغرض من هذا العشارى، فقيل إنه أعد لكى يوضع به نصف إردب من الحبوب لإطعام الطيور، وقيل أنه وضع رمزا لما عرف عن الأمام الشافعى من علم غزير كأنه البحر الزاخر، وظن بعض الناس أنه ربما كانت هناك صلة بينه وبين مركب آمون التى لا تزال يحتفل بها حتى الآن فى مدينة الأقصر فى مولد أبى الحجاج، وأغلب الظن أن هذا الرأى الأخير بعيد الاحتمال لانقطاع الصلة بين تاريخنا الإسلامى وتاريخنا الفرعونى كما أن مركب أبى الحجاج ليست فوق قبته ولكنها موضوعة فى الداخل.

أما أنها أعدت لكى يوضع بها الحبوب لتغذية الطيور فأمر غير مقبول لصعوبة التسلق إليها فى يسر. وأما أنها رمز لعلم الشافعى وسعة اطلاعه فهو



شكل (٤٣)

مسقط أفقي وقطاع رأسي لقبة الإمام الشافعي

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

أقرب الآراء إلى المنطق لانه بحر العلوم، إذ يصفها الإمام البوصيرى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥م بقوله:

بقبة قبر الشافعى سفينة
رست فى بناء محكم فوق جلمود
ومذ غاض طوفان العلوم بقبره
استوى الفلك من ذاك الضريح على الجودى

ويتوصل إلى داخل القبة عن طريق مدخل وحيد بالجهة الشمالية الشرقية، يبلغ اتساعه ١,٥٨م، يفضى إلى ممر قصير نتج عن سمك جدران المبنى الذى يصل إلى ٢,٧٦ مترا، كسيت أرضيته بالزيلج المغربى، ويغلق عليه بابان، أحدهما خارجى حديث نسبيا، له مصرعان مصفحان بالفضة، والآخر داخلى يتألف بدوره من مصراعين، يشتمل وجههما المطل على القبة من حشوات مجمعة يعلوها نقوش نباتية وهندسية، يحدها من أعلى وأسفل أبيات شعرية واسم الإمام الشافعى وتاريخ «لسبع خلون من جمادى الأولى من سنة ثمان وستمائة (١٧ أكتوبر ١٢١١ م)».

ويؤدى هذا المدخل إلى داخل القبة وهى ذات تخطيط مربع، طول ضلعه خمسة عشر مترا، فتح بها نافذتان تتوسط أحداهما الجدار الغربى للقبة ويعلوها جلسة عميقة بسمك جدران المبنى، يغطيها سقف خشبى يتألف من قصع أو أحقاق مثمنة، يعد أقدم الأمثلة فى عمارة مصر الإسلامية، ويغطى فتحة النافذة مصبعات حديدية، يحيط بها إطار خشبى (برور) ويعلوها من الخارج عقد مستقيم من الخشب، نقش عليه نصا تاريخيا بخط النسخ الأيوبى نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه القبة المباركة مولانا السلطان الملك الكامل محمد بن مولانا السلطان الملك العادل أبى بكر/ بن أيوب خليل أمير المؤمنين خلد الله ملكه وذلك يوم الأحد لسبع خلون من جمادى الأولى سنة ثمان وستمائة... الله... (١٧ أكتوبر ١٢١١ م)»، يعلوه عقد عاتق من صنجات معشقة، ويفهم من كريسويل أن

هـذه النافذة حلت محل الباب الرئيسى للـقبة الذى كان يشغل منتصف هذا الجدار فى أيام السلـطان الكامل. أمـا النافذة الـثانية فـتشغل الطـرف الغربى من الجدار الشمالى، وكانت فى الأصل بمثابـة المنزل المفضى إلى المقابر الموجودة أسفل القبة. كما فـتح بجدار القبلة ثلاثة محـاريب مجوفة، أكبرها المحراب الأوسط الذى كان يقع على محور المدخل الأصـلى للقبة وسط الجدار الغـربى، وهو مغشى بالرخام المتعـدد الألوان ويستند عقده على عمودين صغيرين من الرخام أيضا، أضيف إليها محراب رابع فى الزاوية الجنوبية الشرقية فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميـلادى فى أيام السلطان الأشرف قايـتباى لتصحيح اتجـاه القبلة. ويغشى جدران قاعـة القبة وزرات رخامـية متعددة الألـوان إلى ارتفاع ٢,٧٠ متر، يـعلوها إطار خشبى، عرضه حوالى نـصف متر، يزينه زخارف نباتية وهندسية تنسب إلى عصر الإنـشاء فى أيام السلطان المـلك الكامل،يعلوه شـريط به زخارف مرسومة بالطلاء يبلغ عرضه ستون سنتيمتر عليه أبيات من الشعر باللون الذهبى على أرضية سوداء محصورة داخل بحور، ترجع إلى أعمال على بك الكبير بالقبة، يعلوه شريط آخر عريض، فشريط رابع ضيق، يـليه إفريز خشبى آخر، يعلـوه كتابات كوفية باللون الذهبى على أرضيـة حمراء ينسب بدوره إلى على بك الكبير. ويحيط بأعلى قاعة القبة إطار خـشبى مثمن يزينه كتـابات كوفية مورقة، كان يسـتخدم لتعليق وسائل الإضاءة.

ويغطى هذه القاعة قبة خشبية كما سبق أن نوهنا من قبل يبلغ ارتفاعها سبعة وعشرون مترا فوق سطح الأرض، وهى تقوم على مناطق انتقال خشبية تتألف من ثلاثة صفوف من الحـنايا الركنية يـعلوها عقود منـكسرة، يضم الصف الأول منها خمس حنايا، والثانى سـبع حنايا، والثالث العلوى ثلاث حـنايا فقط، يقوم بينها أربع مـجموعات من النـوافذ، تتألف كـل مجموعة من خـمس فتحات، ثلاث، يعلوها اثنتان، كـانت مغشاة جميعا بـستائر جصية مفـرغة، جدد أغلبها فى عهد الخديو توفيق سنة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٦م.

هـذا وتضم قاعـة القـبة أربع تراكـيب خشـبية، أهـمهـا تحمل اسم الإمام الشافعى، وهى مصـنوعة من خشب الـساج الهندى، وهى عـلى شكل منشورى

مستطيل الشكل يعلوه جزء هرمى، تتألف جوانبها الأربعة من حشوات هندسية متعددة الأضلاع تشكل أشكالا نجمية ومثلثات يزينها زخارف نباتية دقيقة تضم أوراقا ثلاثية تنبثق من أغصان متموجة محفورة حفرا بارزا يحيط بها أحيانا زخارف هندسية أو كتابات عربية منقوشة بالخط الكوفى وخط النسخ الأيوبى، تتضمن الكتابات الكوفية منها أربعة أسطر تشير إلى قبر الإمام الشافعى وتاريخ وفاته، على حين تتضمن الكتابات النسخية نصا يشير إلى اسم الصانع «عبيد النجار المعروف بابن معالى» وتاريخ صناعة التركيبة فى شهور سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨م، ولعل هذا الصانع هو أحد أفراد أسرة سليمان بن معالى الذى اشترك فى صناعة منبر الجامع الأقصى الذى صنع بالحلوية فى مدينة حلب بأمر من نور الدين محمود بن زنكى فى سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨م. وبالقبة أيضا تركيبة أخرى تعلو قبر أم السلطان الملك الكامل تتألف من أربعة جوانب تضم حشوات متعددة الأضلاع تزدان بزخارف نباتية دقيقة تشبة حشوات تركيبة الإمام الشافعى وتضم مثلها أشكالا نجمية وزخارف هندسية بها نقوش نباتية دقيقة وكتابات نسخية أيوبية تشير إلى «قبر السيدة الشهيدة المرحومة الفقيرة إلى رحمة ربها والدة الفقير إلى رحمة ربه محمد ولد مولانا السلطان الملك العادل... توفيت إلى رحمة ربها ورضوانه قبل الفجر من الليلة صبحها يوم الأحد الخامس والعشرين من صفر سنة ثمان وستمائة (٩ اغسطس ١٢١١م)».

وتضم القبة كذلك تركيبتين أخريين إحداهما تعلو قبر السطان الكامل، يحيط بها مقصورة مطعمة بالصدف، والثانية تعلو قبر أسرة الفقية عبد الحكم التى استضافت الإمام الشافعى عند قدومه إلى مصر، وكلاهما غفل من الزخرفة.

بقى أن نشير فى إيجاز إلى أهم أعمال الصيانة والتجديدات التى شهدتها هذه القبة على مر السنين فقد روى المؤرخ ابن إياس أن السلطان الأشرف قايتباى «أمر فى رمضان سنة ٨٨٥ هـ/ نوفمبر ١٤٨٠ م بتجديد عمارة قبة الإمام الشافعى... وكان الشاهد على عمارتها الخواجا شمس الدين بن الزمن». كما أضاف السخاوى فى ترجمته لابن الزمن أنه «عمر قبة الإمام الشافعى وجدد رخامها وزخرفتها» ويرجح أيضا أنه قام بتجديد مناطق الانتقال الخشبية، وأضاف

المحـراب الرابع لتصحـيح اتجاه القبلـة بدليل ذلك النقش الـذى يعلو هذا المحراب الجديـد ونصه «أمر بتجديـد هذه القبة المـباركة مولانا السـلطان الملك الأشرف أبو النصـر قايتباى عز نصره وكان الفراغ من ذلك فى شهر جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين وثمانماية من الهجرة النبوية الشريفة(أغسطس ١٤٨٠م)».

وبالقبة نص آخر على الجدار الشمالى الغربى على يمين النافذة يشير إلى قيام السلطـان قانصوه الغورى (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦م) بـتجديد المبنى نصه «أمر بتـجديد هذه القبة المـباركة السلطان المـلك الأشرف قانصوه الغورى عز نصره».

ويفهم أيضا من عبد الرحمن الجبرتى أن على بك الكبير قام فى سنة ١١٨٦ هـ/ ١٧٧٢م بإزالة الرصاص المـغطى لخشب القبة الذى عمله السلطان الكامل لان الخشب تحته كان قد تآكل ووضع بدله خـشبا ثم غطى الخشب بصفائح جديدة من الرصاص وثبتها فى الخشب بواسطة مـسامير كبيرة، كما أصلح الزخارف الداخلية بطلاءات متـعددة الألوان أهـمها الـلون الذهبـى واللاذورد، وقد دون تاريخ هذه العمـارة على مربع القبة بما نصه: «أمر بتجديـد هذه القبة المباركة على التخصيص وتشيـيد أفنان وضعـها بفنون الـنقش والترصـيص عزيز مصر وحـاكمها من ثبت أحكامه فى أقاليـمها ومعالمها المـتوكل على الله مولانا القـائم فى الرعاية بما يحبه ويرضاه على الاسم والقدر والجاه الحاكم بأمر الله أيد الله بالنصر لواءه وخلد عزه وبقاءه وخذل أضداده وأعداءه وبلغه مقصده ورجاه إنه الملك اللطيف ببركة صاحب هذا المـقام الشريف وذلك فى افـتتاح سنـة ست وثمانين ومائـة وألف من الهجرة (١٧٧٢م) أدام الله عزه ونصره».

وروى الجبرتى أيـضا أن عـبد الـرحمن كتـخدا قـام فى سنة ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م بإصلاح أرضية مدخل الـقبة وكسوتها بالزيلج المغربى الذى يشبه الموجود بقصر الحمراء بغرناطة بالأندلس.

قبة الخلفاء العباسيين:

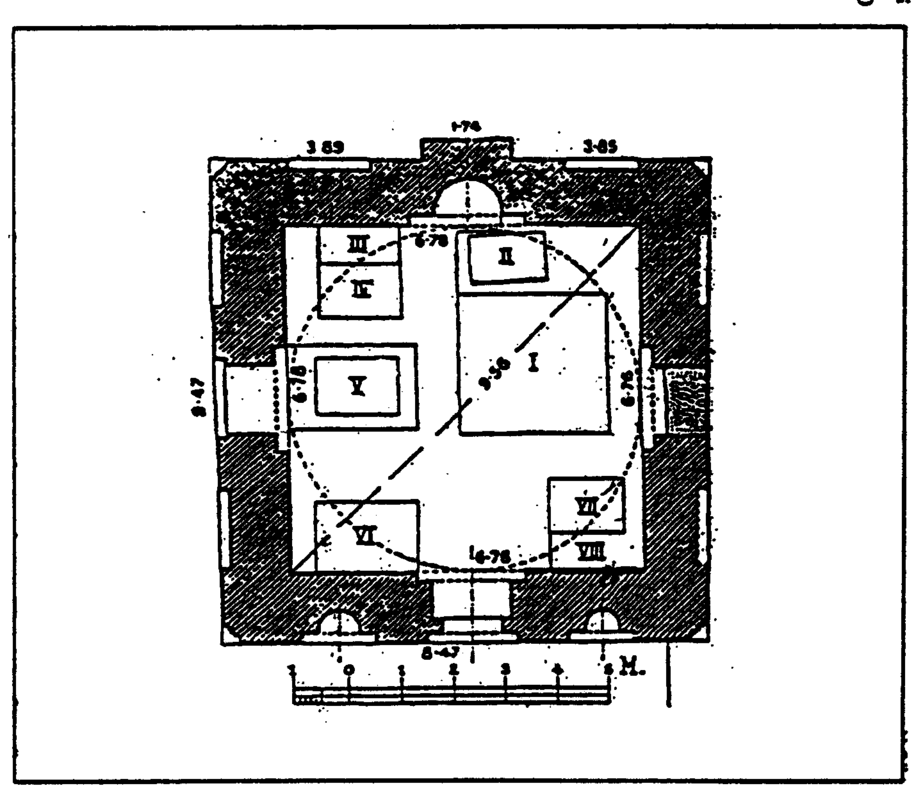
تقع خلف مشهد السيدة نفيسة بحى الخليفة، شيدها أبو نضلة هاشم بن على بن المرتضى ابن الأمير السيد العلوى الحسنى، وسفير الخلافة العباسية إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، قبل وفاته فى ربيع الآخر سنة ٦٤٠ هـ / اكتوبر ١٢٤٢ م، كما يرجح عالم الآثار الإسلامية كريسويل، نظرا للتشابه الشديد بين طراز هذه القبة، وطراز قبة شجر الدر التى سوف نشير إليها فى الصفحات التالية، من حيث المساحة، والواجهات ذات الحنايا المعقودة بعقود منكسرة، وأركان مبنى القبة الخارجية المشطوفة والمزينة بصفوف من المقرنصات، وأيضا لموقع التركيبة التى تعلو قبر هذا السفير، وذلك رغم قيام بعض الباحثين بنسبة هذه القبة إلى العصر المملوكى فى أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون استنادا إلى رواية المقريزى الذى ذكر «أن الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله توفى فى جمادى الأولى سنة ٧٠١ هـ (يناير ١٣٠٢ م)، ودفن بالقرب من المشهد النفيسى» ورواية السخاوى الذى أكد «أن السلطان الناصر محمد أمر بان يدفن (هذا الخليفة) فى المشهد النفيسى، فدفن فى ضريح عليه قبة بنى خصيصا له بالقرب من المشهد النفيسى».

والقبة تشكل قاعة مربعة طول ضلعها من الخارج حوالى تسعة أمتار ونصف المتر، لها ثلاث واجهات حرة، ترتفع خمسة أمتار فوق سطح الأرض، أما الواجهة الرابعة الجنوبية فتلاصق مشهد السيدة نفيسة، وتتميز جدران القبة بسمكها الذى يصل عرضه إلى المتر والنصف المتر، يعلوها قبة لها قطاع على شكل عقد منكسر، ترتفع قمتها ثلاثة عشر مترا فوق سطح الأرض، وكانت مزودة بثلاثة مداخل محورية، بقى منهم المدخل الغربى فقط، أما المدخلان الآخرن الشمالى والجنوبى فقد تم تحويلهما فى وقت غير معلوم إلى نافذتين للإضاءة.

وبكل من الوجهات الثلاث الشمالية والشرقية والغربية حنايا يعلوها عقود منكسرة، يزينها زخارف جصية مشعة تشتمل على صفوف من المقرنصات، ويشغل تواشيحها جامات مفصصة ومعينات جصية ملئت بزخارف هندسية محفورة.

وتنفـرد الواجهة الـشرقية بـبروز خارجى يـحتوى على تجـويف المحراب، له قمة مشـطوفة، ويلاحظ أيضـا أن أركان القبة مـشطوفة من الخارج بـعرض نصف متر تقريبا ومحلاة بأربعة صفوف من المقرنصات.

ويفـضى المدخل الذى يتوسط الواجهة الغربية، إلى داخل القبة، وهى عبارة عن مساحـة مربعة طول ضـلعها الداخـلى ٦,٧٦ مترا، يتصـدر جدارها الشرقى محراب مجوف كان يكتنفة عمودان لا وجود لهما فى الوقت الحاضر، يعلوه عقد منـكسر يزينه ثلاثة صفوف من المقرنصات ويلتف حـوله شريط من كتابات كوفية نقشت فـوق أرضية من الـزخارف النبـاتية. ويحـيط بجدران القـاعة الأربعة إزار خشبى يعـلوه كتـابات نسخـية قرآنيـة من سورتى الفـتح والنور، نقـشت باللون الأبيض.



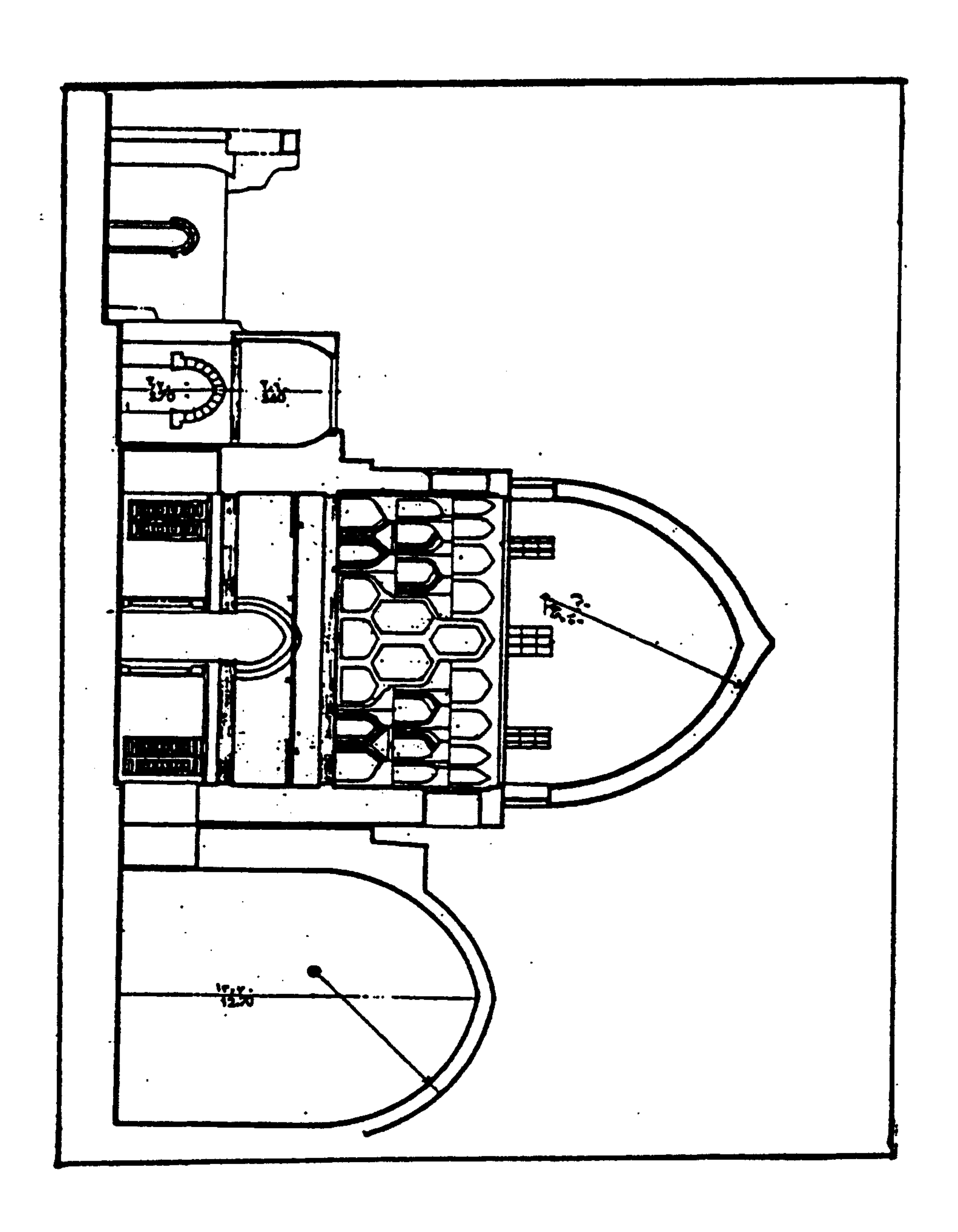
شكل (٤٤)

مسقط أفقي لقبة الخلفاء العباسيين، نقلا عن كريسويل

وتقوم القبة التى تغطى هذه القـاعة على مناطق انتقال تتألف من صفين من المقرنصات الركنية، بكل صف ثلاث حنايا معقودة بعقود منكسرة كسيت بطبقة من الجص المزين بالألوان المائية، فريسك، تضم أشكـالا هندسية ونباتية نقشت بألوان متعددة، نجد بينها الذهبى والأحمر والأخضر والأسود، تعد من الأمثلة النادرة فى العمارة الأيوبية بمصر الإسلامية، وتشبه إلى حد كبير زخارف جلود الكتب.

ويفصل مناطق الانتقـال عن بعضها نوافذ ثلاثية يغشيها ستائر جصية معشقة بزجاج ملون، جددت فى عام ١٣٣١ هـ / ١٩١٣م عـلى نمط النافذتين السفليتين بالجدار الجـنوبى. ويعلو منـاطق الانتقال رقبة أسـطوانية قصيـرة يزينها شريط من كتابـات كوفية ذات هامات مضفورة، أما خوذة القبة نفسها فقد نقشت من الداخل بتكـوينات هندسية بديعة قوامهـا جامة سداسية الفصوص، كررت ست عشرة مرة بأحجام صغيرة كلما اقتربنا من قطب القبة، ملئت بزخارف نباتية متشابكة مورقة، أرابيـسك، وحددت بأشـرطة تردحم بـوريدات وأوراق نبـاتية وأشـكال هنـدسية سـداسية الأضلاع، نـقشت بألـوان مائيـة متعـددة، فريسك، نجـد بينـها الذهبى والأحمر والأخضر والأسود.

هذا وتضم هذه الـقاعة ثمان تراكـيب، أكبرها التركـيبة التى تحمل اسم أبو نضلة سفير الخلافة الـعباسية، وهى تشغل حيزا كـبيرا من أرضية القاعة، وتتألف من قاعدة رخامية يـعلوها إطار خشبى نـقش على جوانبه الأربعة كـتابات نسخية قرآنيـة ودعائية نصها «بسم الله الرحمن الرحيم وقالو الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين/ وترى الملائكة حافين من حـول العرش يسبـحون بحمد ربـهم وقضى بينهم بـالحق وقيل الحمد لله رب العالـين / اللهم أعد بركات الـقرآن العظيم على عبـدك الفقير إلى رحمة ربه أبى نضلـة هاشم بن علي بن المرتضى ابن الأميـر السيد العلـوى الحسنى سفير الخلافة المعظمة العباسيـة شرفها الله تعالى / وعظمهـا توفى يوم الثلاثاء العاشر من ربيع الآخـر من سنة أربعين وستمـائة (سبتمبـر ١٢٤٢هـ) إلى رحمة الله تعالى إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما».



شكل (٤٥)

قطاع رأسي دخل قبة الصالح نجم الدين، نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

والتركيبة الثانية تحمل اسم خوند قمر المتوفاه سنة ٨٢٦هـ / ١٤٢٣م على حين تخلو كل من الثالثة والرابعة والسادسة من أية أسماء، فى الوقت الذى تشير فيه التركيبات الخامسة والسابعة إلى طفلين من أبناء السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى والى تاريخ وفاة كل منهما، الأول يدعى أنس بى؟ توفى فى سابع ذى الحجة سنة ٦٦٤هـ / ٩ سبتمبر ١٢٦٦ م والثانى يدعى عمر، توفى فى ربيع الأخر سنة ٦٦٨ هـ / ديسمبر ١٢٦٩ م. أما التركيبة الثامنة فتشير إلى وفاة سيدة مجهولة فى شهر جمادى الآخرة سنة ٧١٠ / اكتوبر نوفمبر ١٣١٠م. كما تضم هذه القاعة سبعة عشر شاهد قبر، ملتصقة بأرضية القاعة لبعض الخلفاء العباسيين بمصر ولابنائهم وأحفادهم.

قبة الصالح نجم الدين أيوب:

تقع بشارع المعز لدين الله فى نهاية الطرف الشمالى الغربى لواجهة مدرسته وتشكل معها وحدة متكاملة، فى مواجهة مجموعة المنصور قلاوون وهى من إنشاء زوجته شجر الدر فى عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م كما يستشف من رواية المقريزى الذى روى بصددها ما نصه: «هذه القبة بجوار المدرسة الصالحية، كان موضعها قاعة شيخ المالكية، بنتها عصمة الدين والدة خليل، شجر الدر، لأجل مولاها الملك الصالح نجم الدين أيوب عندما مات، وهو على مقاتلة الفرنج بناحية المنصورة، فى ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة (٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م). فكتمت زوجته شجر الدر موته خوفا من الفرنج.... وأحضرته فى حراقه من المنصورة إلى قلعة الروضة تجاه مدينة مصر، من غير أن يشعر به أحد... فوضع فى قاعة من قاعات قلعة الروضة إلى يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة (٢٤ أكتوبر ١٢٥٠م)، فنقل إلى هذه القبة بعد ما كانت شجر الدر قد عمرتها على ما هى عليه... وأخرج الملك الصالح فى تابوت وصلى عليه بعد صلاة الجمعة... وساروا به إلى هذه القبة، فدفن ليلة السبت... ووضع عند القبر سناجق السلطان بقجته وتركاشه وقوسه ورتب عنده القراء على ما شرطت شجر الدر فى كتاب وقفها، وجعلت النظر فيها للصاحب بهاء الدين على بن حنا وذريته، وهى بيدهم إلى اليوم».

والـفاحص لمبنى هذه القـبة سوف يلاحظ بوضوح أنهـا أقيمت بجوار إيوان المالكية وليس فى مكانه، كما زعم المقريزى فى النص السابق، لسبب بسيط هو أن إيوان المالكية لا يزال باقيا فى مكانه كما أشرنا من قبل عند دراستنا لهذه المدرسة. ويـبدو أن المقريزى قد تـنبه إلى الخطأ الذى وقع به بـدليل أنه ذكر فى موضع آخر «أن هذه القبة التى فيها قبر الملك الصالح، مجاورة لإيوان الفقهاء المالكية...».

والقبة مربعة التخطيط وتـطل بواجهتها الغربية الوحيدة التى تبرز عن سمت واجهة المدرسة الصالحية، على شارع المعز لدين الله، وهى ترتفع إلى ما يقرب من أحد عشر مترا ونصف المتـر ، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام رأسية يشغل كل منها حنية يتوج أعلاها عقد منكسـر يشغل مركزه جامة دائريـة بها وريدة، كما يحتل أسفل كل حينة نافذة مستطيـلة الشكل، الوسطى أكثر ارتفاعـا واتساعا، ويعلو كل منها عقد مستقيم من صنجات معشقـة منقوشة بزخارف نباتية، يعلوه عقد عاتق يتألف بدوره من صنجات معشقة أيضـا زينت بزخارف نباتية وهندسية بديعة، كما يشغل نفيس الـعقد زخارف من نفس النـوع، ويغطى فتحة كل نـافذة شباك من النحاس المفرغ بأشكال هندسية جميلة، تعتبر الأولى من نوعها فى عمارة مصر الإسلامية، كما يشغل الزاوية الشمالية الغـربية للقبة شطف حلى بصفين من المقرنصات ملئت بزخـارف نباتيه وكتابات كـوفية دعائية وزعت على صـفين نصها: " توكلت على الله / حسـبى الله ونعم الوكيل ". ويـتوج أعلى هذه الواجـهة كورنيش حجرى بارز يرتفع فوقه صف من الشراريف المسننة أو المدرجة.

ويقع مدخل القبة فى الزاوية الشمالية الغربية داخل تجويف مستطيل فتح فيه باب اتساعه حـوالى متر ونصف المتـر وارتفاعة ٢,٧٦ مترا يـرتكز على عتب من الجرانيت به نقوش هيروغليفية، منقول من أحد الآثار المصرية القديمة، ويعلوه عقد مستقيم من صـنج معشقة ثبت فوقه لـوحة تأسيسية تشـتمل على أربعة اسطر من كـتابات نسخية نـصها " بسم الله الرحـمن الرحيم والذين جاهدوا فيـنا لنهدينهم سبلنا وإن الـله لمع المحسنين هذه الـتربة المباركـة بها ضريح مولانـا السطان الملك الصالح / الـسيد العالم الـعادل المجاهد المرابط المـثاغر نجم الدنيـا والدين سلطان

الإسلام والمسلمين سيد ملوك المجاهدين وارث الملك عن أبائه الأكرمين أبى الفتح / أيوب بن السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد بن ابى بكر بن أيوب توفى إلى رحمة الله تعالى وهو بمنزلة المنصورة تجاه الفرنج المخذولين مصافحا للصفاح بنحره مواجها للكفاح / بوجهه وصدره أملا ثواب الله بمرابطته واجتهاده عاملا بقوله تعالى وجاهدوا فى الله حق جهاده، أو فده الله الجنة العالية وأورده انهارها الجارية وذلك فى ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة (٢٣ نوفمبر ١٢٤٩) ".

ويفضى هذا المدخل المنكسر أى الباشورة إلى دركاه مستطيلة التخطيط يعلوها قبو متقاطع من الآجر يفتح من جهته الشرقية على فناء سماوى مكشوف، يؤدى من جهته الشرقية إلى ممر ضيق ينتهى داخل المدرسة الصالحية، كما يفضى من جهته الجنوبية إلى داخل قبة الصالح وهى عبارة عن قاعة مربعة طول ضلعها حوالى أحد عشر مترا، يرتفع فوقها قبة ترتفع عن أرضية القاعة بما يقرب من اثنين وعشرين مترا، لذا تبدو جدران القاعة سميكة فى بعض الأماكن وتصل إلى خمسة أمتار ولا تقل عن مترين فى معظمها، ويتصدر جدارها الشرقى محراب كبير مجوف يعلوه عقد مدبب يرتكز على عمودين من الرخام الأخضر الداكن، غشى بدنه بوزات رخامية، وكسيت طاقيتة بزخارف نباتية من الفسيفساء الزجاجية، تعد واحدة من ثمانية أمثلة عثر عليها فى العمارة الإسلامية بمصر، ولم يعدلها وجود فى الوقت الحاضر، ويكتنف هذا المحراب من الشمال والجنوب خزانتان لحفظ المصاحف وكتب الأحاديث لكل منها باب خشبى يتألف من مصراعين.

ويشغل الضلع الغربى للقاعة ثلاث فتحات مختلفة الأعماق أعدت للنوافذ المطلة على شارع المعز لدين الله،كما فتح بالضلع الجنوبى نافذتان الشرقية منهما تطل على إيوان المالكية بالمدرسة الصالحية. أما الغربية فتطل على شارع المعز ويحجبها حاليا سبيل خسرو باشا الذى شيد فى سنة ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥م ويحيط بالجدران الأربعة افريز عريض من الخشب منقوش بكتابات نسخية قرآنية من عصر متأخر، يعلوه إطار مثمن خصص لحمل وسائل الإضاءة.

وتقوم القبة التى تغطى هذه القاعة على مناطق انتقال تتألف من ثلاثة صفوف من المقرنصات تشكل حنايا مجوفة يعلوها عقود منكسرة، بالصف الأول والثانى ثلاث حنايا، أما الثالث فيشتمل على أربع حنايا من الآجر المغشى بالملاط، ويفصل بين مناطق الانتقال، أربع مجموعات من النوافذ، بكل مجموعة ثلاث نوافذ سداسية الأضلاع يغطيها ستائر جصية ومغشاة بقطع من الزجاج الملون، وتلك الظاهرة التى سبق ظهورها لأول مرة فى قبة الخلفاء العباسيين، وفتح أيضًا بقاعدة خوذة القبة ثماني نوافذ مستطيلة بهدف تخفيف الثقل على جدران القاعة وأيضا لزيادة الإضاءة والتهوية داخل القبة.

ويتوسط أرضية القاعة تركيبة خشبية تتألف من أربعة جوانب تضم حشوات هندسية متعددة الأضلاع وأشكالا نجمية خماسية الأطراف يعلوها نقوش نباتية نقشت بالحفر البارز يحيط بها أشرطة تزدان بكتابات نسخية تتألف من آيات قرآنية من سورة فصلت وكتابات تذكارية تضم اسم السلطان الصالح وتاريخ وفاته نصها «بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر الفقير إلى رحمة الله تعالى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن محمد بن أبى بكر بن أيوب قدس الله روحه ونور ضريحة توفى رضى الله عنه فى النصف من شهر شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة للهجرة النبوية (٢٣نوفمبر ١٢٤٩م)».

قبة شجر الدر:

تقع بشارع الخليفة المتفرع من ميدان أحمد بن طولون تجاه مشهد السيدة رقية شيدتها لنفسها شجر الدر عصمة الدنيا والدين، أم الملك المنصور خليل، زوجة السلطان الصالح نجم الدين أيوب قبل مقتل السلطان المعظم توران شاه فى ١٩ محرم سنة ٦٤٨هـ / ٣ مايو ١٢٥٠م، بعدة سنوات ولم تسجل عليها اسمها إلا بعد اعتلائها عرش السلطنة، وذلك استنادا على تحليل النص التأسيسى الذى عثر عليه مسجلا حول جدران القبة الداخلية التى دفنت فيها بعد مقتلها بعدة أيام، كما دفن بها أحد الخلفاء العباسيين بمصر يدعى محمد لعله أبو عبد الله محمد المتوكل على الله الأول الذى تولى الخلافة ثلاث مرات وتوفى سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م،

ولعلـه أيضا محمد المتـوكل على الله الثالث الـذى تولى الخلافة فيما بين ٩١٥ - ٩٢٢هـ/ ١٥٠٩ - ١٥١٦م، وتوفى سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م.

ويفهم من على مبارك أنه الحق بهذه القـبة فى القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى مسجدا كان ملاصقا للواجهة الشمالية، بقى منه شريطا كتابيا بـأعلى هذه الواجـهة به بيتـان من الشعر يـسجلان تاريخ الإنشـاء بحساب الجمل نصهما:

هـذا ضـريـح بـالخـلـيـفـة قـد زهـا

وتـزخـرفت أو صـافـة لـلـنـاس

حـسـنت عـمـارتـه وقـالـت أرخـوا

يـهـنـيـكم فـخـرا بـنى الـعـبـاس

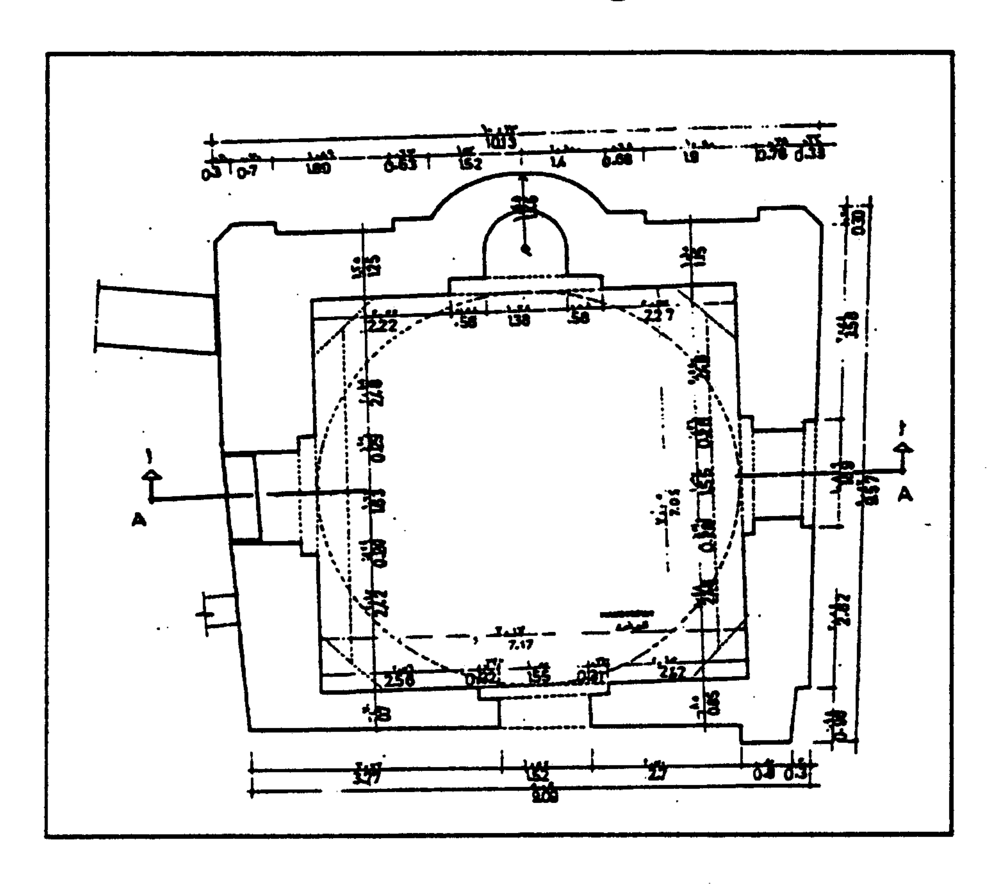
أى فى سنة ١٢٤٢ هـ/ ١٨٢٦م، الأمر الـذى جعله يطلق عليها فى خططه جامع الخـليفة المعروف بمسـجد شجر الدر، كما أشار أيـضا إلى قيام ناظره الشيخ مرزوق الفراش بتجديده فى سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م.

ونظرا لزحف المـبانى حول هذا الآثر الهام، قامت لجنة حفظ الآثار العربية فى سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م بإزالة المـبانى الملاصقة لهذه القـبة وكان من بينها أحد المنازل والمسجد المشار إليه، مما افضـى إلى ضياع الكثير من العناصر الزخرفية التى كـانت تزين واجهات هذا المبنى؛ لذا قرر المجلس الأعـلى للآثار القيام بترميم هذا الآثر من الداخل والخارج، بيد انه لم يتخذ خطوات إيجابية حتى اليوم.

والقبة تشكل بناء مربع الـتخطيط طول ضلعه من الخارج حوالى تسعة أمتار وربع المتـر، مزود بثلاث مـداخل محورية كما هـو الحال بالـنسبـة لقبـة الخلفاء العباسيين، الرئيسى منها يشغل منتصف الواجهة الغربية ويعلوه حنية صماء معقودة بعقـد منكسـر تملأ حشواته أضلاع مـشعة تنتـهى بعدة صفـوف من المقرنصات، يكتنـفها من أعلى حنيتان صـغيرتان يتوج كل منهما عـقد منكسر به أضلاع مشعة أيضا، كـما يشغل تـواشيح العقـود ثلاث جامات مسـتديرة بهـا وريدات متعددة

الفصوص ومعين واحد، ويلاحظ أيضا أن هذه الواجهة تنتهى بطرفى رباط شمالها وجنوبها الأمر الذى دفع باتريكولو، أحد علماء لجنة حفظ الآثار العربية إلى الاعتقاد بأنه كان يتقدم هذا المدخل سقيفة محمولة على دعامتين، على غرار بعض العمائر الفاطمية كمسجد الصالح طلائع خارج باب زويلة.

ويتوسط الواجهة الشرقية للقبة بروز نصف دائرى ينتهى بطاقية ربع دائرية الشكل، يضم بداخله تجويف المحراب، ويكتنفه من شمال وجنوب حنيتان ضحلتان يتوج كل منهما عقد منكسر ذو أضلاع مشعة تنتهى بعدة صفوف من المقرنصات، كما يشغل تواشيح العقود جامات ومعينات يتخللها أشكال هندسية،



شكل (٤٦)

مسقط أفقي لقبة شجر الدر، نقلا عن منظمة المدن والعواصم الإسلامية

أما طرفى الواجهة فقد زينا بشطف يشغله مقرنصات جصية صغيرة وزعت على أربعة صفوف.

أما الواجهة الشمالية فلم يعد بها إلا بقايا الشريط الكتابى الذى يؤرخ للمسجد الذى كان ملاصقا لهذه الواجهة والمدخل المفضى إلى داخل القبة الذى يقع على محور المدخل الذى يتوسط الواجهة الجنوبية وجدير بالذكر أن جميع واجهات المبنى كانت مكسية وقت الإنشاء بطبقة من الملاط زالت معظمها فى الأجزاء السفلية من الأثر.

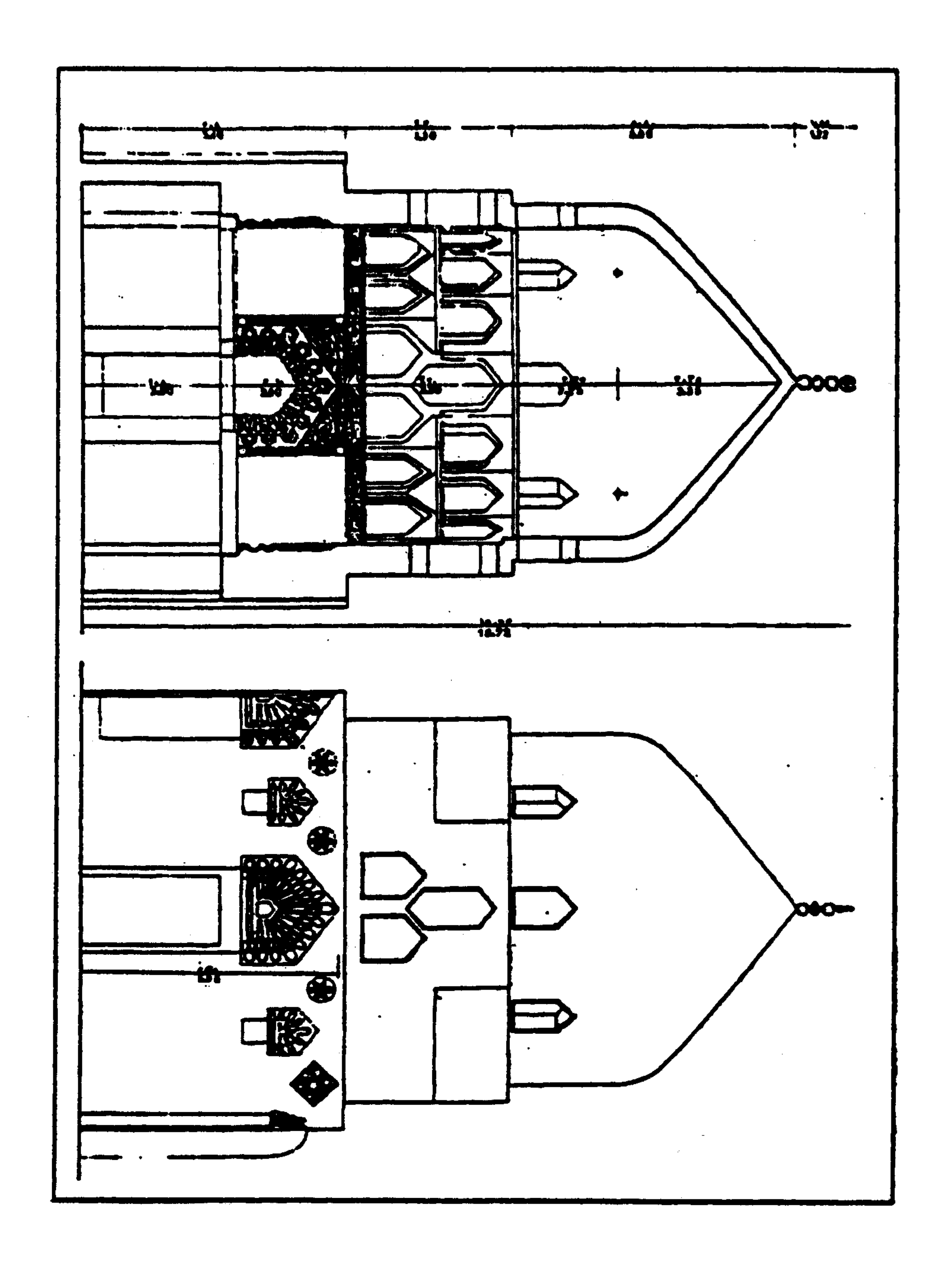
وتفضى المداخل الثلاثة إلى داخل القبة وهى عبارة عن مربع طول ضلعه سبعة أمتار ويشغل الضلع الشرقى حنية المحراب وهى معقودة بعقد منكسر، يزينه ثلاثة صفوف من المقرنصات، كان يرتكز فى الماضى على عمودين لا وجود لها فى الوقت الحاضر، وله بدن عميق غفل من الزخرفة، يعلوه طاقية من الفسيفساء الزجاجية الملونة، قوامها شجرة ذات فروع مثمرة متشعبة يلتف حولها جديلة مضفورة نفذت بألوان متعددة، نجد بينها الأخضر والأزرق والأبيض والأحمر على أرضية من الفسيفساء المذهبة، تعد بدورها أحد الأمثلة القليلة المتبقية بعمائر مصر الإسلامية. أما باقى أضلاع القبة الثلاثة فيشغل كل منها فوق فتحة المدخل حنية جصية مستطيلة يعلوها عقد منكسر يزين داخله صفين من المقرنصات، ويحدد إطاره شريط من كتابات نسخية على أرضية نباتية، فى حين زينت تواشيح العقود بزخارف نباتية متشابكة، أرابيسك.

ويحيط بجدران القاعة افريز خشبى عرضه حوالى نصف متر، يتألف من اثنى عشر لوحا تزدحم بكتابات كوفية قرآنية وبعض العبارات الدعائية، تقوم على أرضية من الزخارف النباتية، يرجح كل من كريسويل والمرحوم فريد شافعى أنها منقولة عن أحد العمائر الفاطمية، وكان يغطى هذا الافريز طبقة من الجص نقش فوقها كتابات نسخية تشتمل على آيات قرآنية وعبارات مدح فى الرسول ﷺ ويعلو هذا الأفريز طراز خشبى آخر يعلوه كتابات نسخية باللون الأبيض تشير إلى صاحبة القبة نصها " بسم الله الرحمن الرحيم (هذه) تربة الستر الرفيع والحجاب

المنيع عصمة الدنيا والدين والدة الملك المنصور خليل بن مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبى الفتح أيوب بن مولانا السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين قدس الله روحه ونور ضريحة التى خطبت الأقلام بمناقبها على منابر الطروس وشهدت لها المفاخر بالمجد الثابت فى أعلى الفردوس الذى أضحت شموس المملكة لها طالعة وآراء الأمراء لأمرها مطيعة وسامعة أعز الله أنصارها وضاعف اقتدارها وأعلى منارها ورفق أراها (كذا) وجعل الجنة مثواها لأعلا (كذا) آمين إنها مؤيدة منصورة على مر الليالى والأيام بمحمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام " .

ويرتفع فوق جدران هذه القاعة قبة ارتفاعها أربعة عشر مترا ولها قطاع على شكل عقد منكسر، مشيدةمن الآجر تقوم فوق مناطق انتقال تتألف من صفين من المقرنصات، بكل منهما ثلاث حنايا يتوجها عقود منكسرة، يعلو بعضها البعض، شيدت بدورها من الآجر المغشى بطبقة من الملاط نقش فوقها زخارف نباتية وهندسية بالألوان المائية يفصل بينهما أربع مجموعات من النوافذ، تتألف كل مجموعة من ثلاث نوافذ، واحدة فى أعلى واثنتان فى أسفل، يرجح أنه كان يغشيها ستائر جصية معشقة بزجاج ملون كما هو الحال فى قبة الصالح نجم الدين أيوب. وفتح أيضا فى رقبة القبة ثماني نوافذ يعلوها عقود منكسرة، لزيادة اللأضاءة والتهوية.

بقى أن نشير إلى أنه يتوسط أرضية القاعة تركيبة خشبية حديثة مطعمة بعشر لوحات قديمة منقوشة بكتابات نسخية بارزة، سبع منها تشتمل على آيات قرآنية من سور متعددة، وثلاث على حكم ومواعظ نصها "يا واقف على قبرى لا تعجب من أمرى بالمس (كذا) كنت أنا مثلك وأنت اعدا (كذا) مثلى نعم المسكن لمن أحسن فإن من اتقى ونال أعلا المراتب وارتقا وهم أهل الصلاح واتقى نعم المسكن لمن أحسن" .



شكل (٤٧)

قطاع رأسي خارج وداخل قبة شجر الدر، نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

(جـ) الخانقاوات:

الخانقاه لفظة فارسية أطلقت على البيوت التى أقيمت منذ القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى لإيواء المتصوفين، وهى تعنى أيضا الرباط والزاوية، بدليل قول ابن الحاج الفقيه المغربى، أن الرباط هو المسمى فى عرف العجم خانقاه، وقول ابن بطوطة أن الخانقاه هى الزاوية، وأن المصريين يطلقون على زواياهم اسم خانقاوات أو خوانق، وذلك على العكس من المقريزى الذى فرق فى خططه بين الخوانق والربط والزوايا، وجعل لكل منهم ثبتا خاصا مستقلا، وإن كان فى تعريفه لكل نوع لم يخرج عن معنى واحد وهو أنها جميعا كانت بيتا للصوفية ومنزلهم.

ويفهم من المصادر العربية أيضا أن الخوانق كانت بمثابة معاهد للمذاهب الفقهية والحديث والقراءات والتصوف وغير ذلك من علوم الشريعة الإسلامية، أى أنها قامت بنفس الدور الذى قامت به المدارس. وكانت كذلك بمثابة نزل لإيواء الغرباء الوافدين على الديار من شتى أرجاء العالم الإسلامى، بمعنى أنها لم تكن مقتصرة على الصوفية فقط.

ومن المعروف أن الصوفية هم جماعة من المسلمين آثرو التفرغ للعبادة والابتعاد عن كل من يشغلهم عنها، وقد نشأت فكرة التصوف عندما جنح معظم الناس إلى الإقبال على الدنيا وملذاتها، وقلت عنايتهم بالآخرة؛ لذا فضل فريق من الناس العزلة زهدا فى الحياة التى أصبحت فى نظرهم مليئة بشتى ألوان اللهو.

ويخطيء الذين يعتقدون أن التصوف دخيل على الإسلام، مجلوب من فلاسفة الهند والصين، ويخطئون كذلك عندما يرون أنه سلبى فى اتجاهه يجنح أهله إلى العزلة فرارا من مشاكل الدنيا، وجبنا عن مواجهتها، وهروبا من الاهتمام بشئون المجتمع والنهوض به، فالواقع أنه أولا من صميم الإسلام وليس مجلوبا من الهند أو الصين، وحسبنا دليلا على ذلك سيرة النبى محمد ﷺ وسيرة أصحابه. وثانيا أنه فى حقيقته زهدا فى الصورة الحيوانية للمجتمع الإنسانى، ومحاولة للسمو بالإنسان فوق مستوى الحيوان. فالصوفية إنما يحاربون ذلك الإقبال

على الدنيا الذى ينسى معه الإنسان أو يتناسى ناموس الشرف والكرامة. فالتصوف كما يقول المرحوم محمد عبد العزيز مرزوق، إنما هو رياضة على كبح جماح النفس، وترفع عن الدنايا، ووضع للدنيا فى المكان الذى تستحقه، وضعها فى اليد لا فى القلب، وهو تسخير للجاه وللمال فى سبيل نصرة الحق وأداء الواجب وعمل الخير.

لكن متى عرف العالم الإسلامى هذا النوع من المبانى المخصصة للصوفية؟ يذكر المقريزى أن " أول من اتخذ بيتا للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة. وذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة، وليس لهم تجارات ولا غلات، فبنى لهم دورا، وأسكنهم فيها، وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره " فى أيام عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين. كما ذكر المقدسى أن الكرامية أصحاب محمد بن كرام هم الذين أنشأوا أكبر عدد من الخوانق قبيل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى، وكان لهم خوانق كثيرة بإيران وما وراء النهر، بيد أن هذه الخانقاوات كانت غاية فى البساطة ولم تكن هناك قواعد أو لوائح تنظمها، حتى ظهر أبو سعيد ابن أبى الخير الذى وضع الأسس الأولى لتنظيم الخانقاوات حتى عرف باسم أبو الخانقاه، ولعل هذا هو السبب الذى دفع بالمقريزى إلى القول بأن " الخوانق حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة... " بعد أن صار لها طراز معماريا واضحا يتألف من قسمين رئيسين، خصص الأول لاجتماع الشيخ بمريده، أطلق عليه بالفارسية " جماعت خان " أو دار الجماعة، وخصص ثانيهما لخلوات الصوفية والمطبخ والحمام وغير ذلك من الأبنية الضرورية للإقامة الدائمة.

أما فى مصر فهناك من يرى أن إقامة المنشآت الصوفية يرجع إلى أيام الخلافة الفاطمية، وأنها كانت فى أول الأمر عبارة عن مساطب أشبه بالخوانق، إذ يروى المقريزى أن الخليفة الآمر بأحكام الله أقام المساطب أمام قصرة بالقرافة وفرشها ليؤدوا عليها رقصاتهم، ومد لهم الأسمطة التى عليها كل نوع لذيذ شهى من الأطعمة والحلوى.

ومع ذلك فإن معرفة مصر الإسلامية الحقيقية بالخانقاوات ترجع إلى أيام صلاح الدين فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى بسبب رغبته الملحة فى القضاء على الفاطميين ومذهبهم الشيعى؛ لذا عمد أولا إلى الإكثار من إنشاء المدارس لتدريس مذاهب الفقه السنى، كما عمد إلى استقدام ثلاثمائة من أكابر الصوفية المعتدلين من أهل الورع والدين وأنزل هؤلاء فى دار سعيد السعداء، فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م بعد أن حولها إلى خانقاه وأوقف عليها العديد من الأوقاف مما بلغت عبرته أربعة عشر ألفا وأربعمائة وواحد وثمانين دينارا، وذلك فى محاولة منه للقضاء على أشياع الفاطميين بنفس سلاحهم أى طريق التصوف والدعاية للمذهب السنى، وقد تجلى ذلك بصورة واضحة هى خروج هؤلاء الصوفية بهيئتهم الفاضلة جماعات، وعلى رأسهم شيخ الخانقاه وبين يديه خدام الربعة الشريفة، قد حملت على رأس أكبرهم، والصوفية مشاة بسكون وخفر فى طريقهم إلى الجامع الحاكمى لأداء صلاة الجمعة، وقد اصطف الناس من مصر والقاهرة، كى تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم.

الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء:

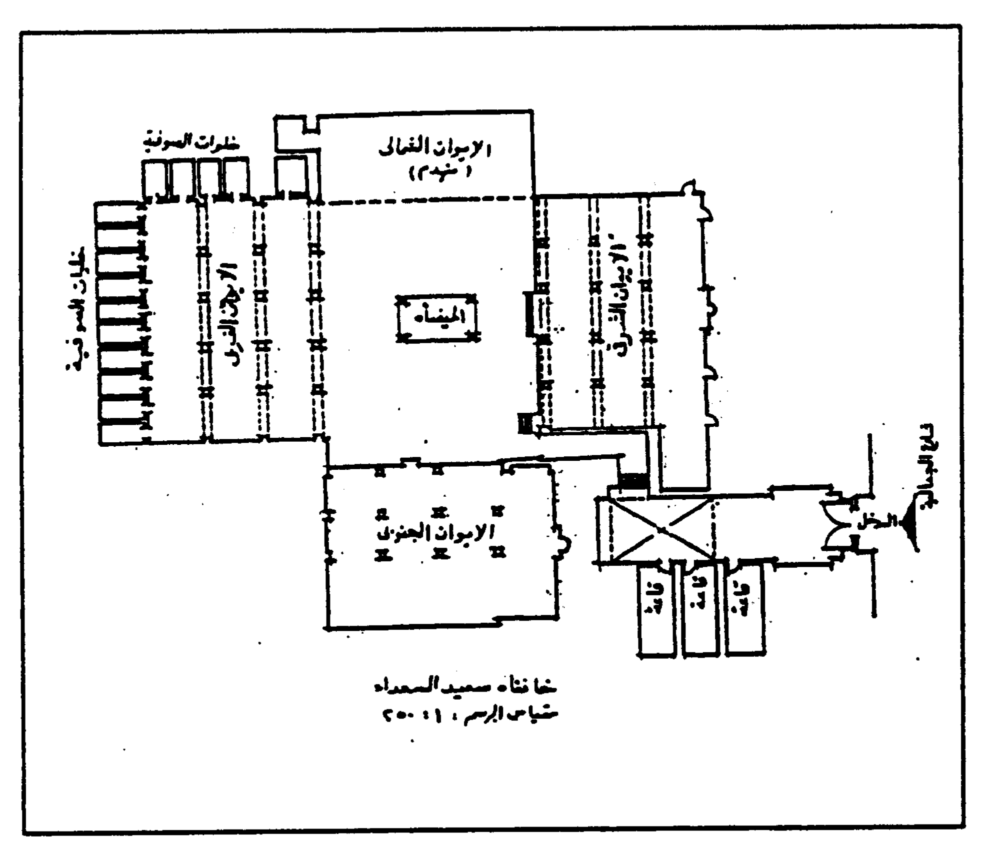
تقع بشارع الجمالية تجاه مدرسة قرا سنقر المنصورى، استحدثها صلاح الدين فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م وجعلها دارا للصوفية الواردين من العالم الإسلامى، ويذكر المقريزى أن موقعها قديما كان " بخط رحبة باب العيد من القاهرة، وكانت أولا دارا تعرف فى الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء، وهو الأستاذ قنبر ويقال عنبر، وذكر ابن ميسر أن اسمه بيان، ولقبه سعيد السعداء، أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر، عتيق الخليفة المستنصر. قتل فى سابع شعبان سنة أربع وأربعين وخمسمائة (٢ديسمبر ١٠٥٢م).

وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة. فلما كانت وزارة العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك سكنها، وفتح من دار الوزارة إليها سردابا تحت الأرض ليمر فيه. ثم سكنها الوزير شاور بن مجير فى أيام وزارته، ثم تبعه الكامل.

فلما استبد الناصر صلاح الدين. . . بملك مصر. . . عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم فى سنة تسع وستين وخمسمائة (١١٧٤م) وولى عليهم شيخا ووقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة، وقيسارية الشراب بالقاهرة، وناحية دهمرو من البهنساوية. وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين دينارا فما دونها كانت للفقراء ولا يتعرض لها الديوان السلطانى، ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره، ورتب للصوفية فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا، وبنى لهم حماما بجوارهم. فكانت أول خانقاه عملت بديار مصر، وعرفت بدويرة الصوفية ".

وفى ربيع الأول سنة ٥٩٤هـ / يناير ١١٩٨م أمر السلطان العزيز عثمان بن صلاح الدين بتجديد هذه الخانقاه وفتح بها بابًا جديدًا كما يستشف من لوح خشبى محفوظ حاليا بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة يشتمل على أربعة أسطر من الكتابات النسخية الأيوبية، تشير أيضا إلى قيام صلاح الدين بوقف قيسارية بدسوق على صوفية هذه الخانقاه، نصها " العزة لله وحده / اللهم ارحم الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ورضى (كذا) عنه الذى أنعم على الصوفية بهذه القيصرية وأوقفها على بعضهم التى تعرف بدار السعيد (كذا) السعداء بمحروسة القاهرة / مما أمر بهذا الباب الجديد والفتح السعيد سيد الملوك والعبيد عماد الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين عضد الدولة القاهرة تاج الملة الزاهرة نظام العالم ملك / المعالى الملك العزيز عثمان بن يوسف بن أيوب ظهير أمير المؤمنين خلد الله ملكه فى تاريخ ربيع الأول سنة أربع وتسعين (و) خمسمائة وصلى الله على محمد وآله وأصحابه أجمعين ".

وما برح صوفية هذه الخانقاه ينعمون بخيرات ريع أوقافها حتى ولى نظارتها الأمير سودون فى أيام السلطان الظاهر برقوق فأضاف إلى صوفيتها جماعة كثيرة، عجز ريع الوقف عن القيام لهم بجميع ما ذكر فقطعت الحلوى والصابون والكسوة، هذا فضلا عن أن ناحية دهمرو شرقت لقصور ماء النيل، فوقع العزم على غلق مطبخ الخانقاه، وإبطال الطعام، فلم تحتمل الصوفية ذلك، وتكررت



شكل (٤٨)

مسقط أفقي للخانقاة الصلاحية سعيد السعداء، عن المجلس الأعلى للآثار

شكواهم للملك الظاهر برقوق، فولى الأمير يلبغا السالمى نظارة وقفها فى الثامن من جمادى الآخرة سنة ٧٩٧هـ / ٣١ مارس ١٣٩٥ م " فنزل إلى الخانقاه واجتمع بشيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى وأوقفه على كتاب الوقف فأفتاه بالعمل بشرط الواقف، وهو أن الخانقاه تكون وقفا على الطائفة الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة والقاطنين بالقاهرة ومصر، فإن لم يوجدوا كانت على الفقراء من الفقهاء، الشافعية والمالكية الأشعرية الاعتقاد "، فقطع من الصوفية نحو الستين رجلا ممن لهم منصب ومن هو مشهور بالمال، وزاد الفقراء المجردين، وهم المقيمون بها فى كل يوم رغيفا من الخبز، فصار لكل مجرد أربعة

أرغفة بعدما كانت ثلاثة. . . فكثر النكير على السالمى ممن أخرجهم. . . فقال بعض أدباء العصر فى ذلك:

يا أهل خانقاه الصلاح أراكم
ما بين شاك للزمان وشاتم
يكفيكم ما قد أكلتم باطلا
من وقفها وخرجتم بالسالم».

ويروى المقريزى أيضا أن يلبغا السالمى ألزم شيخ الخانقاه وصوفيتها بصلاة الجمعة بالجامع الأقمر بدلا من الجامع الحاكمى، بعد أن عمل له منبرًا وأقيمت به الجمعة فى شهر ربيع الأول سنة ٨٠١هـ / نوفمبر ١٣٩٨م "، فصاروا يصلون الجمعة فيه إلى أن زالت أيام السالمى، فتركوا الاجتماع بالجامع الأقمر، ولم يعودوا إلى ما كانوا عليه من الاجتماع بالجامع الحاكمى ونسى ذلك ".

ويحدثنا المقريزى كذلك عن إضافة مئذنة إلى الخانقاه، شيدها شهاب الدين أحمد الأنصارى بعد ما تولى مشيختها فى سنة بضع وثمانين وسبعمائة (١٣٨١م).

ويفهم أيضا من السخاوى أن الأمير تغرى بردى القادرى، دوادار السلطان الأشرف قايتباى، وأستادار السلطان الأشرف قانصوه الغورى فيما بعد، قام بتجديد هذه الخانقاه فى سنة ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م بعد أن تولى نظارة أوقافها، إذ يقول: "وعمر سعيد السعداء وغير كثيرا من معالمها وغير بابها وعمر مطهرتها ".

وحدثنا ابن ظهيرة بدوره عن هذه الخانقاه فى أيامه أى فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى فذكر أن «أهلها يعمرون مدينة، وقد بلغت عدة الصوفية بها فى هذا الوقت سبعمائة نفر وأكثر». أى بزيادة تتجاوز الأربعمائة صوفى عما ذكره المقريزى فى أيامه إبان القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى.

كذلك أشار إليها على مبارك فى خططه فذكر أنها تعرف فى أيامه أى فى القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى، باسم جامع الخانقاه، وبجامع سعيد السعداء، وبمدرسة سعيد السعداء، وبالخانقاه الصلاحية، وأضاف أيضا أن بها أربعة ألونة وعدة خلاوى للصوفية، تحتها قبو دفن فيه بعض صوفيتها، وأن مبانيها تغيرت عن المبانى الأصلية، وجعل بها منبرا وخطبه.

ولهذه الخانقاه واجهة وحيدة هى الشرقية بقى منها ما يقرب من ستة أمتار، يشغل المدخل المنكسر، أى الباشورة طرفها الجنوبى وهو عبارة عن فتحة يبلغ ارتفاعها مترا ونصف المتر وعرضها يقرب من المترين إلا قليلا، يعلوها عقد حجرى مستقيم غفل من الزخرفة، بأعلاه نافذة، فتحت داخل حنية عمقها حوالى نصف متر وعرضها متران، يتوجها من أعلى عقد مدبب ويكتنفها من أسفل مكسلتان من الحجر، يوجد إلى الجنوب منها مشربية من الخشب الخرط، يفضى هذا المدخل إلى دركاه مربعة الشكل يعلوها سقف خشبى مجدد فى بعض أجزائه، بصدرها دهليز مستطيل عرضه حوالى مترين ونصف المتر، يغطى بعض أجزائه سقف خشبى، ويكسو أرضيته بلاطات من الحجر الجيرى، يتصل به من جهة الجنوب ثلاث خلاوى مستطيلة الشكل لكل منها مدخل يعلوه عقد مدبب، يتصل بطرفه الشمالى الغربى ممر آخر منكسر يفتح على الخانقاة. وهو عبارة عن تخطيط متعامد قوامه صحن أوسط مكشوف يتعامد عليه أربعة إيوانات.

الصحن متخرب وهو مستطيل الشكل، تبلغ مقاييسة ٢٤,٨٠ × ١٤,٧٠ مترا، أرضيته مفروشة بالحجر الجيرى، ويتوسطه بحرة للوضوء يعلوها سقيفة ترتكز على دعامات حجرية مثمنة. يفتح عليه من جهة الشرق إيوان القبلة وهو مستطيل الشكل، تبلغ أطواله ١٦,٣٠ × ١١,٦٥ مترا، ومفروش بدوره ببلاطات حجرية، وترتفع أرضيته عن أرضية الصحن بمقدار درجتين، وينقسم إلى ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة بواسطة ثلاث بائكات بكل منها أربع دعامات حجرية مثمنة يعلوها خمسة عقود مدببة، يغطيها سقف خشبى حديث. يتصدر منتصف جداره الشرقى محراب مجوف غفل من الزخرفة، يتوجه عقد مدبب يرتكز على

عمودين من الخشب لهما أيضا قطاع مثمن يوجد على يمينه منبر حديث الصنع وهو مزود أيضًا فى جدارة الشرقى بثلاثة مداخل، اثنان على يمين المحراب وواحد على يساره، كما يوجد مدخل رابع فى الركن الشمالى الشرقى، وجميع هذه المداخل كانت تفتح عل أربع حجرات كانت مخصصة لسكنى شيخ الخانقاه وأعوانه.

ويقابل هذا الإيوان على الطرف الآخر من الصحن، الإيوان الغربى وهو أيضا مستطيل التخطيط لكن أكبر حجما من إيوان القبلة، إذ تبلغ أطواله ١٨,٣٠ × ١١,٣٠ مترا، وينقسم بدوره إلى ثلاث بلاطات موازية للمحراب بواسطة ثلاث بائكات بكل منها أربع دعامات حجرية مثمنة وخمسة عقود مدببة يحزم أرجلها أربطة خشبية، ويعلوها بقايا سقف خشبى كان يزينه زخارف ملونة تضم عناصر نباتية وأشكالا هندسية متنوعة، كما كان يحيط بأعلى جدران هذا الإيوان إزار من الخشب منقوش بزخارف نباتية وهندسية وكتابات نسخية ملونة اندرس أغلبها وبقى القليل من الآثار الدالة عليها.

ويصدر هذا الإيوان على طول امتداد الجدار الغربى عشرة مداخل تفضى إلى عشر خلاوى مستطيلة الشكل نجد خمس خلاوى مثلها على طول امتداد الجدار الشمالى لهذا الإيوان، كانت جمعها مزودة بنوافذ مغطاه بلوحات من خشب الخرط للإضاءة والتهوية، ويسقفها أقبية نصف أسطوانية، تهدم بعضها، واستعيض عن البعض الآخر بأسقف خشبية حديثة مسطحة. وهى تمثل لنا بعض الأماكن المخصصة لإيواء صوفية هذه الخانقاه، لذا كانت تتألف من طابقين ومن ثلاثة طوابق اندرس أغلبها وان بقيت بعض النوافذ لتشير إلى وجودها.

ويشغل الإيوان الثالث الناحية الجنوبية من الصحن ويتميز بدوره بتخطيطه المستطيل الذى تبلغ أطواله ١٧,٤٠ × ٩,٦٠ مترا، ويشتمل على بلاطتين متعامدتين عل جدار القبلة، تضمان بائكتين بكل منهما ثلاثة عقود حجرية مدببة ترتكز على أعمدة رخامية، ويطل على الصحن بواسطة بائكة ثالثة تتألف من ثلاثة عقود تستند على عمودين لهما قطاع مثمن. كما فتح بصدر جداره الشرقى

محراب مجوف، غفل من الزخرفة، يعلوة طاقية يحيط بها عقد مدبب، يوجد إلى يمينه منبر خشبى حديث به ثلاث درجات.

أما الإيوان الرابع فى الجهة الشمالية فلم يتبق منه سوى بقايا أحد العقود وجزء بسيط من محراب مجوف، وعشرة مداخل كانت تفضى إلى عشر خلوات مخصصة لصوفية الخانقاه حل محلها دورات للمياه، يحيط بها سور حجرى حديث، كما دخل باقى ملحقات الخانقاه ضمن المبانى المجاورة التى زحفت عليها وذابت فيها.

ثبت بأسماء سلاطين الدولة الأيوبية		
*	صلاح الدين يوسف	٥٦٧ هـ / ١١٧١م.
*	العزيز عثمان عماد الدين	٥٨٩ هـ / ١١٩٣م.
*	المنصور محمد ناصر الدين	٥٩٥ هـ / ١١٩٨م.
*	العادل أبو بكر سيف الدين	٥٩٦ هـ / ١٢٠٠م.
*	الكامل محمد ناصر الدين	٦١٥ هـ / ١٢١٨م.
*	العادل الثانى سيف الدين	٦٣٥ هـ / ١٢٣٨م.
*	الصالح نجم الدين	٦٣٧ هـ / ١٢٤٠م.
*	المعظم توران شاه	٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م.

* * *



نماذج من عمائر دولة المماليك البحرية

٦٤٨ - ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ - ١٣٨٢م



يعد العصر المملوكى البحرى بمثابة العصر الذهبى للعمارة الإسلامية بسبب تنافس أفراد وسلاطين هذه الدولة على إقامة المنشآت المعمارية التى تنوعت أغراضها ما بين مبان دينية تمثلت فى المساجد والجوامع، والمدارس والقباب والخانقاوات والربط والزوايا، ومبان مدنية وتجارية تمثلت فى القصور والقاعات والأسبلة والكتاتيب، والفنادق والوكالات، والأسوار والميادين وقناطر المياه وغيرها، وحسبنا دليلا على ذلك ما ذكره المؤرخون بصدد أحدهم وهو السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى "كان يحب العمارة فجاء تقدير مصروفه كل يوم... ثمانية آلاف درهم " كما سبق أن نوهنا من قبل، " وكان ينفق على العمارة الواحدة المائة ألف درهم، فإذا رأى فيها ما لا يعجبه هدمها كلها وجددها على ما يختار ". وأضافوا أيضا أنه " استجد فى أيامه عمائر كثيرة، وتجددت فى عهده عدة جوامع أنافت على ثلاثين جامعا ".

ومن المعروف أن دولة المماليك البحرية عمرت ما يقرب من مائة ست وثلاثين، نعمت مصر خلالها برخاء اقتصادى انعكس بدوره على منشآت هذه الفترة التى تجلت فى العديد من مبانيها التأثيرات الشامية، وبعض التأثيرات الأندلسية والفارسية التى ظهرت فى بعض المنشآت المعمارية دون البعض الآخر، كما شاع استخدام الحجر فى بناء قباب ومآذن هذا العصر، وارتقى تصميم واجهات المنشآت الدينية من مساجد ومدارس، وشاع أيضا استخدام الخط الكوفى المربع لأول مرة فى بعض مبان هذا العصر، والأبواب الخشبية المصفحة بالنحاس أو البرونز والمكفتة بالذهب أو الفضة أو بكليهما معا. وعرف كذلك استخدام وسائل الإضاءة المصنوعة من الزجاج المموه بالمينا، والثريات والتنانير الضخمة المصنوعة من البرونز التى لم يسبق لنا مصادفتها فى عمائر العصر الأيوبى على كثرتها.

هذا وتقرب حصيلة المنشآت المعمارية التى وصلتنا من هذه الفترة ما يقرب من خمس وتسعين منشأة لن نستطيع أن نتناولها كلها بالشرح والتفصيل وإنما سوف تقتصر دارستنا هنا على بعض أمثلتها البارزة بما يتناسب مع طبيعة وحجم هذا المؤلف.

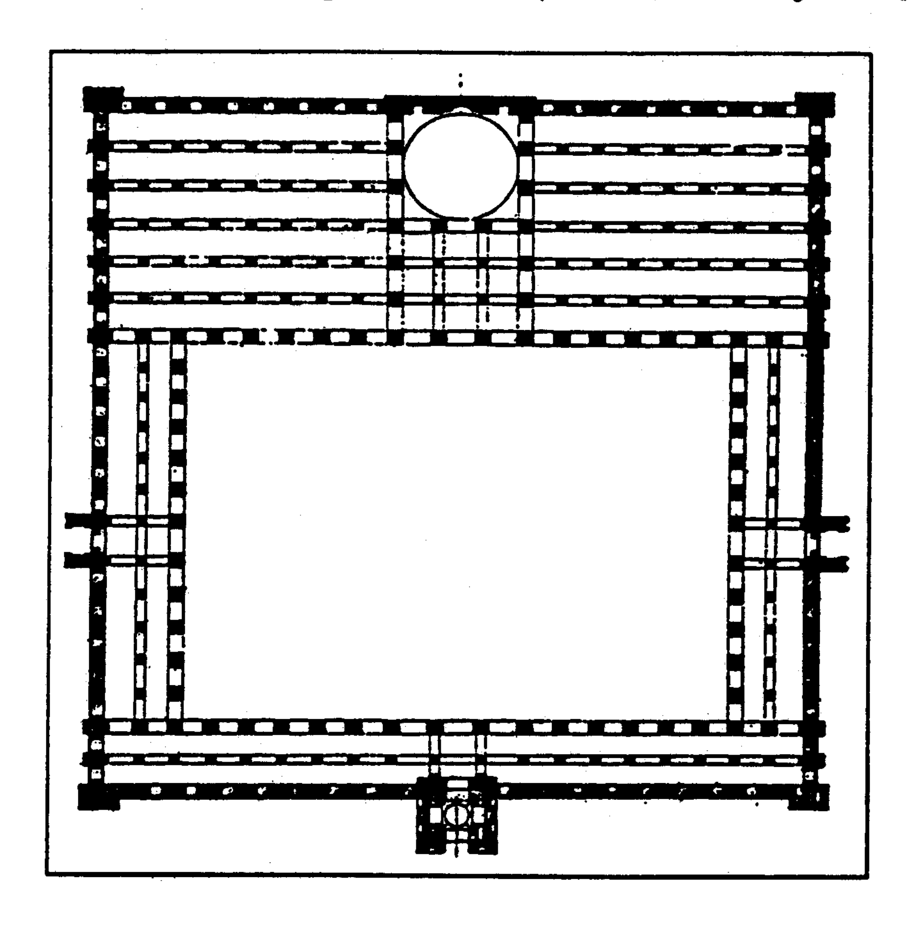
جامع الظاهر بيبرس البندقدارى:

يقع بشارع الجيش بميدان الظـاهر، أمر بتشييده السـلطان الملك الظاهر ركن الدين بيـبرس البنـدقدارى فى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م وفـرغ من بنائه فى شوال سنـة ٦٦٧ هـ / يونـيـو ١٢٦٩ م، إذ يروى المـقريـزى أن " هذا الجـامع خارج القاهرة. وكان موضعه ميدانا، فأنشـأه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى جامعا "، كـما أضاف نقلا عن المؤرخ ابن عـبد الظاهـر " وفى ربيع الآخر سنة خمس وستـين وستمائة (يناير ١٢٦٧م)، اهـتم السلطان بعمـارة جامع بالحسينية، وسـير الأتابك فارس الديـن أقطاى المستـعرب، والصاحب فخـر الدين محمد بن الصاحب بهـاء الدين على بن حنا وجماعة من المهـندسين، لكشف مكان يليق أن يعمل جامعا، فتوجهوا لذلك، واتفقوا على مناخ الجمال السلطانية. فقال السلطان لا والله لا جعـلت الجامع مكـان الجمال، وأولى جعـلته ميـدانى الذى ألعب فيه بالكرة وهو نزهتى.

فـلما كان يـوم الخميس ثامن شـهر ربيع الآخـر، ركب السلطـان وصحبته خواصه والـوزير الصـاحب بهاء الـدين على بن حنـا والقضـاة، ونزل إلى ميدان قراقوش، وتحدث فى أمره وقـاسه ورتب أمور بنائه، ورسم أن يكـون بقية الميدان وقفا على الجامع بحـكر، ورسم بين يديه هيئـة الجامع، وأشار أن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية، وأن يـكون على محرابه قبة عـلى قدر قبة الشافعى رحمه الـله. وكتب فى وقته الكتب إلى الـبلاد بإحضار عمـد رخام من سائر الولايات، وكـتب بإحضـار الآلات من الحديد والأخشـاب النقـية برسم الأبـواب والسقوف وغيرها ".

وروى أيضا بصدد سفـر السلطان الظاهر إلى بلاد الشـام وتسلمه مدينة يافا من الـفرنج وشروعه فى هدم قلعتها فى الـسابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٦٦ هـ / ١٥ مارس ١٢٦٨ م أنه "أخذ من أخشـابها جملة، ومن ألواح الرخام التى وجدت فيها، ووسق مـنها مركبا من المراكب الـتى وجدت فى يافا، وسيرها إلى الـقاهرة، ورسم بـأن يعمـل من ذلك الخشب مقـصورة فى الجامع الـظاهرى

بالميدان من الحسينية، والرخام يعمل بالمحراب، فاستعمل ذلك " . وذكر كذلك أنه لما " كملت عمارته فى شوال سنة ٦٦٧ هـ / يونيو ١٢٦٨ م، ركب السلطان ونزل إلى الجامع وشاهده، فرآه فى غاية ما يكون من الحسن، وأعجبه إنجازه فى أقرب وقت ومدة مع علو الهمة، فخلع على مباشريه، وكان الذى تولى بناءه الصاحب بهاء الدين بن حنا، والأمير علم الدين سنجر السرورى متولى القاهرة. . . ورتب به خطيبا حنفى المذهب، ووقف عليه حكر ما بقى من أرض الميدان، ونزل السلطان إليه، ورتب أوقافه، ونظر فى أموره" .



شكل (٤٩)

مسقط أفقي لجامع الظاهر بيبرس، نقلا عن براندنبرج

ويـفهم من الروايـات التاريـخية أيـضا أن الجامع ظل عـامرا بالـشعائر إلى منتصف القرن الـعاشر الهجرى / السادس عشـر الميلادى، ثم بدأ يتعرض للعديد من المحن والأحداث الدامية التى أفضـت إلى خرابه وتعطيل الشعائر به واندرست أغلب أجزائه وعـناصره المعمارية، ربما بسبب اتساع رقعـته التى تربو على الثلاثة أفدنـة، وربما لضيـاع الأوقاف، المحبـوسة علـيه، فحوله العـثمانـيون إلى مخزن للمهمات الحربية والسروج وغيرها، واتخذ منه الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر قلعة وثكنات للجـند، وأطلقوا عليه اسم سيكـوفسكى، حسبما ورد فى تاريخ الجبرتى الـذى يذكر فى حـوادث سنة ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٨ م أنهم " جـعلوا جـامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية قلعة، ومنارته برجا، ووضعوا على أسواره مدافع، وأسكنوا به جماعة من العسكر، وبنوا فى داخله عدة مساكن تسكنها العسكر المقيمة فيه ". وتحول فى عصر محمد على إلى معسكـر لطائفة التكارنة، ثم إلى مخبز للجراية، فمصنع للصابون. وزاد الطين بلة قيام ناظر الوقف الشيخ الشرقاوى المشرف عليه، بنقل بـعض أعمدته إلى الجامع الأزهر لتشـييد رواق الشراقوه فى عام ١٢٢٧ هـ/ ١٨١٢ م، كما استخدم البعض الآخر لتزيين قصر النيل وفقا لرواية العالم الفرنسى بريس دافن. وفى سنـة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م اتخذ مـنه جيش الاحتلال الـبريطانى مذبـحا يجهزون فـيه ما يأكلون من الحيـوان حتى أنه يعرف إلى اليـوم عند العامة بمذبح الإنجليز، مع أن الـذبح أوقف فيه منذ سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م قامت بعدها مصـلحـة الآثار بـثلاث سنـوات أى فى سنـة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م بإصلاح بعض أجزائه خاصة الجزء المحيط بالمحـراب وجعلت منه مصلى، أمـا الباقى فقد حولته مصـلحة التنظـيم إلى متنزه عام ظل باقـيا حتى سنة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م حيث قررت مصلحة الآثار إلغاءه تمهيدا لترميم الجامع وإعادته إلى حالته الأولى، ولكن كان هذا لم يتم إلى الآن.

خلاصة الـقول أن تخطيط الجامع يتألف من مستطيل غير منتظم الأضلاع إذ يصل طول ضـلعه الشمـالى إلى ١١١,٣٣ مترا وطول ضـلعه الجنوبى ١١٠,٩٣ مترا، وطول ضلعه الشرقى ١٠٨,٠٥ مترا، وطول ضلعه الغربى ١٠٩,٤٦ مترا،

وجدرانه مشيدة من الخارج بحجارة منحوتة تعرف بالمشهر، نتيجة لاستخدام صفين من حجارة ملونه أصفر وأحمر على التوالى، وصل ارتفاعها إلى ما يقرب من أحد عشر مترا، كان يعلوها شراريف مسننة، بقى بعضها فى الجهة الشرقية يصل ارتفاع الواحدة منها إلى ما يقرب من ١,٦٥ متر، كما تتميز الجدران الخارجية للمسجد أيضا بوجود أربعة أبراج ركنية، البرجان الشمالى الشرقى، والجنوبى الشرقى مربعان، أما البرجان الشمالى الغربى، والجنوبى الغربى فلهما تخطيط مستطيل، وهى جميعا مصمته من الداخل باستثناء البرج الجنوبى الغربى الذى يضم بداخله سلم يفضى إلى سطح المسجد. وزودت الجدران الخارجية للمسجد أيضا بدعامات ساندة لمقاومة الضغط الطارد لبائكات رواق القبلة والرواق الغربى المقابل له، نجد منها ثمان على امتداد الجدار الجنوبى، وهى تعكس لنا بعض التأثيرات الصليبية على العمارة المملوكية فى مصر، ربما بسبب استعانة السلطان الظاهر بيبرس ببعض آسرى الصليبيين فى البناء.

والحديث عن الجدران الخارجية للمسجد يحتم علينا الإشارة كذلك إلى انه مزود بثلاثة مداخل محورية بارزة، تذكرنا بالمدخل الغربى لجامع الحاكم بأمر الله الفاطمى المتأثر بجامع المهدية فى تونس. المدخل الغربى منها أكبرها حجما، وأكثرها بروزا، إذ يبلغ اتساعه ١١,٨٣ مترا، ويبرز عن سمت الواجهة بحوالى ٨,٨٦ مترا، يتوسطه فتحة مدخل اتساعها حوالى أربعة أمتار، يعلوها عقد مفصص، يشتمل على صنجات متراصة أشبه بالوسائد التى نشاهدها فى برجى باب الفتوح من سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م، كان يرتكز على زوجين من الأعمدة المندمجة، لا وجود لهما فى الوقت الحالى، يزين تواشيحه دخلتان ضحلتان، يتوج كل منهما عقد منكسر به أضلاع مشعة، بصدره جامة مفصصة، تحصران فيما بينهما نجمتان بداخل كل منهما لفظ الجلالة بالخط الكوفى، يعلوهما شريط من كتابات كوفية قرآنية اندرس معظمها الآن.

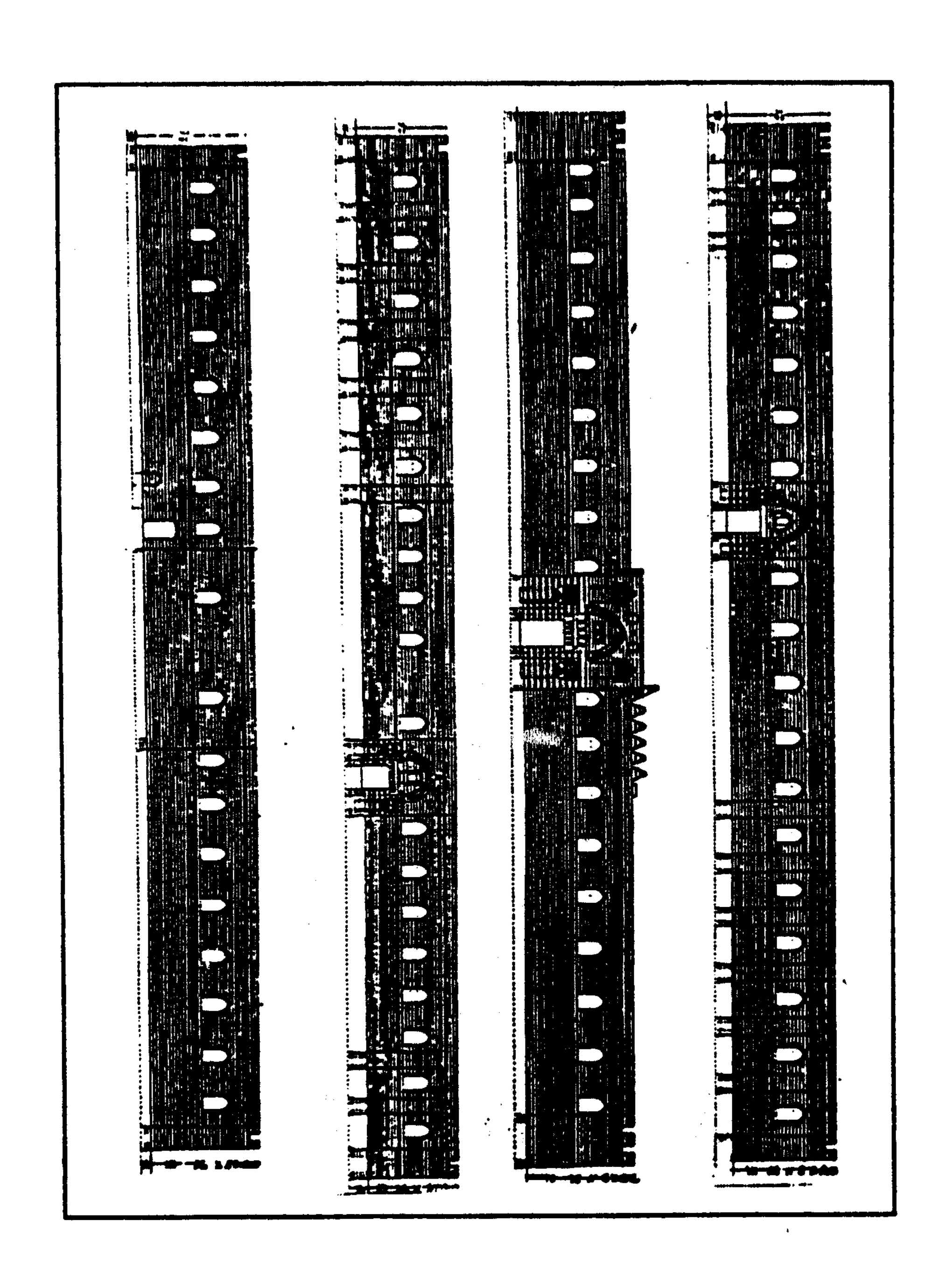
ويوجد أيضا على جانبى فتحة المدخل من أسفل حنيتان مستطيلتان تزدحمان بزخارف من المقرنصات. أما الجانبان البارزان للمدخل فيزين كل منهما ثلاث حنايا

مستطيلة، يعلو كل منهما عقد منكسر، بصدره جامة مستديرة، ويعلو الحنايا الثلاث ثما[illegible] معينات، وثلاث جامات تحصر بداخلها زخارف نباتية ورسوم هندسية [illegible]بعة.

وتفضي [illegible]حة المدخل إلى ممر مستطيل مغطى في أوله بقبو مدبب، وفي نهايته بقبة حجرية ترتفع فوق مثلثات كروية، وهو يفتح على باب المسجد الذي يعلوه عقد مستقيم من صنجات رخامية معشقة، بأعلاه عقد عاتق بنفيسه لوحة رخامية بها كتابة تاريخية من خمسة أسطر بخط النسخ نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم / يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر / ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين صاحب القبلتين / الآمر ببيعة الخليفتين خادم الحرم الشريفين أبو الفتح بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه وذلك بتاريخ الرابع عشر من ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة (١٢ يناير ١٢٧٦م)".

وكان يعلو هذا المدخل مئذنة المسجد التي اندرست بدورها وإن ظلت بضعة من أطلالها باقية إلى الآن، ويرجح عالم العمارة الإسلامية كريسويل أنها كانت تشبه مئذنة المدرسة الصالحية نجم الدين أيوب التي تسبقها بأربعة وعشرين عاما.

ويعد المدخل الثاني للمسجد أي الشمالي أصغر حجما وأقل بروزا واتساعا من المدخل الغربي، إذ يصل اتساعه إلى ٨,١٣ مترا ويبرز عن سمت الجدران بحوالي أربعة أمتار، ويعلوه عقد مدبب يحيط به إطار من زخارف نباتية متشابكة، أربيسك، ويغطي صنجه الحجرية شريطان من زخارف هندسية بكل منهما خط متعرج، زجزاج، ويشغل تواشيحه جامتان مستديرتان بهما زخارف نباتيه، ويكتنفه على الجانبين دخلتان مستطيلتان يتوج كل منهما صدر مقرنص، بأسفله حنية معقودة بعقد محاري تبدو أشبه بمحراب. وتنتهي فتحة المدخل بممر مسقوف بقبو متقاطع، ينتهي بباب مستطيل يعلوه عقد مستقيم من صنج رخامية معشقة، بأعلاه عقد عاتق يحيط بنفيسه كتابات قرآنية نسخيه، كما يشتمل نفيسه على لوح رخامي



شكل (٥٠)

قطاعات رأسية لواجهات جامع الظاهر بيبرس

نقلا عن منظمة المدن والعواصم الإسلامية

به نص تاريخى يشتمل على ثمانية أسطر بخط النسخ المملوكى جاء فيها" بسم الله الرحمن الرحيم " اللهم أعز الإسلام / وجنده وانصره لا غلبة بعده ببقاء / الآمر أمر بعمارة هذا الجامع المبارك / مولانا وسيدنا السلطان الملك الظاهر / ركن الدنيا والدين وسلطان الإسلام والمسلمين / أبو الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين / خلد الله ملكه وذلك بتاريخ الرابع عشر من / ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة(١٢ يناير ١٢٦٧م)" .

أما المدخل الثالث الجنوبى، فهو لا يختلف كثيرا عن المدخل الشمالى المقابل له إلا فى بعض التفاصيل الثانوية، حيث نجده أكبر قليلا ويعلوه عقد مدبب، يزين إطاره فصوص متجاورة، ويكتنفه على الجانبين دخلتان يتوج كل منهما صدر مقرنص يليه إلى أسفل حنية مجوفة معقودة، تبدو أشبه بمحراب يتوجه طاقية محارية، كما يعلو كل دخله جامة مستديرة بها كتابات قرآنية يعلوها معين به زخارف نباتيه. ويفضى هذا المدخل بدوره إلى ممر مسقوف بقبو متقاطع يؤدى إلى باب المسجد الداخلى الذى يعلوه أيضا عقد مستقيم من صنجات حجرية معشقة، يرتفع فوقه عقد عاتق يزينه كتابة كوفية قرآنية، ويضم داخل نفيسه لوحة رخامية بها كتابات تاريخية تشتمل على ثمانية أسطر نسخية بقى منها ستة أسطر فقط نصها " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء / هذا الجامع المبارك تقربا إلى الله / العظيم وإظهارا لقوة الدين القويم مولانا، وسيدنا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو الفتح / بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين خلد الله / ملكه. . . "

ويزين واجهات الجامع اثنتان وسبعون نافذة بواقع ثماني عشرة نافذة بكل واجهة، يعلوها عقود مدببة، ويحيط بها إطار من كتابات كوفية قرآنية، ويغشيها ستائر جصية تضم زخارف نباتية متشابكة أو زخارف هندسية تمثل أطباقا نجمية، كانت محلاة بقطع من زجاج ملون اندرس أغلبه.

أما فيما يتعلق بتخطيط الجامع من الداخل فهو يتبع نظام المساجد ذات الأروقة، أى صحن أوسط سماوى، طوله ٦٩,٣٢ مترا، وعرضه ٦٠ مترا يحيط

به أربعـة أروقة، تطل عليه بـواسطة أربع بانكـات تتألف من دعامات من الآجر، يعـلوها ثلاثـة عشر عـقدا فى الـشرق والغـرب، وأحد عشـر عقدا فى الـشمال والجنـوب. ويعد رواق الـقبلة الـشرقى أكبـر هذه الأروقة، إذ يـشتمل على ست بلاطات موازية للـمحراب، يفـصلها ست بائـكات تتألف من أعـمدة رخامية أو دعامات من الآجر، يعلوها عقود مدببة يحزم أرجلها أربطة خشبية لا يزال بعضها باقيا إلى الآن، ويقطعها أمام المحراب مجاز قاطع، يشتمل فى قسمه الغربى المطل على الصحن على ثلاث بلاطات عمودية على المحراب بواسطة بائكتين بكل منهما عمودين وثلاثـة عقود، وينتـهى فى قسمه الشـرقى أمام المحراب بمقـصورة مربعة يحيط بها ثماني دعامات ضخـمة بأركانها الأربعة أعمدة مندمجة، كان يعلوها قبة خشبـية فى حجم قبة الإمام الشافعى، وفقا لـرواية المقريزى السابق الإشارة إليها، لم يـعد لها وجود فى الوقت الحـاضر، ويتصدر الجـدار الشرقى محراب غفل من الزخرفة، يرجح البعض أنه كان مكسيا بالرخام الملون على جانبيه دخلتان يعلوهما نافذتـان ويعلو المحراب لوح من الحجر الجيـرى به نص تاريخى يشتمل على أربعة أسطر بخط النسخ المملوكى نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه القبة / المباركـة مولانا الـسلطان المـلك الظاهـر / ركن الدنيا والـدين سلطان الإسلام والمسلمـين أبو الفتح بـيبرس الصـالحى قسيم أميـر المؤمنين فى سـنة ست وستين وستمائة (١٢٦٨ م)".

ويشـتمل الرواق الغـربى المقابل له على بلاطـتين متوازيـتين يقطـعهما أمام المدخل مـجاز عمودى عـلى المحراب، على العـكس تماما من الـرواقين الشمالى والجنوبى الذى يتألف كل منهما من ثلاث بلاطات تسير عمودية على جدار القبلة، يقطعها إلى الغرب قليلا أمام المدخل مجاز موازى للمحراب.

بقى أن نشيـر إلى أن أغلب معالم هـذا المسجد قـد ضاعت واندرست عبر السنـين ولم يبق منهـا سوى أساس بعض الأعـمدة والدعامـات التى كانت تحمل العقود التى سقط أغلـبها باستثناء بضعة نتوءات معلقة فى الهواء تستعطف المجلس الأعلى للآثار ليعيد هذا الجامع إلى سابق عهده من العظمة وفخامة البناء، وحسبه أنه خلع اسمه على أحد ميادين مدينة القاهرة، نقصد ميدان الظاهر.

مجموعة المنصور قلاوون:

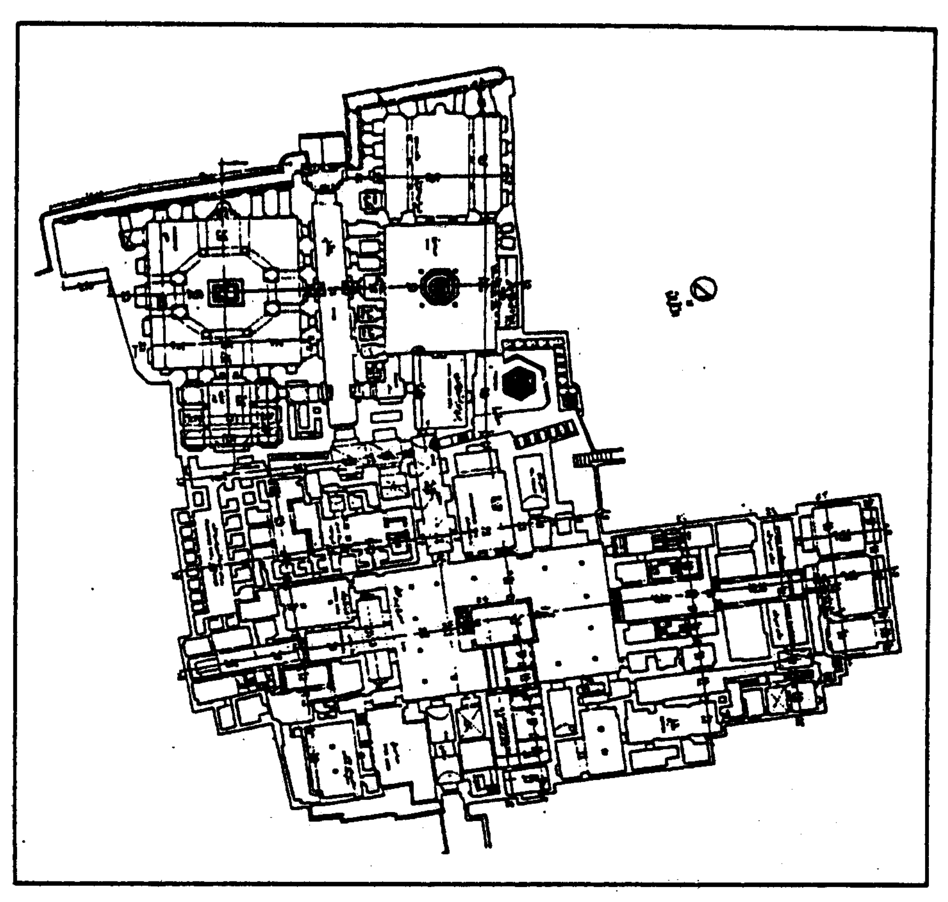
تقع بشارع المعز لدين الله أمام قبة الصالح نجم الدين والمدرسة الظاهرية، أمر بإنشائها السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى، على رقعة من أرض القصر الغربى الفاطمى، كان يشغل جزء منه قاعة كبيرة لست الملك أخت الخليفة الحاكم بأمر الله، ثم عرفت بدار الأمير فخر الدين چهاركس، بعد زوال الخلافة الفاطمية، وبدار موسك، ثم انتقلت إلى الملك المفضل قطب الدين أحمد ابن العادل أبى بكر ابن أيوب، وصار يقال لها الدار القطبية، ولم تزل بيد ذريته إلى أن أخذها المنصور قلاوون من مؤنسة خاتون إبنة الملك العادل، المعروفة بالقطبية، وعوضت عن ذلك قصر الزمرد برحبة باب العيد، مع مبلغ من مال حمل إليها، ووقع البيع على هذا، بسفارة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى، فى سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣ م، ورسم بعمارتها مارستانا وقبة ومدرسة، وندب الأمير المذكور للعمارة، فأخرج النساء من القطبية من غير مهلة، وأخذ ثلاثمائة أسير من أسرى الفرنج، وجمع صناع القاهرة ومصر وتقدم إليهم بأن يعملوا بأجمعهم فى الدار القطبية ومنعهم أن يعملوا لأحد فى المدينتين شغلا، وشدد عليهم فى ذلك، ونقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من العمد الصوان والرخام والقواعد، والأعتاب وغير ذلك.

ويفهم من المقريزى أيضا أنه " صار يركب إليها كل يوم وينقل الأنقاض المذكورة على العجل إلى المارستان، ويعود... فيقف مع الصناع على الأساقيل حتى لا يتوانوا فى عملهم. وأوقف مماليكه بين القصرين، فكان إذا مر أحد، ولو جل، ألزموه أن يرفع حجرا ويلقيه فى موضع العمارة، فينزل الجندى والرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك ". حتى تم الغرض فى أسرع مدة وهى أحد عشر شهرا وأيام.

ويروى لنا المقريزى كذلك سبب بناء المنصور قلاوون لهذه المجموعة، أنه "لما توجه وهو أمير غزاة الروم، فى أيام الظاهر بيبرس سنة خمس وسبعين وستمائة (١٢٧٦م)، أصابه بدمشق قولنج عظيم فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له

من مارستان نور الدين الشهيد فبرأ، وركب حتى شاهد المارستان فأعجب به ونذران أتاه الله الملك أن يبنى مارستانا، فلما تسلطن أخذ فى عمل ذلك... ولما نجزت العمارة، وقف عليها الملك المنصور من الأملاك بديار مصر وغيرها، ما يقارب ألف ألف درهم فى كل سنة، ورتب مصارف المارستان، والمدرسة، ومكتب الأيتام».

ويفهم أيضا من النص التاريخى الذى يعلو مدخل هذه المجموعة أن البدء فى هذه العمارة كان فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٨٣هـ / يونيو ١٢٨٤ م، والفراغ منها فى جمادى الأولى سنة ٦٨٤هـ/ يوليو ١٢٨٥م، وهذا يعنى أن بناء القبة والمدرسة والبيمارستان استغرق أربعة عشر شهرا وليس كما زعم المقريزى أحد عشر شهرا وأيام. بيد أن عظم مساحة هذه المجموعة وكثرة زخارفها تجعل المرء يتشكك فى هذا النص بدليل ما ذكره النويرى فى تاريخه إذ يقول: «وإذا شاهد الرائى هذه العمارة العظيمة وسمع أنها عمرت فى هذه المدة القريبة، ربما أنكر ذلك». وبدليل ما ذكره المرحوم حسن عبد الوهاب الذى قال: «وكل ما أستطيع الأخذ به أن هذه التواريخ كتبت عند الفراغ من كتلة البناء أو الواجهات لا الزخرف»، ودعم زعمه هذا بما ورد من روايات تاريخية بعد وفاة السلطان المنصور قلاوون، فقد جاء فى تاريخ ابن الفرات أن المنصور قلاوون حينما اعتزم السفر إلى عكا ونزل بمخيمه فى منزلة مسجد التبر، وكان عليلا، اشتد مرضه فبقى هناك إلى أن توفى يوم ٦ ذى القعدة سنة ٦٨٩هـ / ١٠ نوفمبر ١٢٩٠م، وحمل إلى قلعة الجبل ليلا واستمر إلى آخر يوم الخميس غرة المحرم سنة ٦٩٠هـ / ٤ يناير ١٢٩١م، وأضاف أيضا أنه " فى الثانى محرم نقلت جثته من القلعة إلى تربته إلى أنشأها بالمدرسة المنصورية داخل القاهرة ". وقد عزز هذه الرواية كل من مفضل ابن أبى الفضائل، وابن شاكر الكتبى والمقريزى، إذ يذكر الأخير " أنه لما كان فى يوم الخميس مستهل المحرم سنة ٦٩٠هـ (٤ يناير ١٢٩١م)، بعث الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون بجملة مال تصدق به فى هذه القبة، ثم أمر بنقل أبيه من القلعة. فخرج سائر الأمراء، ونائب السلطنة الأمير بيدرا بدر الدين،



شكل (٥١)

- مسقط أفقي لمجموعة المنصور قلاوون، نقلا عن عن منظمة المدن والعواصم الإسلامية

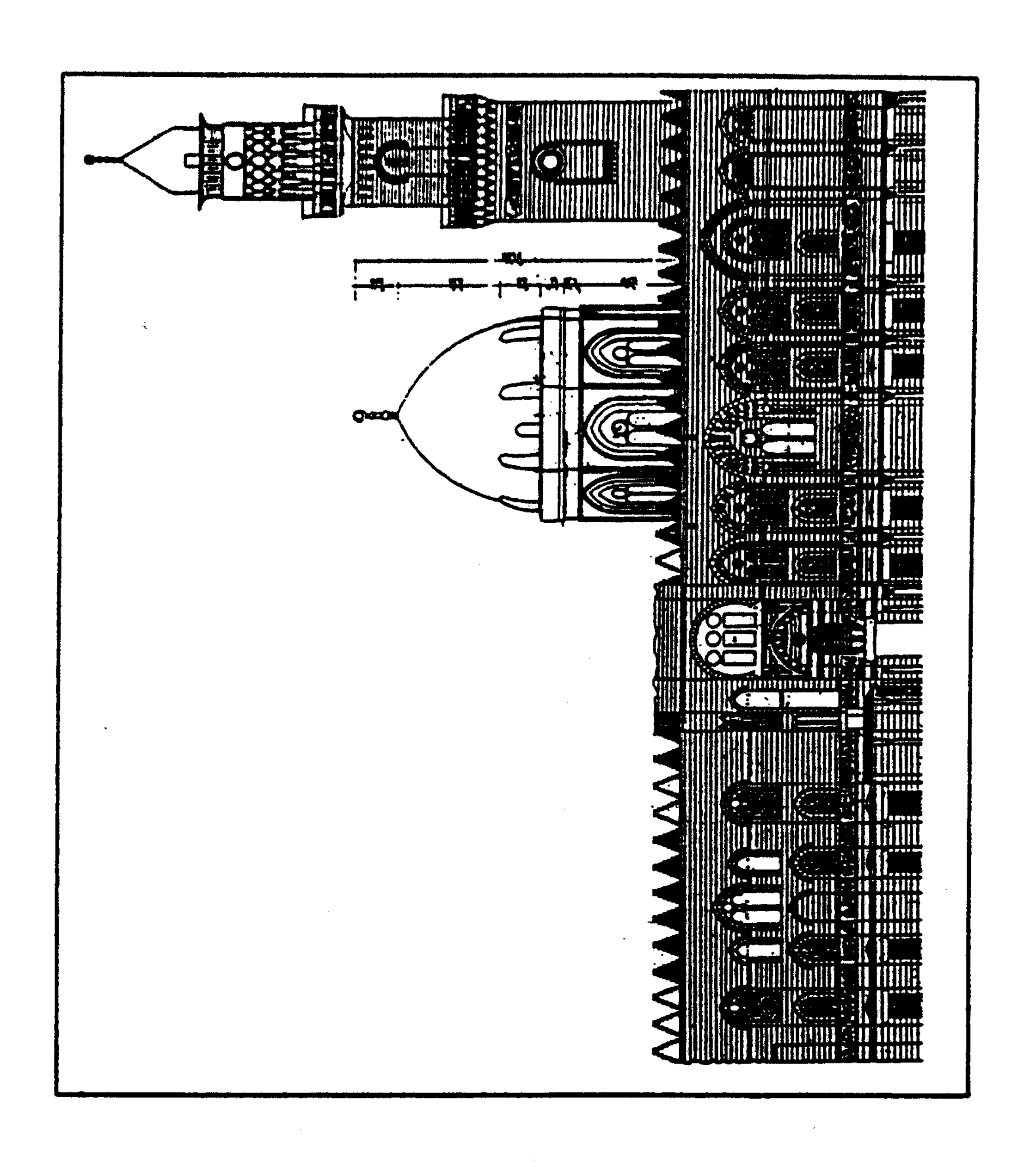
والوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس التنوخى، وحضروا بعد صلاة العشاء الآخرة، ومشوا بأجمعهم قدام تابوت الملك المنصور إلى الجامع الأزهر، وحضر فيه قاضى القضاة، تقى الدين بن دقيق العيد، وصلى على الجنازة، وخرج الجميع أمامها إلى القبة المنصورية حتى دفن فيها، وذلك فى ليلة الجمعة ثانى المحرم، وقيل عاشره ".

وهذا يعنى ببساطة عند المرحوم حسن عبد الوهاب، أن هذه المجموعة تمت بناء ورخاما وزخرفا فى أول سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م، وتكون بذلك قد استغرقت

سبع سنين وثمانية أشهر، وهى المدة المعقولة لبناء هذه المجموعة الشامخة بمختلف فنون العمارة الدقيقة.

وتطل الواجهة الحجرية لهذه المجموعة أى الشرقية، على شارع المعز لدين الله على امتداد سبعة وستون مترا، ويصل ارتفاعها حتى قمة الشرافات المسننة التى تتوجها، إلى ما يقرب من عشرين مترا ونصف المتر، وهى تنقسم إلى كتلتين، شمالية تمثل واجهة القبة وبطرفها الشمالى الشرقى مئذنة المجموعة، وجنوبية تمثل واجهة المدرسة والبيمارستان وهى تبرز عن سمت الواجهة بحوالى عشرة أمتار.

والمتأمل لهذه الواجهة يرى منظرا من أروع المناظر للعمارة المملوكية بالقاهرة، يعكس لنا العديد من التأثيرات الشامية، إذ يشغل واجهة القبة ثمان حنايا راسية معقودة بعقود مدببة، أما واجهة المدرسة فبها خمس حنايا فقط ترتفع جميعها فوق دعامات حجرية، تستند بدورها على أعمدة رخامية، تضم بداخلها ثلاثة صفوف من نوافذ تعلو بعضها البعض، النوافذ الأرضية مستطيلة الشكل، يغطيها مصبعات معدنية، يعلوها نوافذ معقودة يغشيها ستائر جصية بها زخارف هندسية معشقة بزجاج ملون، يرتفع فوقها نوافذ ثلاثية الفتحات من النوع المعروف بقندلون أو شند. ويعلو النوافذ الأرضية إزار عريض به كتابات نسخية بارزة، كانت فى الأصل مذهبة على أرضية حمراء تشتمل على اسم المنشئ وألقابه وتاريخ الإنشاء نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه القبة الشريفة والمدرسة المعظمة والبيمارستان المبارك تقربا إلى الله سبحانه وتعالى سيدنا ومولانا السلطان الأعظم الملك المنصور العالم العادل المؤيد المظفر المجاهد المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين سلطان الأرض ذات الطول والعرض ملك البسيطة سلطان العراقين والمصريين ملك البرين والبحرين وارث الملك ملك ملوك العرب والعجم صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين قلاوون الصالحى قسيم أمير المؤمنين أدام الله نصره وأعز أنصاره وأعلا مناره وضاعف اقتداره وعمر أمصاره أوحد الملوك العصرية صاحب الديار المصرية... الأملين كنز العفاة والمنقطعين منصف المظلومين من الظالمين قاتل الكفرة والمشركين



شكل (٥٢)

قطاع رأسي للواجهة الشرقية لمجموعة المنصور قلاوون

قاهر الخوارج والمتمردين سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى قسيم أمير المؤمنين أدام الله أيامه وكان ابتداء ذلك فى بعض شهور سنة ثلاث وثمانين وانتهاؤه فى بعض شهور سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية " .

ويلاحظ أيضا أن المئذنة لم ترتبط بالمدخل كما هى العادة بالنسبة للمنشآت الدينية، بل تشغل الطرف الشمالى للواجهة، ربما بسبب وجود المئذنة التى كانت ملحقة بالمدرسة الظاهرية بيبرس أمام هذه المجموعة، وما قد يتسبب عنه من إهتزاز للصورة البصرية للمنطقة، وهى مكونة من ثلاثة طوابق، الأول مربع يعلوه شرفة على مقرنصات، يعلوها بدن مربع آخر أصغر حجما، ينتهى بدوره بشرفة مثمنة، فتح بهما نوافذ معقودة بعقود على هيئة حدوة الفرس، والطابق الثالث أسطوانى به نقوش دقيقة وكتابات جصية ويتوج أعلاه خوذة المئذنة التى ينبثق منها عصى وسائل الإضاءة ويخرج من أعلاها قائم ينتهى بهلال نحاسى. وهذه المئذنة من تجديد السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤م تحت إشراف الأمير سيف الدين كهرداش المنصورى، بعد سقوطها فى زلزال ذى الحجة سنة ٧٠٢ هـ / أغسطس ١٣٠٣م، كما يستشف من النص التاريخى الذى يحيط بأعلى مربع الطابق العلوى أسفل المقرنصات، ويشتمل على أربعة أجزاء، نقشت بخط النسخ جاء فيها: " بسم الله الرحمن الرحيم اللهم جدد الرحمة والرضوان على روح الملك المنصور رحمه الله / أمر بتجديد هاذة (كذا) المآذنة (كذا) فى أيام ولده مولانا السلطان الملك الناصر أبى الفتح محمد / وذلك عند ظهور الآيات المنزلة وسقوط أعاليها عند حدوث الزلزلة فى شهور / سنة ثلاث وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها الصلوة (كذا) والسلام " . وكان لهذه المئذنة أهمية خاصة فى العصور الإسلامية إذ كان قاضى القضاة يعلن رؤية هلال رمضان من فوقها .

ويتوسط هذه الواجهة مدخل المجموعة، وهو يقع داخل حنية عميقة رأسية، يتوج أعلاها عقد على هيئة حدوة الفرس، يضم بداخله ثلاث نوافذ مستطيلة، يعلوها قمرية مستديرة، يوجد أسفل منه حنية يعلوها عقد مدبب من صنج رخامية

معشقة باللونين الأبيض والأسود أى أبلق، يزين تواشيحه زخارف هندسية متقاطعة على شكل ميمة معقودة بأعلى قمة العقد الذى فتح بصدره نافذة ثلاثية عبارة عن فتحتين معقودتين على ثلاثة أعمدة حلزونية يعلوها قمرية، من النوع المعروف بقندلون أو شند، يوجد أسفل منها فتحة المدخل وهى بارتفاع أربعة أمتار ونصف المتر، يعلوها عقد مستقيم من الرخام نقش فوقه نص تاريخى، يشتمل على سطرين بخط النسخ جاء فيهما " أمر بإنشاء هذه القبة الشريفة المعظمة والمدرسة المباركة والبيمارستان المبارك مولانا السلطان الاعظم الملك المنصور / سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى وكان ابتداء عمارة ذلك فى ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة (يونيو ١٢٨٣ م) والفراغ منه فى جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين وستمائة (يوليو ١٢٨٥ م) ".

وهذا الباب يفتح على دهليز طويل، عرضه أربعة أمتار ويمتد غربا إلى مسافة تقرب من الأربعة والثلاثين مترا يعلوه سقف خشبى جميل يتألف من قصع أو أحقاق مثمنة كانت فى الأصل مجلدة بالتذهيب والألوان، فتحت على جانبيه أربعة أبواب، اثنان جهة الشمال يؤديان إلى القبة، واثنان جهة الجنوب فى مقابلهما يفضيان إلى المدرسة بالإضافة إلى باب خامس فى نهاية الدهليز يؤدى إلى البيمارستان.

وتشغل القبة مسطحا مساحته ٤١ × ٢٧ مترا، وهى تنقسم إلى قسمين إحداهما شرقى يمثل القبة وهى ذات مدخل مستقل يفضى إليها مباشرة، قام عبد الرحمن كتخدا بإغلاقه فى عام ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م، والثانى غربى وله أيضا مدخل يفضى إلى دركاه تؤدى إلى مساحة مستطيلة يبلغ طولها ثلاثة عشر مترا وعرضها عشرة أمتار، يتوسطها أربعة أعمدة من الجرانيت الوردى، تقسم هذه المساحة إلى ثلاثة أقسام أكبرها أوسطها، كما تقسم هذا الجزء إلى فناء مكشوف يحيط به رواقان فى الشمال والجنوب يغطى كل منهما ثلاث قباب ضحلة على مثلثات كروية، وإيوان فى الغرب يعلوه قبو مدبب، على حين يشغل الضلع الشرقى منه مدخل ينفذ إلى القسم الشرقى أى إلى القبة، يتألف من حجاب من

خشب الخرط، يعلوه ثلاث نوافذ معقودة، يرتفع فوق الوسطى منها نافذة ثلاثية، قندلون أو شند، يغشيها جميعا ستائر جصية ذات زخارف هندسية، نفذت على أرضية، تشتمل على عناصر نباتية متداخلة متشابكة، ارابيسك، تعكس لنا تأثيرات أندلسية، تذكرنا بالزخارف الجصية بقصر الحمراء بالأندلس.

ويصف المقريزى هذا القسم الغربى بقوله " قاعة جليلة فى وسطها فسقية يصل إليها الماء من فوارة بديعة الزى وسائر القاعة مفروش بالرخام الملون، وهذه القاعة معدة لإقامة الخدام الملوكية الذين يعرفون فى الدولة التركية بالطواشية . . . وأدركتهم ولهم حرمة وافرة، وكلمة نافذة، وجانب مرعى . . . وقصد الملوك بإقامة الخدام فى هذه القاعة التى يتوصل إلى القبة منها، إقامة ناموس الملك بعد الموت، كما كان فى مدة الحياة، وهم إلى اليوم لا يمكنون أحدا من الدخول إلى القبة إلا من كان من أهلها ".

وذكر الجبرتى أيضا فى معرض حديثة عن عمائر الأمير عبد الرحمن كتخدا أنه قام "بتجديد المارستان المنصورى، كما قام بهدم أعلى القبة الكبيرة المنصورية، والقبة التى كانت بأعلى الفسحة من خارج، ولم يعد عمارتها بل سقف قبة المدفن فقط وترك الأخرى مكشوفة ". الأمر الذى يعنى ببساطة أن هذا القسم أى الغربى كان مغطى بقبة تقوم فوق الأعمدة الأربعة التى توجد بالصحن، ويرجح كذلك أن المساحات الجانبية المحيطة بها كانت بدورها مغطاه بسقف خشبى كما هو الحال بالنسبة للقسم الشرقى الذى يضم القبة، وهى عبارة عن مساحة شبه مربعة ٢١ × ٢٣ مترا، يتوسطها أربع دعامات من الآجر مكسية بالرخام الدقيق المطعم بالصدف، مخلق فى نواصيها أربعة أعمدة رخامية، أقيم وسطها أربعة أعمدة ضخمة من الجرانيت ذات تيجان مذهبة، يجمعها من أعلى إفريز رخامى دقيق، يعلوه إفريز منقوش مذهب، فوقه إفريز ثالث به آيات قرآنية وتاريخ تجديد القبة بحروف مذهبة على أرضية زرقاء.

وتحمل الدعامات والعمد ثمانية عقود مدببة يزين باطنها وحافتها زخارف جصية، ويتوج كل عقد قمرية مستديرة تعلوها نافذة ثلاثية قندلون أو شند، من

الجص والزجاج الملون، أحيطت بزخارف جصية مورقة، يليها رقبة القبة، فالقبة نفسها التى هدمها الأمير عبد الرحمن كتخدا نظرا لخطورتها على الطريق، إلا أن لجنة حفظ الآثار العربية أقامت واحدة أخرى بدلا منها فى سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م على مثال قبة الأشرف خليل بن قلاوون المعاصرة لها. ويغطى ما حول المثمن أسقف خشبية تتألف من قصع أو أحقاق مثمنة مجلدة بالتذهيب واللازورد، نقش بها اسم المنصور قلاوون أو من براطيم خشبية تحصر فيما بينها مربوعات وتماسيح أى مناطق مستطيلة ومربعة يزينها زخارف نباتية أو هندسية ويتوسط الضلع الشرقى محراب يتميز بضخامته وثراء زخارفه، يكتنفه من كلا الجانبين ثلاثة عمد رخامية ملونة ويتوجه عقد على شكل حدوة الفرس، يزين تواشيحه فسيفساء رخامية مطعمة بالصدف، خردة، وبتجويفه أربعة صفوف من محاريب صغيرة يعلوها طواقى محارية مذهبة، محمولة على عمد خزفية رشيقة.

أما جدران القبة وفتحات النوافذ والكتبيات المحيطة بها، فهى مكسية بالرخام المطعم بالصدف، يزينه رسوما هندسية أو كتابات كوفية مربعة تشتمل على اسم محمد مكررا ثماني مرات أو اثنتي عشرة مرة داخل لوحات مستطيلة، يعلوها شريطان عريضان بأحدهما زخارف نباتية وبالآخر كتابات نسخية مذهبة وملونة تتضن تاريخ التجديد الذى قامت به لجنة حفظ الآثار العربية لهذه القبة وزخارفها وتاريخ الفراغ من هذا التجديد فى سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨ كما سبق أن نوهنا من قبل. ويتوسط أرضية القبة بوسط المثمن تركيبة خشبية منقوشة بكتابات كوفية ونسخية، ويشتمل جانبين من جوانب هذه التركيبة على حشوات مثمنة ومسدسة محفورة بالأويمة الدقيقة، كتب بأعلاها "... الدنيا والدين قلاوون الصالحى سلطان الإسلام والمسلمين قدس الله روحه ونور ضريحة انتقل إلى رحمة الله تعالى... ".

ويحيط بالمثمن الداخلى للقبة مقصورة من خشب الخرط، حليت بنقوش وكتابات نسخية، أمر بعملها الناصر محمد بن قلاوون ونقش عليها النص التالى:
" بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه المقصورة مولانا السلطان المالك الملك الناصر ناصر الدنيا والدين سلطان الإسلام (والمسلمين)... ونشر فى الخافقين (و)

البرين ألويته وأعلامه وجعل النصر والتأييد خلفه وأمامه بمحمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا " .

وقد دفن بهذه التربة المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد، وابنه عماد الدين إسماعيل، كما أضيف إلى التركيبة الخشبية فى سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م شاهدين رخاميين، يعلو أحدهما عمامة عثمانية بها ريشة مذهبة، وعلى الآخر آبيات من الشعر.

هذا ويعلو مدخل القبة الشرقى نص تاريخى يشتمل على أربعة أسطر بخط النسخ المملوكى يشير إلى أن العمل فى هذه القبة استغرق فقط خمسة أشهر، جاء فيه " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه القبة الشريفة المعظمة مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى قسيم أمير المؤمنين أدام الله أيامه وحرس أنعامه ونشر فى الخافقين ألويته وأعلامه وكان ابتداء عمارتها فى شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة والفراغ منها فى صفر سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة المحمدية النبوية (ديسمبر ١٢٨٤ - أبريل ١٢٨٥م)" .

ويفهم من المقريزى أنه كان بهذه القبة دروس للفقهاء على المذاهب الاربعة، كما كان بها خمسون مقرئا يتناوبون القراءة بالشبابيك المطلة على الشارع طول الليل والنهار. وكان بها أيضا إمام راتب يصلى بالخدام والقراء وغيرهم الصلوات الخمس. وكان بها كذلك خزانة جليلة فيها عدة أحمال من الكتب فى شتى أنواع العلوم مما وقفه الملك المنصور وغيره، وقد ذهب معظم هذه الكتب وتفرق فى أيدى الناس. وكانت تضم أيضًا خزانة بها ثياب المقبورين بها ولهم فراش معلوم بمعلوم لتعهدهم" .

وتقوم المدرسة أمام القبة على امتداد الضلع الجنوبى وتشغل مساحة قدرها ٥٥ × ٢٥ مترا وينفذ إليها من خلال مدخلين أحدهما شرقى والآخر غربى، والأخير يفتح على دركاه صغيرة مفروشة بالرخام الملون تفضى من ركنها الشمالى الشرقى إلى داخل المدرسة، وهى تتألف من صحن أوسط مكشوف تبلغ مساحته ٥٠, ٢٠ × ١٧مترا، كان بوسطه فسقية مثمنة فرشت أرضيتها بالبلاط وكسيت من

الخارج بالرخام الملون، يحيط به أربعة إيوانات الشرقى والغربى أكبرها، أما الشمالى والجنوبى فهما صغيران وقد أطلقت عليهما وثيقة الوقف لفظة صفتين، ويفهم أيضا من وثيقة الوقف أنه كان يفتح عليه ستة عشر بابا متجاورا يعلوها ظله خشبية محمولة على كرادى يعلوها ميازيب لتصريف مياه الأمطار.

ويعد إيوان القبلة الشرقى أكبر هذه الإيوانات وأكثرها اتساعا وهو ينقسم إلى ثلاث بلاطات عمودية على المحراب بواسطة بائكتين، بكل منهما ثلاثة أعمدة من الجرانيت الوردى، يعلو كل منهم دعامة مستطيلة يرتكز عليها عقود مدببة، بأعلى قمة كل عقد قمرية مستديرة، يعلوها نافذتان مستطيلتان أسفل السقف مباشرة غشيت بزخارف جصية، البلاطة الوسطى أكبرها وأكثرها اتساعا يفهم من الوثيقة أنها كانت مغطاة بسقف خشبى مسطح نقيا، كانت تزخرفه مناطق غائرة على شكل مربعات ومثمنات وقباب صغيرة، كانت جميعها مطلية بالذهب واللاذورد وألوان أخرى، كان يوجد أسفل هذا السقف إفريز يتألف من ثلاثة صفوف من المقرنصات الخشبية، يليه إلى أسفل إزار كتابى باللون الأبيض على أرضية من اللازورد، وذلك على العكس من البلاطتين الجانبيتين، فكان يغطى كل منهما أقبية متقاطعة من الآجر المغطى بالجص وبصدر البلاطة الوسطى محراب أقل فخامة من محراب القبة يكتنفه أربعة أعمدة يعلوها عقد على شكل حدوة لفرس، ويشغل تواشيحه زخارف فسيفسائية مذهبة، ويعلوه كتابة نسخية يستشف منها أن بناء هذه المدرسة استغرق أربعة أشهر فقط، إذ جاء فيه " أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة الشريفة مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاون (كذا) الصالحى قسيم أمير المؤمنين أدام الله أيامه / وحرس إنعامه ونشر فى الخافقين ألويته وأعلامه وكان ابتداء عمارتها فى صفر سنة أربع وثمانين/ وستمائة والفراغ منها فى جمادى الأولى من السنة المذكورة للهجرة المحمدية (ابريل - يوليو ١٢٨٥)".

ويوجد إلى جوار المحراب منبر بسيط من عمل الأمير أزبك من ططخ، الذى قام بعمارة المدرسة فى سنة ٨٩٩هـ / ١٤٩٤ م وأضاف قبة أعلى الفسقية

التى كانت تتوسط الصحن. ويلاحظ أن هذه البلاطة الوسطى تفتح على الصحن بواسطة بائكة من مستويين ذات عقود مدببة، الأوسط أكثر اتساعا وارتفاعا ويرتكز على عمودين من الرخام، كما يشغل المستوى العلوى ثلاثة عقود أخرى مماثلة، يعلو قمة العقد الأوسط منها قمرية، على حين تطل كل من البلاطتين الجانبيتين الشمالية والجنوبية، لهذا الإيوان من خلال باب مربع، تعلوه نافذتان معقودتان أحدهما فوق الأخرى، يرجح أنها كانت مغشاة بستائر جصية معشقة بزجاج ملون.

ويقع فى مقابل إيوان القبلة الشرقى إيوان غربى مستطيل التخطيط، كان يتوج فتحته عقد من الآجر المغشى بالجص، يرتكز على عمودين من الرخام ويتوسط صدر الإيوان باذاهنج أى فتحة للإنارة والتهوية، كما كانت جدرانه مزينة بوزرة رخامية متعددة الألوان ومزودة بنوافذ قندلية بسيطة أو قندلون أى شند، مغشاه بستائر جصية معشقة بزجاج ملون. ويفهم من وثيقة الوقف أنه كان مغطى بسقف خشبى مسطح نقيا، شاميا مزين بمختلف الزخارف المغرقة بالذهب والألوان المتنوعة، ويوجد أسفله حول جدران الإيوان إزار به كتابات كوفية منقوشة بالازورد والأصباغ المختلفة. ومن المعروف أنه أجريت بهذا الإيوان إصلاحات عديدة غيرت من بعض معالمه.

أما فيما يتعلق بالإيوانين الشمالى والجنوبى أى الصفتين كما جاء فى الوثيقة، فيلاحظ أن الأول يشغله المدخل الشرقى للمدرسة ولا يزال يحتفظ بأغلب معالمه إذ يوجد على جانبيه ستة أبواب بواقع ثلاثة أبواب على كل جانب منه، تفضى إلى حجرات برسم سكن الفقهاء، ربما كانت على ثلاثة طوابق، وذلك على العكس تماما من الإيوان الجنوبى المقابل له الذى ضاعت أغلب معالمه، إذ نجده فى الوقت الحالى يطل على الصحن بواسطة بائكة ثلاثية العقود عى شكل حدوة الفرس، ترتكز على عمودين من الرخام، يرجح أنها من ضمن أعمال الأمير عبد الرحمن كتخدا فى المدرسة سنة ١١٩٠هـ / ١٧٧٦م. وكان يشغل جانبيه أيضًا ستة أبواب، مثل الإيوان الشمالى المقابل، لم يعد باقيا منها سوى

بابين فقط فى الطرف الشرقى من الإيوان، يفضى كل منهما إلى حجرة صغيرة برسم سكنى فقهاء المدرسة، ولعلها كانت أيضا على ثلاثة طوابق، إذ تشير الوثيقة إلى وجود سبع وعشرين بيتا فى ثلاثة طوابق، وبكل طابق ثلاثة مراحيض، كانت أرضيتها مفروشة بالبلاط وجدرانها مكسية بالبياض، بيد أنها أصبحت اثرا بعد عين.

ويذكر النويرى أن السلطان قلاوون رتب بهذه المدرسة المباركة فأصبح هناك "إمام شافعى... ورئيس ومؤذنون يعلنون بالأذان بالمئذنة الكبرى المذكورة... وهم رئيس وأربعة مؤذنين... ورتب بها متصدر لإقراء كتاب الله عز وجل... ورتب بها دروسا للمذاهب الأربعة الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة، لكل طائفة مدرس... وثلاثة معيدين... وخمسين طالبا... وغير هؤلاء من القومة والفراشين وبواب".

ولما تولى الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك نظر المجموعة، نحت الحجارة المبنى بها الجدر كلها فى سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٦ م، حتى صارت كأنها جديدة، وجدد تذهيب الطراز بظاهر المدرسة والقبة... ونقل أيضا حوض ماء كان برسم شرب البهائم... على يسار المدخل الرئيسى للمجموعة، وأبطله لتأذى الناس بنتن رائحة ما يتجمع قدامه من الأوساخ، وأنشأ سبيل ماء يشرب منه الناس عوض الحوض المذكور "، وهو يتألف من واجهتين: شرقية وهى الرئيسية وتطل على شارع المعز لدين الله وبها عمودان من الرخام الأول يشغل الركن الشمالى الشرقى، والثانى يتوسط الواجهة المذكورة، يعلو كلا منهما دعامة حجرية يرتكز عليها سقف السبيل الخشبى مباشرة. أما الواجهة الثانية فهى شمالية وتطل على مدخل المجموعة بواسطة باتكة تشتمل على أربعة عقود مدببة ترتفع فوق ثلاثة أعمدة رخامية، وبداخل السبيل طابقان، أحدهما أرضى يحتوى على صهريج مدفون تحت الأرض يعلوه حجرة تسبيل المياه وهى مستطيلة الشكل ومغطاه بسقف خشبى نقش بزخارف نباتية وهندسية، يحيط بأسفله إزار خشبى به كتابات تاريخية، نقشت بخط النسخ المملوكى يقطعها الرنك الكتابى للسلطان الناصر محمد ابن قلاوون، بقى منها النص التالى: "بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا

السبيل المبارك المبرور مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبى الفتح بن مولانا. . . الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون سنة. . . " ويتوسط هذا السقف قبة خشبية صغيرة ذات رقبة مثمنة كسيت جوانبها بالقاشانى المكتوب بآيات قرآنية بخط النسخ المملوكى، وفتح بهما ثماني نوافذ خشبية ذات عقود ثلاثية الفصوص، بها زخارف نباتية وهندسية مفرغة، غاية فى الدقة والجمال.

أما فيما يتعلق بالبيمارستان الذى كان بمثابة الدافع الرئيسى وراء تشييد هذه المجموعة الضخمة فيفهم من المقريزى أن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى أبقى قاعة ست الملك على حالها وعملها بيمارستانا كما أمدنا بالوصف التالى لها "وهى ذات إيوانات أربعة، بكل إيوان شاذروان وبدور قاعتها (أى فنائها) فسقية يصير إليها من الشاذروانات الماء".

وأضاف أيضا أنه "لما نجزت العمارة استدعى قدحا من شراب المارستان، وشربه وقال: قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى، وجعلته وقفا على الملك والمملوك والجندى والأمير، والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكور والإناث". وتؤكد وثيقة الوقف رواية المقريزى هذه، فقد جاء فيها بصدد البيمارستان أنه بأقصى هذا الدهليز، باب كبير معقود بالطوب الآجر، والجبس، بعتبة سفلى صوانا، يغلق عليه زوج أدراف، مدهون مذهب، بحشوات منقوشة مذهبة، وصفائح حديد مذهبة، يدخل منه إلى قاعة كبرى وهى البيمارستان المبارك، تحوى أربعة أواوين متقابلة سقفه نقيا بقباب وأخياط مغرقة بالذهب واللاذورد والأصباغ المختلفة، وأربع قاعات متفرقة، ومطبخ وبيوت برسم الحواصل، وفسقية كبيرة بديعة الشكل، تعلوها قبة محمولة على أربعة عمد رخام أبيض مكملة القواعد الرخام المذهبة، وأربعة أركان حجر نحيت مرخم ظاهرها بالرخام الأبيض والأزرق والأحمر. . . . ".

وتؤكد الوثيقة أيضا على وقفه " لمدواة مرضى المسلمين، الرجال والنساء، من الأغنياء والمثرين والفقراء والمحتاجين، بالقاهرة ومصر وضواحيها من المقيمين بهما والواردين إليهما من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوضاعهم

وتـباين أمراضـهم وما أصابهم من أمـراض الأجسام، قلت أو كـثرت، اتفقت أو اختـلفت، أمراض الحواس خفيت أو ظهرت، واختلاف العقول التى حفظها أعظم المقاصـد والأغراض وغيـر ذلك مما تدعـو حاجـة الإنسان إلى صلاحه وإصلاحه بالأدويـة والعقاقير المتـعارفة عند أهل صناعة الـطب، والاشتغال فيه بعلم الطب، والأشغال به. يدخلونه جموعا ووحدانا، وشيوخا وشبانًا، وبلغا وصبيانا، وحرما وولدانا، يقـيم به المرضى الفقـراء من الرجال والـنساء لمداواتـهم إلى حين برئهم وشفائهم، ويصـرف ما هو معد فـيه للمدواة، ويـفرق للبعـيد والقريب والأهلى والغـريب، والقـوى والضعـيف، والدنى والشـريف، والعـلى والحقيـر، والغنى والفقير.. ".

ويفهم كذلك من المصادر التاريخية والوثيقة أن السلطان قلاوون " جعل فيه فراشـين من الرجال والنـساء لخدمة المـرضى، وقرر لهم المعـاليم، ونصب الأسرة لـلمرضى وفرشهـا بجميع الفـرش المحتاج إليه فى المرض، وأفـرد لكل طائفة من المرضى موضعا فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها، وأفرد قاعـة للرمدى، وقـاعة للجرحى، وقـاعة لمن به إسهال، وقـاعة للنـساء، ومكانا للـمبرودين ينقسم بقـسمين: قسم للرجال، وقسم لـلنساء. وجعل الماء يجرى فى جميع هذه الأماكن، وأفرد مكانا لطبخ الطعام والأدوية والأشربة، ومكانا لتركيب المعاجين والأكـحال والشيـافات والادهان والسفـوفات والأقراص، وغير ذلك من الأغذية المناسبة للمـرضى كل حسب حالته الصحية. والعناية أيضا بمراعاة القواعد الصحية الدقيقة التى تمثلت فى الحرص عل تغطية أغذية المرضى بالمكبات حتى لا يتلوث الطعام، وصرف آنية مستقـلة لكل مريض ليستعملها فى غذائه وشرابه، لا يشاركه فيـها غيـره منعا لانـتقال العـدوى من مريض إلى آخر، بل ووصل الأمر كذلك إلـى توفير مراوح من الخـوص ليستخـدمها المرضى فى الـتخفيف من حدة حرارة الصيف. هذا بالإضافة إلى توفير الأطباء من طبائعيين وجرائحيين وكحالين لمباشرة المرضى، وإلزامهم بالمبيت فى البـيمارستان ليلا مجتمعين أو متناوبين تحسبا لما يحدث للمرضى من أزمات أثناء الليل. وشرط السلطان قلاوون على الكحالين ضرورة التواجد صباح كل يوم لمداواة أعين الرمداء بالبيمارستان وكل من يرد إليهم

بحيث لا يرد أحد بغير علاج، كما أكد على ضرورة مراجعة الكحال للطبائعى، للنظر سويا فى علاج المريض حتى تتضاعف الفوائد المقتبسة من اجتماعهما، ومما كان يجرى بينهما من الكلام فى الأمراض ومدواتها، ومما كانا يصفاه للمرضى. وكانت خدمات البيمارستان المنصورى تشمل كسوة المرضى الخارجين منه بعد شفائهم، ومنح كل منهم خمسة دنانير ذهبية حتى لا يضطر إلى العمل الشاق فور مغادرته للبيمارستان، وكذا تجهيز ودفن من يمت من مرضاه، " ومدارته فى قبره بما يليق بين أهله ". بالإضافة إلى تدريس الطب، فقد نصت وثيقة الوقف على ضرورة تعيين شيخ للاشتغال بتدريس الطب، يكون من بين أطباء البيمارستان، وخصصت له مكانا محددا يلقى فيه دروس الطب على طلبته، كل ذلك بفضل الأوقاف التى حبسها عليه السلطان قلاوون والتى بلغ الفائض من ريعها فى سنة ٨٥١هـ / ١٤٤٧م، أى بعد مرور ما يقرب من قرنين على إنشائه، ما يقرب من أربعة عشر ألف دينار؛ لذلك كان من الطبيعى أن يصفه الرحالة ابن بطوطة بقوله: " فيعجز الواصف عن محاسنه ".

وبمرور الوقت تعرض البيمارستان المنصورى للتدهور بسبب سوء إدارته وتبديد ريع أوقافه، يشهد بذلك تلك الصورة القاتمة التى رسمها له جومار، أحد علماء الحملة الفرنسية، فى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى، واقتصر فى سنة ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٦م، على استقبال مرضى الأمراض العقلية فقط، الذين نقلوا بدورهم إلى ورشة الجوخ ببولاق، ثم إلى مستشفى العباسية فى سنة ١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م. ليعود بعدها البيمارستان إلى استقبال المرضى فى شتى التخصصات، حتى تم تخصيصه فى عام ١٣٣٣هـ / ١٩١٥م لأمراض العيون فقط، بعد أن فقد أغلب معالمه الأثرية، إذ لم يبق منه سوى ثلاثة أواوين، الشرقى منها مستطيل الشكل، لم يتبق منه سوى جزء بسيط من جداره الشمالى وبه نافذتان متلاصقتان يحيط بهما شريطان من كتابات كوفية قرآنية وزخارف نباتية، والحنية المعقودة التى بصدره التى يتوسطها شاذروان من الرخام، تنحدر منه المياه إلى حوض من الفسيفساء الرخامية الدقيقة التى تضم أشكالا

هندسية متنوعة وكان مسقوفا بسقف خشبى نقى يتألف من قصع أو أحقاق مذهبة ومطلية بالألوان المختلفة، عثر بأسفله عل بقايا إزرار خشبى. ووصلنا كذلك بقايا الجدار الشمالى والجدار الجنوبى للإيوان الغربى الذى كان يتصدره أيضا شاذروان من الرخام حليت حافته بحيوانات تنحدر عليها المياه إلى حوض من الفسيفساء الرخامية تمتد منه قناة مبطنة بالرخام لا تزال بقاياها قائمة.

أما الإيوان الثالث أى الشمالى فهو يطل على الدور قاعة بواسطة بائكة ثلاثية العقود، يتخذ كل منها شكل حدوة الفرس، أكبرها العقد الأوسط الذى يرتكز على زوج من الأعمدة، يتقدمه أيضا سقيفة ترتكز على أربعة أعمدة، وهى تمتد بطول الضلع الشمالى للدور قاعة. ومن المعروف أنه أجريت لهذا الإيوان العديد من عمليات الإصلاح والترميم، ومع ذلك فإن حالته تبدو فى غاية من السوء شأن أغلب أجزاء هذه المجموعة التى تخضع فى الوقت الحالى لأكبر عملية ترميم يقوم بها المجلس الأعلى للآثار المصرية.

خانقاه بيبرس الجاشنكير:

تقع بشارع الجمالية الممتد من شارع النصر، تجاه الدرب الأصفر، شيدها السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورى فى سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٨م كما جاء فى وثيقة الوقف، أى قبل أن يلى السلطنة، وفرغ منها فى ١٦ رمضان سنة ٧٠٩هـ / ١٧ فبراير ١٣١٠م، ومع ذلك فقد ذكر المقريزى بصددها ما نصه " هذه الخانقاه من جملة دار الوزارة الكبرى... وهى أجل خانقاه بالقاهرة بنيانا وأوسعها مقدارا، وأتقنها صنعا، بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورى قبل أن يلى السلطة وهو أمير، فبدأ فى بنائها فى سنة ست وسبعمائة (١٣٠٧ م) وبنى بجوارها رباطا كبيرا يتوصل إليه من داخلها، وجعل بجانب الخانقاه قبة بها ". وأضاف أيضا أنه" لما شرع فى بنائها رفق بالناس ولاطفهم ولم يعسف فيها أحدا فى بنائها، ولا أكره صانعا ولا غصب من آلاتها شيئا، وإنما اشترى دار الأمير عز الدين الأكرم التى كانت بمدينة مصر واشترى دار الوزير هبة الله بن صاعد الفائزى وأخذ ما فيهما من الأنقاض، واشترى أيضا دار

الأنماط التى كانت برأس حارة الجودرية من القاهـرة ونقضها وما حولها، واشترى أملاكـا كانت قد بنيت فى أرض دار الوزارة من ملاكها بـغير إكراه وهدمها، فكان قـياس أرض الخانقاه والربـاط والقبة نحو فـدان وثلث " وروى كذلك أنه" عندما شرع فى بنـائها حضر اليه الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير بكتاش الفخرى أمير سلاح. . . وعرفه أنه بـالقصر الذى فيه سكن أبيه مغارة تحت الأرض كبيرة، يذكر أن فيها ذخيـرة من ذخائر الفاطميين، وأنهم لمـا فتحوها لم يجدوا بها سوى رخام كثير، فسـدوها ولم يتعرضـوا لشىء مما فيها. فـسر بذلك وبعث عدة من الأمراء فتحوا المكان فإذا فيه رخام جليل القدر عظيم الهيئة، فيه ما لا يوجد مثله لعظمه، فنقله من المغارة، ورخم منه الخانقاه والقبة وداره وذكر أيضا أنها لما كملت فى سنة تسع وسبعمائـة (١٣١٠م) قرر بالخانقاه أربعمائـة صوفى، وبالرباط مائة من الجند وأبناء الناس الـذين قعد بهم الوقت وجعل بها مطبخا يفرق على كل منهم فى كل يوم اللحم والطعام وثلاثـة أرغفة من خبز البر، وجعـل لهم الحلوى ورتب بالقبة درسا للحديث النبـوى له مدرس وعنده عدة من المحدثـين، ورتب القراء بالشباك الكبير، يتناوبـون القراءة فيه ليلا ونهارا ووقف علـيها عدة ضياع بدمشق وحماة، ومـنية المخـلص بالجـيزة من أرض مصـر، وبالصـعيـد والوجه البـحرى، والربع والقيسارية بالقاهرة "، أضاف إليـها ابن الجيعان قريتين هما العادلية من توابع ثغر دمياط، ومخفان من الأعمال الجيزية.

ويفهم من المقريزى كذلك أنه بعد خلع السلطان بيبرس من السلطنة والقبض عليه وقتله، أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون "بغلقها، فغلقت، وأخذ سائر ما كان موقـوفا عليـها، ومحا اسـمه من الطراز الذى بـظاهرها فـوق الشبابيك، وأقامت نحو عشـرين سنة معطلة، ثم أنه أمر بـفتحها فى أول سنة ست وعشرين وسـبعمائة (١٣٢٥م)، وبعد سعى حثيث لابنـة بيبرس فتحت، وأعاد إليها ما كان موقوفا عـليها، فعادت الحياة إليهـا مرة اخرى إلى أن شرقت أراضى مصر لقصور ماء النيل، أيام المـلك الأشرف شعبان فى سنـة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤م فبطل طعامها وتـعطل مطبـخها، مع استـمرار صرف الخبـز ومبلغ سبـعة دراهم لكل واحد من

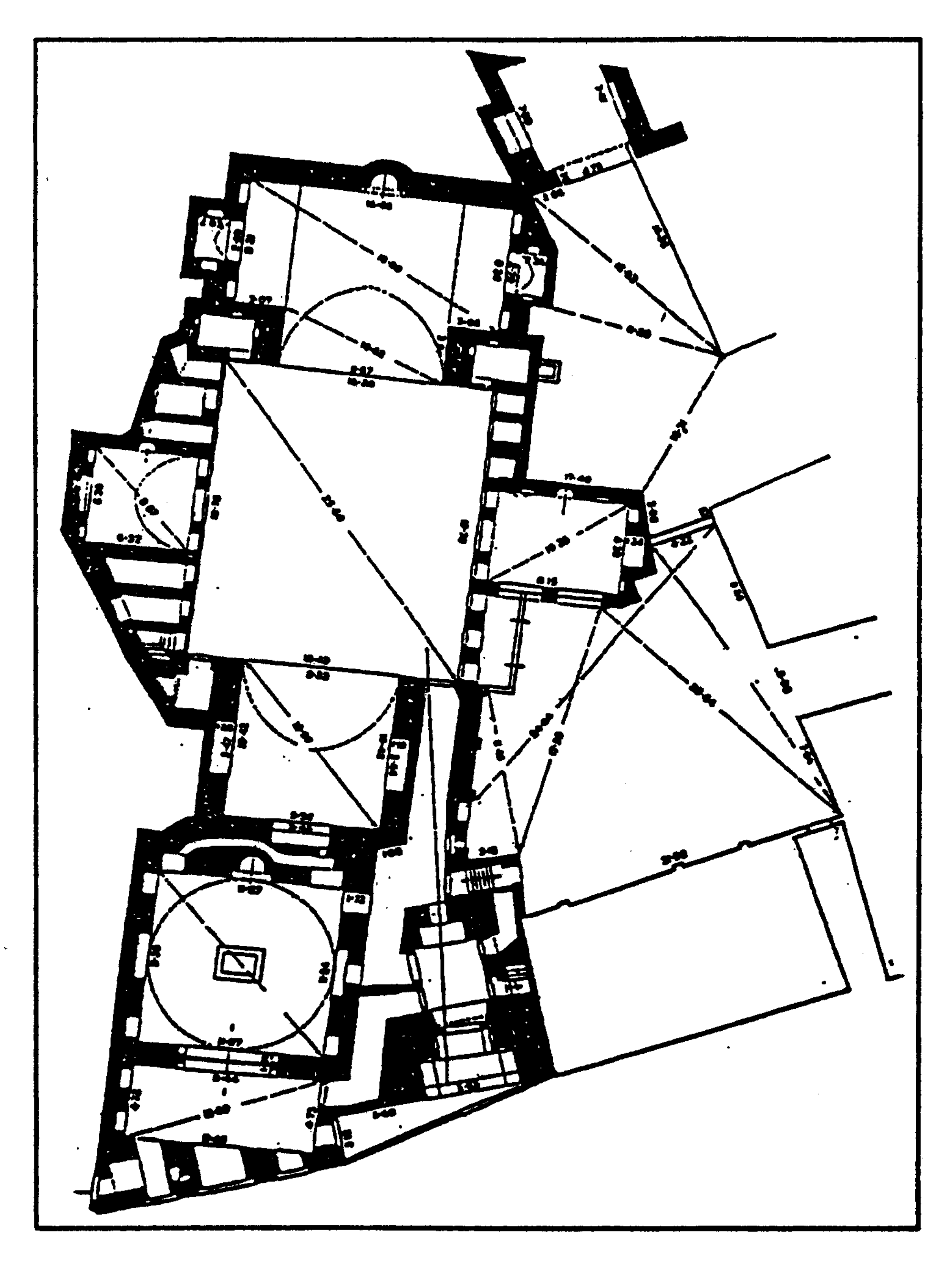
صوفيتها فى الشهر فلما قصر مد النيل ثانية فى سنة ٧٩٦هـ /(١٣٩٤م) بطل صرف الخبز أيضا وغلق المخبز من الخانقاه وصار الصوفية يأخذون فى كل شهر مبلغا من الفلوس من معاملة القاهرة " حتى عصر المقريزى فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى.

ويروى نفس المؤرخ أيضا أنه أدركها " ولا يمكن بوابها غير أهلها من العبور إليها والصلاة فيها لما لها فى النفوس من المهابة، ويمنع الناس من دخولها حتى الفقهاء، والأجناد وكان لا ينزل بها أمرد".

وهذه الخانقاه تشغل مساحة مستطيلة غير منتظمة الأضلاع، يبلغ طولها سبعين مترا وعرضها ثلاثين مترا، وواجهتها الرئيسية أى الغربية مشيدة من الحجر، وتتألف من قسمين: جنوبى مغشى بالرخام، يشغله كتلة المدخل، شمالى، تشغله القبة التى تبرز عن سمت الواجهه بحوالى ثلاثة أمتار وبه خمس تجاويف رأسية يتوجها صدور مقرنصة ويزينها نوافذ الخانقاه.

والمدخل فتح داخل تجويف عميق معقود بعقد نصف دائرى يتألف من صنج متراصة أشبه بالوسائد، يليه إلى الداخل حنية يعلوها نصف قبة محمولة على مقرنصات ركنية، فتح بصدرها قمرية مستديرة تضم صنجات رخامية بيضاء وسوداء على التوالى، أبلق، يليها إلى أسفل نافذة يغشيها مصبعات معدنية تعلو عقد مستقيم أبلق، يتألف من صنج بيضاء وسوداء معشقة، يتوج فتحه المدخل التى يغلق عليها باب خشبى من مصراعين، مصفح بالنحاس يزينه أطباق نجمية متعددة موزعة توزيعا زخرفيا بديعا نفذت بالحفر البارز والغائر، يحيط بها من أعلى وأسفل شريطان من الكتابات النسخية المكفتة بالفضة نصها: "أمر بإنشاء هذه الخانقاه السعيدة من فيض الله وجزيل إحسانه لجماعة الصوفية العبد الفقير ركن الدين بيبرس المنصورى راجيا بذلك عفو مولاه وغفرانه". يكتنفه من أسفل مكسلتان من الرخام يعلو كل منهما حنية بها زوجان من الأعمدة الرخامية

ويعلو هذا المدخل مئذنة الخانقاه لتزن الخط العام للسماء مع القبة التى تعلو المدفن وهى من الآجر وتضم ثلاثة طوابق تتألف من قاعدة مربعة ضخمة، فتح



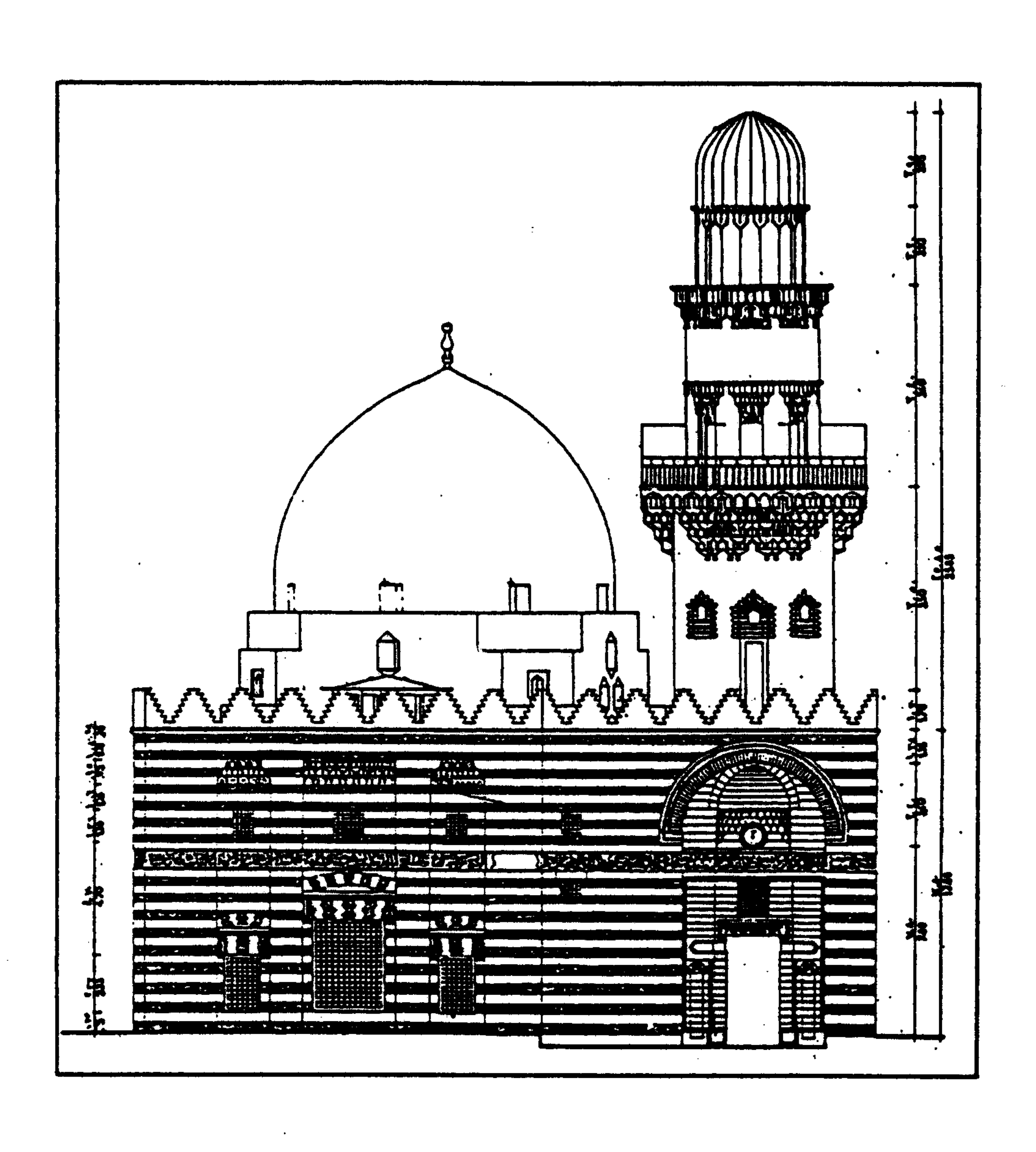
شكل (٥٣)

مسقط أفقي لخانقاه بيبرس الجاشنكير، نقلا عن كريسويل

بكل ضلع نافذة معقودة بعقود مشعة، وبداخلها سلم ملتف، يرتفع فوقها شرفة ذات قاعدة مثمنة تزدحم بالمقرنصات يلتف حولها دروة خشبية، يعلوها طابق ثان أسطوانى الشكل فتح به باب مستطيل للمؤذن، وعدة فتحات ضيقة مقرنصة بأعلاه أيضا شرفة ترتكز على مجموعة من المقرنصات دروتها مفقودة حاليا، يعلوها طابق ثالث يتألف من ثمانى دعامات حجرية يعلوها عقود مدببة، يغطيها خوذه مضلعة كانت مكسية بالقاشانى الأزرق، نجد نظيرا لها فى قمة مئذنة المدرسة الصالحية، وفى مئذنة زاوية الهنود، وفى مئذنتى جامع الحاكم، وهما من تجديد بيبرس الجاشنكير بعد زلزال سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣م.

ويتوج هذه الواجهة الغربية التى شيدت من حجارة ذات صفوف بيضاء وحمراء أى مشهر، شرافات مسننة، كما يزينها إزار من كتابات نسخية نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ويسبح فيها بالغدو والآصال، رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وأقام الصلاه وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار وليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب. أمر بإنشاء هذه الخانقاه السعيدة وقفا مؤبدا على جماعة الصوفية من فيض فضل الله تعالى وجزيل إحسانه راجيا بذلك عفوه وغفرانه العبد الفقير إلى الله تعالى...... ركن الدين بيبرس المنصورى عبد الله والفقير إليه الراجى رحمته يوم القدوم عليه ضاعف الله ثوابه وزكى أعماله ويسر له أسباب ما بسط إليه من المعروف آماله بمنه وكرمه وافضاله وصلى الله على سيدنا محمد...".

ويلاحظ أنه تم إزالة أحد نصوص هذا الازار على امتداد متر تقريبا لذا يرجح بعض الباحثين أنه كان يشتمل على عبارة " السلطان الملك المظفر " الذى أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمحوها وإزالتها بعد القبض على بيبرس الجاشنكير وقتله كما جاء فى خطط المقريزى الذى ذكر أنه " محا اسمه من الطراز الذى بظاهرها فوق الشبابيك " الأرضية التى يغشيها مصبعات معدنية، ويتوسطها شباك كبير من النحاس لعله الشباك الذى حدثنا عنه المقريزى بقوله: "ولهذه القبة



شكل (٥٤)

قطاع رأسي لخانقاه بيبرس الجاشنكير، الواجهة الغربية

نقلا عن العواصم والمدن الإسلامية

شبابيك تشرف على الشارع المسلوك فيه من رحبة باب العيد إلى باب النصر. من جملتها الشباك الكبير الذى حمله الأمير أبو الحارث الباساسيرى من بغداد لما غلب الخليفة القائم العباسى وأرسل بعمامته وشباكه الذى كان بدار الخلافة من بغداد وتجلس الخلفاء فيه... فلما ورد هذا الشباك من بغداد عمل بدار الوزارة، واستمر فيها إلى أن عمر الأمير بيبرس الخانقاه المذكورة، فجعل هذا الشباك بقبة الخانقاه وهو بها إلى يومنا هذا وانه لشباك جليل القدر حشم، يكاد يتبين عليه أبهة الخلافة.

ويفضى مدخل الخانقاه إلى دركاه مستطيلة الشكل يبلغ طولها حوالى خمسة أمتار ونصف المتر، وعرضها حوالى أربعة أمتار يعلوها قبة ضحلة تقوم على مثلثات كروية، بصدرها دخلة معقودة بعقد مدبب نافذه تشرف على الدهليز الذى ينتهى شرقا بصحن الخانقاه، وغربا بالقبة، ويوجد على يمين الدركاه أى إلى الجنوب منها بابين معقودين بعقد منكسر يؤدى الباب الغربى منهما إلى السلم الموصل إلى السطح، ويؤدى الباب الثانى الشرقى إلى غرفة على هيئة زاوية قائمة. ويوجد أيضا على يسار هذه الدركاه أى شمالها بابين آخرين معقودين بعقد مدبب، الغربى منهما صغير يفضى إلى دهليز منكسر مغطى بقبو مدبب، ببدايته ملقف هواء وبنهايته قاعة أو فناء مستطيل يتقدم القبة. أما الباب الثانى أى الشرقى، فهو كبير ويؤدى إلى دهليز طويل منكسر يفتح فى نهايته الشرقية على صحن الخانقاه، ويتصل فى نهايته الغربية بالقبة.

ويتألف تخطيط الخانقاه من الداخل من صحن أوسط مكشوف يتعامد عليه أربعة إيوانات أو مجموعة من خلاوى الصوفية وقبة المنشئ والصحن مستطيل الشكل يبلغ طوله حوالى عشرون مترا وعرضه ستة عشر مترا ونصف المتر أرضيته مفروشة بالحجر الجيرى يطل عليه شرقا إيوان القبلة وهو مستطيل الشكل تبلغ أطواله ١٢,١٥ × ٩,٩٠ مترا يعلوه قبو مدبب من الآجر المغشى بالملاط ويتصل به من شمال وجنوب سدلتان بكل منهما ملقف هواء لتلطيف جو الإيوان، وكتبيتان لحفظ المصاحف وكتب الأحاديث ويتصدر جداره الشرقى محراب ضخم

يعلوه عقد مدبب يرتكز على زوج من الأعمدة الرخامية المثمنة، وهو عار من الزخرف، يوجد إلى يمينه منبر خشبى حديث.

ويقع الإيوان الغربى فى مقابل إيوان القبلة وهو أيضا مستطيل الشكل تبلغ مقايسه ٣,١٠ × ٩,٢٥ مترا أرضيته مفروشة بالحجر الجيرى ويعلوه عقد مدبب ويتوسط كل من ضلعيه الشمالى والجنوبى دخله معقودة، كما يتصدر ضلعه الغربى دخله ثالثة أكثر عمقا تشتمل على جلسة حجرية مفروشة بالبلاط، وعلى ملقف هوائى لترطيب جو الإيوان. ويتوسط الضلع الجنوبى للصحن إيوان ثالث أصغر حجما له تخطيط مستطيل إذ يبلغ طوله حوالى ثمانية أمتار وعرضه ستة أمتار، أرضيته مفروشة بالحجر الجيرى، ويغطيه قبو مدبب، يتصدر ضلعه الشرقى محراب بسيط على جانبيه دخلتان ضحلتان كما يتوسط جداره الجنوبى دخلة عميقة يكتنفها أيضا دخلتان ضحلتان، وهو يفتح على الصحن بواسطة ثلاثة مداخل الأوسط أكثر اتساعا يعلو كل منها عقد مستقيم من صنج حجرية معشقة فتح فوقها عقد عاتق يعلوه فوق المدخل الأوسط نافذة يتوجها سقيفة مقرنصات. أما المدخلان الجانبيان فيعلو كل منهما نوافذ معقودة بعقود منكسرة ذات زخارف مشعة.

ويتوسط الإيوان الرابع الضلع الشمالى للصحن وهو أصغر إيوانات الخانقاه ولا يختلف كثيرا عن الإيوان الجنوبى المقابل له إذ يشغل مساحة شبه مربعة طول ضلعها ستة أمتار وبضعة سنتيمترات وهو مسقوف أيضا بقبو مدبب ويطل على الصحن بواسطة ثلاثة مداخل، الأوسط منها أكثر اتساعا ويتصدر جداره الشرقى محراب بسيط يعلوه عقد مدبب كما فتح فى جداره الشمالى ثلاث دخلات، الوسطى أكثر اتساعا من الجانبيتين، ويمتد على جوانب الصحن الأربعة الخلاوى المخصصة لإقامة الصوفية التى تشير وثيقة الوقف أنها كانت تقرب من المائة خلوة موزعة على ثلاثة طوابق تلاشت معظم جدرانها وسقوفها وبقى منها اثنتان فقط بالضلع الشرقى، وخمس بالضلع الشمالى، وثلاثة بالضلع الجنوبى، وخلوة واحدة بالضلع الغربى، كما اندرس أيضا من منشآت الخانقاه المطبخ والمخبز والمغسل وحظائر الدواب ونحوها.

وتشغل قبة المدفن التى شيدت بعد عامين من تشييد الخانقاه فى سنة ٧٠٩هـ / ١٣١٠ م بناء على وصية المنشأ لتكون مدفنا يقرأ فيه القرآن بصفة دائمة بالليل والنهار كما جاء بوثيقة الوقف، تشغل الطرف الغربى من الخانقاه ويغطى واجهة مدخلها حجاب من خشب الخرط. وهى تتألف من مساحة مربعة طول ضلعها ١١,٣٥ مترا غشيت جدرانها بالرخام الدقيق إلى ارتفاع يقرب من ثلاثة أمتار ونصف المتر يضم لوحات بالخط الكوفى المربع تتضمن اسم محمد مكرر عدة مرات، بالإضافة إلى العديد من الاشكال الهندسية الملونه كما يحيط بجدارن القبة شريطان زخرفيان من الخشب، العلوى تزينه زخارف نباتية بارزة، والسفلى كتابات قرآنية بخط النسخ من سورة الملك. ويتصدر الجدار الشرقى محراب شاهق كسى بالرخام الدقيق يزينه خطوطا متعرجة وصفوفا من محاريب صغيرة ترتكز على عمد خزفية.

ويغطى هذه القاعة قبة محدبة من الآجر المكسو بالملاط، تقوم فوق أربعة صفوف من مقرنصات مضلعة ذات دلايات يفصل بينها شبابيك تضم عشر فتحات، أربع، ثلاث، اثنتان، واحدة، يغشيها ستائر جصية باشكال هندسية ونباتيه ملئت بقطع من زجاج ملون، يعلوها رقبة أسطوانية، فتح بها ثمان نوافذ مستطيلة معقودة، يغطيها قبة غفل من الزخرفة، ويتوسط أرضيه القبة المفروشة برخام ملون أبيض، وأسود، قبر المنشئ الذى يعلوه تركيبة رخامية، يتوج أركانها أربع بابات مكورة.

ويفهم من المقريزى أن بيبرس الجاشنكير بعد مقتله "حمل إلى القرافة ودفن فى تربة الفارس أقطاى ثم نقل منها بعد مدة إلى تربة بسفح المقطم، فقبر بها زمنا طويلا ثم نقل منها ثالث مرة إلى خانقاته ودفن بقبتها. وقبره هناك إلى يومنا هذا" وأضاف أيضا "وأدركت بالخانقاه المذكورة شيخا من صوفيتها أخبرنى أنه حضر نقله من تربته بالقرافة إلى قبة الخانقاه وأنه تولى وضعه فى مدفنه بنفسه". ويتقدم هذه القبة غربا قاعة مستطيلة الشكل يبلغ طولها أحد عشر مترا ونصف المتر وعرضها سبعة أمتار ونصف المتر، فرشت أرضيتها برخام ملون يشتمل على

أشكال هندسية متنوعة وفتح بها خمسة شبابيك، تطل على الطريق العام يفهم من وثيقة الوقف أنها أعدت خصيصا لدرس الحديث النبوى، الذى كان يحضره شيخ محدث ونحو ثلاثين طالبا من طلاب الحديث الشريف.

بقى أن نشير إلى أن هذه الخانقاه كانت موضع رعاية وعناية لجنة حفظ الآثار العربية التى أجرت بها العديد من أعمال الترميم والصيانة منذ سنة ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م فقومت مبانيها من الداخل والخارج، وأصلحت رخامها بالأرضيات والوزرات وأصلحت سقف الدهيز والقبة. كما عنيت بإصلاح الباب ذى الكسوة النحاسية، والشبابيك الجصية بالقبة وأزالت الدكاكين التى كانت تحجب واجهة القبة الغربية وأعادت الشبابيك إلى أصلها وغطتها بمصبعات نحاسية، كما أصلحت المئذنة، مما كان له أكبر الأثر فى الحفاظ على هذه الخانقاه، رغم ما ذكره المقريزى عن مبانيها إذ يقول: " ومن حسن بناء هذه الخانقاه أنه لم يحتاج فيها إلى مرمة منذ بنيت إلى وقتنا هذا أى إلى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى وهى مبنية بالحجر وكلها عقود محكمة بدل السقوف الخشب". كما أضاف ما نصه: " وقد سمعت غير واحد يقول أنه لم تبنى خانقاه أحسن من بنائها.

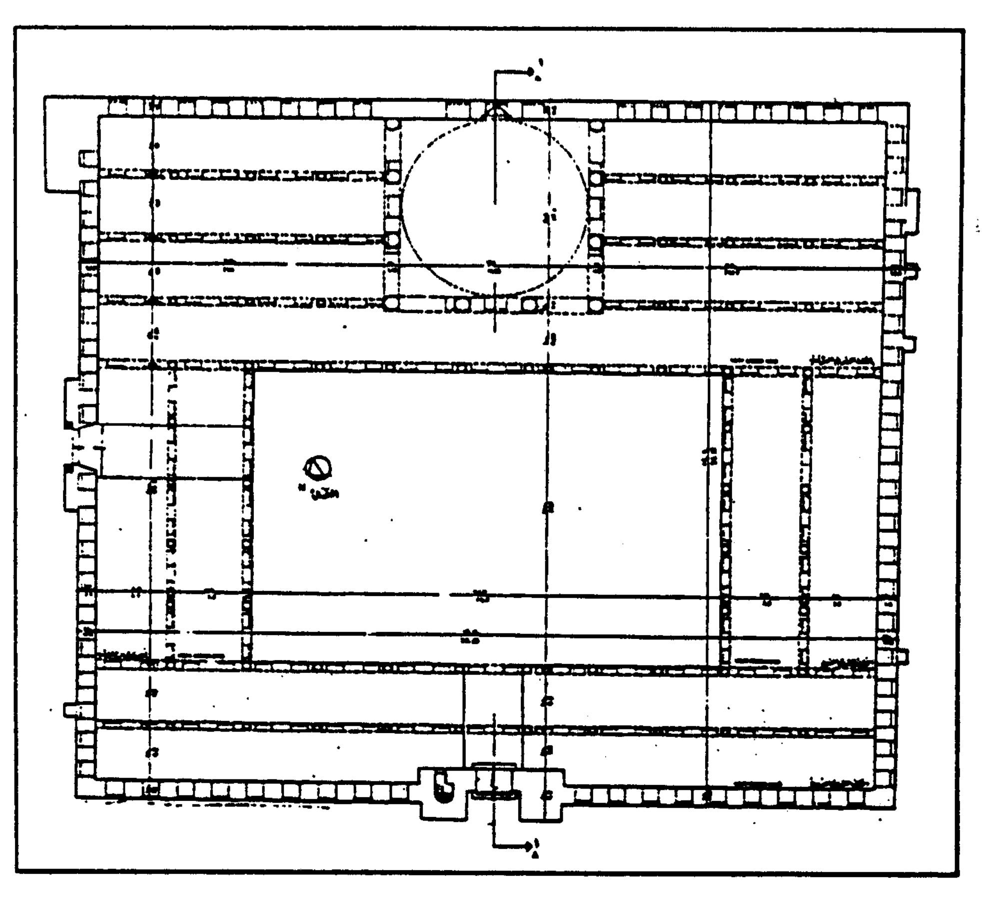
جامع الناصر محمد بالقلعة:

يقع فى القسم الجنوبى الغربى من القلعة أمام مسجد محمد على، شيده السلطان الناصر محمد بن قلاوون أثناء سلطنته الثالثة فى سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٨م وأعاد بناء بعض أجزائه وتجديده فى سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م فوق أطلال جامع قديم من تشييد السلطان الملك الكامل فى العصر الأيوبى، إذ يروى المقريزى تحت عنوان الجامع بالقلعة ما نصه: "هذا الجامع أنشأه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثمان عشرة وسبعمائة (١٣١٨م) وكان قبل ذلك هناك جامع دون هذا، فهدمه السلطان وهدم المطبخ والحوائجخانه، والفراشخانه وعمله جامعا ثم أخربه فى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٥م) وبناه هذا البناء فلما تم بناؤه جلس فيه واستدعى مؤذنى القاهرة ومصر وجميع القراء والخطباء، وعرضوا بين يديه، وسمع تأذينهم وخطابتهم وقراءتهم فاختار منهم عشرين مؤذنا رتبهم فيه،

وقرر فيه درس فقه. وقارئا يقرأ فى المصحف، وجعل عليه أوقافا تكفيه وتفيض، وصار من بعده من الملوك يخرجون أيام الجمع إلى هذا الجامع ويحضر خاصة الأمراء معه من القصر ويجيء باقيهم من باب الجامع. فيصلى السلطان عن يمين المحراب فى مقصورة خاصة به ويجلس عنده أكبر خاصته، ويصلى معه الأمراء خاصتهم وعامتهم خارج المقصورة عن يمنتها ويسرتها على مراتبهم فإذا انقضت الصلاة دخل المقصورة ودور حرمه وتفرق كل أحد إلى مكانه" وأضاف أيضا أن "هذا الجامع متسع الأرجاء مرتفع البناء مفروش الأرض بالرخام مبطن السقوف بالذهب وبصدره قبة عالية يليها مقصورة مستورة هى والرواقات بشبابيك الحديد المحكمة الصنعة ويحف صحنه رواقات من جهاته".

ونجد نفس المعنى أيضا فى كتاب صبح الأعشى للقلقشندى الذى اشار أنه من أعظم الجوامع وأحسنها وأبهجها نظرا وأكثرهم زخرفه، متسع الأرجاء مرتفع البناء مفروش الأرض بالرخام الفائق، مبطن السقوف بالذهب، فى وسطه قبه يليها مقصورة يصلى فيها السلطان الجمعة مستورة هى والرواقات المشتملة عليها بشبابيك من حديد محكمة الصنع، يحف بصحنه رواقات من جميع جهاته، ويتوصل من ظاهر هذا الجامع إلى باب الستارة ودور الحريم السلطانية".

ويحدثنا المؤرخ ابن أيبك الدوادار بدوره عن تجديد السلطان الناصر محمد لهذا الجامع وإعادة بنائه فى حوادث سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٥ فيقول أنه فى هذه السنة "برزت المراسيم الشريفة هدم الجامع الذى أنشأه السلطان عز نصره بالقلعة المحروسة وأن يجدد بناءه فهدم جميع ما كان من داخله من الرواقات والمقصورة والمحراب وجدد بناءه بما لم تر العيون أحسن منه وأعلى قناطر الرواقات إعلاء شاهقا، وكذلك القبة أعلاها حتى عادت فى ارتفاع، وأحضر لهذا الجامع أعمدة عظيمة كانت منسية بمدينة الأشمونين بالوجه القبلى... وكانت هذه الأعمدة فى البربا (؟) التى بمدينة الأشمونين من عهد الكهنة وأن نقل هذه الأعمدة من الأشياء التى حارت فيها العقول، نقلها مولانا السلطان بأسهل ما يكون وذلك بأن ندب لهذا الأمر الأمير سيف الدين اروس بغا الناصرى مشدا بحمل هذه الأعمدة وسير



شكل (٥٥)

مسقط أفقي لجامع الناصر محمد بالقلعة، نقلا عن منظمة المدن والعواصم الإسلامية

فى خدمته المهـندسين والعتالين والحجـارين وكتب للولاة بالوجه القبلى وهم والى أسيوط ومنفـلوط ووالى الأشمونين ووالى الـبهنساوية بـجمع الرجال من الأقاليم وقرر على كل وال عدة من هذه الأعـمدة وجرها إلى ساحل البحر الاعظم وندب لها المراكب الخشنة، وحملت فى أوائل جريان النيل المبارك، ولما حضر إلى ساحل مصر انتـدب لجرها الولاة بمصر والقاهرة الـذين جمعوا آلافا من الناس ولكن لهم همة عظيـمة حتى وصلت وأقـيمت فى هذا الجامع الـسعيد "وأضـاف أيضًا عند وصفه لـقبة الجامع " وعندما أعاد الـسلطان بناء القبة جعلـها عالية شاهقة بعد أن

أحضر لها الأعمدة الجرانيتية اسكبار من الأشمونين وجدد المقصورة التى على يمين المحراب الذى جدد بناءه أيضا.

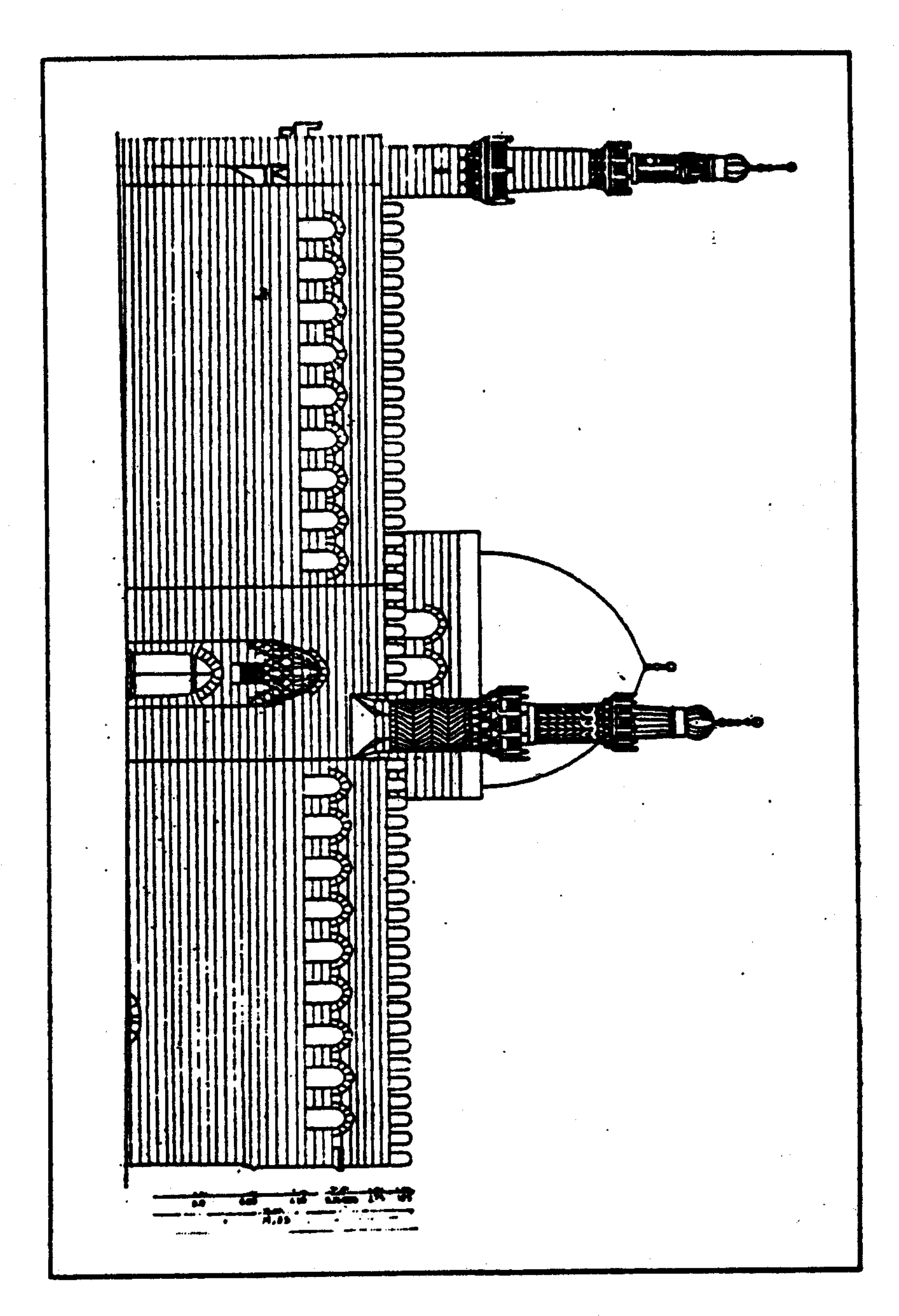
وفى أيام السلطان الأشرف قايتباى تم تجديد جامع الناصر مرتين إذ يروى المؤرخ ابن إياس أن "فى صفر سنة ٨٧٦هـ/ يوليو ١٤٧١م رسم السلطان لابن الطولونى بان يجدد عمارة الميضا التى بجامع القلعة فوسعها، وترميم عمارة الجامع فاصرف على ذلك الف دينار"، كما ذكر أيضًا أنه "فى رجب سنة ٨٩٣هـ/ يونيو ١٤٨٨م كان انتهاء عمل القبة التى جددها السلطان بجامع القلعة عوضا عن التى سقطت فجددها وجدد المنبر وصارت من أحسن المبانى".

ومع ذلك فقد ساءت حالة الجامع فى العصر العثمانى وهدمت قبته وفقد منبره، وازداد تدهوره زمن الاحتلال البريطانى فقد استخدم كمخازن للجيش وسجنا للمتمردين فى سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م وأقيمت حواجز خشبية بين الأعمدة وشيدت بداخله بعض الجدران حقيقة، وقد تمت إزالتها فيما بعد على يد أحد مهندسى جيش الاحتلال إلا أن العناية الحقيقية بالجامع لم تبدأ الا فى سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م عندما قامت لجنه حفظ الآثار العربية بإعادة ما تهدم من جدار القبلة وغشته بوزارات رخامية، كما جددت أيضا المحراب الصغير على يسار المحراب الرئيسى الذى قامت بكسوته بوزارات رخامية، وفرشت كذلك أرضية الجامع بالحجر الجيرى بدلا من الرخام الذى كان يغطى الجامع بأكمله وقت تشييده، وقامت أيضا بترميم المدخل الشمالى للجامع وأعادت اللوحة التأسيسية التى تحمل تاريخ البناء الأول فى سنة ٧١٨هـ / ١٣١٨م إلى أعلى المدخل الغربى، وقامت كذلك بإعادة بناء القبة أمام المحراب وعملت منبرا خشبيا على طراز منبر جامع الطنبغا الماردانى، وجددت الستائر الجصية لنوافذ الجامع، كما جددت القماقم الحجرية التى تعلو أركان الصحن واستبدلت الأعمدة التالفة بأعمدة آخرى وكست بعض أجزاء الجدران بالرخام من الداخل.

ويشغل الجامع مساحة مستطيلة يبلغ طولها ثلاثة وستين مترا وعرضها سبعة وخمسين مترا يحيط بها أربع واجهات حجرية يسودها البساطة وتخلو من

الـزخارف، الغربية مـنها تمثل الـواجهة الرئيـسية وهى تزدان بثـماني عشرة نافذة مـستطـيلة معـقودة، تسع فى كل جـانب يعلـوها شرافـات نصف دائريـة تذكرنا بشرافات أسوار القاهرة الفاطمية، يتوسطها مدخل الجامع الرئيسى وهو على محور المحراب ويبرز عن سـمت الواجهه بحوالى متـر ونصف المتر، ويقع داخل تجويف يتوجه عقد دائرى ذو ثلاثه فصوص بصدره سقيفة من المقرنصات الحجرية، ويحف به من أسفل مكـسلتان من الحجر، ويـتوسط التجويف باب مـعقود بعقد مدبب، ويعلوه لوحة حجرية تـضم نصًا تذكاريا بخط النسخ المـملوكى يشتمل على أربعة أسطر نصها: " بـسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشـاء هذا الجامع/ المبارك السعيد لوجه الله تعالى سيدنا مولانا السلطان الملك الناصر الدنيا والدين محمد بن مولانا السلطان / الشـهيد قلاوون الصالحـى فى شهور سنة ثـمانية عشر وسـبعمائة من الهجرة النـبوية (١٣١٨م)" ، ويعلو الجانب الأيـسر من هذا المدخل إحدى مئذنتى الجامع، وهى تتألف من ثلاثة طـوابق حجرية تتمثل فى قاعدة مربعة يتوجها أربعة مثـلثات يعلـوها طابق أسطوانى يزيـنه زخارف بارزة من خطوط مـتعرجة رأسية، ينتـهى من أعلى بصفوف مقرنصة، تحمل شرفة تلتف حول الطابق الثانى وهو بدن أسطوانى أيضا مزين بدوره بزخارف متعرجة بارزة ولكنها نقشت فى صفوف أفقية متوازية، يلـيها إلى أعلى مـقرنصات تحمل شـرفه ثانية أصغـر حجما تدور حول الطابق الثـالث وهو على شكل رقبـة مضلعة يغـطيها قبـة مضلعة بـصلية الشكل كسيت بالقاشانى الأخضر وبشريط من كتابات نسخية قرآنية من آية الكرسى نقشت باللون الأبيض على أرضية زرقاء.

وتتسم الواجهة الشمـالية أيضا بطابع البسـاطة، وتخلوا تماما من الزخارف باسـتثناء تـسع عشرة نـافذة مستـطيلة مـعقودة، تسع عـلى كل جانب فتحت فى أعلاها، أسفل صف من الشراريف نصف الدائرية. وكتلة المدخل التى تتوسط هذه الواجهة الحجـرية التى تبرز عن سمتها بحوالى متـر ونصف المتر تقريبا يتوجها من أعلى صف من الشرافات المسننة ويتوسطها تجويف يعلوه عقد مدائنى مدبب ثلاثى الفصوص، فتح به باب معقود أيضًا بعقد مدبب يعلوه لوحة تأسيسية تضم كتابات



شكل (٥٦)

قطاع رأسي لجامع الناصر محمد بالقلعة، الواجهة الغربية

نقلا عن منظمة المدن والعواصم الإسلامية

نسخية لم يتبق منهـا سوى سطران فقط نصهما: "أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك / السعيد سيدنا ومولانا السلطان الأعظم. . . "

ويشغل الـركن الشمـالى الشرقى من هـذه الواجهه بـرج يبرز عن سـمتها اسـتخدم كقاعدة لمئـذنة الجامع الثانية، وهى تـبدو أكثر ارتفاعا عن المـئذنة الغربية وتشتمل بدورهـا على ثلاثة طوابق تتـمثل فى قاعدة مربـعة يتوجهـا شرفة مربعة التخطيط ترتكز على ثلاثة صفوف من المقرنصات وتلتف حول الطابق الثانى الذى يشكل بدنا أسطـوانيا غفل من الزخـرفة ينتهى بـدوره بشرفة مسـتديرة تقوم فوق صفين مـن المقرنصات وتلتف حول الطابق الـثالث الذى يتألف من ثماني دعامات معقودة ومـفتوحة يعلوها رقبة بها قنوات طويلة مفـتوحة يغطيها قبة بصلية مضلعة كسيت بدورها ببلاطات من القاشانى الأخضر وبشريط من الكتابات القرآنية نقشت بخط النسخ المملوكى بلون أبيض على أرضية زرقاء.

وتذكرنا زخارف قمة هاتين المئذنتين بزخارف قبة سبيل الناصر محمد الملحق بمدرسة أبيه المـنصور قلاوون السابق الإشارة إلـيها كما تعـكس لنا أحد الأساليب الزخرفـية التى شـاعت فى مديـنة تبريـز بايران، لـيس فقط من حـيث استخدام القاشانى فى تغـشية قمة تـلك المنشآت بل أيضـا فى الشكل البصـلى لقمة هاتين المئذنـتين، وهذا يذكرنا بدوره براويـة المقريزى بصدد قيـام أحد البنائين الفرس من مديـنة تبريـز ببنـاء مئذنتى جـامع الأمير قـوصون فى سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م إذ يقول: " وكان قـد حضر من بلاد توريز بـناء فبنى مئذنـتى هذا الجامع على مثال المـئذنة التى عمـلها خواجا عـلى شاه وزير السـلطان أبى سعيـد فى جامعه بمدينه تـوريز" . الأمر الذى يجعـلنا نرجح قيـام نفس البناء بـبناء مئذنـتى جامع الناصر محمد أيضا.

وتشتمل الواجهـة الشمالية أيضا على دعامة ساندة لتقوية الجدران فى طرفها الغـربى، لعـلهـا أضيـفت أثـناء تجـديدات عـام ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م لأن الأحجار المستخدمة فى تشييدها لا تختلف عن أحجار الواجهة بل تتفق معها.

ولا تختلف الواجهة الجنوبية كثيرا عن الواجهتين الشمالية والغربية فهى مشيدة أيضامن الحجر وتزدان فى أعلاها بعشرين نافذة مستطيلة معقودة وإن شذت عنهما بوجود أكثر من دعامة ساندة حيث نجد ثلاث دعامات فى الطرف الشرقى منها، ودعامة واحدة فى الطرف الغربى. وجدير بالذكر أن هذه الدعامة الخارجية ليست لها علاقة بالعقود الداخلية للجامع التى ترتكز على هذه الواجهات، وهى بالتالى لا تعبر بصدق عن الوضع الإنشائى للبناء. ويشير المقريزى إلى أنه كان يوجد بهذه الواجهة مدخل ثالث للجامع يعرف بباب النحاس كان يجتازه السلطان وهو قادم من الدور السلطانية وعند عودته، لا وجود له فى الوقت الحالى.

وتخطيط الجامع من الداخل يتبع نظام المساجد ذات الأروقة إذ يتألف من صحن أوسط مستطيل يبلغ طوله ٣٥,٥ مترا وعرضه ٢٣,٥ مترا تؤكد المصادر خلوه من الفواره"، يحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الشرقى الذى يشتمل على أربع بلاطات موازية لجدار القبلة يفصلها أربع بائكات تشتمل كل منها على عشرة أعمدة من الرخام أو الجرانيت، تحمل فوقها أحد عشر عقدا مدببا باستثناء البائكتين الأولى والثانية التى حذف من كل منهما عمودين لإيجاد مساحة مربعة أمام المحراب يغطيها قبة ضخمة تتألف من مربع حجرى يرتكز على مجموعة من العقود، ثلاثة على كل جانب ترتفع فوق عشرة أعمدة من الجرانيت، ويشغله إزار من الخشب المنقوش بكتابات نسخية مذهبة، كانت تشتمل على تاريخ إعادة بناء الجامع فى عهد الناصر محمد فى سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م، يقطعها مناطق مستديرة لعلها كانت تشتمل على الرنك الكتابى للسلطان نفسه نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدو ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون / بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله / فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين صدق الله العظيم مما أمر بإنشائه مولانا السلطان الملك الناصر ابن مولانا السلطان الشهيد المرحوم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون تغمده الله برحمته وذلك فى سنة خمس (وثلاثين وسبعمائة)".

أما مناطق الانتقال فيشغلها مثلثات خشبية لكل منها خمسة صفوف من المقرنصات الملونه يفصلها فى كل جانب ثلاث نوافذ متجاورة يعلوها عقود نصف دائرية ويغشيها ستائر جصية مشغولة بزخارف هندسية مفرغة، ويغطى الجميع قبة غفل من الزخرفة، كانت وقت إنشائها مكسية من الخارج ببلاطات من القاشانى الأخضر؛ لذا عرفت عند مؤرخى العصر المملوكى بالقبة الخضراء، جددت عدة مرات آخرها فى سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م على يد المجلس الأعلى للآثار، الذى أضاف إليها بلاطات غريبة الشكل لا تمت بصلة إلى الطراز الاصلى.

ويتصدر جدار القبلة محراب كبير مجوف مجدد حديثا يكتنفه محرابان صغيران، كسيت جميعها بزخارف هندسية من فسيفساء رخامية دقيقة، خردة، مطعمة بالصدف كما كانت جميع جدران القبلة مكسية بالرخام الملون إلى ارتفاع ما يقرب من خمسة أمتار ونصف المتر، وعلى يمين المحراب الرئيسى يوجد منبر خشبى حديث من صنع لجنة حفظ الآثار العربية فى سنة ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م يشبه إلى حد كبير إلى منبر جامع الطنبغا الماردانى الذى شيد سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م، إذ تشتمل ريشتاه على حشوات هندسية مجمعة طعمت بالعاج والصدف، تشكل أطباقا نجمية وسط عناصر متنوعة، اما باقى أروقة الجامع الشمالية والجنوبية والغربية، فيحتوى كل منها على بائكتين نجدها عمودية على جدار القبلة بالنسبة للرواقين الشمالى والجنوبى وبكل منها أربعة أعمدة يعلوها خمسة عقود مدببة، أما بالنسبة للرواق الغربى فبه بلاطتان موازيتان لجدار القبلة، بكل منهما عشرة أعمدة يعلوها أحد عشر عقدا مدببا. وجميع عقود الجامع مشيدة من حجارة بيضاء وحمراء على التوالى أى مشهر، ويعلوها صفوف من فتحات معقودة كما هو الحال فى المسجد الأموى بدمشق وذلك لزيادة الإضاءة والتهوية داخل الأروقة ولتخفيف الضغط الطارد على العقود والأعمدة.

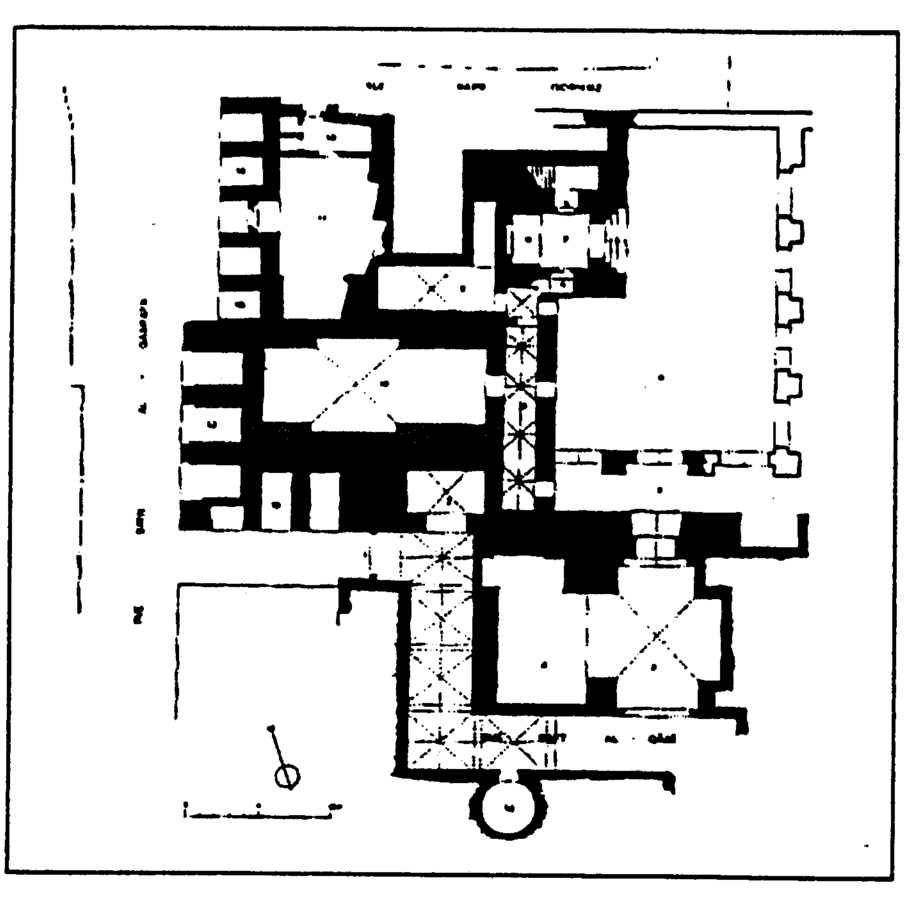
وجميع أروقة الجامع مغطاة بأسقف خشبية يشغلها قصع أو أحقاق مثمنة الأضلاع تشبه نظائرها فى قبة المنصورة قلاوون وكانت بدورها مطلية بالذهب والألوان، بيد أن أغلبها من تجديد لجنة حفظ الآثار العربية.

بقى أن نشير إلى أن جميع واجهات الأروقة المطلة على الصحن يعلوها شرافات مسننه ويحتل أركانها الأربعة قماقم حجرية مضلعة تنتهى بقواعد مقرنصة، كما نقش فوق أحد أعمدة الرواق الغربى المطلة على الصحن مزولة شمسية وهى من عمل أحمد بن بكتمر الساقى وهى تعد من أقدم الأمثلة القائمة بمساجد مصر الإسلامية بعد مزولة جامع أحمد بن طولون التى أضيفت إليه أثناء تجديدات السلطان لاجين فى سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م ولا نعلم من أمرها شيئا فى الوقت الحالى.

قصر الأمير بشتاك:

يقع بحارة درب قرمز المتفرعة من شارع المعز لدين الله بحى بين القصرين أنشأه الأمير بشتاك الناصرى أحد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون المقربين وانتهى من تشييده فى سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م، وكان حسب رواية المقريزى من جملة القصر الفاطمى الكبير الشرقى... تجاه المدرسة الكاملية، وما زال إلى أن اشتراه الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى، المعروف بأمير سلاح وأنشأ دورا وإصطبلات ومساكن لحواشيه. وصار ينزل إليه هو والأمير بدر الدين بيسرى عند انصرافهما من الخدمة السلطانية بقلعة الجبل... فلما مات الأمير بكتاش الفخرى أمير سلاح، وأخذ الأمير قوصون الدار البيسرية أحب الأمير بشتاك أن يكون له دارا بالقاهرة... فأخذ... يعمل فى الاستيلاء على قصر بكتاش أمير سلاح حتى اشتراه من ورثته فأخذ من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قطعة أرض كانت داخل القصر من حقوق بيت المال، وهدم دارا كانت قد أنشئت هناك عرفت بدار قطوان الساقى، وهدم أحد عشر مسجدا وأربعة معابد كانت من آثار الخلفاء يسكنها جماعة الفقراء، وأدخل ذلك فى البناء إلا مسجدا فإنه عمره ويعرف اليوم بمسجد الفجل.

فجاء هذا القصر من أعظم مبانى القاهرة فإن ارتفاعه فى الهواء أربعون ذراعا ونزول أساسه فى الأرض مثل ذلك، والماء يجرى بأعلاه وله شبابيك من حديد تشرف على شارع القاهرة، وينظر من أعلاه عامة القاهرة والقلعة والنيل



شكل (٥٧)

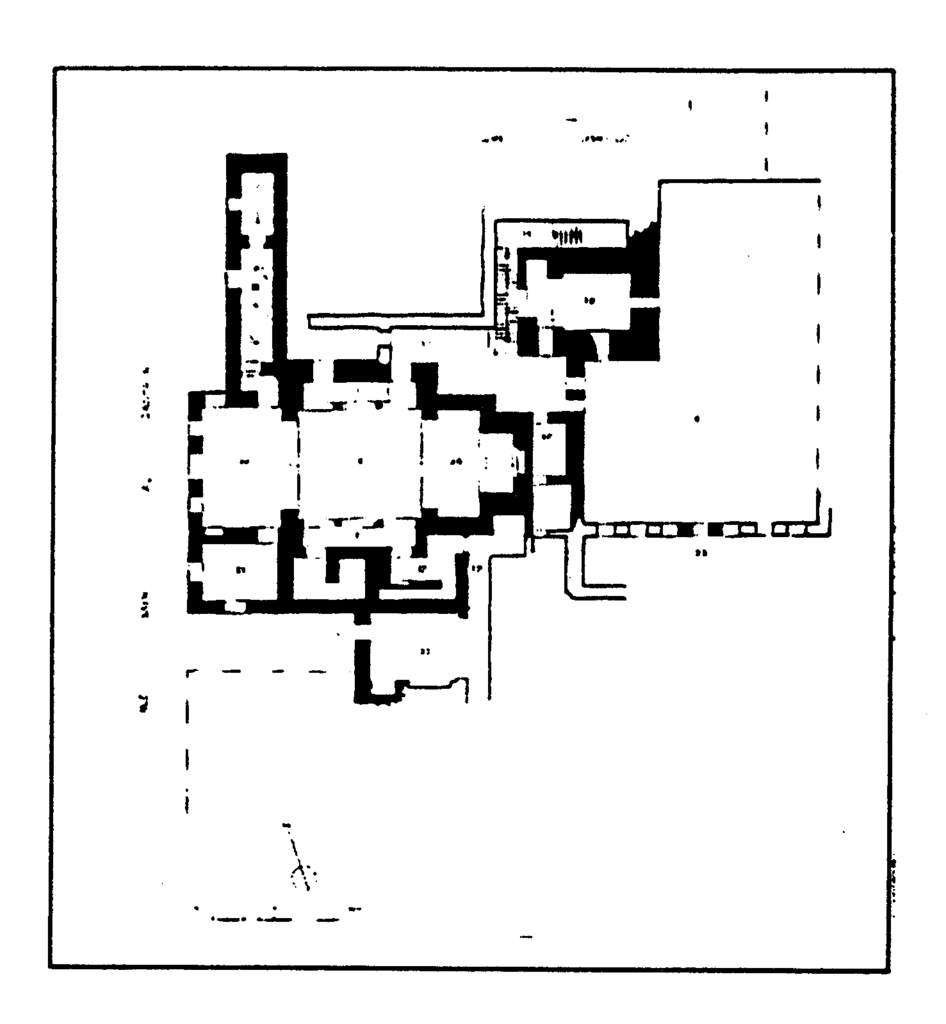
مسقط أفقي لقصر بشتاك، الدور الأرضي، نقلا عن جارسان

والبساتين. وهو مشرف جليل مع حسن بنائه وتألق زخرفته والمبالغة فى تزويقه وترخيمه. وأنشأ أيضافى أسفله حوانيت كان يباع فيها الحلوى وغيرها فصار قصر بشتاك وقصر بيسرى وما بينهما من الشارع يقال له بين القصرين، ومن لا علم له يظن إنما قيل ذلك لهذا الشارع بين القصرين لأجل قصر بيسرى وقصر بشتاك، وليس هذا صحيح وإنما قيل له بين القصرين قبل ذلك من حين بنيت القاهرة فإنه كان بين القصرين، القصر الكبير الشرقى، والقصرالصغير الغربى. . . ولما أكمل بشتاك بناء هذا القصر والحوانيت التى فى أسفله والخان المجاور له فى سنة ثمان

وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٨م)، ولم يبارك له فيه ولا تمتع به وكان إذا نزل إليه ينقبض صدره ولا تنبسط نفسه ما دام فيه حتى يخرج منه فترك المجيء إليه فصار يتعاهده أحيانا فيعتريه ما تقدم ذكره، فكرهه وباعه لزوجة بكتمر الساقى وتداوله ورثتها إلى أن أخذه السلطان الملك الناصر حسن فاستقر بين أولاده إلى أن تحكم الأمير الوزير المشير جمال الدين الاستادار فى مصر فأقام من شهد عند قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم الحنفى بأن هذا القصر يضر بالجار والمار، وأنه مستحق للإزالة والهدم، كما عمل ذلك فى غير موضع بالقاهرة فحكم له باستبداله، وصار من جملة أملاكه، فلما قتله الملك الناصر فرج بن برقوق استولى على سائر ما تركه وجعل هذا القصر فيما عينه للتربة التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر".

ويضيف المقريزى أنه "استمر فى جملة أوقاف التربة المذكورة إلى أن قتل الملك الناصر فرج بدمشق وقدم الأمير الشيخ إلى مصر هو والخليفة المستعين بالله العباسى وقف له من بقى من أولاد جمال الدين الأستادار وأقاربه، فحكم قاضى القضاة صدر الدين على بن الآدمى الحنفى بارتجاع أملاك جمال الدين التى وقفها على ما كانت عليه فتسلمها أخوه وصار هذا القصر إليهم وهو الآن بين يديهم" أى فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى.

ولهذا القصر الذى يتألف من طابقين ثلاث واجهات حجرية، الرئيسية الجنوبية تطل على حارة بيت القاضى، والغربية على شارع المعز لدين الله، والشمالية على درب قرمز وهى تتسم جميعا باحتوائها على فتحات عديدة متنوعة نجد بينها الشبابيك المستطيلة المعقودة، والقمريات المستديرة، والنوافذ المغشاة بمشربيات من خشب الخرط التى تعمل على كسر حدة الضوء النافذ إلى الداخل، مثلما تعمل على تلطيف الهواء داخل القاعات، وتكفل أيضا نوعا من الخصوصية لنساء القصر، وتؤكد على حجاب المرأة إبان تلك الفترة وعلى حقوق الجيرة التى نادى بها الإسلام.



شكل (٥٨)

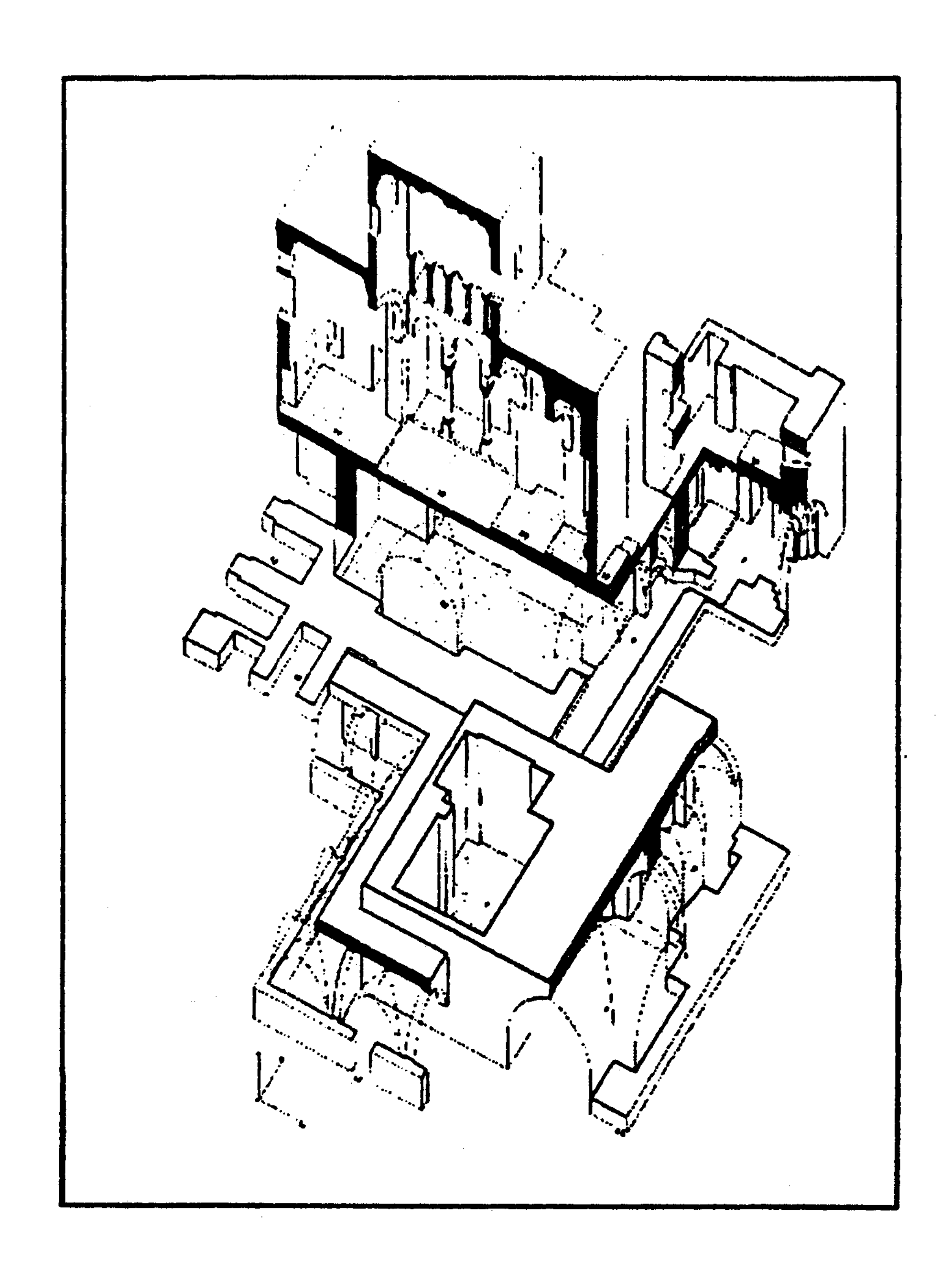
مسقط أفقي لقصر بشتاك، الدور الأول، نقلا عن جارسان

ويلاحظ أن المدخل الرئيسى للقصر بالواجهة الجنوبية المطلة على حارة بيت القاضى يفضى إلى دركاه كان يسقفها قبو متقاطع، بصدرها تجويف فتح فيه باب يعلوه عقد مدبب مسدود فى الوقت الحالى، وأغلب أجزائه مطمورة تحت الأنقاض، يقع إلى يساره جهه الغرب، قاعة لها باب معقود وكان يسقفها قبو يرجح أنها كانت مخصصة لحرس القصر وخيولهم، ويتصل بالدركاه شمالا فناء

مستطيل الشكل اندرست أغلب معالمه، ولم يتبق منه سوى جدار فى الغرب، وبقايا سقيفه كانت تتقدمة جهة الجنوب، يعلوها قبو، ويظهر منها عقدان مدببان يرتكزان على دعامتين من الحجر.

ويرجح أن هذا الفناء كان يستخدم كقاعة استقبال لرواد القصر، وكان يربط المدخل الجنوبى بالمدخل الثانى للقصر الذى يطل شمالا على حارة درب قرمز وهو يفضى غربا إلى كتلة المدخل الثانى للقصر الذى يقع داخل تجويف يعلوه ثلاثة عقود مدببة متداخلة ويكتنفه من أعلى عضادتين بهما كتابات نسخية نقشت بالحفر البارز بقى منها البسملة واسم المنشئ وبعض القابه، ويحيط به من أسفل مكسلتان من الحجر بارتفاع ما يقرب من المتر، وهو يفتح بدوره على دركاه مربعة يعلوها سقف خشبى يزينه زخارف مذهبة وملونة، بصدرها الغربى مصطبة حجرية وبجدارها الشمالى باب يؤدى إلى السلم الصاعد إلى الطابق العلوى، وبجدارها الجنوبى باب يفضى إلى دهليز طويل يعلوه أقبية متقاطعة، يؤدى إلى منشآت الدور الأرضى بالقصر، ومن بينها دور قاعة مربعة التخطيط يعلوها قبو متقاطع ويتعامد عليها إيوانان فى الشرق والغرب وسدلتان فى الشمال والجنوب تمثل المندرة فى القصور المملوكية المخصصة فى الدور الأرضى لاستقبال الضيوف من الرجال يحدها من الشمال والجنوب الغربى مجموعة من الدكاكين، تطل على شارع المعز لدين الله وعلى حارة بيت القاضى، كما يشغل الركن الشمالى الغربى منها المصلى الملحق بالقصر وهو بناء غير منتظم الأضلاع يتصدر جداره الشرقى محراب بسيط. ويتقدمه شمالا ميضأة، أما مدخله فيتوسط دكاكين الجهة الغربية، ويفتح على شارع المعز مباشرة، بعيدا عن محور المحراب.

ويلاحظ أن أغلب مبانى الطابق الثانى قد ضاعت معالمها باستثناء الدور قاعة التى يتعامد عليها أربعة إيوانات. وهى عبارة عن مساحة مربعة تنخفض أرضيتها عن أرضية الإيوانات الأربعة ويتوسطها فسقية من الرخام الملون وفقا للنظام المعروف بالأبلق والمشهر فى أن واحد، ويعلوها سقف خشبى جميل يتألف من قصع أو أحقاق مثمنة، مجلدة بالذهب والألوان، نقشت بزخارف نباتية متنوعة،



شكل (٥٩)

منظور ثلاثي الأبعاد لقصر بشتاك، نقلا عن جارسان

يتوسطها جامة منصصة، وبأركان هذا السقف صفوف ثلاثية من مقرنصات خشبية، تحصر بينها ثلاثة شبابيك بكل ضلع من أضلاع الدورقاعة.

ويشكل كل من الإيوانين الشرقى والغربى مساحة مستطيلة، ويرتفعان عن أرضية الدورقاعة بحوالى ثلاثون سنتيمتر، ويطلان عليها بواسطة عقد مدبب، ومساحتهما أكبر بكثير من الإيوانين الشمالى والجنوبى، ويسقف كل منها سقف خشبى يشبه سقف الدورقاعة، وبصدر الإيوان الشرقى دخلة يكتفها عمودان مثمنان من الرخام، تفتح على الإيوان المذكور بعقد مدبب، وارضيتها مرتفعة أيضا عن أرضية الإيوان. بينما يوجد بصدر الإيوان المقابل أى الغربى ثلاث دخلات فتح بكل منها شباك، الأوسط أكثرهم اتساعا ويغطيه مصبعات، على حين يغطى كل من الشباكين الجانبين مشربية خشبية، يعلوها جميعا ثلاثة شبابيك معقودة، يرتفع فوق الأوسط منها قمرية مستديرة، والجميع مغشى بستائر جصية معشقة بزجاج ملون. ويشغل الركن الجنوبى الغربى من هذا الإيوان دخلة كانت تستخدم كخزانة جدارية، يوجد إلى الشرق منها باب يفضى إلى حجرة تقع على امتداد هذا الإيوان جنوبا، يغطيها سقف خشبى، فتح بكل من ضلعها الجنوبى والغربى شباك يغطيه مشربية خشبية، كما يوجد بركنها الجنوبى الشرقى باب يفضى إلى ردهة سلم يؤدى إلى المغانى وهى عبارة عن مشربيات من الخشب الخرط الدقيق، تطل على الدور قاعة، كانت النسوة من أهل القصر وضيوفه، يجلسن خلفها للفرجة عما يدور فى القاعة من أحداث. أما الضلع الشمالى من هذا الإيوان الغربى، فيشتمل فى ركنه الشمالى الغربى على شباك، وفى ركنه الشمالى الشرقى على باب يفتح عل ممر مستطيل به غرف للإقامة يغطيها أقبية متقاطعة.

ويفتح كل من الإيوانين الشمالى والجنوبى أو السدلتين على الدور قاعة بواسطة باثكة تتألف من ثلاثة عقود مدببة، ترتفع فوق عمودين من الرخام، يعلوها باثكة أخرى تضم ستة عقود مدببة، ترتكز على سبعة أعمدة رخامية مثمنة، غشيت المساحات بينها بحجاب من خشب الخرط الدقيق، يتخلله نوافذ صغيرة مستطيلة الشكل، كانت تستخدم كمغانى، كان يرتفع فوقها غرف علوية

بقيت بعض أطلالها. هذا ويسقف كل من الإيوانين المذكورين الشمالى والجنوبى، سقف خشبى يتألف من قصع أو أحقاق مثمنة مجلدة بالذهب واللازورد.

بقى أن نشير إلى أن هذا القصر حظى بترميم شامل قام به المجلس الأعلى للآثار المصرية بالاشتراك مع المعهد الألمانى للآثار الشرقية فى عام ١٩٨٢.

جامع الطنبغا الماردانى:

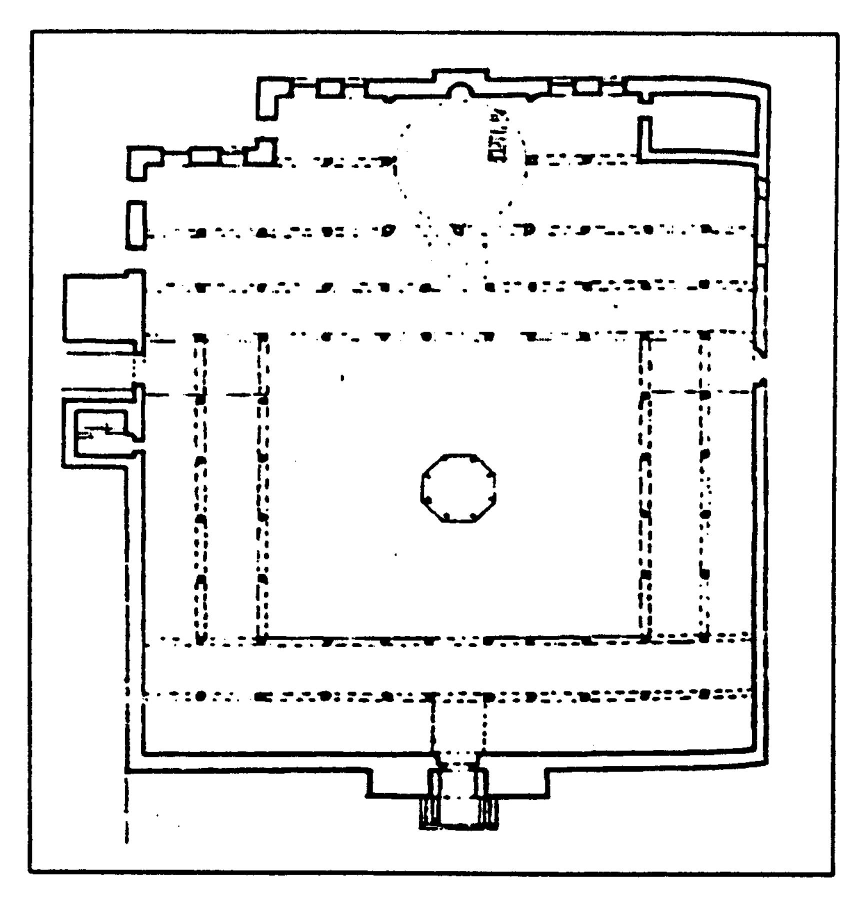
يقع بشارع باب الوزير بالتبانة، خارج باب زويلة أنشأه الأمير علاء الدين الطنبغا بن عبد الله الماردانى الناصرى الساقي، أحد مماليك السلطان الناصر محمد ابن قلاوون الذى شغف به" شغفا زائدا ورقاه، وأحب أن ينشئ له جامعا خارج باب زويلة، واشترى عدة دور من ملاكها برضاهم، وانتدب السلطان لذلك النشو، ناظر الخاص، فطلب أرباب الأملاك وقال لهم: الأرض للسلطان ولكم قيمة البناء... فلما كان فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٧م) أخذ الأماكن من أربابها،... وهدمت وبنى مكانها هذا الجامع. فبلغ مصروفه زيادة على ثلثمائة ألف درهم، عنها نحو خمسة عشر ألف دينار، سوى ما حمل إليه من الأخشاب والرخام وغيره من جهة السلطنة، وأخذ ما كان فى جامع راشدة من العمد، فعملت فيه،وجاء من أحسن الجوامع. وأول خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة رابع عشرى رمضان سنة أربعين وسبعمائة (١٤ مارس ١٣٤٠م)".

يحيط بالجامع أربعة جداران سميكة مرتفعة بهدف عدم تسرب الضوضاء إلى داخله، مشيده من الحجر الفص النحيت، أى المهذب المصقول، باللونين الأبيض والأحمر فى صفوف متعاقبة متوازية، أى مشهر، يتوجها من أعلى شرافات مسننة، يليها إلى أسفل إزار من كتابات نسخية بالحفر البارز تبدأ من الواجهة الشمالية غربا وتستمر على الواجهة الشرقية فالجنوبية، على حين تخلو الواجهة الغربية من هذا الإزار الكتابى، ويتضمن الازار الذى يعلو الواجهة الشمالية نصا قرآنيا من سورة آل عمران (الآيات من ١ - ١٣)، على حين يتضمن الإزار الذى يعلو الواجهة الشرقية سورة يس (الآيات من ١٢ - ١٦)، والإزار الذى يعلو

الواجهة الجنوبية سورة الملك (الآيات من ١ - ١٦)، وينتهى بالنص التاريخى "وكان الفراغ منه فى سنة أربعين وسبعمائة (١٣٤٠م)". وتشتمل واجهات المسجد أيضاعلى دخلات رأسية، يتوجها من أعلى صدور مقرنصة، فتح فى أسفلها شبابيك مستطيلة مغشاة بمصبعات معدنية، يعلوها شبابيك مزدوجة معقوده مغشاة بزخارف هندسية نجمية، راعى البناء فى توزيعها الحرص على التناسب بين اتساع الدخلات وارتفاعها، وبين أبعاد الواجهات، فى محاولة منه لدفع الملل عند النظر إلى هذه الواجهات وتأملها.

وتعد الواجهة الشمالية أى الرئيسية أهمها جميعا وهى تمتد بطول خمسون مترا، ويقع بها المدخل الرئيسى للمسجد، وهو بارز عن سمت جدرانها بحوالى أربعة أمتار ونصف المتر، فتح داخل تجويف مستطيل يعلوه قبو مدبب ويكتفه من أسفل مكسلتان حجريتان بارتفاع ٧٥سم بأعلى كل مكسلة تجويف يتوجه أربعة صفوف من المقرنصات، على حين يعلو فتحة المدخل عقد مستقيم من صنج رخامية معشقة، يعلوها عقد عاتق من صنج خضراء وبيضاء، بأعلاه ثلاثة صفوف من المقرنصات، تضم بواسطها نافذة مستطيلة يغطيها مصبعات معدنية. ويعلو النافذة شريطان من الكتابات النسخية، العلوى منهما به كتابات قرآنية نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وكان"، والسفلى به كتابات تاريخية نصها: " الفراغ من هذا الجامع المبارك فى شهر رمضان المعظم سنة أربعين وسبعمائة (مارس ١٣٤٠م)".

ويوجد إلى يمين المدخل مئذنة الجامع التى يرجح أنها أضيفت فى وقت لاحق غير معلوم، وهى تتألف من ثلاثة طوابق حافلة بزخارف شتى محفورة على الحجر، تبدأ بقاعدة مربعة ترتفع فوق سطح الجامع، يليها طابق أول ثمانى الأضلاع، بكل منها حنية معقودة، فتح بأربع منها نوافذ تتقدمها شرفة أو مشترفة، يعلوه طابق ثان مثمن الأضلاع أيضا ولكنه خال من الحنايا والفتحات، يرتفع فوقه طابق ثالث يمثل جوسقا يشتمل على ثمانية أعمدة رشيقة يعلوها خوذة كمثرية الشكل بأعلاها هلال نحاسى، ويفصل بين الطوابق شرفة ذات ستة عشر ضلعا من



شكل (٦٠)

مسقط أفقي لجامع الطنبغا المارداني، نقلا عن المجلس الأعلى للآثار

الحجر المفرغ بأشكال هندسية ونباتية ترتكز على صفوف من المقرنصات، شأن بقية مآذن عصر المماليك البحرية. وتنتهى الواجهة الشمالية شرقا بانكسار على شكل زاوية قائمة، تفصل بين كل من الواجهة الشمالية والواجهة الشرقية، تنكسر بعمق حوالى ستة أمتار باتجاه الغرب.

ويبلغ طول الواجهة الشرقية ما يقرب من تسعة وأربعين مترا، ويتوسطها بروز حنية المحراب، الذى يعلوه تجويف رأسى يتوجه ثلاثة صفوف من

المقرنصات، وبصدره نافذة مزدوجة معقودة، كما يكتنف هذا البروز تجويفان رأسيان على كل جانب، بكل منهما صفان من النوافذ، وتنتهى أطراف هذه الواجهة فى الزاويتين الشمالية الشرقية، والجنوبية الشرقية بشطف على ارتفاع خمسة أمتار، يعلوه ثلاثة صفوف من المقرنصات.

ويبلغ طول الواجهة الجنوبية نحوا من خمسة وخمسين مترا ويشغلها المدخل الثالث للجامع، وهو يقع على محور المدخل الرئيسى بالواجهة الشمالية، ويتألف من فتحة مستطيلة اتساعها متران وارتفاعها ثلاثة أمتار ونصف المتر يعلوها عقد مستقيم من صنج رخامية معشقة ذات زخارف بيضاء وخضراء، قوامها أوراق نباتية ثلاثية الشحمات، بأعلاه عقد عاتق، يعلوه تجويف رأسى يتوجه ثلاثة صفوف من المقرنصات، ويحتل أسفله نافذة مغشاة بمشبكات نحاسية مفرغة، كما يشغل الطرف الغربى من هذه الواجهة فتحة معقودة بعقد مدبب ومسدودة بالحجارة فى الوقت الحالى، وفى مستوى منخفض عن أرضية الشارع، لعلها كانت بمثابة باب سر خاص بالمسجد.

أما الواجهة الغربية فيبلغ طولها نحوا من تسعة وأربعين مترا، وهى غفل من الزخرفة بعكس بقية الواجهات الآخرى، باستثناء كتلة المدخل الثانى للجامع التى تتوسطها، وتبرز عن سمتها بنحو مترين تقريبا، ويتوجها من أعلى صف من شرافات حجرية تتخذ شكل أوراق نباتية ثلاثية الشحمات، نجد نظيرا لها فى المدرسة الأقبغاوية بالجامع الازهر، كما يتقدم هذه الكتلة من أسفل صدفة أو بسطة رخامية، تفضى إلى مدخل الجامع بواسطة سلالم حجرية على الجانبين. وتقع فتحة المدخل داخل تجويف رأسى يتوجه من أعلى طاقية محارية ترتكز على أربعة صفوف من المقرنصات، ويكتنفه من أسفل مكسلتان من الحجر بارتفاع ٧٥ سنتيمتر ،ويتوسط هذا التجويف فتحة المدخل الذى يعلوه عقد مستقيم من صنج رخامية معشقة باللونين الأخضر والأبيض، بأعلاه عقد عاتق من صنج رخامية غير معشقة باللونين الأحمر والأبيض، يوجد فوقه شريط من الكتابات النسخية البارزة، بالشريط العلوى كتابات قرآنية نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم محمد

رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا أنشأ هذا الجامع المبارك من "، وبالشريط السفلى بقايا النص التذكارى ويقرأ " فضل الله وكرمه العبد الفقير إلى الله تعالى الطنبغا الملكى الناصرى وذلك فى شهور سنة تسع وثلاثين وسبعمائة للهجرة النبوية عليه السلام (١٣٣٩م)" . وبأعلى هذين الشريطين قمرية مستديرة بداخلها دائرتين متداخلتين، الخارجية منهما نقشت بآيات قرآنية بخط النسخ البارز، وبالداخلية زخارف خزفية باللون الأخضر والأبيض والأسود منقوشة بزخارف نباتية مورقة، تعتبر الأولى من نوعها فى العمارة الإسلامية فى مصر . ويمتد بواجهة كتلة المدخل شريط كتابى بخط النسخ المملوكى به آيات قرآنية من سورة البقرة، ضاع جزء منها أثناء ترميم للجامع فى سنة ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م، كما هو مدون على هذا الجزء.

أما فيما يتعلق بالتخطيط الداخلى للجامع فهو يتبع نظام المساجد ذات الأروقة، أى صحن أوسط مكشوف يحيط به أربعة أروقة، الصحن مستطيل الشكل، طوله من الشمال إلى الجنوب سبعة وعشرون مترا ونصف المتر، وعرضه من الشرق إلى الغرب ثلاثة وعشرون مترا ونصف المتر، وأرضيته مفروشة ببلاطات حجرية، ويتوسطه فوارة مثمنة، يغطيها مظلة خشبية نصف كروية، ترتكز على ثمانية أعمدة خشبية، نقلت من مدرسة السلطان حسن كما يفهم من النص المنقوش بخط النسخ على ضلعها الشمالى الذى جاء فيه: " نقلت لجنة حفظ الآثار العربية هذا الحوض والقبة علوه/ من جامع السلطان حسن إلى هذا الجامع فى عصر خديو / مصر عباس حلمى الثانى أطال الله أيامه وذلك فى / سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف هجرية (١٩٠٣م) " .

ويعد رواق القبلة الشرقى أكبر أروقة الجامع، ويشتمل على أربع بلاطات يفصلها أربع بائكات تسير موازية لجدار القبلة، بكل منها أحد عشر عقدا مدببا يربطها شبكة من الروابط الخشبية، ترتكز على عشرة أعمدة رخامية، فيما عدا بائكة المحراب التى تحتوى على أربعة أعمدة فقط، إذ يشغل الركن الجنوبى الشرقى منها مكتبة الجامع وبعض الغرف الحديثة البناء، ويشغل الركن الشمالى الشرقى

انكسار على شكل زاوية قائمة كما سبق أن نوهنا من قبل. وهذا الرواق شديد الثراء بزخارفة المتعددة المتنوعة، فقد أقيمت عقوده فوق عمد من الرخام والجرانيت الأحمر الوردى، ونقش السقف الخشبى بزخارف هندسية ونباتية ملونة، وفتحت بأعلى الجدارن نوافذ جصية معشقة بزجاج ملون يفصلها بخاريات جصية ذات زخارف نباتية مورقة، أرابيسك، بالإضافة إلى بعض جامات مستديرة تزدحم بدورها بالزخارف النباتية المتنوعة.

كما كسيت الجدران إلى ارتفاع أربعة أمتار ونصف المتر، بوزرات رخامية ملونةومطعمة بالصدف تضم أشكالا هندسية متعددة، وكتابات كوفية مربعة نفذت بالرخام الأخضر، يتضمن بعضها الشهادة، والبعض الآخر اسم محمد مكررا أربع مرات، أو بضعة آيات قرآنية تلتف حول مناطق مستديرة.

ويتصدر جدار القبلة محراب يعد من أندر المحاريب الرخامية فى مصر المملوكية، يكتنفه عمودان من الرخام، يرتفع فوقهما عقد مدبب من صنج رخامية معشقة ذات لون أبيض وأحمر وأسود، نقشت تواشيحه برسوم هندسية نجمية بالفسيفساء الرخامية ذات اللون البنى والأبيض والرمادى، ويلتف حولها شريط من الكتابات النسخية الجصية البارزة. ويعلو تجويفه طاقية من الفسيفساء الرخامية تشتمل على نقوش هندسية باللونين الأحمر والفيروزى، على أرضية بيضاء، يحيط بها إزار من آيات قرآنية نقشت بخط النسخ المملوكى، على حين كسى بدن المحراب بالرخام الدقيق والصدف المكون من أشكال هندسية بديعة.

ويعلوا المحراب قبة خرسانية، بصلية الشكل تشغل البلاطة الأولى والثانية أمام المحراب أعادت بناءها لجنة حفظ الآثار العربية فى سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، وهى ترتكز على ثمانية أعمدة ضخمة من الجرانيت الأحمر لها تيجان مصرية، يشغل مناطق انتقالها ستة صفوف من المقرنصات الخشبية الملونة والمذهبة، فتح بينها شبابيك جصية معشقة بزجاج ملون، ويحيط بمربع القبة إفريز خشبى به كتابات قرآنية نسخية باللون الفضى على أرضية سوداء، يحتوى بعضها على زخارف نباتية دقيقة.

ويوجد إلى يمين المحراب منبر خشبى مطعم بالسن والعاج والصدف، يعلو مدخله صف من الشرافات المسننة، ويزين ريشتيه مجموعة من الأطباق النجمية والحشوات السداسية والخماسية الأضلاع، بالإضافة إلى أشكال المثلثات المطعمة والمزينة بتكوينها من زخارف نباتى، نفذت بالحفر البارز، ويعلوها أيضا داربزين من خشب الخرط، كما يعلو منصة الخطيب قبة مفصصة، يعلوها هلال نحاسى، وترتكز على أربعة أعمدة خشبية تحصر بينها أربعة مناطق مدببة. وجدير بالذكر أن نحوا من أربعين حشوة من حشوات هذا المنبر سرقت قبل تشكيل لجنة حفظ الآثار العربية بعشر سنوات، ونقلت إلى أوروبا، ثم أعيدت إلى مصر، لتباع فيها، فاشترتها اللجنة بثمانين جنيها وأعادتها إلى منبرها الأصلى فى سنة ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م/ لتسرق من جديد في أواخر عام ٢٠٠٨م.

وبهذا الرواق أيضا دكة المبلغ التى تشغل منتصف البلاطة الثالثة، وهى من الرخام وتقوم على إثنى عشر عمودا من الرخام، مثمنة الأضلاع، ويحيط بها من أعلى دروة رخامية تزدان ببابات مكورة الشكل.

ويشتمل هذا الرواق كذلك على ثلاثة نصوص تاريخية نقشت على لوحات رخامية، من بينها لوحان بالجدار الشمالى منه، بكل منها أربعة أسطر بخط النسخ المملوكى، حفرت حروفها فى الحجر ولبست بالرخام الأخضر نصهما:

(أ) "بسم الله الرحمن الرحيم/ أنشأ هذا الجامع المبارك الفقير إلى الله تعالى/ الطنبغا الساقى الناصرى".

(ب) "بسم الله الرحين الرحيم / وكان الفراغ منه في/ شهر رمضان المعظم/ سنة أربعين وسبعمائة (مارس ١٣٤٠م)".

أما النص الثالث فيوجد على يمين المنبر وهو منقوش بدوره بخط النسخ المملوكى ويشتمل على ثلاثة أسطر نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير / إلى الله تعالى الراجى عفو ربه الطنبغا الساقى الملكى الناصري/ وذلك فى شهور سنة أربعين وسبعمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله (١٣٤٠م)".

ويفصل هذا الرواق عن الصحن مقصورة من الخشب الخرط المحفور من وجهيه بزخارف نباتية دقيقة، تشتمل على ستة صفوف أفقية يتوجها شرافات على هيئة أوراق نباتية ثلاثية الشحمات، كما يعلو الصف الخامس كتابات قرآنية من سورتى المؤمنون، (الآيات من ١ - ١٤)، والنجم (الآيات من ١ - ٢٣). وفتح بالصفوف الأربعة السفلية من هذه المقصورة ثلاثة أبواب تفضى إلى داخل رواق القبلة. وهى تعد بمثابة المثال الثانى الذى وصلنا من عمارة مصر الإسلامية، بعد مقصورة مسجد آل ملك الجوكندار بحى الجمالية، الذى شيد فيما بين سنتى ٧١٩ - ٧٣٢ هـ/ ١٣١٩ - ١٣٣٢ م.

أما باقى الأروقة الشمالى والجنوبى والغربى، فبكل منها بلاطتان عموديتان على جدار القبلة بالنسبة لكل من الرواق الشمالى والجنوبى، ومتوازيتان بالنسبة للرواق الغربى، بها عمد تحمل عقودا مدببة فتحت فى خواصرها عقودا صغيرة لتخفيف الضغط الطارد على الأعمدة ولزيادة الإضاءة بالأروقة المذكورة.

ويتوج جميع واجهات الأرواقة المطلة على الصحن شرافات مسننة مزينة بزخارف نباتية دقيقة كسى أعلاها بقطع مفرغة من القاشانى الأخضر، تعتبر نموذجا فريدا فى عمارة مصر الإسلامية، كما يتوج شرافات الأركان، وتلك التى تتوسط كل واجهة قمقم حجرى مخوص يقوم على قاعدة من المقرنصات، نجد له نظيرا فى جامع الناصر محمد بالقلعة.

ويزين أيضا الواجهات المطلة على الصحن مجموعة من الجامات المستديرة والحنايا الضحلة والعقود المحارية والأشكال النجمية التى نجد نظيرا لها فى كل من جامع أحمد بن طولون والجامع الأزهر.

هذا ويشير المقريزى إلى المهندس الذى قام ببناء، هذا الجامع ومئذنته إذ يذكر بصدد حديثة عن المدرسة الأقبغاوية بالجامع الأزهر ومئذنتها ما نصه: "... بناها هى والمدرسة المعلم ابن السيوفى، رئيس المهندسين فى الأيام الناصرية، وهو الذى تولى بناء جامع الماردانى خارج باب زويلة، وبنى مئذنته أيضا".

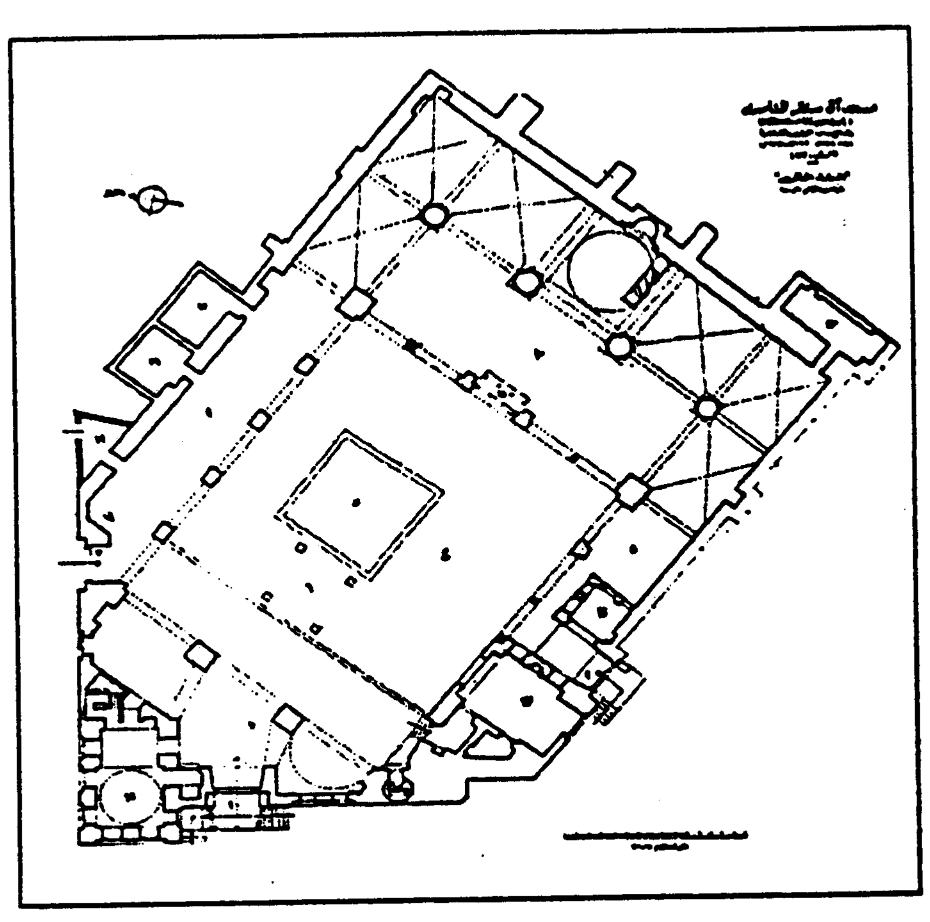
بقى أن نشير فى النهاية إلى الجهود العظيمة التى بذلتها لجنة حفظ الآثار العربية للعناية بهذا الجامع الفريد إذ قامت بإصلاحه وترميمه، فجددت الواهى من جدرانه، واستبدلت ما تداعى من أعمدة، وأصلحت وزراته ومحرابه، وجددت منبره وشبابيكه وأبوابه، وأعادت بناء القبة التى تتقدم المحراب، وأصلحت مقرنصاتها القديمة وأعادت إليها النقوش كما كانت فى الأصل، وأعادت أيضا بناء الدروة العليا من المئذنة، وأصلحت بعض أجزاء المقصورة والسقف الخشبى، فى الفترة فيما بين سنتى ١٣١٤ - ١٣٢١هـ / ١٨٩٦ - ١٩٠٣م وبذلك أعادت إلى الجامع جماله وبهجته الذى كان عليه وقت إنشائه.

جامع آق سنقر المعروف بالجامع الأزرق:

وهو يقع بشارع باب الوزير، شرع فى بنائه الأمير آق سنقر الناصرى فى ١٦ رمضان سنة ٧٤٧هـ / ٣١ ديسمبر ١٣٤٦م، وافتتحه للصلاة فى يوم الجمعة ٣ ربيع الأول سنة ٧٤٨ هـ/ ١٣ يونيو ١٣٤٧م، ويضيف المقريزى أن" هذا الجامع قريب من قلعة الجبل، فيما بين باب الوزير والتبانة، كان موضعه فى القديم مقابر أهل القاهرة، وأنشأه الأمير آق سنقر الناصرى، وبناه بالحجر، وجعل صفوفه عقودا من حجارة ورخمه، واهتم فى بنائه اهتماما زائدا حتى كان يقعد على عمارته بنفسه، ويشيل التراب مع الفعلة بيده، ويتأخر عن غذائه اشتغالا بذلك وأنشأ بجانبه مكتبا لإقراء أيتام المسلمين القرآن، وحانوتا لسقى الناس الماء العذب.

ووجد عند حفر أساس هذا الجامع كثيرا من الأموات وجعل عليه ضيعة من قرى حلب تغل فى السنة مائة وخمسين ألف درهم فضة، عنها نحو سبعة آلاف دينار، وقرر فيه درسا فيه عدة من الفقهاء. . .وأقام له سائر ما يحتاج إليه من أرباب الوظائف، وبنى بجواره مكانا ليدفن فيه، ونقل إليه ابنه فدفنه هناك".

وأضاف أيضا أن "هذا الجامع من أجل جوامع مصر، إلا أنه لما حدثت الفتنة ببلاد الشام، وخرجت النواب عن طاعة سلطان مصر منذ مات الملك الظاهر برقوق فى سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩م، امتنع حضور مغل وقف هذا الجامع لكونه



شكل (٦١)

مسقط أفقي لجامع آق سنقر، عن المجلس الأعلى للآثار

فى بلاد حلب، فتعطل الجامع من أرباب وظائفه، إلا الآذان والصلاة وإقامة الخطبة فى الجمع والأعياد" .

وروى المقريزى كذلك أن " لما كانت سنة خمس عشرة وثمانمائة (١٤١٢م) أنشأ فى وسطه الأمير طوغان الدوادار بركة ماء وسقفها ونصب عليها عمدا من الرخام لحمل السقف، أخذها من جامع الخندق، فهدم الجامع بالخندق من أجل ذلك، وصار الماء ينقل إلى هذه البركة من ساقية الجامع التى كانت للميضأة فلما

قبض الملك المؤيد شيخ الظاهرى على طوغان فى يوم الخميس تاسع عشر جمادى الأولى سنة ست عشرة وثمانمائة (١٤ أغسطس١٤١٣م) وأخرجه إلى الإسكندرية واعتقله بها، أخذ شخص الثور الذى كان يدير الساقية، فإن طوغان كان أخذه منه بغير ثمن، كما هى عادة أمرائنا، فبطل الماء من البركة". وفى سنة ١٠٦١هـ / ١٦٥١ أوقف الأمير إبراهيم أغا مستحفظان ناظر الجامع عليه بعض الأماكن والأعيان والأراضى، تغل سنويا، خصصه للصرف على الجامع وتعميره وإقامة شعائره، فكان من بينها المنزل المقابل له بنفس الشارع، الذى عثر على نقش بواجهته مدون عليه النص التالى: "أنشأ هذا المكان المبارك / وأوقفه إبراهيم أغا مستحفظان، فى سنة إحدى وستين وألف / من الهجرة النبوية (١٦٥١م)".

ويحد المسجد من جهة الغرب شارع باب الوزير، ويحده شمالا درب شغلان، وشرقا أرض فضاء يشغلها ملاعب نادى الدرب الأحمر الرياضى وجزء من سور صلاح الدين الواصل إلى القلعة، وجنوبا شارع باب الوزير حيث يحجب جزء من واجهته منزل سكنى ملاصق للجامع من هذه الناحية، وله ثلاث واجهات مشيدة من الحجر الفص النحيت، أى المهذب المصقول باللونين الأحمر الداكن والأصفر فى صفوف متعاقبة متوازية، أى مشهر، يتوجها من أعلى شرافات مسننة، وتعتبر الواجهة الغربية، التى تمتد إلى مسافة ستة وثلاثون مترا، بمثابة الواجهة الرئيسية للجامع وبها مدخله الرئيسى الذى يتقدمه صدفة أو بسطة رخامية ذات سلالم حجرية على الجانبين، ويحيط بها من أعلى دورة رخامية يتخللها أربع بابات مكورة.

والمدخل مفتوح داخل تجويف يتوجه عقد مدبب، فتح بصدره باب يعلوه عقد مستقيم من صنج معشقة بالرخام الأخضر والأبيض على التوالي، بأعلاه عقد عاتق من صنج حجرية ذات لون أحمر وأصفر غير معشقة. ويكتنفه من أسفل مكسلتان من الحجر. ويوجد على يمين المدخل جنوبا نافذتان مغطيتان بمصبعات معدنية، ويعلوها عقود مستقيمة وعاتقة من صنج رخامية معشقة، يتوسطها من أعلى قمرية مستديرة بأعلاها بضعة صفوف من مقرنصات.

ويحتل الطرف الجنوبى الغربى من هذه الواجهة مئذنة الجامع وهى رشيقة مشيدة من الحجر وتتألف من ثلاثة طوابق، الأول أسطوانى، غفل من الزخرفة، يرتكز على قاعدة مربعة، ويفصل بينه وبين الطابق الثانى شرفة يحيط بها دروة ذات ستة عشر ضلعا من الحجر المفرغ، ترتفع فوق مثلثات من المقرنصات. ويشتمل الطابق الثانى على قنوات رأسية تمتد بارتفاع الطابق الذى يفصله عن الطابق الثالث شرفة مماثلة ولكن أصغر حجما. أما الطابق الثالث فيحتوى على ست دعامات يعلوها عقودا مدببة، ويقوم فوقها خوذة خشبية مغلفة بالرصاص لتخفيف الضغط الطارد على الدعامات. ويوجد فوق مدخل هذه المئذنة الذى يقع بين الرواقين الجنوبى والغربى من جهة الصحن، يوجد لوحة رخامية تشير إلى قيام لجنة حفظ الآثار العربية بتجديد وإصلاح هذه المئذنة فى سنة ١٣٠٧هـ / ١٨٨٩م فى عهد محمد توفيق باشا.

أما الزاوية الشمالية الغربية من هذه الواجهة فيحتلها مدفن السلطان علاء الدين كجك الذى توفى فى شهر جمادى الأولى سنة ست وأربعين وسبعمائة / سبتمبر ١٣٤٥م، أى قبل تشييد هذا الجامع الذى ألحق بهذا المدفن بنحو عام تقريبا. وهو مغطى بقبة، يتوج واجهتها من أعلى صف من المقرنصات يليه إلى أسفل جامة مستديرة مفرغة من الجص يوجد أسفل منها نقش كتابى بخط النسخ المملوكي، يضم أربعة أسطر بالحفر البارز نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم كل نفس ذائقة الموت هاذه (كذا) القبة المباركة عمرت لدفن العبد الفقير إلى الله تعالى مولانا / السلطان السعيد الشهيد الملك الأشرف علاء الدين كجك وكانت وفاته فى شهر جمادى الأولى من سنة ست وأربعين وسبعمائة (سبتمبر ١٣٤٥م)".

وتمتد الواجهة الجنوبية بطول ثمانية وأربعين مترا، يحجب ستة وثلاثون مترا منها أحد المنازل الملاصقة للمسجد، ويتقدم الجزء الباقى منها بسطة أو صدفة رخامية مزودة بسلالم حجرية من جهة واحدة ولا دروة لها، تفضى إلى المدخل الثانى للجامع، وهو يقع داخل تجويف يعلوه عقد مدبب، ويكتنفه أيضا من أسفل مكسلتان من الحجر. ويعلو فتحة المدخل عقد مستقيم من صنج رخامية معشقة،

بأعلاه عقد عاتق من صنج حجرية، ثبت فوقه لوحة من تأسيسيه نقش بها أربعة أسطر بخط النسخ المملوكى نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر أمر بإنشا هذا الجامع العبد الفقير إلى الله تعالى آق سنقر الناصرى تغمده الله برحمته وكان ابتداء عمارته سادس عشر رمضان المعظم سنة سبع وأربعين وسبعمائة (٣١ ديسمبر ١٣٤٦م) وكان الصلاة فيه يوم الجمعة ثالث ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وسبعمائة (١٣ يونيو١٣٤٧م) وتوفى رحمة الله تعالى تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وسبعمائة (٢٩ يوليو ١٣٤٧م).

وتضم هذه الواجهة أيضا إلى الشرق من هذا المدخل واجهة مقبرة بسيطة تحمل اسم الأمير آق سنقر كما تضم أيضا فى الطرف الجنوبى الغربى منها واجهة مدفن إبراهيم أغا مستحفظان الذى أضيف إلى الجامع فى سنة ١٠٦٢ هـ/ ١٦٥٢م، ويطل عليه نافذة يعلوها لوحة رخامية عليها ستة أسطر من كتابات نسخية نصها: " إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله، عمر وجدد هذا الجامع الشريف المبارك إبراهيم أغا مستحفظان حالا بتاريخ سنة إحدى وستين والف من الهجرة النبوية (١٦٥١م) ".

أما الواجهة الشمالية الموازية لها والمطلة على درب شغلان فهى تمتد بنحو أحد وثلاثون مترا ونصف المتر، ويشغل الطرف الغربى منها قبة السلطان علاء الدين كجك التى تطل على الدرب المذكور من خلال ثلاثة شبابيك، يليها شباك رابع يطل على داخل الرواق الغربى للجامع، يقع إلى الشرق منه المدخل الثالث للجامع وهو على مستوى أرضية الدرب، ويشبه إلى حد ما المدخل الجنوبى ولكنه ليس على محوره، يتوجه من أعلى عقد مستقيم من صنجات حجرية، بأعلاه عقد عاتق يتألف بدوره من صنجات حجرية، تعلوه لوحة تأسيسية نقش عليها نص بخط النسخ المملوكى، طمست أغلب معالمه بتأثير العوامل الجوية، تمتد بعده الواجهة الشمالية بميل فى اتجاه الشرق حيث نجد فتحة مدخل أخرى تفضى إلى داخل الرواق الشمالى، تستخدم فى الوقت الحالى للمرور إلى الميضأة التى أضيفت

حديثا على الجانب الآخر من درب شغلان. هذا وقد أضيف إلى الجامع مجموعة من الدعامات الساندة، نجد اثنتان منها خارج الطرف الشرقى للواجهة الشمالية، وثلاث خارج جدار المحراب بالواجهة الشرقية التى تضم أيضا بروزا فى الزاوية الجنوبية منها يمثل غرفة مستطيلة، يفضى مدخلها إلى داخل رواق القبلة.

وتخطيط الجامع من الداخل يتبع التخطيط التقليدى للمساجد ذات الأروقة، إذ يتألف من صحن أوسط مكشوف يحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الشرقى، والصحن سماوى، مستطيل الشكل تبلغ مقاييسه ٣٠,٦٠ × ٢٦,٢٠مترا، يتوسطه فى الوقت الحالى حديقة يجاورها مظلة خشبية تقوم على أربعة أعمدة حجرية بأسفلها بئر للمياه غير مستخدمة فى الوقت الحالى، يبدو أنها كانت متصلة بالفسقية التى أقامها الأمير طوغان الدوادار فى سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م، ولم يتبق منها سوى بلاطة رخامية تحمل رنك الدواة مثبتة بالجدار الغربى بمدفن إبراهيم أغا مستحفظان.

ويعد رواق القبلة الشرقى أكبر أروقة الجامع إذ يشتمل على بلاطتين يفصل بينهما بائكة موازية للمحراب تتألف من أربع دعامات ضخمة مثمنة المسقط، شيدت من صفوف منتظمة من حجارة ملونة بالأبيض والأحمر يعلوها أرجل العقود المدببة الحاملة للأقبية الحجرية المتقاطعة التى تسقف هذا الرواق والتى لم يتبق منها سوى سقف هذه البلاطة.

أما البلاطة الثانية فقد استبدل سقفها الحجرى بسقف خشبى وإن بقى طرفا هذه البلاطة فى الشمال والجنوبى على أصلهما منذ أيام آق سنقر، كما استبدلت دعامات هذه البلاطة المطلة على الصحن بعمد رخامية ودعامات حجرية مربعة.

ويتصدر الجدار الشرقى محراب الجامع وهو مغشى بأشرطة دقيقة من الرخام والصدف ويتخلل تجويفه محاريب صغيرة محمولة على عمد صغيرة، وشريط من كتابات نسخية قرآنية بخط النسخ المملوكى من سورة البقرة، ويعلوه طاقية تزدان بفسيفساء رخامية دقيقة، خردة، يتوجها من الخارج عقدان مدببان متداخلان يرتكزان على أربعة أعمدة رخامية.

ويكسو جدار القبلة حتى السقف مجموعة كبيرة من القاشانى الملون الجميل، وهى أكبر مجموعة وجدت فى منشأة واحدة من منشآت مصر الإسلامية، يقال أن ابراهيم أغا مستحفظان قام باستيرادها خصيصا من مدينة ازنيك بآسيا الصغرى، وأنها عملت خصيصا لهذا الجامع برسوم محددة، لذلك نجد أطرها كاملة ونقوشها متماثلة، فبعضها يمثل محرابا يعلوه قنديل؛ كتب فيه "يا الله يا محمد"، يكتنفه عودا سرو، وبداخله زهرية يتفرع منها أفرع نباتية تحمل زهورا، والبعض الآخر يمثل زهريات مختلفة وزخارف وزهورا ملونه، فى أعلاها مشكاة كتب عليها نفس العبارة السابقة، وكل هذه البلاطات ذات لون أزرق سماوى بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الألوان نجد بينهما اللون الأحمر الطماطمى والأبيض والأخضر الزرعى الذى يؤلف خليطا جميلا مع اللون الأزرق السماوى الذى يسود البلاطات جميعا؛ لذا عرف هذا الجامع خاصة عند الأجانب باسم الجامع الأزرق.

ويعلو المحراب قبة كبيرة مشيدة بالطوب، ويشغل مناطق الانتقال بها، أربع حنايا ركنية تنتهى كل واحدة منها بدلاية، تذكرنا بمناطق الانتقال فى قبة مدفن السلطان علاء الدين كجك التى ألحق بها هذا الجامع كما سوف نرى فيما بعد، وبمناطق الانتقال فى قبتى الأمير تنكز بغا فى صحراء السيوطى من سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٩م، وبصحراء باب الوزير من سنة ٧٦٤هـ١٣٦٢/م، وأيضا بقبتى مدرسة أم السلطان شعبان، خوند بركة، بشارع التبانة من سنة ٧٧٠هـ / ١٣٦٩م.

ويوجد إلى يمين المحراب منبر من الرخام يزين جوانبه رسوم بارزة تتألف من أوراق وعناقيد عنب، كما يزين أعلى جلسته كتابات كوفية مربعة. ويعد هذا المنبر من أقدم المنابر الرخامية القائمة بآثار مصر الإسلامية، بعد بقايا منبر مسجد الخطيرى المحفوظ حاليا بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة، الذى ينسب إلى سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م.

ونجد أيضا على يسار المحراب لوحة رخامية مربعة الشكل تشتمل على أربعة أسطر بخط النسخ تسجل رؤيا ملخصها أن النبى ﷺ، شوهد وهو قائم يصلى فى

محراب جامع آق سنقر، إذ نقرئ عليها النص التالى: "رأى النبى ﷺ فى هذا المحراب المبارك ليلة السبت تاسع شهر ذى العقدة الحرام سنة ثمان وستين وثمان مائة (١٥ يوليو ١٤٦٤م) وهو قائم يصلى. عمر هذا الجامع الشريف إبراهيم أغا مستحفظان حالا فى تاريخ سنة ١٠٦٢هـ (١٦٥٢م)".

لذا يرجح أن هذه الرؤية هى سبب تسمية هذا الجامع بجامع النور، مع أن هذا الاسم وجد منقوشا بالفعل على اللوحة المثبتة على قبر آق سنقر بالرواق الجنوبى كما سوف نشير فيما بعد، كما ورد أيضا فى وثيقة وقف هذا الجامع. ويضم رواق القبلة كذلك دكة للمبلغ من الرخام تعتبر الثالثة من نوعها بعد دكة مسجد ألماس الحاجب من سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م، ومسجد الطنبغا الماردانى السابق الإشارة إليه.

ويضم الرواق الغربى المقابل لرواق القبلة بلاطة واحدة ولا يزال يحتفظ بالكثير من تفاصيله القديمة، ويتصل فى ركنه الشمالى الغربى بقبة السلطان علاء الدين كجك، وهى عبارة عن مساحة مربعة يعلوها قبة مشيدة بالطوب، يتقدمها شرقا إيوان مغطى بقبو، يزين الجميع جامات وبخاريات جصية بها نقوش نباتية، كما يحيط بمربع القبة إزار جصى به كتابات قرآنية بخط النسخ المملوكى من سورة البقرة (الآيتان ٢، ٥٥، ونص تاريخى: "هذا ضريح العبد الفقير إلى الله تعالى العبد الشهيد مولانا السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الناصر محمد ابن مولانا السلطان السعيد الشهيد قلاوون الصالحى تغمدهم الله برحمته وأسكنهم فسيح جناته وقدس أرواحهم الطاهرة وعوضهم عن الدنيا نعيم الآخرة وكانت وفاته فى جمادى الأولى سنة ست وأربعين وسبعمائة (سبتمبر ١٣٤٥م)". ويشغل مناطق الانتقال بها أربع حنيات ركنية زودت كل منها بدلاية من الخشب مكسية بالجص، تذكرنا بنظائرها فى القبة التى تعلو المحراب.

أما الرواقان الجانبيان الشمالى والجنوبى فبكل منهما بلاطة واحدة، وقد شهدا تغييرات جوهرية فى العصر العثمانى حيث استبدلت أسقفهما الأصلية ذات الأقبية الحجرية المتقاطعة بأسقف خشبية، كما استبدلت دعاماتهما بأعمدة رخامية

وبدعامات حجرية شبه مربعة، وذلك عقب الأضرار التى لحقت بالجامع من جراء زلزال منتصف القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى. كما استعيض عن المكتب والسبيل ومدفن آق سنقر الذى كان يشغل الطرف الغربى من هذا الرواق الجنوبى، بالمقبرة الحالية التى أقامها إبراهيم أغا مستحفظان لنفسه أثناء تجديده للجامع فيما بين سنتى ١٠٦١ - ١٠٦٢هـ/ ١٦٥١ - ١٦٥٢م وأثناء نظارته عليه. وهذا المدفن عبارة عن مساحة مستطيلة الشكل، جدرانها مؤزرة بالرخام وبها محراب رخامى، وكسى أعلى الجدران حتى السقف بالقاشانى، وبوسطها تركيبة رخامية تعلو قبر المنشأ، مدون عليها النص التالى: "أنشأ هذا المكان المبارك الراجى عفو ربه ستر الله عيوبه وغفر ذنوبه هو الغفور الرحيم إبراهيم أغا مستحفظان حالا بتاريخ شعبان المبارك فى سنة ١٠٦٤ هـ (يونيو ١٦٥٤م)". كما توجد لوحة أخرى مثبتة على واجهة المدفن الشمالية المطلة على الصحن نصها: " أنشأ هذا المدفن المبارك من فضل الله تعالى فى زمن عبد الرحمن باشا حاكم مصر المحروسة إبراهيم أغا مستحفظان حالا بتاريخ ١٠٦٢هـ (١٦٥٢م)".

ويتقدم هذا المدفن بناء حديث مربع الشكل تسوده البساطة مسجل عليه النص التالى: "هذا قبر المرحوم آق سنقر الناصرى المعروف بجامع النور وكان ابتدأه سادس عشر رمضان سنة ٧٤٧هـ (٣١ديسمبر ١٣٤٦م) والفراغ فى سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) ". يرجح أنه من عمل إبراهيم مستحفظان الذى بخل على المنشىء الأصلى للجامع بمدفن يناسب الجهد والمال الذى بذله فى تشييد هذا الجامع.

خلاصة القول أن هذا الجامع شهد العديد من عمليات الترميم والتجديد ليس فقط فى أيام إبراهيم أغا مستحفظان الذى صار الجامع يحمل إسمه، بل أيضا فى سنة ١٢٦١هـ / ١٨٤٥م حيث قام الناظر على وقف إبراهيم أغا مستحفظان ببعض الإصلاحات المعمارية بعدما سمحت له بذلك محكمة الباب العالى.

وفى سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م. آلت أوقاف إبراهيم أغا مستحفظان لإشراف ديوان عموم الأوقـاف أى وزارة الأوقاف الحاليـة، فتولى مبـاشرة الجامع وعمارته وإقامة الشعائر به من ريع أوقافه.

وقامت وزارة الأوقـاف أيضا بإصلاح المئذنـة وإعادة بناء دورتها الـثالثة بعد سقوطها فى عصر خديوى مصر توفيق فى سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩ م كما نوهنا من قبل. بعد ذلك توالت عناية لجنة حفظ الآثار العربية بهذا الجامع فأصلحت العقود والقاشانى، وأصلحت المنبر، وكشفت الواجهات من الأبنية التى كانت تحجبها،ولا يزال المجلس الأعلى لـلآثار يوالى الاهتمـام بهذا الجامع الـذى يحتاج فى الوقت الحالى إلى عمليات ترميم شاملة حتى يعود إلى رونقه القديم.

مدرسة صرغتمش:

تقع هذه المـدرسة بشارع الخضيـرى بحى السيدة زينب أنـشأها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى فى سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م، وكان أميرا حازما، اشتغل بالعلم وتفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة وتعصب له، وكان يقرب علماء العجم ويجلهم إجلالا زائدا.

ويـصفها المقريزى بـقوله: "هذه المدرسة خارج القـاهرة بجوار جامع الأمير أبى العباس أحمد بن طولون، فيما بينه وبين قلعة الجبل. وكان موضعها قديما من جـملة قـطائع ابن طـولون، ثم صـار عدة مسـاكن فأخذهـا الأميـر سيف الدين صرغتمش الناصرى رأس نوبة النوب وهدمها، وابتدأ فى بناء المدرسة يوم الخميس من شهر رمضـان سنة ست وخمسين وسـبعمائة (سبـتمبر ١٣٥٥م)، وانتهت فى جمادى الأولى سنة سبع وخمسين (مايو ١٣٥٦م).

وذكر أيضا أنـها "جاءت من أبدع المبانى وأجـلها وأحسنها قـالبا، وأبهجها منظرا فركب الأمير صرغتـمش فى يوم الثلاثاء تاسعة... ورتب مدرس الفقه بها قوام الدين أمير كاتب بن أمير عمر العمـيد بن العميد أمير غازى الأتقانى، فألقى القوام الدرس، ثم مد سماط جليل بالهـمة الملوكية، وملئت البركة التى بها سكرا

قد أذيب بالماء، فأكل الناس وشربوا وأبيح ما بقى من ذلك للعامة فانتهبوه. وجعل الأمير صرغتمش هذه المدرسة وقفا على الفقهاء الحنفية. . . ورتب بها درسا للحديث النبوى وأجرى لهم جميعا المعالم من وقف رتبه لهم. وقال أدباء العصر فيها شعرا كثيرا فقال العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى.

ليهنك يا صرغتمش ما بنيته

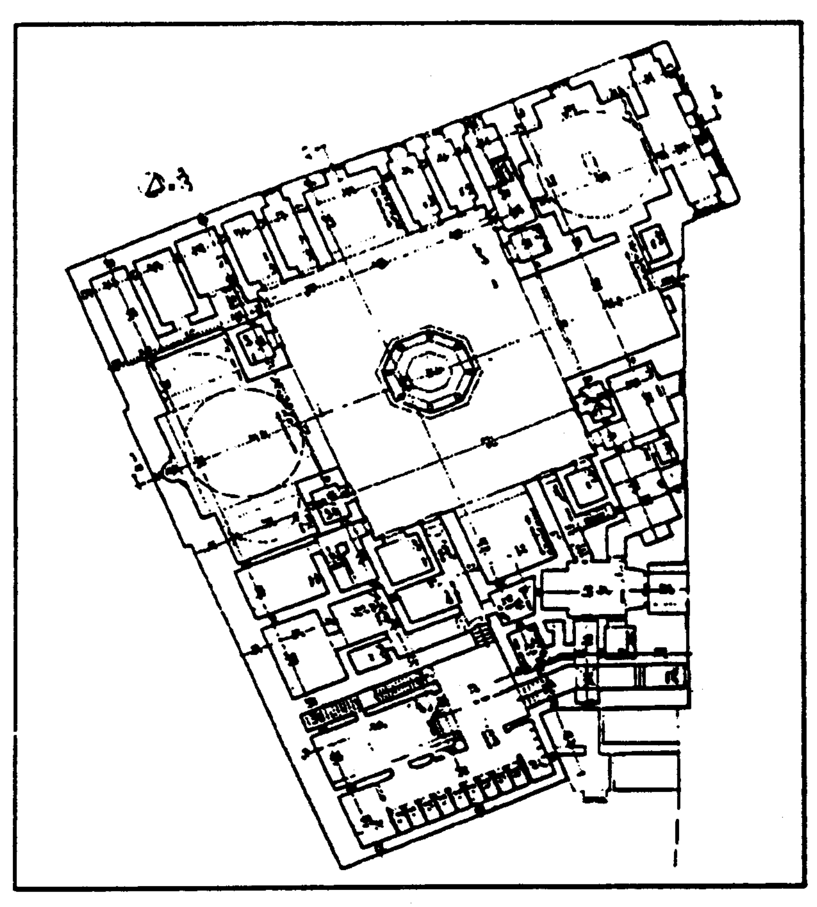
لأخراك فى دنياك من حسن بنيان

به يزدهى الترخيم كالزهر بهجة

فلله من زهر ولله من بانى"

وتطل الواجهة الرئيسية للمدرسة أى الغربية على شارع الخضيرى وهى مشيدة من الحجر الفص النحيت باللونين الأبيض والأحمر فى صفوف متعاقبة متوازية، أى مشهر، يتوجها من أعلى شرافات مسننة،وفتح بها ثلاثة تجاويف رأسية، يعلو كل منها صدر مقرنص يتألف من صفين، أعدت كما هى العادة لاستقبال فتحات النوافذ حيث نجد فى كل تجويف نافذة أرضية مستطيلة مغشاة بمصبعات معدنية، يعلوها نافذة معقودة مغشاة بستائر جصية تزدان بزخارف هندسية تمثل أطباقا نجمية مفرغة يلتف حولها شريط من زخارف نباتية محفورة، ويعلو الجميع بهذه الواجهة خمسة شبابيك أخرى مغطاه بدورها بمصبعات معدنية. ويشغل الركن الجنوبى الغربى من هذه الواجهة قبة المنشيء، وهى تبرز قليلا عن سمت الواجهة، ويزدان ضلعها الغربى بثلاثة تجاويف رأسية، بالإضافة إلى تجويف ركنى رابع يحتل الزاوية الشمالية الغربية منها،أعدت بدورها لاستقبال نوافذ القبة.

أما المدخل فيحتل الطرف الشمالى الغربى من الواجهة وهو يوجد داخل حنية مجوفة يتوجها سقيفة مقرنصات يحددها عقد ثلاثى الفصوص، بصدرها نافذة مستطيلة، مغشاه بزخارف جصية، أسفل منها شباك مستطيل مغطى بمصبعات معدنية، يرتفع فوق عقد عاتق يزين نفيسه زخارف نباتية بارزة،يوجد أسفل منه



شكل (٦٢)

مسقط أفقي لمدرسة صرغتمش نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

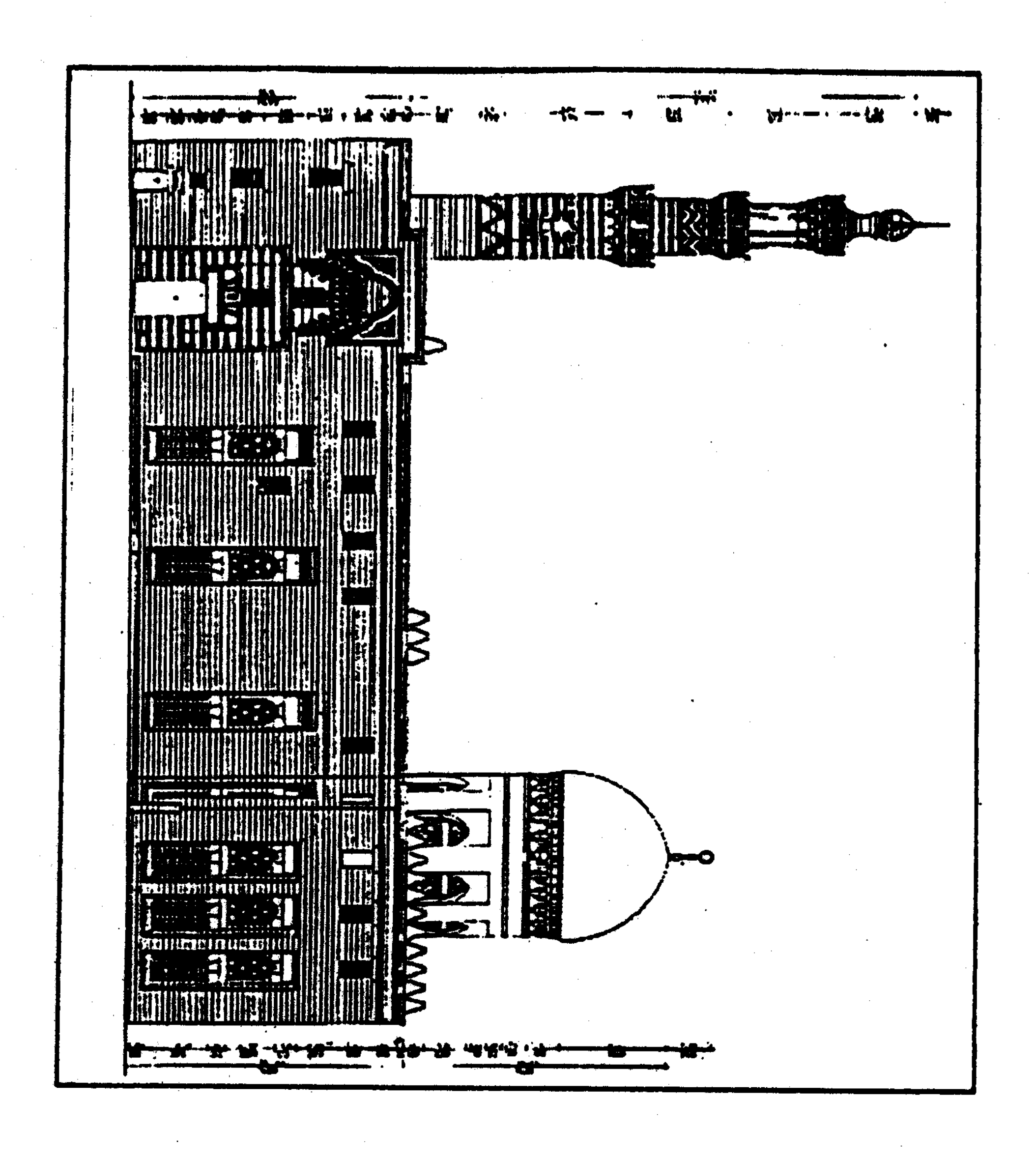
عقد مستقيم يتألف من صنج حجرية منقوشة بزخارف نباتية مورقة نفذت بالحفر البارز، يفتح أسفله باب خشبى من مصراعين بهما حشوات مجمعة، بأعلاه واسفله شريطان نحاسيان، ويكتنفه من أسفل مكسلتان من الحجر فوقهما بنحو مترين تقريبا على جانبى المدخل طراز به كتابات نسخية مملوكية نصها: "أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة المقر الأشرف العالى المولوى العادلى الفاضلى السيفى صرغتمش رأس نوبة الملكى الناصرى مربى العلماء مقوى الضعفاء وبانى المدارس فى ربيع الآخر سنة سبع وخمسين وسبعمائة (أبريل ١٣٥٦م)"

ويوجد إلى يسار المدخل فى أقصى الطرف الشمالى من الواجهة مئذنة رشيقة مشيدة من الحجر المشهر باللونين الأبيض والأحمر، تشتمل على ثلاثة طوابق يبلغ ارتفاعها من أرضية الشارع إلى قمتها أربعون مترا، تقوم فوق قاعدة مربعة بجدارها الجنوبى باب معقود يؤدى إلى داخلها. الطابق الأول مثمن الأضلاع، فتح فى أحد اضلاعه على غير العادة شرفة واحدة فقط بدلا من أربع، يعلوه طابق ثان مثمن الأضلاع أيضا يزينه زخارف متعرجة، نقشت بالحجر المشهر فى صفوف أفقية متوازية، يرتفع فوقه طابق ثالث يشتمل على ثمانية أعمدة رخامية رشيقة يعلوها خوذة منقوشة. ويفصل بين طوابق المئذنة ثلاث شرفات ذات ستة عشر ضلعا من الحجر المفرغ بأشكال هندسية ونباتية، ترتكز على صفوف من مقرنصات لطيفة. ومن المعروف أن لجنة حفظ الآثار العربية قامت بفك وإعادة بناء هذه المئذنة فى سنة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤ م، كما أنشأت دارا صغيرة بجوارها لتجميل المنطقة.

وتطل الواجهة الثانية للمدرسة أى الجنوبية على شارع الدحديرة وهى مشيدة بدورها من الحجر ويتوج أعلاها شرافات مسننة، ويخترقها سبعة تجاويف رأسية، غير متساوية الارتفاعات، تحتوى على شبابيك مستطيلة مغشاة بمصبعات معدنية، يعلو بعضها شبابيك معقودة يغطيها ستائر جصية مفرغة بأشكال هندسية ويعلو البعض الآخر شبابيك مستطيلة مغشاة أيضا بمصبعات معدنية.

وتشتمل هذه الواجهة كذلك على سبعة حواصل يغلق عليها ابواب خشبية ويتقدمها سلم بعرض أربعة أمتار ونصف المتر يفضى إلى الرحبة التى تتقدم الباب الغربى للجامع الطولونى، كما يوجد بالضلع الجنوبى لقبة المدفن مزولة شمسية.

ويلاصق الضلع الشرقى للمدرسة جامع أحمد بن طولون. أما الضلع الشمالى للمدرسة فهو ملاصق للدار الصغيرة التى أنشأتها لجنة حفظ الآثار العربية كما نوهنا من قبل. هذا ويفضى المدخل الرئيسى للمدرسة بالواجهة الغربية إلى داخل المبنى عن طريق دركاة مربعة يعلوها قبو متقاطع، فرشت أرضيتها بالرخام



شكل (٦٣)

قطاع رأسى لمدرسة صرغتمش، نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

المتعدد الألــوان، يتصدر جدارها الشرقى دخــلة عميقة ذات أرضيــة مرتفعة مغطاه بنصف قــبو متقاطع، فتح بجدارهــا الشمالى بابان معقــودان، يؤدى الغربى منهما إلى حجرة صغيرة، والشرقى إلى دهليز مستطيل يتصل بدهليز آخر إلى الشرق منه متعامد عليه، يؤدى إلى دورة ميــاه تشغل الزاوية الشمالية الشرقية خارج المدرسة. ويفتح بالجدار الجنوبى للدركاة بابان أيضا يوصل الغربى منهما إلى حجرة مستطيلة تطل على شارع الخضيرى،على حــين يؤدى الشرقى إلى دهليز يفتح على الصحن الأوسط للمدرسة التى شيدت على نظام الصحن والإيوانات الأربعة.

والصحن هــنا مستطيل الــشكل تبلغ مقــاييسه ١٨, ٢١ × ١٢, ١٧ مترا وهو مفروش بالرخام الملون بأشكال هندسية بديعة ويتوسطه فوارة مثمنة الأضلاع، يقوم فى كل ركن من أركانها عمــود رخامى، ويعلــوها قبة، فتح بــها ثمانــية شبابيك مــستطيلة ويــلتف حولها رفرف خــشبى مشغول. ويفــتح على الصحن فى جوانبه الأربعــة ستة عشر بابا، مــعقودة بعقود مدبــبة شكلت بصنجــات رخامية بإسلوب الأبلق أى بيضاء وسوداء على التوالى، وهى تفضى إما إلى خلاوى طلاب المدرسة أو إلى سطح المدرسة أو إلى سلم مئذنتها، وذلك باستثناء البابين المجاورين للإيوان الشمالى الذى يفضى الشرقى منهما إلى دورة المياه، والغربى إلى دركاة المدخل كما نوهنا من قبل. ويطل على الصحن أيضــا مجموعة من الشبابيك المغشاة بمصبعات معدنــية، وهى تفتح عــلى مساكن طلاب المدرســة، كما يتــوج الواجهات الــعليا المحيطة به شرافات مسننة.

ويتعامد على الــصحن أربعة إيوانات تــفتح عليه بواســطة عقود مدببة ذات أرجل مقرنصة، أكبرها إيوان القبلة الشرقى، وهو مربع التخطيط وأرضيته مفروشة بالحجر الجيرى، يكتنفه من شمال وجــنوب سدلتان تطلان عليه بعقد مدبب، كما يغطى كل منهما قبو مدبب. أما مــربع الإيوان فيعلوه قبة من الآجر، أعادت لجنة حــفظ الآثار الــعربيــة تشــييدهــا فى سنــة ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠ م، وهى ذات رقبة أســطوانية فتح بــها ثمان حــنايا يتوسط كل مــنها نافــذة من الجص المعشق بزجاج ملون، وهى ترتفع فوق مناطق انتقال من مقرنصات خشبية متعددة الصفوف تنتهى

بكرادى بسراويلات، ويتصدر الجدار الشرقى لهذا الإيوان محراب مجوف يتوجه عقد مدبب من صنج رخامية ذات لون أبيض وأسود على التوالى أى أبلق، يرتكز على عمودين من الرخام البرتقالى اللون كما غشيت حنيته بوزرات رخامية متعددة الألوان ونقشت طاقيته بكتابات نسخية مملوكية، محفورة فى الرخام تشتمل على آية الكرسى، ويكتنف المحراب من الجانبين لوحتان من الرخام بأعلى كل منهما رنك البقجة، شعار الجمدار، إحدى الوظائف التى كان يشغلها الأمير صرغتمش الناصرى، وبأسفل كل لوحة شريطان من الكتابات النسخية نصهما: " مما عمل برسم المقر العالى السيفى الملكى الناصرى صرغتمش أسبغ الله ظلاله" . واستخدم الرخام الملون أيضا فى كسوة جدران هذا الإيوان إلى ارتفاع ما يقرب من ثلاثة أمتار، يعلوها إزار خشبى كان به كتابات نسخية لا وجود لها فى الوقت الحالى.

ويوجد إلى يمين المحراب منبر خشبى مدون عليه أسفل الجوسق النص التالي: " أنشأ هذا المنبر من فضل الله تعالى قيومجى أحمد كتخدا عزبان عمر الله سنة ١١١٨هـ (١٧٠٦م)" وهو يتألف من حشوات مجمعة رصت بأشكال هندسية بديعة، ويتوج مدخله صف من شرافات على هيئة أوراق ثلاثية الشحمات يوجد أسفلها حشوتان بكل منهما كتابة نسخية، نصها فى العليا: " لا اله الا الله محمد رسول الله حقا " ونص السفلى: " عجلوا بالصلوت قبل الفوات وعجلوا بالتوبة قبل الموت"

ويقع الإيوان الغربى فى مقابل إيوان القبلة وهو مماثل له من حيث الاتساع، إلا أنه أقل عمقا، أرضيته مفروشة بالحجر، وجدرانه مكسية بالرخام الملون، ويعلوه سقف خشبى مسطح تتخلله ثمان مجموعات من مقرنصات خشبية، ويزين أسفله إزار خشبى، ويوجد إلى الشمال منه حجرة مستطيلة مغطاة بدورها بسقف خشبى حافل بالنقوش والزخارف المتعددة الألوان، وفى ركنه الجنوبى الغربى باب خشبى يفضى إلى قبة المدفن.

أما فيما يتعلق بالإيوانين الشمالى والجنوبى فهما أقل عمقا من الإيوانين السابقين، وأرضيتهما مفروشة أيضا ببلاطات حجرية، كما يغطى كل منهما سقف

من براطيم خشبية ذات مربوعات منقوشة بزخارف نباتية، يليه إلى أسفل إزار خشبى به جامات ملونة ذات كتابات نسخية.

وتشغل قبة المدفن الركن الجنوبى الغربى من المدرسة، ويتم الدخول إليها من الإيوان الغربى، وهى ذات مساحة مربعة يبلغ طول ضلعها ثمانية أمتار ونصف المتر، أرضيتها مفروشة ببلاطات من الحجر وجدرانها مكسية بوزارات رخامية ملونة. يعلوها إزار خشبى يلتف حول جدرانها. كما فتح فى أضلاعها الشمالى والجنوبى والشرقى، حنية ضحلة معقودة بعقد مدبب، يتوسط الشرقية منها محراب صغير يكتنفه عمودان من الرخام،كما يتوسط الحنية الشمالية الباب المؤدى إلى داخل هذه القبة من الإيوان الغربى للمدرسة. أما الضلع الغربى فيفتح على مساحة مستطيلة يسقفها ثلاثة أقبية متقاطعة، ويغطى جزء من فتحته مقصورة من خشب الخرط. ويعلو المدفن قبة من الآجر ترتكز على رقبة أسطوانية، يحيط بها إفريز يحتوى على بحور بها كتابات نسخية قرآنية من آية الكرسى يتخللها زخارف نباتية، وهى ملسله من الخارج فتح فيها ثمان نوافذ غشيت بستائر جصية معشقة بزجاج ملون، ترتفع فوق مناطق انتقال يشغلها خمسة صفوف من المقرنصات.

وهذه القبة تعتبر فريدة فى نوعها بالنسبة لقباب مصر الإسلامية إذ تتألف من قبتين إحداهما داخلية ذات قطاع نصف دائرى ترتفع فوق رقبة متوسطة الارتفاع والآخرى خارجية ذات قطاع محدب تقوم على رقبة مرتفعة. وهى مشيدة على نمط قباب سمرقند، ربما بسبب اهتمام الأمير صرغتمش بالفرس إذ يذكر المقريزى أنه كان" يقرب العجم ويكرمهم ويجلهم إجلالا زائدا" الأمر الذى انعكس بدوره على عمارة هذه المدرسة التى يغلب على بعض عناصرها المعمارية، التأثيرات الفارسية،التى نشاهدها بوضوح فى طراز هذه القبة ولعله استعان بأحد مهندسى الفرس لبنائها، كما يرجح المرحوم حسن عبد الوهاب الذى يجد نظيرا لها فى قبتى التربة السلطانية، المعروفة بخوند سمرا، أم السلطان حسن، بصحراء السيوطى، وفى قبة يونس الدوادار بالحطابة. هذا ويتوسط أرضيته هذه القبة تركيبة رخامية تعتبر نموذجا راقيا لهذا النوع من التراكيب، عليها كتابات نسخية بالحفر

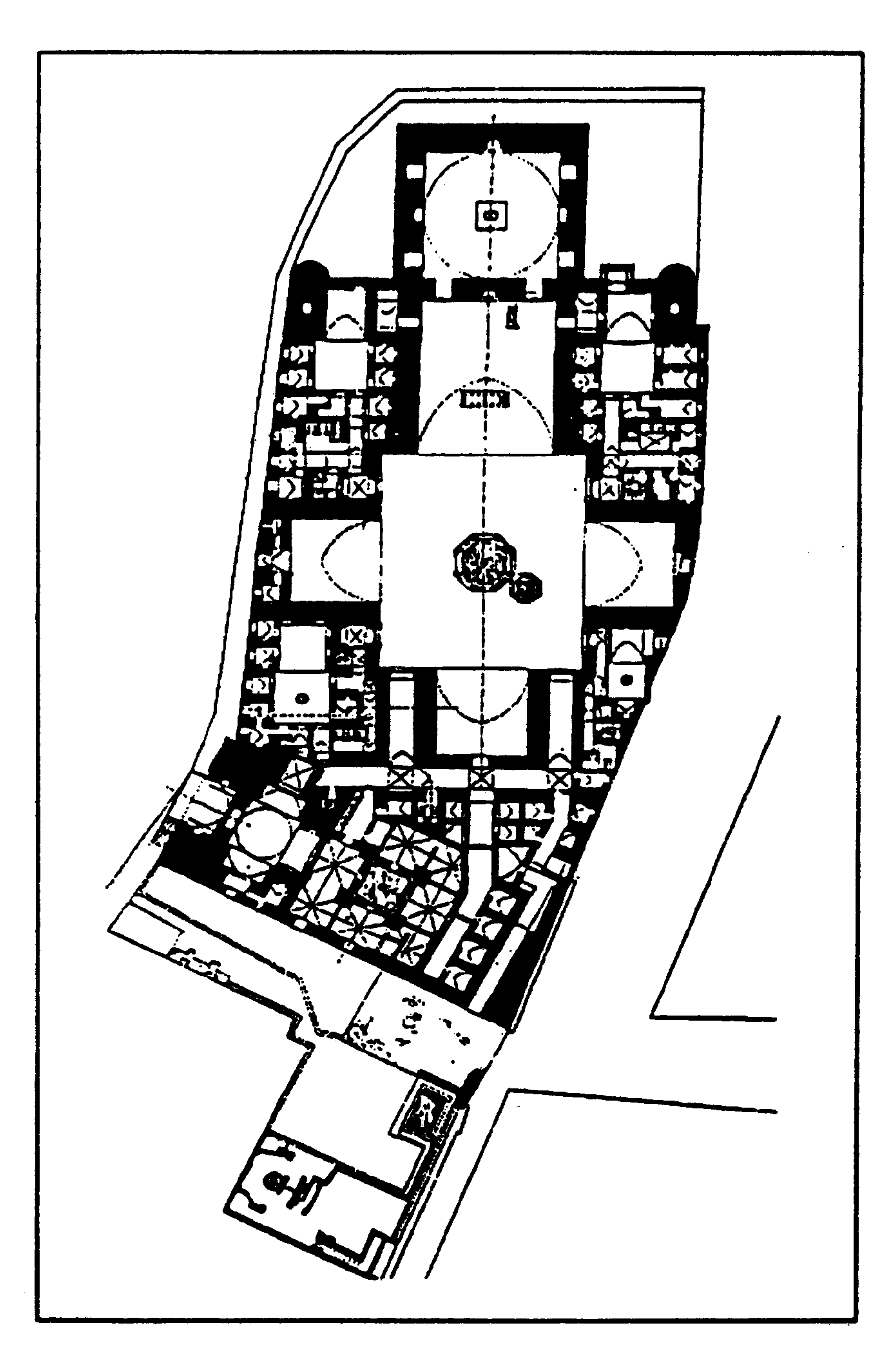
البارز تشتمل على آية الكرسي يوجد أسفل منها قبر الأمير صرغتمش الذى مات فى ذى الحجة سنة تسع وخمسين وسبعمائة / نوفمبر ١٣٥٨ م، وقبر إبنه ابراهيم المتوفى سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م.

بقى أن نشير فى النهاية إلى قيام لجنة حفظ الآثار العربية بالعناية بهذه المدرسة، حيث قامت بفك المئذنة وإعادة بنائها، كما اعادت بناء القبة التى تغطى إيوان القبلة وأصلحت رخام أرضية الصحن وقام المجلس الأعلى للآثار أيضا بعملية إصلاح شامل للمدرسة تمثلت فى تجديد الأسقف الخشبية ونقوشها والشبابيك ذات الستائر الجصية والأرضيات الرخامية للصحن والقبة، وأعاد أيضًا تركيب بعض الوزرات الرخامية وترميم وتقوية المقرنصات الخشبية والحجرية بالمدرسة، وانتهى من تلك الأعمال فى سنة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

مدرسة السلطان حسن:

تقع فى نهاية شارع القلعة، محمد على سابقا فى مواجهة جامع الرفاعى، كما تطل بواجهتها الشرقية على ميدان صلاح الدين، وبواجهتها الجنوبية على شارع المظفر، وبواجهتها الغربية على الحديقة المتحفية والبئر والساقية والحواصل والمطبخ والمطهرة وغيرها من الملحقات الخاصة بهذه المدرسة التى أمر بإنشائها السلطان الناصر حسن بن السلطان الناصر محمد ابن السلطان المنصور قلاوون وابتدأ عمارتها فى سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م، مكان قصرين أحدهما للأمير الطنبغا الماردانى والآخر للأمير يلبغا اليحياوى، وعنى بها عناية شديدة " وأقامت العمارة فيها مدة ثلاث سنين لا تبطل يوما واحدا، وأرصد لمصروفها فى كل يوم عشرون ألف درهم، عنها نحو ألف مثقال ذهب" . ونسب إلى الطواشى مقبل الشامى أنه قال: "وسمعت السلطان يقول: لولا أن يقال ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء الجامع من كثرة ما صرف عليه " .

وقد وصفها المقريزى بقوله: " فلا يعرف فى بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحاكى هذا الجامع وقبته التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب



شكل (٦٤)

مسقط أفقى لمدرسة السلطان حسن، نقلا عن هرتز

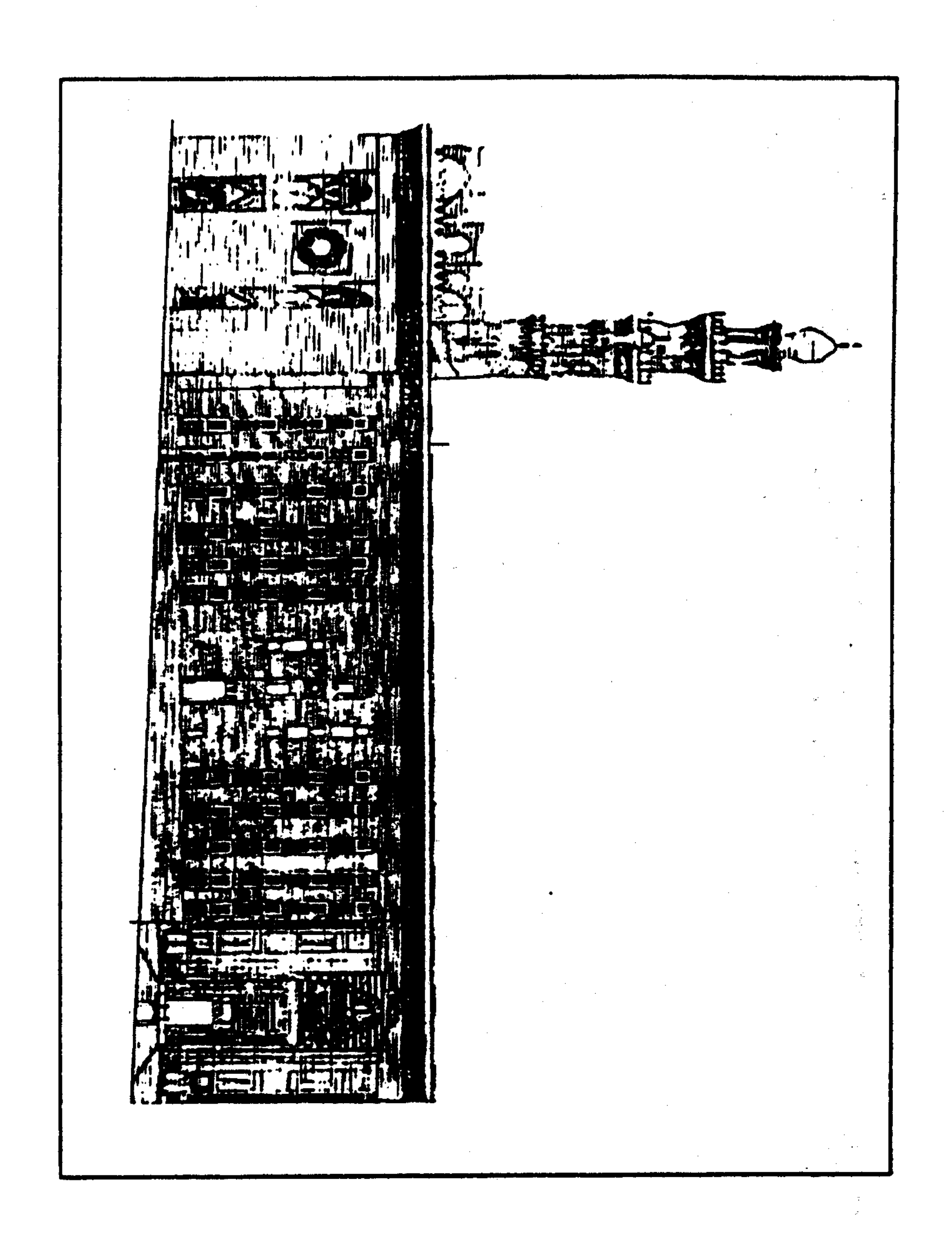
واليمن مثـلها" . وقد أجمع على هذا الرأى العـديد من المؤرخين والرحالة العرب والأجانب فقد ذكر المؤرخ ابن تـغرى بردى" أن هذه المدرسة ومئـذنتها وقبتها من عجائب الـدنيا وهى أحسن بـناء بنى فى الإسلام" . كـما روى المؤرخ ابن شاهين الظاهرى أنه "ليس لها نظير فى الـدنيا. . . ولم يعمر أعلى منها. . . وهى عجيبة من عجائب الـدنيا" . وقال عنها السلطان سليم الأول بعد الغزو العثمانى لمصر فى سنة ٩٢٣هـ١٥١٧/م "هذا حـصار عظيم" . ووصفها الـورثيلانى الرحالة المغربى الـذى زار مصر فى القرن الثانى عشر الـهجرى / الثامن عشر الميلادى بقوله " إنه مـسجد لا ثـانى له فى مصر ولا فى غـيرها من الـبلاد فى فخامـة البنـاء ونباهته وارتفاعه وإحكامه، واتساع حناياه وسعة أبوابه كأنه جبال منحوتة تصفق الرياح فى أيام الشتاء بأبوابه كما تفعل فى شواهق الجبال" . وقال عنها ايبرس "أن كل ما نراه فى الجامع مركب فى مكانه تـركيبا هادئا منسجـما، فإذا أمعنت النظر فى زخارف إيوان القـبلة وقبة الـقبر جزء جـزء، أحسست إحسـاس الرضا، فهنـاك ثروة فنية وأشكال رشيقة بـارعة" . وكتب عنها المـصور لينوار ما نـصه "أن جامع السلطان حسن المـملوكى يشـرف على القـاهرة كلهـا، وأسلوب بـنائه من أرقى الأساليب المعماريـة ومساحته عظيمة؛ ولذا يـعد أجمل جامع فى الشرق كله بلا نزاع" . أما أرثـررونية فقد ذكر "أن العبقرية هى التى أتـاحت لصاحبها السيطرة على الأشكال التقليـدية أو الهندسية فبث فيها روحـا من عنده، فلكل زخرفة فى جامع السلطان حسن طابع خاص تمتاز به عن سواها من زخارف الأبنية الأخرى" .

وهذا فى الـواقع قليل من كثـير مما قيل عن هذه المـدرسة ونجده مفصلا فى بحث للمستشرق الفرنـسى جاستون فيت عن هذه المدرسة التى نعتت بالجامع عند أغـلب المؤرخين والرحالة مع أن وثيقة الوقف الخـاصة بها نصت صراحة على أنها مـدرسة لتدريس المـذاهب الفقـهية الأربعـة، ويشهد بـذلك أيضا جمـيع النقوش التذكارية المسجلـة بداخلها كما سوف نرى فيما بعد عند تناولنا لهذا العمل العظيم فى الإسلام الذى روعى فى تشييده متانة البناء، فهو كالمعابد القديمة يتحدى الزمن وينطـبق عليه ما تخيـله شاعر عربى من أن الزمن هو الـذى يقاوم قوة هذه المبانى

الضخمة. ولا ريب فى أن هـذا البناء العالمـى الشهرة، والعظيـم القيمة رمز لمجد الإسلام وقوته وعظمته مقررة معترف بها".

وتضم هذه المدرسة مجموعة من العناصر المتميزة والمتكاملة فى جسم واحد. تبلغ مساحتها الكليـة ٧٩٠٦ مترا مربعـا، وأقصى طول لها مائـة وخمسون مترا وأقـصى عرض لها ثمانية وستون مترا وبـضلعيها الشمالى والجنوبى إزورار بسيط. وهى ذات واجهات أربع مشيدة بالحجر الجيرى، أهمها الواجهة الشمالية التى يبلغ طولها مائة وخمسـة وأربعون مترا، يتوج أعلاها شـراريف على هيئة أوراق نباتية ثلاثية الشحمات يـليها إلى أسفل كورنيش يتـألف من ستة صفوف من مقرنصات دقيقة تبـدو أشبه بعش النحل، يعقبها إلى أسفل اثـنتا عشرة دخلة رأسية يعلو كل منها ثلاثة صفوف من المقرنصات أعدت لاستقبال ثمان نوافذ غشيت بمصبعات من نحاس مسبوك، الشرقـية منها تشير إلى مساكن المدرسة الشافعية والغربية تشير إلى مساكن المدرسـة المالكية على حين تشغل كتـلة المدخل الطرف الشمالى الغربى من هذه الواجهة، وهـو مدخل تذكارى ضخم ارتفاعه سبعة وثلاثون مترا ونصف المتر وعرضه عشرون مترا يتقدمه صـدفة أو بسطة رخامية يحيط بها من أعلى دروة من الرخام يتخللها قوائم ذات رؤوس رخامية مكورة، بابات، ومزودة بسلالم مزدوجة تفضى إلى المدخل الذى يزين جانبيه زخارف متـنوعة كان مزمعا تلبيسها بالرخام، إلا أن مقتل السلطان حـسن حال دون ذلك، وتفع فتحته التى يـبلغ اتساعها اثنى عشر مترا داخل تجويف يعلوه سـقيفة من المقرنصات لا نظـير لها فى عمائر مصر الإسلامية ويكتنف جانباه حنياتان متوجتان بمقرنصات غشيت برخام أخضر بأشكال هندسية بديـعة، كتب أعلاها بخط كوفى مزهر قوله تـعالى: " إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الـله "، ويعلوها تربيعتان نقش على إحداهما بالخط الكوفى المربع الشـهادة " لا إله إلا الله مـحمد رسـول الله "، وعلى الأخـرى أسماء الخـلفاء الراشدين الأربعة " أبو بكر، عمر، عثمان، على".

وكان يغلق على فتحة المدخل مصراعان من الخشب المصفح بالنحاس المكفت بالفضة والذهب، بهما زخارف هندسـية وشريط من كتابات نسخية تتضمن تاريخ



شكل (٦٥)

قطاع رأسى لمدرسة السلطان حسن، الواجهة الشمالية

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

صناعته فى سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م، نصها "أمر بإنشاء هذا الباب المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى مولانا السلطان الشهيد أبو المعالى حسن بن مولانا السلطان الشهيد الملك الناصر محمد بن قلاوون وذلك فى سنة أربع وستين وسبعمائة". ويفهم من المصادر المملوكية أن السلطان المؤيد شيخ ابتاع هذا الباب مع التنور النحاسى لجامعه داخل باب زويلة، إذ يروى المقريزى أنه لما شرع السلطان المؤيد شيخ فى عمارة الجامع بجوار باب زويلة، اشترى هذا الباب النحاس والتنور النحاس الذى كان معلقا هناك بخمسمائة دينار، ونقلا فى يوم الخميس سابع عشرى شوال سنة تسع عشرة وثمانمائة (٨ ديسمبر ١٤١٦م) فركب الباب على البوابة وعلق التنور تجاه المحراب".

وكان يعلو هذا المدخل منارة سقطت فى سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١ م وفقا لما ذكره المقريزى الذى قال: "وكان السلطان قد عزم على أن يبنى أربعة منابر يؤذن عليها، فتمت ثلاث منابر. إلى أن كان يوم السبت السادس شهر ربيع الآخر سنة اثنين وستين وسبعمائة (١٣ فبراير ١٣٦١م) فسقطت المنارة التى على الباب، فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس من الأيتام الذين كانوا قد رتبوا بمكتب السبيل الذى هناك، ومن غير الأيتام، وسلم من الأيتام ستة أطفال، فأبطل السلطان بناء هذه المنارة وبناء نظيرتيها، وتأخر هناك منارتان هما قائمتان إلى اليوم. ولما سقطت المنارة المذكورة لهجت عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة... فاتفق قتل السلطان بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما".

ويبلغ طول الواجهة الشرقية ثمانية وستين مترا، وتضم كل من الواجهة الشرقية لقبة المدفن التى يعلوها صف من الشرافات وكورنيش من المقرنصات كما هو الحال بالنسبة للواجهة الشمالية، ويخترقها أيضا تجويفان رأسيان بكل منهما نافذة علوية قندلية أو قندلون أو شند، أسفل منها نافذة مستطيلة، كما تضم كذلك الواجهة الشرقية لإيوان القبلة الذى يكتنفه مئذنتا المدرسة، الجنوبية منهما هى الأقدم، ويبلغ ارتفاعها عن أرضية صحن المدرسة واحدا وثمانين مترا ونصف المتر، والشمالية أقل ارتفاعا ومستحدثة فى عمارة إبراهيم باشا سنة ١٠٨٢هـ/

١٦٧١م بعد أن سقطت فى عام ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م، على نمط المئذنة الجنوبية التى تتميز بقاعدتها المربعة ذات الزوايا المشطوفة، يعلوها طابق مثمن به أربع دخلات ضيقة معقودة، ذات عمد صغيرة يقابلها أربع مضاهيات، يعلوه شرفة ترتكز على ثلاثة صفوف من المقرنصات، وتلتف حول طابق علوى مربع، يرتفع فوقه أيضا شرفة أخرى تلتف بدورها حول ثمانية أعمدة يعلوها عقود مفصصة يقوم فوقها جوسق المئذنة.

أما الواجهة الجنوبية فيبلغ طولها مائة وخمسون مترا، وهى تشتمل بدورها على مجموعة من التجاويف الرأسية، أعدت لاستقبال نوافذ المدرسة الحنفية شرقا، ونوافذ المدرسة الحنبلية غربا ويفضى الباب الرئيسى للمدرسة فى الطرف الشمالى الغربى إلى دركاه مربعة أشبه بمدرسة صغيرة ذات تخطيط متعامد، يشتمل على صحن أوسط يعلوه قبة مكسية بالحجر الأحمر، يشغل أركانها صفوف من المقرنصات الحجرية، ويتعامد عليه أربعة إيوانات مغطاة بمقرنصات بالشمالى منها فتحة المدخل، وبالجنوبى مصطبة غشى صدرها برخام ملون، وبالشرقى سلم من خمس درجات يؤدى إلى دهليز معقود ينكسر مرتين قبل أن يفضى إلى داخل صحن المدرسة الرئيسى وهو سماوى مكشوف مستطيل الشكل تبلغ مقايسة ٣٤,٣٠ x ٣٠م بمسطح إجمالى قدره ألف ومائة متر مربع، أرضيته مفروشة بالرخام الملون، ويتوسطه فسقية مثمنة الشكل كانت تستمد مياهها من البئر التى تقع فى الجهة الغربية من المدرسة، يعلوها قبة خشبية تقوم على ثمانية أعمدة، كتب بدائرها آية الكرسى وتاريخ الفراغ منها فى سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م، كما تحمل أيضاتاريخ آخر عمارة أجريت بها فى سنة ١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧ م، فتح فى رقبتها ثمان قنديليات بسيطة يغشيها ستائر مفرغة بأشكال هندسية.

ويتعامد على الصحن أربعة إيوانات، أكبرها إيوان القبلة الشرقى ويتألف من مساحة مستطيلة مغطاة بقبو مدبب، يصل عمقه إلى اثنين وثلاثين مترا ونصف المتر، وسعة فتحة عقده تسعة عشر مترا، يروى المقريزى أنه "انصرف على القالب الذى بنى عليه عقد هذا الإيوان مائة ألف درهم نقرة، وهذا القالب مما رمى على

الكيمان بعد فراغ العقد المذكور " كما أضاف أيضا أن "ذرع هذا الإيوان. . . خمسة وستون ذراعا فى مثلها. . وأنه أكبر من إيوان كسرى بالمدائن من العراق بخمسة أذرع". ويحيط بهذا الإيوان من أعلى إزار من الجص به كتابات قرآنية من سورة الفتح، نقشت بالخط الكوفى فوق أرضية من الزخارف النباتية المتشابكة، يعلوها بصدر الإيوان قنديليتان يتوسطهما قمرية ذات زخارف هندسية، كما غشيت جدرانه بالرخام الملون بأشكال هندسية بديعة، ويتوسطه دكة المبلغ وهى من الرخام يحيط بأعلاها دروة تزدان ببابات كروية الشكل، ترتفع فوق ثمانية أعمدة وثلاث دعامات رخامية، يلفت النظر إليها تلبيس عمد النواصى بالرخام الملون.

وينتصف صدر الإيوان محراب على غرار المحاريب المملوكية، يحيط به من أعلى إزار من الكتابات النسخية القرآنية من سورة البقرة، نقشت باللون الذهبى، ويعلوه عقدين متداخلين من صنج رخامية ملونة ومعشقة، ويكتنفه أربعة أعمدة، وتزدان طاقيته بخطوط متعرجة ملونة، أما بدن حنيته فيكسوه وزارت رخامية متعددة الألوان، يزين بعضها نقوش نباتية مورقة يتخللها عناقيد عنب، تذكرنا بزخارف درابزين منبر جامع آق سنقر السابق الإشارة إليها.

وعلى جانبى المحراب لوحتان نقش عليهما النص التالى: "جدد هذا المكان المبارك حسن إغا خزيندار الوزير إبراهيم باشا بيد الفقير محمد سنة ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م، كما يوجد إلى يمين المحراب منبر من الرخام" لا نظير له" به باب من مصراعين من الخشب المصفح بالنحاس المفرغ بأطباق نجمية، يعلوه صفان من المقرنصات، فوقها شراريف على هيئة أوراق نباتية ثلاثية الشحمات.

ويكتنف المحراب بابان يوصلان إلى قبة المدفن التى تقع خلف إيوان القبلة، الجنوبى منهما مصفح بالنحاس المكفت بالذهب وعليه اسم السلطان حسن، وهو من عمل دمشق فى سنة ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م، أما الشمالى ففقدت كسوته، وهو يفضى إلى داخل القبة، وهى مساحة مربعة طول ضلعها واحد وعشرون مترا، وجدرانها مؤزرة بالرخام، وبالجانب الغربى منها تربيعة كبيرة ملبسة بالرخام الملون، ويتصدر جدارها الشرقى محراب مغشى بالرخام يشتمل على زخارف

دقيقة، ويحيط بقاعدة القبة إزار خشبى به كتابات نسخية ملونة ومذهبة تشتمل على آية الكرسى وعبارة تاريخية نصها" . . . وكان الفراغ من هذه القبة المباركة فى شهور سنة أربع وستين وسبعمائة (١٣٦٢م) وصلى الله على محمد" ، يقطعها أربعة رنوك كتابية باسم السلطان حسن، ويشغل مناطق الانتقال مقرنصات خشبية من ستة صفوف، يزينها زخارف ملونة ومذهبة، يعلوها قبة ارتفاعها ثمانية وأربعون مترا، كانت فى بادئ الأمر من الخشب المجلد بالتذهيب والألوان، يغطيها من الخارج كسوة من الرصاص كما هو الحال بالنسبة لقبة الإمام الشافعى، يفهم من وصف الرحالة بيترودى لافالليه الذى سجله فى سنة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م، أنها كانت على طراز القباب السمرقندية، وكان باطنها حافل بالنقوش، إلا أنها سقطت فى سنة ١٠٧١هـ/ ١٦٦١م وفقا لرواية بريس دافن، فجدد القبة الحالية إبراهيم باشا فى سنة ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م، على طراز قبة الأشرف خليل بن قلاوون بشارع الخليفة، وهى محاطة بدعامات أسطوانية الشكل من الخارج.

ويتوسط القبة من الداخل تركيبة من الرخام تضم شاهدا به سبعة أسطر من كتابات نسخية نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم / كل من عليها فان / أمر بإنشاء هذا الضريح المبارك / برسم تربة السلطان السعيد الشهيد / الملك الناصر حسن وذريته تغمدهم / الله برحمته أجمعين فى العشر الأول من شهر / ذى القعدة الحرام سنة ست وثمانين وسبعمائة (١٥ - ٢٤ديسمبر ١٣٨٤م)" . يحيط بها مقصورة من خشب الخرط. بيدان السلطان حسن لم يدفن فيها، لأنه لم يعرف له قبر، بل دفن فيها ولديه الشهاب أحمد المتوفى فى ١٤ جمادى الآخرة سنة ٧٨٨هـ/ ١٣يوليو ١٣٨٦م وإسماعيل المتوفى سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م.

وتشتمل هذه القاعة أيضا على كرسى مصحف من الخشب المطعم بالسن والأبنوس، تشتمل حشواته على أطباق نجمية ووحدات هندسية دقت بالأويمة الدقيقة، يعتبر من أبدع وأقدم الأمثلة التى وصلتنا من كراسى المصاحف فى عمارة مصر الإسلامية.

أما فيما يتعلق بباقى الإيوانات المتعامدة على الصحن ونعنى بها الشمالى والجنوبى والغربى، فجميعها شبه متساوية المساحة ومغطاة بأقبية حجرية مدببة، وتطل على الصحن بعقود مدببة وكانت فيما مضى مؤزرة برخام ملون على شاكلة إيوان القبلة الشرقى، لم يعد له وجود فى الوقت الحاضر.

ويحتل أيضا زوايا الصحن مداخل أربعة مكسية بالرخام تفضى إلى داخل المدارس الفقهية الأربعة الملحقة بهذا البناء، يعلو كل مدخل منها لوحة رخامية تشتمل على سطرين مكررين من الكتابات النسخية نصها "بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السطان المرحوم الشهيد الملك الناصر حسن بن مولانا السلطان المرحوم الشهيد الناصر محمد بن قلاوون وذلك فى شهور أربع وستين وسبعمائة (١٣٦٢م) مدرسة الشافعية أو المالكية أو الحنيفة أو الحنابلة ". كما يوجد على جانبى كل مدخل آيات قرآنية، تختلف من باب إلى آخر من سورة المائدة أو سورة الحجر أو سورة التوبة. ويكتنف كذلك كل مدخل من إسفل مكسلتان من الرخام قليلة الارتفاع.

وتؤدى هذه المداخل إلى مدارس لتدريس المذاهب الفقهية الأربعة والتفسير والحديث النبوى الشريف، والقراءات السبع، وهى ذات تخطيط متشابه وان اختلفت من حيث المساحة، إذ تشتمل على صحن صغير سماوى تتوسطه فسقية مثمنة الأضلاع، ملحق به جهة الشرق إيوان صغير معقود بقبو مدبب يتصدره محراب صغير غفل من الزخرفة، ويزين أعلاه إزار من الجص به كتابات كوفية على أرضية نباتية على نمط الإيوان الشرقى، بقى اثنان منها أحدهم فى المدرسة المالكية بالزاوية الشمالية الغربية، والآخر بالمدرسة الحنفية بالزاوية الجنوبية الشرقية، بالإضافة إلى بيوت للطلاب تشرف على صحن المدرسة الرئيسى وعلى الواجهتين الشمالية والجنوبية كما سبق أن نوهنا من قبل، وزعت على ستة مستويات فوق بعضها البعض، يفهم من المصادر التاريخية أنها كانت تقارب المائتين، زودت بدورات للمياه فى مكان مركزى بكل مدرسة بالطابق الأرضى بجوار السلم.

وتعد المدرسة الحنفية أكبر هذه المدارس إذ تبلغ مساحتها ٨٩٨مترا، ويحيط بأعلى إيوانها الشرقى طرازا من الجص به كتابات كوفية تشتمل على نصوص قرآنية من سورة الحجر، ونص تاريخى يشير إلى البناء الذى قام بتشييد هذه المدرسة نقرأ فيه "... كتبة تحمو دولته، وشاد عمارته محمد ابن بيلبك المحسني".

وجدير بالذكر أن اغتيال السلطان حسن في سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م حال دون اكتمال بقية الأعمال بهذه المدرسة، فأتم أغلبها بشير أغا الجمدار كأعمال الرخام بالوزرات والأرضيات التى يغلب عليها البساطة، وكذا الكسوة الرخامية لأبواب المدارس بأركان الصحن التى تحمل تاريخ سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م، كما قام بعمل الأبواب المصفحة بالنحاس، كالباب الرئيسى الذى نقل إلى مسجد المؤيد شيخ داخل باب زويلة الذى نقرأ عليه تاريخ نفس السنة، وأيضا القبة، التى أتم بناؤها وكتب بطرازها الخشبى تاريخ الفراغ منها فى سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م، ولا ننسى أيضا القبة الخشبية التى تعلو الفوارة بوسط الصحن التى تحمل بدورها تاريخ سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م.

بيد أن قيام بشير أغا الجمدار بكل هذه الأعمال لا يعنى على الاطلاق عدم قيام السلطان حسن بافتتاح هذه المدرسة قبل مقتله، فقد أشارت المصادر التاريخية إلى قيامة بصلاة الجمعة فيها قبل مقتله، وإلى إنعامه على البنائين والمهندسين، والفعلة، الذى منح كل واحد منهم عشرة دنانير. كما حررها لها وقفية مؤرخة فى شهر رجب سنة ٧٦٠هـ/ يونيو ١٣٥٩م قرر فيها لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخا ومائة طالب، وثلاثة معيدين. ورتب مدرسا لكتاب الله تعالى أى تفسيره، ورتب معه ثلاثين طالبا. ورتب مدرسا للحديث الشريف وثلاثين طالبا يحضرون كل يوم، وعهد إلى بعضهم أيضا بالقيام بوظيفة النقيب، وإلى البعض الآخر القيام بوظيفة داع للسلطان عقب الدرس. ورتب بإيوان القبلة بالمدرسة ميعادا ورتب له شيخا متصدرا عالما مفتيا مشهورا بالديانة، ورتب معه مقرئا أهلا للقراءة، على أن الشيخ والمقرئ يحضران بها أربعة أيام من كل أسبوع منها يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة، فيقرأ المقرئ ما تيسر من القرآن، وما تيسر من الحديث النبوى الشريف

والأذكار. ورتب مادحا يمدح رسول الله ﷺ بالمدرسة بعد الفراغ من القراءة ثم يدعو للسلطان حسن ولوالديه وذريته وجميع المسلمين.

ورتب مقرئا حافظا لكتاب الله تعالى عالما بالقراءات السبع على أن يجلس بين صلاة الصبح والزوال بإيوان القبلة. ومقرئا حافظا لكتاب الله تعالى لتلقين القرآن العظيم بنفس الإيوان، وأيضا يلقن من يحضر عنده لتلقين القرآن. ورتب إماما بالإيوان الكبير أى إيوان القبلة، وأربعة أئمة حافظين لكتاب الله تعالى بالمدارس الأربعة التى بالمدرسة. ورتب مؤقتين عالمين بالمواقيت، واثنين وثلاثين رجلا مؤذنين، أصحاب أصوات حسنة مرتفعة. ورتب ستين من القراء يتناوبون القراءة بالقبة ليلا ونهارا، وجعل عليهم لضبط غيبتهم نقيبا بالليل، ونقيبا بالنهار. ورتب اثنين يقرآن القرآن بالمصحف فى إيوان القبلة، ورجلا يحمل المصحف الشريف من مكانه ويضعه على الكرسى للقراءة فى كل يوم بعد صلاة الصبح وقبل صلاة الجمعة، ويعيده إلى موضعه بعد فراغ القراءة. وخازنا لكتب الوقف، وعشرة لخدمة القبة وحفظها من أهل الفساد، ورجلين لخدمة المزملة وحفظ أوانيها وتنظيفها وملء الكيزان، وسقى من يرد إليهما، وعشرين فراشا، كل عشرة فى يوم؛ اثنين للقبة، وثلاثا للمدرسة، ولكل مدرسة من الأربع واحدا، والعاشر رئيس عليهم. ورتب ستة بوابين للحفظ وغلق الأبواب وفتحها، وجعل فيها مكتبين بمؤدبين وعريفين، ومائة يتيم يتعلمون القرآن والخط، ويشترى ما يلزم للأطفال من الحصر والألواح والمحابر والأقلام، مع نقل ما يلزم من الماء لشربهم وغسل ألواحهم، وشرط أن من بلغ من الأيتام يستبدل بغيره، ورتب طبيبين مسلمين، أحدهما خبير بمعالجة الأبدان، والآخر عارف بصناعة الكحل، يحضر كل منهما كل يوم بالمدرسة ليداوى من يحتاج من أرباب الوظائف والطلبة وغيرهم، ورتب معهما جراحا.

ورتب أيضا عددا آخر من الموظفين كناظر الوقف، ومستوف حساب بالأوقاف، وشاهدين، وعاملا برسم كتابة الحساب، وشاهدا لتحصيل مصالح الوقف واستخراج ما يحتاج استخراجه، وأمينا لحفظ المرتبات، وصيرفيا، وسطوحيا لحفظ أسطح المدرسة. ورتب ثمانية لكنس المراحيض والطرق

والرحاب، والرش أمـام المدرسة، وشخصين لـكنس محل الطهارة وتـنظيفه بنحو الغسيل. وقـام كذلك بفـرش المدرسة وعلق بـها العـديد من وسائل الإضاءة من الثريات والتنـاير والمشكاوات الزجاجيـة المموهة بالمينا المـتعددة الألوان التى وصلنا منها تسع عشرة مشكاة محفوظة حاليا بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة.

ومن المعروف أن مدرسة الـسلطان حسن تعرضـت للعديد من المحن بسبب وقوعها أمام قلعة الجبل، حيث كـان يلجأ إليها بعض المـاليك للتحصن بداخلها وللرمى من فوق سطـحها بالمـدافع على أعدائهم بـقلعة الجـبل، مما اضطر بعض السلاطين إلى الـقيام بهـدم السلم المـوصل إلى سطحـها، وإلى سد وغـلق بابها الرئيسى كمـا فعل السلطان الظاهـر برقوق فى سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م، وكما فعل الـسلطان أبو سـعيد جقـمق عندما قام فى سـنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م، بهدم السلالم الموصلة إلى منارتيها. وتم أيضا سد بابها مرة ثانية فى سنة ١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م لمدة إحدى وخمسين سنة حتى قام سليم أغا مستحفظان بإصلاح المدرسة وفتح بابها فى سنـة ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥م، وأزال الدكاكين التى أحدثت أسفـلها وبنى لها السلالم والصدفـة أو البسطة الحالية، كذلك أولت لجنة حفظ الآثار العربية جل عنايتها إلى هذه المـدرسة وأصلحت منـارتيها وجـدرانها ورخامهـا ونجارتها ولـم تـتركها حتى أعادت إليهـا رونقها وجـمالها فى مـنتصف عام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م تحت إشراف المهنـدس الكبير هرتس باشا كبـير مهندسيها، وصـاحب الفضل فى ترميم وتعمير الكثير من آثار مصر الإسلامية.

وقام أيضا المجـلس الأعلى للآثار بعـملية تـرميم شاملة لجـميع أنحاء هذه المدرسـة انتـهت فى عام ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦م، كـما مـنع مرور الـسيـارات أمام واجهتـها الشمالية، وحول الـطريق الفاصل بينهـا وبين مسجد الرفاعى إلى مدرج صاعد، حفاظا على هذا الأثر الهام الذى قال عنه المرحوم حسن عبد الوهاب "إن حق لمصر الفـرعونية أن تفخر بأهـرامها فإن لمصر الإسلاميـة أن تتيه عجبا بمدرسة السلـطان حسن التى لا يعـادلها بناء آخـر فى الشرق بأجمـعه، فقد جمعت شتى الفنون فيها".

ثبت بأسماء سلاطين المماليك البحرية

*	شجر الدر عصمة الدين أم خليل	٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠م
*	المعز أيبك	٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م
*	المنصور على الأول	٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م
*	المظفر قطز	٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م
*	الظاهر بيبرس الأول	٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م
*	السعيد بركة خان	٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م
*	العادل سلامش	٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م
*	المنصور قلاوون	٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م
*	الأشرف خليل	٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م
*	الناصر محمد الأول (١)	٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م
*	العادل كتبغا	٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م
*	المنصور لاجين	٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م
*	الناصر محمد الأول (٢)	٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م
*	المظفر بيبرس الثانى	٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م
*	الناصر محمد الأول (٣)	٧٠٩ هـ / ١٣١٠ م
*	المنصور أبو بكر	٧٤١ هـ / ١٣٤١ م
*	الأشرف كجك	٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م
*	الناصر أحمد الأول	٧٤٢ هـ / ١٣٤٢ م
*	الصالح إسماعيل	٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م

«تابع» ثبت بأسماء سلاطين المماليك البحرية		
*	الكامل شعبان الأول	٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م
*	المظفر حاجى الأول	٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م
*	الناصر حسن (١)	٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م
*	الصالح صالح	٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م
*	الناصر حسن (٢)	٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م
*	المنصور محمد الثانى	٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م
*	الأشرف شعبان الثانى	٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م
*	المنصور علي الثانى	٧٧٨ هـ / ١٣٧٧ م
*	الصالح حاجى الثانى (١)	٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م



نماذج من عمائر دولة المماليك الجراكسة

٧٨٤ - ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢ - ١٥١٧م



شهد عصر المماليك الجراكسة إقامة الكثير من المنشآت الدينية والمدنية والتجارية التى فاقت أعددها، أعداد منشآت عصر المماليك البحرية، فقد بقى من هذا العصر ما يقرب من مائة وستة وثلاثين أثرا ما بين مساجد ومدارس، وقباب، وخانقاوات وزوايا وربط وتكايا، وخانات ورباع ووكالات، وقصور ومنازل وبيمارستانات وأسبلة وحمامات وأحواض وأبواب وغيرها، وذلك رغم سوء الأحوال الاقتصادية التى شهدتها البلاد إبان هذه الفترة الثانية من حكم المماليك التى امتدت فيما بين سنتى ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ/ ١٣٨٢ - ١٥١٧م، ربما بسبب تدهور النظام المملوكى برمته، وربما أيضا بسبب كثرة الحروب التى شهدتها هذه الفترة، وإعداد العديد من التجاريد العسكرية التى كلفت الدولة مئات الألوف من الدنانير، وربما بسبب كثرة الأوبئة والطواعين التى تعرضت لها البلاد، وكذا عصيان وثورات العربان ووقوفهم فى وجه سلاطين هذه الدولة، وربما كذلك بسبب سوء أحوال العملة والتلاعب فى أسعارها بإنقاصها أو خلطها أو غشها، وحسبنا دليلا على ذلك ما حدث فى عصر السلطان الأشرف قايتباى الذى امتد على مدى تسعة وعشرين عاما، وشهد جميع مظاهر التدهور الاقتصادى الذى شكت منه سلطنة المماليك بصفة عامة، كما سبق أن نوهنا من قبل، ومع ذلك فإن عصر هذا السلطان يعد بمثابة العصر الذهبى للعمارة الإسلامية لكثرة ما وصلنا من منشآت معمارية متنوعة، بقى منها فى مدينة القاهرة، وحدها قرابة الثمانى عشرة منشأة.

هذا وقد تميزت المبانى الدينية لهذه الفترة بصغر مساحتها بسبب إزدحام المناطق التى أقيمت فيها بالسكان والعديد من المنشآت الأخرى. كما تميزت أيضا بتنوع مساقطها الأفقية التى نجد بينها التخطيط الذى يضم السبيل والكتاب والقبة رغم معارضة الإسلام لإقامة المبانى فوق القبور، أو التخطيط الذى يجمع بين نظام الأروقة والإيوانات، أو التخطيط ذا الصحن الصغير المسقوف غالبا بشخشيخة أو باذاهنج أو شباك سلك للإنارة والتهوية، الذى اختفت من وسطه الفوارة أو

الفسقية، رغم بقائها واستمرار وجودها فى المبانى المدنية ذات الصحن أو الدور قاعة المغطاة كما يطلق عليها فى وثائق الوقف.

واستخدمت فى عمائر هذا العصر الأسقف الخشبية بدلا من الأقبية الحجرية، بعد أن أصبحت الإيوانات مستعرضة على الصحن أو الدور قاعة، وقل عمقها مما ساعد على تغطيتها بعوارض خشبية تنوعت أشكالها وأسماؤها حسبما ورد فى وثائق هذا العصر فقيل مسقف نقيا أى من الخشب المستورد، ومسقف حريريا أى مدهون بالألوان ومغطى بطبقة من الشمع مما يجعله أملسا كالحرير، أو مسقف سكندريا، أي مقسم إلى طبالى ومربعات وبراطيم تحصر بينها مربعات، أو مسقف شاميا اى به مربعات بداخلها قباب صغيرة، أو مسقف أعجميا بصرر وزوايا، أى محلى بصرر فى وسطه وزوايا فى أركانه، أو مسقف نقيا بسطا أى مستويا، أو مسقف نقيا لوح وفسقية على مربعات ويقصد بالفسيقة هنا الأشكال المربعة أو المستطيلة الغائرة نسبيا بين الألواح الخشبية، أو مسقف قبب أى الذى يشتمل على قباب صغيرة تشبه القصعات، أو سقف مقلاه، أى به قبة ضحلة، وكانت بعض هذه السقوف تحمل على معابر من الخشب لها أرجل هابطة أطلقت عليها وثائق العصر الكرادى الساذجة أو المقرنصة أو الكرادى بسراويلات.

وشاع فى مبانى هذا العصر استخدام المداخل المنكسرة أى الباشورة، التى تتألف من دركاه مسقوفة تفضى إلى دهليز ينكسر مرة أو مرتين قبل أن يؤدى إلى داخل صحن المنشأة.

وكثر فى هذا العصر أيضا بناء المنشآت المعلقة التى شيد أسفلها حوانيت أو دكاكين عديدة للإنفاق من ريعها على هذه المباني، تلك الظاهرة التى عرفتها مصر الإسلامية لأول مرة على استيحاء فى العصر الفاطمي. كما شاع استخدام الحجر فى تشييد الحوائط الخارجية والطوابق الأرضية، بينما استخدم الآجر فى بناء الأماكن الرطبة. مثل دورات المياه وفى الطوابق العلوية. وتميزت مآذن هذا العصر التى صارت جزء من التكوين المعمارى لواجهة أغلب هذه المنشآت، بزخارفها الرخامية المنزلة بالمعجون، أو بالنصوص القرآنية المنقوشة بخط النسخ المملوكي،

وبتعدد رؤوس جواسقها، وهي من خصائص الطراز المصرى فى العمارة الإسلامية

وانفردت المبانى المدنية أيضا بعدة خصائص ميزتها عن منشآت عصر المماليك البحرية، فقد شاع فى هذا العصر إقامة الأسبلة والكتاتيب منفردة عن المبانى الدينية من مساجد ومدارس وخانقاوات وقباب، واستخدام الحجر فى بناء الحوائط الحاملة الداخلية والخارجية وفقا لنظام المشهر كما هو الحال بالنسبة للمنشآت الدينية. وأما الآجر فقد اقتصر استخدامه على بناء الصهاريج والأماكن الرطبة.

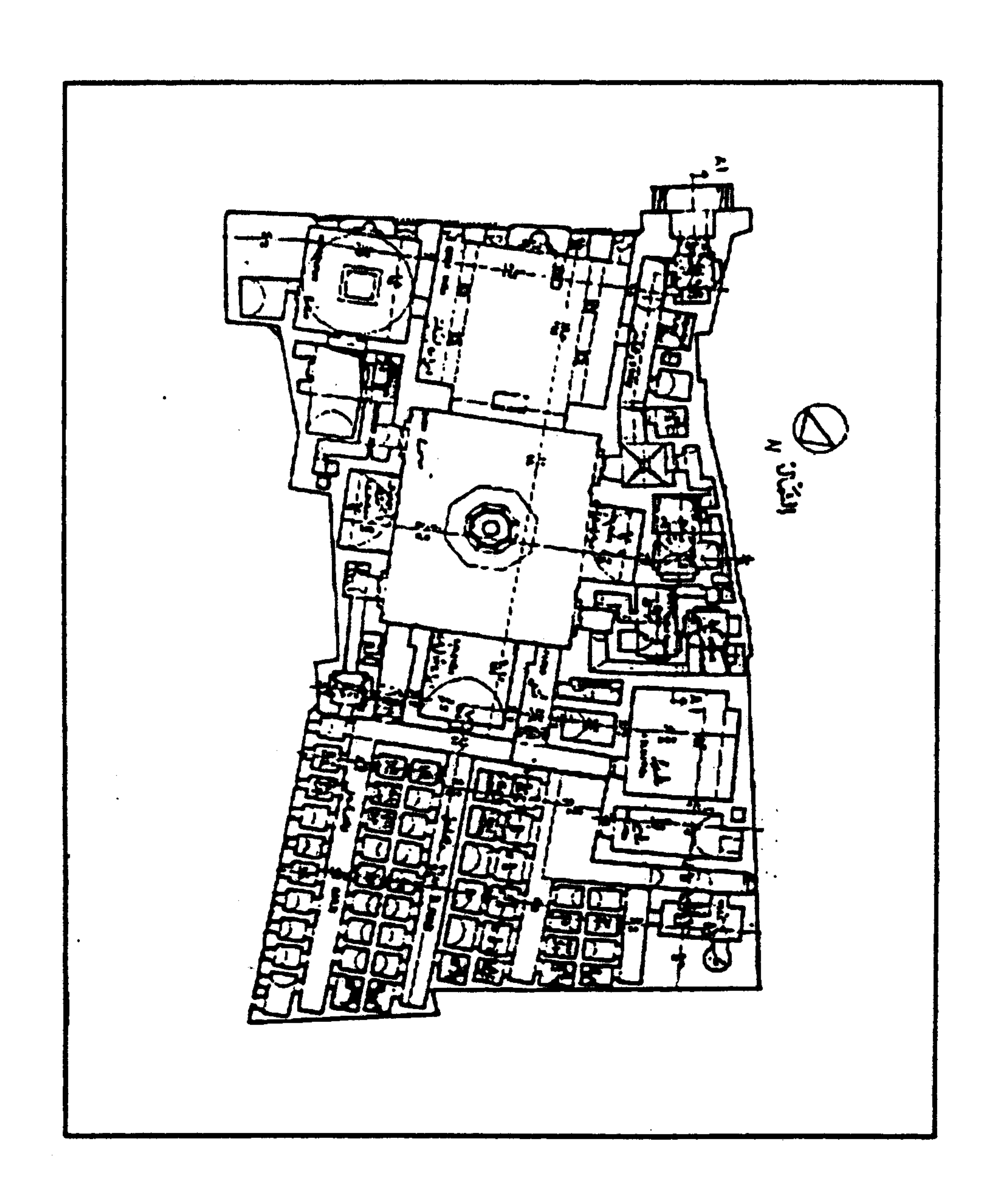
ووضح أيضا فى المنشآت التجارية استخدام المساقط التى تحقق فكرة التجول السريع داخل المبنى حول فناء سماوى يتوسطه فسقية، أعد لاستقبال الدواب وغيرها، ويحيط به فى الطابق الأرضى مجموعة من الحجرات والحواصل التى أعدت بدورها لاستقبال البضائع والسلع، وذلك بهدف توفير الخصوصية للوحدات السكنية التى أقيمت بالطوابق العليا، وصارت بذلك تطل على الداخل والخارج عن طريق نوافذ غطيت بمشربيات من الخشب الخرط مراعاة لمبدأ الحجاب الذى ساد إبان العصور الوسطي، ولتسمح بمرور الهواء والضوء الخافت إلى داخل المباني.

وتميزت هذه المبانى أيضا بمداخلها المباشرة التى تؤدى إلى داخل الصحن فى سهولة ويسر. هذا وسوف يقتصر تناولنا لآثار عصر المماليك الجراكسة على بعض النماذج الهامة منها التى تعبر عن روح هذا العصر لأنه ليس بالإمكان تناول جميع منشآت هذا العصر فى هذا المؤلف.

مدرسة وخانقاة الظاهرة برقوق:

تقع بشارع المعز لدين الله بحى النحاسين بالجمالية، شيدها السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بن أنص الجركسى العثماني، أول سلاطين المماليك الجراكسة، الذى عرف بحبه للإنشاء والتعمير فقد قام بإصلاحات عديدة فى الحرمين المكى والمدني، وجدد خزائن السلاح بمدينة الإسكندرية، وسور مدينة دمنهور، وعمر زاوية البرزخ بدمياط، وقناة للمياه بالقدس الشريف، كما أصلح

قناطر المياه بـفم الخليج، وأنشأ قبة الشيخ رجب الشيرازى بالمحجر قرب القلعة فى سنة ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م، قبل أن يلى السلطنة، وشيد هذه المدرسة بعد سلطنتة فوق خـان الزكاة الذى كان ضمن أملاك ورثة السلـطان الناصر محمد بن قلاوون، بعد أن إبتاعه مـنهم فى ١٢ رجب سنة ٧٨٦ هـ/ ٣٠ اغـسطس ١٣٨٤م، وعهد إلى الأمير جركس الخليلي، أمير آخور بالإشراف على عمارتها، فابتدأ بهدم الخان يوم الأحد ٢٤ رجب/ ١١ سبتمبر ١٣٨٤م ووضع حجر أساس هذه المدرسة فى أوائل شوال من نفس السنة/ ١٦ نوفمبر ١٣٨٤م، وجـلب لها أحجارا ضخمة تم نقلها من الجبل على عجل تجره الـعجول، ومن وقتها أطلقت الوثائق والمصادر التاريخية على الأحـجار الضخـمة لفظه "عـجالى" وفرغ منـها كما جـاء فى إزار الواجهة الرئيسية فى مستهل ربيع الأول سنة ٧٨٨هـ/ ٢ أبريل ١٣٨٦م ونقل إلى قبتها فى ١٤ جمادى الأولى من نفس السنة/ ١٣ يونيو ١٣٨٦م رفات أبيه أنص ورمم أولاد السلطان وهم خمســة أولاد، من تربة الأمير يونس الدوادار فـدفنوا فى القبة التى عمـرت فى المدرسـة. وفى يوم الخمـيس ١٢رجب ٧٨٨هـ/ ٩ أغسطس ١٣٨٦م فـرشت المدرسة بالحصر الـعبدانى والأبسطـة، وأعدت الأطعمة، وملـئت الفسقية بالـسكر المذاب فى الماء، وحضر السلـطان برقوق بصحبة القـضاة والعلماء بمناسبة الفراغ من عمارتـها، وقام بمعاينـتها وأنعم على الأميـر جهاركس الخليلي، وعلى معلم المعـلمين شهاب الدين أحـمد بن الطولونى مهنـدس المدرسة، وعلى خمسة عشر مملوكا للأمير جهاركس، كانوا قد عاونوه فى مباشرة عمارتها، وعلى البنائين والمرخمين والنجـارين وعلى مباشرين العمارة وعـلى شاديها، وعلى الفعلة، وفى يوم الجـمعة ١٠ رمـضان سـنة ٧٨٨هـ/ ٥ أكـتوبر ١٣٨٦م أقـيمت أول جـمعة بالمدرسة، حضرهـا قاضى قضاه الحنفية الذى حكم بصحتـها وفقا للتقاليد المتبعة، وقـرر بها دروسا للتفسير والحديث وعـلم القراءات، ورتب شيخا للمذهب الحنفى ومعه أربـعون طالـبا، وشيخـا للمذهب الـشافعى ومعه عـشرون طالبـا، وشيخا للمذهب المالـكى ومعه عشرون طالـبا، وشيخا لـلمذهب الحنبـلى ومعه مثلهم، ورتب مدرسا للحديث النبوى ومعه خمسة عشر طالبا، ومدرسا لتفسير كتاب الله



شكل (٦٦)

مسقط أفقي لمدرسة وخانقاه الظاهر برقوق، نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

ومعه عشرون طالبا، ومدرسا للقراءات السبع معه عشرة طلاب، وأنزل ستين فقيرا بالخانقاة، وخصص مكانًا لإقامة الشيوخ والمدرسين، وآخر لإقامة السلطان نفسه وأفراد عائلته أثناء الاحتفالات الدينية المختلفة.

ويشغل بناء المدرسة وما بها من ملحقات شكلا مستطيلا غير منتظم الأضلاع، يبلغ طوله ثمانين مترا وعرضه خمسين مترا، وهى ذات واجهات ثلاث، الرئيسية أى الشرقية تطل على شارع المعز لدين الله، وهى مشيدة من الحجر وتبدو أشبه بلوحة فنية، إذ تضم فى طرفها الشمالى مئذنة المدرسة، وهى مشيدة من الحجر وتتألف من ثلاثة طوابق، يبلغ ارتفاعها من مستوى أرضية الشارع ثلاثين مترا، ترتفع فوق قاعدة مربعة، الطابق الأول مثمن البدن، يتخلل أضلاعه حنيات معقودة بعقود منكسرة ترتكز على أعمدة مندمجة، أربع منها صماء، وأربع مفتوحة زودت فى أسفلها بشرفة أو مشترفة حجرية تقوم على أربعة صفوف مقرنصة، والطابق الثانى مثمن البدن أيضا، ويزين أضلاعه دوائر متداخلة بارزة، تزدان بزخارف هندسية، ويعلوها ميمات معقودة تعتبر الأولى من نوعها فى عمارة مصر الإسلامية. أما الطابق الثالث فيشتمل على ثمانية أعمدة صغيرة يعلوها عقود مفصصة، يرتفع فوقها خوذة المئذنة الكمثرية الشكل. هذا ويفصل بين طوابق المئذنة شرفات مثمنة الأضلاع ترتكز على قواعد من مقرنصات حجرية ثلاثية الصفوف، ويلتف حولها دروات حجرية متعددة الأضلاع يشغلها زخارف مفرغة، ويعلوها بابات كروية الشكل.

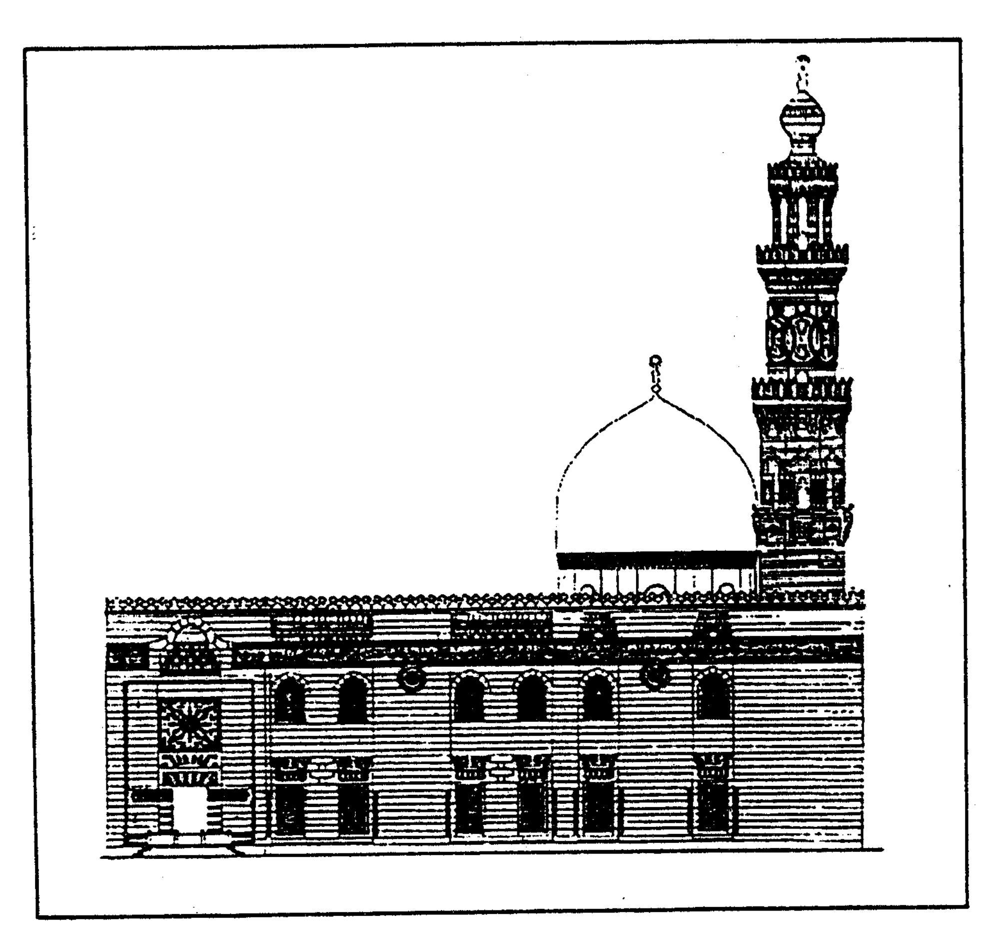
ويلى المئذنة جنوبا قبة المدفن، وهى تبدو من الخارج غفل من الزخرفة باستثناء كورنيش حجرى من المقرنصات يلتف حول محيطها وهى من عمل لجنة حفظ الآثار العربية على طراز القبة الأصلية التى كانت من الحجر، إذ يذكر المؤرخ ابن إياس فى حوادث سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م " أن السلطان اقترح على المهندسين أن يصنعوا له القبة بالحجر النحيت، فصنعوا له ذلك، فهى أول قبة بنيت بالحجر النحيت فى القاهرة، وكانت القبب القديمة كلها خشب، ويجعلون فوقها الرصاص، حتى قبة مدرسة السلطان حسن على ذلك، فكانت قبة مدرسة برقوق

أول قبة عمرت بالحجر، فاستمرت الناس من يومئذ على ذلك، وبطلت القبب الخشب".

بيد أن رواية ابن إياس لا تتفق مع الواقع فقد عرفت مصر الإسلامية القباب المشيدة من الحجر منذ عصر المماليك البحرية وحسبنا دليلا على ذلك قبة تنكزبغا بالسيدة عائشة من سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م. وقبة مدرسة الجاى اليوسفى بسوق السلاح من سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢م.

ويلى القبة كتلة المدخل التى تشغل الطرف الجنوبى لهذه الواجهة المتوجة من أعلى بشرافات على هيئة أوراق نباتية ثلاثية الشحمات، يليها إلى أسفل صدور مقرنصة، يضم كل منها أربعة صفوف، تعلو التجاويف الستة الرأسية التى تخترق الواجهة، يشغل كل تجويف منها نافذتان إحدهما علوية معقودة ومغشاة بحجاب من الخشب مفرغ بأشكال هندسية متشابكة، وأخرى أرضية مغطاة بمصبعات معدنية، يعلوها عقد مستقيم من صنج معشقة، يعلوه عقد عاتق من نفس النوع. ويزيد الواجهة أيضا شريط من الكتابات النسخية البارزة نقش أسفل الصدور المقرنصة، نصه: " بسم الله الرحمن الرحيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، أمر بإنشاء، هذه المدرسة المباركة والخانقاه مولانا السلطان الملك الظاهر سيف الدنيا والدين أبو سعيد برقوق سلطان الإسلام والمسلمين نصرة الغزاة والمجاهدين حامى حوزة الدين ذخر الأيتام والمساكين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية عز الله نصره وذلك فى مباشرة العبد الفقير إلى الله تعالى المقر السيفى جركس الخليلى أمير آخور الملك الظاهر أبو سعيد برقوق أدام الله أيامه بمحمد وآله رب العالمين، وكان الفراغ فى مستهل ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وسبعمائة (أبريل ١٣٨٦م)".

وتشكل كتلة المدخل عشرة أمتار من إجمالى طول الواجهة، وهى مكسية بالرخام الأبيض والأسود أى أبلق، ويتقدمها من أسفل بسطة أو صدفة من الرخام، مزودة بسلالم حجرية على الجانبين، ويحيط بها من أعلى دروة أو سياج من الرخام. يتخلله بابات مكورة. وهى تفضى إلى مدخل المدرسة الذى فتح



شكل (٦٧)

قطاع رأسى لمدرسة وخانقاه الظاهر برقوق، الواجهة الشرقية

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

داخل تجويف يتوجه من أعلى عقد مدائنى ثلاثى الفصوص بداخله سقيفة مقرنصات، ويكتنفه من أسفل مكسلتان من الحجر يتوسطهما فتحة مدخل يعلوها عقد مستقيم من صنج رخامية معشقة، يعلوه أيضا عقد عاتق من صنج رخامية معشقة، يوجد فوقه تربيعة من الرخام تضم زخارف نباتية وهندسية، ويتوسطها قمرية مغشاة بستارة نحاسية مفرغة بأطباق نجمية ويعلو المكسلتين إزار من كتابات

نسخيه بارزة من سورة التوبة، كما يغطى فتحة المدخل باب خشبى تألف من مصراعين مصفحان بكسوة نحاسية مكفتة بالفضة، ومدون عليهما اسم المنشئ وألقابه وتاريخ مستهل ربيع الأول سنة ٧٨٨هـ/ ٢ أبريل ١٣٨٦م، وهما أقرب شبها بمصراعى مدرسة السلطان حسن اللذين تم نقلهما إلى جامع المؤيد شيخ كما سبق أن أشرنا من قبل.

ولمدرسة السلطان برقوق واجهتان فرعيتان، إحداهما جنوبية تطل على حارة البرقوقية، وبها مدخل صغير يفضى إلى داخل الخانقاه الملحقة بالمدرسة. والثانية غربية تطل بدورها على نفس الحارة، ويحجبها مجموعة من المبانى الحديثة.

ويفتح المدخل الرئيسى للمدرسة على دركاة مربعة، أرضيتها مفروشة بالرخام الملون، ويعلوها قبة صغيرة مثمنة الأضلاع، ملبسة بالحجر الأحمر والأبيض، بضلعها الجنوبى حنية معقودة بعقد مدبب، يشغلها جلسة حجرية نجد مثالا لها بالضلع الغربى للدركاة، على حين فتح فى ضلعها الشمالى باب معقود، يعلوه كتابة نسخية تشتمل على اسم المنشئ وألقابه، يؤدى إلى دهليز طويل منكسر أرضيته مفروشة بالرخام الملون، بعضه مكشوف سماوي، والبعض الآخر مغطى بأقبية متقاطعة، يشغل جانبه الأيسر أى ضلعه الجنوبى ثلاث فتحات، الأولى شرقا، تؤدى إلى حنية معقودة، يسقفها قبو من الحجر، كانت تستعمل كمزيرة؛ لذا يوجد بأعلاها ملقفان للهواء لتبريد أزيار المياه، والثانية غربا، معقودة بعقد نصف دائري، تفضى إلى غرفة أو خلوة مستطيلة ذات سقف مقبي، يليها غربا فتحة ثالثة، معقودة أيضا بعقد نصف دائرى تؤدى إلى سلم يؤدى إلى سكن علوى لعله كان خاصا بأحد شيوخ المدرسة. وبالنهاية الغربية للدهليز دركاه ثانية مربعة المساحة يعلوها قبو متقاطع، بضلعها الشمالى فتحة تصب فى صحن المدرسة، وبضلعها الجنوبى فتحة تؤدى إلى خلوة.

والمدرسة مصممة من الدخل على نظام الصحن والإيوانات، حيث نجد صحنا أوسط مكشوفا مستطيل الشكل تبلغ أطواله ٢٢ × ١٧,٩٠مترا، وأرضيته

مفروشة برخام ملون دقيق، ويتوسطه فسقية من نفس النوع مثمنة الأضلاع يغطيها قبة خشبية ضخمة محمولة على ثمانية أعمدة رخامية لها رفرف يحيط بدائرها من الخارج كتابة نسخية بارزة تشتمل على آية الكرسى والنص التالي: " أمر بإنشاء، هذه القبة المباركة من فضل الله تعالى سيدنا ومولانا الخديوى الأعظم عباس حلمى الثانى أدام الله أيامه فى سنة ألف وثلاثمائة وأربعة عشر هجرية (١٨٩٦م)"، كما يحيط بدائرها من الداخل شريط آخر يشتمل على بضعة آيات من سورة المائدة والنص التالي: " جددت هذه البركة فى عصر الخديوى الأعظم عباس حلمى الثانى الأفخم بمباشرة لجنة حفظ الآثار العربية عام أربعة عشر وثلاثمائة وألف هجرية (١٨٩٦م)". ويحيط بأعلى الصحن أيضا كتابات نسخة تشمل على آية الكرسى والنص التالى " وكان الفراغ فى مستهل ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وسبعمائة (٢ أبريل ١٣٨٦م) " يعلوها شرافات على هيئة أوراق نباتية ثلاثية الشحمات. ويفتح على الصحن كذلك ستة أبواب تفضى إلى بقية منشآت المدرسة يعلو كلا منها شباك صغير من النحاس المفرغ بأشكال هندسية تمثل النموذج الثالث بعد قبة الصالح نجم الدين والمدرسة الطيبرسية.

ويتعامد على الصحن أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الشرقى وهو مربع التخطيط طول ضلعه حوالى سبعة عشر مترا ونصف المتر، يطل على الصحن بواسطة عقد مدبب، وأرضيته مفروشة بالرخام المتعدد الألوان، وهو ينقسم إلى ثلاث بلاطات بواسطة بائكتين، الوسطى أكثرهم اتساعا، بكل بائكة ثلاثة عقود مدببة، ترتفع فوق عمودين من الجرانيت الوردى ويتصف جدار القبلة الشرقى محراب مجوف يعلوه عقد نصف دائرى مرتجع، يرتكز على أربعة أعمدة رخامية مثمنة ويزين طاقيته وتجويفه عناصر نباتية ونقوش هندسية، كما يكسو جدرانه وزرات رخامية ملونة إلى ارتفاع قمة المحراب. ويغطى هذا الإيوان سقف خشبي، يعد من أروع سقوف العمارة الإسلامية فى مصر، إذ يغشى القسم الأوسط منه زخارف نباتية قوامها وريدة متعددة الفصوص، يحيط بها فى الأركان الأربعة وريدات صغيرة من نفس الطراز، نقش الجميع باللون الذهبى وسط عناصر نباتية متشابكة، أرابيسك، فوق مهاد من اللاذورد الأزرق، ويحده من إسفل إزار خشبى

به كتابات قرآنية من سورة الفتح، نقشت بخط النسخ المملوكى باللون الذهبى على أرضية زرقاء.

أما باقى أجزاء السقف أى جانباه الشمالى والجنوبى فيشغلهما قصع أو أحقاق مثمنة، مجلدة بالذهب واللاذورد، نقش بداخلها زخارف نباتية وهندسية. ومن المعروف أن السلطان الأشرف برسباى قام بمحاكاة هذا السقف فى إيوان مدرسته الغربى كما سوف نشير عند تناولنا لهذه المدرسة.

ويحتوى هذا الإيوان أيضا على منبر خشبى يوجد إلى يمين المحراب، تسوده البساطة من عمل السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق كما يتضح من النص المنقوش بأعلى مدخلة ونصه: "أنشأ هذا المنبر المبارك السلطان الماالك الملك الظاهر محمد أبو سعيد جقمق عز نصره". كما يتقدم هذا الإيوان جهة الصحن دكة من الرخام ترتفع فوق ثمانية أعمدة مثمنة، يحيط بها من أعلى سياج أو دروة ذات قوائم يعلوها ثمان بابات مكورة، وبهذا الإيوان أيضا كرسى مصحف، طعمت جوانبه بحشوات من السن ملبسة من الخشب.

والإيوان الغربى أقل مساحة من إيوان القبلة، إذ تبلغ مقايسه ٩,٢٥ × ٧,٦٠ مترا، وهو يطل على الصحن من خلال عقد مدبب، وأرضيته مفروشة بالرخام الملون، يسقفه قبو مدبب من حجر مشهر باللونين الأبيض والأحمر على التوالي، ويصدره الغربى فتحة باب مسدودة فى الوقت الحالي، كانت تفضى إلى خلاوى المتصوفة، يعلوها عقد مستقيم، فوقه قندلية أو قندلون مغشاة بزخارف جصية معشقة بزجاج ملون.

أما فيما يتعلق بالإيوانين الشمالى والجنوبى فهما أقل إيوانات الصحن مساحة إذ تبلغ أبعاد كل منهما ٧,٥٠ × ٥ متر، بمعنى أنهما أشبه بسدلتين تطلان على الصحن من خلال عقد مدبب، كما يعلو كل منهما عقد مدبب أيضا.

وتقع قبة مدفن المنشئ على يسار إيوان القبلة، أى فى الركن الشمالى الشرقى من المدرسة، ويتم الدخول إليها عن طريق أحد أبواب الضلع الشرقى للصحن. ويغطى فتحة مدخلها التى تحتل جدارها الغربى حجاب من خشب

الخرط مدون عليه بخط النسخ النص التالي: "بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه القبة المباركة من فضل الله تعالى مولانا السلطان الملك الظاهر سيف الدنيا والدين أبو سعيد برقوق عز الله نصره وذلك بتاريخ مستهل ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وسبعمائة (٢ أبريل ١٣٨٦م)". وهى عبارة عن مساحة مربعة غنية بزخارفها طول ضلعها حوالى عشرة أمتار، وأرضيتها مفروشة بالرخام الملون، وجدرانها مؤزرة أيضا بالرخام الملون إلى ارتفاع عقد المحراب الذى يتصدر جدارها الشرقى ويكتنفه زوجان من الأعمدة الرخامية، يغطيها قبة ذات قطاع محدب من بناء لجنة حفظ الآثار العربية فى سنة ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م، حلت محل القبة القديمة، تقوم فوق مناطق انتقال تتألف من خمسة صفوف من المقرنصات الخشبية المجلدة بالذهب والألوان يحيط بمربعها إزار به كتابات نسخية مذهبة نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذى أن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا أمر بإنشاء هذه القبة المباركة والمدفن المبارك والمدرسة المباركة والخانقاه مولانا السلطان الملك المالك الملك الظاهر سيف الدنيا والدين أبو سعيد برقوق العالم العادل المجاهد المرابط المؤيد الغازى الحاكم بأمر الله والتالى لكتاب الله سلطان الإسلام والمسلمين نصرة الغزاة والمجاهدين حامى حوزة الدين. ذخر الأيتام والمساكين صاحب الصدقات والمعروف المغيث لكل مظلوم وملهوف أدام الله أيامه وأعز أحكامه وختم بالصالحات أعماله يا رب العالمين، وكان الفراغ فى مستهل ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وسبعمائة (٢ أبريل ١٣٨٦)". وملحق بالطرف الشمالى الغربى لهذه القبة مكتبة لحفظ المصاحف،عثر بها فى سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م على مائة وخمسين قطعة زجاجية من مشكاوات مموهة بالمينا، نقلت إلى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، وأكملت بعض المشكاوات الزجاجية التى سبق نقلها إلى المتحف المذكور وكانت تستخدم فى هذه المدرسة للإضاءة.

ويتوسط أرضية القبة تركيبة رخامية ضخمة يعلو أركانها أربع بابات مكورة، وهى مشيدة فوق القبر المدفون فيه أنص والد السلطان برقوق وأولاده وابنته فاطمة وزوجته خوند شيرين.

ويقع خلف الإيوان الغربى أربع مجموعات من الخلاوى المخصصة لإقامة المتصوفة، شيدت موازية لبعضها البعض على أربعة طوابق، يبلغ عدد خلاوى المجموعة الأولى والثانية أربعا وستين خلوة، على حين تشمل المجموعة الثالثة على ست وثلاثين خلوة، والمجموعة الرابعة على أربع وعشرين خلوة، أطلقت عليها وثيقة الوقف لفظه "الرباع"، كما يتبع هذه المجموعة عدد آخر من المنشآت، كالمطبخ ودروة المياه وحظيرة الدواب وما إليها، وأغلب هذه المبانى فى حالة سيئة للغاية.

أما فيما يتعلق بمهندس هذه المجموعة المعمارية، فهو شهاب الدين أحمد بن الطولونى من أسرة اشتغلت بفن المعمار فى كل من مصر وبلاد الحجاز، وقد بلغ من إعجاب السلطان برقوق به أن أقدم على مصاهرته فتزوج بابنته مما يدل على المكانة الاجتماعية التى حظيت بها تلك الفئة من المهندسين زمن السلاطين المماليك.

هذا وقد تعرضت مدرسة الظاهر برقوق شأن بقية آثار مصر الإسلامية للعديد من الإصلاحات والترميم، إذ قامت لجنة حفظ الآثار العربية بإصلاح رخامها وأخشابها، وأصلحت بعض سقوفها وأعادت تذهيب زخارفها، كما شيدت القبة التى تعلو المدفن، والقبة التى تعلو الفوارة كما سبق أن أشرنا من قبل.

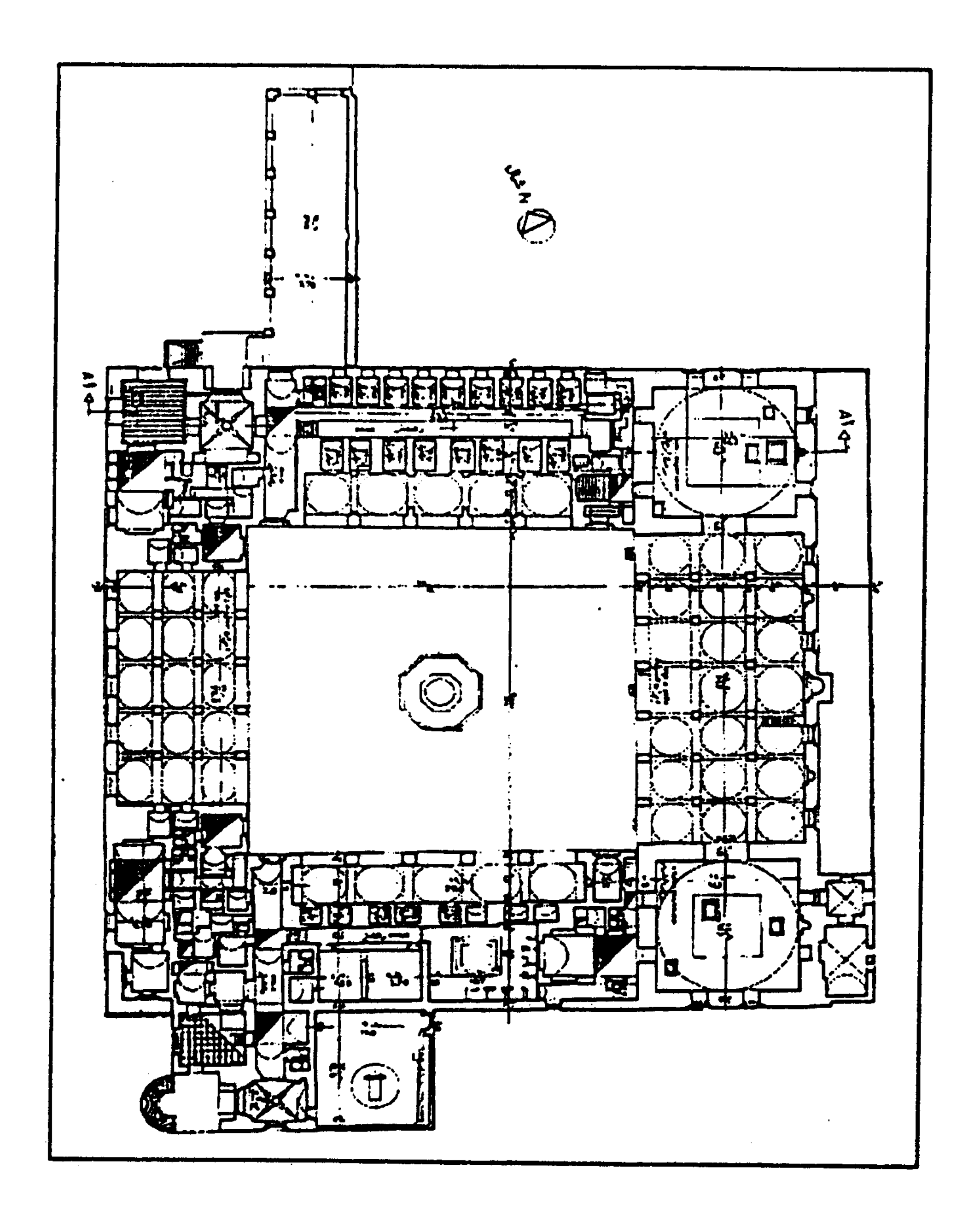
خانقاة الناصر فرج بن برقوق:

تقع بشارع الأشرف بجبانة المماليك، شرق مدينة القاهرة، أنشأها السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج ابن السلطان الظاهر برقوق بناء على وصية أبيه، وفرغ منها فى سلخ سنة ٨١٣هـ/ ، مارس ١٤١١م، إذ يروى المقريزي، انه" لما مرض الملك الظاهر برقوق أوصى أن يدفن تحت أرجل الفقراء، وأن يبنى على قبره تربة، فدفن حيث أوصى وأخذت قطعة مساحتها عشرة آلاف ذراع، وجعلت خانقاه، وجعل فيها قبة على قبر السلطان وقبور الفقراء. . . وتجدد من حينئذ هناك عدة ترب جليلة حتى صار ميدان السباق شوارع وأزقة".

وروى المؤرخ ابن تغرى بردى أيضا أنه "لما شعر الملك الظاهر برقوق بدنو أجله، كتب وصيته وأوصى فيها " أن يعمر تربة بالصحراء خارج باب النصر تجاه تربة الأمير يونس بالدوادار بثمانين ألف دينار ويشترى بما فضل من عمارة التربة المذكورة عقارا ليوقف عليها، وأن يدفن السلطان الملك الظاهر برقوق فى لحد تحت أرجل الفقراء".

وأشار ابن إياس أنه بعد وفاته فى الخامس عشر من شوال سنة ٨٠١هـ/ ٢٠ يونيو ١٣٩٩م، نفذ ابنه فرج وصيته ودفن بين هؤلاء العلماء، وأقام على قبره خيمة وشرع فى البناء كما اهتم أيضا بعمران المنطقة حولها، فنقل على حد تعبير المقريزى " سوق الجمال وسوق الحمير من تحت القلعة إلى تجاه التربة التى عمرها على قبرا أبيه، فاستمر ذلك أياما فى سنة أربع عشرة وثمانمائة (١٤١١م)، ثم أعيدت الأسواق إلى مكانها. وكان قصده أن يبنى هناك خانا كبيرا، ينزل فيه المسافرون، ويجعل بجانبه سوقا، وبنى طاحونا وحماما وفرنا لتعمر تلك الجهة بالناس، فمات قبل بناء الخان، وخلت الحمام والطاحونة والفرن بعد قتله".

والخانقاه مشيدة على مساحة أقرب إلى المربع منها إلى المستطيل لها أربع واجهات مشيدة من الحجر المشهر ويجمع تخطيطها بين نظام الأورقة ونظام الإيوانات، ويبلغ مسطحها ما يقرب من خمسة الآف وسبعمائة متر مربع وهى مساحة كبيرة وغير مألوفة بالنسبة لمنشآت عصر المماليك الجراكسة، ربما بسبب وقوعها فى صحراء المماليك قبل أن يزحف عليها البنيان وتزدحم بالمبانى والقباب. وتشغل واجهتها الرئيسية الضلع الغربى من المبني، ويبلغ طولها حوالى خمسة وثمانين مترا، تقتطع كتلة المدخل والسبيل منها ثلاثة عشر مترا فى الطرف الجنوبى من الواجهة بعمق سبعة أمتار. والمدخل مرتفع قليلا عن مستوى أرضية الشارع ويتقدمه سلم حجرى يتألف من خمس درجات نصف دائرية وفتحته تتوسط تجويف يعلوه سقفية من المقرنصات يحدها عقد مدائنى ثلاثى الفصوص، يكتنفه من أسفل مكسلتان يعلوهما شريط من كتابات نسخية بالحفر البارز نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم" أمر بإنشاء هذه الخانقاه الشريفة السلطان الأعظم مالك رقابنا

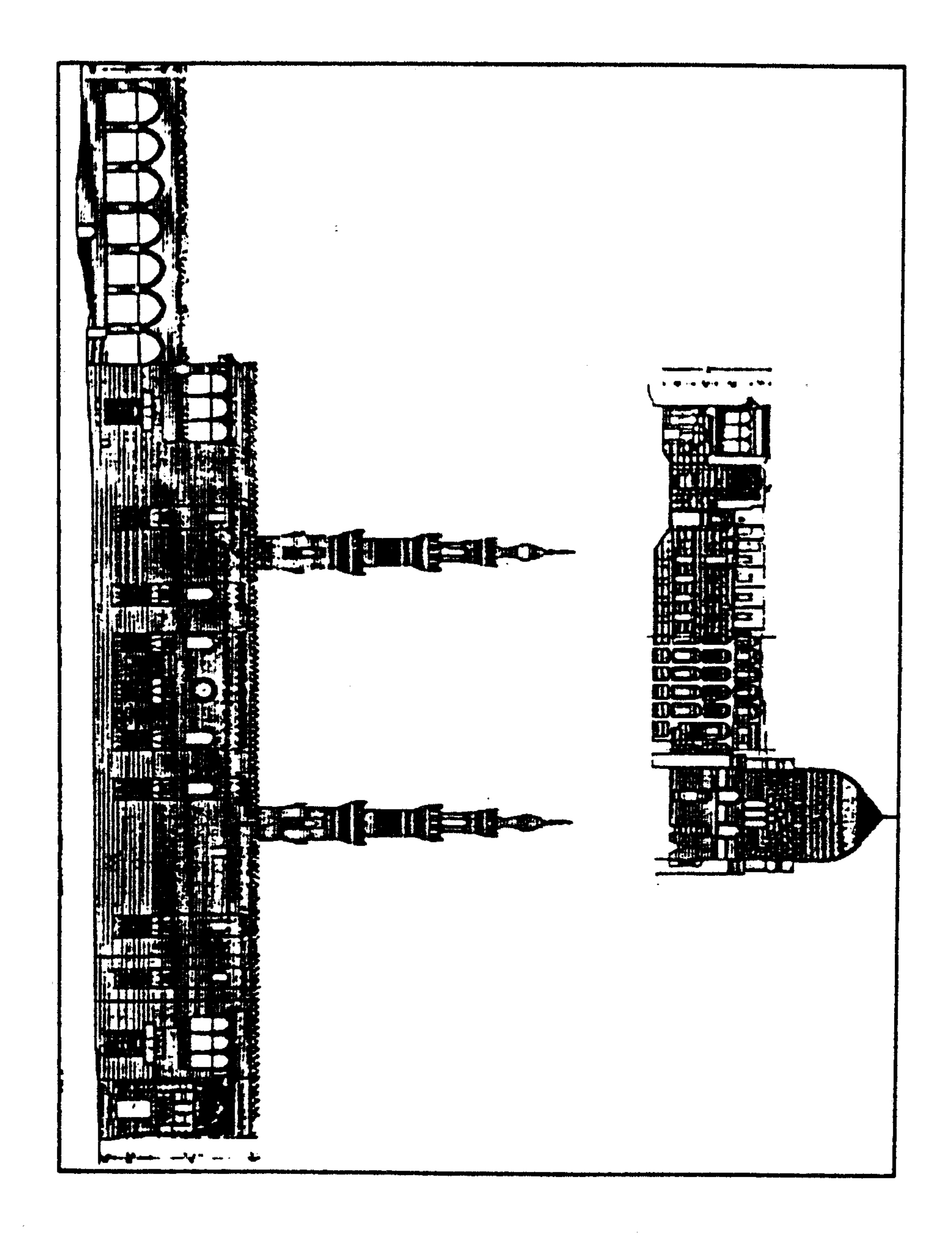


شكل (٦٨)

مسقط أفقى لخانقاه فرج بن برقوق، نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

سيد ملوك العرب والعجم مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبو السعادات فرج بن برقوق أدام الله أيامه" . ويوجد إلى يساره سبيل مزود بشباكين، يعلوه كتاب لتعليم أيتام المسلمين له واجهتان معقودتان بهما شرفات ذات سياج من خشب الخرط، وبالغربية منهما باثكة ثلاثية العقود تقوم على عمودين من الرخام، ويلى السبيل شمالا بقية الوجهة الغربية وهى تتسم بالفخامة وتناسب أجزائها، إذ يتوج أعلاها شرافات على هيئة أوراق نباتية ثلاثية الشحمات، يخترقها مجموعة من التجاويف الرأسية يزين أعلاها صدور مقرنصة، وفتح فى كل منها نافذتين الأرضية منهما مستطيلة ومغشاة بمصبعات برونزية، وتزدان فى أعلاها بعقد مستقيم، يعلوه عقد عاتق من صنج معشقة، أما النافذة العلوية فمعقودة بعقد مدبب ويكسوها زخارف جصية كانت معشقة بزجاج ملون.

ويتوسط هذه الواجهة أيضا مئذنتان رشيقتان متشابهتان، يبلغ ارتفاع كل منهما ثلاثين مترا، تضم ثلاثة طوابق ترتفع فوق قاعدة مربعة، الطابق الأول مربع، فتح فى كل ضلع من أضلاعه دخلة يعلوها صدر مقرنص وبصدرها نافذة يتقدمها إلى الخارج شرفة أو مشترفة بارزة ترتكز على ثلاثة صفوف من المقرنصات، يعلوه شرفة مربعة ذات دروة حجرية مفرغة، تقوم بدورها على قاعدة من المقرنصات، تلتف حول الطابق الثانى وهو أسطوانى الشكل يزدان بجفوت متقاطعة تربطها ميمات معقودة تذكرنا بزخارف مئذنة مسجد اسنبغا من سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م. أما الطابق الثالث فيشتمل على ثمانية أعمدة رخامية، يتقدمها شرفة ذات دروة حجرية وقاعدة مقرنصة تفصل بينه وبين الطابق الثاني، بأعلاه شرفة ثالثة تلتف حول خوذة كمثرية الشكل ثبت فوقها هلال نحاسي. وتشتمل واجهة الخانقاة الشرقية أيضا على مجموعة من التجاويف الرأسية المتوجة بصدور مقرنصة والتى فتح فى كل منها نافذتان أحدهما أرضية والآخرى علوية، يتوسطها بروز المحراب على هيئة دعامة ساندة، ويشغل طرفيها الشمالى والجنوبى قبتان حجريتان متماثلتان فى الشكل والمساحة، يزين كل منهما من الخارج خطوط أفقية متعرجة تنتهى من أسفل بميمات معقودة، كما تزدان الرقبة بمجموعة من النوافذ



شكل (٦٩)

قطاع رأسى لخانقاه فرج بن برقوق، الواجهة الغربية

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

المعقودة، بعضها مغلق فى الوقت الحالى بالإضافة إلى مجموعات سداسية من النوافذ من النوع الذى يطلق عليه فى الوثائق اسم دوست، تفصل بين مناطق الانتقال، وكان يعلو قمة القبة الجنوبية عشارى صغير صنع من بقايا تحف نحاسية، يسبق عصرها تاريخ بناء هذه القبة، تم إزالته فى سنة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م واستبدل بالهلال الحالي. ومن الطريف أن الرحالة المغربى عبد الغنى النابلسى الذى زار الخانقاه فى سنة ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م أشار إليه على أنه أوزة من نحاس أصفر مرصودة . وهاتان القبتان أكسبتا الواجهة الشرقية منظرا جميلا مع القبة الصغيرة المفصصة التى تتوسطهما فوق المحراب.

وتحتوى الواجهة الشمالية بدورها على تجاويف رأسية تشغلها مجموعة من النوافذ تشير إلى الطوابق الثلاثة التى أعدت لاستقبال صوفية الخانقاه، كما تشتمل فى طرفها الغربى على كتلة المدخل الثانى للخانقاه وهو غير مستعمل حاليا ويتقدمه صدفة أو بسطة بدون دروة أو سياج فتح بدوره داخل تجويف يعلوه سقفية من المقرنصات، يحيط بها عقد مدائنى ثلاثى الفصوص، ويكتنفه من أسفل مكسلتان، يعلو اليسرى منهما أى الشرقية كتابة نسخية بارزة نصها: " عمرت هذه الخانقاه بمباشرة الجناب العالى لاجين الطرنطاى غفر الله له ". ويغلق عليه باب من مصراعين مغشيان بأشرطة حديدية، مدون على عضادتيه كتابات نسخية نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم ادخلوها بسلام آمنين. أمر بإنشاء هذه التربة المباركة من فضل الله تعالى مولانا السلطان الملك الناصر أبو السعادات فرج بن السلطان الشهيد برقوق تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته يا رب العالمين. وكان الفراغ من هذا المكان المبارك فى سلخ سنة ثلاث عشرة وثمانمائة (مارس ١٤١١م)". وإلى يمين هذا المدخل يوجد سبيل ذى شباكين، يعلوه كتاب له واجهتان بكل منهما بائكة ثلاثية العقود تضم شرفات ذات سياج من خشب الخرط، كما يتوج هذه الواجهة من أعلى شرافات تماثل شرافات الواجهة الغربية.

وتعد الواجهة الجنوبية للخانقاة أقل واجهات المبنى فخامة إذ يسودها البساطة وتخلو من الفتحات والأبواب فيما عدا نوافذ القبة الجنوبية وبروز كتلة المدخل الغربى.

ويمضى كلا المدخلين الشمالى والغربى إلى داخل الخانقاة بواسطة دركاه مربعة التخطيط، يعلوها قبو متقاطع، تؤدى بدورها إلى دهليز مستطيل ينتهى فى نهايته على صحن الخانقاة، وهو سماوى مكشوف مستطيل التخطيط تبلغ أبعاده ٣٩_ ٣٥,٨٠ مترا يتوسطه فوارة مثمنة الأضلاع ويفتح عليه عدة أبواب تؤدى إلى الخانقاة وملحقات قاعة خلف السبيل الجنوبى الغربى، وإلى المئذنتين، كتب عليها بخط النسخ اسم السلطان الناصر فرج والدعاء له بما نصه " عز لمولانا السلطان المالك الملك الناصر أبو السعادات فرج بن السلطان الشهيد برقوق أدام الله أيامه ونشر فى الخافقين أعلامه ".

ويحيط به أيضا أربعة إيوانات، أكبرها إيوان القبلة الشرقى وهو مستطيل الشكل أرضيته مفروشة بالحجر ويشغله ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة يفصلها ثلاث بائكات، بكل منها ست دعامات حجرية ذات بدن مثمن وهو طراز غير مألوف فى عمارة المماليك الجراكسة يعلوها سبعة عقود مدببة فتح فى جداره الشرقى ثلاثة محاريب مجوفة غفل من الزخرفة الأوسط اكثر اتساعا ويكتنفه أربعة أعمدة رخامية ويعلوه قمرية مستديرة مغشاه بالجص المعشق بزجاج ملون كما سبق أن أشرنا من قبل، ويوجد على يمينه منبر حجرى، يعد بحق طرفه نادرة فى العمارة الإسلامية بمصر يغطى ريشتيه أطباق نجمية يزينها زخارف نباتية بالحجر البارز يحددها جفوت لاعبة، كما يزين درابزينه مشبكات من زخارف نباتية وهندسية بالحفر البارز وهو من عمل السلطان الأشرف قايتباى، ويعلو كرسى الروضة نصا من أربعة سطور نقشت بخط النسخ المملوكى نقرأ فيه: " أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك مولانا/ السلطان الملك الأشرف قايتباى أعز الله أنصاره/ بتاريخ شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين/ وثمان مائة من الهجرة النبوية الشريفة (مايو ١٤٨٣م) ". وكان بهذا الإيوان أيضا دكة للمبلغ من عمل السلطان نفسه، إلا أنه لم يبق منها سوى لوحتها الخشبية المثبتة فوق الدكة الحالية المستحدثة منقوش عليها كتابات نسخية يقطعها رنك كتابى للسلطان قايتباى، نصها " أمر بإنشاء هذه الدكة المباركة سيدنا ومولانا المقام الشريف الملك الأشرف أبو النصر قايتباى خلد الله

ملـكه وثبت . . . " وهى محمولة على أعمدة ولها سياج من خشب الخرط ويصعد إليها بدرج خشبى .

ويغطى هـذا الإيوان إحدى وعـشرون قبـة ضحلـة من الآجر ترتـكز على مثلثات كروية ، أكثرهـا ارتفاعا القبة التى تتقـدم المحراب وكانت منقوشة ومكتوبة من الداخل ومتأثرة إلى حد كبير بطراز قباب عصر المماليك البحرية .

ويعلو واجهة هذا الإيوان المطلة على الصحن نص منقوش بخط النسخ نقرأ فيه : "أمر بـإنشاء هذه الـتربة مولانا وسـيدنا مالك رقـابنا السـلطان المالك الملك الناصر نـاصر الدنيا والـدين سلطان الإسلام والمسـلمين قاتل الكـفرة والمشركين ، محـيى العدل فى الـعالمين كـهف الفقـراء والمساكـين السلـطان الملك الـناصر أبو السعادات فرج بن السلطان الشهيد برقوق صاحب الديار المصرية" .

وبطرفى هـذا الإيوان قبتان كبيرتان ، الجنوبيـة منهما مشيدة من الحجر وينفذ إليهـا من باب يشغل الضلع الشمالى المطل على الإيوان الشرقى ، عليه حجاب من الخـشب المجمع بأشكال هـندسية ، مدون بأعلاه " أمـر بإنشاء هذه الـتربة المباركة مولانا السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته بمنه وكرمه" . والقبة عبارة عن مساحة مربعة طول ضلعها حوالى أربعة عشر مترا ، يـتصدر جدارها الـشرقى محراب يكـتنفه عمودان من الـرخام ، وشباكان عـليهما مصبعـات من البرونز ، يعـلو كل منهمـا قمرية من الجص المعـشق بزجاج ملون ، ويحيط بمربع القبة ، شـريط من الكتابات النسخية الحجرية تشتمل على بضعة آيات قرآنـية من سورة الدخـان والنص التـاريخى التالى " . . . أمـر بإنشاء هـذه التربة المباركـة مولانا السلطان الملك النـاصر فرج بن السلطان الشـهيد برقوق تغمده الله برحمته وأسـكنه فسـيح جنته يـا رب العالمين وكـان الفراغ فى سـنة ثلاث عشرة وثمانمـائة (١٤١١م) " . ويشغل مـناطق الانتـقال تسعـة صفوف من المـقرنصات الخشبية الملونـة ، يفصلها قندليات مركـبة من النوع المعروف باسم دوست ، يغطيها ستائر جـصية معشقة بزجاج مـلون ، يعلوها رقبة أسطوانـية فتح بها نوافذ معقودة

ومغشاه بدورها بجص معشق بزجاج ملون يتخللها أيضا مضاهيات معقودة، يرتكز عليها قبة يحيط بدائرها كتابات قرآنية من سورة الزخرف، منقوشة بألوان، بأعلاها زخارف متنوعة منفذة بدورها باللونين الأحمر والأسود.

ويبدو أن هذه القبة كانت مخصصة لدفن الحريم السلطانى فقد عثر بأرضيتها على جانب من تركيبة رخامية مدون عليها بخط النسخ النص التالي: " وفاة السيدة المصونة الجليلة الكبرى ذات الستر الرفيع والحجاب المنيع ذى الآدر الكريمة خوند شقرا ابنة السلطان الشهيد الملك الناصر فرج ابن السلطان الشهيد برقوق تغمدة الله برحمته بتاريخ يوم الجمعة مستهل شهر رجب الفرد سنة سبع وثمانين وثمانمائة من الهجرة النبوية (١٦ أغسطس ١٤٨٢م) ".

وعثر بها أيضا على لوح رخامى مثبت بالجدار الجنوبى منقوش عليه النص التالى " بسم الله الرحمن الرحيم كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام توفيت المرحومة خوند حريز (؟) بنت عبد الله مستولدة السلطان الملك الظاهر برقوق يوم الجمعة مستهل شهر رمضان سنة أحد عشر وثمانمائة من الهجرة النبوية(١٨ يناير ١٤٠٩م)".

ومع ذلك فقد عثر بأرضية هذه القبة على بقايا لوحة رخامية تشتمل على أربعة أسطر نسخية نصها " توفى إلى رحمة الله تعالى سيدى محمد سنة أحد عشر وثمانمائة (١٤٠٩م). توفى إلى رحمة الله سيدى أحمد ولد المقر المرحوم سودون من تانى مستهل شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وثمان مائة (١١ أبريل ١٤٣٤م)"، الأمر الذى يعنى أن هذه القبة لم تكن قاصرة على دفن النساء فقط بل دفن فيها بعض أولاد الأسياد أيضا .

ويقابل مدخل هذه القبة، مدخل القبة الشمالية المخصصة لدفن الرجال، وهو مغطى بدوره بحجاب من الخشب المجمع بأشكال هندسية، يذكرنا بحجاب سبيل مدرسة أم السلطان شعبان، خوند بركة من سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٩ م. وهى تشبه القبة الجنوبية من حيث المساحة والارتفاع والزخرفة وإن كانت تعد أقدم أجزاء

الخانقاة فقد تم الفراغ من تشييدها فى سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، ونقشت من الداخل بنقوش وكتابات نسخية ملونة باللونين الأسود والأحمر، ويتوسط جدارها الشرقى محراب مجوف يعلوه طاقية مدببة ويكسوه فسيفساء رخامية ملونة، بأعلاه طراز من كتابات نسخية نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتمام هذه التربة المباركة السعيدة من فضل الله الكريم وجزيل عطائه العميم السلطان المالك الملك المنصور سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيى العدل فى العالمين منصف المظلومين من الظالمين أبو الفقراء والمساكين ذخر الأرامل والمنقطعين الملك المنصور عبد العزيز بن السلطان الشهيد برقوق تغمده الله بالرحمة والرضوان. بتاريخ الثانى من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانمائة من الهجرة النبوية (٢٦نوفمبر ١٤٠٥ م)".

ويحيط بمربع القبة شريط من الكتابات النسخية المحفورة على الحجر نصها: " أمر بإنشاء هذه التربة المباركة مولانا السلطان الظاهر أبى سعيد برقوق تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته بمنه وكرمه فى أيام ولده مولانا السلطان الملك الناصر أبى السعادات فرج اعز أنصاره وضاعف اقتداره بمحمد وآله وذلك فى شهور سنة ثلاث وثمانمائة من الهجرة النبوية (١٤٠٠م). على صاحبها صلاته وسلامه ".

ويوجد بأرضية القبة أمام المحراب تركيبة رخامية تعلو قبر السلطان الظاهر برقوق، نقش على لوح رخامى برأسها بخط النسخ المملوكي. النص التالي: "كل من عليها فان، هذا ما أمر بعمله مولانا السلطان الملك الناصر فرج لوالده الشهيد المرحوم الملك الظاهر برقوق تغمده الله برحمته وذلك فى المحرم سنة عشر وثمانمائة (سبتمبر ١٣٩٧م). كما يوجد أمام هذه التركيبة عمود رخامى مدون عليه بخط النسخ ما يلى: " بسم الله الرحمن الرحيم كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام هذا ضريح العبد الفقير إلى الله تعالى السعيد الشهيد الملك الظاهر أبى سعيد برقوق قدس الله روحه ونور ضريحه أمر بوصية منه، توفى إلى رحمة الله تعالى قبل آذان الفجر صبيحة يوم الجمعة الخامس عشر من شوال سنة أحد وثمانمائة (٢٠ يونيو ١٣٩٩م) أحسن الله ختامها فى خير بمحمد

وآله ودفن بعد صلاة الجمعة من يومه بحضور الجم الغفير من المسلمين وأئمتهم وكان يوما مشهودا جعل الله قبره روضه من رياض الجنة بمحمد وآله أمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وذريته وتابعيه إلى يوم الدين وسلم أمين " .

ودفن بهذه القبة أيضا السلطان عبد العزيز بن السلطان الظاهر برقوق الذى دون فوق قبره النص التالي: " هذا قبر العبد الفقير إلى الله تعالى مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور عبد العزيز ولد السلطان الملك الظاهر برقوق، توفى ليلة الإثنين سادس ربيع الآخر سنة تسع وثمانمائة (٢٠ سبتمبر١٤٠٦م)" .

ودفن بها أيضا ابن السلطان الناصر فرج الذى دون فوق قبره " . . . توفى الشاب. . . ابن الملك الناصر فرج تغمده الله برحمته يا رب العالمين بتاريخ شوال سنة اثنى وأربعين وثمانمائة من الهجرة (مارس ١٤٣٩م)" .

ودفن بها كذلك إبراهيم بن الظاهر برقوق، وسيف الدين أقباى بن عبد الله الكركى المتوفى سنة ٨٠٥ هـ/ ١٤٠٢ م، وأولاد السلطان الناصر فرج، زين الدين فرج، والناصرى محمد، وخليل وغيرهم.

وبرغم أن زخارف هذه القبة تشبه إلى حد كبير زخارف القبة الجنوبية إلا أنها تنفرد هنا باحتواء قطبها على شريط يجمع بين نصين أحدهما بالخط الكوفى نقش باللون الأحمر، والثانى بخط النسخ نقش باللون الأسود، نص الأول " أمر بإنشاء هذه التربة المباركة مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته بمنه وكرمه فى أيام ولده مولانا الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبو السعادات فرج أدام الله أيامه وثبت حكامه ونشر فى الخافقين أعلامه، وذلك بنظر العبد الفقير إلى الله تعالى أبى المعالى عبد الله يلبغا السالمى الحنفى الظاهرى أستادار العالية الملكى الناصرى لطف الله به فى الدارين وجعله مع خير الصديقين. وذلك فى شهور سنة اثنان وثمانمائة (١٣٩٩م)" .

على حين يحتوى النص الثانى المدون بخط النسخ على آيات قرآنية من سورة الكهف وسورة الأحزاب، تنتهى بالدعاء التالي" . . . اللهم صل على سيدنا

محمد وعلى آل سيدنا محمد ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين وسلام على المرسلين والحمد الله رب العالمين " .

وهذا التقليد أى الجمع بين الخطين الكوفى والنسخ فى شريط زخرفى واحد، يعد فريدا فى نوعه، ولم يسبق لنا مصادفته فى أى من آثار مصر الإسلامية من قبل، وان كان سوف يعاود الظهور فى مدرسة قنصوه الغورى من سنة ٩١٠هـ/ ١٥٠٥ م، على العقود الحجرية المستقيمة التى ترقى الأبواب الأربعة المحيطة بالصحن كما سوف نشير فيما بعد.

ويعد الإيوان الغربى أقل مساحة من الإيوان المشرقى المقابل له وهو مفروش بدوره بالحجر ويشتمل أيضا على ثلاث باثكات موازية للجدار الغربى بكل منها أربع دعامات حجرية مثمنة، يعلوها خمسة عقود مدببة، يغطيها خمس عشرة قبة بيضاوية ضحلة تقوم على مثلثات كروية، ويشغل الضلع الغربى له خمس فتحات لنوافذ سبقت الإشارة إليها عند تناول الواجهة الغربية، كما فتح فى كل من ضلعيه الشمالى والجنوبي، بابان يفضى كل منهما إلى حاصل صغير يعلوه سقف مقبى.

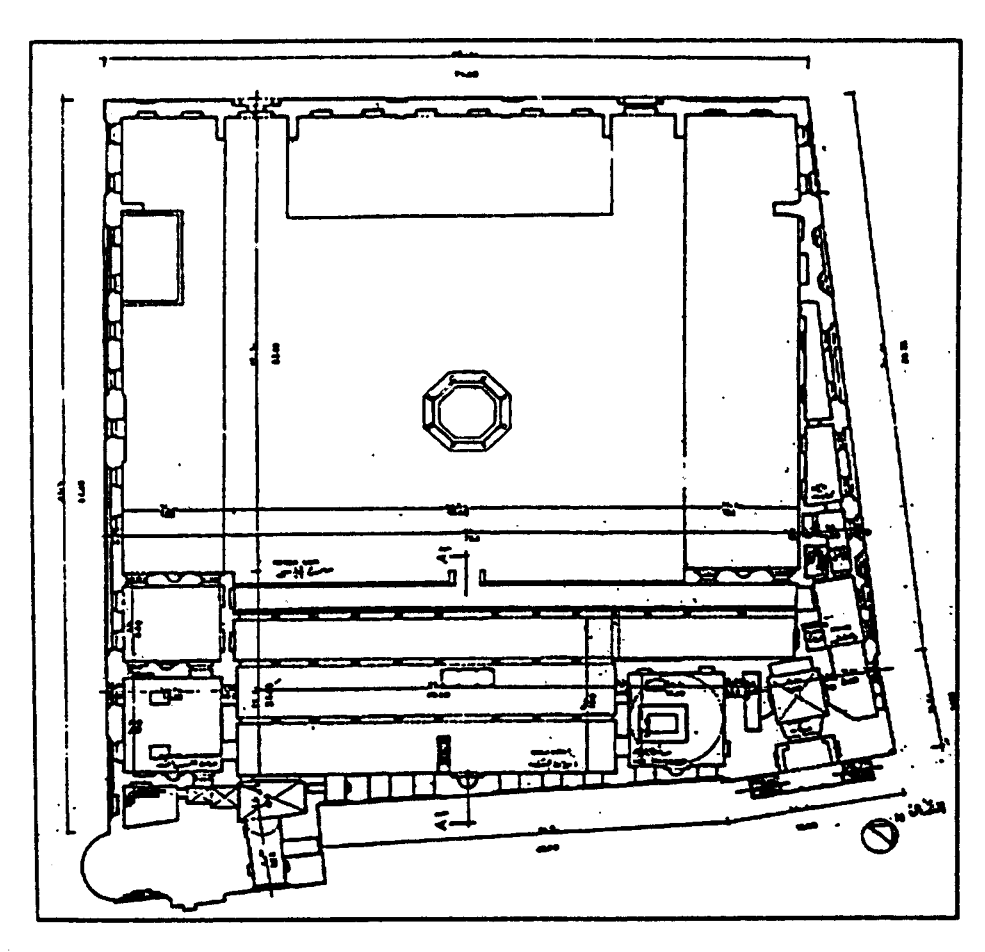
أما فيما يتعلق بالإيوانين الشمالى والجنوبى فهما أقل إيوانات الخانقاه مساحة، إذ يحتوى كل منهما على باثكة واحدة تشمل على أربع دعامات حجرية مثمنة، يعلوها خمسة عقود مدببة، ويغطيها خمس قباب ضحلة، تقوم على مثلثات كروية، كما يوجد خلف كل إيوان مجموعة من الخلوات المخصصة لاستقبال المتصوفة، نجدها خلف الإيوان الشمالى تتألف من مجموعتين من الحجرات المتقابلة يفصل بينهما دهليز مستطيل، يفتح بعضها على الإيوان نفسه، ويفتح البعض الآخر على الدهليز الأوسط، وهى على طبقات بقى منها ثلاثة طوابق فقط، ويتم الوصول إليها من دركاة الباب الشمالي. على حين تقتصر هذه الخلاوى على مجموعة واحدة خلف الإيوان الجنوبى وهى تفتح عليه ويتم الوصول إليها من خلاله، ويقع خلفها العديد من المنشآت الأخرى الخاصة بالخدمات والمرافق والمطهرة التى روعى أن تكون فى منسوب منخفض عن أرضية الإيوان والصحن، لإيجاد نوع من الفصل الفراغى بين مواضع الطهارة ومواضع الصلاة،

كما روعى أيضا بالنسبة للمطهرة ودورات المياه الظروف المناخية السائدة مثل اتجاه الريح والشمس والتهوية، حيث أنشئت الخدمات فى الجهة الجنوبية مراعاة للرياح الشمالية الغربية، والشمالية الشرقية السائدة مما يساعد على سحب الروائح الكريهة خارج مبنى الخانقاه.

وروعى أيضا بالنسبة لوضع الأسبلة بجوار المداخل أن تكون قريبة من عابرى السبيل ودون الحاجة إلى دخول الخانقاه، مثلما روعى التأنق والفخامة وتنوع زخارف القبتين للتفاخر والتباهى بمكانة ومنزلة المنشئ وأسرته، وذلك على النقيض تماما من بقية منشآت الخانقاه التى جاءت غفل من الزخرفة باستثناء المنبر الرخامى الذى أمر بصنعه السلطان الأشرف قايتباى كما سبق أن نوهنا.

جامع المؤيد شيخ:

يقع بشارع المعز لدين الله إلى يسار الداخل من باب زويلة بالسور الجنوبى لمدينة القاهرة، أنشأه السلطان الملك المؤيد أبو النصر سيف الدين شيخ بن عبد الله المحمودى الظاهرى فوق خزانة شمائل، وكانت سجنا شنيعا لأرباب الجرائم سبق للمؤيد أن سجن فيها " أيام تغلب الأمير منطاش وقبضه على المماليك الظاهرية، فقاسى فى ليلة من البق والبراغيث شدائد "، فنذر لله تعالى إن تيسر له الخروج من هذا السجن وآل إليه ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجدا لله عز وجل، ومدرسة لأهل العلم، فلما نجاه الله من محنته وآلت إليه السلطنة قام بشراء قيسارية سنقر الأشقر وأضاف إليها خزانة شمائل وعدة دور وحارات لإقامة هذا المسجد الذى استمرت عمارته ست سنوات فقد بدء فيه سنة ٨١٨ هـ/ ١٤١٥م وفرغ منه سنة ٨٢٤ هـ/ ١٤٢١م فجاء فى أحسن صورة؛ لذا وصفه المقريزى بقوله: " فهو الجامع لمحاسن البنيان، الشاهد بفخامة أركانه وضخامة بنيانه، أن منشئه سيد ملوك الزمان. يحتقر الناظر له عند مشاهدته عرش بلقيس وإيوان كسرى أنو شروان، ويستصغر من تأمل بديع إسطوانه الخورنق وقصر غمدان ويعجب من عرف أوليته من تبديل الأبدال، وتنقل الأمور من حال إلى حال. . . بينما هو سجن تزهق فيه النفوس ويضام المجهود، إذ صار مدارس آيات، وموضع



شكل (٧٠)

مسقط أفقي لجامع المؤيد شيخ قبل الترميم، نقلا عن فهمى عبد العليم

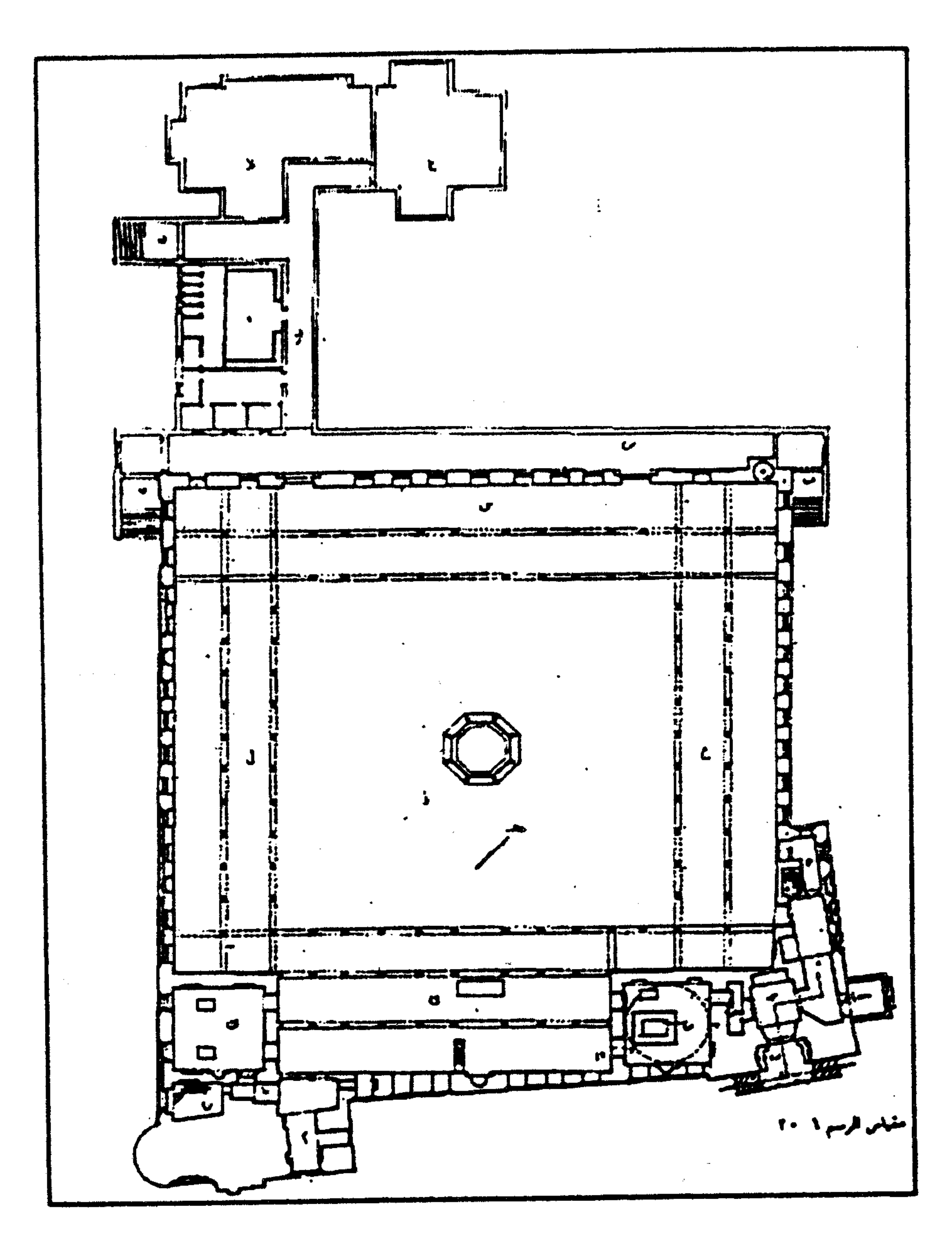
عبادات، ومحل سجود! فالله يعمره ببقاء منشئه، ويعلى كلمة الإيمان بدوام ملك بانيه ". كما قال عنه السخاوى: " قيل أنه لم يعمر فى الإسلام أكثر منه زخرفة ولا أحسن ترخيما بعد الجامع الأموى ". كذلك سجل السلطان سليم الأول إعجابه بهذا الجامع عند زيارته له بقوله: " هذه عمارة الملوك ".

ويفهم من المقريزى أيضا أن الشروع فى حفر الأساس بدء فى الرابع من جمادى الآخرة سنة ٨١٨ هـ/ ١١ أغسطس ١٤١٥ م، وأن عمليات البناء بدأت

فى الخامس من صفر سنة ٨١٩ هـ/ ٤ أبريل ١٤١٦ م، ومن ثم قام السلطان المؤيد بوقف أوقاف هائلة بمصر والشام فى السابع عشر من ربيع الأول من نفس السنة/ ١٥ مايو ١٤١٦م للإنفاق منها على تشييد الجامع، وامر أيضا فى شهر شعبان سنة ٨١٩ هـ/ سبتمبر ١٤١٦م بجمع العمد وألواح الرخام من العمائر الخربة، فقام المشرفون على أعمال البناء بالاستيلاء على بعضها عنوة من الأهالى ومن بعض المساجد الأخرى، وقطعت الأحجار من جبل المقطم بعد أن جمع السلطان الحجارين، وأمرهم بأن يقطعوا أحجار عجالية من موضع بالقرب من دار الضيافة. وأمر كذلك فى السابع عشر من شوال سنة ٨١٩ هـ/ ٨ ديسمبر ١٤١٦م بنقل باب مدرسة السلطان حسن والتنور النحاس إلى الجامع بعد أن ابتاعهما من ورثة السلطان المذكور بخمسمائة دينار كما سبق أن أشرنا من قبل.

ويفهم من المقريزى كذلك أن جملة ما أنفق على الجامع، بلغت فى نهاية شهر ذى الحجة سنة ٨١٩ هـ/ ٥ فبراير ١٤١٧م أربعون ألف دينار، على حين قدرها العينى المؤرخ بأربعمائة ألف دينار، رغم عدم الفراغ من بناء الجامع، الذى حرص السلطان المؤيد على النزول إليه ومتابعة العمل فيه، فقد روى المقريزى أنه "فى عشرى المحرم سنة ٨٢٠ هـ (٨ مارس ١٤١٧ م) نزل السلطان إلى هذه العمارة، ودخل خزانة الكتب التى عملت هناك، وقد حمل إليها كتبا كثيرة فى أنواع العلوم، كانت بقلعة الجبل، وقدم له ناصر الدين محمد البارزى، كاتب السر، خمسمائة مجلد قيمتها ألف دينار، فأقر ذلك بالخزانة، وأنعم على ابن البارزى بأن يكون خطيبا وخازن الكتب هو ومن بعده من ذريته".

وذكر أيضا أنه " فى السابع عشر شهر ربيع الآخر منها (٢٤ مايو ١٤١٧ م) سقط عشرة من الفعلة: مات منهم أربعة وحمل ستة بأسوأ حال. وأشار كذلك أنه "فى يوم الجمعة ثانى جمادى الأولى (١٧يوليو ١٤١٧م) أقيمت الجمعة به ولم يكمل منه سوى الرواق القبلى... وفى يوم السبت خامس شهر رمضان منها (١٦ أكتوبر ١٥١٧م) ابتدئ بهدم ملك بجوار ربع الملك الظاهر بيبرس، مما اشتراه الأمير فخر الدين عبد الغنى بن الفرج الاستادار ليعمل ميضأة واستمر العمل



شكل (٧١)

مسقط أفقى لجامع المؤيد شيخ بعد الترميم

هناك . . . فكملت فى سلخة بعد خمسة وعشرين يوما. ووقع الشروع فى بناء حوانيت على بابها من جهة تحت الربع يعلوها طباق" . وأضاف أيضا أن النفقة بلغت على الجامع إلى أخريات شهر رمضان (نوفمبر ١٤١٧م)، هذا سوى عمارة الأمير فخر الدين المذكور، زيادة على سبعين ألف دينار وتردد السلطان إلى النظر فى هذا الجامع غير مرة " .

وتروى المصادر أيضا بصدد أحداث تشييد هذا الجامع أنه ظهر خلل بالمئذنة التى أنشئت على بدنة باب زويلة فهدمت، فسقط حجر هدم ملكا تجاه باب زويلة، هلك تحته رجل، فغلق باب زويلة مدة ثلاثين يوما، ولم يعهد وقوع مثل هذا قط منذ بنيت القاهرة. وقد تبارى أدباء هذا العصر فى الإشارة إلى هذه الحادثة معرضين ببعضهم البعض، فقال شهاب الدين ابن حجر معرضا ببدر الدين العينى:

لجامع مولانا المؤيد رونق

منارته تزهو من الحسن والزين

تقول وقد مالت عليهم تمهلوا

فليس على جسمى أضر من العين

فرد عليه العينى معارضا:

منارة كعروس الحسن إذا جليت

وهدمها بقضاء الله والقدر

قالوا أصيبت بعين، قلت ذا غلط

ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر

وقال ثالث معرضا ببهاء الدين محمد بن البرجى الذى تولى نظر عمارة الجامع:

على البرج من باب زويلة أسست

منارة بيت الله والمعهد المنجى

فأخلى بها البرج اللعين أمالها

ألا فاصرخوا يا قوم باللعن للبرج

وقال آخر:

عتبنا على ميل المنار زويلة

وقلنا تركت الناس بالميل فى هرج

فقال قريني برج نحس أمالنى

فلا بارك الرحمن فى ذلك البرج

وقال الأديب شمس الدين الجوجرى أحد الشهود:

منارة لثواب الله قد بنيت

فكيف هدت فقالوا نوضح الخبرا

أصابت العين أحجارا بها انفلقت

ونظرة العين قالوا تفلق الحجرا

وقال آخر:

منارة قد هدمت بالقضا

والناس فى هرج وفى رهج

أمالها البرج فمالت به

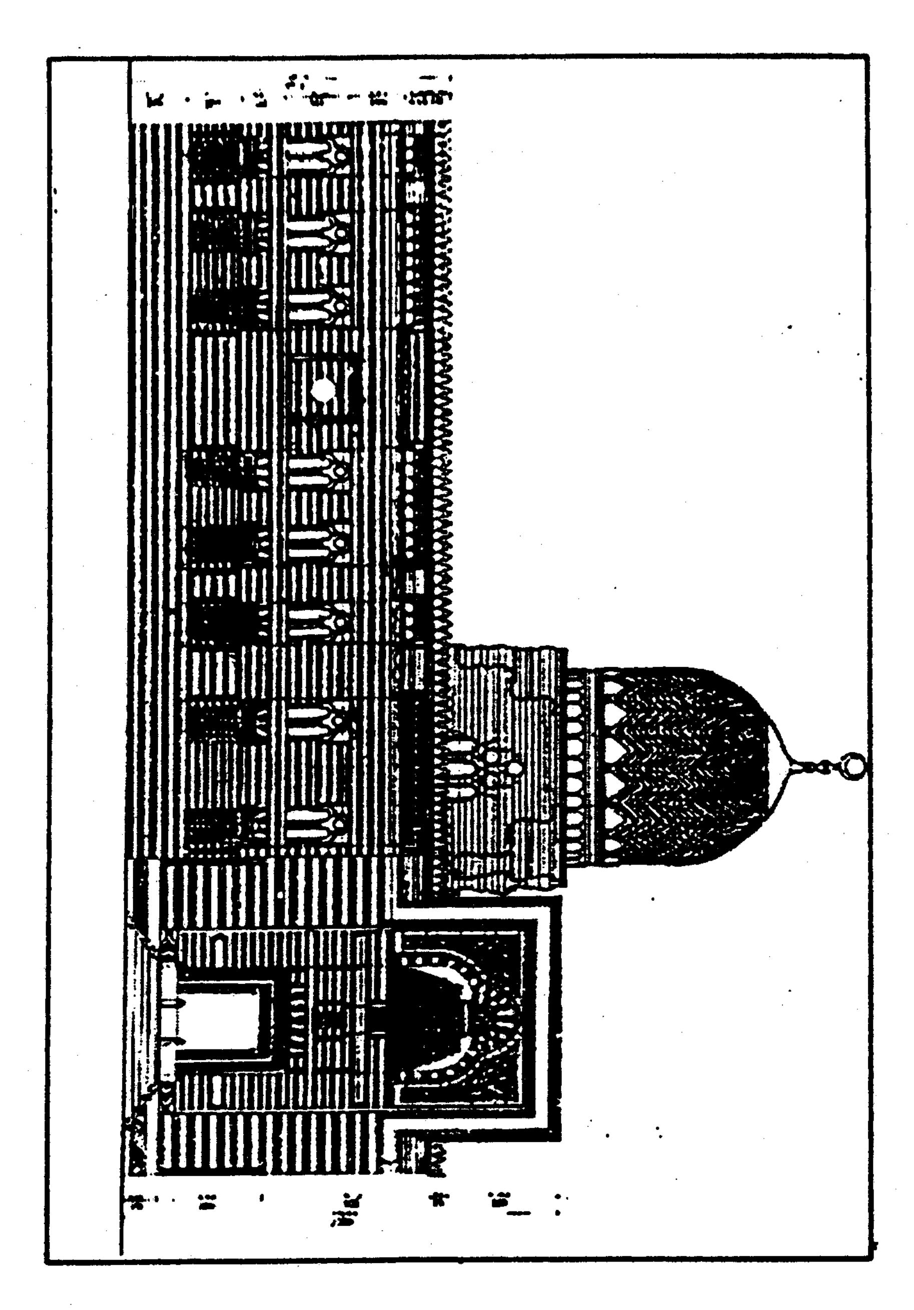
فلعنة الله على البرج

ومع أن عمارة الجامع لم تكن قد انتهت بعد، فقد سارع السلطان المؤيد إلى تعيين المدرسين للمذاهب الأربعة وللحديث ولعلم القراءات السبع، وذلك فى شهر

جمادى الأولى سنة ٨٢٢ هـ/ مايو ١٤١٩ م، كما نزل في الحادى عشر من شوال من السنة نفسها/ ١٠ نوفمبر ١٤١٩م إلى الجامع "وأمر بتهيئة السماط والسكر لتملأ البركة التى بالصحن من السكر المذاب والحلوى الكثيرة... وجلس بالقرب من البركة فى الصحن على تخت واستعرض الفقهاء، فقرر من وقع اختياره عليه فى الدروس. ومد السماط العظيم بأنواع المطاعم، وملئت البركة بالسكر المذاب فأكل الناس ونهبوا، وارتووا من السكر المذاب، وحملوا منه ومن الحلوى ما قدروا عليه ".

وفى ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة ٨٢٣ هـ/ ٤ يوليو ١٤٢٠ م، توفى المقام الصارمى ابن السلطان المؤيد فدفن بالقبة التى تشغل الزاوية الشمالية الشرقية من رواق القبلة، والتى أشارت إليها وثيقة الوقف تحت مسمى القبة الشرقية، كما توفى السلطان المؤيد شيخ فى الثامن من المحرم سنة ٨٢٤ هـ/ ١٣ يناير ١٤٢١م ودفن بنفس القبة مع أنها لم تكن عمرت بعد؛ لذا شرع الأمير مقبل الدوادار كاتب السر فى عمارتها حتى كملت فى شهر ذى القعدة من السنة المذكورة/ نوفمبر ١٤٢١م، وكذلك الدرج الذى يصعد منه إلى باب هذا الجامع من داخل باب زويلة أى الصدفة أو الطنفسة التى عملت فى شهر رمضان سنة ٨٢٤ هـ/ سبتمبر ١٤٢١ م، وظلت بقايا كثيرة من حقوق هذا الجامع لم تعمل، منها القبة التى تشغل الزاوية الجنوبية الشرقية من رواق القبلة وتقابل القبة المدفون تحتها السلطان المؤيد، وكذا البيوت المعدة لسكن الصوفية، وغير ذلك، فأفرد لعمارتها الأمير مقبل كاتب السر نحو عشرين ألف دينار، بعد أن استقر نظر هذا الجامع بيده بعد موت السلطان.

والمتأمل لجامع المؤيد سوف يلاحظ مدى الخراب الذى تعرض له بمرور السنين بحيث لم يبق منه سوى القليل، ربما بسبب ما قام به عمر باشا والى مصر من قبل العثمانيين من مهاجمة الجامع وضربه بالمدافع فى سنة ١٠٧٦ هـ/ ١٦٦٥م عندما تحصن به بعض الثائرين من طائفة الزرب الذين كثر فسادهم وفتنهم بمصر، فاستفتى العلماء فى أمرهم فأفتوه بمهاجمة الجامع، وإن تهدم شيء منه يعاد بناؤه،



شكل (٧٢)

قطاع رأسى لجامع المؤيد شيخ، الواجهة الشرقية

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

فامر العسكر بالزحف عليهم ومعهم اثنا عشر مدفعا تم تصويبها عليهم إلى وقت العصر، فاستسلموا وفتحوا أبواب الجامع فقبض عليهم وتم قتلهم بعد أن تعرض الجامع للتخريب والتدمير، وإن كان الجبرتى قد أشار إلى قيام والى مصر أحمد باشا بعمارته فى سنة ١١٠٢ هـ/ ١٦٩٠ م، إلا أنه من الواضح أن الخراب قد نال من الجامع بدليل ما ذكره باسكال كوست الذى زار الجامع فى سنتى ١٢٣٠، ١٢٣٣ هـ/ ١٨١٥، ١٨١٨ م، من أنه "فى أسواء حال من التخريب" وخلف لنا مخططا أفقيا لما كان عليه الجامع وقت إنشائه. كما زاره أيضا عالم الكابات العربية مهرن فى عام ١٢٨٩ هـ/ ١٨٧٢م، وجمع ما به من كتابات عربية وأشار بدوره إلى أن الجامع "متخرب تماما باستثناء رواق القبلة".

ومع ذلك فيمكن تصور ما كان عليه الجامع من رونق من خلال الوصف المفصل الذى أمدتنا به وثيقة الوقف التى يفهم منها أن تخطيطه كان على نظام المساجد ذات الأروقة، وليس المساجد ذات الإيوانات كما ورد فى الوثيقة، وفى كتابات أغلب المحدثين الذين نقلوا عنها وذلك للاختلاف البين بين الرواق والإيوان.

وللجامع المؤيد أربع واجهات حجرية، جدد ديوان الأوقاف ثلاث منها: الشمالية والجنوبية والغربية فيما بين سنتى ١٢٨٧ - ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٠ - ١٨٧٤م بامر من الخديوى إسماعيل طبقا لمخطط باسكال كوست، بيد أنه شاب أعمال الترميم العديد من الأخطاء، منها عدم مطابقة طرز الزخارف والعناصر المعمارية بالوجهات المجددة، بنظائرها بالواجهة الرئيسية للجامع، هذا فضلا عن اختلاف نوع الأحجار المستخدمة فى الترميم، وعدم مراعاة وضع فتحات النوافذ بهذه الوجهات فى مكانها الصحيح كما جاء فى أحد تقارير لجنة حفظ الآثار العربية. لذا تعد الواجهة الشرقية المطلة على شارع المعز لدين الله أهم واجهات الجامع وهى تضم المدخل الرئيسى والقبتان ورواق القبلة وبروز المحراب بالإضافة إلى خمسة تجاويف رأسية، يتوج كل منها صدر مقرنص ويكتنفها من الجانبين عمودان حلزونيان من الحجر، وفتح فى كل تجويف نافذتان إحداهما علوية تتألف من

قندلون أو قندلية أو شند، والثانية أرضيه يغشيها حجاب من مصبعات معدنية ويعلوها عقد مستقيم من صنج حجرية معشقة بأعلاه عقد عاتق من صنج مماثلة، كما يتوج أعلى الواجهة صف من الشرافات الهرمية، يعلوها زهرة قرنفل، وهو طراز غريب على شرافات عصر المماليك.

وتشغل كتلة المدخل الركن الشمالى الشرقى من هذه الواجهة وهى مرتفعة عن مستوى أرضية الشارع؛ لذا يتقدمها صدفة أو بسطة رخامية ذات سلالم خارجية، يحيط بها دروة أو سياج من الرخام، وهى تفضى إلى تجويف غائر، شاهق الارتفاع يكسوه رخام أبيض وأسود على التوالى، أبلق، يتوجه من أعلى عقد مدائنى ثلاثى الفصوص، بداخلة سقيفة من المقرنصات، أسفل منها حنية ذات صدر مقرنص من ثلاثة صفوف، بداخلها نافذة مستطيلة ذات حجاب من مصبعات معدنية. ويشغل تواشيح عقد السقيفة على الجانبين زخارف نباتية متشابكة، أرابيسك، يحيط بها إزار من كتابات نسخية حجرية تشتمل على آيات قرآنية من سور النور، ويكتنفه من أسفل مكسلتان مغشيتان بالرخام المعشق، بأعلى كل منهما، داخل حنية مقرنصة، لوحة رخامية مربعة بها كتابات كوفية مربعة، منقوشة بمصبعات رخامية سوداء على أرضية بيضاء نصها على البلاطة اليمنى " لا إله إلا الله محمد رسول الله "، ونصها على البلاطة اليسرى " نصر من الله وفتح قريب ". كما يعلو كل بلاطة منهما شريط به كتابات نسخية قرآنية من سورة التوبة، على أرضية نباتية تنتهى بتاريخ " سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة (١٤٢٠ م) ".

ويحيط بفتحة المدخل إفريز من الرخام مقسم إلى أشكال هندسية تضم دوائر ومثمنات مطعمة باللون الفيروزى والأحمر والذهبى، بداخله دعامتان من الجرانيت الوردى يعلوهما عقد مستقيم من الرخام المنقوش بزخارف نباتية مورقة بارزة.

ويتوسط تجويف المدخل فتحة باب مستطيلة يغلق عليها مصرعان من الخشب المصفح بالنحاس، نقلا من مدرسة السلطان حسن كما سبق أن نوهنا من قبل، وهما من أنفس المصاريع النحاسية وأكبرها مدون عليهما النص التالى: " أمر

بإنشاء هذا الباب المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى مولانا السلطان الشهيد أبو المعالى حسن بن مولانا السلطان الشهيد الملك الناصر محمد بن قلاوون وذلك فى سنة أربع وستين وسبعمائة (١٣٦٢)" . ولعله من الطريف أن نشير إلى تعليق المؤرخ ابن تغرى بردى على حادثة نقل هذا الباب من مكانه الأصلى إلى جامع المؤيد بقوله أن هذا فيه "نقص مروءة وقلة أدب " .

ويلى كتلة المدخل يسارا أى جهة الجنوب القبة الشمالية المدفون بها من السلطان المؤيد وأبناءه وهى قبة محدبة يزينها خطوط أفقية متعرجة، ويحيط برقبتها شبابيك ومضاهيات معقودة، ويشغل كل ضلع من أضلاعها قندلية مركبة تضم ثلاث نوافذ سفلية معقودة يعلوها ثلاث قمريات من النوع المعروف بدوست، كما تظهر مناطق الانتقال من الخارج على شكل تعاريج حجرية. أما القبة الثانية أى الجنوبية المخصصة للنساء فلم يبق منها سوى مربعها فقط

وتطل الواجهة الغربية للجامع على حارة جانبية، ويتوج أعلاها أيضا صف من الشراريف الهرمية، يعلو كل منها زهرة قرنفل، ويتخللها ثمان نوافذ قندلية أو شند، يغطيها ستائر جصية معشقة بزجاج ملون. وتضم مدخلين، فتح كل منهما داخل تجويف غائر يتوجه من أعلى عقد مدائنى ثلاثى الفصوص، المدخل الشمالى مسدود فى الوقت الحالى، على حين يغلق على المدخل الجنوبى بوابة حديدية ذات مصراعين. ويفهم من وثيقة الجامع أنهما كانا يؤديان إلى دهليز مكشوف، يفصل بين الجدار الغربى للجامع وملحقاته كالحمام والميضأة ومساكن الصوفية التى اندرست جميعها وأصبحت أثرا بعد عين، مثلما اندرست مئذنة الجامع الثالثة التى كانت تعلو هذه الواجهة امام المحراب برواق القبلة كما أشارت وثيقة الوقف.

وتطل الواجهة الشمالية للجامع على حارة الأشرقية، وهى متوجه بدورها بصف من الشرافات، ويتخللها ثمانية تجاويف رأسية يعلوها صدور مقرنصة من ثلاثة صفوف، وتزدان بنوافذ علوية نجد بينها قندليات، ونوافذ أرضية مغشاة بمصبعات معدنية يعلوها عقود مستقيمة من صنجات حجرية معشقة.

ويفهم من الوثيقة أنه كان ملحقا بطرفها الشرقى سبيل يتألف من طابقين وبه شباكين وأسفله صهريج لتخزين المياه وكان مغطى بقبة مذهبة محمولة على كوابيل أورفارف حولها، اندرس ولم يعد له وجود.

أما الواجهة الجنوبية فهى تطل على شارع أحمد ماهر، تحت الربع سابقا، وتحتل القسم الغربى من سور القاهرة الجنوبى الذى شيده بدر الجمالى فى سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م، وهى لا تختلف كثيرا عن الواجهة الشمالية إذ يتوجها من أعلى صف من الشرافات شأن باقى واجهات الجامع، كما يتخللها ثمانية تجاويف رأسية، يعلوها صدور مقرنصة، ويزدان كل تجويف بصفين من النوافذ العلوية والأرضية، وهذه الواجهة تلتصق من طرفها الجنوبى الشرقى بالبرج الغربى لباب زويلة.

ويفضى المدخل الرئيسى للجامع إلى دركاه ذات سقف شاهق مغطى بقبو متقاطع، يكتنفه عقود بها مقرنصات، وبها بلاطتات من الرخام مدون على كل منها آية الكرسى بالخط الكوفى المربع، على يمينها ويسارها باب من الخشب يكسوه زخارف نحاسية مضافة تشتمل على بخارية وأرباعها، تشتمل على سطر من كتابات نسخية نصها " أمر بإنشاء هذا الباب المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى ناصر الدنيا والدين السلطان الملك أبو النصر شيخ".

الباب الأيمن يفضى إلى دهليز ضيق مفروش بالرخام، ويؤدى غربا إلى ثلاث حجرات تشغل الضلع الشمالى من الصحن أضيفت فى وقت لاحق. أما الباب الأيسر للدركاه فيفضى إلى القبة الشمالية المدفون تحتها السلطان المؤيد وأبناءه، كما يوجد بصدر هذه الدركاه غربا باب يفضى إلى مؤخرة رواق القبلة.

ويفهم من باقيا هذا الجامع ومن الوصف الوارد بالوثيقة أنه كان يشتمل على صحن أوسط مكشوف يتوسطه فوارة مثمنه لها رفرف خشبى محمول على ثمانية أعمدة رخامية، ويحيط به أربعة أروقة وليس إيوانات كما ورد بالوثيقة، أكبرها رواق القبلة الشرقى الذى تبقى من منشآت هذا الجامع قبل الترميم الأخير، وهو

يشتمل على ثلاث بلاطات موازية لجدار القبة تفصلها ثلاث بانكات بالأولى ثمانية أعمدة، وبالوسطى عشرة أعمدة وبالثالثة إثنا عشر عمودا، يعلوها جميعا عقودا مدببة، ويغطيه سقف خشبى، يتألف من براطيم خشبية ذات مربوعات مذهبة وملونة يحدها من أسفل كتابات نسخية قرآنية مذهبة، ويغشى جدرانه إلى ارتفاع المحراب وزرات رخامية ملونة تضم زخارف متنوعة، يعلوها نوافذ جصية يكتنفها بخاريات وأشكال مستطيلة منقوشة ومذهبة، يحيط بالنافذة الخامسة والسادسة منها شريط من كتابات نسخية مملوكية، نقشت بحروف مذهبة تشتمل على آيآت قرآنية من سورة التوبة، ونص تاريخى جاء فيه: " أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك المعمور بذكر الله تعالى سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان الأعظم المالك الملك المؤيد أبو الناصر شيخ سلطان الإسلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين قاتل الكفرة والمشركين مظهر الحق بالبراهين منصف المظلومين من الظالمين كهف الفقراء والمساكين ذخر الأيتام والمنقطعين حامى حوزة الدين قسيم أمير المؤمنين صاحب العالمين خادم الحرمين الشريفين ملك العرب والترك والديلم ".

ويتوسط الجدار الشرقى محراب مكسو بالرخام حافل بمختلف الألوان والنقوش، يكتنفه عمودان من الرخام الأحمر لهما تيجان مقرنصة مذهبة، يوجد إلى يمينه منبر خشبى مطعم بالسن والزرنشان، يعلو مدخله النص التالى بخط النسخ المملوكى، أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك سيدنا ومولانا السلطان المالك والملك المؤيد أبو النصر شيخ أدام الله أيامه " وعلى جانبى الدرج سياج من خشب معشق شأن ريشتى المنبر ذات الأطباق النجمية المكررة. ومن الطريف أن نشير هنا بصدد منبر هذا الجامع أن السلطان المؤيد أمر الخطباء فى سنة ٨١٩ هـ/ ١٤١٦ م، عندما يدعون للسلطان على المنبر يوم الجمعة أن ينزلوا درجة ثم يدعون للسلطان حتى لا يكون ذكره فى الموضع الذى يذكر فية اسم الله واسم نبيه.

وتشتمل البلاطة الثانية من هذا الرواق على دكة المبلغ وهى من الرخام وترتكز على ثمانية أعمدة رخامية مثمنة، تحيط بها دروة ذات قوائم مزودة ببابات مكورة، ويزين جوانبها عدة بحور تشتمل على النص التالى: " بسم الله الرحمن

الرحيم أدم العز والبقاء والنصر على الأعـداء لسيدنا ومولانا السلطان المالك الملك المؤيد أبو النصر شيخ سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين مظهر الحق بالبراهين منصف المظلـومين زخر الأيتام والمنقطعين كنز الفقراء والمحتاجين صاحب العـالمين خادم الحرمين سيد مـلوك العرب والعجم السـلطان المالك الملك المؤيد أبو النصر شيخ أعز الله نصره ".

ويـكتنف رواق القبـلة قبتـان، الشمالـية مشيـدة من الحجر وهى عبارة عن مساحة مربعة طول ضـلعها عشرة أمتار ونصف المتـر. أرضيتها مفروشة بالرخام، ويشغل مناطق الانتقال تسعة صفوف من المقرنصات يفصل بينها نوافذ قندلية مركبة أى دوست، يعلوها رقبة بها عشـرون نافذة ومضاهيات معقودة مـدببة يغطيها قبة محـدبة ملسـاء من الداخل، يتـصدر جدارها الـشرقى محـراب مجوف غفل من الزخرفة، وبجدارها الجنوبى بـابان يفضيان إلى رواق القبـلة يغلق على كل منهما مصرعان من الخشب المطعم بالسن والـعاج والزنشان ويعلو كل منهما لوحة مدون عليها " بسم الله الرحمن الـرحيم وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا صدق الله العـظيم وصلى الله عـلى سيدنا مـحمد"، وهى تشـتمل على تركـيبتين من الرخام، الكبيرة تعلو قبر المنشئ وعليها كتابات كوفية بالنقش البارز، وتنتهى قوائم حروفها بـتوريقات نباتيـة نصها: " بسم الله الرحمـن الرحيم إن المتقين فى جنات وعيـون ادخلوها بـسلام أمنين ونزعـنا ما فى صدورهم من غـل إخوانا على سرر متقابلين لا يمـسهم فيها نصب وما هم بمخرجين ". يحيط بها مقصورة من خشب الخرط من عمل الأمير يشبك من مهدى الذى تزوج بخوند آسيا ابنة السلطان المؤيد شيخ، وأنجب منها الأمير يحيى المدفـون مع أبناء هذا السلطان، مدون عليها "أمر بإنشاء هذه المقصورة المباركـة مولانا المقر الأشرف الكريم العالى السيفى يشبك من مهدى أمير سلاح وأمير دوادار المالكى الأشرفى".

والتركـيبة الثانيـة تعلو قبر أبنـاء السلطان المؤيـد: الصارمى إبراهيم وإخوته المظفـر أحمد وأبو الـفتح موسى والأميـر يحيى بن خوند آسـيا، وهى تتألف من أجزاء غـير منسجمـة فى الشكل وفى الكتابـات المنقوشة على جـانبين فقط منها.

ويرجح المرحوم حسن عبد الوهاب أن كلاهما منقولتان عن أحد المنشآت الفاطمية، "لان للخط الكوفى فى عصر المماليك أسلوبا خاصا".

وملحق برواق القبلة أيضا فى طرفه الجنوبى قبة أخرى متهدمة لم يبق منها سوى مربعها المغطى بسقف خشبى مسطح، وأرضيتها مفروشة بالحجر، وهى مخصصة لدفن النساء، إذ تحتوى على تركيبتين من الرخام الغفل من الزخرفة، الشرقية منهما تعلو قبر زوجة المنشئ، والغربية تعلو قبر ابنته خوند آسيا التى توفيت فى سنة ٨٩٦ هـ/ ١٤٩١م وبهذه القبة أربعة أبواب، اثنان بالجدار الشمالى يؤديان إلى داخل رواق القبلة ويغلق على كل منهما مصراعان من الخشب المطعم، وباب فى الطرف الشمالى من الضلع الشرقى يفضى إلى مئذنتى الجامع، والرابع فى الطرف الشمالى من الضلع الغربى يؤدى إلى غرفة مربعة أضيفت فى عصر لاحق، كما يتصدر جدارها الشرقى محراب مجوف، يعلوه عقد مدبب نقش بطاقيته لفظ الجلالة باللون الأصفر.

أما فيما يتعلق بباقى الأروقة التى كانت تحيط بالصحن ونعنى بها كل من الرواق الغربى والشمالى والجنوبى فيفهم من وثيقة الوقف، أن الرواق الغربى المقابل لرواق القبلة كان يشتمل على بلاطتين على أعمدة من الرخام تحمل سقفا خشبيا مذهبا، وأرضيته كانت مفروشة بالبلاط المعصرانى، وكان به نوافذ تطل على الدهليز الفاصل بين الجامع وبين الميضأة والحمام ومساكن الطلبة، وبابان بفضيان إلى الدهليز المذكور.

وكان الرواق الشمالى يحتوى بدوره على بلاطتين بهما أعمدة من الرخام تحمل سقفا من الخشب المذهب، وبه شبابيك تطل على حارة الأشرقية لكل منهما مصراعين. كذلك كان الحال بالنسبة للرواق الجنوبى الذى كانت شبابيكه تطل على شارع أحمد ماهر، تحت الربع سابقا وكانت أرضيته أيضا مفروشه بالبلاط المعصرانى. وقد قام المجلس الأعلى للآثار مؤخرا بعملية ترميم شاملة للجامع وأعاد بناء الأروقة الثلاثة، واكتمل بذلك تخطيط الجامع بعد أن كان المتبقى منه

فقط يتمثل فى رواق القبلة الشرقى والواجهة الرئيسية وبقايا سقف الرواق الشمالى الذى جددته لجنة حفظ الآثار العربية فيما بين سنتى ١٣٠٥ - ١٣١٥ هـ/ ١٨٨٨ - ١٨٩٨م دون أن تعيد الزخارف إلى سابق عهدها، بالإضافة إلى المئذنتين المتماثلتين، التى تقوم كل منهما على برج من برجى زويلة، وهما مئذنتان رشيقتان لكل منهما ثلاثة طوابق ترتفع فوق قاعدة مربعة، الطابق الأول مثمن يزين أضلاعه حنايا معقودة، بأربع فتحات تتقدمها شرفة أو مشترفة ترتكز على ثلاثة صفوف من المقرنصات، يعلوه شرفة تقوم على أربعة صفوف من المقرنصات ويحيط بها دروة حجرية ذات زخارف هندسية مفرغة، تلتف حول الطابق الثانى وهو بدوره مثمن الأضلاع كسيت أضلاعه بخطوط متعرجة، بأعلاه أيضا شرفة تقوم بدورها على أربعة صفوف من المقرنصات ويحيط بها دروة حجرية ذات زخارف مفرغة، تلتف أيضا حول الطابق الثالث الذى يشتمل على ثمانية أعمدة رخامية، يعلوها دروة ثالثة على مقرنصات تلتف حول خوذة كمثرية الشكل، بأعلاها هلال نحاسى.

ومدون على المئذنة الشرقية بخط النسخ البارز النص التالى: "عمل هذه المئذنة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن القزاز وكان الفراغ أول رجب سنة اثنتين وعشرين وثمان مائة (٢٤يوليو ١٤١٩م)". وعلى المئذنة الغربية" أمر بإنشاء هذين (كذا) المنارتين المباركتين سيدنا ومولانا السلطان المالك الملك المؤيد أبو النصر شيخ عز نصره وذلك فى نظر العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن القزاز والفراغ فى شهر شعبان المعظم قدره سنة ثلاث وعشرين وثمان مائة (أغسطس ١٤٢٠م)".

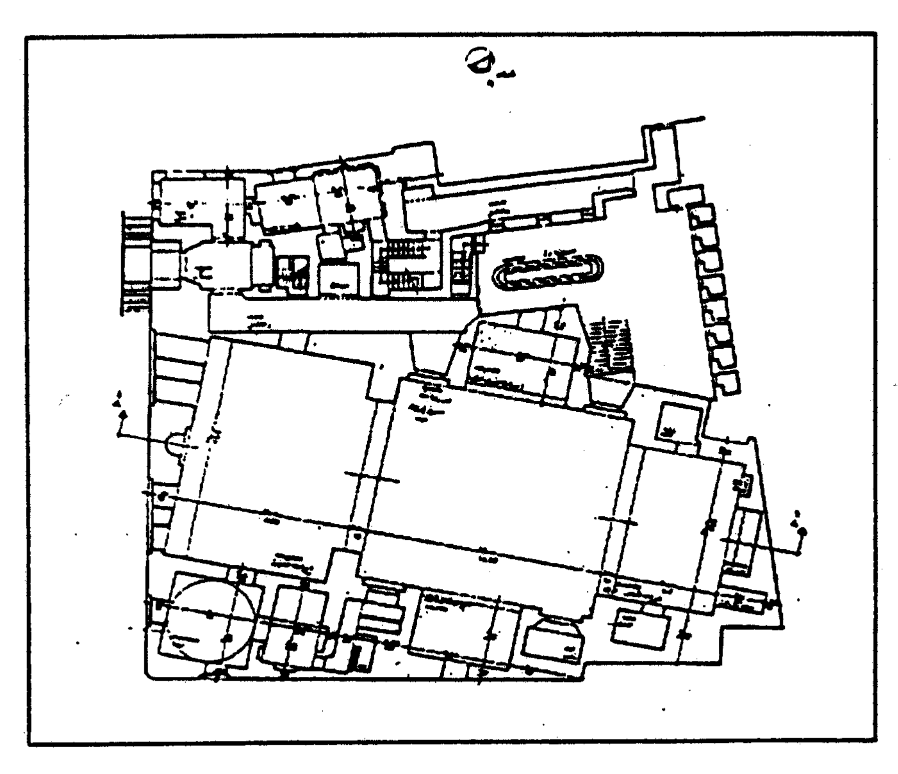
وجدير بالذكر أن جامع المؤيد شيخ شهد العديد من أعمال الترميم لعل أقدمها ما قام به الأمير يشبك من مهدى فى سنة ٨٨٤ هـ/ ١٤٧٩م، بأمر من السلطان الأشرف قايتباى، من تجديد للواجهة الشرقية وأزال ما تحت شبابيكها من الأخصاص والحوانيت، بيد أن المتعيشين أغاروا عليها من جديد فى العصر العثمانى.

وفى سنة ١٢٥٥ هـ/ ١٨٣٩م جدد محمد على نهاية الرواق الشرقى بناء على توصية من ناظر وقف الكلشنى كما يفهم من النص المتبقى" جدد هذا الرواق المبارك إبراهيم خادم فقراء كلشنى سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) عمر هذا المقام المبارك السيد إبراهيم بن السيد على خادم فقراء كلشنى سنة ١٢٥٥ هـ/ (١٨٣٩ م) ".

وجدد ديوان الأقاف فيما بين سنتى ١٢٨٧ - ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٠ - ١٨٧٤م واجهات الجامع الثلاث الشمالية والجنوبية والغربية، كما نوهنا من قبل وأخذت لجنة حفظ الآثار العربية أيضا على عاتقها العناية بالجامع منذ سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م فأزالت الدكاكين التى كانت بالواجهة الشرقية، وقومت العمد واستبدلت بعضها بعمد جديدة، وأصلحت سقف رواق القبلة وأعادته إلى سابق عهده، وأصلحت الباب النحاسى على المدخل الرئيسى وأصلحت الرخام بالجدران وبالمحراب، كما قامت بترميم دكة المبلغ وأصلحت قمة المئذنتين، وأنشأت البلاطة الثالثة برواق القبلة المشرفة على الصحن، كما جددت الفسقية بالصحن، وأصلحت المنبر والأبواب المفضية إلى القباب. وقد وصلنا لوحة تاريخية تشير إلى تعمير الجامع أيضا فى عهد الخديو توفيق سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م. كما قام المجلس الأعلى للآثار المصرية بعملية ترميم شامل للجامع أعادت إليه رونقه القديم فى عام ٢٠٠٦م.

مدرسة السلطان الأشرف برسباى:

تقع بشارع المعز لدين الله بحى الأشرفية، أنشأها السلطان الملك الأشرف برسباى الدقماقى الظاهرى فى مدة أولها شهر شعبان سنة ٨٢٦ هـ/ يوليو ١٤٢٢م وآخرها سلخ جمادى الأولى سنة ٨٢٧هـ/٣٠ أبريل ١٤٢٤م، كما جاء فى النص التذكارى الذى يتوج أعلى الواجهة الرئيسية، وذلك خلافا لما ورد فى المصادر التاريخية المعاصرة فقد روى المقريزى أنه فى يوم الجمعة سابع جمادى الأولى سنة ٨٢٧ هـ/ ٧ أبريل ١٤٢٤م أقيمت الخطبة بالجامع الأشرفى، ولم يكمل منه سوى الإيوان القبلى"، وخطب به الحموى الواعظ، على حين ذكر المؤرخ ابن حجر أنه



شكل (٧٣)

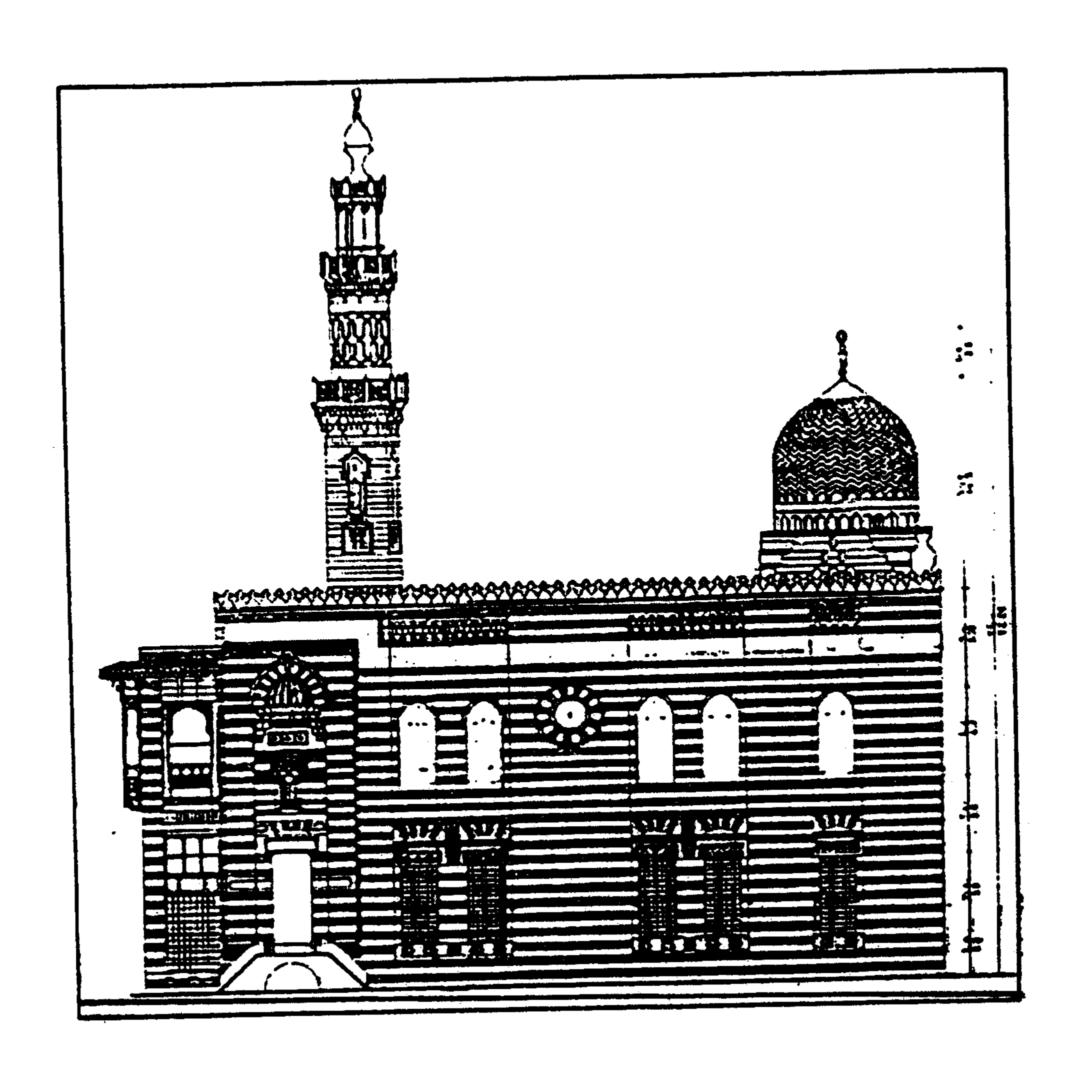
مسقط أفقى لمدرسة الأشرف برسباى، نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

فى "جمادى الأولى سنة ٨٢٨ هـ/ أبريل ١٤٢٥م كملت مدرسة السلطان... وقرر فيها شيخا وصوفية"، وهو يتفق مع رواية المؤرخ ابن إياس الذى أشار إلى أنه فى هذا الشهر" كملت عمارة المدرسة التى أنشاها السلطان... وقرر فيها حضورا وصوفية". وذلك على النقيض تماما مما ذكره كل من المرحوم حسن عبد الوهاب، والمرحومة سعاد ماهر نقلا عن الأخير من أن الفراغ منها كان فى سنة ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٦م مع أن الذى ورد فى تاريخ ابن إياس فى السنة المذكورة كان خاصا بتعليق تاج جانوس صاحب قبرص على باب هذه المدرسة إذ يقول: وفى شوال سنة ٨٢٩ هـ/ أغسطس ١٤٢٦م رسم السلطان" أن يعلق تاج جانوس صاحب قبرص على باب المدرسة الأشرفية التى أنشأها فى العنبرانيين المشهورة وهو

معلق إلى الآن" أى إلى القرن الحادى عشر الهجرى/ السابع عشر الميلادى وفقا لرواية المؤرخ الإسحاقى صاحب كتاب أخبار الأول. ويفهم أيضا من وثيقة الوقف أن وحدات هذه المدرسة اكتملت فى سنة ٨٣١ هـ/ ١٤٢٨م.

ويروى المقريزى كذلك أن هذه المدرسة" فيما بين المدرسة السيوفية وقيسارية العنبر. . . كان موضعها حوانيت تعلوها رباع، ومن ورائها ساحات كانت قياسر بعضها وقف على المدرسة القطبية فابتدأ الهدم فيها، بعدما استبدلت بغيرها، أول شهر رجب سنة ست وعشرين وثمانمائة (١٠ يونيو ١٤٢٣) وبنيت مكانها".

ولهذه المدرسة ثلاث واجهات، الرئيسية الشرقية مشيدة من الحجر المشهر يبلغ طولها حوالى سبعة وثلاثين مترا ونصف المتر وارتفاعها أربعة عشر مترا، وتطل على شارع المعز لدين الله وتضم القبة وإيوان القبلة وكتلة المدخل والمئذنة والسبيل، ويتوج أعلاها صف من الشرافات على هيئة أوراق نباتيه ثلاثية الشحمات، وتزدان بثلاثة تجاويف رأسية، يعلو كل منها صدر مقرنص من صفين، يليه إلى أسفل طراز من الكتابات النسخية البارزة نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا صدق الله العظيم. أنشأ هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا السلطان الأشرف أبو النصر برسباى خلد الله ملكه بمحمد وآله يارب العالمين وذلك بنظر العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الباسط ناظر الجيوش المنصورة غفر الله له وللمسلمين فى مدة أولها شهر شعبان من سنة ست وعشرين وثمانمائة (يوليو ١٤٢٢م). وآخرها سلخ جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وثمانمائة (٣٠ أبريل ١٤٢٤م)". وفتح فى كل تجويف صفين من النوافذ، العلوية مستطيلة ومعقودة بعقد مدبب، والأرضية مستطيلة ومغشاة برماح ومخرزات معدنية، يعلوها عقد مستقيم من صنجات حجرية معشقة بأعلاه عقد عاتق من صنجات معشقة أيضا، كما يفصل بين النوافذ العلوية فوق بروز المحراب قمرية مستديرة. وتشغل قبة المدفن الركن الشمالى الشرقى من هذه الواجهة، وهى قبة حجرية ذات قطاع محدب، يعلوها هلال نحاسى ويغطى بدنها



شكل (٧٤)

قطاع رأسى لمدرسة الأشرف برسباى، الواجهة الشرقية

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

الخارجى خطوط متعرجة مكررة، زجزاج، ويزين رقبتها إزار من الكتابات النسخية البارزة، تشتمل على آية الكرسى، يوجد أسفلها مجموعة من النوافذ المعقودة كما يشغل جوانب قاعدتها مجموعة من النوافذ السداسية أى قندلية مركبة، دوست.

أما كتلة المدخل فتحتل الطرف الجنوبى الشرقى من هذه الواجهة ويتقدمها صدفة أو بسطة من الرخام مزودة بسلالم على الجانبين، ويحيط بأعلاها دروة أوسياج من الرخام به عدة قوائم تنتهى ببابات مكورة تفضى إلى المدخل الذى يتصدره واجهة مغشاة بصفوف من الرخام الأبيض والأسود على التوالى، أبلق، يتوسطها تجويف غائر يتوجه من أعلى طاقية مدببة بها أضلاع مشعة، ترتكز على أرجل مقرنصة كانت مغرقة بماء الذهب واللاذورد، يحدها من أسفل بلاطة مستطيلة تشتمل على رنك البقجة شعار الجمدار مكرر ثلاث مرات، وهو أمر يثير الدهشة لأن السلطان الأشرف برسباى لم يشغل وظيفة الجمدارية وقت أن كان أميرا بالبلاط السلطانى، بل على العكس شغل وظيفة السقاية ضمن ما شغلة من الوظائف قبل أن يرقى السلطنة. وأسفل هذه الرنوك الثلاثة شباك مستطيل يغشيه رماح ومخرزات نحاسية، ويعلوه صدر مقرنص من صفين.

وتشغل فتحة المدخل مستطيل يغلق عليه باب من خشب الجوز يتألف من مصراعين مصحفين بالنحاس يزينهما فى الوسط بخاريتان وأجزاء منها فى الأركان، تتخللها أربعة رنوك كتابية باسم المنشئ وتاريخ تجديد هذا الباب فى سنة ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤م. يعلوه عقد مستقيم من رخام يلتف حوله إطار من رخام دقيق ملون يزدان بأطباق نجمية متعددة، بأعلاه نفيس من رخام به زخارف نباتية مورقة، يعلوه عقد عاتق من صنج معشقة، يكتنفه على الجانبين رنك كتابى باسم السلطان الأشرف برسباينقش عليه النص التالى: "عز مولانا السلطان الملك الأشرف عز نصره" كما يكتنف فتحة المدخل من أسفل مكسلتان من الحجر يعلوهما ازار من كتابات نسخية بارزة نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا صدق الله العظيم، أنشأ هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان، سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محى العدل فى

العالمين قسيم أمير المؤمنين خادم الحرمين الشريفين المالك الملك الأشرف خلد الله ملكه".

وتضم هذه الواجهة أيضا على يمين كتلة المدخل، مئذنة ثلاثية الطوابق، الأول منها مربع التخطيط، يشغل كل ضلع من أضلاعه حنية يعلوها عقد منكسر ويتقدمها شرفة أو مشترفة بارزة ترتكز على صفين من المقرنصات، ويتوج هذا الطابق شريط من الكتابات النسخية تشتمل على آيات قرآنية، يعلوها شرفة مربعة تستند على صفوف من المقرنصات ويلتف حولها دروة أو سياج حجرى مفرغ، يدور حول الطابق الثانى وهو أسطوانى الشكل يزينه جفوت متقاطعة يربطها ميمات بارزة، يتوج قمته العليا شريط من الكتابات النسخية القرآنية، فوقه شرفة ثانية ذات دروة حجرية مفرغة، ترتكز بدورها على عدة صفوف من المقرنصات، وهى تلتف بدورها حول الطابق الثالث الذى يضم ثمانية أعمدة يعلوها عقود مفصصة، يرتفع فوقها شرفة ثالثة تدور حول خوذة المئذنة التى شكلت على هيئة قلة يعلوها هلال نحاسى.

ويفهم من وثيقة وقف المدرسة أنه كان مرتبا لها تسعة من المؤذنين من حسنى الصوت، يعلنون بالأذان المشروع فى الأوقات الخمس على مئذنة المدرسة ويسلمون على سيدنا محمد ﷺ، وفى يوم الجمعة ينشد أحسنهم صوتا ما تيسر من مديح النبى، ثم يدعو عقب ذلك للسلطان المنشئ، ويذكرون فى الأسحار، ويسحرون فى رمضان وينهضون الناس كل يوم جمعة لصلاة الجمعة ويعلنون بالإقامة، يتناوبون ذلك بينهم بحيث ينفرد كل ثلاثة منهم نوبة، إلا فى يوم الجمعة فيجتمعون على المئذنة وعلى الدكة تجاه الخطيب، يؤذنون بالأذان المشروع، وبعد فراغ الصلاة يسبحون ويحمدون ويكبرون الله تعالى.

وتنتهى هذه الواجهة فى طرفها الشرقى بسبيل يعلوه كتاب، واجهتهما مغايرة لباقى واجهة المدرسة إذ تحتوى واجهة السبيل على شباك يغشية مصبعات معدنية يعلوها حشوة خشبية تشتمل على سطرين من الكتابات النسخية نصهما: "أمر بإنشاء هذا المكان المبارك ابتغاء لوجه الله تعالى وطلبا لرضوانه سيدنا ومولانا

السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر برسباى خلد الله ملكه". ويعلو السبيل كتاب له شرفة ترتكز على كوابيل خشبية بارزة ويحيط بها سياج من الخشب ويعلوها رفرف خشبى يحمله أربعة أعمدة خشبية.

وتطل الواجهة الشمالية للمدرسة على حارة الأشرفية وهى تتسم بالبساطة ولا تمت بصلة إلى أصل المدرسة حيث أقيم لصقها فى وقت ما مجموعة من المبانى تم إزالتها وبذا لم يعد باقيا سوى بضع نوافذ، وتجويف بجدار القبة الشمالى يعلوه صدر مقرنص.

أما فيما يتعلق بالواجهة الثالثة الجنوبية فهى تطل على شارع الحمزاوى الصغير ويحجبها عدة محلات تجارية، ولا يظهر منها سوى الشباك الجنوبى للسبيل وهو مغشى بحجاب من المصبعات المعدنية، يعلوه الشرفة الثانية للكتاب، وهى معقودة بعقد منكسر ويتوجها رفرف خشبى.

ويفضى مدخل المدرسة السابق الإشارة إليه إلى دركاه مستطيلة ذات أرضية رخامية، يعلوها سقف خشبى تتوسطه جامة محارية مذهبة، يتصدر جدارها الغربى مصطبة يعلوها شباك مربع يغشية مصبعات خشبية، ويكتنفها على الجانبين بابان معقودان بعقد مدبب، الأيسر منهما أى الجنوبى، يؤدى إلى حجرة السبيل وهى ذات مساحة مستطيلة ومزودة بشباكين، يغشى كل منهما مصبعات معدنية، يطل أحدهما على شارع المعز، والآخر على شارع الحمزاوى الصغير، أرضيتها مفروشة برخام ملون دقيق، خردة، بتكوينات هندسية بديعة، وسقفها من الخشب المجلد بالذهب والألوان. أشارت وثيقة الوقف إلى ترتيب مزملاتى له يسقى الماء بالسبيل فى النهار فيما عدا شهر رمضان فيكون ذلك بعد صلاة المغرب إلى العشاء.

ويعلو هذا السبيل، كما سبق أن أوضحنا من قبل، كتاب له نفس مساحة السبيل، ألحق به كما جاء فى وثيقة الوقف ثلاثون يتيما من أيتام المسلمين" يتعلمون كتاب الله العزيز والخط العربى حسب طاقتهم من التعليم" ويشرف

عليهم مؤدب اشترطت فيه الوثيقة أن يكون من أهل العفة والصلاة، حافظا كتاب الله تعالى.

ويفضى الباب الأيمن للدركاة أى الشمالى، إلى دهليز مستطيل، ذو أرضية رخامية وسقف خشبى مذهب وملون، بضلعه الأيسر، الجنوبى، باب يؤدى إلى السلم الصاعد إلى السطح العلوى والمئذنة، يليه غربا مزيرة، يغطى فتحتها حجاب من خشب الخرط، مدون عليه بخط النسخ النص التالى: " بسم الله الرحمن الرحيم إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا"، يليه غربا باب آخر يؤدى إلى إحدى المدارس الفرعية خلف المزيرة، كما يوجد فى نهاية الدهليز باب ثالث يفضى إلى الميضأة التى تشغل الجنوب الغربى من المدرسة. على حين يشغل الضلع الأيمن للدهليز أى الشمالى شباك يفتح على إيوان القبلة الشرقى مغشى بحجاب من المصبعات المعدنية، ينكسر بعده الدهليز شمالا حيث يؤدى إلى فتحة يغلق عليها باب ذو مصراعين من الخشب، تفضى إلى داخل صحن أوسط مكشوف، يحيط به أربعة إيوانات، وأربعة أبواب جانبية نفذت داخل تجاويف راسية، يتوج كل منها صدر مقرنص من صفين، ويعلو كل باب عقد مستقيم من صنج حجرية معشقة، فوقه عقد عاتق من صنج معشقة أيضا، بأعلاه نافذتان يغطيهما حجاب من مصبعات خشبية. الباب الجنوبى الشرقى منها يتصل بالدهليز المنبثق من دركاه المدخل، والثانى المقابل له أى الشمالى الشرقى يفضى إلى قبة المنشئ، والثالث الجنوبى الغربى يؤدى إلى الميضأة، والرابع المقابل له أى الشمالى الغربى يفضى إلى خلوة.

ويحيط بأعلى جدران هذا الصحن آيات قرآنية من سورة النور، يليها النص التالى: "... أنشأ هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين منصف المظلومين من الظالمين خادم الحرمين الشريفين الملك الأشرف خلد الله ملكه".

ويتوج واجهة الإيوانات الأربعة المطلة على الصحن عقد مدبب، الشرقى والغربى على شكل قوصرة أى حدوة الفرس بأرجل مقرنصة يحدده جفت لاعب ينعقد فى أعلاه بميمة دائرية الشكل. ويشغل الضلع الشرقى للصحن إيوان القبلة وهو مستطيل الشكل، وأرضيته مفروشة بالرخام الملون فى تصميمات هندسية بديعة، وجدرانه كانت مكسية بالرخام لم يبق منها سوى كسوة جدار القبلة وقد إرتفعت لارتفاع المحراب وبها أثر تذهيب. والمحراب مجوف وطاقيته مزينة بخطوط متعرجة، ومعقودة بعقد مدبب يتألف من صنج رخامية معشقة، ترتكز على عمودين مثمنين من الرخام، على حين يزين البدن زخارف رخامية ملونة، تضم زخرفة الدقماق وأشكال محاريب مكررة، وبأعلاه كتابة نسخية تشتمل على بضعة آيات قرآنية من سورة البقرة، وعلى جانبيه كتابة آخرى تشير إلى قيام لجنة حفظ الآثار العربية بترميم هذا الإيوان نصها: " جددت لجنة حفظ الآثار العربية هذه الوزرة والأرضية الرخامية فى عصر خديو مصر المعظم الحاج عباس حلمى باشا الثانى أدام الله أيامه وذلك فى سنة ١٣٣٠ من الهجرة(١٩١٢ م)" .

ويوجدإلى يمين المحراب منبر خشبى دقيق الصناعة يزين ريشتاه أطباق نجمية وأجزاء منها طعمت حشواتها، وأبوابه ودرابزينه بالسن والزرنشان، ويعلو بابه نص تاريخى بخط النسخ المملوكى جاء فيه " أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف عز نصره" ، كما يوجد على جانبى المحراب والمنبر أربع دخلات معقودة بواقع دخلتين على كل جانب، فتح بكل منها شباك أرضى يغلق عليه مصراعان من الخشب، يعلوه نافذة جصية معقودة بعقد مدبب ومعشقة بزجاج ملون، يتوسطهما قمرية مستديرة بأعلى المحراب. وفتح أيضا فى الضلع الجنوبى لهذا الإيوان نافذة تطل على الدهليز المنبثق من دركاه المدخل، يعلوها أخرى جصية معقودة بعقد مدبب، يقابلها فى الضلع الشمالى لنفس الإيوان شباك يطل على قبة المدفن، يعلوه أيضا نافذة جصية معقودة بدورها بعقد مدبب. وبهذا الإيوان أيضا كرسى مصحف مطعم بحشوات من السن تؤلف أشكالا هندسية، يذكرنا بنظيره فى مدرسة الظاهر برقوق.

ويسقف هذا الإيوان سقف خشبى ذى براطيم تنتهى بكرادى بسراويلات، مجلد بالذهب والألوان يختلف فى طرازه عن باقى أسقف المدرسة الخشبية، ويقابل إيوان القبلة إيوان غربى، مستطيل الشكل ولكنه أصغر حجما، أرضيته مفروشة أيضا بالرخام، يتصدر جداره الغربى، كما جاء فى وثيقة الوقف، صفة معقودة بعقد مدبب من الحجر المشهر، كان يعلوها ويكتنفها بابان يغلق على كل منهما مصراعان من الخشب، خصصت الشمالية لشيخ أحد المذاهب الأربعة، وجعلت الآخرى أى الجنوبية لخزن الكتب والمصاحف الشريفة، كما فتح فى الضلعين الشمالى والجنوبى لهذا الإيوان بابان يعلو كل منهما نافذتان مستطيلتان إحداهما فوق الآخرى، وهما يؤديان إلى خلوتين. ويغطى هذا الإيوان أيضا سقف خشبى يذكرنا بالقسم الأوسط من سقف إيوان القبلة بمدرسة الظاهر برقوق، يزينه وريدات متعددة الفصوص، مذهبة وملونة، ويحده من أسفل إزار من كتابات نسخية من آية الكرسى.

ويحيط بأعلى جدران إيوان القبلة الشرقى، والإيوان الغربى المقابل له، ازار من كتابات نسخية بارزة تشتمل على نص وقفية السلطان الأشرف برسباى على هذه المدرسة وغيرها من المنشآت الآخرى التى قام بإنشائها، جاء فيه: " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بكتابة هذا السطر المبارك مولانا المقام الشريف السلطان الملك الأشرف برسباى خلد الله ملكه تذكرة لمن نظر هذه المدرسة وأصان (كذا) الجهات الموقوفه عليها وعلى ذريته وغير ذلك علىّ ما يشهد به كتاب الوقف المبرور، فمن ذلك ما هو مختص بالمدرسة والوكالة بالركن المخلق والحوانيت والمقاعد وعلوها تجاه المدرسة... حسبما تشهد بذلك كتب الأوقاف الثابتة المحكوم بصحتها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر يعلم أنه إلى ربه الكريم صائر أن يغير ذلك ولا شيئا منه. فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم".

أما فيما يتعلق بالإيوانين الشمالى والجنوبى فهما أصغر حجما، وأشبه بسدلتين متماثلتين وتطلان على الصحن بعقد مدبب مستدق، فتح بصدر كل منهما

حنية معقودة بعقد مدائنى ثلاثى الفصوص بداخلها شباك مستطيل، يعلوها شباك آخر معقود بعقد مدبب يغشيه ستارة جصية معشقة بزجاج ملون. ويغطى كل منهما سقف خشبى من براطيم ذات مربوعات.

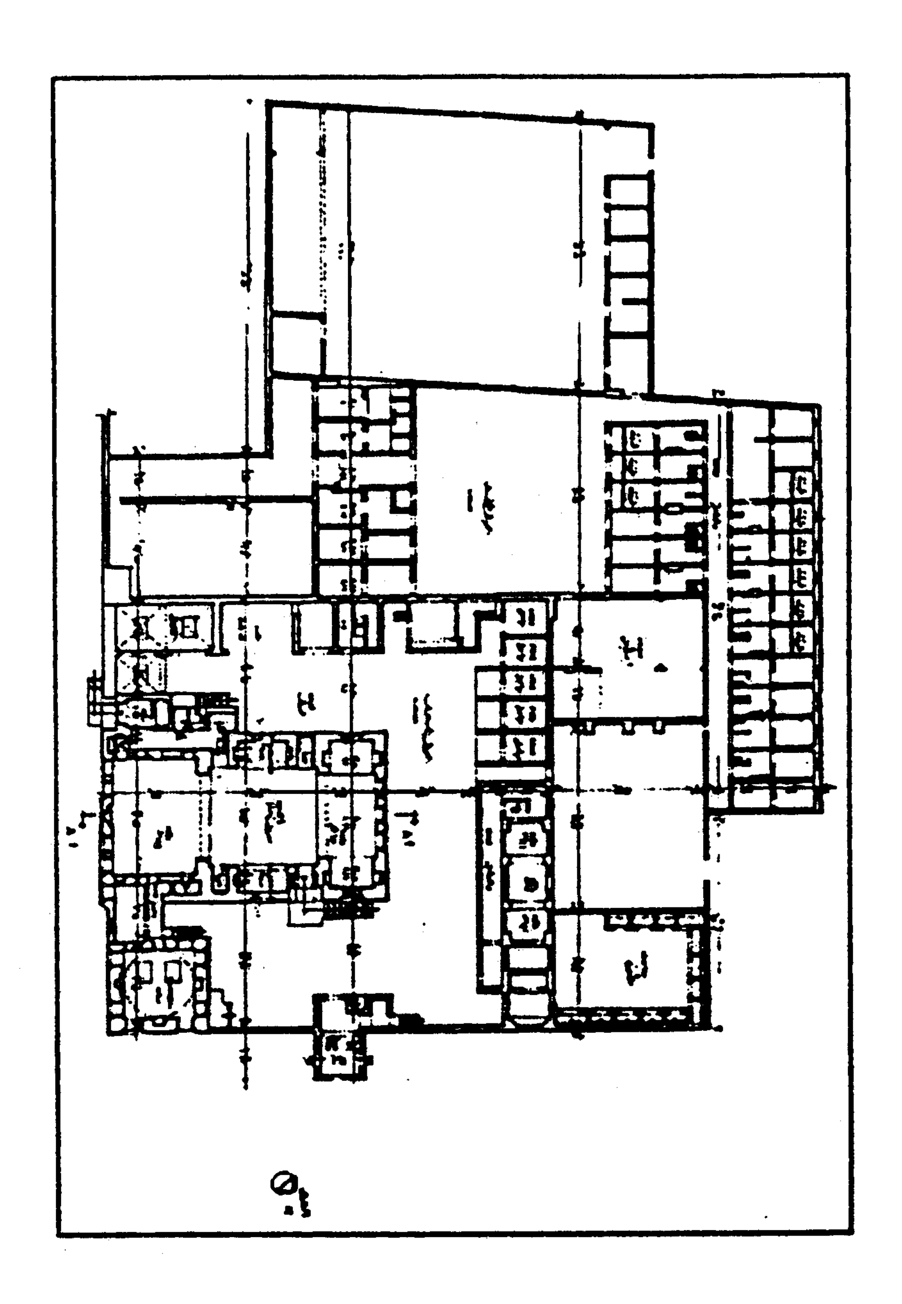
وقبة المنشئ التى تشغل الزاوية الشمالية الشرقية من المدرسة على يسار إيوان القبلة، ويتم التوصل إليها من باب الصحن الشمالى الشرقى عن طريق ممر منكسر، يعلوه سقف خشبى من براطيم ومربوعات، يتوسطها صرة بها وريدة ثمانية الشحمات، يفتح على سدلة صغيرة، أقيم على مدخلها حجاب من خشب الخرط مدون عليه بخط النسخ، النص التالى: " بسم الله الرحمن الرحيم كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز"، وهى حجرة مربعة طول ضلعها ستة أمتار ونصف المتر، وأرضيتها مفروشة بالرخام، يعلوها قبة حجرية غفل من الزخرفة ترتكز على رقبة أسطوانية يزينها ست عشرة نافذة معقودة، ترتفع بدورها فوق مناطق انتقال تتألف من ستة صفوف من المقرنصات يفصل بينها مجموعات سداسية من نوافذ قندلية مركبة أى دوست، ويتوسطها مقصورة من خشب الخرط، يعلوها أربع بابات فى الأركان، تحيط بتركيبتين من الرخام، الكبيرة منهما دون عليها بخط النسخ العبارة التالية: "هذا ضريح المرحومة فاطمة جهة المقام الشريف الأشرف"، وهى زوجة السلطان الأشرف برسباى خوند جلبان وأم ولده الناصرى محمد التى توفيت فى ١٥ جمادى الآخرة سنة ٨٢٧ هـ/ ١٥ مايو ١٤٢٤م، والتركيبة الثانية تعلو قبر ابنه الناصرى محمد الذى توفى فى ٢٦ جمادى الأولى سنة ٨٣٣ هـ/ ٢٠ فبراير ١٤٣٠ م. ومن المعروف أن السلطان برسباى لم يدفن فى هذه القبة، بل دفن فى الخانقاه التى شيدها بقرافة المماليك الشرقية فى سنة ٨٣٥ هـ/ ١٤٣٢ م.

مدرسة وخانقاه السلطان الأشرف إينال:

تقع بشارع السلطان أحمد بالطرف الشمالى من قرافة المماليك بالدرسة، أنشأها السلطان الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال العلائى الظاهرى الأجرود على ثلاث مراحل مختلفة أشارات إليها المصادر التاريخية وأيدتها النصوص التذكارية المسجلة على جدران المنشأة، أولها كانت القبة التى كان الفراغ منها فى مستهل المحرم سنة ٨٥٥ هـ/ ٣ فبراير ١٤٥١م، وثانيها الخانقاه التى تم الانتهاء منها فى المحرم سنة ٨٥٨ هـ/ يناير ١٤٥٤ م، وثالثها المدرسة التى أمر بإنشائها فى ربيع الأول سنة ٨٦٠ هـ/ أبريل ١٤٥٦ م. فجاءت حسب تعبير المؤرخ ابن إياس" مدرسة حافلة لم يعمر فى الصحراء مثلها، وكان مصروف ذلك من مال ناظر الخاص يوسف، دون مال السلطان، فقيل أنه صرف عليها اثنى عشر الف دينار وزيادة على ذلك، وأنشأ زاوية تجاه هذه المدرسة وحوشا لدفن جماعة السلطان" . وأضاف أيضا أنه بعد الانتهاء من عمارتها فى سنة ٨٦٠ هـ/ ١٤٥٦م عمل السلطان وليمة حافلة وحضر القضاة الأربعة والأمراء وأعيان الناس ومد بها الاسمطة الحافلة وكان يوما مشهودا" .

ولهذه المدرسة أربع واجهات، الرئيسية الشرقية مشيدة من الحجر المشهر، يغلب على شكلها العام عدم التناسق والتناغم، إذ تشغل القبة الطرف الشمالى الشرقى منها، وتشغل كتلة المدخل متصفها، وتشغل المئذنة الطرف الجنوبى الشرقى، وكل منها يبدو أشبه بوحدة مستقلة عن الآخر نظرا لأن وحداتها آقيمت على فترات متعددة، الأمر الذى أفضى إلى تفكك عناصرها وانعدام الترابط بين مكوناتها من قبة ومدرسة وخانقاه ومئذنة.

والقبة مشيدة من الحجر، ويزين خارجها خطوط بارزة متعرجة متلاحقة، زجزاج، ينتهى الصف الأخير منهما بميمات مستديرة، ويعلو قمتها هلال نحاسى، كما يحيط برقبتها مجموعة من النوافذ المعقودة، وبقاعدتها أربع مجموعات من نوافذ قندلية مركبة أى دوست، وتزدان واجهتها الشرقية بدخلتين راسيتين، يتوج كل منهما صدر مقرنص، يجرى تحته بامتداد الواجهة الشمالية والشرقية إزار من



شكل (٧٥)

مسقط أفقي لمدرسة وخانقاه الأشرف إينال

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

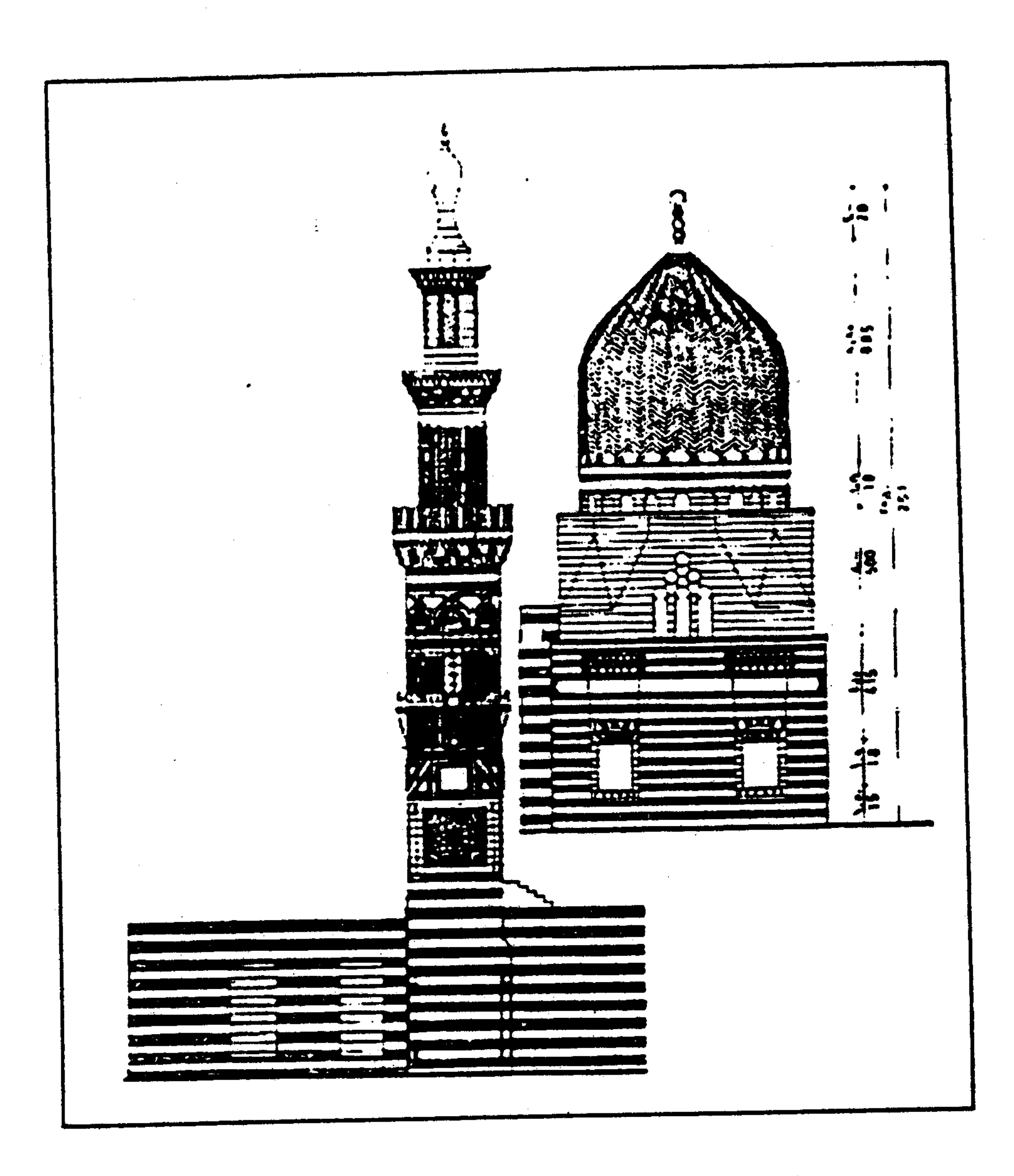
كتابات نسخية نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقونى يا أولى الألباب. أمر بإنشاء هذه القبة المباركة من فضل الله تعالى/ المقر الأشرف الكريم العالى المولوى الأميرى الكبير السيدى السندى الزخرى العضدى الهمامى النظامى الأوحدى الأمجدى السيفى إينال العلائى الأتابكى أتابك العساكر المنصورة المجاهد فى سبيل الله أعز الله أنصاره وكان الفراغ منها فى مستهل محرم افتتاح عام خمس وخمسين وثمانمائة(٣ فبراير ١٤٥١ م)". ويكشف هذا النص عن تشييد هذه القبة قبل ولاية إينال للسلطنة بعامين. وفتح بكل دخلة شباك مستطيل، مسدود فى الوقت الحالى، يعلوه عقد مستقيم، يرتفع فوقه عقد عاتق، وكلاهما من صنج حجرية معشقة. وبواجهة إيوان القبلة من الخارج دخلتان رأسيتان أيضا، يعلو كل منهما صدر مقرنص من ثلاثة صفوف، فتح فى كل دخلة أربعة نوافذ وزعت على صفين يعلو بعضها البعض، العلويتان معقودتان بعقد مدبب، ويفصل بينهما فوق بروز المحراب بالإيوان المذكور قمرية مستديرة يحيط بها إطار حجرى مربع. والنافذتان الأرضيتان لهما شكل مستطيل، ويعلو كل منهما عقد مستقيم يزينه زخارف نباتية وهندسية بارزة، يعلوه عقد عاتق من صنج حجرية معشقة.

ويتوسط هذه الواجهة كتلة المدخل الرئيسى لهذه المجموعة المعمارية، ويتقدمه بقايا صدفة أو بسطة، لم يتبق منها سوى جانبها الأيمن فقط، تفضى إلى مدخل هذه المدرسة التى تعد من المنشآت المعلقة، لأنها مشيدة فوق مجموعة من الحواصل السفلية ذات أبواب معقودة بعقود مدببه. وواجهة المدخل مزينة فى أعلاها بصف من شرافات حجرية على هيئة أوراق نباتية ثلاثية الشحمات، ومحددة بجفت لاعب من ميمات دائرية، ويخترقها تجويف رأسى غائر، يتوجه من أعلى عقد مداتنى ثلاثى الفصوص، يضم بداخلة طاقية ترتكز على مقرنصات ركنية، فتح فى صدرها شباك صغير داخل حنية معقودة، نقش أسفله شريط من كتابات نسخية قرآنية نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا صدق الله

العظيم". وأسفل هذا الأزار دخلة بها نافذة مستطيلة الشكل لإنارة وتهوية الدركاة، يعلوها صدر مقرنص، يكتنفه على الجانبين رنك كتابى باسم السلطان إينال نصه: "أبو النصر إينال/ عز لمولانا السلطان الملك الأشرف/ عز نصره".

أما فتحة المدخل فيغلق عليها فى الوقت الحالى باب من الحديد، يعلوه عقد مستقيم، ويكتنفه من أسفل مكسلتين من الحجر، يعلوهما على جانبى عضادتى المدخل كتابة نسخية نصها: "إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآت الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين/ مالك الملك الأشرف أبو النصر إينال خلد الله ملكه وثبت قواعد دولته بمحمد وآله بتاريخ عام ستين وثمانمائة (١٤٥٦م)".

وتشغل المئذنة الطرف الجنوبى من هذه الواجهة على يسار المدخل، وتبدو منفصلة تماما عن المنشأة، وهى تتسم بالرشاقة وغنية بزخارفها النباتية والهندسية ونقوشها الكتابية، وتشتمل على ثلاثة طوابق ترتفع فوق قاعدة مربعة زينت جوانبها بنقوش نباتية بارزة. الطابق الأول منها مثمن الشكل، يزين أضلاعه حنايا معقودة بعقود مشعة منكسرة، يتوجها جفت لاعب، ترتكز على أعمدة حلزونية. فتح فى أربعة أضلاع منه نوافذ يتقدمها شرفة أو مشترفة بارزة إلى الخارج تقوم فوق عدة صفوف من المقرنصات، وبأعلاه شريط من كتابات نسخية قرآنية، يعلوها شرفة تقوم فوق قاعدة من المقرنصات، ويحيط بها دروة أو سياج حجرى مفرغ بأشكال هندسية، تلتف حول الطابق الثانى وهو أسطوانى الشكل، وتأتى الواجهة الثانية للمبنى أى الشمالية فى المرتبة الثانية رغم أنها تشتمل على مدخل فرعى يقع جهة الغرب، يتقدمه صدفة أو بسطة حجرية، تفضى إلى مدخل يقع داخل تجويف غائر يتوجه أيضا عقد مدائنى ثلاثى الفصوص بداخله صدر مقرنص، يعلوه شريط من كتابات نسخية نصها: "اللهم أدم العز والبقاء والعلو والارتقاء والنصر على الأعداء ببقاء مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر إينال عز نصره". كما يوجد على جانبيه فى تواشيح العقد نص آخر جاء فيه: "أمر بإنشاء هذه الخانقاه السعيدة السلطان/ الملك الأشرف أبو النصر وكان الفراغ منه فى شهر المحرم سنة ثمان



شكل (٧٦)

قطاع رأسى لمدرسة وخانقاه الأشرف إينال، القبة والمئذنة

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

وخمسين وثمانمائة (يناير ١٤٥٤ م)"، كما يزين المدخل زخارف متنوعة من عناصر هندسية ونقوش نباتية متداخلة متشابكة، ويعلوه نافذة مربعة، ويكتنفه من أسفل مكسلتان من الحجر يعلوهما على عضادتى المدخل كتابة نسخية نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير. أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا السلطان المالك الملك الشرف أبو النصر إينال عز نصره بتاريخ شهر ربيع الأول عام ستين وثمانمائة (أبريل ١٤٥٦ م)".

ويتوسط هذه الواجهة أيضا بروزا يمثل حجرة السبيل الملحق بهذه المنشأة، وهى مزودة بثلاث نوافذ تحتل جدرانها الشمالية والشرقية والغربية، الأخيرة مغلقة فى الوقت الحالى ويعلوها عقد مستقيم يعلوه كتابات نسخية بارزة نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم وسقاهم ربهم شرابا طهورا صدق الله العظيم". كما يعلو النافذة الشرقية كتابة أخرى نصها: "إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا".

وتضم هذه الواجهة كذلك، الواجهة الشمالية لقبة المدفن وهى تشتمل على دخلتين رأسيتين يتوج كل منهما صدر مقرنص، يجرى تحته بامتداد الواجهة إزار من كتابات نسخية تستمر أيضا على الواجهة الشرقية للقبة كما سبق أن نوهنا من قبل، وفتح أيضا بكل دخلة شباك مستطيل مسدود فى الوقت الحالى، يعلوه عقد مستقيم، يرتفع فوقه عقد عاتق، وكلاهما من صنج حجرية كما هو الحال بالنسبة للواجهة الشرقية الخاصة بهذه القبة.

أما فيما يتعلق بالواجهتين الغربية والجنوبية فيلاحظ أن الأولى تزدان بنوافذ الطباق المخصصة لايواء المتصوفه، على حين تلاصق الثانية أى الجنوبية مجموعة الأمير قرقماس، المعروف بأمير كبير التى أضيفت فى وقت لاحق فيما بين سنتى ٩١١ - ٩١٣ هـ/ ١٥٠٥ - ١٥٠٧ م.

ويفضى المدخل الرئيسى الذى يتوسط الواجهة الشرقية إلى داخل المدرسة عن طريق دركاه مستطيلة، بصدرها الغربى مصطبة كانت مخصصة لجلوس

المقرئ، يـرجح أنها كانت مسقوفة بسقف خـشبى مجلد بالذهب والألوان، يوجد على يمينهـا أى فى ضلعها الـشمالى باب معـقود يؤدى إلى دهليـز طويل منكسر يـوجد فى نهايته الشرقية حجرة صغـيرة شبه مربعة تفضى إلى داخل إيوان القبلة، يرجح أنها كانـت مخصصة لخطـيب المدرسة، كما يـوجد بالضلع الـشمالى لهذا الدهليـز نافذة تطل على إيـوان القبلة، يـليها غربـا باب يفضى إلى داخل صحن المدرسة التى تطلق عليه وثيقة الوقف مصطلح الدور قاعة. ويشغل الضلع الجنوبى للدهليز باب يؤدى إلى سلم المئذنة ومسكن علوى يضم خلوتين كما جاء فى وثيقة الوقف، كـما يشغل نهاية هذا الـضلع دخلة عميقة كـانت تستخدم كبيت أزيار أو مزملة.

ويفهم من رواية المؤرخ ابن تغرى بردى أن الـسلطان إينال أمر أن تعمر هذه المدرسـة " بأربعة أواوين وأن تجعل خانـقاه" . وتخطيط هذه المـدرسة يضم بالفعل صحن يتعامد عليه أربعة إيوانات، أكبرها إيوان القبلة الشرقى. والصحن أو الدور قاعة مربع الشكل، طول ضـلعه حوالى عشرة أمتار ونـصف المتر، وهو مكشوف سماوى فى الوقت الحالى وكان فى الأصل مسقف عراقى أى يغطيه عروق خشب تشكل مثمنا بوسطه فتحة تسمى شخشيخة، نقش دائره من أعلى بإزار من كتابات نسخـية تبدأ من الجهة الشرقيـة نصها: " أمر بإنشاء (هـذه) المدرسة المباركة سيدنا ومـولانا الإمام الأعظم المـالك الملك الأشرف أبو الـنصر (إينـال) سلطان الإسلام والمسلمين (قاتل الكفرة) والمشركين محى العدل فى العالمين كهف الفقراء والمساكين ذخر/ الأرامل والمنقطـعين حامى حوزة الدين صاحب السيف والقلم والبند والعلم أفضل من حكم فى عصر بالحـكم ملك البرين والبحـرين خادم الحرمين الشريفين صاحب الديار المصرية والـبلاد الشامية والأقطار الحجازية والثغور السكندرية سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشـرف أبو النصر إينال خلد الله ملكه وثبت قواعد دولته بمحمـد وآله وذلك بمباشرة المقر الأشرف الصاحـبى الجمالى ناظر الجيوش المنصورة والخواص الشريفة المـلكى الأشرفى عز نصره/ وكان ابتـداء عمارة المدرسة المباركة السعـيدة فى شهر ذى القعدة الحرام وآخرهـا فى شهر ربيع الأول المبارك عام ستين

وثمانمائة (أكتوبر ١٤٥٥ - أبريل١٤٥٦م) أحسن الله عاقبتها بمحمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا يا رب العالمين".

وهذا يعنى ببساطة أن بناء هذه المدرسة استغرق سبعةأشهر فقط، وهو أمر يصعب تصديقه والأخذ به، ويكشف لنا عن عدم صحة ما يرد فى كثير من النصوص التاريخية المنقوشة على المنشآت المعمارية، من محاولة لتقصير مدة التشييد بقصد الإطناب فى قوة المنشئ لهذه العمائر.

ويشتمل الصحن أيضا على أربعة أبواب، اثنان بالضلع الشمالى، ومثلها بالضلع الجنوبى إلى خلوة مستطيلة الشكل أيضا. أما الباب الشرقى بالضلع الجنوبى، يعلو كل منهم عقد مستقيم، فوقه عاتق من صنج حجرية مشهرة، يعلوه حنية صماء معقودة بعقد منكسر ذى أضلاع مشعة يرتكز على عمودين من الرخام، بداخلها حنية أخرى أصغر حجما، يتوجها عقد مفصص. الباب الشمالى الشرقى يفضى إلى خلوة مستطيلة، والباب الشمالى الغربى إلى سلم يؤدى إلى الحوش الشمالى والخانقاه والميضأة، على حين يفضى الباب المقابل له بالضلع المذكور فيتصل بدهليز المدخل السابق الإشارة إليه.

ويشغل الضلع الشرقى للصحن إيوان القبلة، وهومستطيل الشكل يطل على الصحن من خلال قوصرة من الحجر المشهر، ذات أرجل مقرنصة، يحددها جفت لاعب ذو ميمات دائرية. كان يغطيه براطيم خشبية تحصر بينها مربوعات وتماسيح مجلدة بالذهب والألوان، يحدها من أسفل إزار من كتابات نسخية قرآنية من سورة الفتح، كما كانت جدرانه مؤزة بأقطاب من رخام ملون، كرندازات، متعددة الأشكال، ويتوسط صدر جداره الشرقى محراب مجوف يتوجه عقد مدبب يضم بداخله مجموعة من العقود المتلاحقة شكلت بجفوت لاعبة بداخلها ميمات دائرية، كان يرتكز على زوجين من الأعمدة، لا وجود لهما فى الوقت الحالى، بداخله طاقية ذات زخارف مشعة، وببدنه بقايا زخارف من رخام خردة تمثل أطباقا نجمية بالإضافة إلى بقايا من كتابات نسخية نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم قد نرى تقلب وجهك فى السماء... فولوا وجوهكم شطره صدق الله العظيم".

ويوجد على جانبى المحراب أربع نوافذ أخرى معقودة، مغشاة حاليا بالآجر، يعلوها أربع نوافذ أخرى معقودة، كانت فى الأصل مغشاة بستائر جصية معشقة بزجاج ملون، يفصل بينها بأعلى المحراب قمرية مستديرة كما سبق أن نوهنا عند تناولنا للواجهة الشرقية ويفهم من وثيقة الوقف أيضا أن أرضية هذا الإيوان كانت مكسية برخام خردة من نوع ضرب خيط صغير، أى بأشكال هندسية متداخلة.

ويشغل الإيوان المقابل، الضلع الغربى للصحن أو الدور قاعة، وهو يفتح عليه أيضا بقوصرة من حجر مشهر، تنتهى بأرجل مقرنصة، يحدها من الخارج جفت لاعب به ميمات دائرية الشكل. وهذا الإيوان مستطيل الشكل وبصدره الغربى ثلاث حنايا معقودة بعقود مدببة بداخلها ثلاث نوافذ شبه مغلقة، كانت مغشاة فى الأصل بمصبعات معدنية، يعلوها ثلاث نوافذ معقودة كانت مغشاة بدورها بالجص المعشق بالزجاج الملون. ويشغل كل من ضلعيه الشمالى والجنوبى سدله ذات أرضية أكثر ارتفاعا من أرضية الإيوان، بكل منهما نافذة وكتبيتان لحفظ المصاحف والربعات الشريفة. وكان يغطيه أيضا سقف خشبى مجلد بالذهب والألوان اندرست معالمه، كما كانت جدرانه مؤزرة برخام ملون، اندرست أغلب أجزائه، مثلما اندرست أرضية الإيوان التى كانت مفروشة بدورها بالرخام الخردة.

أما فيما يتعلق بالإيوانين الشمالى والجنوبى فهما أصغر حجما وأشبه بسدلتين تطل كل منهما على الصحن بواسطة عقد مدبب له أرجل ممتدة تنتهى بمقرنص من ثلاثة صفوف، ويحيط به من الخارج جفت لاعب به ميمات دائرية الشكل، ويفتح فى صدر كل سدلة نافذة معقودة، كما زودت كل سدلة بخزانتين، وبسقف خشبى مجلد بالذهب والألوان، يتدلى من أركانه كرادى متآكلة فى الوقت الحالى.

وتحتل قبة المدفن الركن الشمالى الشرقى من المبنى كما سبق أن نوهنا من قبل، ويتم الوصول إليها من الباب الشمالى للصحن الذى يفتح على فناء مكشوف

ومنه إلى الصدفة أو البسطة ذات السلالم المزدوجة التى تتقدم مدخلها الوحيد بالضلع الجنوبى، وهو مفتوح داخل تجويف غائر يتوج قمته عقد مدائنى ثلاثى الفصوص، ويؤدى إلى داخل القبة، وهى ذات تخطيط مربع الشكل، طول ضلعه حوالى سبعة أمتار ونصف المتر. ويتصدر ضلعها الشرقى محراب تعلوه طاقية معقودة بعقد مدبب يزينها زخارف نباتية وهندسية، كما يحتوى تجويف المحراب على شريط من كتابات نسخية قرآنية نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا".

ويحيط بجدران قاعة القبة نوافذ أرضية مستطيلة كانت فى الأصل مغطاة بمصبعات معدنية، لم يعدلها وجود فى الوقت الحاضر، يفصلها محراب القبة أو حنايا أو كتبيات، يعلوها قبة حجرية محدبة، يشغل مناطق انتقالها سبعة صفوف من المقرنصات الحجرية، تفصل بينها أربع مجموعات من نوافذ قندلية مركبة من النوع المعروف بدوست، كانت مغشاة بستائر جصية معشقة بزجاج ملون، يرتفع فوقها رقبة أسطوانية تزدان بست عشرة نافذة معقودة يغطيها قبة، يزين قطبها بقايا زخارف نباتية ويحيط بدائرها شريط من كتابات نسخية فى بحور بينها فواصل نباتية متشابكة.

ويتوسط أرضية القبة مقبرتان، دفن فى إحداهما السلطان الأشرف إينال بعد وفاته فى الخامس عشر من جمادى الأولى سنة ٨٦٥ هـ/ ٢٦ فبراير ١٤٦١م، وفى الثانية ابنه الأتابك أحمد الذى تسلطن بعده، كما جاء فى وثيقة الوقف.

وتشتمل هذه المدرسة أيضا على العديد من الوحدات المعمارية الأخرى التى تهدم أغلبها، من ذلك مجموعة من الطباق كانت مخصصة للصوفية النازلين فيها، تشغل الجنوب الغربى من المبنى، ومقعد يتقدمه فناء مكشوف، يقع إلى الشرق من طباق الصوفية، كان مخصصا لاستراحة السلطان أثناء زيارته للمدرسة، ووحدة آخرى كانت مخصصة لاستقبال حريم السلطان تتألف من إيوانين يفصل بينهما دور قاعة، تشغل الضلع الغربى من المنشأة وتتصل بالمدخل الشمالى مباشرة.

وألحق بالمبنى كذلك ميضأة تشغل الركن الشمالى الغربى لم يراع فى اختيار موقعها الظروف المناخية واتجاهات الريح، هذا فضلا عن مجموعة من الأحواش لدفن الموتى من بينها واحد خلف المئذنة إلى الغرب منها، أعد لدفن عتقاء السلطان إينال، وآخر بين كتلة المدخل الشرقى والمئذنة، ربما كان مخصصا لكبار امراء دولة السلطان إينال، وثالث يشغل منتصف الضلع الجنوبى خارج مبانى المنشأة يضم فى ضلعه الغربى مجموعة من الحمامات، لعلها كانت بمثابة مغاسل للموتى قبل تكفينهم ودفنهم. وجدير بالذكر أن أغلب هذه الوحدات المعمارية شيدت على مستوى أقل ارتفاعا عن مستوى أرضية المدرسة. هذا وقد قامت هيئة الآثار المصرية بترميم شامل لهذه المدرسة فى أواخر العقد الثامن من القرن الماضى.

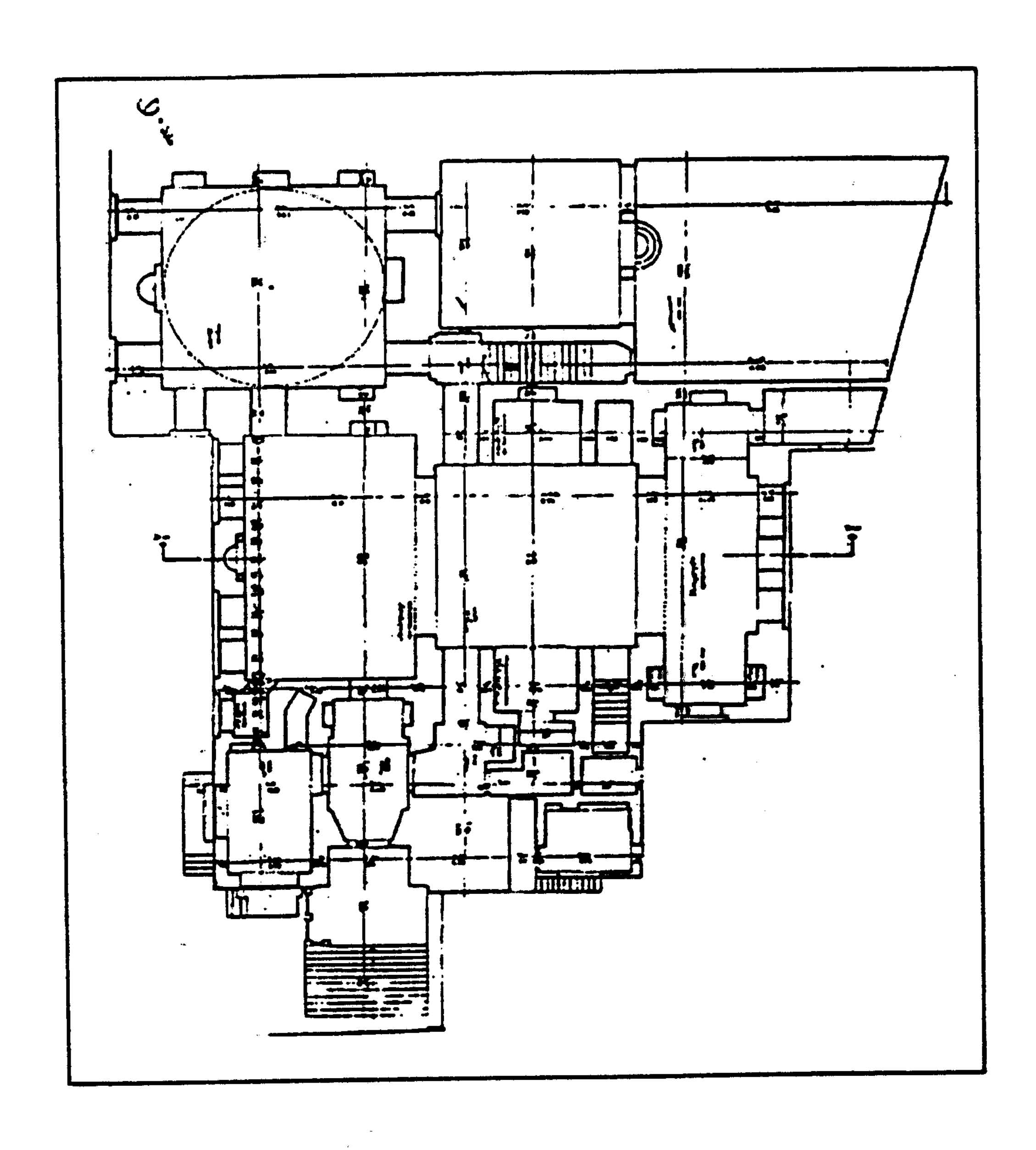
مدرسة السلطان الأشرف قايتباى:

تقع بشارع السوق بمنشية ناصر بقرافة المماليك الشرقية، أمام محطة مترو الدراسة بشرق القاهرة، شيدها السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى الجركسى المحمودى فى سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م، وفرغ منها فى شهر رجب سنة ٨٧٩ هـ/ نوفمبر ١٤٧٤م. وهى تضم مدرسة ومدفن وسبيل وكتاب، تشغل مساحة ١٠٨٨ مترا مربعا ولها ثلاث واجهات، أهمها الواجهة الشمالية وهى من الحجر الجيرى وكانت تضم فى طرفها الغربى طبقات الصوفية التى اندرست ولم يتبق منها سوى بقايا أطلال يليها شرقا المئذنة فكتلة المدخل فالسبيل والكتاب ويعلوها صف من الشرافات على هيئة أوراق نباتية ثلاثية الشحمات.

والمئذنة تتميز بالرشاقة ومشيدة على يمين كتلة المدخل كعلامة مميزة، وتبرز قاعدتها قليلا عن سمت الواجهة لتؤكد إرتكازها على سطح الأرض بدلا من إرتكازها على سطح المبنى، وهى تتألف من ثلاثة طوابق ترتفع فوق قاعدة مربعة، الطابق الأول مثمن الأضلاع، تزدان بحنايا صماء معقودة بعقود منكسرة، ترتكز على أعمدة ركنية مندمجة فتح فى أربع منها نوافذ يتقدمها إلى الخارج شرفة أو مشترفة تقوم فوق قاعدة من المقرنصات ويتوج أعلى هذا الطابق إزار من كتابات

نسخية من سورة الجمعة، يعلوها شرفة تقوم فوق قاعدة من المقرنصات يحيط بها دروة أو سياج حجرى مفرغ بزخارف نباتية أو هندسية على التوالي، تلتف حول الطابق الثانى وهو أسطوانى الشكل، يزينه زخارف نجمية بارزة متشابكة يعلوها شريط من كتابات قرآنية نسخية يرتفع فوق قاعدة من المقرنصات تحمل شرفة ذات سياج حجرية مفرغة، تلتف بدورها حول الطابق الثالث وهو يتألف من جو سق به ثمانية أعمدة رخامية رشيقة تحمل فوقها قاعدة ثالثة من المقرنصات يعلوها دروة حجرية مفرغة تلتف حول قمة المئذنة التى تتخذ شكلا كمثريا بأعلى قمته هلال من النحاس. وجدير بالذكر أن مؤذن هذه المدرسة على عهد السلطان قايتباى وابنه كان يجيد فن النقش والحفر على الحجر وقد خلف لنا اسمه منقوشا على قاعدة هذه المئذنة بما نصه: "نقشه محمد الشبينى - كتبه بيده الفانية محمد الشبينى المؤذن".

ويتقدم كتلة المدخل مجموعة من الدرج تنتهى ببسطة تفضى إلى المدخل الذى فتح داخل تجويف غائر، يزين واجهته صفوف من حجارة ملونة، مشهر، ويتوجه من أعلى عقد مداتنى ثلاثى الفصوص، يحده من الخارج جفت لاعب به ميمات مستديرة، وبأركان طاقيته زخارف مقرنصة، وبصدرها نافذة صغيرة معقودة بعقد مدبب. أما فتحة المدخل فيعلوها عقد مستقيم من صنج معشقة، يرتفع فوقه عقد عاتق من نفس النوع، يوجد بأعلاه دخلة يكتنفها عمودان من الرخام، فتح فى صدرها نافذة لإنارة الدركاه، يعلوه صدر مقرنص، يوجد على جانبيه رنكان كتابيان باسم السلطان الأشرف قايتباى نصهما: "أبو النصر قايتباى/ عز لمولانا السلطان الملك الأشرف/ عز نصره". كما يكتنف فتحة المدخل من أسفل مكسلتان يعلوهما فوق عضادتى المدخل شريطان من الكتابات النسخية نصهما: "بسم الله الرحمن الرحيم وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم، أمر بإنشاء هذه المدرسة مولانا الملك الأشرف قايتباى سيد ملوك العرب والعجم الملك الأشرف قايتباى خلد الله ملكة وثبت قواعد دولته بمحمد وآله بتاريخ سنة سبع وسبعين وثمانمائة من الهجرة (١٤٧٢م)". ويغلق على فتحة المدخل باب حلى مصراعه ببخارية



شكل (٧٧)

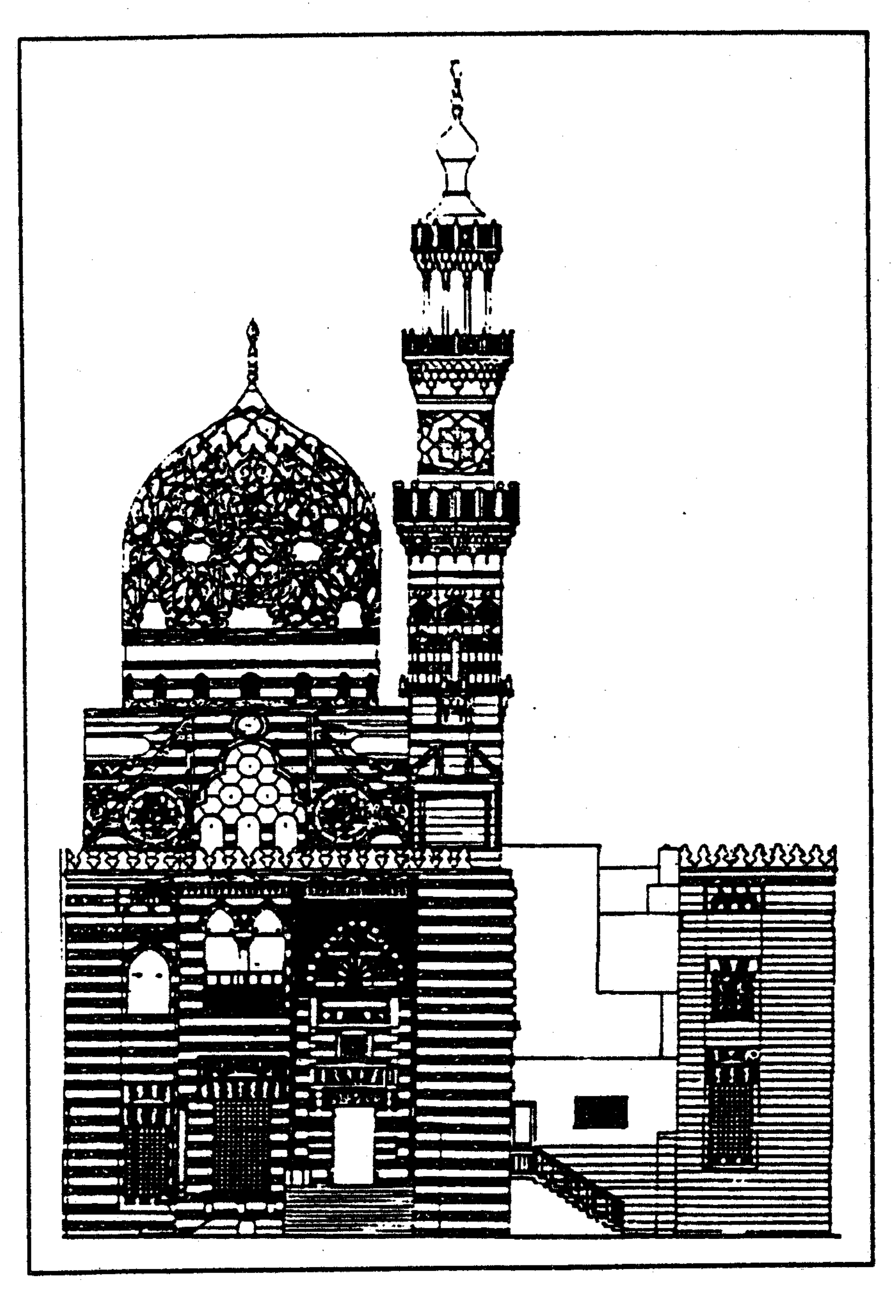
مسقط أفقي لمدرسة قايتباى بالقرافة الشرقية

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

نحاسية مفرغة بأشكال زخرفية وأشرطة مدون عليها بخط النسخ النص التالي: "عز لمولانا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيى العدل فى العالمين عز نصره".

ويلى كتلة المدخل شرقا سبيل يطل على هذه الواجهة من خلال نافذة مستطيلة مغشاة بمصبعات معدنية مغطاة بخركاه خشبية مزودة بفتحات تسمح بأخذ الماء من الأحواض، يتقدمها من أسفل عارضة من الرخام على ثلاثة حرمدانات حجرية، ويعلوها عقد مستقيم ونفيس وعقد عاتق من صنج حجرية معشقة يحيط بهم إطار من جفت لاعب به ميميات مستديرة، يعلوه واجهة الكتاب التى تطل على هذه الواجهة من خلال باتكة ذات عقدين مدببين على شكل حدوة الفرس، يرتكزان على عمود من الرخام، يزين جوانب هذين العقدين وحدات من خشب الخرط، نقش أعلاها شريط من كتابات نسخية بارزة نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا، أمر بإنشاء هذا الكتاب مولانا الملك الأشرف أبو النصر قايتباى سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة/ والمشركين محيى العدل فى العالمين... الدين مولانا... السلطان الأشرف أبو النصر قايتباى خلد الله ملكه بمحمد وآله". ويتوج واجهة الكتاب من أعلى رفرف خشبى يمتد حتى نهاية قاعدة المئذنة رابطا واجهة السبيل والكتاب بكتلة المدخل.

وتطل الواجهة الشرقية على شارع مسجد قايتباى، وهى مشيدة أيضا من الحجر وتبدأ بالشباك الثانى للسبيل، وهو مستطيل الشكل يغشيه مصبعات معدنية، ويتقدمه أيضا من أسفل عارضة من الرخام أو محط الكيزان على ثلاثة حرمدانات حجرية، ويعلوه كذلك عقد مستقيم ونفيس وعقد عاتق من صنج حجرية معشقة يحيط بهم إطار من جفت لاعب، يعلوه الواجهة الثانية للكتاب، وهى تفتح على الواجهة الشرقية بباتكة ثلاثية العقود، تقوم فوق عمودين من الرخام، ويتقدمها سياج من خشب الخرط، ويعلوها رفرف خشبى مائل للحماية من الشمس والمطر، تمتد بعده الواجهة جنوبا حتى تصل إلى بروز قبة المدفن، حيث يتوجها من أعلى



شكل (٧٨)

قطاع رأسى لمدرسة قايتباى بالقرافة الشرقية، الواجهة الشمالية

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

صف من الـشرافات من نفس النوع الـذى يعلو الواجهـة الشمالية، كـما يخترقها ثلاثة تجاويف رأسية يتوج كل منها صدر مقرنص، نجد بالتجويف الأول الذى يلى السبيل، نـافذتين مستطيلـتين تعلو إحداهما الآخـرى، على حين يشغل التجويف الثـانى والثالث أربع نـوافذ تطل على إيـوان القبلـة، الأرضية مسـتطيلـة ومغشاة بمصـبعات معدنية، والعلوية مـعقودة ومغطاة بستائر جـصية معشقة بزجاج ملون، ويفصل بينها قمرية مستديرة من نفس النوع تعلو بروز المحراب.

وتنـتهى هـذه الواجهـة جنوبـا بقبـة المدفن التى تـبرز عن سمت الـواجهة الشرقية، ويشغل واجهتها ثلاثة تجاويف رأسية، يحتل أحدها بروز القبة، فتح فيها ثلاث نوافذ أرضية مستطيلة، يعلوها ثلاث نوافذ معقودة، ويتوجها من أعلى صف من شرافات نباتيـة ثلاثية الشحمات. أما القـبة فهى من الحجر المنقوش من الخارج بزخارف نباتية وهندسـية متداخلة بارزة، تبدو أشبه بقطعة من المدبج أى الدانتيلا، يزين رقبتها الأسطوانية إزار من كـتابات نسخية قرآنيـة، يليها إلى أسفل مجموعة الشبابيك والمضاهيـات المعقودة، ترتكز على قاعدة مـربعة شطفت زواياها لتتحول إلى مـثمن، يـشغل أربعـة أضلاع منه نـوافذ قـنديلـية مركبـة من النـوع المعروف بدوست، يكتنفهـا على الجانبين رنكان كـتابيان باسم السـلطان الأشرف قايتباي، نقشا داخل مـثلثات قائمة الزوايا من جفـت لاعب به ميمات مستديرة، على حين يحتل كل من الأضلاع البـاقية للمثمن، مـثلثان بأحدهـما رنك كتابى باسم نفس السلطان وبالآخر المقابل له خطوط متعرجة، زجزاج، بأسفلها زخرفة نباتية بارزة.

وتطل الواجهة الثـالثة للمدرسة، أى الغربية على ميدان فسيح، وهى تنقسم إلى قـسمين. الأولى تـشتمل عـلى ثلاث نوافذ تـفتح على الإيـوان الغربى وهى مغشاة بمـصبعات معدنـية، يعلوها عقـد مستقيم يليه نـفيس فعقد عاتق من صنج حجريـة معشقـة، يعلو الـنافذة الوسـطى قمرية مـستديرة عـلى جانبيـها نافذتان معقـودتان يغطى كل منهـما ستارة من الجص المعشـق بزجاج ملون. ويوجد تحت هذا القسم دور أرضى به مجموعة من الحواصل من بينها واحدة تستخدم كباب سر يفضى إلى قبة المدفن، دون المرور على المدرسة.

أما القسم الثانى فيشمتل على المدخل الفرعى للمدرسة أو بمعنى آخر باب سر المدرسة الذى كان مخصصا لدخول وخروج السلطان وهو يقع داخل تجويف غائر يصعد إليه بسلم يتالف من أربع درجات ويتوجه من أعلى عقد مدائنى ثلاثى الصفوف من الحجر المشهر، ويكتنفه من أسفل مكسلتان من الحجر، بينهما فتحة مدخل يغلق عليه باب خشبى يعلوه عقد مستقيم فوقه عقد عاتق من صنج حجرية معشقة، يوجد على يساره باب صغير سدت نهايته بقاعدة المئذنة.

وتؤدى فتحة المدخل الرئيسى بالواجهة الشمالية إلى دركاه مستطيلة، أرضيتها مفروشة بالرخام الدقيق الملون، وسقفها مغطى ببراطيم خشبية ذات مربوعات مجلدة بالتذهيب والألوان، بصدرها مصطبة مكسية بالرخام الملون، فتح بها نافذة مستطيلة يغطيها مصبعات معدنية تطل على إيوان القبلة، يكتنفها كتبيتان يغلق عليهما مصاريع خشبية يزينها أطباق نجمية من حشوات مطعمة بالصدف والعاج، ويعلوها كتابات نسخية بارزة نصها: "اللهم انصر عبدك مولانا السلطان/ الملك الأشرف قايتباى خلد الله ملكه". وعلى يسار هذه الدركاه أى شرقها، باب يفضى إلى حجرة السبيل وهى مستطيلة الشكل ومزودة بشباكين كما سبق أن نوهنا من قبل، وأرضيتها مفروشة ببلاطات حجرية فى الوقت الحالي، بوسطها فوهة صهريج كان يملأ من مياه الفيضان، وبضلعها الجنوبى دخلة بها بئر ماء، كانت معدة لتزويد السبيل بالماء فى وقت التحاريق، لا تزال معداتها باقية إلى الآن فى مكانها، وهى تتألف من بئر وحبال ودلو لرفع الماء من البئر. ويسقف هذا السبيل سقف خشبى يتألف من براطيم خشبية ذات مربوعات ومستطيلات مجلدة بالتذهيب والألوان، تتخللها قصع مشعة، وبأركانه مقرنصات خشبية من خمسة صفوف تنتهى بورقة نباتية ثلاثية الشحمات، ويلى هذا السقف إزار من كتابات نسخية نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا، يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا، ويطعمون الطعام.. أمر بإنشاء هذا السبيل المبارك سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى صاحب الصدقات والمعروف المغيث لكل ملهوف الإمام الأعظم الملك الأشرف قايتباى خلد الله ملكه".

وعلى يمين الدركاه أى جهة الغرب باب آخر يفضى إلى دهليز منكسر أرضيته مفروشة بالرخام الملون، وأول ضلعه الغربى باب يؤدى إلى الملحقات العلوية، كالمئذنة والكتاب الذى يعلو السبيل. يليه جنوبا مزيرة على وجهها حجاب من خشب الخرط مدون عليها بالخط الكوفى المربع عبارة الشهادة " لا إله إلا الله، محمد رسول الله" ومنقوش على بابها بخط النسخ النص التالي: "بسم الله الرحمن الرحيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون"، ويفضى هذا الدهليز فى نهايته الجنوبية إلى صحن المدرسة أو بلغة الوثيقة إلى دور قاعتها.

وتخطيط هذه المدرسة يتألف من صحن أوسط أو دور قاعة يتعامد عليها أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الشرقى يليه من حيث المساحة الإيوان الغربي، ثم إيوانان جانبيان، أشبه بسدلتين فى الشمال والجنوب، والصحن مربع الشكل طول ضلعه حوالى ثمانية أمتار ونصف المتر، أرضيته مفروشة بالرخام الملون بأشكال هندسية مستطيلة ومربعة ودائرية، ويغطيه سقف خشبى يتألف من مربوعات ومستطيلات مجلدة بالذهب والألوان، يتوسطه شخشيخة مثمنة الأضلاع، فتح فى كل ضلع ثلاث نوافذ مستطيلة، ويزين باطنها أشكال نجمية متشابكة بها جامات مستديرة، المركزية منها نقش عليها" قل كل يعمل على شاكلته" بشكل زخرفى بديع. ويعقب هذا السقف إزار من الخشب منقوش أيضا بكتابات نسخية نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا، وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا، وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، وكان الفراغ من السقف والشخشيخة المباركة من فضل الله تعالى بمباشرة لجنة حفظ الآثار العربية فى عصر خديوى مصر الأعظم ومليكها الأفخم المحفوظ بالسبع المثانى... عباس حلمى الثانى أطال الله أيامه... وذلك عام تسعة عشر وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية (١٩٠١م)"

ويحيط أيضا بأعلى واجهات الصحن إزار آخر من كتابات نسخية تشتمل على آية الكرسى والنص التالي: "أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى سلطان الإسلام والمسلمين أبو الفقراء والمساكين ناصر الدنيا والدين سيدنا ومولانا الإمام الأعظم المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره بتاريخ رمضان المعظم قدره سنة سبع وسبعين وثمانمائة (فبراير١٤٧٣م)".

ويحدق بالصحن أربعة أبواب خشبية: الأول بالزاوية الشمالية الشرقية يتصل بدهليز المدخل الرئيسي، والثانى المقابل له بالزاوية الجنوبية الشرقية يفضى إلى سلم يتقدم قبة المدفن، والثالث بالزاوية الجنوبية الغربية يؤدى إلى دهليز ينتهى بباب مسدود كان يفتح على حوش عتقاء السلطان الأشرف قايتباي، والرابع المقابل له بالزاوية الشمالية الغربية يؤدى إلى سلم هابط حيث الباب الفرعى أو باب سر المدرسة: ويعلو كل باب حشوة مدون عليها كتابات نسخية بارزة منقوشة بالذهب على أرضية من اللاذورد الأزرق نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما، وينصرك الله نصرا عزيزا صدق الله العظيم، أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى خلد الله ملكه". وفوق هذه الحشوات عقد عاتق من صنج حجرية ملونة معشقة، يعلوه نافذة يغطيها مصبعات معدنية، فتحت داخل حنية معقودة بعقد منكسر به زخارف مقرنصة، يرتكز على عمودين مندمجين، بأعلاها نافذة أخرى مستطيلة يغشيها أيضا مصبعات معدنية.

ويتعامد على الصحن أو الدور قاعة أربعة إيوانات، أكبرها إيوان القبلة الشرقى وهو مستطيل الشكل، أرضيته مفروشة برخام متعدد الألوان يضم أشكالا هندسية متنوعة، ويغطيه سقف خشبى يتألف من براطيم ومربوعات ومستطيلات مجلدة بالتذهيب والألوان، وبأركانه مقرنص بسراويلات. ويتصدر جداره الشرقى محراب مجوف غفل من الزخرفة، يكتنفه عمودان مثمنان، حلى بدنهما

وقواعدهما وتيجانهما بنقوش نباتية مورقة، كما زينت طاقيته بزخارف نباتية من حجر أحمر. يوجد إلى يمينه منبر خشبى يتألف من صدر وريشتين بهما حشوات مجمعة تشكل أطباقا نجمية وأجزاء منها، طعمت بالعاج والسن والصدف. كما يكتنف المحراب على الجانبين أربع حنايا معقودة بصنج حجرية ملونة، بواقع حنيتين على كل جانب، فتح لكل منها شباك مستطيل مغطى بمصبعات معدنية له جلسة رخامية ملونة، كانت تستخدم لجلوس قراء القرآن الكريم، ويغلق عليه مصراعين من الخشب، وبأعلى كل حنية نافذة معقودة بعقد مدبب يغشيها ستارة جصية معشقة بزجاج ملون، يفصل بينها فوق المحراب قمرية مستديرة من نفس الطراز، فتحت داخل إطار مربع الشكل، يحدها من أسفل إزار من كتابات نسخية بارزة من سورة الفتح، تنتهى بالنص التالي: " وكان الفراغ من ذلك فى شهر رجب الفرد سنة سبع وسبعين وثمانمائة من الهجرة (ديسمبر ١٤٧٢م)".

ويوجد بالضلع الشمالى لهذا الإيوان، شرقا، فتحة تفضى إلى خلوة كانت مخصصة، كما جاء فى وثيقة الوقف، لخطيب المدرسة، يليها غربا بنفس الضلع نافذة مستطيلة عليها مصبعات معدنية تطل على دركاه المدخل الرئيسي، ويقابلها بالضلع الجنوبى للإيوان، أى غربا، كتبية لحفظ الكتب والمصاحف الشريفة، يعقبها شرقا بنفس الضلع شباك عليه مصبعات معدنية يطل على قبة المدفن، كما يطل هذا الإيوان على الصحن بقوصرة من حجر مشهر، تنتهى بطرفين من مقرنص مغرق بالذهب واللازورد، حسب تعبير وثيقة الوقف، يحده من الخارج جفت لاعب به ميمات مستديرة.

ويشغل الضلع الغربى للصحن إيوان مستطيل الشكل يتألف من صدر ومجنبتان أو سدلتان، أرضيته مفروشة بالرخام الخردة، ويطل على الصحن بقوصرة من حجر مشهر، فتح بالصدر ثلاث حنايا معقودة، بداخل كل منها نافذة مستطيلة الشكل يغطيها مصبعات معدنية، لها جلسة رخامية ملونة، ويغلق عليها مصراعين من الخشب، ويعلو هذه الحنايا إزار من كتابات نسخية نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم

بالمؤمنين رءوف رحيم، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم" ، وبأعلى هذا الإزار نافذتان معقودتان، يفصل بينهما قمرية مستديرة داخل مربع، والجميع مغشى بستائر جصية معشقة بزجاج ملون.

وبالسدلتين الشمالية والجنوبية كتبيتان حائطية يعلوها نوافذ يغطيها ستائر جصية معشقة بزجاج ملون، كما تضم السدلة الجنوبية فى طرفها الغربى غرفة مستطيلة، كانت مخصصة لمكتبة المدرسة ولازالت رفوفها باقية إلى اليوم.

ويسقف هذا الإيوان سقف خشبى يتألف من مربوعات وتماسيح، بأركانه مقرنص بسراويلات مجلدة بالتذهيب والألوان، وبأسفل هذا السقف إزار مقسم إلى بحور تشتمل على كتابات نسخية قرآنية.

أما فيما يتعلق بالإيوانين الشمالى والجنوبي، فهما أصغر إيوانات المدرسة مساحة ويطلان على الصحن بواسطة عقد مدبب من حجر مشهر له أرجل طويلة ممتدة تنتهى بمقرنص مغرق بالذهب واللازورد، يحده من الخارج جفت لاعب به ميمات مستديرة، وأرضيته كل منهما مفروشة برخام دقيق، خردة، كما يغطى كل منهما سقف خشبى مجلد بالذهب والألوان، بأركانه أيضا مقرنص بسراويلات، ويحيط بجدران كل منها إزار مقسم إلى بحور بكل منها كتابات نسخية قرآنية.

ويصدر كل إيوان دخلة يغلق عليها باب خشبى من مصراعين، أشارت إليها وثيقة الوقف تارة بلفظ "خزانة لطيفة مبلطة" عند وصف الإيوان الشمالي، وتارة أخرى تحت لفظ " كتبية من طابقين عليهما مصاريع خشبية" ، عند التعرض للإيوان الجنوبي، يعلو كل منهما نافذتان مستطيلتان، تعلو إحدهما الأخرى، وغطيت كل منهما بمصبعات معدنية، .

ويضم مسقط هذه المدرسة كما هى العادة قبة المدفن التى تشغل الزاوية الجنوبية الشرقية من البناء، يتم التوصل إليها من خارج المدرسة بالجهة الغربية عن طريق المدخل الفرعى أو عن طريق الصحن وهى عبارة عن مساحة مربعة، يبلغ طول ضلعها تسعة أمتار ونصف المتر، وأرضيتها مفروشة بالرخام الملون من سماقى

أى أحـمر، وزرزورى أى رمادى مـشبح بـالبيـاض، وغرابي، أى رمـادى مشبح بالسواد، وصعيدى أى سمنى اللون كـما جاء فى وثيقة الوقف، وكسيت جدرانها بوزرات رخامـية ملونـة يعلوهـا إزار من الخشب عليه كـتابات نسـخية من سورة الدخـان إلى قوله عز وجل " . . . لـعلهم يـتذكرون صـدق الله العـظيم وصدق رسـوله الكريم الكـريم وصلى الله عـلى سيدنا مـحمد وعـلى آله وصحبه وسلم تسليـما كثيرا، أمر بـإنشاء هذه القبـة المباركة من فضل الـله تعالى وجزيل عطائه العميم سيـدنا ومولانا ومالك رقابـنا. . . سلطان الإسلام والمسـلمين قاتل الكفرة والمشـركين محى العـدل فى العالمين الإمام الأعـظم والملك المكرم الـسلطان المالك الملك الأشرف أبو النصـر قايتباى ملك الـبرين والبحرين خـادم الحرمين الشريفين سيد ملوك العرب والعجم السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى أعز الله تعالى أنصاره وخـتم بالصالحات أعمالنا وأعمـاله وثبت قواعد دولته وأيد أحكامه بمحمد وآله وصحبه وسلم تسليـما كثيرا يا رب العالمين آمـين" . يعقبها كتابات من سورة البقرة إلى قوله تعالى " . . . وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره صدق الله العظيم وصـدق رسوله الكريم وصلى الله على سـيدنا محمد وآله وصحـبه وسلم تسليما كثـيرا يا رب العـالمين اللـهم أيد الإسلام وأعل كلـمة الايمان ببـقاء عبـدك سيدنا ومولانا المـقام الشريف الـسلطان الـزاهد العابـد العالم العـادل فى أحكامه الورع المتورع الصائم القائم بحدود الله، التابع سنة رسول الله، التالى كتاب الله، الحاج إلى بيت الله الحـرام، الزائر قبر رسول الله عـليه أفضل الصلاة والسـلام، المجاهد فى سبيل الـله سيد الملوك والسلاطـين أبو الفقراء والمسـاكين المجاهد المرابط المؤيد المنصـور السلـطان المالك المـلك الأشرف أبو الـنصر قايـتباى صـاحب الصدقات والمعـروف خلد الله ملكه بمحمـد وآله وصحبه وسلم تسليـما كثيرا يا رب العالمين والحـمد لله وحده وصلى الله على سيدنـا محمد وعلى آله. وكان الفراغ من هذه القبة المـباركة فى شهر رجب الـفرد الحرام سنـة تسع وسبعـين وثمانمائـة (نوفمبر ١٤٧٤ م)" .

ويتصدر الجدار الشرقى محراب مجوف يعلوه عقد مدبب يرتكز على عمودين مثمنين من الرخام، بتواشيحه زخارف نجمية، وبطاقتيه زخارف نباتية وهندسية، يوجد على جانبيه حنيتان، معقودتان بعقد مدبب، فتح بصدر كل منها شباك يشرف على الشارع يغلق عليه مصراعان من الخشب، كما فتح فى الجدار الشمالى نافذتان الشرقية منهما تطل على الطريق، والغربية على إيوان القبلة الشرقى. وفتح أيضا بالجدار الجنوبى للقبة ثلاث دخلات، وبصدر الجدار الغربى دخلة، يعلو كل منها عقد مدبب. أما مناطق انتقال القبة فيشغلها تسعة صفوف من مقرنصات مذهبة يفصلها أربع مجموعات من شبابيك قندلية مركبة من النوع المعروف بدوست، يغشيها ستائر جصية معشقة بزجاج ملون كما سبق أن نوهنا من قبل، يعلوها رقبة أسطوانية فتح فيها ست عشرة نافذة ومضاهيات معقودة، كما نقش دائر القبة، أعلى هذه النوافذ، بكتابات نسخية قرآنية من سورة يس، وحلى قطبها بزخارف نباتية ملونة.

ويوجد بأرضية هذه القبة تركيبتان من الرخام، الكبيرة منهما تتقدم المحراب وتتألف من مستويين وبأركانها أربع بابات، وهى تعلو قبر السلطان الأشرف قايتباى وبعض أفراد اسرته من الذكور، والثانية بالركن الغربى من القاعة وهى تعلو قبر النساء من أسرة قايتباى، كما يفهم من نص وثيقة الوقف الذى جاء فيه أنه بالقبة "مدفنان فسقيتان إحداهما معدة لدفن الرجال ممن يتوفاهم الله من الواقف وأولاده ومن يختار دفنه من الرجال، والآخرى لدفن من يتوفاه الله تعالى من بنات الواقف وذريته ومن يختار من النساء". ويحيط بكل من التركيبتين مقصورة من خشب الخرط، ويجاور قبر السلطان قايتباى قبة صغيرة نحاسية مذهبة تحتها حجر أسود من البازلت به أثر قدمين يقال أنهما للنبى ﷺ، كما يوجد بجوار قبر النساء قبة أخرى من الخشب على شكل المسلة، بها حجر عليه أيضا أثر قدم يقال أنه قدم الخليل إبراهيم عليه السلام. بيد أن المرحوم حسن عبد الوهاب ينفى هذه المقولة بشدة استنادا إلى وجود آثار أقدام آخرى مختلفة المقاييس فى كل من مصر، والقدس، والطائف، والقسطنطينية. ويرجح البعض أن السلطان

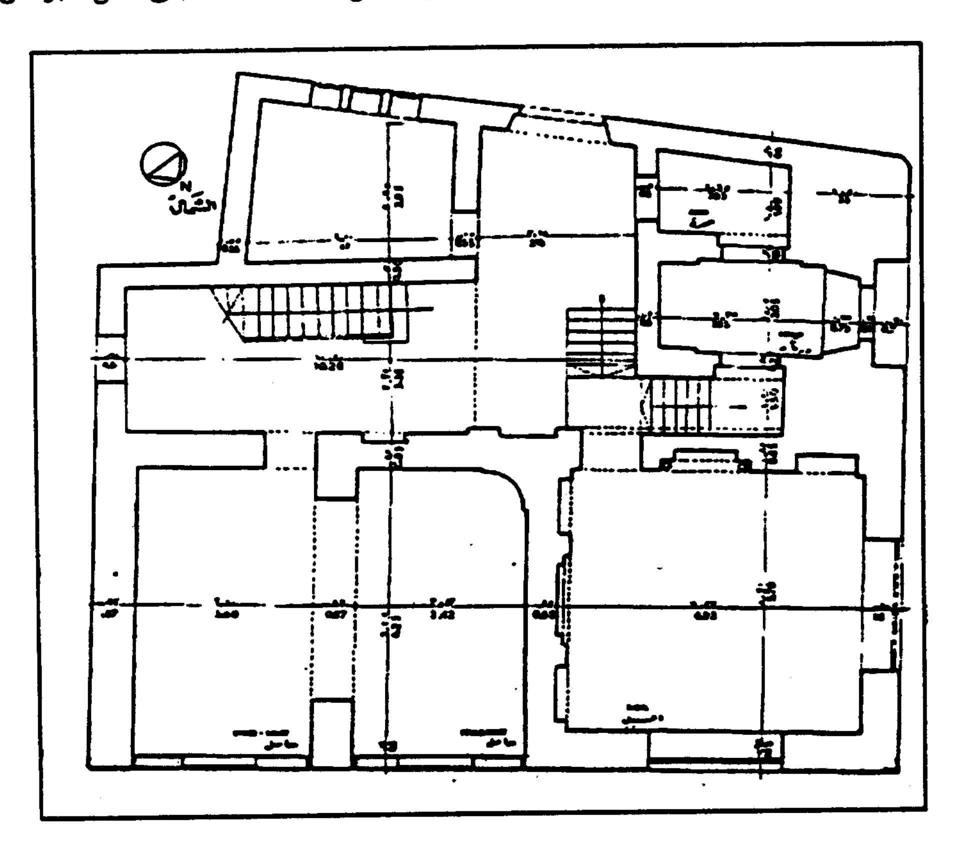
الأشرف قايتباى قام بشراء هـذه الآثار وأوصى بجعلها عند قبره، فى الوقت الذى يشير فيه المرحوم أحـمد تيمور أنهما ربمـا كانا من بين الأحجار التى أحضرت من أرض خيبر بالمديـنة المنورة لشمس الدين بن الزمن التاجر وجعلها فى مدرسته التى شيدهـا بشاطيء بولاق، ثم قـام السلطـان قايتباى بـاختيار هـذين الحجرين وقام بنقلهما إلى مدرسته بعد موت ابن الزمن. ويروى أيضا بصدد حجر قدم الخليل أن السلطان العثمانى أحمد بن محمد المعروف بأحمد الأول قام بنقله إلى القسطنطينية فى سنة ١٠٢٤هـ/ ١٦١٥ م، ثم عـاد وأمر بإعادته إلى مـكانه بمدرسة الـسلطان قايتباى، لما عرف عنه من تعظيم للآثار النبوية.

وتشتمل الـقبة أيضا عـلى كرسى للمـصحف من حشوات مجـمعة تشكل أطباقا نجمـية وأجزاء منها، طعمت، مثل المنـبر بالعاج والسن ونقش على المركزية منهـا الرنك الكتـابى للسلـطان قايتبـاى بخط النسخ " قـايتباى/ الـسلطان الملك الأشـرف/ عز نصره"، كما نقش على الكرسى نصـا تاريخيا جاء فيه "أمر بإنشاء هذا الكـرسى الملك الأشرف قايتباى بتاريخ شهر ربـيع سنة ثمان وسبعين وثمانمائة (يوليو - أغسطس ١٤٧٣م)".

بقى أن نشير فى النهاية إلى قيام لجنة حفظ الآثار العربية فى سنة ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م بـترميم وإصلاح هذه المدرسة، إصلاحا شاملا وانتـهت من أعمالها بنهاية سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م بعد أن قامت بتقوية المبانى وإصلاح الأرضيات والوزرات الرخامـية والأسقف الخشبية والشبابيك الجصية، وتـرميم المئذنة وتقوية مبانيها، مما جعل المدرسة تحتفظ بأغـلب تفاصيلها المعماريـة والزخرفية التى كانت عليها وقت الإنشاء، وان كـان هذا لم يمنع من اندراس جـميع الطـباق التى كانت مـخصصة لاستقـبال الدارسين بالمدرسة، والتى كانت تتألف من خمسة طوابق كما يتضح من رسم لـباسكال كوست يـنسب إلى منتصف الـقرن الثالث عشـر الهجرى/ التاسع عشـر الميلادى. ويجب ألا ننسى أيضـا ما قامت به هيئة الآثـار المصرية من ترميم شامل لهذه المدرسة فى أواخر العقد الثامن من القرن الماضى.

سبيل وكتاب قايتباى:

يقع بشارع الصليبة بالقرب من ميدان صلاح الدين إلى الغرب من القلعة بحى الخليفة، شيده السلطان الأشرف قايتباى فى ذى الحجة سنة ٨٨٤هـ/ فبراير ١٤٨٠م، كأول سبيل مستقل ملحق به كتاب، فقد جرت العادة إبان هذا العصر أن يلحق السبيل والكتاب بإحدى العمائر الدينية أو المدنية. والسبيل اشتق اسمه من ابن السبيل أى المار بالطريق، أو اشتق اسمه من أسبل الماء بمعنى صبه. وقد دفعت الحاجة للحصول على الماء العزب خاصة فى فصل الصيف أن يتبنى أهل البر من



شكل (٧٩)

مسقط أفقي لسبيل قايتباى بالصلية، الدور الأرضى

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

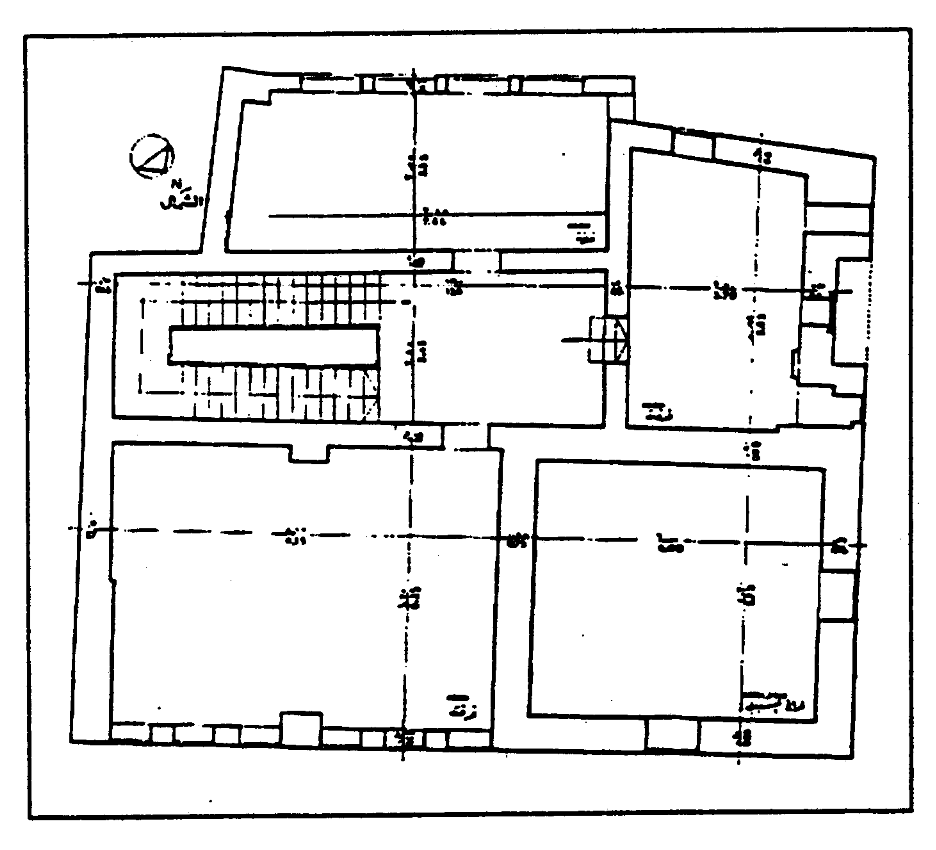
القادرين ماديا، إنشاء الأسبلة لتسبيل الماء على السائرين فى الطرقات مجانا، ابتغاء لوجه الله الكريم ورغبة فى تطبيق سنة رسوله الكريم، . كما حدث زمن سلاطين المماليك الذين أكثروا من بناء هذه المنشآت الخيرية، رغبة منهم فى أن يظهروا أمام الشعب بأنهم أهل خير ومعروف وأنهم يعملون على خدمة الدين وأهله.

وقد روعى فى تشييد الأسبلة المرفقة بإحدى العمائر أو المنفردة أن تطل على أحد الطرق العامة حتى ينتفع بماء السبيل المارة وأبناء السبيل لذا وجدت أنواع متعددة من الأسبلة منها ذو الشباك الواحد أى المبنى المطل على طريق أو شارع واحد والسبيل ذى الشباكين أى الذى يطل على شارعين كما هو الحال بالنسبة لسبيل قايتباى الذى نحن بصدده.

وجرت العادة أيضا أن يضم السبيل صهريجا يبنى فى تخوم الأرض بالآجر والمونة المحكمة، لتخزين الماء الذى ينقل إليه من النيل فى موسم الفيضان، يعلوه حجرة مربعة أو مستطيلة، أرضيتها مفروشة غالبا بالرخام ويغطيها سقف خشبى، بها شاذروان وهو عبارة عن لوح رخامى حفرت عليه قنوات يوضع فى وضع مائل بحيث يجرى الماء عليه بعد رفعه من الصهاريج ليبرد وينزل إلى حوض يملأ منه أوانى الشراب التى توضع بنوافذ هذه الغرفة على محط الكيزان ليشرب منها المارة فى الطريق. ويعلو حجرة السبيل كتاب لتعليم أيتام المسلمين بحيث يكون ارتفاع السبيل والكتاب معا مساويا لارتفاع واجهة المبنى كما هو الحال بالنسبة لسبيل قايتباى الذى ينفرد أيضا بثراء زخارف واجهتيه اللتين تضمان عناصر نباتية وهندسية وكتابية ورنوك، نقشت فى تناسق بديع نعدمه فى أغلب المنشآت المعاصرة، ربما بسبب موقعه الهام فى الطريق إلى قلعة الجبل مركز السلطنة المملوكية، وربما أيضا بسبب مرور موكب الاحتفال بفيضان النيل من أمامه.

وهذا المبنى يحتل مساحة مربعة يحدها أربعة شوارع وكان له ثلاث واجهات أهمها الواجهة الرئيسية الغربية التى تطل على شارع الصليبة وهى تنقسم رأسيا إلى قسمين رئيسيين بارتفاع طابقين يعلوهما كتاب، يتوج أعلى الطابق الأول بامتداد الواجهة إزار من كتابات نسخية بارزة داخل جفت لاعب به ميمات مستديرة

نصهـا: " أعوذ بالله من الشـيطان الرجـيم بسم الله الرحـمن الرحيم مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والـله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم صـدق الله العظيم، وبلغ رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين" . القسم الأيمن أى الجنوبى يمثل كتلة المدخل الذى فتح داخل تجـويف غائر يتوجه من أعلى عقـد مداثنى ثلاثى الفصوص من أحجار بيضاء وحـمراء على التوالى أى مشهـر، يحده من الخارج جفت لاعب به ميمات مـستديـرة، يشغل تواشـيحه رنكـان كتابـيان باسم المـنشيء، نصه: "أبـو النصر



شكل (٨٠)

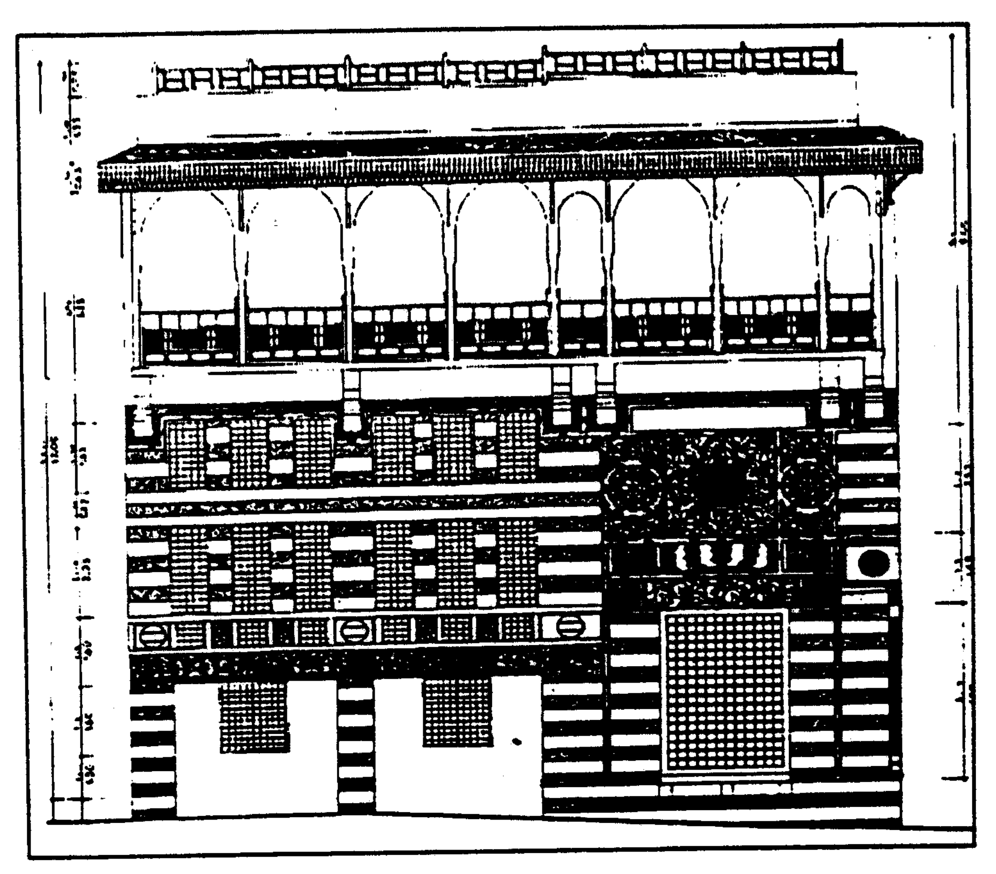
مسقط أفقى لسبيل قايتباى بالصلية، الدور الأول

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

قايتباى/ عز لمولانا السلطان الملك الأشرف/ عز نصره" . وبداخله طاقية تشتمل على ثلاثة تجاويف معقودة ذات نهايات مقرنصة . تزدان بزخارف نباتية وهندسية . تضم بصدرها شباكا معقودا يغطيه مصبعات خشبية ذات أشكال هندسية، يوجد أسفل منه دخله يكتنفها عمودان مثمنان من الرخام ويتوجها من أعلى صدر مقرنص يوجد على جانبيه رنكان كتابيان باسم المنشئ، فتح بها شباك مستطيل يغشيه مصبعات خشبية ويحده من أعلى وأسفل صنج حجرية معشقة بنظام الأبلق.

ويوجد أسفل هذه الدخلة إزار من كتابات نسخية بارزة نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم وما تفعلوا من خير/ فإن الله به عليم صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم " ، يقطعها رنك كتابى باسم السلطان الأشرف قايتباى. ويلى هذا الإزار إلى أسفل نافذة مستطيلة يغطيها مصبعات معدنية، بأسفله على كلا الجانبين لوحتان مستطيلتان يعلوهما نقوش هندسية متشابكة أما فتحة المدخل فيغلق عليها باب خشبى ويعلوها عقد مستقيم من الرخام، يوجد على جانبيه لوحتان بهما زخارف نباتية حمراء نقشت على أرضية بيضاء. كما يكتنفه من أسفل مكلستان من الحجر، يحيط بكل منهما جفت لاعب، يعلوهما على عضادتى المدخل إزار من كتابات نسخية بارزة نصها: "أمر بإنشاء هذا السبيل المبارك السعيد من فضل الله تعالى وجزيل عطائه العميم مولانا المقام الشريف السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى بتاريخ ذى الحجة سنة أربع وثمانين وثمانمائة (فبراير ١٤٨٠م)" . ويوجد أيضا على جانبى تجويف المدخل ست نوافذ مستطيلة مغشاة بمصبعات معدنية بواقع ثلاث نوافذ على كل جانب تعلو بعضها البعض.

أما القسم الأيسر من هذه الواجهة، الغربية، أى الشمالى فيشغله من أسفل شباك التسبيل، وهو مستطيل الشكل، يغشيه حجاب من مصبعات معدنية تسمح بمرور الهواء إلى الداخل وتوزيع المياه على الشاربين، وبأسفله ثلاثة كوابيل حجرية أو حرمدانات كانت تحمل فيما مضى عارضه من الرخام تعرف فى الوثائق المملوكية بمحط الكيزان. وبأعلى هذا الشباك تسع مناطق زخرفية متنوعة وزعت



شكل (٨١)

قطاع رأسى لواجهة سبيل قايتباى بالصليبة، نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

داخل ثلاثة صفوف أفـقية، يضم كل منهـا ثلاث مناطق محصورة داخل إطار من جفت لاعب به ميمات مستديرة، الصـف الأسفل منها الذى يعلوه الشباك مباشرة يشتمل على عقد مـستقيم يزينه زخارف نباتية مـتشابكة تضم أوراقا ثلاثية طعمت بـعجائن بيضاء وسوداء وزرقاء على مهاد حمـراء، يوجد على جانبيه لوحتان بهما زخارف هندسية متشابكة بارزة.

ويضم الصف الأوسط نفـيس يعلـوه عقد عـاتق يتألف من صـنج رخامية بيضـاء وسوداء على التـوالى وفقا لأسـلوب الأبلق، ويكـتنفه عـلى كلا الجانبين

بلاطتان بـهما زخارف هندسـية تضم أطباقـا نجمية وأجزاء منـها، طعمت بدورها بـعجائن ذات لون أبيض وأحمـر على مهاد زرقاء ويلاصق البلاطـة الشمالية رنك كتابى باسم المنشئ به كتابات بيضاء على أرضية حمراء.

أما الصف الثالث أى الـعلوى فهو أكثر المناطق اتساعا، ويشتمل على ثلاث جامات دائرية نـفذت فوق مهاد من زخـارف نباتية مـتشابكة، الـوسطى أكبرها، وتحتوى على قمرية مستديرة يغطيها مصبعات خشبية، ويحيط بها إطار عريض من زخارف نـباتية متـشابكة تـضم أوراقا كأسيـة ثلاثية الشـحمات، نفـذت باللونين الأبيض والأحمر على أرضية زرقاء، على جانبيها جامتان أصغر حجما بكل منهما زخارف هندسية متشـابكة، يتوسطها شكل منشورى سداسى الأضلاع أحمر اللون فوق أرضية زرقاء.

ويتوج الصـف العلوى إزار من كتابات نسـخية بارزة محصورة داخل جفت لاعب نصها: " أمر بإنشاء هذا السبيل المبارك مولانا المقام الشريف السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصـر قايتباى سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محى العدل فى العالمين خلد الله ملكه بمحمد وآله وسلم".

هذا التوزيـع الزخرفى البديع ذى المنـاطق التسع، قلما نـصادفه على عمائر عصر المماليك الـجراكسة، ولكن نجد نظيرا له على فاتحة مخطوط الكواكب الدرية للإمام البوصيرى، المحفوظ بدبـلن، عمل بدوره برسم السلطان الأشرف قايتباى، ونقش بالحبر والألوان على الورق بدلا من الحفر على الحجر.

ويعلو الطابق الثانى للواجهة الغربية شرفتان من الخشب، الجنوبية منهما التى تعلـو كتلة المدخل، أصـغر حجمـا تتألف من نافذة مـستطيلة يغشيهـا مصبعات معدنيـة، ويتقدمهـا إلى الخارج شرفة بارزة ذات سيـاج من خشب الخرط، ترتفع فوق أربعـة كوابيل خشبـية. أما الكبـيرة أى الشماليـة فهى تعلو الـسبيل وخاصة بالكتاب، وتشتمل على أربعة عقود ترتكز على خمسة أعمدة خشبية، اثنان كبيران يحيط بهمـا اثنان صغيران، كما تحـتوى أيضا على عقدين جانـبيين ويلتف حولها

سياج من خشب الخرط المفـرغ بأشكال هندسية، ويحمـلها مجموعة من الكوابيل الخشبية، ويـعلوها رفرف خشبى مائل للوقـاية من الشمس والمطر ويشغل منتصف الزاوية الشمالية الغربـية لهذه الواجهة، عمود رخـامى مندمج يزينه زخارف نباتية وهندسية محفورة غاية فى الدقة والإتقان.

وتطل الواجهة الثـانية أى الشمالية على شارع شيخون، وهى تشمل بدورها على قسمين، الأيمن منهما أى الغربى، يضم الشباك الثانى للتسبيل، وهو مستطيل الشكل ويغـطيه مصبعات مـعدنية، وكان يتـقدمه من أسفل عارضة من الرخام أو مـحط الكيزان، ترتـكز على ثلاثة حرمدانـات حجرية، وبأعـلى هذا الشباك تسع مناطق زخرفية وزعت داخل ثلاثة صفوف أفقية تشبه تلك التى تعلو شباك التسبيل بالواجهة الغربية مع بعض الاختلافات الثانوية، ويتوجها من أعلى إزار من كتابات نسخية بارزة نصها: " وكان الفراغ من هذا السبيل المبارك السعيد فى شهر رمضان المعظم قدره سنة أربع وثمانين وثمان مائة من الهجرة النبوية والحمد لله ".

أما القسم الأيسر من هذه الواجهـة أى الشرقي، فيشغله ستة صفوف طولية تضم ثماني عشرة نافذة، بكل صف منها ثلاث نوافذ متفاوتة الأحجام بعضها فوق بعض، يغطيهـا مصبعات معدنية. يتـخلل نوافذ الصف الأسفل، صغيرة الحجم، رنـوك كتابية بـاسم المنشئ، كما يلـيها إلى أسفل شريط عـريض به زخارف نباتية متشـابكة، أرابيسك، نقشت بالحفر البارز، يـعلوها شباكان مستطيلان، يغشى كل منهما مصبعات معدنية.

ويـغطى الطابق الـعلوى من هذه الواجـهة، بأكمـله، شرفة خشـبية خاصة بالـكتاب، تستند على سـتة كوابيل خشبية، وتـطل على الواجهة من خلال ثمانية عقود مدبـبة، بالإضافة إلى عقـدين جانبيين، ترتـكز على تسعة أعـمدة خشبية، ويحيط بها سياج من خشب الخرط المفرغ بأشكال هندسية، ويعلوها رفرف خشبى مائل.

وتـطل الواجهة الثالـثة للسبيل أى الجنـوبية على حارة المنـصور، ويتوسطها مدخل فـرعى يعلوه عقد مستقـيم من صنجات حجرية معشـقة، يعلوه نفيس يليه

إلى أعلى عقد عاتق من نفس الطراز، يوجد فوقه نافدتان صغيرتان، يغطى كل منها حجاب خشبى مفرغ، ويعلوهما كابولى حجرى يحمل طابق حديث البناء تمت إزالته فى الترميمات الحديثة للسبيل

ويوجد على جانبى هذا المدخل ست نوافذ بمثابة ثلاث على كل جانب يغطى كل منها مصبعات معدنية، ويعلوها عقد مستقيم من صنج حجرية معشقة، يليه إلى أعلى نفيس فعقد عاتق من نفس الطراز.

ويفضى المدخل الرئيسى للسبيل الذى يشغل الطرف الجنوبى من الواجهة الغربية إلى داخل السبيل عن طريق دركاه مستطيلة، أرضيتها مفروشة ببلاطات حجرية، وسقفها مغطى ببراطيم خشبية، ويوجد على جانبيها بابان الأيمن منهما أى الجنوبي، معقود بعقد مدبب يلتف حوله جفت لاعب ويعلوه نافذة صغيرة، ويؤدى إلى حجرة مستطيلة. على حين يفضى الباب المقابل له أى الأيسر أو الشمالى إلى ممر منكسر به سلم، على يساره فى نهاية ضلعه الشمالى باب ثالث يفتح على حجرة السبيل، يعلوه من الداخل كتابة نسخية بارزة نصها: " أبو النصر قايتباى أعز الله أنصاره بمحمد وآله" .

وتشكل حجرة السبيل مساحة مربعة يتصدر ضلعها الجنوبى شاذروان خلق داخل تجويف يعلوه ستة صفوف من مقرنصات خشبية، بأسفلها لوح رخامى منقوش بزخارف نباتية، يكتنفه عمودان مثمنان من الرخام، ويتقدمه بأرضية الحجرة حوض لتجميع المياه، كما يتصف كل من الجدارين الشمالى والغربى شباك لتسبيل المياه وتوزيعها على المارة أما الجدار الشرقى فيشغله دخلتان يعلو كل منهما عقد مستقيم من صنجات حجرية معشقة، وهناك أيضا دخلة ثالثة توجد إلى الغرب من الشاذروان. وهذه الحجرة مسقوفة ببراطيم خشبية تحصر بينها مربوعات ومستطيلات مجلدة بالذهب والألوان، ترتكز على حنايا ركنية من مقرنص بسراويلات.

ويعلو هذا السبيل طابقان أولهما يشتمل على حجرة مستطيلة بضلعها الشمالى مجموعة من النوافذ يغشيها مصبعات معدنية ورعت فوق بعضها البعض

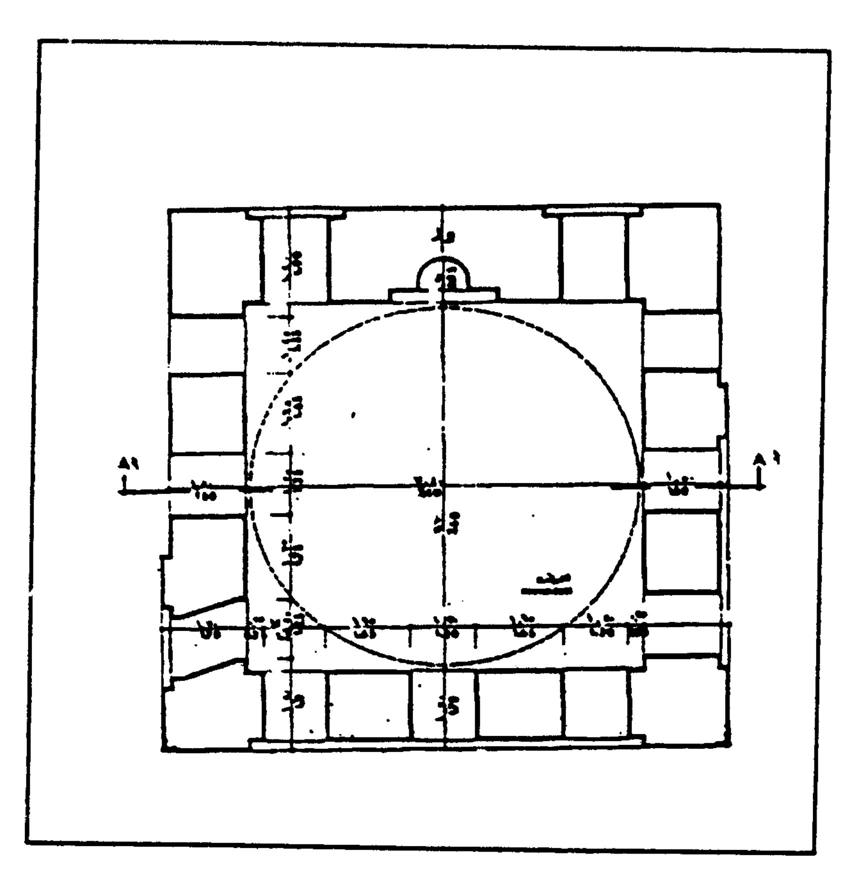
كما سبق أن نوهنا من قبل، ويغطيها سقف خرسانى حديث ويجاورها عدة حجرات أخرى مستحدثة. أما الطابق الثانى فيحتوى على الكتاب الذى يتم التوصل إليه عن طريق سلم فى نهايته ممر يوجد على جانبيه مجموعة من الغرف المستحدثة ذات السقوف الخرسانية والأرضيات الخشبية، ولم يتبق من معالمه الآثرية سوى الشرفة التى تطل على شارع الصليبة، والشرفة التى تطل على شارع شيخون.

وجدير بالذكر أن الوكالة الأسبانية للتعاون الدولى قامت بترميم وإصلاح السبيل تحت إشراف المجلس الأعلى للآثار فيما بين سنتى ١٩٩٦ - ٢٠٠٠ م، الذى عاد إليه رونقه وجمال زخرفته من جديد، كما جعل به مكتبة عامة تحت اسم " مركز سوزان مبارك للحضارة الإسلامية".

قبة السلطان قانصوة أبو سعيد:

تقع بشارع السلطان أحمد بمنشية ناصر، بقرافة المماليك الشرقية التى تشمل على مجموعة فريدة من القباب المملوكية، شيدها السلطان قانصوة أبو سعيد الأشرفى المعروف بيخشى، لأنه كان مسلوب الاختيار مع الأمراء، مهما يقولون له، يقول: يخشي، فسمته العوام يخشى "، شيدها فى شهر ذى الحجة سنة ٩٠٤هـ/ يوليو ١٤٩٩م، " وضيق بها الطريق على المار من هناك، وأعمى ترب الناس التى بجواره، وحصل للناس منه غاية الضرر بسبب ذلك " حسب رواية المؤرخ ابن إياس، ولا تزال هذه القبة تتوسط الطريق حتى الآن، وتعرف عند العامة بقبة الغفير، لسكنى غفير الآثار الخاص بهذه المنطقة بها فى وقت من الأوقات، الأمر الذى جعل هذه المنطقة من قرافة المماليك تعرف أيضا بقبة الغفير.

وتخطيط هذه القبة لا يخرج عن النمط المألوف فى تخطيط أغلب قباب مدافن عصر المماليك الجراكسة من حيث المساحة المربعة ذات الواجهات الأربع المشيدة من الحجر المشهر، والمزودة بدخلات ضحلة يتوجها صدور مقرنصة من عدة صفوف، يتجلى فيها اختلاف التشكيل فى الواجهات الأربع، حيث نجد



شكل (٨٢)

مسقط أفقى لقبة أبو سعيد قانصوه، نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

واجـهة المدخل أى الشماليـة تحتوى على دخلتـين رأسيتين، اليمنى مـنهما ضيقة، يتوج أعلاها صدر مقرنص، وتـضم نافذتان السفلى منهما مستطيلة الشكل يعلوها عقد مـستقيم من صنج حـجرية معشـقة يليه نفيس بـأعلاه عقد عاتق، من صنج حجرية مـعشقة، يعـلوه قندلية بـسيطة، شنـد. أما الدخلة اليـسرى فهى عريضة وتـشتمل عـلى المدخل المفضى إلـى داخل القبه، وهـو يرتفع عن أرضـية الشارع بحوالى المتـر ونصف المتر تقريبـا، وفتح داخل تجويف مستطـيل غائر، يغلق عليه حاليـا باب حديدى حديث، ويعلوه عقد مستقيم من صنج حجرية معشقة مشغولة

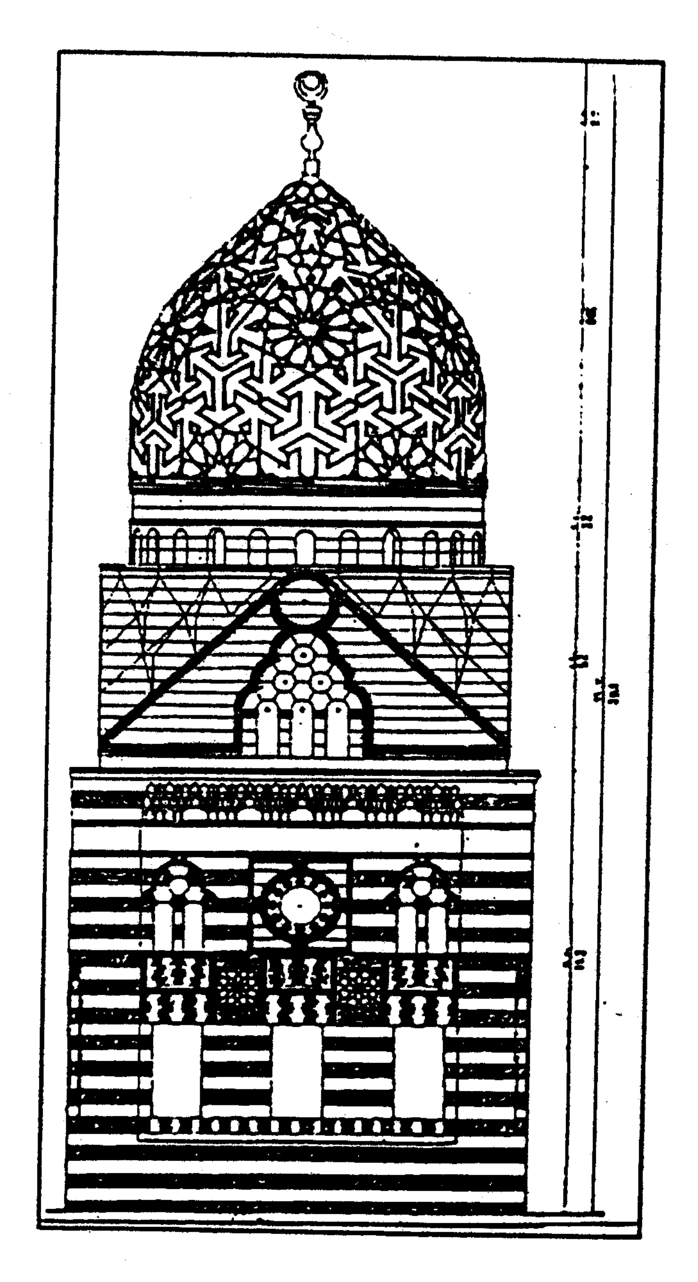
بزخارف نباتية متشابكة، أرابيسك، محفورة حفرا بارزا، يليه نفيس، فوقه عقد عاتق من صنجات حجرية معشقة بدورها، يكتنفه على الجانبين لوحتان من الحجر المشغول بزخارف نباتية متداخلة.

ويوجد إلى يسار المدخل أى شرقا، نافذة مستطيلة، الشكل يعلوها أيضا عقد مستقيم يليه نفيس، فوقه عقد عاتق، بأعلاها قندلية بسيطة ذات فتحتين معقودتين، تعلوهما قمرية مستديرة.

وتشبه الواجهة الجنوبية، الواجهة الشمالية من حيث التصميم، إذ تحتوى على دخلتين رأسيتين، الشرقية منهما ضيقة، والغربية عريضة، فتح بها ثلاث نوافذ أرضية مستطيلة الشكل، يعلو كل منها عقد مستقيم من صنج حجرية معشقة مغشاة بزخارف نباتية متشابكة، يليه نفيس يزدان بدوره بزخارف نباتية بارزة، ويعلوه عقد عاتق من صنج حجرية أيضا معشقة. وبأعلى كل نافذة، قندلية بسيطة، يتوج قمة إطارها ميمة دائرية الشكل.

وتشتمل الواجهة الشرقية بدورها على داخليتين ضحلتين، يتوج كل منهما صدر مقرنص بأسفلهما نافذتان مستطيلتان يعلوهما عقد مستقيم من صنجات حجرية معشقة، يليه نفيس، فوقه عقد عاتق من صنج معشقة، يعلوه قندليتان بسيطتان، يفصل بينهما مربع حجرى يضم بوسطه قمرية مستديرة يحيط بها جفت لاعب به أربع ميمات مستديرة، تعلو المحراب الداخلي.

أما الواجهة الغربية فقط حظيت باهتمام كبير إذ يشغلها دخلة رأسية عريضة، يتوجها من أعلى صدر مقرنص من ثلاثة صفوف، فتح فى أسفلها ثلاث نوافذ مستطيلة متشابهة، يعلو كل منها عقد مستقيم من صنج حجرية معشقة، يليه نفيس، يعلوه عقد عاتق من صنج معشقة أيضا، غشى أغلبها بزخارف نباتية متشابكة منفذة بالحفر البارز، يفصل بينها لوحتان حجريتان يزدان كل منهما بزخارف نباتية متشابكة وفتح بأعلاها قندلتان بسيطتان، يحيط بكل منهما اطار من جفت لاعب به ميمات دائرية، ويتوسطهما مربع حجرى فتح بواسطه قمرية



شكل (٨٣)

قطاع رأسى لقبة أبو سعيد قانصوه، الواجهة الغربية

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

مستديرة يحيط بها أيضا جفت لاعب به أربع ميمات مستديرة. وجدير بالملاحظة أن جميع نوافذ هذه القبة العلوية والسفلية مسدودة فى الوقت الحالى بقطع حجرية غير متجانسة الأشكال والأحجام والأنواع.

ويعلو مربع البناء الخارجي إفريز حجرى بارز يعلوه مناطق الانتقال الخارجية التى شهدت تطورا كبيرا فى عصر المماليك الجراكسة ووصلت إلى نهايتها فى هذه القبة، حيث نشاهد ثلاثة مستويات من أشكال هرمية بارزة، تبدأ بشكل هرمى بارز فى المستوى الأول الأدني، يليه شكلان فى المستوى الثاني، وثلاثة أشكال هرمية بارزة فى المستوى الثالث العلوي، إلى جانب وجود المثلثات الصغيرة الحجم على جانبى الأشكال الهرمية، وقد ساعد تعدد الأشكال الهرمية فى نواصى هذه القبة على تحويل المربع السفلى إلى منطقة ذات عشرين ضلعا، وهذا لم يعهد من قبل فى القباب السابقة.

ويشغل أواسط مناطق الانتقال قنديليات مركبة، دوست، نتيجة لارتفاع وامتداد منطقة الانتقال، كانت فى الأصل مغشاه بستائر جصية معشقة بزجاج ملون وتحتوى على زخارف متنوعة: نباتية وهندسية وكتابات نسخية، يعلو كل منها رنك كتابى باسم المنشئ نصه: " أبو سعيد قانصوه/ عز لمولانا السلطان الملك الظاهر/ عز نصره ". يلى ذلك رقبة أسطوانية بها ست عشرة نافذة ومضاهيات معقودة بعقود مدببة، يعلوها شريط من كتابات نسخية بارزة نصها " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم... إلى قوله تعالى ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم ". وترتكز على هذه الرقبة قبة ذات قطاع على هيئة عقد مدبب، مشيدة من الحجر، يزين ظاهرها زخارف هندسية قوامها طبق نجمى كامل إلى جانب أنصاف أطباق نجمية، شغلت الفراغات بين كل طبق وآخر زخرفة على هيئة الحرف اللاتينى y، المعروفة بزخارف الدقماق، التى ترى فيها الباحثة كسلر نوعا من محاولة البعد عن الزخارف النباتية التى شاع استخدامها فى زخارف القباب فى أواخر القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادي، وترى أنها لم

تكن محاولـة ناجحة على الاطلاق، مع أنـها تعد فى الـواقع أعلى مراحل تطور التشكـيل النجمى فى زخرفة القـباب، ذلك التشكيل الذى بـدء فى عهد السلطان الأشرف برسباي، وتـطور فى عهد السلطـان الأشرف قايتباى، وبلغ أوج إزدهارة فى هذه القـبة التى يرى فيهـا المرحوم حسن عبد الـوهاب لونا جديدا من زخارف القباب يكاد يكون مقتصرا عليها. ويعلو قمة القبة عمود قصير به إنتفاخات كروية يـعلوه هلال من النحاس، مـوازى للمحراب، يرجح الـبعض أن سبب استخدامه يرجع إلى اعتماد التوقيت الإسلامى عـلى الأشهر القمرية، والى أن الهلال عندما يظهر فى أول الشهر العربى ينير الأرض مبددا الظلام الذى سادها عندما كان القمر فى المحاق.

ويفضى المدخل، الذى نجده هـنا على غير العادة بعيدا عن محور المحراب، إلى داخل القـبة وهى عبارة عن مساحـة مربعة، يتصـدر جدارها الشرقى محراب بسيط مجوف، يتوجه عقد مدبب من حجارة مشهرة، يزين قمته ميمة دائرية، كان يـرتكز عـلى عمودين، لا وجـود لهمـا فى الوقت الحالي، ويـشغل طاقـيته لفظ الجلالة، الله، نفذت بحجارة حمراء داكنة بخط غير متقن. ويكتنف المحراب على الجانبـين حنيتان معقودتان بعقد مدبب، يـعلوه ميمة دائرية عند قمته، فتح فى كل حنية نافذة مستطيلة، ويزين أسفل عقود الدخلتين والمحراب إزار من كتابات نسخية نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فـول وجهك،وكان الفراغ فى رمضان المعظم سـنة أربعة وتسعمائة (أبريل ١٤٩٩م) ". وبأعلى كل حنية قندلية بسيطة، شند، يفصل بينهما مربع حجرى به قمرية مستديرة يلتف حولها جفت لاعب به أربع ميمات مستديرة.

ويشغل الجدار الغـربى المقابل له، ثلاث دخلات معقودة أيـضا بعقود مدببة بأعلى كل منها ميـمة مستديرة، فـتح فى كل منها نافذة مـستطيلة يعـلوها قندلية بـسيطة، يـتوسطـها فوق الـدخلة الوسـطى جامة دائـرية الشـكل تزدان بزخارف هـندسية. وبالجـدار الجنوبى كذلك ثلاث دخلات مـعقودة بعقـود مدببة من نفس الطراز يتوج قمتهـا ميمة مستديرة، بداخل كل منها نافذة مستطيلة الشكل، يعلوها

أيضا ثلاث قندليات بسيطة. كما يشغل الجدار الشمالى المقابل له ثلاث دخلات معقودة بدورها بعقود مدببة، فتح بالشرقيه والغربية منها نافذة مستطيلة، يعلوها قندلية بسيطة، شند، أما الدخلة الوسطى فيشغلها فتحة المدخل.

ويحيط بالقبة إزار من كتابات نسخية قرآنية، يعلوه مناطق الانتقال وهى تشتمل على أربع مثلثات قاعدتها إلى أعلى يضم كل منها تسعة صفوف من مقرنصات حجرية، يفصل بينها قندليات مركبة، دوست، كانت مكسية فى الأصل بستائر جصية معشقة بزجاج ملون، لم يتبق منها سوى آثار قليلة للغاية، يرتفع فوقها رقبة أسطوانية تزدان بمجموعة من النوافذ المعقودة كما أشرنا من قبل، تبدأ بعدها صنجات القبة فى التكور حتى القطب الذى نقش بجامة دائرية مشعة ملونة.

مدرسة السلطان الغورى:

تقع بشارع المعز لدين الله بالغورية، شيدها السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن عبد الله الجركسى، الشهير بالغورى، نسبة إلى نزوله بطبقة الغور بقلعة الجبل، فوق أنقاض مدرسة الطواشى مختص الذى كان رأس نوبة السقاة فى أيام السلطان الظاهر قانصوة أبو سعيد، بعد أن قبض عليه السلطان الغورى "وصادره وقرر عليه مالا له صورة، فأعطاه هذه المدرسة من جملة ما قرر عليه من المال، وكان بنى منها بعض شيء، فلما ملكها الغورى هدم ما بناه مختص، ثم أوسع فى بنائها وأخذ سوق الجملون وما حوله من الأسواق، وتناهى فى زخرفتها ورخامها وبنائها، فجاءت فى غاية الحسن والظرف والرونق" كما ذكر المؤرخ ابن إياس أنه "لم يعمر فى عصرنا مثلها ولكن شنعت عليه الناس أن مصروف عمارة هذه المدرسة كان من وجوه المظالم ومصادرات الناس، وأخذ غالب رخامها من أماكن شتى بأبخس الأثمان، وخرب قاعة شموال اليهودى الصيرفى، وأخذ رخامها وأبوابها، وفعل مثل ذلك بعدة قاعات، وقد سمى بعده اللطفاء هذه المدرسة المسجد الحرام، لما وقع فيها من غصوبة الأرض، ومصروف العمارة من مال فيه شبهات" وأضاف كذلك أن الناس قد "شنعوا قبله على

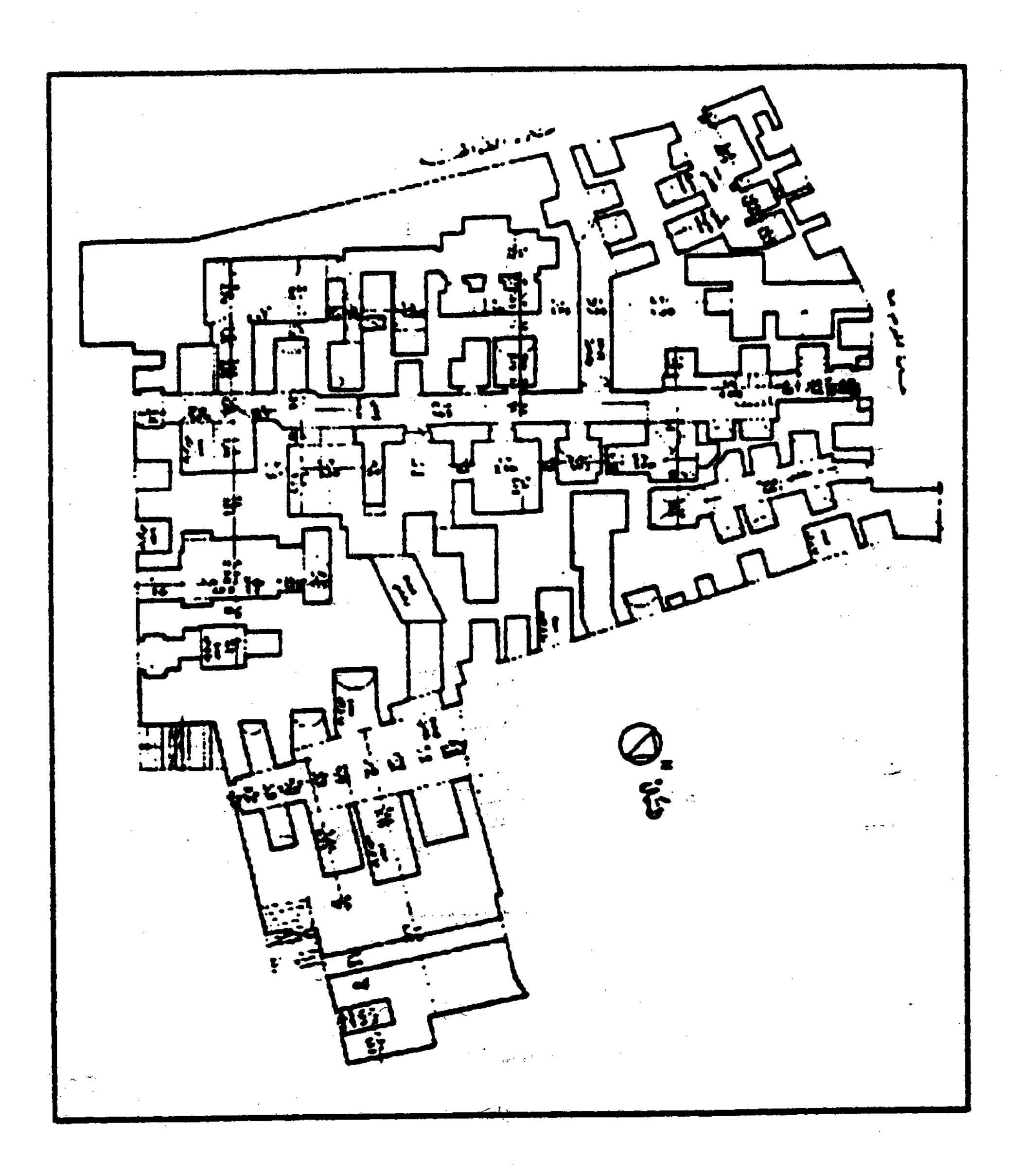
المؤيد شيخ لمابنى جامعه الذى بجوار باب زويلة أكثر ما شنعوا على الملك الأشرف قانصـوه الغورى، وأن أهل مـصر ما يطـاقون من ألسـنتهم إذا أطـلقوها فى حق الناس، فكان كما قيل:

ومن سوء حظ المرء فى الدهر أنه يلام على أفعاله وهو محسن ".

وأضاف أيضا أنه فى ليلـة عيد النحر سنة ٩٠٨هـ (٥ يونيو ١٥٠٣م) انتهى العمل من بناء مدرسة السلطان التى أنـشأها فى الشرابشيين، فعمل هناك فى تلك الليلة وليمة حافلة، وحضر فيها الخليفة المستمسك بالله يعقوب، والقضاه الأربعة، وأعيان الناس من المباشرين والأمراء، وحضـر فى تلك الليلة قراء البلد والوعاظ، ومد أسمطة حافلة، وعمل هـناك وقدة حافلة وزينت الدكاكين التى هناك من باب زويلة إلى الشـوائين، وعلقت تنانـير بها قناديل مـوقدة. وكانت تلك من الليالى المشهورة".

ثم عاد وذكـر أنه فى مـستـهل ربيع الآخـر سنـة ٩٠٩ هـ/ ٢٣ سبـتمـبر ١٥٠٣م" انتهى العمل من المدرسة... وزيـنت الشرابشيين فى ذلك اليوم، وكان يوما مشهودا... وأخـلع السلطان على قـاضى القضاة عبد الـبر بن الشحنة لأنه حكم بصحة الخطبة فى هذه المدرسة، واخلع على إينال شاد العمارة خلعة حافلة، كما أنعم عليه بـإمرة عشرة، واخلع فى ذلك اليوم عـلى عدة وافرة من المهندسين البـنائين والمرخمـين والنجارين وغـير ذلك من أرباب الصنـائع ممن كان بالمدرسة، وأنعم على الفعلاء، لكل واحد بألف درهم ".

وهذه المدرسة مصممة على نمط المبانى المعلقة، إذ يوجد أسفلها مجموعة من الدكاكين والمـرافق التى تم ربطها رأسيا بالمدرسـة بسلم داخلى يربط بين الطابقين، وهى ثلاثية الـوجهات، الرئيـسية منهـا هى الشرقية، تـطل على شارع المعز لدين الله، ومشيدة من الحجـر المشهر، ويتوج أعلاهـا صف من شرافات قوامها أوراق نباتية ثلاثية مركبة، تزدان بـنقوش نباتية بارزة. وهى تنقسم إلى قسمين، الشمالى منها يضم كتلـة المدخل، ويزدان بثلاثة صفوف من النوافذ، بالصف الأول نافذتان



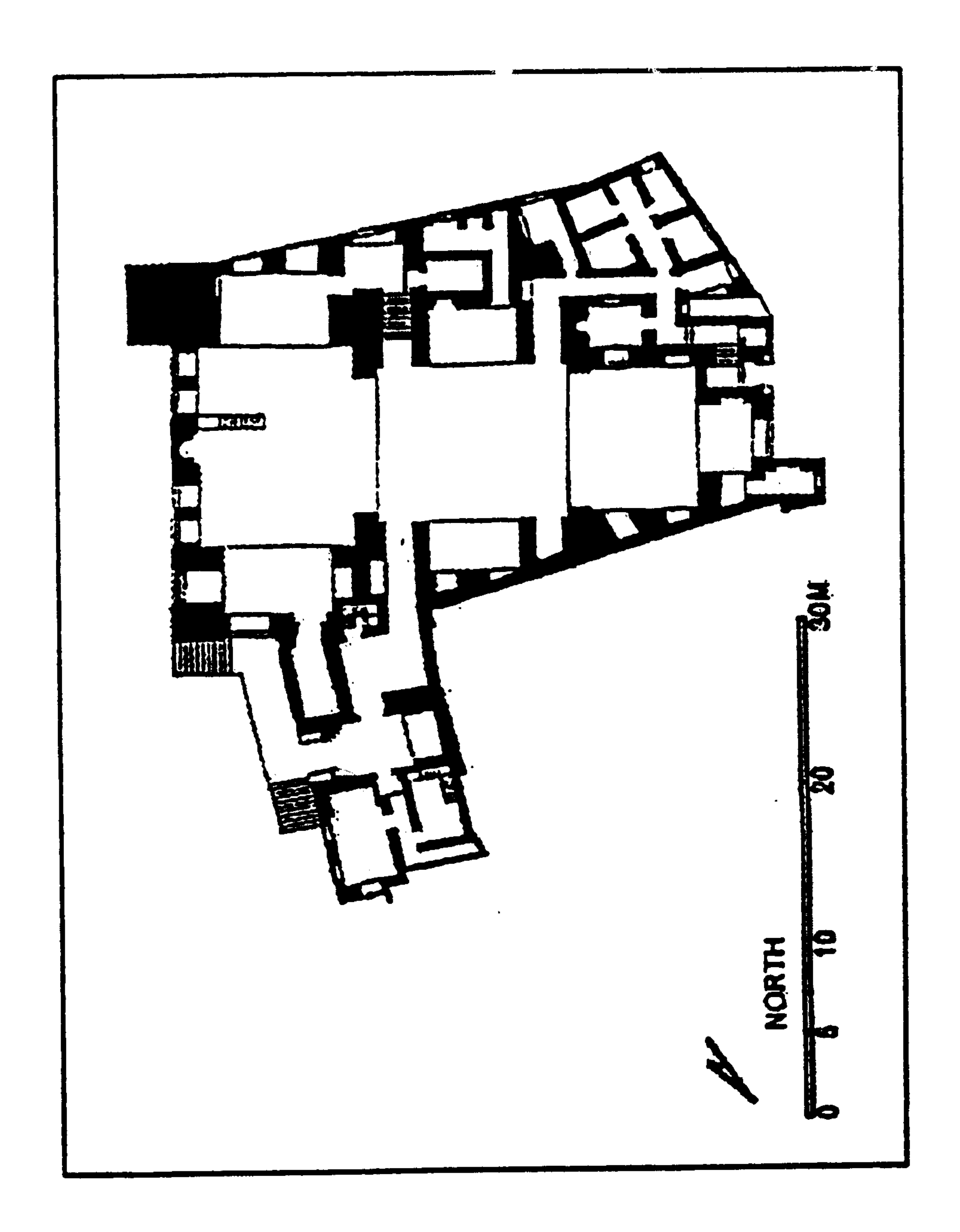
شكل (٨٤)

مسقط أفقى لمدرسة الغورى، الدور الأرضى

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

مستطيلاتان على يمين المدخل أى إلى الشمال منه، يتوج كل منهما عقد مستقيم من صنج حجرية معشقة، يعلوه عقد عاتق من نفس النوع، ويغشيها مصبعات معدنية. وبالصف الثانى أربع نوافذ معقودة بعقود مدببة، اثنتان على كل جانب، يعلو كل منهم عقد مستقيم من صنج حجرية معشقة، يليه إلى أعلى عقد عاتق من نفس الطراز. أما الصف الثالث أى العلوى فيشتمل على ثلاث نوافذ، اثنتان على يمين المدخل أى إلى الشمال منه، وواحدة على يساره أى إلى الجنوب منه، يتوج كل منها عقد مستقيم، يعلوه عقد عاتق من صنج حجرية معشقة.

ويتوسط صفوف النوافذ مدخل المدرسة الذى يتقدمه صدفة أو بسطة رخامية يصعد إليها بواسطة سلالم حجرية على الجانبين، يحيط بأعلاها دروة أو سياج رخامى يتخلله ستة قوائم يعلوها بابات مكورة، تفضى إلى تجويف المدخل الذى يحدده جفت لاعب ذو ميمات مستديرة يغشيه صفوف مكررة من رخام أبيض وأسود، على نظام الأبلق، ويتوجه عقد مدائنى ثلاثى الفصوص، يضم بداخلة طاقية زين جانبيها بمقرنصات من ستة صفوف، وزعت فى أشكال مخروطية تحصر مساحات مثلثة فيما بينها، تزدان بنقوش نباتية دقيقة بارزة كما جعل فى تواشيح العقد زخارف هندسية تضم رنكان كتابيان باسم المنشئ نصهما: "أبو النصر قانصوه الغورى/ عز لمولانا السلطان الملك الأشرف/ عز نصره". ويكتنف فتحة المدخل من أسفل مكسلتان من الحجر كسيتا بالرخام الأبيض والأسود على التولى، يعلوهما على عضادتى المدخل إزار من كتابات نسخية بارزة نصه: " بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر/ وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ". ويغلق على فتحة المدخل باب خشبى من مصراعين مصفح بالنحاس المزين بأطباق نجمية وأجزاء منها، محصورة من أعلى وأسفل بكتابات نسخية نصها: " أنشأ هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان/ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره ". ويتوج هذا الباب عقد مستقيم من صنجات معشقة يليه إلى أعلى نفيس يعلوه عقد عاتق يزدان بزخارف نباتية بارزة، فتح فوقه دخلة ذات صدر مقرنص



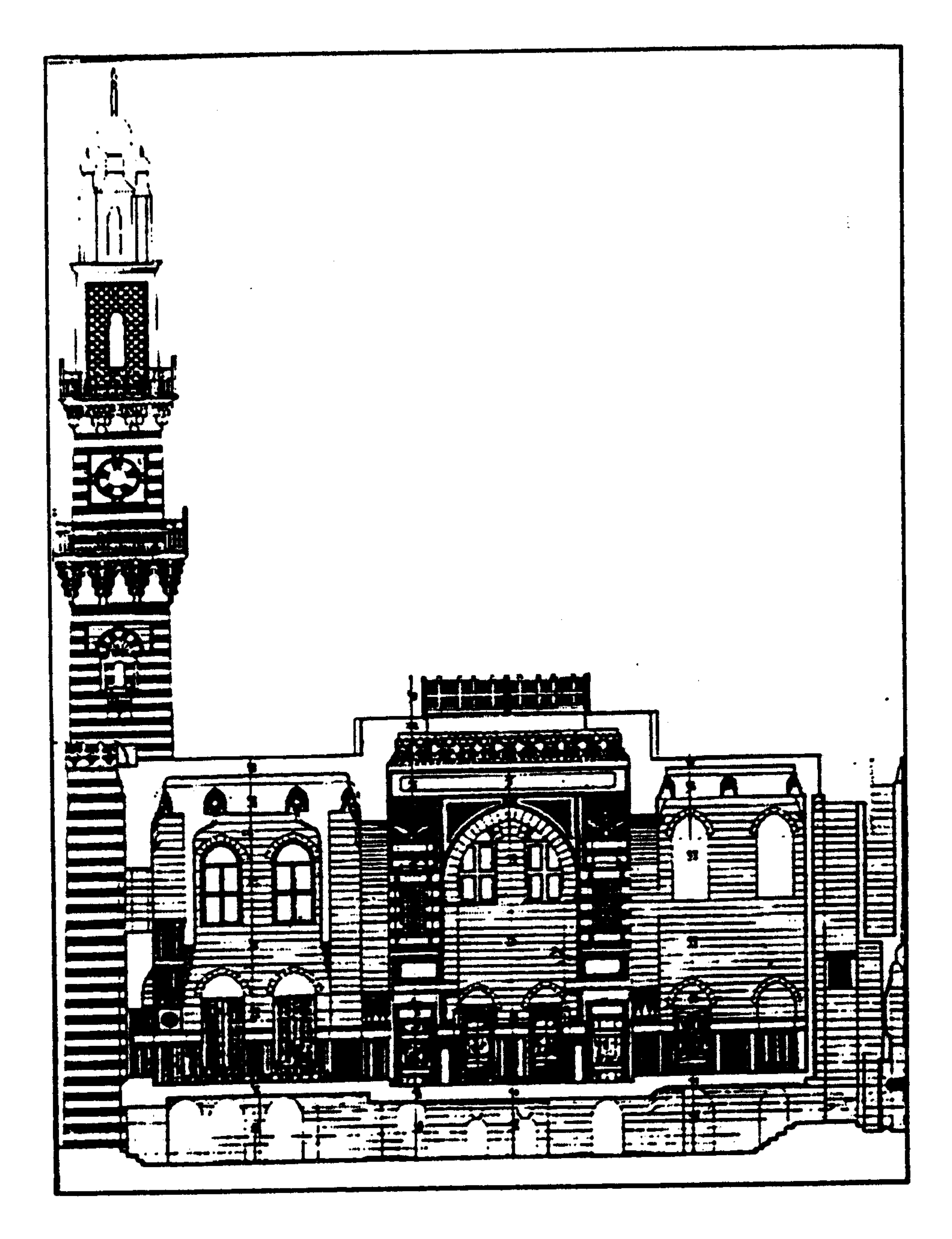
شكل (٨٥)

مسقط أفقي لمدرسة الغورى، الدور الأول، نقلا عن Archnet.org

من أربعة صفوف، بصدرها نافذة مربعة، يكتنفها عمودان مندمجان من الرخام، يعلوهما إزار من كتابات نسخية قرآنية نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم نصر الله وفتح قريب وبشر المؤمنين يا محمد ".

أما القسم الأيسر أى الجنوبى من هذه الواجهة الشرقية، فيبرز عن سمتها بحوالى خمسة أمتار ونصف المتر ويضم واجهة إيوان القبلة الذى يعلوه مربع كبير يحيط به جفت لاعب ذو ميمات مستديرة، تتصدره قمرية مستديرة مغشاة بجص معشق بزجاج ملون، وقاعدة المئذنة، كما يتخلله خمسة تجاويف رأسية يتوجها صدور مقرنصة من أربعة صفوف، فتح بكل منها صفان من النوافذ، الأرضية مستطيلة يغشيها حجاب من مصبعات معدنية، يعلوها عقود مستقيمة وعقود عاتقة تتألف من صنجات رخامية معشقة باللونين الأبيض والأسود، أبلق، والعلوية قندلية بسيطة من النوع المعروف بشند، تتألف من نافذتين معقودتين يعلوهما قمرية مستديرة، غطيت جميعها بستائر جصية مفرغة بأشكال نباتية بديعة، معشقة بزجاج ملون. ويزين أعلى هذه الواجهة إزار من كتابات نسخية بارزة نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر... إلى قوله تعالى " وكان الله عليما حكيما صدق الله العظيم. أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة من فضل الله تعالى وجزيل عطائه العميم سيدنا ومولانا ومالك رقابنا الإمام المكرم صاحب السيف والقلم والبند والعلم السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوّرى سلطان الأرض الحاكم طولها والعرض والقائم بالسنة والفرض ". وهناك إزار آخر يزين هذه الواجهة نقش فوق العقود العاتقه للنوافذ الأرضية، بخط النسخ نصه: " بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين أمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا، وسبحوه بكرة وأصيلا، هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما، تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما ".

وتشغل المئذنة الطرف الجنوبى الشرقى من هذه الواجهة، وتبرز قاعدتها عن سمتها مما يؤكد ارتكازها فوق سطح الأرض، وهى مشيدة من الحجر وتتألف من



شكل (٨٦)

قطاع رأسى لمدرسة الغورى، نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

ثلاثة طوابق، الأول مربع الشكل، فتح فى كل ضلع نافذة ضيقة داخل حنية معقودة، يكتنفها عمودان مندمجان من الرخام، يتقدم كل منهما مشترفة صغيرة ترتكز على ثلاثة صفوف من المقرنصات، والطابق الثانى مربع أيضا، فتح فى كل ضلع من أضلاعه طاقة مستديرة الشكل للإنارة والتهوية، ويلتف حوله شرفة ذات سياج من خشب الخرط، ترتفع فوق أربعة صفوف من المقرنصات، بأعلاه طابق ثالث يتألف من مربع صغير، كان مكسيا ببلاطات من القاشانى لم يعد لها وجود، فتح بكل ضلع من أضلاعه نافذة مستطيلة معقودة، ويلتف حوله شرفة ذات سياج خشبى يرتكز على أربعة صفوف من المقرنصات، ويعلوه خمسة رؤوس خشبية كمثرية الشكل، بأعلى كل منها هلال من النحاس، وهى لا تمت إلى البناء الأصلى للمئذنة، فقد أشار المؤرخ ابن إياس فى معرض حديثه عن افتتاح المدرسة أنها كانت مزودة بأربعة رؤوس وأن السلطان الغورى " هو أول من اتخذ ذلك " كما ذكر أيضا فى أحداث شهر جمادى الأولى سنة ٩١١هـ/ أكتوبر ١٥٠٥م أنها مالت وتشققت وآلت إلى السقوط فرسم السلطان بهدمها وقد ثقلت من علوها، كون أنها بأربعة رؤوس، فلما هدمت أعيدت على الصحة، وقد بنى علوها بالطوب وصنعوا عليه قاشانى أزرق " .

ويفهم من نقش للمستشرق بريس دافن، ينسب إلى سنة ١٢٢٠ هـ/ ١٨٠٥ م، أنها كانت مزودة برأسين فقط، يحيط بهما شرفة رابعة من خشب الخرط، وأنها كانت مكسية بالقاشانى من الطابق الثالث حتى قمة الرأسين، مما يجعلنا نرجح سقوط قمة المئذنة للمرة الثانية، وإعادة بنائها فى وقت نجهله حيث استبدلت قمتها المزدوجة بالرؤوس الخمسة الخشبية الحالية.

وجدير بالذكر أن هذه المئذنة لم تشيد، كما جرت العادة إلى جوار المدخل، بل أقيمت فى نهاية الكتلة المعمارية لهذه الواجهة، فى الركن الجنوبى الشرقى كما سبق أن نوهنا من قبل، بهدف إيجاد نوع من التوازن الحسى بين المدرسة وقبة المدفن والخانقاه التى توجد إلى الشرق فى مواجهة هذه المدرسة، وأيضا لتحديد فراغ الرحبة بين المنشأتين.

وبعد المئذنة تنكسر الواجهة الشرقية باتجاه الجنوب، حيث حارة الطوائجية أو الفحامين التى تطل عليها الواجهة الثانية للمدرسة أى الجنوبية، وهى غاية فى البساطة، على العكس من الواجهة الثالثة الغربية التى يوجد أسفلها مجموعة من الحوانيت يفضى إلى كل منها باب يعلوه شباك مستطيل مغشى بمصبعات معدنية يتوجه عقد مستقيم يليه إلى أعلى نفيس وعقد عاتق من صنج معشقة، كما يتوسطها المدخل الفرعى للمدرسة الذى فتح داخل تجويف غائر يحده من الخارج إطار من جفت لاعب به ميمات مستديرة، يتوجه عقد مدائنى ثلاثى الفصوص، يشغل داخله طاقية ذات نهايات مقرنصة على الجانبين، يعقبها إلى أسفل دخلة ضحلة فتح بها نافذة مستطيلة مغشاة بمصبعات معدنية، يكتنفها عمودان مندمجان من الرخام، ويتوجها صدر مقرنص من عدة صفوف.

ويوجد على جانبى فتحة المدخل من أسفل مكسلتان من الحجر، يعلوهما على عضادتى المدخل إزار من كتابات نسخية بارزة نصها: " أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره " . كما يغلق على فتحة المدخل باب خشبى يتألف من مصراعين، كسيا بزخارف برونزية مفرغة تضم بخارية وأرباعها فى الأركان، يحصرها شريطان من أعلى وأسفل بهما كتابات نسخية مطموسة، ويعلو هذا المدخل عقد مستقيم من كتلة رخامية، بأعلاه نفيس وعقد عاتق من صنج رخامية معشقة.

ويؤدى المدخل الرئيسى للمدرسة بالواجهة الشرقية إلى دركاه مستطيلة فرشت أرضيتها برخام ذى رسوم دقيقة ملونة تشبه أرضية الإيوان الشرقى لمدرسة الأشرف برسباى السابق الإشارة إليها، ويسقفها سقف خشبى يتألف من براطيم ومربوعات ملونة ومذهبة ومنقوشة بزخارف نباتية وهندسية، يحده من أسفل إزار خشبى من كتابات نسخية نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين" . ويتصدر جدارها الغربى مصطبة مفروشة ومؤزرة

بالرخام، يعلـوها كتابات كـوفية مزهرة مـنزلة بالمعـجون الأسود فى رخام أبيض نصهـا: " بسم الله الـرحمن الرحـيم وقل رب أدخلنى مـدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا صدق الله " .

ويوجـد على جانـبى هذه الدركاه بـابان، الأيمن أى الشـمالى، يفضى إلى دهلـيز ضيق يـوجد عـلى جانبـيه خلوتـان، على حـين يؤدى البـاب الأيسر أى الجنـوبى، إلى دهليز منكسر به مـزيرة، غطيت بمقرنصات بسـيطة، تعتبر فريدة فى نوعها، ويفتح فـى نهايته الجنوبية على الـصحن الأوسط للمدرسة وهو شبه مربع التخطيط، أرضيته مفروشة بالرخام الملون، ويتعامد عليه أربعة إيوانات، وفتح فى جدرانه أربعـة أبواب، اثنان بالـضلع الشمالى، يـفضى الشرقى منـهما إلى دهليز المدخل، والغربى إلى حجرة صغيرة. واثـنان فى مقابلهما بالضلع الجنوبى، يؤدى الشرقى مـنهما إلى سلم يهبط إلى دورة مياه صغيرة منعزلة، والغربى إلى دهليز به مزيرة ثانـية، غطى وجهها بحجاب من خـشب الخرط، كما يفضى أيضا إلى باب المئذنـة، وإلى حجرة صـغيرة بـها تركـيبة خشـبية فـوق قبر يـعرف بقـبر الشيخ الأنصارى، ومزودة بنافذة تطل على الإيوان الغربى للمدرسة.

ويـأعلى كل باب حـشوة تشـتمل عـلى آيات قرآنـية من المعـوذتين وسورة الإخلاص، يعلوها نفيس وعقد عاتق منقوش بزخارف نباتية متشابكة، يوجد فوقه لوحة تاريخية تـشتمل على كتابات نسخية نصها: "أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة من فضل الله وجزيل عـطائه سيدنا ومـولانا ومالك رقابـنا الإمام الأعظم والملك المكرم ملك البرين والبحرين حامى الحرمين الشريفين المقام الشريف السلطان المالك الأشرف أبو الـنصر قانـصوه الغورى عـز نصره "، كمـا تزدان واجهات الأبواب الأربعة بزخارف نبـاتية دقيقة، أرابيـسك، وبأعلى كل باب دخلة ضـحلة يتوجها حنية مغلقة معقودة بعقد منكسر ذى أضلاع مشعة، يليها إلى أسفل نافذة مستطيلة مغشاة بمصبعات معدنية، ويكتنفها عمودان من الرخام.

ويحيط بدائر الصحن من أعلى طراز بخط النسخ المملوكى نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر

ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما. . . إلى قوله تعالى: وكان الله عليما حكيما ". بالإضافة إلى آية الكرسى، يعلوه مقرنص خشبى من أربعة صفوف مجلدة بالتذهيب والألوان لاستقبال السقف الخشبى الذى يغطى هذا الصحن وهو عبارة عن شخشيخة عليها شبك سلك لمنع الطير، كما جاء بوثيقة وقف المدرسة.

ويشغل الضلع الشرقى من الصحن إيوان القبلة، وهو مستطيل الشكل ويطل على الصحن بواسطة عقد مدبب على شكل حدوة الفرس، يرتكز على دعامتين مقرنصتين، ويزين باطنه زخارف نباتية وهندسية متشابكه وبتواشيحه رنكان كتابيان باسم المنشئ، أما حافته فمنقوشة بكتابات نسخية قرآنية نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم أن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات للأولى الألباب. . . إلى قوله تعالى: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار".

ويتصدر جداره الشرقى، أسفل قمرية مستديرة مغشاة بجص معشق بزجاج ملون، محراب مجوف، يتوجه عقد مدبب من صنج رخامية معشقة، يرتكز على عمودين مثمنين من الرخام، يزين طاقيته خطوط متعرجة، وبدنه أطباق نجمية ومناطق هندسية، يوجد على جانبيه أربع نوافذ مغشاة بمصبعات معدنية، فتحت داخل حنايا معقودة بصنج معشقة، يعلوها أربع نوافذ أخرى معقودة ومكسية بستائر جصية معشقة بزجاج ملون. يوجد أسفلها شريط من كتابات نسخية منفذة بمعجون أسود نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر. . . إلى قوله تعالى وكان ذلك عند الله فوزا عظيما صدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا وكان الفراغ من هذه المدرسة المباركة السعيدة فى شهر ربيع الأول عام تسع وتسعمائة من الهجرة النبوية (أغسطس ١٥٠٣م)". ويوجد أيضا إلى يمين المحراب منبر خشبى من حشوات مجمعة مطعمة بالعاج والصدف والزرنشان، يعلو بابه كتابة قرآنية نصها: "إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما". وبه كذلك كرسى مصحف من الخشب المطعم بالسن.

وهذا الإيوان مزود فى شماله وجنوبه بسدلتين تعلو أرضيتهما عن مستوى أرضية الإيوان. بالسدلة الشمالية منهما أربع فتحات معقودة واحدة بالضلع الشرقى، وتحتلها نافذة تطل على شارع المعز لدين الله واثنتان بالضلع الشمالى، الشرقية منهما بها نافذة أخرى تطل على مدخل المدرسة الرئيسى، والغربية تفضى إلى غرفة مستطيلة التخطيط، تطل نوافذها على مدخل المدرسة. وبالضلع الغربى لهذه السدلة كتبية كما جاء بوثيقة الوقف، يغلق عليها مصرعان من الخشب، بكل منهما حشوات مجمعة ومطعمة بالسن والزرنشان، ويعلوهما كتابات كوفية مربعة نصها: "إن القرآن الكريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون". كما ذهب دائرهما ونقش فوقهما النص التالى بخط النسخ: "بسم الله الرحمن الرحيم وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن".

وتضم السدل الجنوبية بدورها أربع فتحات، اثنتان بضلعها الجنوبى تضمان نافذتان أرضيتان معقودتان، يغشى كل منهما مصبعات معدنية، ونافذتان علويتان يغطى كل منهما ستارة من الجص المعشق بزجاج ملون، تطل جميعها على حارة الطواشية أو الفحامين، وبضلعها الشرقى كتبية يغلق عليها مصراعان من حشوات خشبية مجمعة ومطعمة بالعاج والصدف، وبضلعها الغربى خلوة مستطيلة التخطيط، برسم خطيب المدرسة كما جاء فى وثيقة الوقف.

ويغطى هذا الإيوان سقف خشبى من براطيم ذات مربوعات مجلدة بالذهب والألوان، يحده من أسفل إزار مقسم إلى بحور مستطيلة نقشت بها كتابات نسخية قرآنية نصها فى القسم الأوسط من الإيوان "بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه... إلى قوله تعالى: والله يرزق من يشاء بغير حساب صدق الله العظيم ورسوله الكريم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا". ونصها على السدلة الشمالية "بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنو إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون صدق الله العظيم". ونصها على السدلة الجنوبية "بسم الله الرحمن الرحيم إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون".

ويقع الإيوان الغربى فى مقابل إيوان القبلة، وهو أيضا مستطيل الشكل ويطل على الصحن من خلال عقد مدبب على هيئة حدوة فرس، يرتكز على دعامتين من المقرنصات، يشغل تواشيحه زخارف هندسية متنوعة تضم رنكان كتابيان باسم المنشئ، وبإطاره كتابات نسخية قرآنية نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط... إلى قوله تعالى: وترزق من تشاء بغير حساب". وأرضيته مفروشة بالرخام الملون بأشكال هندسية متنوعة، وسقفه مغطى ببراطيم خشبية ذات مربوعات مذهبة وملونة يحدها من أسفل إزار به كتابات نسخية، نقشت داخل بحور مستطيلة، نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلو على وأتونى مسلمين أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة السعيدة من فضل الله تعالى وجزيل عطائه العميم سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره ".

وفتح ضلعه الشمالى أربع نوافذ تعلو بعضها البعض، الأرضية منها مغشاة بحجاب من مصبعات معدنية، والعلوية، من الجص ومعقودة ومعشقة بزجاج ملون، يقابلها بالضلع الغربى للإيوان نافذة أرضية إلى الشرق مغشاة بمصبعات معدنية تطل على ضريح الشيخ الأنصارى، يوجد إلى الغرب منها دخلة معقودة كانت تستخدم لحفظ الكتب، يعلوها نافذتان معقودتان يغطى كل منهما ستارة من الجص المعشق بزجاج ملون.

ويشغل الضلع الغربى لهذا الإيوان حنية معقودة بدورها بعقد مدبب على شكل حدوة فرس، وأرضيتها أعلى من أرضية الإيوان، بضلعها الغربى نافذة أرضية يغشيها مصبعات معدنية، يعلوها نافذة قندلية بسيطة، شند، يزينها زخارف جصية معشقة بزجاج ملون، كما فتح فى كل من ضلعيها الشمالى والجنوبى حنية معقودة.

ويعلو هذه الحنية أيضا دكة خشبية محمولة على كابولين مذهبين ولها سياج مطعم بالسن ومنقوش عليها بخط النسخ النص التالى: " أمر بإنشاء هذه المدرسة

المباركة السعيدة من فضل الله وجزيل عطائه العميم سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره " . ويزين باطنها سقف من براطيم خشبية تحصر بينها مربوعات وتماسيح مجلدة بالذهب والألوان، يحده من أسفل إزار من كتابات نسخية قرآنية مذهبة.

أما فيما يتعلق بالإيوانين الشمالى والجنوبى أو السدلتين، فهما أصغر إيوانات المدرسة مساحة، ويفتحان على الصحن من خلال عقد مدبب على هيئة حدوة الفرس، له أرجل طويلة ممتدة تنتهى بزخارف مقرنصة، ويتصدر جدار كل من السدلتين حنيتان معقودتان، يغلق على كل منهما باب خشبى من مصراعين، يفضى الباب الغربى بالسدلة الجنوبية إلى دهليز طويل يتفرع منه شرقا فناء سماوى وخلوة مستطيلة الشكل، والباب الشرقى إلى كتبية لحفظ الكتب والمصاحف الشريفة، كما هو الحال بالنسبة لبابى السدلة الشمالية المقابلة. ويعلو كل حنية نافذة جصية معقودة ومعشقة بزجاج ملون، كما يغطى كل سدلة سقف خشبى يرتكز على إزار ذى حنايا ركنية تنتهى بورقة نباتية ثلاثية الشحمات أى بسراويلات. ويتم الوصول إلى هذه الدكة عن طريق السلم الموصل إلى سطح المدرسة أو إلى مئذنتها.

ويحيط بجدران الصحن والإيوانات المتعامدة عليه وزرات رخامية طولية، تنتهى فى أعلاها بكتابات كوفية مزهرة منفذة بمعجون أسود على رخام أبيض تشتمل على آيات قرآنية نصها على وزرات جدران القبلة: " بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم. . . إلى قوله تعالى: إن الله على كل شيء قدير صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبة وسلم. وكان الفراغ من المدرسة السعيدة فى شهر ربيع الأول عام تسع وتسعمائة (أغسطس ١٥٠٣ م) ". وعلى وزرات جدران الإيوان الغربى " بسم الله الرحمن الرحيم قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون. . . إلى قوله تعالى: وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين. صدق الله العظيم ورسوله الكريم" .

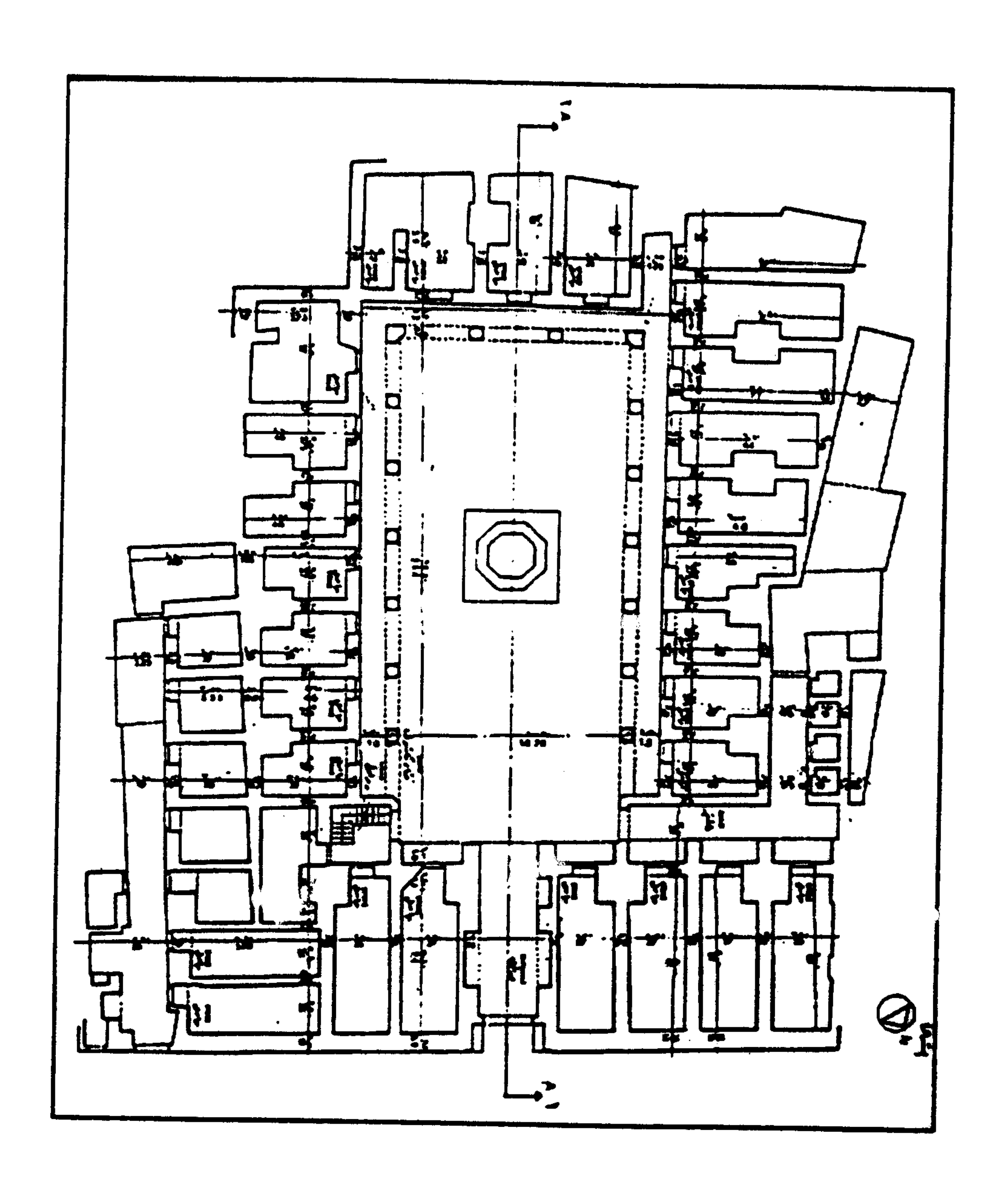
خلاصة القول أن هذه المدرسة تعكس لنا مدى عناية المعمار فى نهاية عصر المماليك الجراكسة وفى أيام السلطان قانصوه الغورى بصفة خاصة، بالمنشآت المعمارية، فقد أفرط فى زخرفتها لدرجة أنها خرجت عن وقار العمائر الدينية إلى بهرجة القاعات السكنية مما حدا بالسلطان العثمانى سليم الأول أن يصفها بعد زيارته لها بقوله: " هذه قاعة تاجر "، كما حرص كذلك على التماثل والمضاهاة فى أغلب أجزائها وقد تعدى ذلك إلى خارجها إذ أنشأ تجاهها قبة وخانقاه وسبيل وكتاب " اتفقت معها طولا وعرضا وزخرفا وهيأ لمن يعبر بينهما فرصة المتعة بجو فنى يملأ النفس روعة وجلالا "، حسبما يذكر المرحوم حسن عبد الوهاب. وكان يغطى ما بين المدرسة والقبة سقيفة خشبية صورها لنا دافيد روبرت فى كتابة مصر والنوبة، وقد ظلت هذه السقيفة قائمة حتى تم هدمها فى سنة ١٢٩٩ هـ/ ١٨٨٢م.

وقد أولت لجنة حفظ الآثار العربية جل اهتمامها بهذه المدرسة والقبة التى فى مواجهتها، وقامت بالعديد من أعمال الترميم والإصلاحات فيهما فى الفترة من ١٣٢٠ - ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٢-١٩٠٧م، كما أجريت بالمدرسة عدة إصلاحات أخرى فى عهد الملك فاروق. كذلك قام المجلس الأعلى للآثار مؤخرا بعملية ترميم شاملة لكل من المدرسة والقبة، أعادت إليهما ما كانا عليه من رونق وبهاء.

وكالة الغورى:

تقع بشارع التبليطة، خلف خان الزراكشة، بالقرب من المجموعة المعمارية التى تضم المدرسة، والقبة والخانقاه، والسبيل والكتاب والمقعد، والمنزل بحى الأزهر، التى قام بتشييدها السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن عبد الله الجركسى، الشهير بالغورى، فيما بين سنتى ٩٠٩ - ٩١٠هـ/ ١٥٠٣-١٥٠٤م.

وهى تعد واحدة من المنشآت التجارية التى تم بناؤها زمن سلاطين المماليك نتيجة للازدهار التجارى الذى شهده هذا العصر، والوكالة مرادف للفظ فندق أو خان كما يفهم من عبارة المقريزى عند حديثة عن وكالة الأمير قوصون الساقى، إذ



شكل (٨٧)

مسقط أفقي لوكالة الغوري، الدور الأرضى

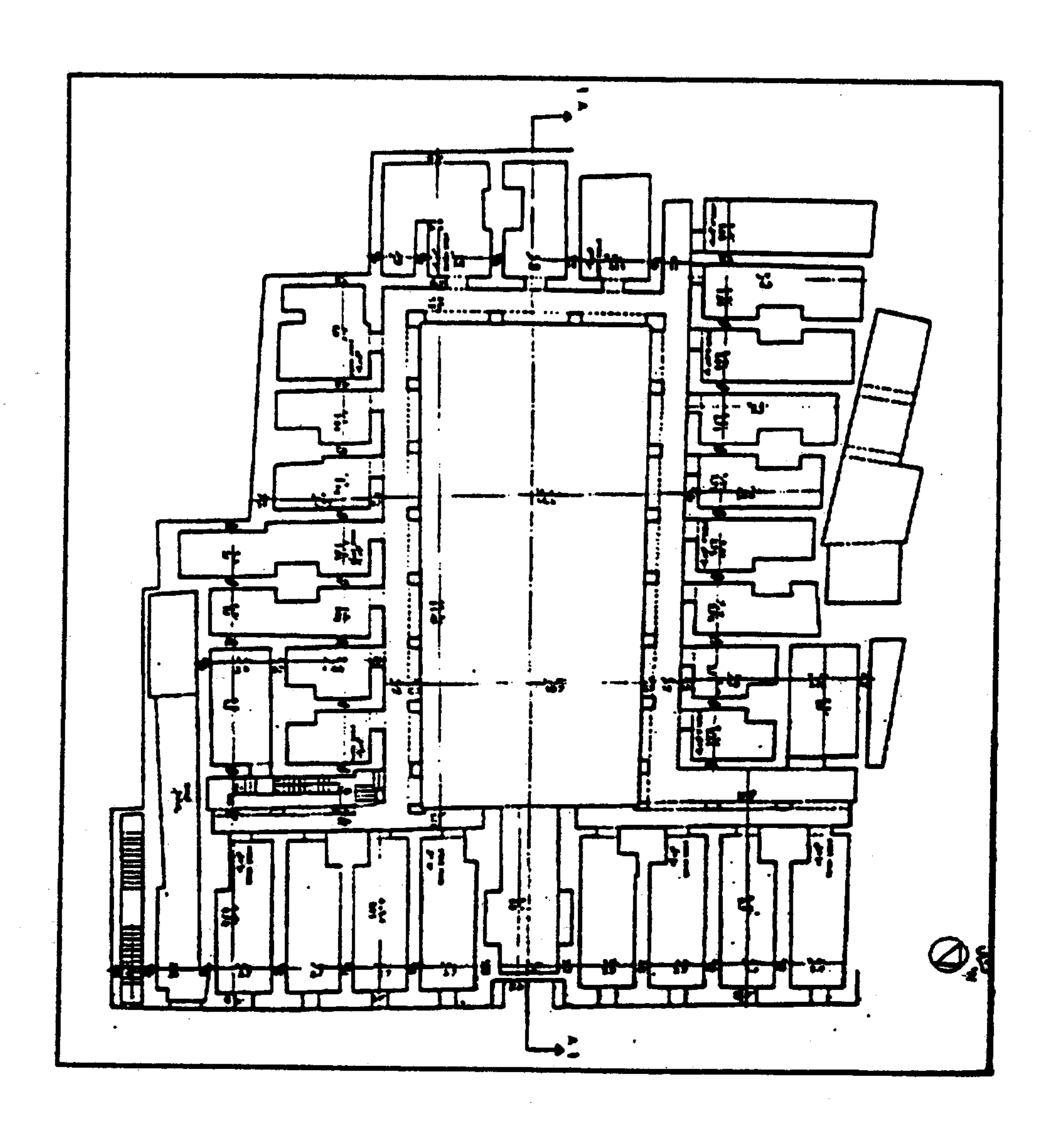
نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

يقول: "إن وكالة قوصون فى معنى الفندق أو الخان " لأن الغرض منها أن تكون مأوى للتجار المسافرين، والقوافل ومخزنا للسلع والبضائع التجارية المصاحبة لهم، كما كانت مكانا لعقد الصفقات التجارية.

وقد شهد عصر المماليك الجراكسة إنشاء العديد من الوكالات، لعل أهمها وكالة الجوانية التى أقامها السلطان الظاهر برقوق سنة ٧٩٣ هـ/ ١٣٩١م، للتجار الشاميين، ووكالتا السلطان الأشرف قايتباى، خلف الجامع اللأزهر، وبالقرب من باب النصر، ووكالة المستخرج بجوار قصر بشتاك بشارع المعز لدين الله التى ابتاعها السلطان قانصوه الغورى من الشيخ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن زين الدين الشهير بابن الموقع، بمبلغ ٢٥٢٠ دينار ذهبيا، حسبما ورد فى وثيقة الوقف، ووكالة الغورى بالأزهر التى نحن بصددها، وهى تشتمل على خمسة طوابق، الأرضى والأول بهما حواصل لتخزين البضائع والسلع التجارية، على حين تشتمل الطوابق الثلاثة الباقية على أورقة مخصصة لسكنى التجار وعائلاتهم.

الواجهة الرئيسية أى الشمالية مشيدة فى أسفلها من الحجر، وفى أعلاها من الآجر، ويتوسطها المدخل الرئيسى للوكالة وهو عبارة عن تجويف رأسى بارتفاع طابقين، يحده من الخارج جفت لاعب به ميمات مستديرة، يتوجه من أعلى مشربية من الخشب بأسفلها عقد مدائنى ثلاثى الفصوص من حجر مشهر، بداخله طاقية من زخارف مقرنصة، ويكتنفه من أسفل مكسلتان من الحجر يتوسطها فتحة المدخل التى يغلق عليها باب خشبى من مصراعين، يعلوها عقد مستقيم من صنج حجرية يغشيها زخارف نباتية قوامها أوراق ثلاثية الشحمات مكررة، يليه نفيس، يزينه زخارف نباتية محفورة، فوقه عقد عاتق من صنج معشقة باللونين الأبيض والأحمر أى مشهر، يعلوه ثلاثة صفوف من المقرنصات، يلتف حولها جفت لاعب ذو ميمات مستديرة، ويعلوها ثلاثة شبابيك خشبية مستطيلة الشكل، بكل منها أربع حشوات أفقية، العليا منها بها فتحات للتهوية والإضاءة.

ويوجد على جانبى تجويف المدخل نوافذ حواصل الدور الأول، وأروقة الأدوار العليا للوكالة، حيث نجد على يمين المدخل أى غربا أربعة صفوف من



شكل (٨٨)

مسقط أفقى لوكالة الغورى، الدور الأول

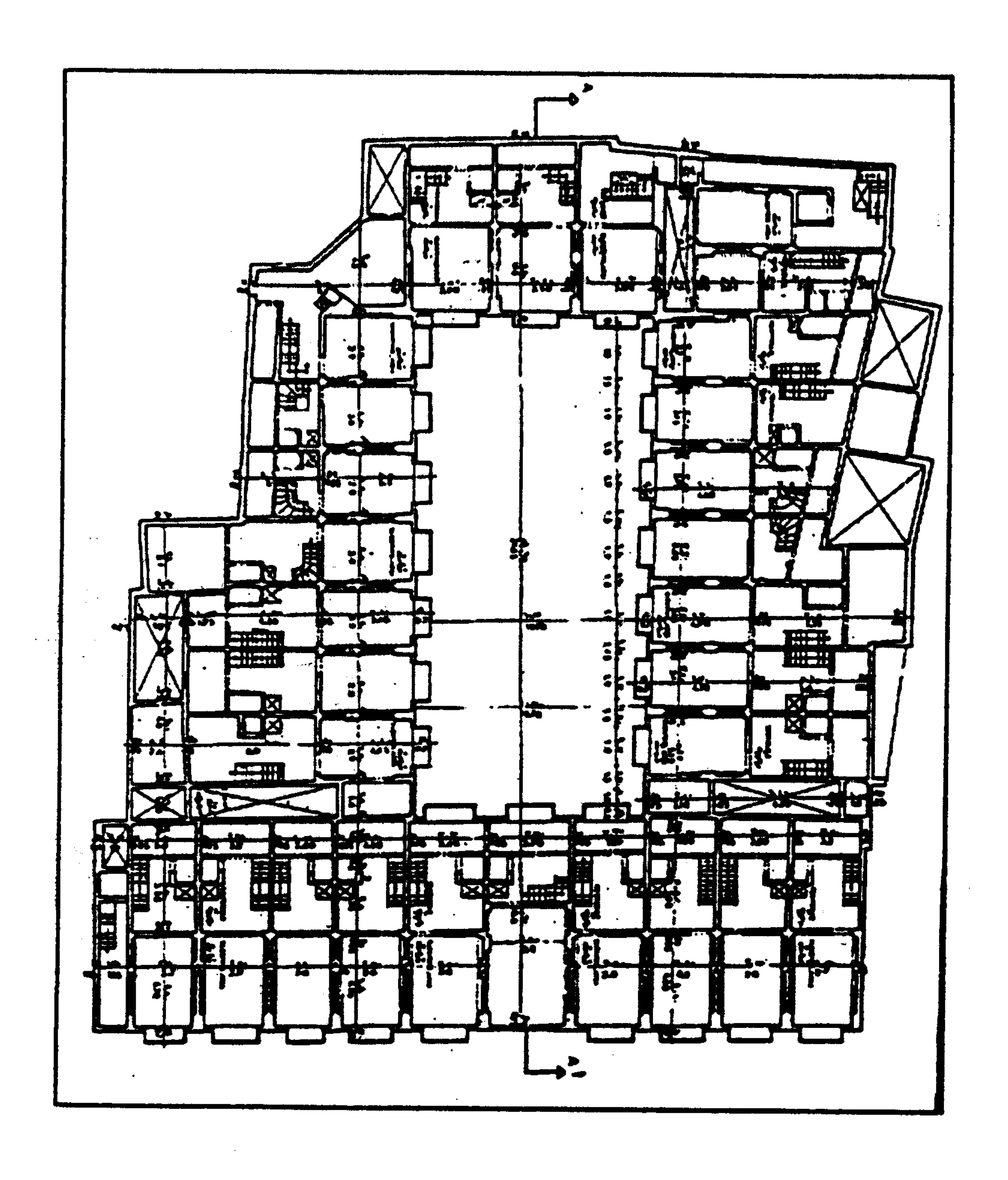
نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

النوافذ والمشربيات تعلو بعضها البعض، أربع منها مستطيلة الشكل، مغشاة بمصبعات معدنية بالدور الأول، يعلوها اثنتا عشرة نافذة بالدور الثانى، وزعت على أربع مجموعات، يغطى كل منها خمس حشوات خشبية، السفلى منها منقوشة بحنيات صماء معقودة، يعلوها بالدور الثالث عدد مماثل من نوافذ مستطيلة يغطيها مصبعات معدنية، يوجد فوقها بالدور الرابع أربع مشربيات من خشب الخرط الدقيق، ترتكز كل واحدة منها على ستة كوابيل خشبية يغطيها ثلاث نوافذ بالواجهة واثنتان جانبيتان، يحدها من أسفل حنيات صماء معقودة، ويتوجها من أعلى رفرف خشبى بإزار.

أما الجانب الأيسر من الواجهة، أى الشرقى، فيشغلة ست نوافذ بالدور الأول، وست عشرة نافذة بالدور الثانى، ومثلها فى الدور الثالث، يعلوها خمس مشربيات بالدور الرابع. كما تضم هذه الواجهة الشمالية بأقصى طرفها الشرقى مدخل فرعى يعلوه عقد مدبب، يفضى إلى دهليز مستطيل، يعلوه قبو طولى، فتح بضلعه الأيمن أى الغربى سبعة أبواب، وبضلعه الجنوبى باب ثامن، وبضلعه الشرقى باب تاسع، وهى جميعا معقودة بعقود مدببة وتفتح على حواصل متشابهة ذات أسقف مقبية.

أما المدخل الرئيسى للوكالة فيفضى إلى دركاه مربعة يعلوها قبو متقاطع، يتوسطه شكل نجمى ثمانى الأطراف، تفضى إلى ممر مستطيل يسقفه قبو حجرى، يفتح مباشرة على الفناء الأوسط للوكالة من خلال عقد مدبب، ربما لتسهيل دخول وخروج السلع والبضائع من وإلى حواصل الوكالة، وأيضا لسهولة جذب المشترين إلى الداخل.

والفناء الأوسط سماوى مكشوف، ذو تخطيط مستطيل الشكل، يتوسطه فواره مثمنة الأضلاع غشيت بالرخام المتعدد الألوان بأشكال هندسية بديعة، كان مخصصا لاستقبال دواب التجار ولا زالت به بقايا الحلقات المعدنية التى كانت تربط فيها هذه الدواب، ويحيط به أربعة أروقة، الروقان الشرقى والغربى يطلان



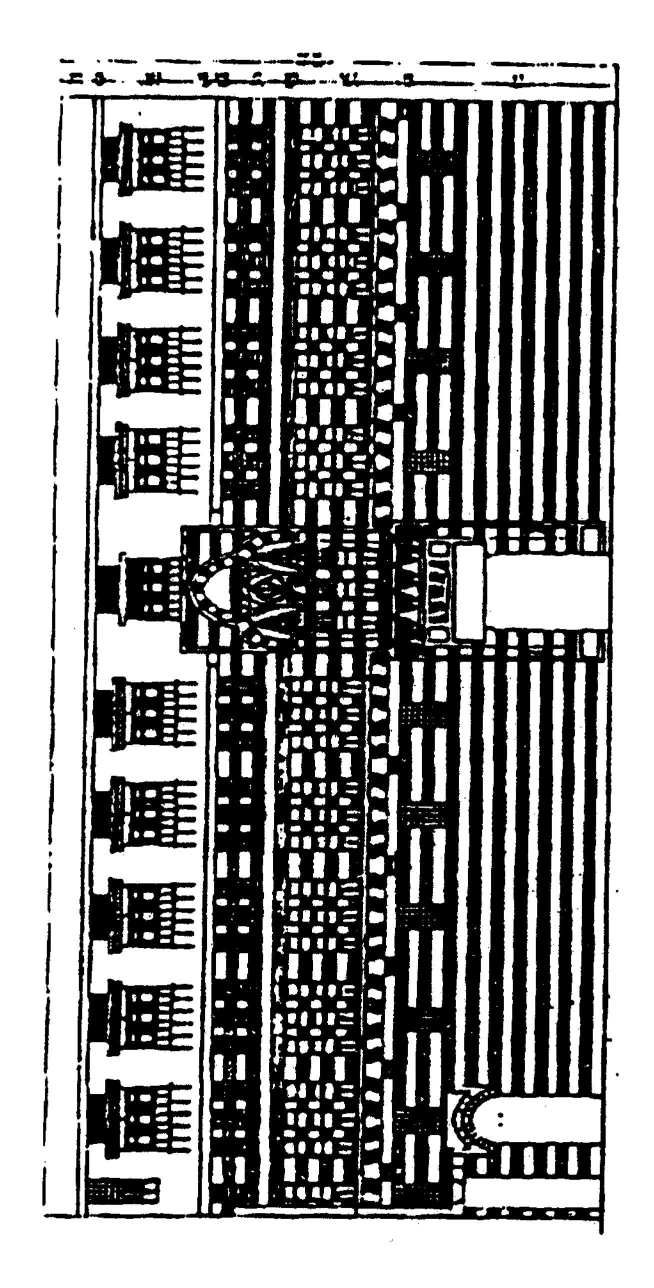
شكل (٨٩)

مسقط أفقي لوكالة الغوري، الدور الرابع، نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

عليه من خلال بـائكة تضم ثمانية عقود حـجرية مدببة، على العكس من الرواقين الـشمالى والجنوبى اللذان يطلان عليه من خلال بـائكة ثلاثية العقود، وهى جميعا ترتـكز على دعامات حجريـة مقرنصة فى أعلاها، ومشـطوفة فى أسفلها، ويربط بينها ميدات خشـبية علوية. كما يعلو تواشيح عقود الرواق الشمالى رنكان كتابيان باسم المنشئ نصهمـا: "قانصوه أبـو النصر/ عـز لمولانا السـلطان الأشرف/ عز نصـره". ويقع خلف هذه الاورقة مجموعة مـن الحواصل المقبية يصل عددها إلى ثمانـية وعشرين حاصلا وزعت عـلى الدور الأرضى، كما يوجـد بأقصى الطرف الـشرقى من البائـكة الشمـالية سلم حجـرى صاعدا إلى أعلى، بـأسفله مدخلان معقودان يفضى كل منهما إلى حاصل مقبى.

ويشتمل الطابق الثانى بدوره على عدد مماثل من الحواصل، يسقف كل منها قبو متقاطع، ويتقدمها ممر مغطى بسقف خشبى يشرف على فناء الوكالة من خلال عقود مدببة، زود كل مـنها بحاجز أو دروة من خشب الخرط الدقيق. أما الطوابق العليا أى الثالث والرابع والخامس فتحتوى على تسعة وعشرين مسكنا مستقلا يمكن التمييز بين نموذجين منهـا، الأول يتألف من ثلاثة طوابق تم الاتصال بينها رأسيا، وهى تـضم إيوان مسـتطيل الـشكل يغـطيه سقف خـشبى بديع، ويـتصدره ثلاثة شبابيك فى المستويين الأول والثانى، ومشربية من خشب الخرط فى المستوى الثالث العلـوى، تتقدمه دور قـاعة ذات شكل مسـتطيل أيضـا، بضلعهـا الخارجى بابان أحـدهما يفضى إلى دركـاه المدخل، والآخر إلى بيت صغـير، يوجد خلف الدور قاعة.

ويحتـوى النموذج كذلك على دركاه مستطـيلة الشكل بها باب الدخول إلى المسكن، وهو يفتح على دهليز يصل بين عناصر المستوى الأول بالإضافة إلى سلم حجرى صاعد إلى أعلى حيث المستويين الثانى والثالث للمسكن وهما يشبهان من حيث الـتخطيط الداخـلى، المستوى الأول، وإن وجدت حـاليا بعض الاختلافات نتيجـة لأسلوب الترميم الذى لم يـحترم النسق القديم لمـساكن الوكالة، كما يضم المسكن أيضا مطبخ ودورة مياه وحمام.



شكل (٩٠)

قطاع رأسى لوكالة الغورى، الواجهة الشمالية

نقلا عن منظمة العواصم والمدن الإسلامية

أما النموذج الثانى فيتألف من مسكن على مستوى أو منسوب واحد، ويضم قاعة كبيرة، تتفرع منها قاعة صغيرة لها باب خاص يغلق عليها.

وجميع القاعات تشغل الأضلاع الأربعة فى الطوابق العليا: الثالث والرابع والخامس، حول الفناء الأوسط الداخلى للوكالة وتطل عليه من خلال ثلاث مجموعات من النوافذ يعلو بعضها البعض، كما هو الحال بالنسبة لقاعات الرواق الشمالى التى تطل أيضا على الواجهة الرئيسية للوكالة، على حين يشغل الدهليز المؤدى إلى بعض قاعات كل من الضلع الجنوبى والضلعين الشرقى والغربى، المحيط الخارجى للمبنى الملاصق للجار حيث خلق به مساحات سماوية مكشوفة للإنارة والتهوية.

وروعى أيضا فى تصميم مساكن هذه الوكالة طابع البساطة والخصوصية حيث تم فصل بعضها عن بعض رأسيا وأفقيا، مراعاة لتعليم الإسلام خاصة فى منشآة يتم التعامل فيها بالبيع والشراء ويطرقها العديد من الغرباء.

بقى أن نشير فى النهاية إلى قيام المجلس الأعلى للآثار المصرية مؤخرا بعمليات ترميم وإصلاح شامل لمبانى هذه الوكالة، كما جعل منها مركزا لإحياء تقاليد بعض الحرف والصناعات الإسلامية تحت إشراف وزارة الثقافة.

***

ثبت بأسماء سلاطين المماليك الجراكسة

*	الظاهر برقوق (١)	٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م
*	المنصور حاجى الثانى (٢)	٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م
*	الظاهر برقوق (٢)	٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م
*	الناصر فرج (١)	٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م
*	المنصور عبد العزيز	٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م
*	الناصر فرج (٢)	٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م
*	الخليفة المستعين	٨١٥ هـ / ١٤١٢ م
*	المؤيد شيخ	٨١٥ هـ / ١٤١٢ م
*	المظفر أحمد الثانى	٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م
*	الظاهر ططر	٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م
*	الصالح محمد الثانى	٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م
*	الأشرف برسباى	٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م
*	العزيز يوسف	٨٤١ هـ / ١٤٣٨ م
*	الظاهر جقمق	٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م
*	المنصور عثمان	٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م
*	الأشرف إينال	٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م
*	المؤيد أحمد الثالث	٨٦٥ هـ / ١٤٦١ م
*	الظاهر خشقدم	٨٦٥ هـ / ١٤٦١ م
*	الظاهر يلباى	٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م

«تابع» ثبت بأسماء سلاطين المماليك الجراكسة		
*	الظاهر تمربغا	٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م
*	الأشرف قايتباى	٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م
*	الناصر محمد الرابع	٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م
*	الظاهر قانصوه الأول	٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م
*	الأشرف جانبلاط	٩٠٥ هـ / ١٥٠٠ م
*	العادل طومان باى	٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م
*	الأشرف قانصوه الغورى	٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م
*	الأشرف طومان باى الثانى	٩٢٢ - ٩٢٣ هـ / ١٥١٦ - ١٥١٧ م


ثبت
المصادر والمراجع



أولا: المصادر والمراجع العربية:

* إبراهيم أحمد العدوي، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، القاهرة، ١٩٥٨.

* إبراهيم أحمد العدوي، مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام، القاهرة، ١٩٩٢.

* إبراهيم على طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطي، القاهرة، ١٩٦٨.

* إبراهيم نصحي، مصر في عصر الرومان، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني، القاهرة (بدون تاريخ).

* ابن أبي أصيبعة، كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة، ١٨٨٢، ١٨٨٣.

* ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ليدن، ١٨٦٦ - ١٨٧٤، بولاق، ١٢٩٠هـ.

* ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، نشررو بن ليفي، كمبردج، ١٩٣٧.

* ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، طبعة بولاق، ١٣١١هـ، وطبعة محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦٠ - ١٩٦٣.

* ابن إياس، نشق الأزهار في عجائب الأمصار، باريس، ١٨٠٧.

* ابن أيبك، درر التيجان وغرر تواريخ الزمان، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٠٥ تاريخ.

* ابن أيبك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح المنجد، القاهرة، ١٩٦١.

* ابن أيبك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، الدرة الذكية فى أخبار الدولة التركية، تحقيق أولبرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١ .

* ابن بطوطة، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، باريس ١٨٥٣ .

* ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، تحقيق بوبر، كاليفورنيا ١٩٣٠ - ١٩٤٢ .

* ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٣٠ - ١٩٧٢.

* ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق محمد محمد أمين ونبيل عبد العزيز، القاهرة ١٩٨٥ - ١٩٩٤ .

* ابن جبير، الرحلة، بيروت ١٩٦١ .

* ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، شيكاغو، ١٩٠٧.

* ابن حبيب، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦ - ١٩٨٢ .

* ابن حجر، الإصابة في أخبار الصحابة، القاهرة، ١٣٢٨هـ.

* ابن حجر، الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة، حيدر آباد، الهند ١٣٤٨ - ١٣٥٦هـ.

* ابن حجر، إنباء الغمر، تحقيق حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٩ - ١٩٧٢ .

* ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة، ١٩١٠.

* ابن الحسين، كتاب البيزرة، تحقيق محمد كرد على، دمشق، ١٩٥٢.

* ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق Vonderheyden، الجزائر، باريس، ١٩٢٧.

* ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق العبادي والكتاني، الدار البيضاء، ١٩٦٤.

* ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت ١٩٥٧
* ابن خلدون، المقدمة، بيروت (بدون تاريخ).
* ابن خلكان، وفيات الأعيان، بولاق، ١٢٩٩هـ.
* ابن الداية، المكافأة، القاهرة، ١٩١٤، بولاق، ١٩٤١.
* ابن دقماق، الإنتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة، ١٩٨٣.
* ابن الراهب، تاريخ ابن الراهب، نشر لويس شيخو، بيروت، ١٩٠٣.
* ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٨٩١.
* ابن زولاق، أخبار سيبويه المصري، نشره محمد إبراهيم سعد وحسين الدين، القاهرة، ١٩٣٣.
* ابن سعد، الطبقات الكبري، بيروت، ١٩٥٧.
* ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، نشر زكي محمد حسن وآخرين، القاهرة، ١٩٥٣.
* ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق دومنيك سورديل، دمشق، ١٩٥٣.
* ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤ .
* ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة، ١٩٢٤، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٩٠.
* ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، ١٩٦٠.
* ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، وكامل المهندس، القاهرة، ١٩٦٩.
* ابن عبد الحكم، كتاب فتوح مصر وأخبارها، عني بنشره وتصحيحه هنري ماسيه، القاهرة، ١٩١٤، وطبعة توري، نيوهافن، ١٩٢٢، ليدن، ١٩٢٠.

* ابن عبد الظاهر، السلطان الأشرف خليل، القاهرة ١٩٠٢ .

* ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٦٠ .

* ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور فى سيرة المللك المنصور، نشر مراد كامل، القاهرة ١٩٦١ .

* ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، نشر كانار، الجزائر، ١٩٣٤ .

* ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب، تحقيق ليفي بروفنسال وكولان، ليدن، ١٩٤٨ - ١٩٥١، وطبعة بيروت، ١٩٥٠ .

* ابن العميد، تاريخ المسلمين، ليدن، ١٨٢٥ .

* ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، ونجلاء عز الدين، وحسن الشماع، بيروت ١٩٣٦ - ١٩٤٢ ، بغداد ١٩٦٧ .

* ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، القاهرة، ١٩٣٧ .

* ابن القطان، جزء من كتاب نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود مكي، الرباط، ١٩٦٤ .

* ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨ .

* ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة، ١٩٣٩ .

* ابن مماتي، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣ .

* ابن ميسر، تاريخ مصر، تحقيق هنري ماسيه، القاهرة، ١٩١٩؛ تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٨١ .

* ابن النديم، الفهرست، تحقيق فلوجل، ليبزج، ١٨٧١ - ١٨٧٢ .

* ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣ - ١٩٥٨ .

* أبو الحمد فرغلى، تصاوير المخطوطات فى عصر الأيوبيين، رسالة ماجستير، لم تطبع، كلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨١ .
* أبو الحمد محمود فرغلي، التصوير الإسلامي نشأته وموقف الإسلام منه ومدارسه، القاهرة، ١٩٩١ .
* ابو الحمد محمود فرغلى، الدليل الموجز لأهم الاثار الإسلامية والقبطية فى القاهرة، القاهرة ١٩٩١ .
* أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، القاهرة ١٩٦٢ .
* أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر القاهرة ١٩٠٧ - ١٩٠٨ .
* أبو يوسف، كتاب الخراج، بولاق، ١٣٠٢هـ.
* أحمد تيمور، التصوير عند العرب، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات زكي محمد حسن، القاهر،، ١٩٤٢ .
* أحمد باشا تيمور، المهندسون فى العصر الإسلامى، القاهرة ١٩٧٩ .
* أحمد عبد الرازق أحمد، المرأة فى مصر المملوكية، القاهرة ١٩٧٥ .
* أحمد عبد الرازق أحمد، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم، مجلة كلية الآثار - جامعة القاهرة، العدد الثانى، ١٩٧٧ .
* أحمد عبد الرازق أحمد، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٩ .
* أحمد عبد الرازق أحمد، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٨٢ .
* أحمد عبد الرازق أحمد، عمارة الأزهر الشريف وما حوله من الآثار، كتاب الأزهر الشريف في عيده الألفي، القاهرة، ١٩٨٣ .
* أحمد عبد الرازق أحمد، دراسات تاريخية، القاهرة، ١٩٨٤ .
* أحمد عبد الرازق أحمد، بيوت الفسطاط الأثرية، المتحف العربي، السنة الرابعة، العدد الأول، يوليو - سبتمبر ١٩٨٨ .

* أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطي، القاهرة، ١٩٩٠.

* أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطي، العلوم العقلية، القاهرة، ١٩٩١.

* أحمد عبد الرازق أحمد، تاريخ وآثار مصر الإسلامية منذ الفتح حتى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة، ١٩٩٣

* أحمد عبد الرازق أحمد، الجيش المصرى فى العصر المملوكى، مركز الدراسات الاستراتيجية للقوات المسلحة، القاهرة ١٩٩٨.

* أحمد عبد الرازق أحمد، الرنوك الإسلامية، القاهرة ٢٠٠٠.

* أحمد عبد الرازق أحمد، أعمال أسرة سختكمان المعمارية فى قلعة صدر المعروفة بقلعة الجندى بسيناء، ندوة آثار سيناء عبر العصور، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢.

* أحمد عبد الرازق أحمد، الفنون الإسلامية فى العصرين الأيوبى والمملوكى، القاهرة ٢٠٠٦.

* أحمد عبد الرازق أحمد، تاريخ وآثار مصر الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي، القاهرة، ٢٠٠٧.

* أحمد عزت، المرشد لزيارة آثار القاهرة الإسلامية، القاهرة ١٩٥١.

* أحمد عيسي، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق، ١٩٣٩.

* أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، القاهرة، ١٩٦١.

* أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة، ١٩٦٥.

* أحمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، الجزء الثانى، العصر الأيوبى، القاهرة ١٩٦٩.

* أحمد ممدوح حمدى، الطراز الأيوبى فى مصر، المؤتمر الخامس للآثار فى البلاد العربية، القاهرة ١٩ - ٢٤ أبريل ١٩٦٩.

* آدم متـز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الـهجري، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، ١٩٤٠.

* أسامة طلعت عبـد النعيم خليل، أسـوار صلاح الدين وأثرها فى امتداد القاهـرة حتى عصر المماليك، رسالة ماجستيـر لم تطبع، كلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٩٢.

* إسحق عبيد، الإمبراطورية الـرومانية بين الدين والبربرية، مع دراسة في مدينة الله، القاهرة، ١٩٧٢.

* أسد رسـتم، الروم في سياستهم وحضارتـهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت، ١٩٥٥.

* الاصطخري، مسالك الممالك، ليدن، ١٩٢٧.

* الأصفهاني، كتاب الأغاني، طبعة بولاق.

* الأصفهاني، مقاتل الطالبين، النجف، ١٣٥٣هـ.

* الـفرد بتلر، فتح العرب لمصر، تعـريب محمد فريد أبو حديد، القاهرة، ١٩٤٦.

* آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، القاهرة، ١٩٥٨.

* أمال أحمد حسن العمرى، المنشآت التجارية فى القاهرة، رسالة الدكتوراه لم تطبع، كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٤.

* أمين سامي، تقويم النيل، القاهرة، ١٩١٦.

* الأنبا ميخائـيل، ذيل سير الآباء البطاركة، مـخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤٣٤ح.

* أنور الرفاعي، النظم الإسلامية، دمشق، ١٩٧٣.

* أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى بدر، القاهرة، ١٩٥٣.

* إ. ايدرس بل، مصر من الإسكنـدر الأكبر حتى الفـتح العربي، ترجمة عبد اللطيف أحمد على، محمد عواد حسين، القاهرة، ١٩٤٥.

* البار العريني، الحسبة والمحتسب، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثالث، العدد الثاني، ١٩٥٠.
* البار العريني، الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٦٠.
* البار العرينى، المماليك، بيروت ١٩٦٧ .
* البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، الجزائر، ١٩٩١.
* البلاذري، كتاب فتوح البلدان، ليدن، ١٨٦٦.
* البلوي، سيرة أحمد بن طولون، حققها وعلق عليها محمد كرد على، دمشق، ١٣٥٨هـ.
* بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، القاهرة (بدون تاريخ) .
* توفيق أحمد عبد الجواد، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية، القاهرة ١٩٧٠.
* ثروت عكاشة، القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية، القاهرة ١٩٨٢ .
* الجاحظ، البيان والتبين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٣٨١هـ.
* جاستون فيت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادي، بيروت، ١٩٦٨.
* الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، بولاق ١٢٩٧ هـ .
* جروهمان، أوراق البردي العربية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، مراجعة عبد الحميد حسن، القاهرة، ١٩٣٤ - ١٩٧٤.
* جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة، ١٩٦٧.
* جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، العصران الأيوبى والمملوكى، الإسكندرية ١٩٦٧ .

* جمال الدين الشيال، الفسطاط، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، المجلد الثاني عشر، ١٩٥٨.
* جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني (بدون تاريخ).
* جمال محرز، الرنوك المملوكية، مجلة المقتطف، مايو ١٩٤١.
* الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق السقا والإبياري، القاهرة، ١٩٣٨.
* جيلان محمد عباس، آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة العرب والأجانب، رسالة ماجستير، كلية السياحة والفنادق - جامعة حلوان، ١٩٨٨.
* حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، القاهرة، ١٩٤٦.
* حسن إبراهيم، الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، القاهرة، ١٩٣٢.
* حسن أحمد محمود، حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني، القاهرة (بدون تاريخ).
* حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة، ١٩٥٧.
* حسن الباشا، التصوير الإسلامي في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٥٩.
* حسن الباشا، فن التصوير في مصر الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٦.
* حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥.
* حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، ١٩٦٥ - ١٩٦٧.
* حسن الباشا، القاهرة تاريخها، فنونها، آثارها، القاهرة، ١٩٧٠.

* حسن حبشي، نور الدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٤٨ .

* حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية التي صلي فيها فريضة الجمعة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول، القاهرة، ١٩٤٦ .

* حسن عبد الوهاب، بين الآثار الإسلامية، القاهرة ١٩٤٨ .

* حسن عبد الوهاب، خانقاه فرج بن برقوق وما حولها، المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية، فاس ٨ - ١٨ نوفمبر ١٩٥٩، القاهرة ١٩٦١ .

* حسن عبد الوهاب، جامع السلطان حسن وما حوله، القاهرة ١٩٦٢ .

* حسنى محمد نوصير، مجموعة سبل السلطان قايتباى بالقاهرة، رسالة ماجستير لم تطبع، كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٠ .

* حسنى محمد نويصر، منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة، رسالة دكتوراه لم تطبع، كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٥ .

* حسنى محمد نويصر، مضامين شريفة بنصوص تأسيس المدرسة الأشرفية برسباى بالقاهرة، دراسة معمارية حضارية، مجلة المؤرخ المصرى، كلية الآداب - جامعة القاهرة يناير، ١٩٩٠ .

* حسنى محمد نويصر، عوامل مؤثرة فى تخطيط المدرسة المملوكية، مجلة كلية الآداب - جامعة المنيا، المجلد الأول، العدد الأول، ١٩٩١ .

* حسنى محمد نويصر، العمارة الإسلامية فى مصر، عصر الأيوبيين والمماليك، القاهرة، ١٩٩٦ .

* حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٣.

* حسنين محمد ربيع، النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين، القاهرة ١٩٩٠.

* حسين مصطفى حسين، المحاريب الرخامية فى قاهرة المماليك البحرية، رسالة ماجستير، لم تطبع، كلية الآثار - جامعة القاهرة، ١٩٨١.

* حسين مؤنس، تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني، القاهرة (بدون تاريخ).

* حسين مؤنس، المساجد، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٢ .

* حسين الهمداني، بحث تاريخي في رسائل إخوان الصفا وعقائد الإسماعيلية، بومباي، ١٩٣٥.

* حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة ١٩٦٧ .

* دولت عبد الله، معاهد تزكية النفوس، القاهرة ١٩٨٠ .

* الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦١.

* رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، قسطنطين، القاهرة، ١٩٨٢.

* رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، ثيودوسيوس وأمبروز، القاهرة، ١٩٨٣.

* زتير شتين، تاريخ سلاطين المماليك، ليدن ١٩٦٩ .

* زكي محمد حسن، الفن الإسلامي في مصر، القاهرة، ١٩٣٥.

* زكي محمد حسن، كنوز الفاطميين، القاهرة، ١٩٣٧.

* سامى محمد نوار، المنشآت المائية بمصر منذ الفتح الإسلامى وحتى نهاية العصر المملوكى، دراسة أثرية معمارية، الاسكندرية ١٩٩٩ .

* سامى صالح عبد المالك، التحصينات الحربية الباقية بشبه جزيرة سيناء من العصر الأيوبى، دراسة أثرية - معمارية، رسالة ماجستير لم تطبع، كلية الآثار - جامعة القاهرة ٢٠٠٢ .

* ساويرس بن المقفع، سير الآباء البطاركة ، باريس، ١٩٠٧، ١٩١٠.

* السجلات المستنصرية ، تقديم وتحقيق عبد المنعم ماجد ، القاهرة، ١٩٥٤.

* السخاوى، التبر المسبوك فى ذيل السلوك، بولاق ١٨٩٦ .

* سعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة ١٩٧١ - ١٩٨٣.

* سعاد ماهر، كتاب الفنون الإسلامية ، القاهرة، ١٩٨٦.

* سعد زغلول عبد الحميد، العمارة والفنون فى دولة الإسلام، الإسكندرية ١٩٨٦ .

* سعيد بن بطريق المعروف باوتيخا، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، تحقيق لويس شيخو، بيروت، ١٩٠٥، ١٩٠٩.

* سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٦٢ .

* سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥ .

* سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطي، القاهرة، ١٩٧٢.

* سهيلة الجبوري، أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي، بغداد، ١٩٧٧.

* السيد محمود عبد العزيز سالم، المآذن المصرية، القاهرة ١٩٥٩ .

* السيد محمود عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٨٢.

* السيد محمود عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية (بدون تاريخ).

* السيد محمود عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب، تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية (بدون تاريخ).

* سيدة إسماعيل الكاشف، أحمد بن طولون، القاهرة، ١٩٦٥.

* سيدة إسماعيل الكاشف، مصر في عصر الإخشيديين، القاهرة، ١٩٧٠.

* سيدة إسماعيل الكاشف، مصر في عصر الولاة من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، القاهرة (بدون تاريخ).
* سيدة إسماعيل الكاشف، مصر في فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٧٠.
* السيوطي، تاريخ الخلفاء، بيروت، ١٩٦٩؛ القاهرة، ١٩٠٣.
* السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، القاهرة ١٣٢٧ هـ.
* الشجاعى، تاريخ السلطان الناصر محمد بن قلاوون وبنيه، حققه وترجمه إلى الألمانية شيفر، فيسبادن ١٩٧٨.
* شحاتة عيسي، القاهرة تاريخها ونشأتها و متدادها وتطورها، القاهرة (بدون تاريخ).
* صالح لمعى مصطفى، التراث المعمارى فى مصر، بيروت ١٩٧٥.
* صالح لمعى مصطفى، القباب فى العمارة الإسلامية، بيروت ١٩٧٧.
* صالح لمعي مصطفى، الجامع الأبيض بالحوش السلطانى بقلعة القاهرة، بيروت ١٩٨٠.
* صفوان التل، تطور الحروف العربية على آثار القرن الهجري الأول، الأردن، ١٩٨٠.
* الصيرفى، إنباء الهصر، تحقيق حسن حبشى، القاهرة ١٩٧٠.
* الطبري، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ١٩٢٩.
* طه باقر، فاضل عبد الواحد، عامر سليمان، تاريخ العراق القديم، بغداد، ١٩٨٠.
* طه ندا، الأعياد الفارسية في العالم الإسلامي، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، المجلد السابع عشر، ١٩٦٣.
* عاصم محمد رزق، مجموعة ابن مزهر المعمارية بالقاهرة، دراسة أثرية معمارية، هيئة الآثار المصرية، القاهرة ١٩٩٥.

* عاصم محمد رزق، خانقاوات الصوفية فى مصر، العصرين الأيوبى والمملوكى، القاهرة ١٩٩٧ .

* عاصم محمد رزق، أطلس العمارة الإسلامية والقبطية، القاهرة ٢٠٠٣.

* عباس حلمي عمار، تطور المسكن المصري الإسلامي من الفتح العربي حتى الفتح العثماني، رسالة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٦٨.

* عبد الباقى ابراهيم، تأصيل القيم الحضارية فى بناء المدينة الإسلامية المعاصرة، القاهرة ١٩٨٢ .

* عبد الباقى ابراهيم، المنظور الإسلامى للنظرية المعمارية، القاهرة ١٩٨٦.

* عبد الرحمن زكى، أسوار القاهرة وأبوابها من جوهر القائد إلى الناصر صلاح الدين، مجلة المجلة، العدد (٥١)، ١٩٦١ .

* عبد الرحمن زكى، القاهرة، تاريخها وآثارها، القاهرة ١٩٦٦ .

* عبد الرحمن زكي، الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع، القاهرة، ١٩٦٦.

* عبد الرحمن زكى، مساجد القاهرة المباركة ومشاهدها، القاهرة ١٩٦٩ .

* عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، القاهرة، ١٩٨٧ .

* عبد الرحمن فهمي، صنج السكة في فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٥٧.

* عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية، بغداد، ١٩٥٠.

* عبد العظيم رمضان، تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية، تاريخ المصريين، العدد (٥١)، القاهرة ١٩٩٢ .

* عبد الغنى النابلسى، الحقيقة والمجاز فى رحلة الشام ومصر والحجاز، دمشق ١٣٢٤هـ.

* عبد اللطيف ابراهيم، دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق عصر الغورى، رسالة دكتوراه لم تطبع، كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٥٦ .

* عبد المنعم سلطان، المجتمع المصري في العصر الفاطمي، القاهرة، ١٩٨٥.

* عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله الخليفة المفتري عليه، القاهرة، ١٩٥٩.

* عبد المنعم ماجد، الإمام المستنصر بالله الفاطمي، القاهرة، ١٩٦٠.

* عبد المنعم ماجد، دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٧٠ .

* عبد المنعم ماجد، الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي، بيروت، ١٩٦٧.

* عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، التاريخ السياسي، الإسكندرية، ١٩٦٨.

* عبد المنعم ماجد، العصر العباسي الأول، القاهرة، ١٩٧٣.

* عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين في مصر، القاهرة، ١٩٧٣.

* عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، القاهرة، ١٩٧٥.

* عبد المنعم ماجد، طومان باى آخر سلاطين المماليك فى مصر، القاهرة ١٩٧٨ .

* عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر، القاهرة ١٩٨٨ .

* عبد المنعم ماجد، الدولة الأيوبية فى تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٩٧ .

* على بهجت والبير جبريل، كتاب حفريات الفسطاط، نقله إلى العربية على بهجت ومحمود عكوش، القاهرة ١٩٢٧ .

* على غالب أحمد غالب، قباب القاهرة فى عصر المماليك الشراكسة، دراسة فى التكوين المعمارى، الكتاب التذكارى لتكريم الأثارى الإسلامى عبد الرحمن عبد التواب، هيئة الآثار المصرية، القاهرة ١٩٨٨ .

* على مبارك، الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها القديمة والشهيرة، بولاق ١٣٤٨ هـ .

* عمر طوسون، مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن، الإسكندرية، ١٩٣١.

* العمرى، مسالك الابصار فى ممالك الامصار، القاهرة ١٩٢٤ .

* العينى، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر، القاهرة ١٩٦٢ .

* العينى، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد، القاهرة ١٩٦٨ .

* العينى، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين: القاهرة ١٩٨٧ - ١٩٨٩، وتحقيق عبد الرازق طنطاوى ١٩٨٥ .

* فتحي أبو سيف، المشرق الإسلامي بين التبعية والاستقلال، الطاهريون، القاهرة، ١٩٧٨.

* فريد شافعي، العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، الرياض، ١٩٨٢.

* فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، عصر الولاة، القاهرة، ١٩٧٠.

* فريد شافعي، مئذنة مسجد بن طولون، رأي في تكوينها المعماري، مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول، المجلد الرابع عشر، ج١، مايو، ١٩٥١.

* فؤاد فرج، المدن المصرية وتطورها مع العصور، القاهرة، ١٩٤٣ - ١٩٤٦.

* قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر العصور الوسطي، القاهرة، ١٩٧٧.

* قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٨ .

* القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، القاهرة ١٩١٤ - ١٩٢٨ .

* كامل حسين، طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، القاهرة، ١٩٥٩ .

* الكرماني، الرسالة الواعظة، تحقيق كامل حسين، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، المجلد الرابع عشر، الجزء الأول، مايو، ١٩٥٢ .

* كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعد، القاهرة (بدون تاريخ).

* كمال الدين سامح، تطور القبة فى العمارة الإسلامية، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، المجلد الثانى عشر، جـ١، مايو ١٩٥٠ .

* كمال الدين سامح، العمارة الإسلامية بمصر، القاهرة، ١٩٧٠ .

* الكندي، كتاب الولاة والقضاة، بيروت، ١٩٠٨ .

* لينبول، سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن، على إبراهيم حسن، إدوارد حليم، القاهرة، ١٩٥٠ .

* الماوردي، الأحكام السلطانية، القاهرة، ١٢٩٨هـ.

* مايسة محمود داود، المسكوكات الفاطمية في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، القاهرة، ١٩٩١ .

* المتنبي، ديوان المتنبي، بيروت، ١٩٠٠ .

* مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، بريل، ١٨٦٩ .

* محاضر اللجنة الدائمة للآثار الإسلامية والقبطية، ١٩٥٤ - ١٩٦١، الكراسة الحادية والأربعون، القاهرة ١٩٦٣ .

* محب الدين الخطيب، الأزهر، القاهرة، ١٣٤٥هـ.

* محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين الأيوبى، بيروت ١٩٨٦ .

* محمد جمال الدين سرور، الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٦ .

* محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة، ١٩٧٩ .

* محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة، ١٩٧٠ .

* محمد حمدي المناوي، نهر النيل في المكتبة العربية، القاهرة، ١٩٦٦ .

* محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة، ١٩٧٠ .

* محمد حمزة إسماعيل الحداد، القباب فى العمارة الإسلامية، القاهرة ١٩٩٣ .

* محمد حمزة إسماعيل الحداد، السلطان المنصور قلاوون، القاهرة ١٩٩٨ .

* محمد حمزة إسماعيل الحداد، بحوث ودراسات فى العمارة الإسلامية، الكتاب الأول، القاهرة ٢٠٠٤ .

* محمد سيف النصر أبو الفتوح، منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك، رسالة دكتوراه لم تطبع، كلية الآداب - سوهاج - جامعة أسيوط، ١٩٨٠ .

* محمد الششتاوى، ميادين القاهرة فى العصر المملوكى، القاهرة ١٩٩٩ .

* محمد عبد العزيز محمود، تطور الخط العربى فى مصر فى عصرى الأيوبيين والمماليك، رسالة ماجستير لم تطبع، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤ .

* محمد عبد العزيز مرزوق، الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى، القاهرة ١٩٦٣ .

* محمد عبد العزيز مرزوق، الفن الإسلامى تاريخه وخصائصه، بغداد ١٩٦٥ .
* محمد فهيم محمد، مدرسة السلطان قانصوة الغورى، رسالة ماجستير لم تطبع، كلية الاثار - جامعة القاهرة ١٩٧٧ .
* محمد محمد أمين، فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية القاهرة ١٩٨٠ .
* محمد محمد أمين، الأوقات والحياة الاجتماعية فى مصر، القاهرة ١٩٨٠.
* محمد مصطفى، متحف الفن الإسلامي، دليل موجز، القاهرة، ١٩٥٨.
* محمود رزق محمود، المجتمع المصري في العصر الطولوني، رسالة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة عين شمس، ١٩٨٥.
* محمود عكوش، تاريخ ووصف الجامع الطولوني، القاهرة، ١٩٢٧.
* المخزومى، كتاب المنهاج فى علم خراج مصر، تحقيق كلود كاهن، مراجعة يوسف راغب، القاهرة ١٩٨٦ .
* المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٨.
* مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٠.
* مصطفى نجيب، المزملة كمورد لمياه الشرب بمنشآت القاهرة فى العصر المملوكى، مجلة كلية الآثار - جامعة القاهرة، العدد الثانى ١٩٧٧ .
* مصطفى عبد الله شيحة، الآثار الإسلامية فى مصر من الفتح العربى حتى نهاية العصر الأيوبى، القاهرة ١٩٩٢ .
* مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشيه، Patrologia orientalis. Paris. 1919 .

* المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦.

* المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٨.

* المقريزي، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، القاهرة، ١٣٥٦هـ.

* المقريزى، السلوك فى معرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٧٢ .

* المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ.

* المقريزي، النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، القاهرة، ١٩٣٧.

* المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعالم الأثرية فى البلاد العربية، القاهرة ١٩٧٢ .

* منظمة العواصم والمدن الإسلامية، أسس التصميم المعمارى والتخطيط الحضرى فى العصور الإسلامية المختلفة، دراسة تحليلية على العاصمة القاهرة، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٠ .

* الموسوعة، تاريخ واثار مصر الإسلامية، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة (بدون تاريخ) .

* المؤيد في الدين، سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، ترجمة حياته بقلمه، تقديم وتحقيق كامل حسين، القاهرة، ١٩٤٩.

* ناصر خسرو، سفر نامة، ترجمة يحيي الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥.

* نبيل محمد عبد العزيز، الطرب وآلاته فى عصر الأيوبيين والمماليك، القاهرة ١٩٨٠.

* نظير سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، القاهرة، ١٩٥٧.

* النعمـان، دعائم الإسلام، تحقيق آصف بن على فيظي، القاهرة، ١٩٥١ - ١٩٦٠.
* النـعمان، شـرح الأخبـار، مخـطوط بـدار الكـتب المصـرية تحت رقم ٦٢٠٧ح.
* النوبـختي، فرق الشيعـة، صححه وعلق عليـه محمد صادق، النجف، ١٩٣٦.
* هيئة الآثار المصرية، مساجد ميدان صلاح الدين، ١٩٨٦.
* وزارة الأوقاف، مساجد مصر، القاهرة ١٩٤٨.
* وزارة الثقافة، دليل الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، القاهرة ٢٠٠٠.
* وهيب عطا الله جرجس، تـعليم كنيسة الإسكندريـة فيما يختص بطبيعة السيد المسيح، القاهرة، ١٩٦١.
* ياقوت، معجم البلدان، القاهرة، ١٩٠٦.
* اليعقوبي، كتاب البلدان، ليدن، ١٨٩١.
* يوسف العش، الدولة الأموية، دمشق، ١٩٨٥.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

- ʿAbd ar – Raziq, A., La Femme au temps des Mamlouke, Le Caire, 1973.
- ʿAbd ar – Rãziq, A., Trois fondations féminines dans l' Égypte mamlouke, REI, XLI/ 1, Paris, 1973.
- ʿAbd ar – Rãziq, A., Un mausolée féminin dans l' Égypte mamlouke, Journal of Faculty of Archaeology, vol. II, Cairo, 1973.
- ʿAbd ar – Rãziq, A., Deux jeux sportifs en Égypte au temps des mamlouks, Annales Islamologiques, XII, 1974.
- ʿAbd ar – Rãziq A., La hisba et le muhtasib en Égypte au temps des mamlouks, Annales Islamologiques, XIII, 1977.
- ʿAbd ar – Raziq , A., Un collège féminin dans l' Égypte mamlouke, The Book of 50th Anniversary of Archaeological Studies in Cairo University , Part III , Cairo , 1978 .
- ʿAbd al – Wahab, H ., La Khanka et la mausolée de Farag ibn Barquq au desert de Kaitbay, BIE, XL, session 1958 – 1959.
- ʿAbd al – Wahab, M., Marble Paving in Mamluk Cairo, Thesis Submitted to AUC., Cairo, 1998.
- Ahmad, M., Guide des principaux monuments arabes du Caire, Le Caire, 1939.
- Ahmad, M., La mosquée de ʿAmr Ibn al- ʿAs, Le Caire, 1939.
- Artin, Y., Bab Zoueleh et la mosquée d' el – Moéyed, BIE, deuxième série, no. 4, Le, Caire, 1884.
- Ashtor, E., Histoire des prix et des saleries dans l' Orient médiéval, Paris, 1969.
- Atil, E., Renaissance of Islam, Art of the Mamluks, Washington, 1981.

- Audi, R., Architectural Works of al – Ashraf Barsbay, Thesis Submitted to AUC., Cairo , 1966.

- Ayalon, D., Studies in the Mamluks of Egypt (1250 – 1517), London, 1977.

- Ayalon, D., The Mamluk Military Society, Collected Studies, London, 1979.

- Bahgat, A.et A.Gabriel, A ., Fouilles d'al – foustat, Paris, 1921.

- Becker, C.H., Briträge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam, Strasbourg, 1902-1903.

- Becker, C.H., Islamstudien, Leipzig, 1924.

- Behrens- Abouseif, D., A Circassian Mamluk Suburb north of Cairo, Art and Archaeology Research Papers 14, 1978.

- Behrens - Abouseif, D., Four Domes of Late MamLuk Period, AnIsl., XVII, 1981.

- Behrens- Abouseif, D., The North – Eastern Extension of Cairo under the Mamluks, AnIsl., XVII, 1981 .

- Behrens- Abouseif, D., The Minarets of Cairo, Cairo, 1985.

- Behrens- Abouseif, D., The Citadel of Cairo: Stage for Mamluk Ceremonial, AnIsl ., XXIV, 1988 .

- Behrens- Abouseif, D., Islamic Architecture in Cairo, An Introduction, Cairo, 1989.

- Behrens- Abouseif, Cairo of the Mamluks, A History of the Architecture and Its Culture, Cairo, 2007.

- Bell, G., Palace and mosque at Ukhaidir, Oxford, 1914.



- Betsche, W., A Study of Islamic Colour Use, Thesis Submitted to the Painting School of Royal College of Art, in 1978.
- Brandenburg, D., Islamische Baukunst in Ägypten , Berlin , 1966 .
- Briggs, M.S., Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine, Oxford, 1924.
- Caetani, L., Annali de l'Islam, Milano, 1911- 1912.
- Casanova, P., Histoire et description de la Citadelle du Caire, Mémoire de la Mission archéologique française en Egypte, VI, 4, 1894.
- Castries, H.D., L'Islam, Paris, 1896.
- Chronique de Jean évêque de Nikiou, Paris, 1883.
- Cochrance, C.N., Christianity and classical culture, Oxford, 1940.
- Comité de conservation des monuments de l'art arabe, t. I- XLI, Le Caire, 1892-1961.
- Corbett, The Life and works of Ahmad Ibn Tulun, JRAS, 1891.
- Coste, P., Architecture arabe ou monuments du Caire, Paris, 1839.
- Creswell, K. A. C., Brief Chronology of Muhammadan Monuments of Egypt to A. D. 1517 , BIFAO , XVI , Le Caire , 1919 .
- Creswell, K.A.C., The Origin of the Cruciform Plan of Cairene Madrasa, BIFAO, 21, 1922.
- Creswell, K.A.C., Archaeological Researches at the Citadel of Cairo, BIFAO, 3, 1926.
- Creswell, K.A.C., Early Moslem Architecture, Oxford, 1932-1940.
- Creswell, K.A.C., The Moslem Architecture of Egypt, Oxford, 1952.



- Creswell, K.A.C., A Short Account of Early Moslem Architecture, Revised and Supplemented by James W. Allan, Cairo, 1977.
- Dam (Cornelia H.) , An Egyptian Kursi, The Philadelphia Museum Journal 19 , 1928.
- Darrag, A ., L' Egypte sous le régne de Barsbay , Damas , 1961 .
- Darrag, A ., L' acte de waqf de Barsbay, Le Caire, 1963.
- David - Weill (Jean) , Bois à épigraphes (époques mamlouke et Ottomane) , vol. 2, Bulaq , Égypte , 1946.
- Davis, R.H.C., The Mosques of Cairo, Cairo, 1944.
- Devonshire, R.L., Some Cairo Mosques and their Founders, London, 1921.
- Devonshire, R.L., Quatre - vingt mosquées et autres monuments musulmans du Caire, Le Caire ,1925.
- Devonshire, R.L., Moslem Builders of Cairo, Cairo, 1943.
- Devonshire, R.L., L'Égypte musulmane et les fondateurs de ses monuments, Le Caire, 1982.
- Dickie , J., Allah and Eternity, Mosques , Madrasas , and Tombs , Architecture of Islamic World , Its History and Social Meaning , London , 1978 .
- Dopp P.H., Le Caire vu par les voyageurs occidentaux du Moyen âge, BSRE XXIII, 1950.
- Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, Leyden, 1880.
- Eddé , A. M., Les relations Commerciales entre Alep et Venise au VIIe - XIIIe siècle , REI , LIX , 1991.
- Encyclopédie de l' Islam, 1re et 2e éd.



- Espinosa , F ., Luisa , M ., The Visual Composition of Circassian Period Qiblah Wall in Cairo , Harvard University , 1988 .

- Ettinghausen , R ., Grabar , O ., and Jenkins , M ., Islamic Art and Architecture , London , 2001 .

- Fattal, A., La mosquée d' Ibn Touloun, Beyrouth, 1960.

- Fernandes, L., The Evolution of Sufi Institution in Mamluk Egypt: The Khanqah, Berlin, 1988.

- Flury, S., Samarra und die Ornamenik der Moschee des Ibn Tulun, Der Islam, IV, 1913.

- Garcin, J .C ., Un Centre musulman de la Haute- Egypte Médiévale : Qūs , Le Caire , 1976.

- Garcin, J .C ., Une carte du Caire vers la fin du sultane de Qaytbay, AnIsl ., XVII , 1981 .

- Garcin, J.C., Habitat médiéval et histoire urbaine à Fustat et au Caire, Palais et maisons du Caire, vol .I-III, l'Époque mamelouke, Paris , 1982.

- Garcin, C.J., Maury, B ., Revault , J . et Zakariya, M. , Palais et maisons du Caire , I , Époque mamelouke , XIIIe – XVIe siècle , Paris , 1982 .

- Garcin, J .C. et Revault, J., L' habitat traditionnel dans les pays musulmans autour de la méditerranée, Le Caire, IFAO, 1988, 1990, 1991.

- Garcin, J .C.et Taher, M ., Une ensemble de waqfs du IXe / XVe siècle en Égypte, les actes de Jawhar al Lala, Itinéraire d'Orient. Hommage à Claude Cahen, Res. Orientales VI, 1993.

- Ghaleb, K.O., Le miqyās ou nilomètre de l'ile de Rodah, Le Caire, 1951.

- Glück, H. Und Diez, Die Kunst des Islam, Berlin, 1929.
- Grohmann, A., Arabic Papyri in Egyptian Library, Cairo, 1934, 1937.
- Hamzah , H ., The Northern Cemetery of Cairo, Thesis Submitted to AUC ., Cairo , 2001 .
- Hassan, Z.M., Les Tulunides, Paris, 1933.
- Hautecoeur, L., Wiet, G., Les mosquées du Caire, Le Caire, 1932.
- Al Hawary, H., Une maison de l' époque toulounide, BIE, XV, 1933.
- Herz, M., Index général des Bulletins du Comité des années 1882 à 1910, Le Caire, 1914.
- Herz , M., La mosquée du sultan Hasan au Caire, Le Caire , 1899.
- Hill, D., Graber, D., Islamic Architecture and its decoration, London, 1967.
- Hillenbrand , R ., Islamic Architecture , From , Function and Meaning , Edinburgh , 1994 .
- Humphreys, R .S., The Expressive Intent of the Mamluk Architecture, Studia Islamica, XXXV, 1972.
- Ibn Said, La biographie d'Ibn Tulun d' après Ibn al – Dāya, éditée Par Vollers, Weimar, 1895.
- Ibrahim, L .A., Mamluk Monuments of Cairo, Cairo, 1976.
- Ibrahim, L.A., Yasin, A., A Tulunid Hammam in Old Cairo, Kunst der, Orients, 1979.





- Ibrahim, G.S.A., The Role of Architectural Representation in the Context of Islamic Decoration, Thesis Submitted to the School of Oriental and African Studies, London University, Mai 2006.

- Jariazbhoy, R.A., An Outline of Islamic Architecture, India, 1972.

- Karnouk, G., Cairene Bahari Mamluk Minbars , M.A., Thesis Submitted to the Department of Arabic Studies ,AUC , 1977.

- Kessler, C. M., Funerary Architecture within the City, Colloque International sur l' histoire du Caire , 1969, Cairo , DDR , 1972

- Kessler, C .M, The Carved Masonry Domes of Medieval Cairo, London, 1976.

- Kuban, D., Moslem Religious Architecture, Leiden, 1977, 1985.

- Kühnel, E., Islamische Kleinkunst, Berlin, 1925.

- Kühnel, E., Die Islamische Kunst, Springer Handbuch der Kunstgeschichte, IV, Leipzig, 1929.

- Lamm, C.J., Fatimid Woodwork, BIE, XVIII, 1936.

- Lam'I Mustafa, S., Kloster und Mausoleum des Farag ibn Barquq in kairo , Glückstadlt , 1968 .

- Lam'i Mustafa, S., Mochee des Farag ibn Barquq in Kairo, Glückstadlt, 1972.

- Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925, 1936.

- L' art mamluk, splendeurs et magies des sultans, Le Caire, 2001.



- Leiser, G., The Madrasa and the Islamization of the Middle East: The Case of Egypt, Journal of the American Research Center in Egypt, 1985.

- Lev, X., Saladin in Egypt, Leyden, 1999.

- L' Orient de Saladin , L' art des Ayyoubides , Exposition Présentée à l' institut du monde arabe , Paris , du 23 Octobre 2001 au 10 Mars 2002.

- Lézine, A ., Les salles nobles des palais mamelouks, AnIsl ., XI, 1972.

- Mackenzie, N. D., Ayyubid Cairo, A Topographical Study, Cairo, 1992.

- Mann, J., The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, Oxford, 1920.

- Massignon, Fatima bint al- Husayn et l' origine du nom dynastique Fatimides, Akten des XXIV, Intern. Orientalisten Kongresses, Munich, 1957.

- Mayer, L. A., The Buildings of Qaytbay as Described in his Endowment Deed, London, 1938.

- Mayer, L. A., Islamic Architects and their Works, Geneva, 1956.

- Mayer, L. A., New Material Mamluk Heraldry , Journal of the Palestine Oriental Society 17 , 1937.

- Meinecke, M ., Das Mausoleum des Qala'un in Kairo , Untersuchungen zur Gense des mamlukischen Architektur -



decoration Mitteilungen des Deutschen Archäologischen Instituts, Abt . Kairo, XXVII / 1, 1971.

- Meinecke , M ., Zur mamlukischen Heraldik Mitteiilungen des Deutshen Archaogischen Instits Abteilung Kairo 28 , no . 2 , 1972.

- Meinecke , M ., Die Moschee des Amir Aqsunqur an Nasiri in Kairo, Mitteilungen des Deutschen Archäologischen Instituts , Abt ., XXIX / 1 , 1973.

- Meinecke , M ., Die Badeutung der Mamlukischen Heraldik Fur die Kunstgeschichte, Zeitschrift des Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft , Supp . 2 , 1974.

- Meinecke , M ., Die Mamlukische Architektur in Ägypten und Syrien , 2 vol . Glükstadt , 1992 .

- Migeon ,G., Manuel d' art musulman , 2e éd , Paris , 1927.

- Munier, L'Égypte byzantine, Le Caire, 1932.

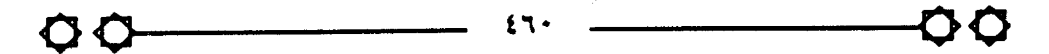
- Organization of Islamic Capitals and Cites, Principles of Architectural Design and Urban Planning During Different Islamic Eras, Saudi Arabia, 1992.

- Papadopoulo , A., Islam and Moslem Art ,Transl .by R . E., New York, 1979.

- Pauty, E., Les bois sculptés jusqu' à l'époque ayyoubide, Le Caire, 1931.

- Pauty, E., Le minbar de Qoūs, Mélange Maspero. III.

- Pauty, E., Un dispositif du plafond fatimite, BIE, XV, 1933.



- Popper, W., The Cairo Nilometer, Studies in Ibn Taghribirdi's Chronicles of Egypt, Part I, Berkeley, 1951.

- Prisse D 'Avennes, E.; L' art arabe d' après les monuments du Caire depuis le XVIIe siècle jusqu'à la fin du XVIIIe, Paris, 1869 - 1877.

- Quatremère, Mémoires géographiques et historiques sur l' Égypte, Paris, 1811.

- Quatremère, Recherches critiques et historiques sur la langue et la littérature de l' Égypte, Paris, 1808.

- Rabbat , N. O . , The Citadel of Cairo: A New Interpretation of Royal Mamluk Architecture, Leiden, 1995.

- Rabie, H., The Financial System of Egypt, 564 – 741 / 1169 – 1341, London, 1972.

- Ragib, Y., Un Oratoire fatimide au sommet du Muqattam, Studia Islamica, LXV, 1987.

- Ramadan ,F. A., Mosque of the Mamluk Sultan Muayyad Sheikh. A Brief Study. Islamic Archaeological Studies , II , 1980.

- Raymond, A., Le Caire, London, 2000.

- Raymond, A.,The Glory of Cairo , An illustrated History , Cairo, 2002 .

- Recueil des historiens des croisades, Hist. Occ., Paris, 1844.

- Répertoire chronologique d' épigraphie arabe, Le Caire, 1931 – 1991.

- Revault , J ., Maury , B., and Zakarya , M ., Palais et maisons du XIVe au XVIII e siècle , 3 vols ., Le Caire , IFAO , 1975 , 1977 , 1979.

- Richmond, D., The Early History of Saladin The Islamic Quarterly , 17, 1973.

- Richmond, E.T., Moslem Architecture, London, 1926.

- Rogers , J .M ., Evidence of Mamluk – Mongol Relations , 1260 – 1360 , In Colloque International sur l' Histoire du Caire , Cairo , 1974 .

- Rogers, J. M., The Mosque of Sultan Hasan in Cairo, In Rogers, J. M., The Spread of Islam , Oxford , 1976 .

- Rogers , J. M ., The stones of Barquq : Buildings Materials and Architectural Designs in Late Fourteenth - Century , Cairo, Apollo CIII / 170 , 1976 .

- Ross, E. Denison .,The Art of Egypt through the Ages , London , 1931 .

- Rustum , U ., The Mosque of Sultan Hasan in Cairo , Bayrut , 1970 .

- Sacy, S.D., Recherches sur l' initiation a la secte ismaelienne, JA, 1824.

- Salah al – Din , W . A . ,The Marble Mihrabs under the Circassian Mamluks in Islamic Egypt , Thesis Submitted to the Faculty of Arts - Ain Shams University , 2007 .

- Sarre und Herzfeld, Archaologische Reise in Euphart und Tigris, Berlin, 1911.

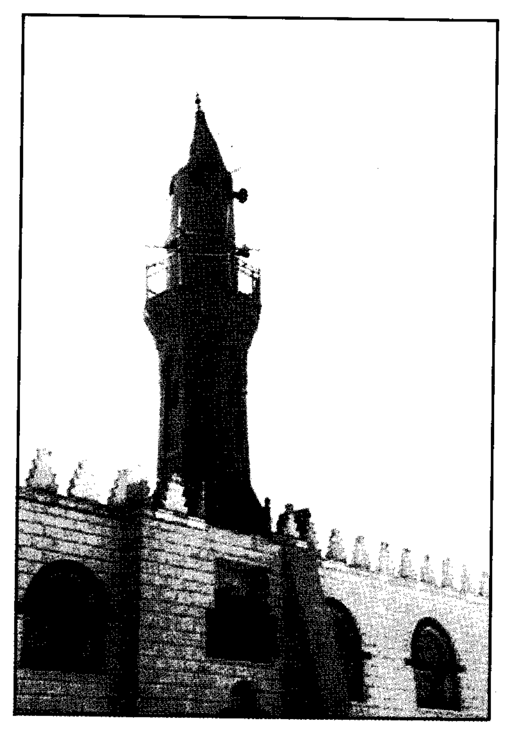


- Sauvaget, S., Les monuments ayyubides de Damas, Paris, 1951.
- Sauvaget,J., Le Poste aux chevaux dans l' empire des Mamlouks, Paris, 1951.
- Schlumberger, Campagnes du roi Amaury Ier de Jérusalem en Égypte au XIIe siècle, Paris, 1906.
- Shafii, F., An Early Fatimid Mihrab in The Mosque of Ibn Tulun, Bulletin of Faculty of Arts Univ. Of Cairo, XV/1, 1953.
- Shafii, F., The Mashhad al-Juyushi, Archeological Notes and studies, Studies in Islamic Art and Architecture in Honor of professor K.A.C. Creswell. Cairo, 1965.
- Shaw, S.J., The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798, Princeton, 1962.
- Šihah , M . A., The Islamic Architecture in Egypt, Ministry of Culture, Cairo, 2001.
- Sourdel, D., et J., Dictionnaire historique de l' islam, Paris, 1996.
- Stierlin, H., Architektur der Islam, Zürich, 1979.
- Suwylam , T., The Complex of Sultan al – Mu'ayyad Šayh of Bab Zuwayla, Thesis Submitted to AUC ., Cairo , 1968 .
- Tayan, Histoire de l' organisation judiciaire en pays de l' Islam, Paris, 1943.
- Van Berchem (M.), Matériaux Pour un Corpus inscriptionum arabicarum : Egypte, C.I.A., 3 vol., Paris , 1894 , 1900 , 1903.
- Van Berchem (M.), Notes d'archéologie arabe, JA, XVII, XIX, 1891.



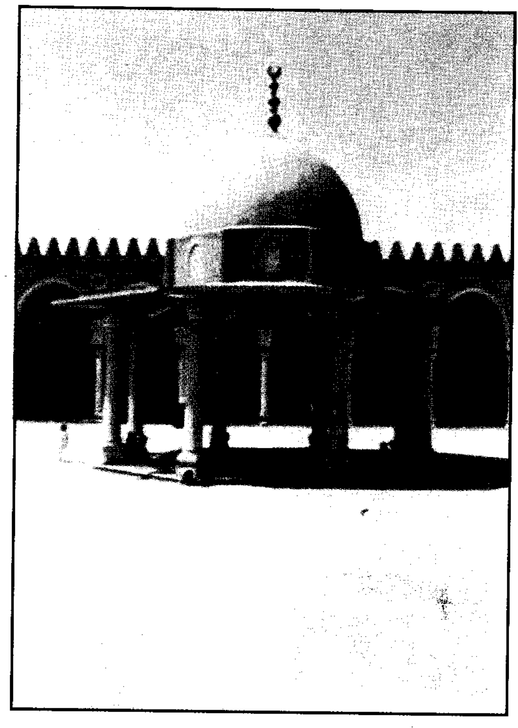
- Vasiliev, A.A., History of Byzantine Empire, Madison, 1961.
- Warner, N., The Fatimid and Ayyubid Eastern Walls of Cairo: Missing Fragments, AnIsl., XXXIII, 1999.
- Weil, J.D., Les bois à épigraphes jusqu' à l'époque mamlouke, Le Caire, 1931.
- Wiet, G., Les inscriptions de Saladin, Syria, III, 1922.
- Wiet, G., Corpus inscriptionum arabicarum , Égypte , Le Caire , 1930 .
- Wiet, G., L'Égypte musulmane, dans Prècis de l'histoire d'Égypte, Le Caire, 1932.
- Wiet,G., Exposition d' art persan, Le Caire, 1935.
- Wiet,G., L' Égypte arabe, dans Hanotaux, IV, Paris,1937.
- Wiet,G., L' Égypte musulman, dans Histoire de la nation Egyptienne, IV, Le Caire, 1938.
- Williams, J. A., The Khanqah of Siryaqus : A Mamluk Royal Religious Foundation. In Quest of Islamic Humanism. Arabic and Islamic Studies in Memory of Mohamed al Nowaihi, Cairo, 1984.
- Wüstenfeld, F., Die Statthalter von Agypten zu Zeit der Chalifen, Gottingen, 1875.
- Zakarya , M ., Le rab' de Tabbana , AnIsl ., VIII , 1969 .
- Zakarya, M., Deux Palais du Caire médiéval : Waqfs et architecture, Paris , 1983 .
- Zananiri, L'Égypte et l'équilibre du Levant au Moyen Age, Marseille, 1933.

اللوحات



اللوحة رقم (١)

جامع عمرو بن العاص، الواجهة الغربية



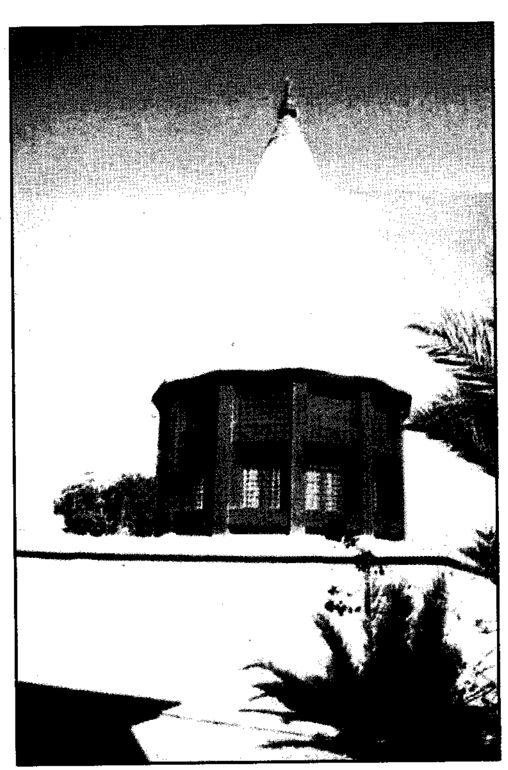
اللوحة رقم (٢)

جامع عمرو بن العاص، القبة بالصحن



اللوحة رقم (٣)

جامع عمرو بن العاص، رواق القبلة

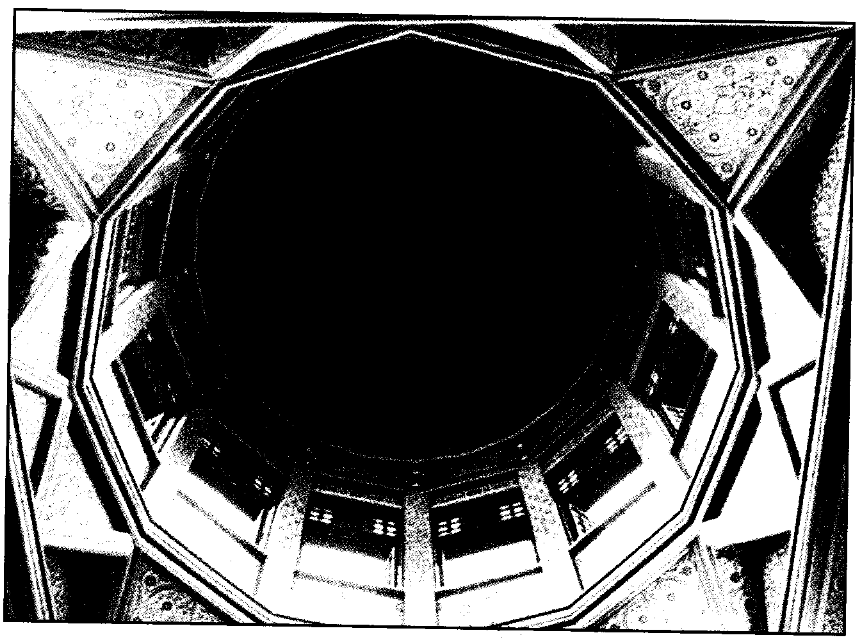


اللوحة رقم (٤)

مقياس النيل بجزيرة الروضة، منظر خارجي

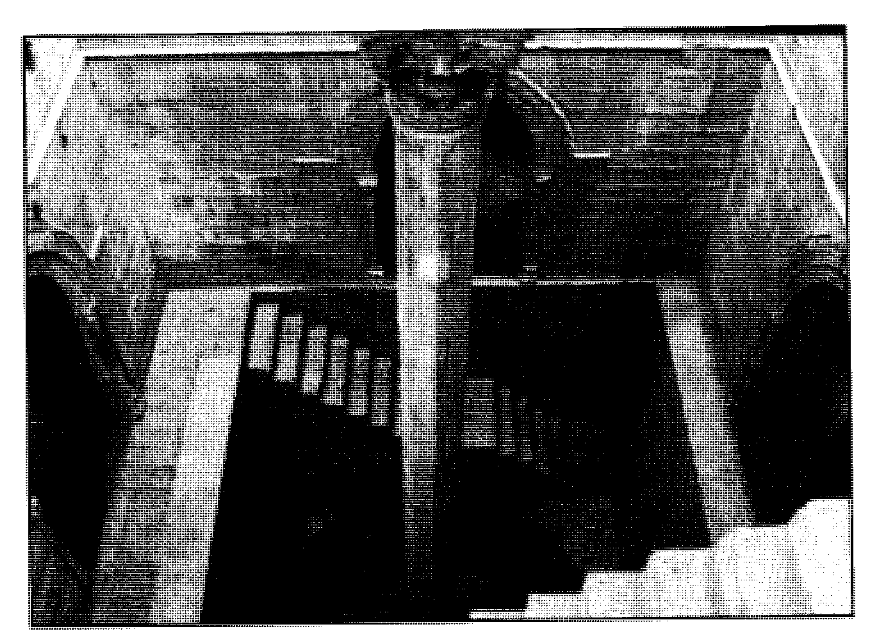
اللوحة رقم (٥)

مقياس النيل بجزيرة الروضة، البئر وعمود المقياس



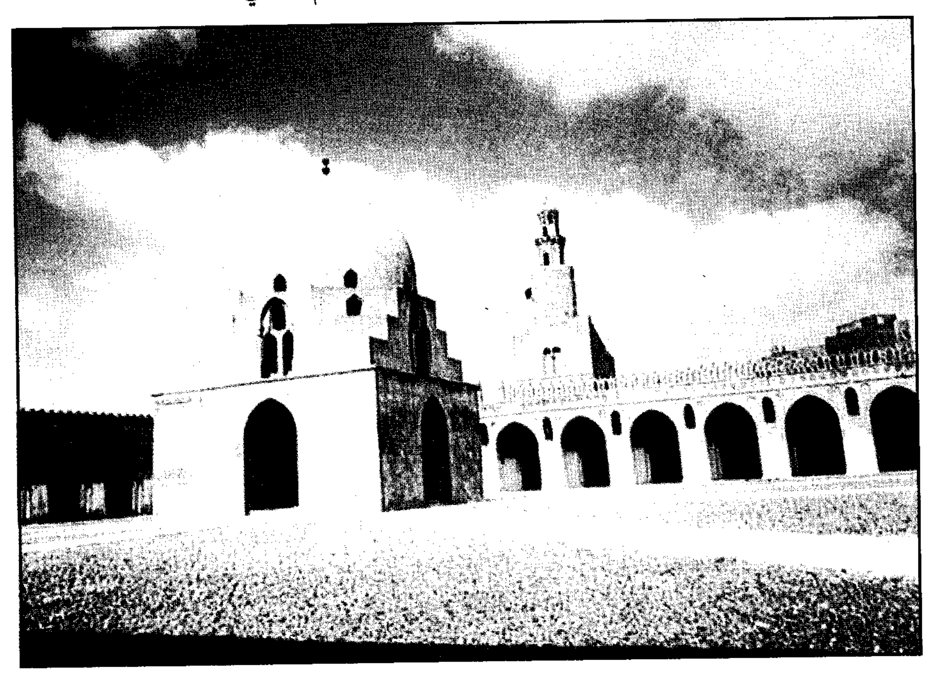
اللوحة رقم (٦)

مقياس النيل بجزيرة الروضة، القبة من الداخل



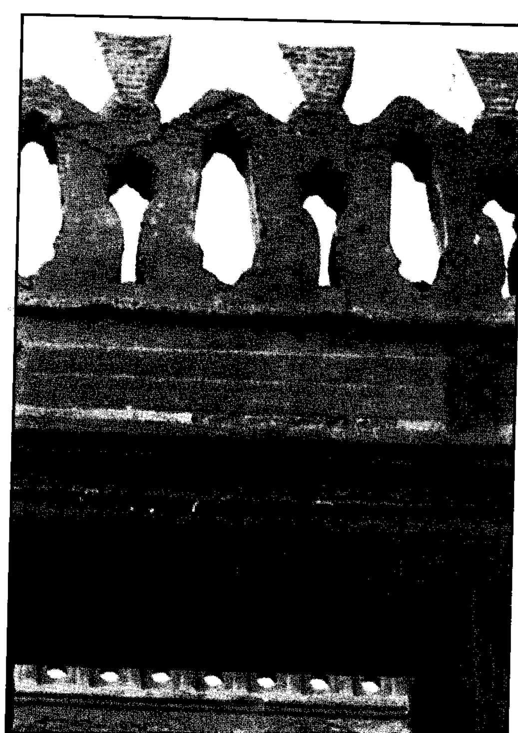
اللوحة رقم (٧)

مقياس النيل بجزيرة الروضة، منظر عام داخلي



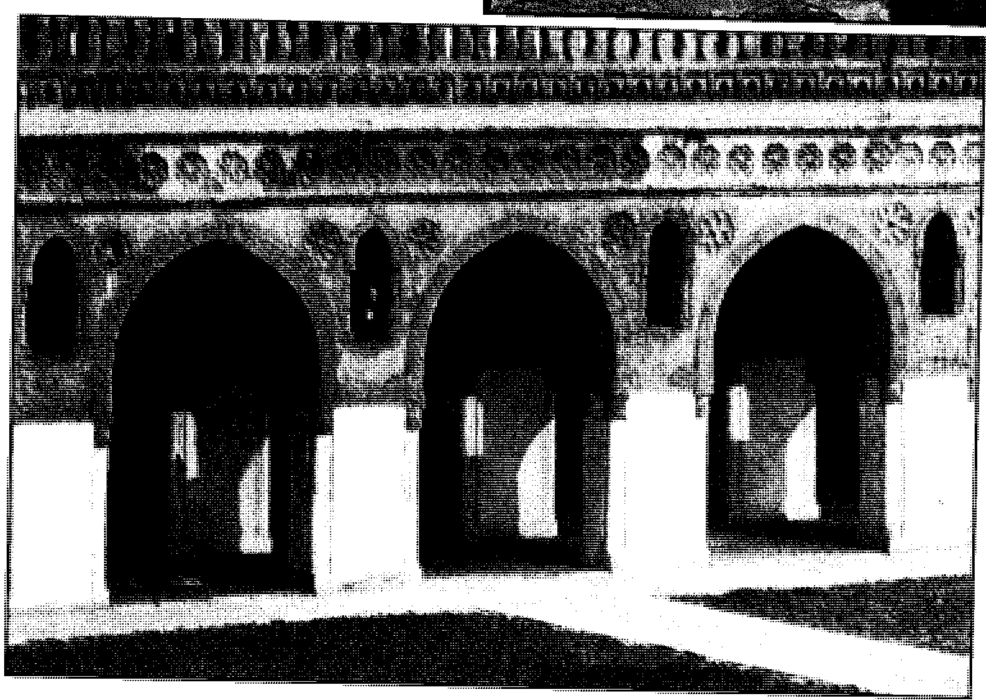
اللوحة رقم (٨)

جامع أحمد بن طولون، قبة الفوارة والرواق والمئذنة



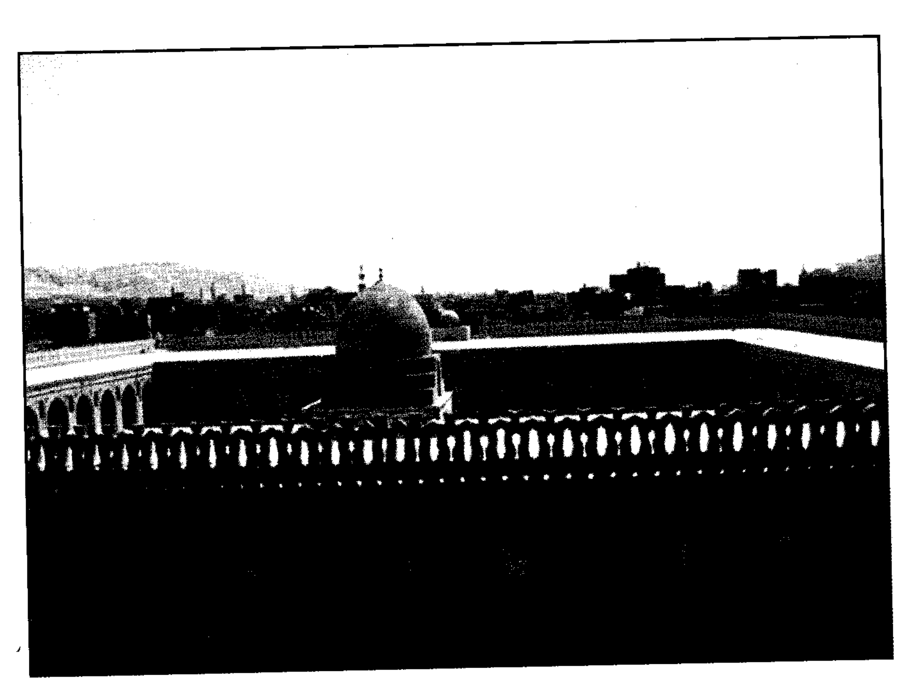
اللوحة رقم (٩)

جامع أحمد بن طولون، الجدار الشمالي، الشرافات



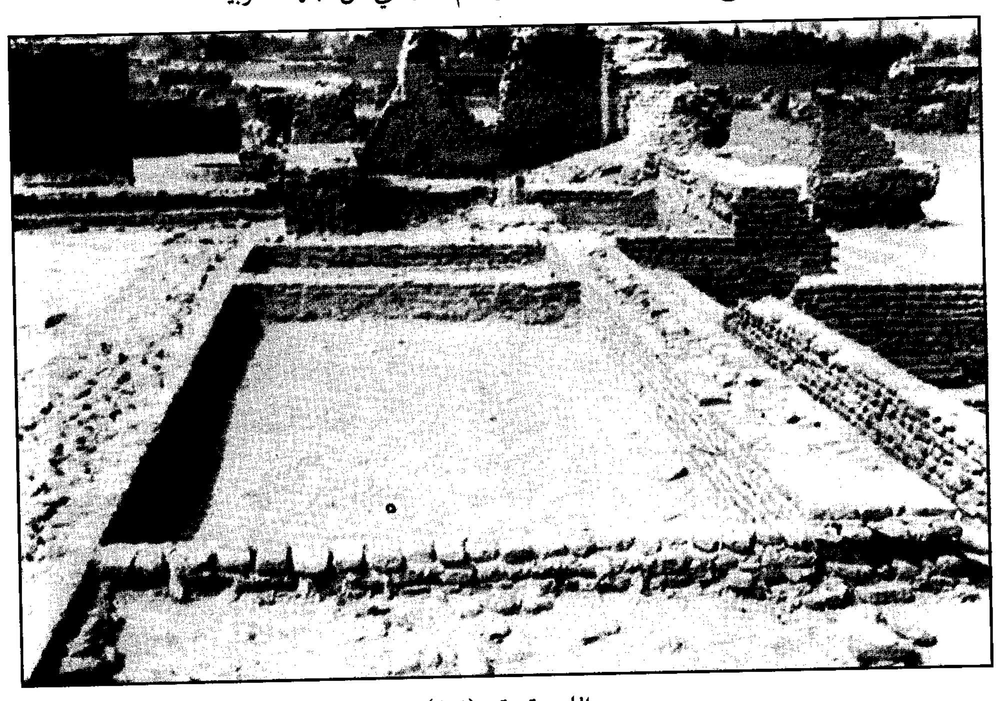
اللوحة رقم (١٠)

جامع أحمد بن طولون، رواق القبلة من جهة الصحن



اللوحة رقم (١١)

جامع أحمد بن طولون، منظر عام خارجي من الجهة الغربية

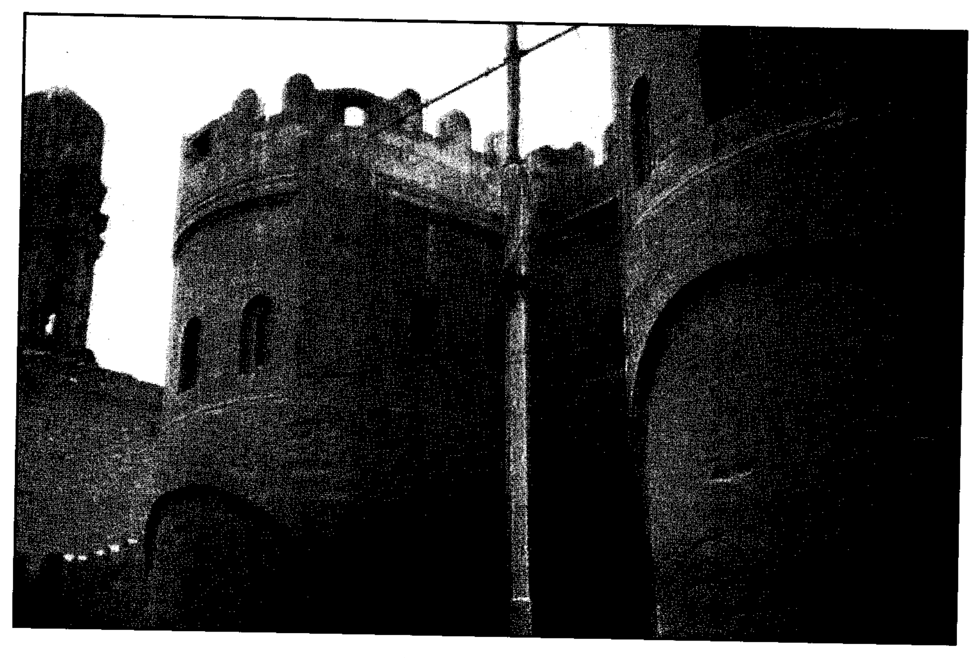


اللوحة رقم (١٢)

مدينة الفسطاط، بقايا أحد الدور

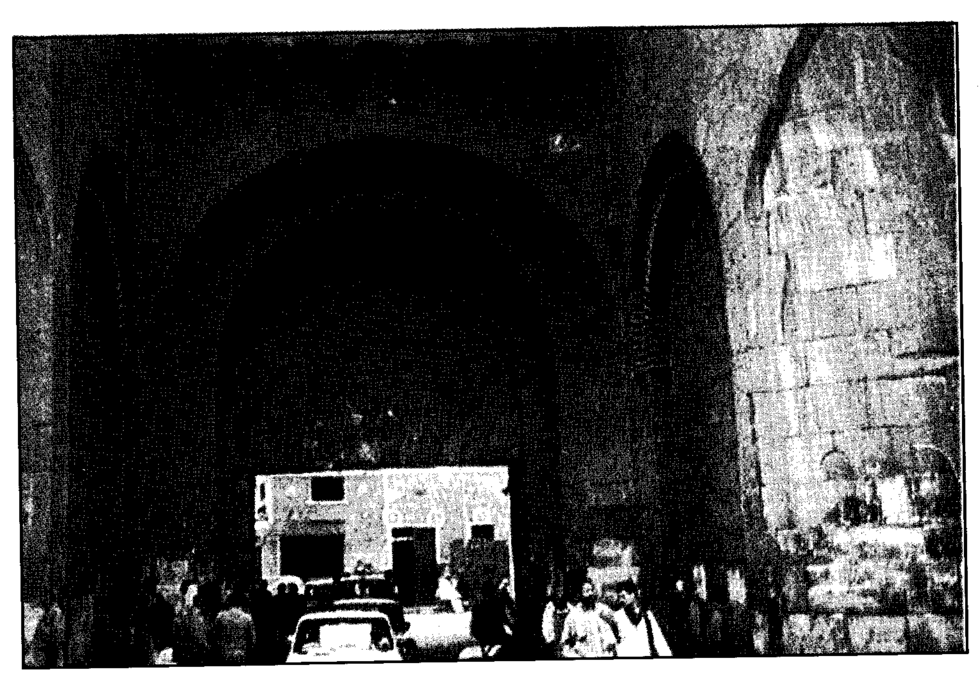
اللوحة رقم (١٣)

باب النصر، السور الشمالي للقاهرة



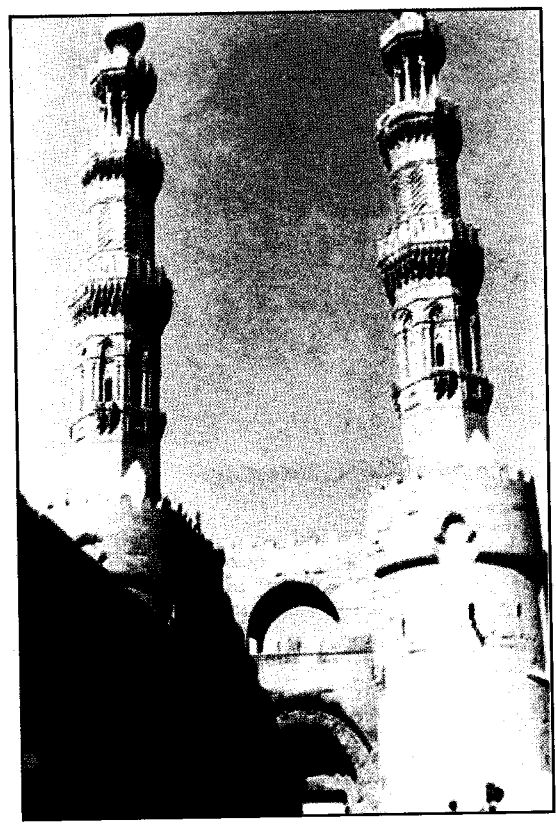
اللوحة رقم (١٤)

باب الفتوح، السور الشمالي للقاهرة



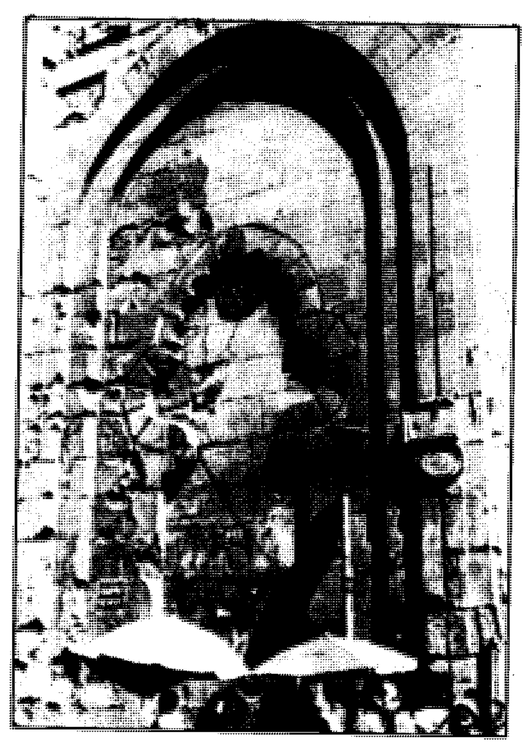
اللوحة رقم (١٥)

باب الفتوح، الكابولي، السقاطات، وزخارف العقد



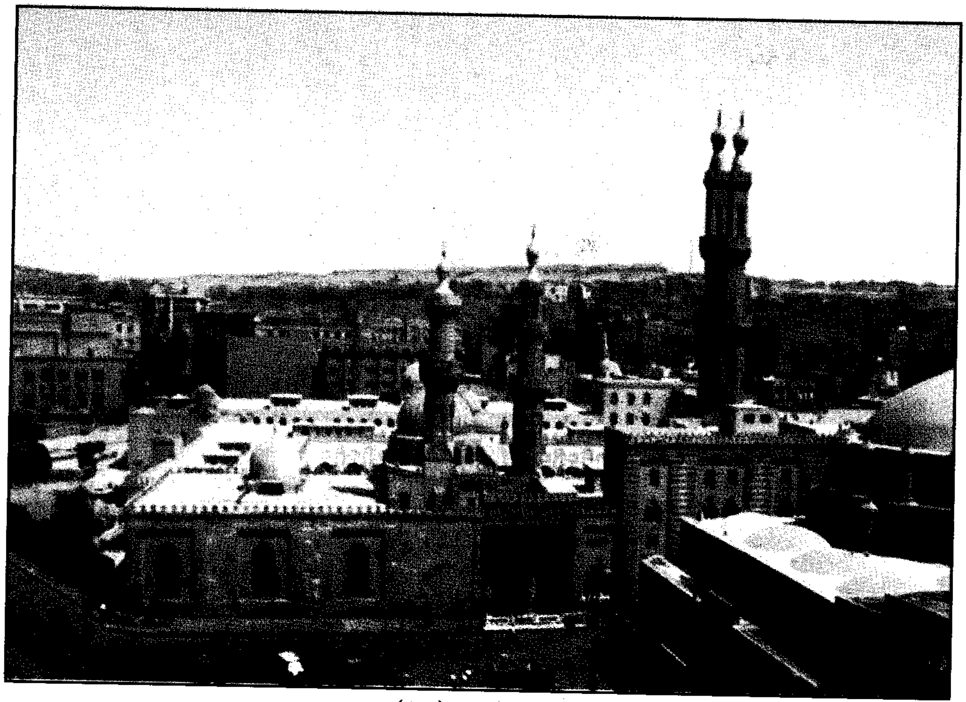
اللوحة رقم (١٦)

باب زويلة، السور الجنوبي للقاهرة



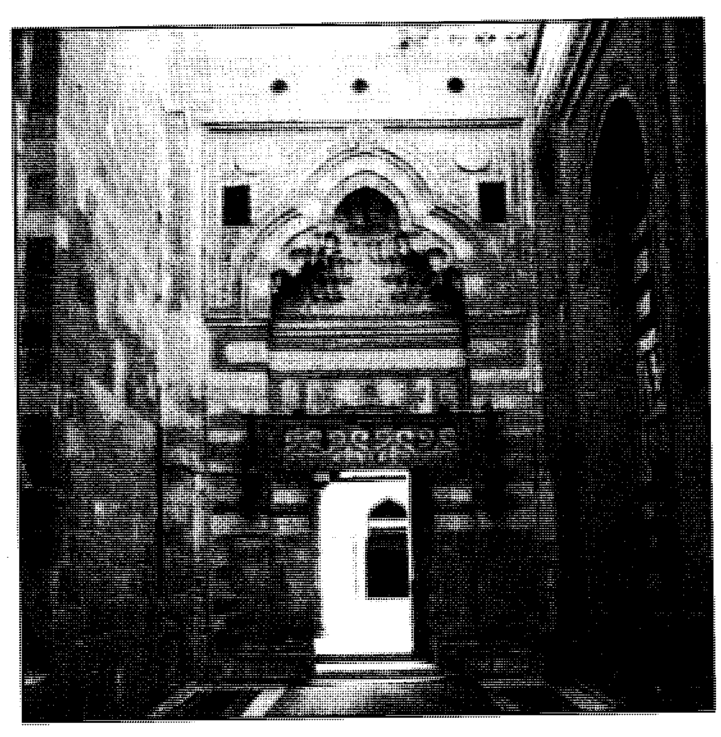
اللوحة رقم (١٧)

باب زويلة، الدخلات الجانبية



اللوحة رقم (١٨)

الجامع الأزهر، منظر خارجي من الجهة الغربية



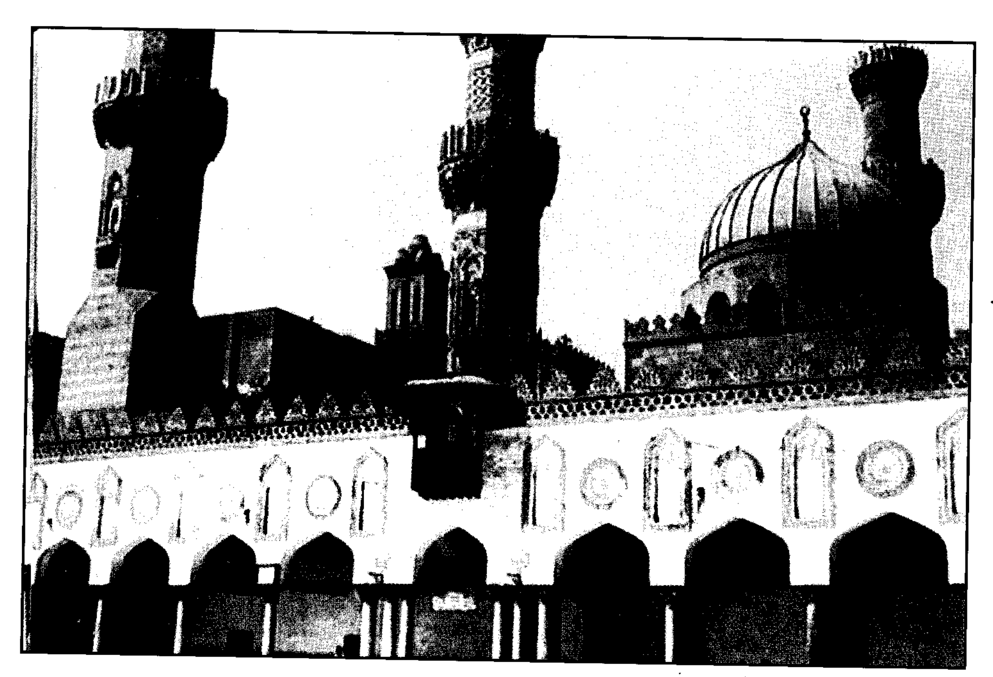
اللوحة رقم (١٩)

الجامع الأزهر، الجهة الغربية،باب قايتباي



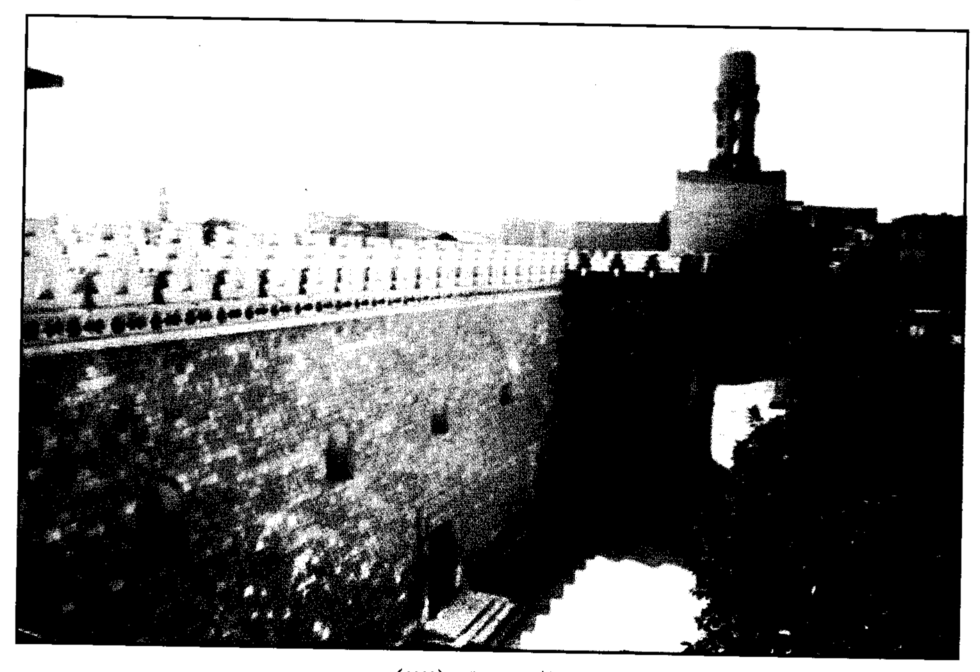
اللوحة رقم (٢٠)

الجامع الأزهر، باب المزينين



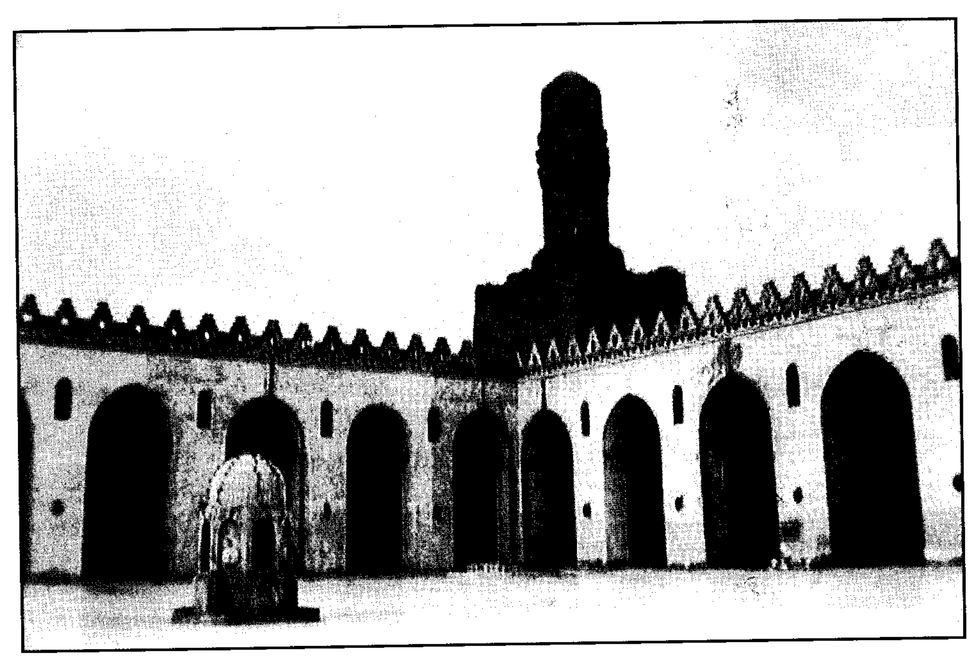
اللوحة رقم (٢١)

الجامع الأزهر، الرواق الغربي



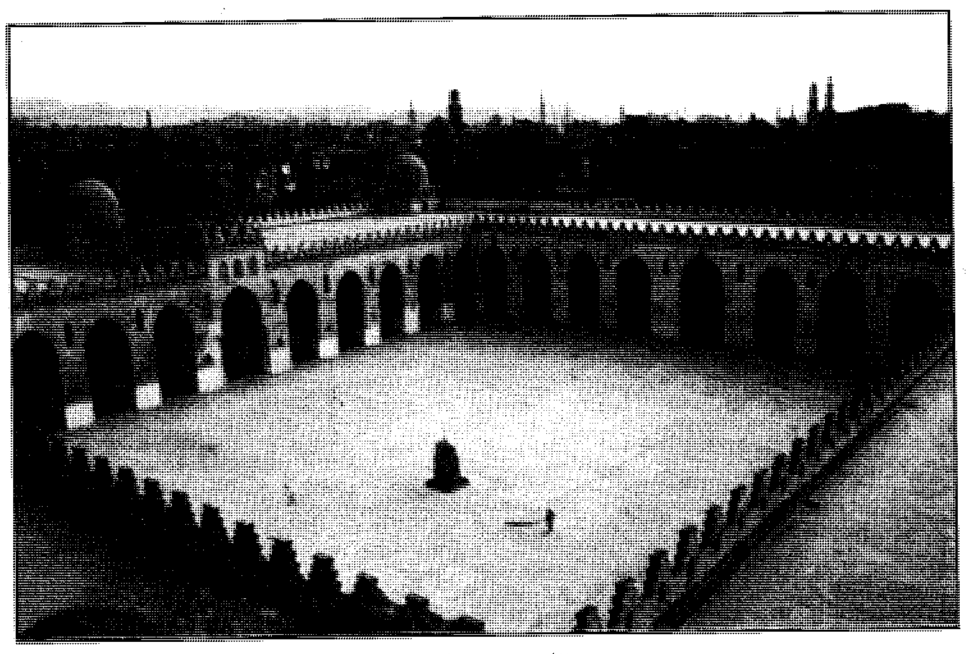
اللوحة رقم (٢٢)

جامع الحاكم، الواجهة الغربية والمدخل البارز



اللوحة رقم (٢٣)

جامع الحاكم، الرواق الشمالي والرواق الغربي والمئذنة الشمالية الغربية من داخل الصحن

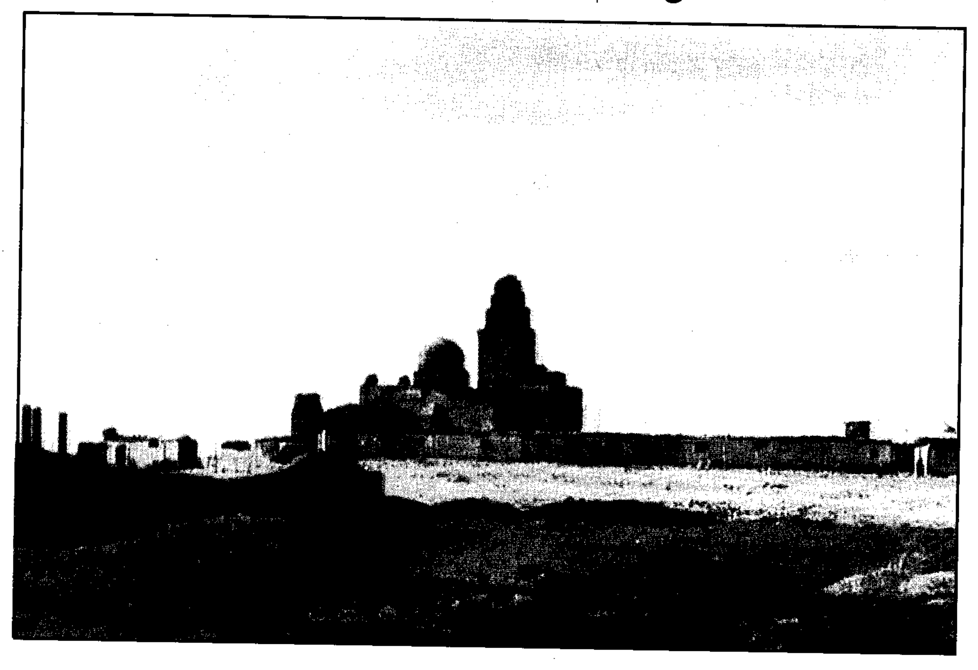


اللوحة رقم (٢٤)

جامع الحاكم، منظر عام من الداخل

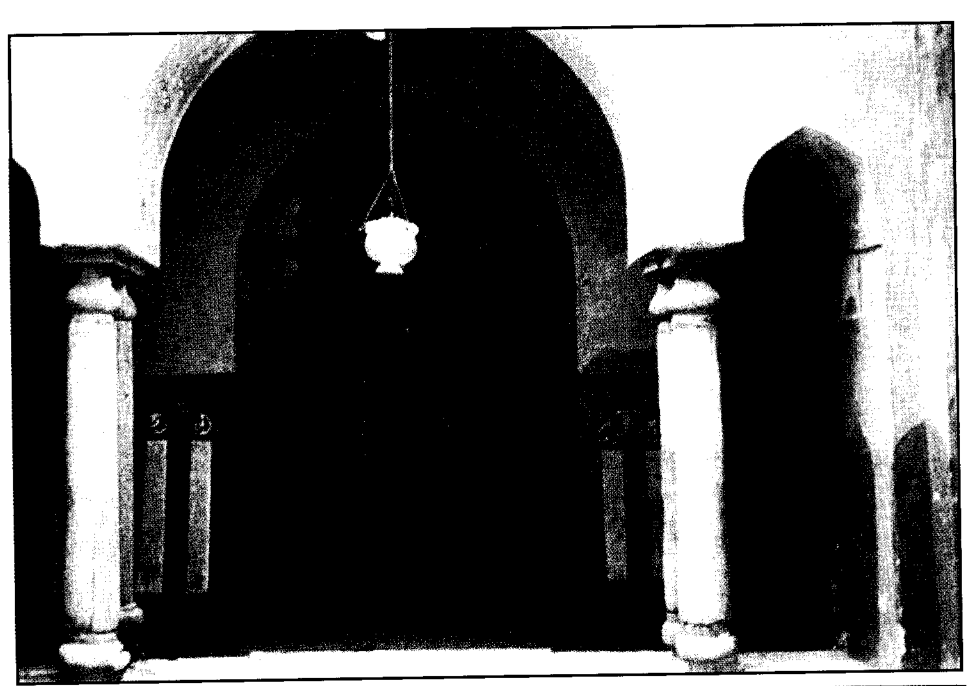
اللوحة رقم (٢٥)

جامع الحاكم، رواق القبلة والمحراب بعد الترميم



اللوحة رقم (٢٦)

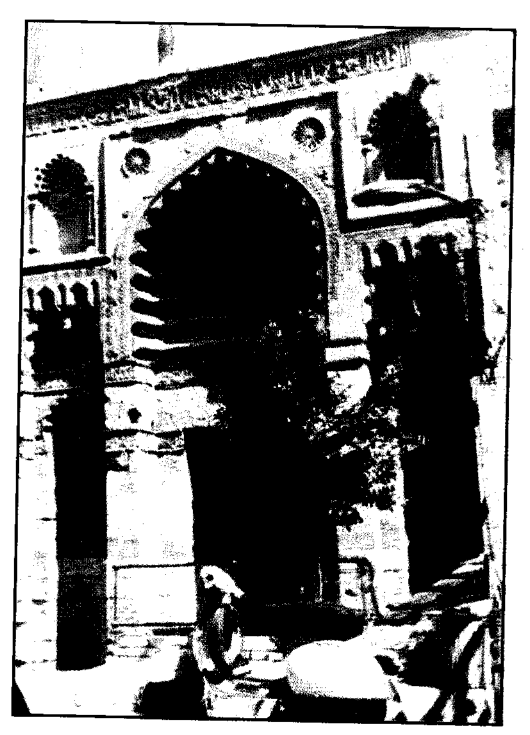
مشهد الجيوشي، منظر عام من الجهة الشرقية



اللوحة رقم (٢٧)
مشهد الجيوشي، واجهة الصحن الغربية



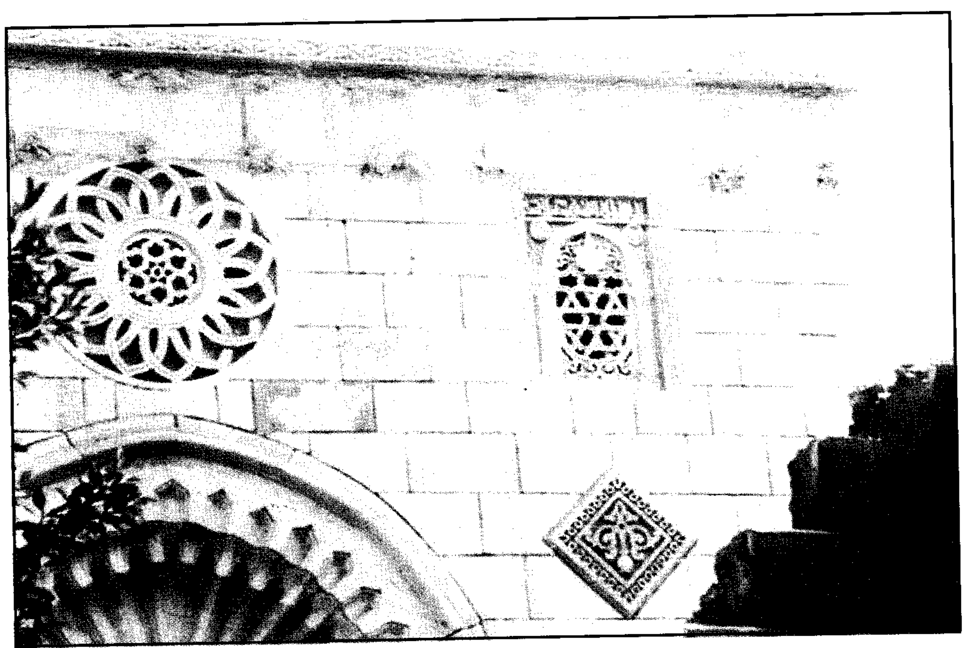
اللوحة رقم (٢٨)
مشهد الجيوشي، المنارة ذات المقرنصات



اللوحة رقم (٢٩)
الجامع الأقمر، الواجهة الغربية



اللوحة رقم (٣٠)
الجامع الأقمر، القسم الشمالي من الواجهة الغربية



اللوحة رقم (٣١)

الجامع الأقمر، القسم الجنوبي المجدد من الواجهة الغربية



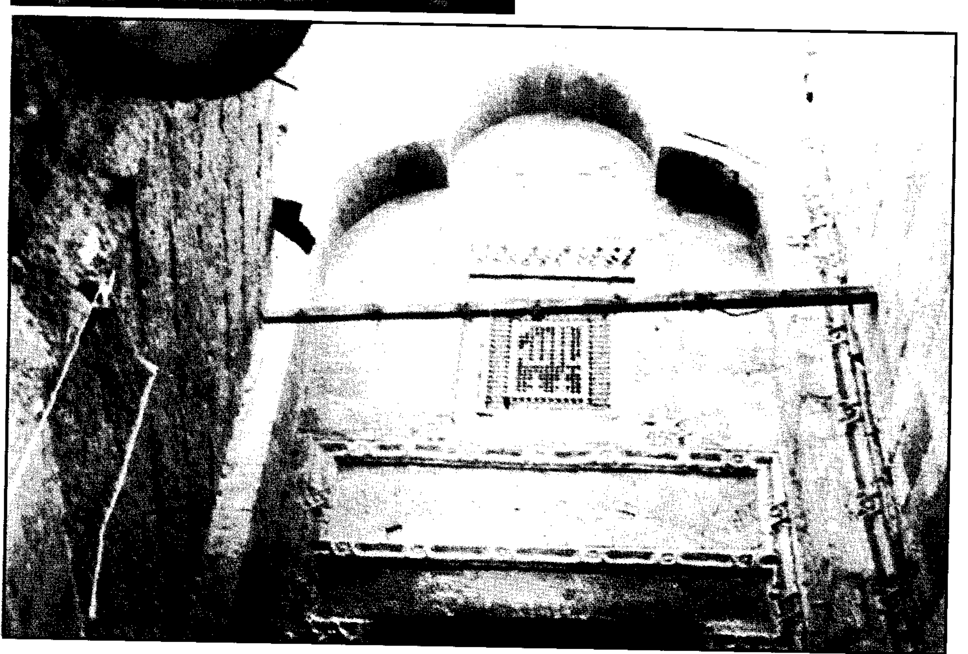
اللوحة رقم (٣٢)

الجامع الأقمر، واجهة رواق القبلة المطلة على الصحن



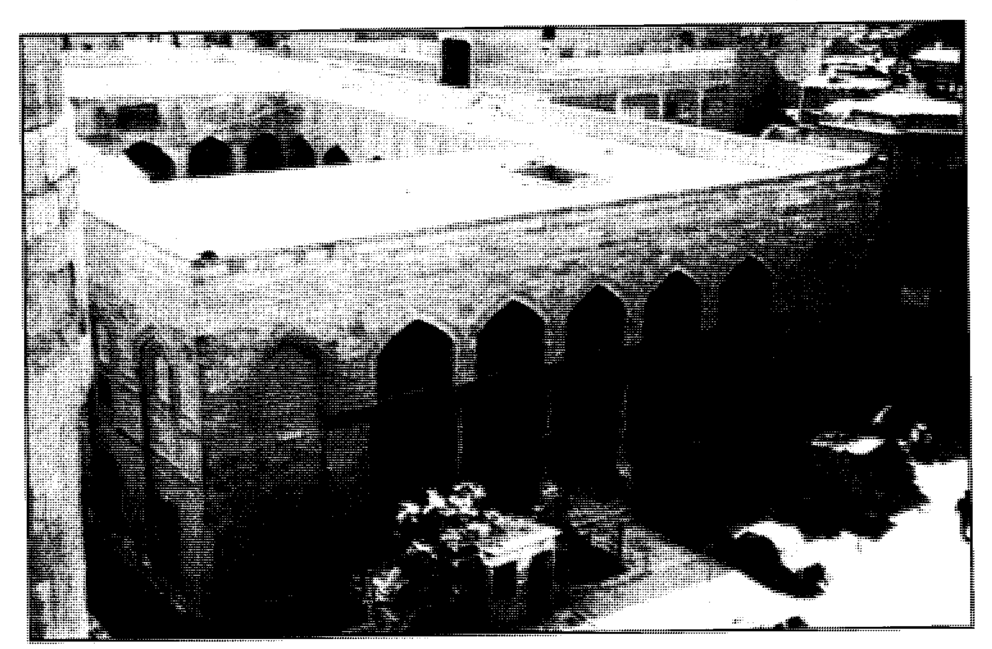
اللوحة رقم (٣٣)

الجامع الأفخر، المدخل الغربي



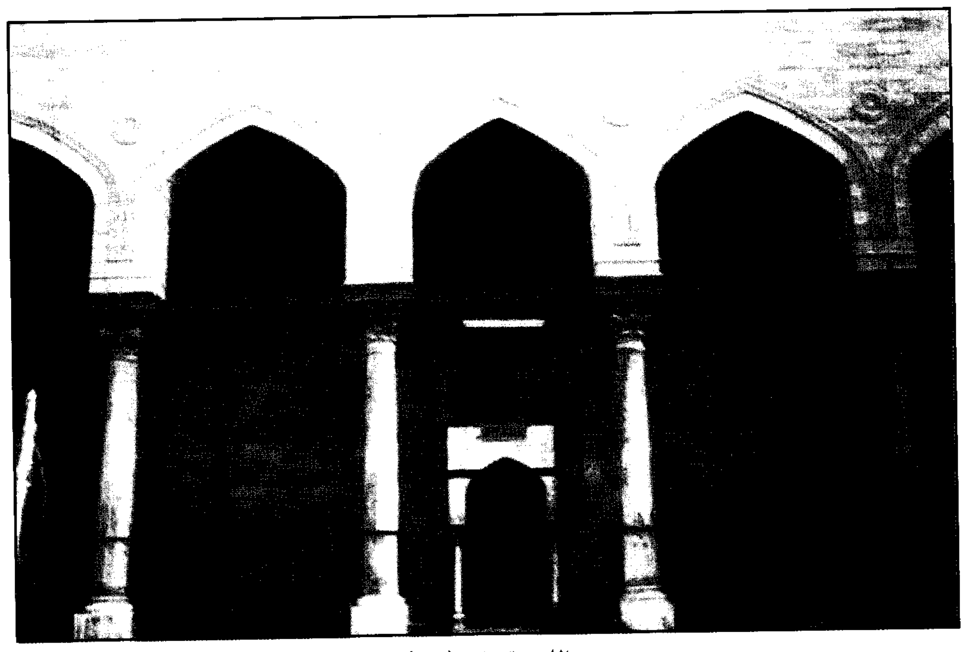
اللوحة رقم (٣٤)

الجامع الأفخر، العقد الثلاثي للمدخل الشمالي



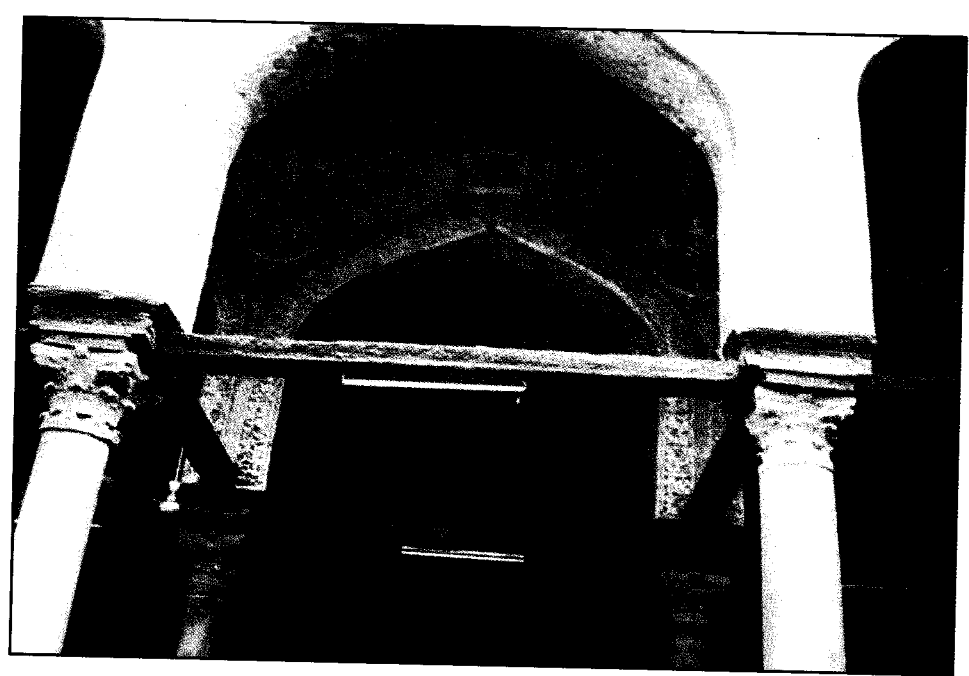
اللوحة رقم (٣٥)

جامع الصالح طلائع، الواجهة الغربية



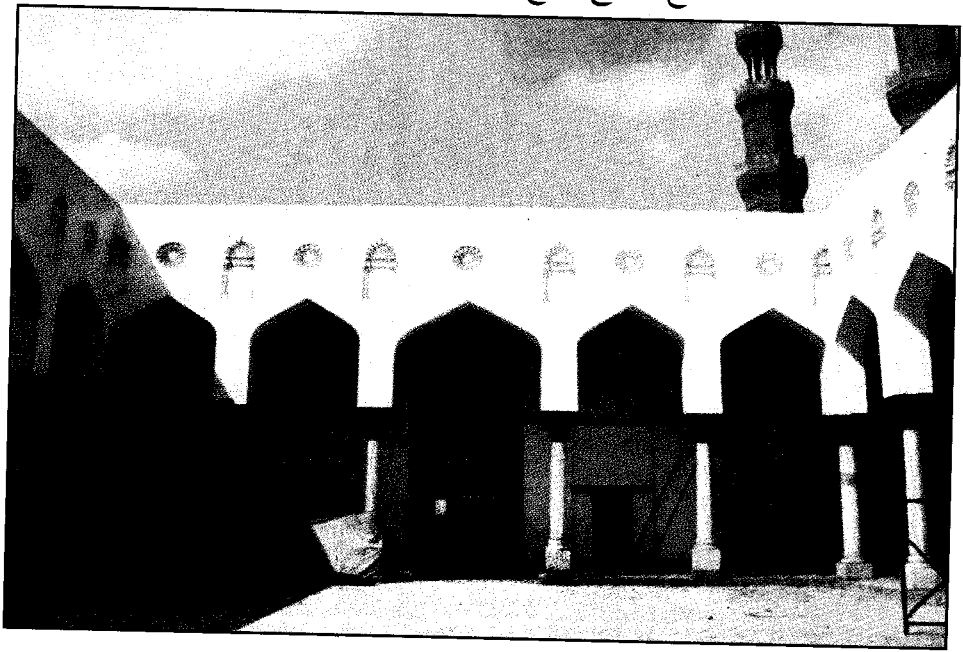
اللوحة رقم (٣٦)

جامع الصالح طلائع، سقيفة المدخل الغربي



اللوحة رقم (٣٧)

جامع الصالح طلائع، العقود الداخلية لرواق القبلة

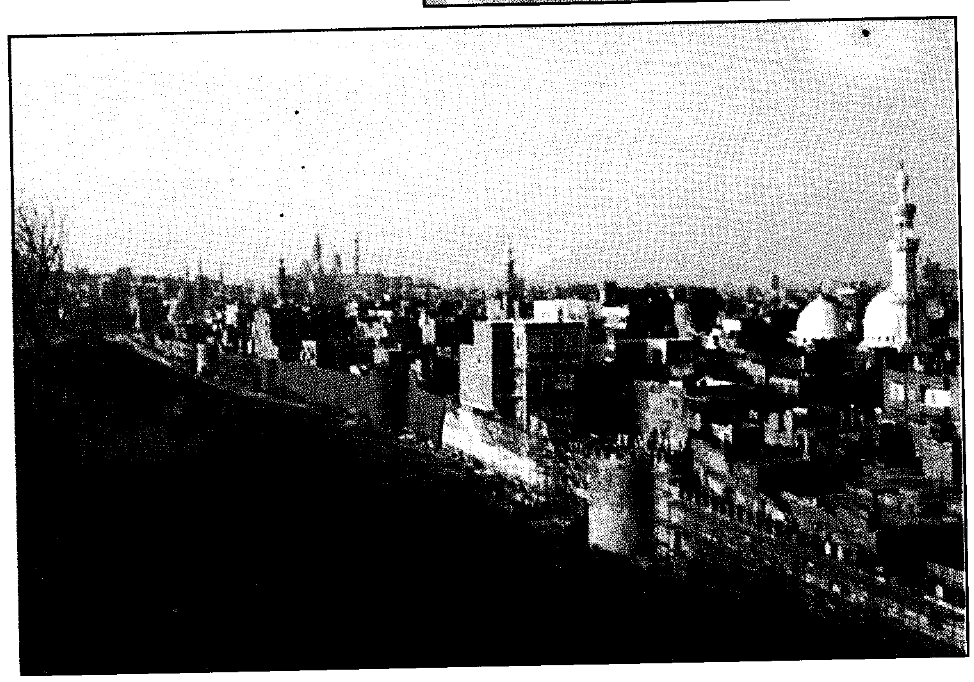


اللوحة رقم (٣٨)

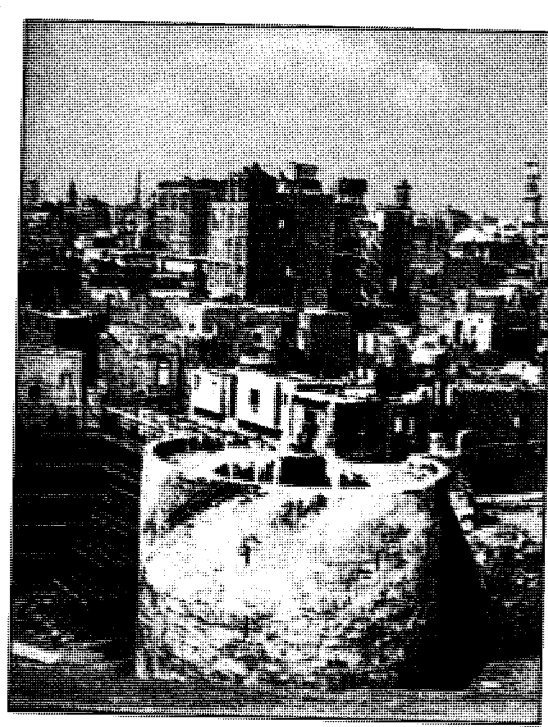
جامع الصالح طلائع، الرواق الغربي



اللوحة رقم (٣٩)
الحمام الفاطمي، رسم جصي ملون لمجلس شراب



اللوحة رقم (٤٠)
أسوار صلاح الدين، السور الشرقي، القسم الشمالي، منظر عام عن archnet.org



اللوحة رقم (٤١)
أسوار صلاح الدين، السور الشرقى، القسم الشمالى، باب المحروق، نقلا عن archnet .org

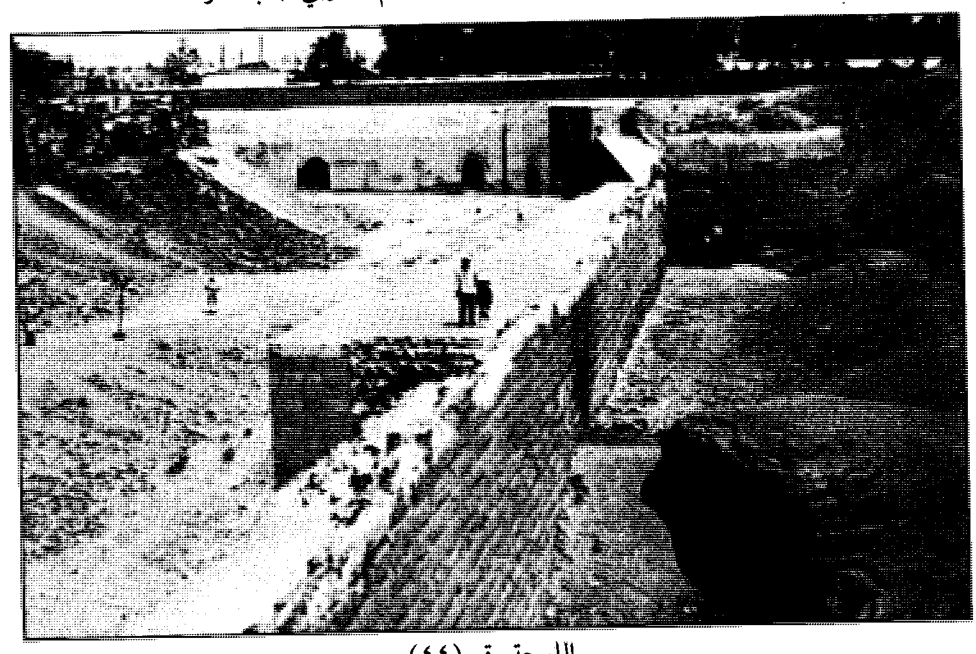


اللوحة رقم (٤٢)
أسوار صلاح الدين، السور الشرقي، باب المحروق، صورة جوية. نقلا عن archnet.org



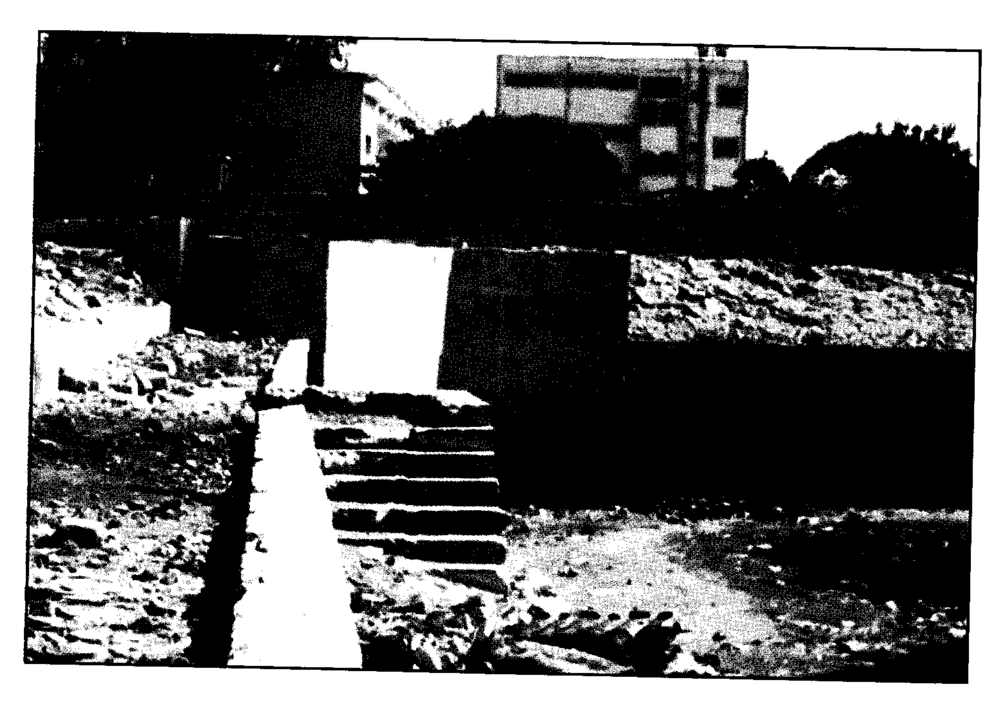
اللوحة رقم (٤٣)

أسوار صلاح الدين، السور الشرقى، القسم الجنوبي، باب القرافة



اللوحة رقم (٤٤)

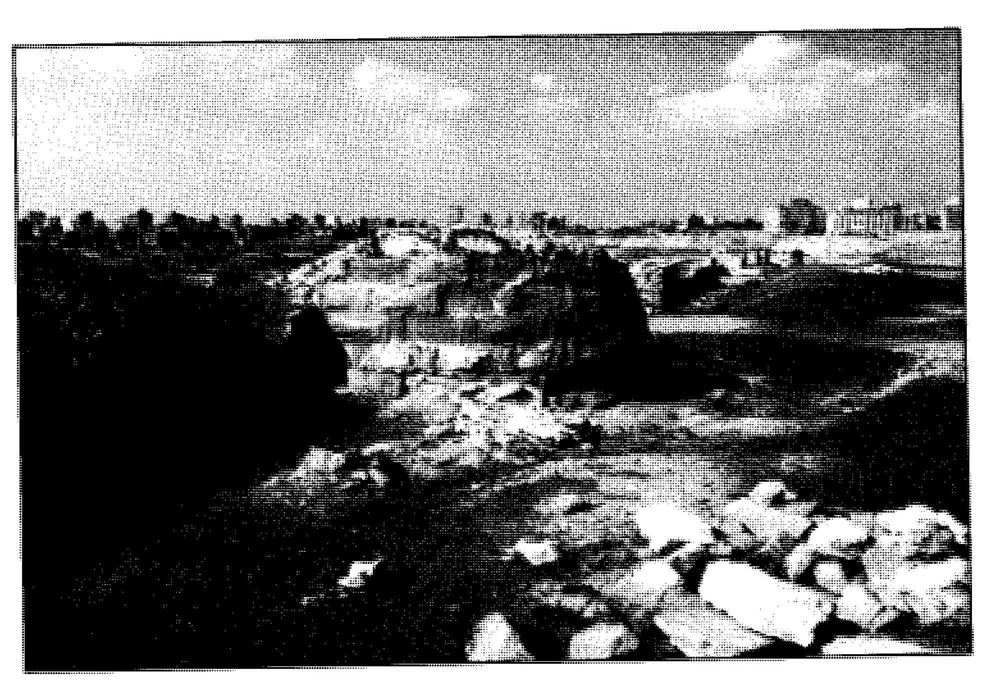
أسوار صلاح الدين، السور الشمالى، برج الظفر من الخارج، نقلا عن archnet.org



اللوحة رقم (٤٥)
أسوار صلاح الدين، السور الشمالى، برج الظفر من الداخل

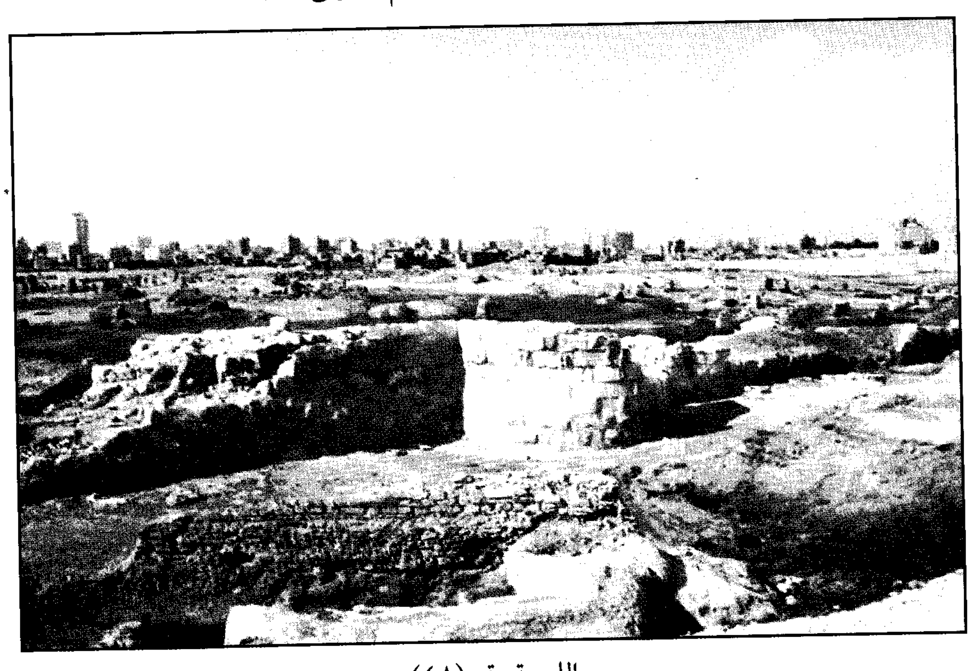


اللوحة رقم (٤٦)
أسوار صلاح الدين، السور الشمالى، برج الظفر من الداخل،زخارف السقف، نقلا عن archnet.org



اللوحة رقم (٤٧)

أسوار صلاح الدين، السور الشرقى، القسم الجنوبى، مدينة الفسطاط



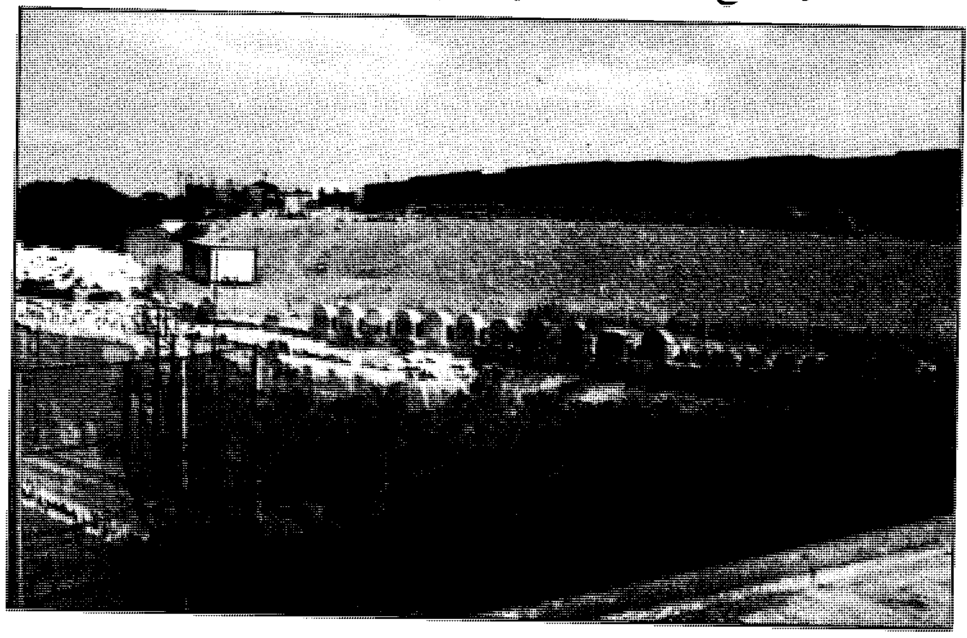
اللوحة رقم (٤٨)

أسوار صلاح الدين، السور الشرقى، القسم الجنوبى، مدينة الفسطاط، منظر عام



اللوحة رقم (٤٩)

أسوار صلاح الدين، السور الشرقي، القسم الشمالى، منظر عام من الداخل

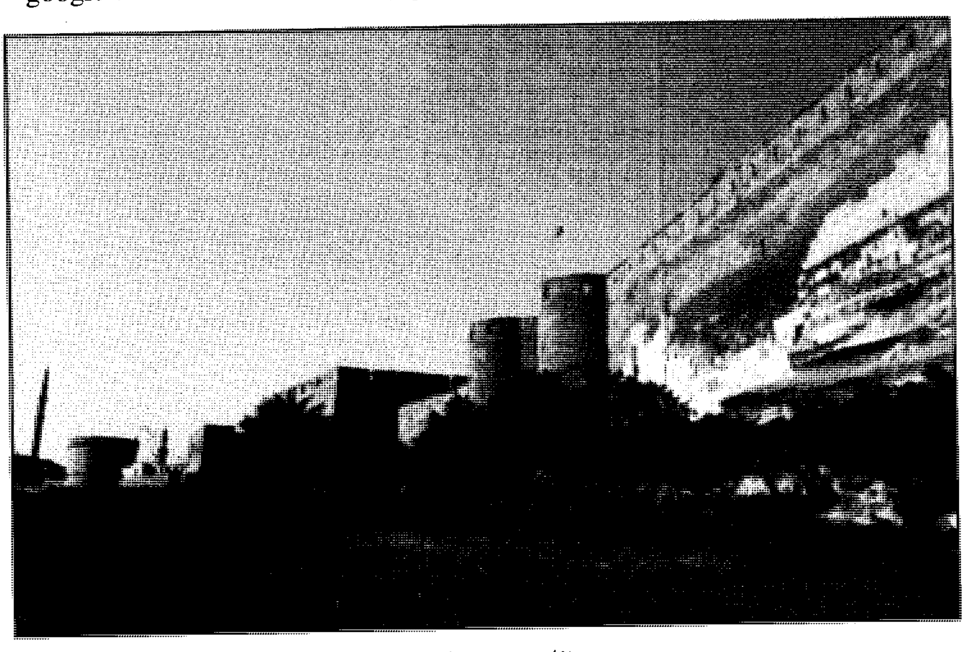


اللوحة رقم (٥٠)

أسوار صلاح الدين، السور الشرقي،القسم الشمالى، منظر من الخارج

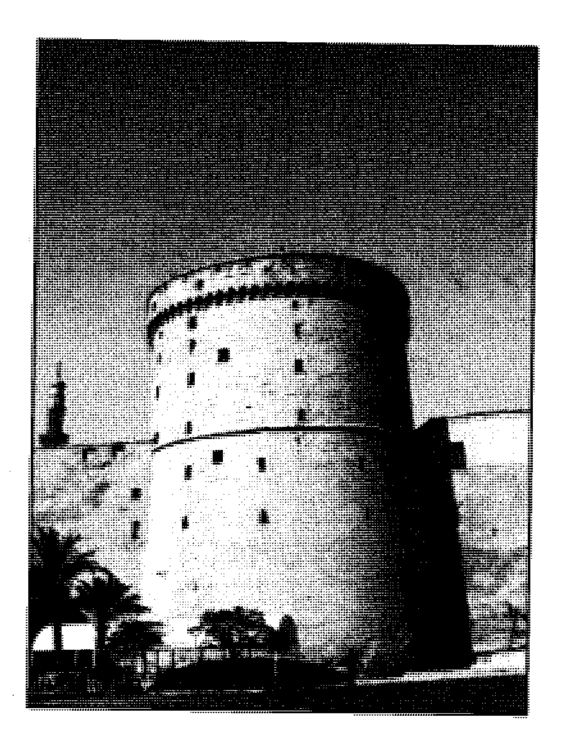
اللوحة رقم (٥١)

قلعة الجبل، صورة جوية، نقلا عن google earth. 2006 National Geographic Society

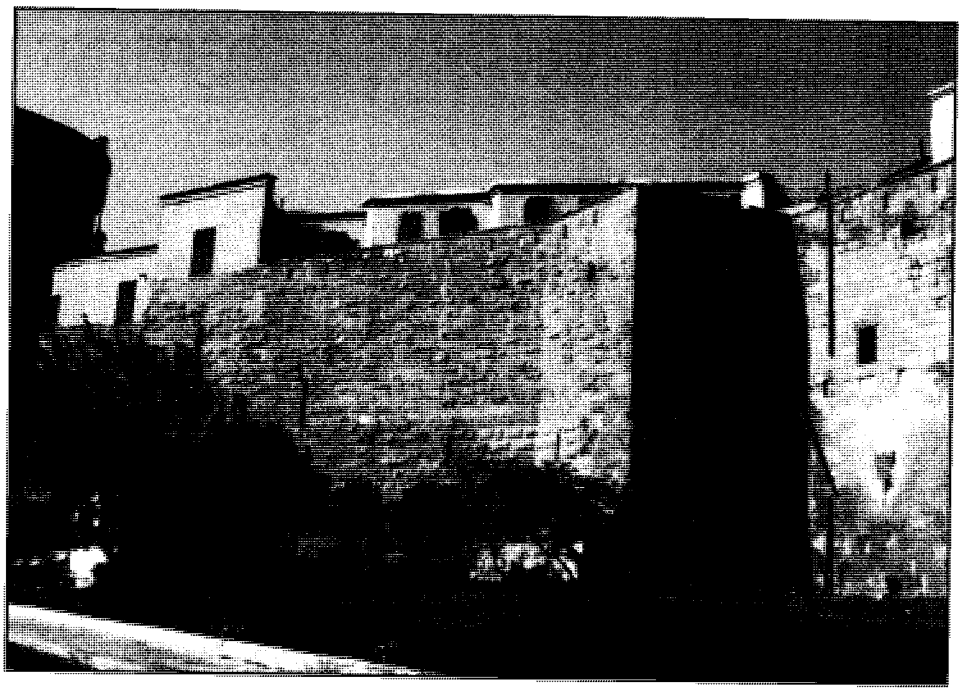


اللوحة رقم (٥٢)

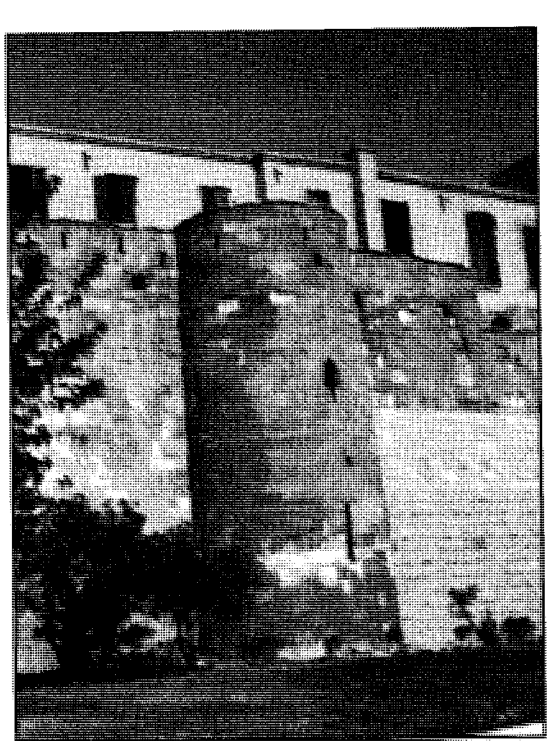
قلعة الجبل، السور الجنوبى



اللوحة رقم (٥٣)
قلعة الجبل،السور الجنوبي، برج المقطم

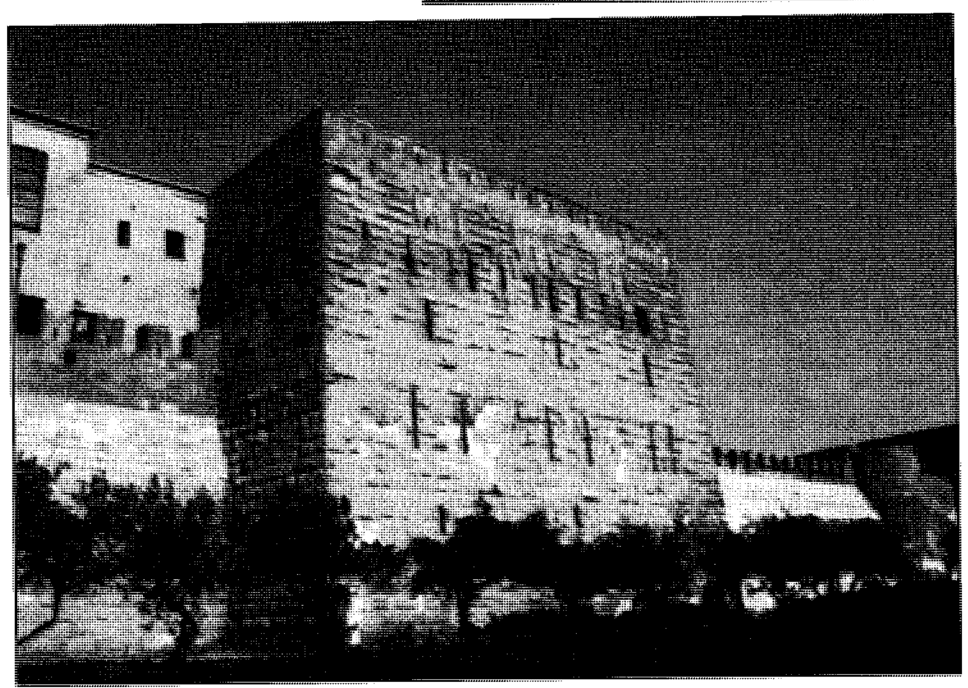


اللوحة رقم (٥٤)
قلعة الجبل، السور الجنوبي، برج الصفة



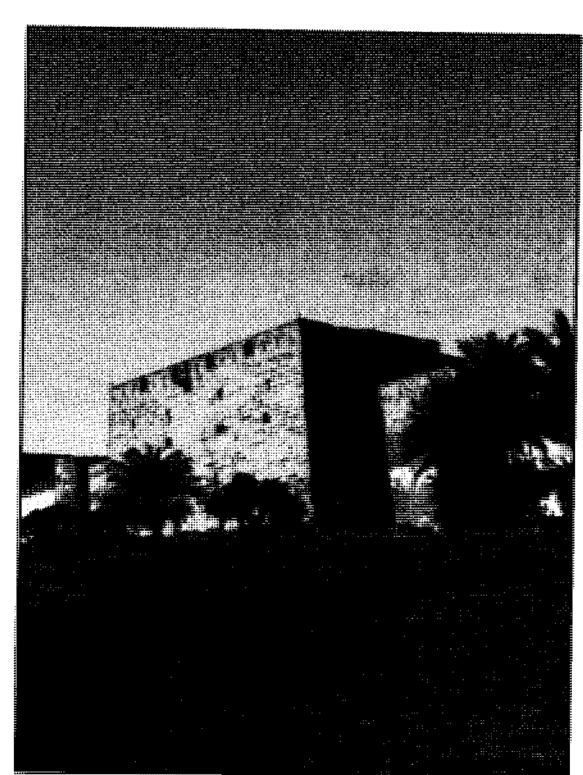
اللوحة رقم (٥٥)

قلعة الجبل،السور الجنوبى، برج العلوة

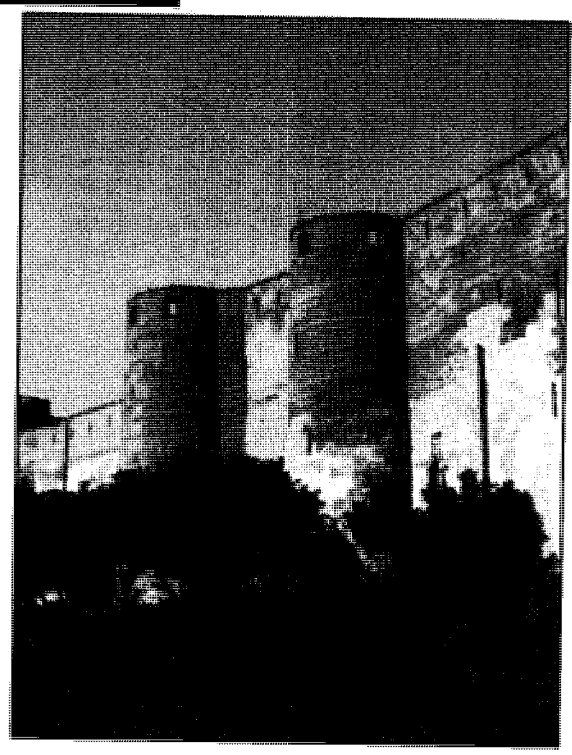


اللوحة رقم (٥٦)

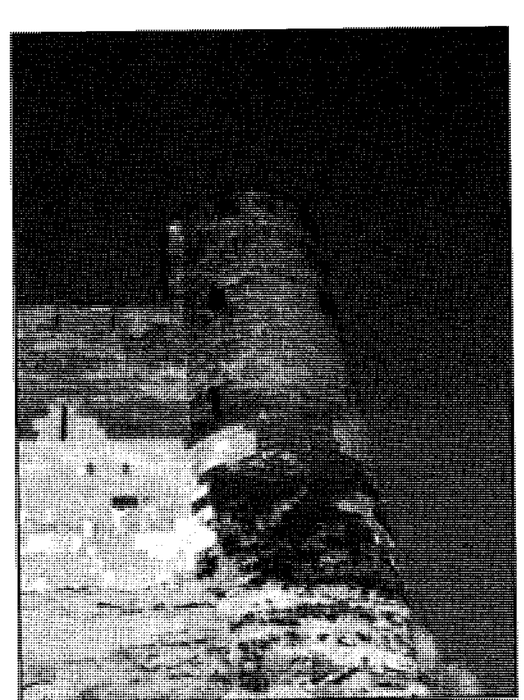
قلعة الجبل، السور الجنوبي، برج كيركيلان



اللوحة رقم (٥٧)
قلعة الجبل،السور الجنوبي، برج الطرفة
وبرج آخر نصف دائرى

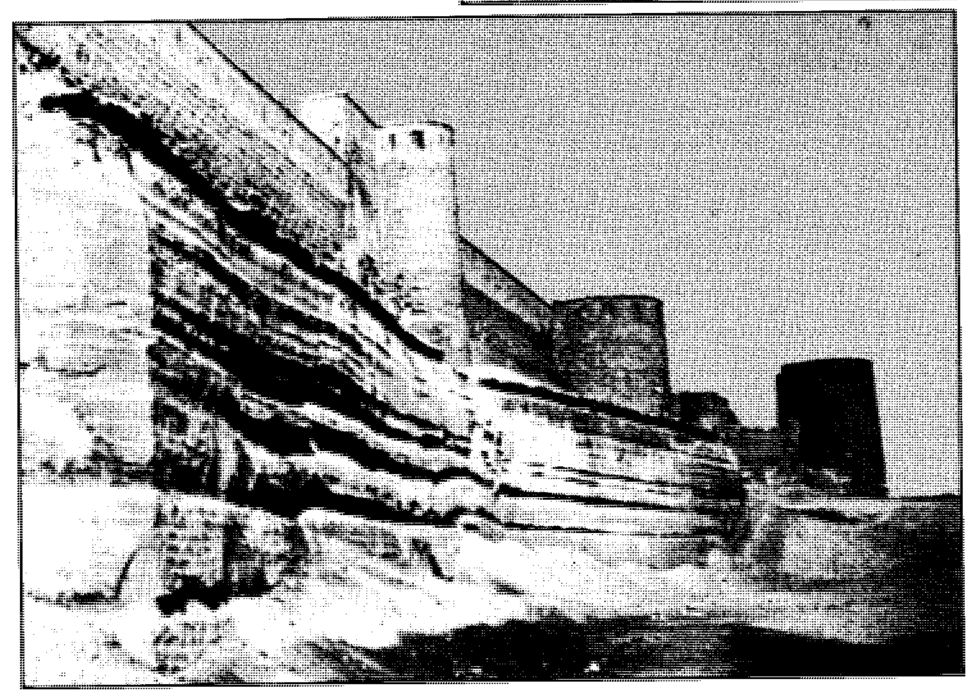


اللوحة رقم (٥٨)
قلعة الجبل،السور الجنوبى الشرقى، برج
المطار



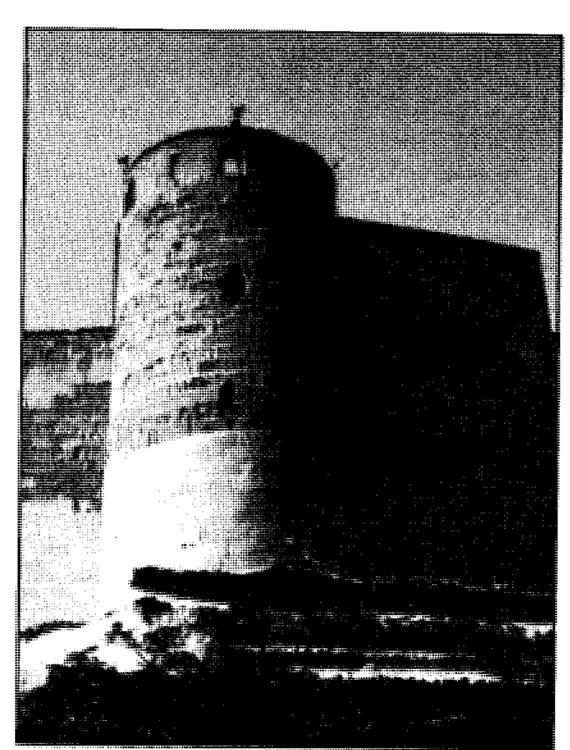
اللوحة رقم (٥٩)

قلعة الجبل،السور الجنوبى الشرقي، برج المبلط

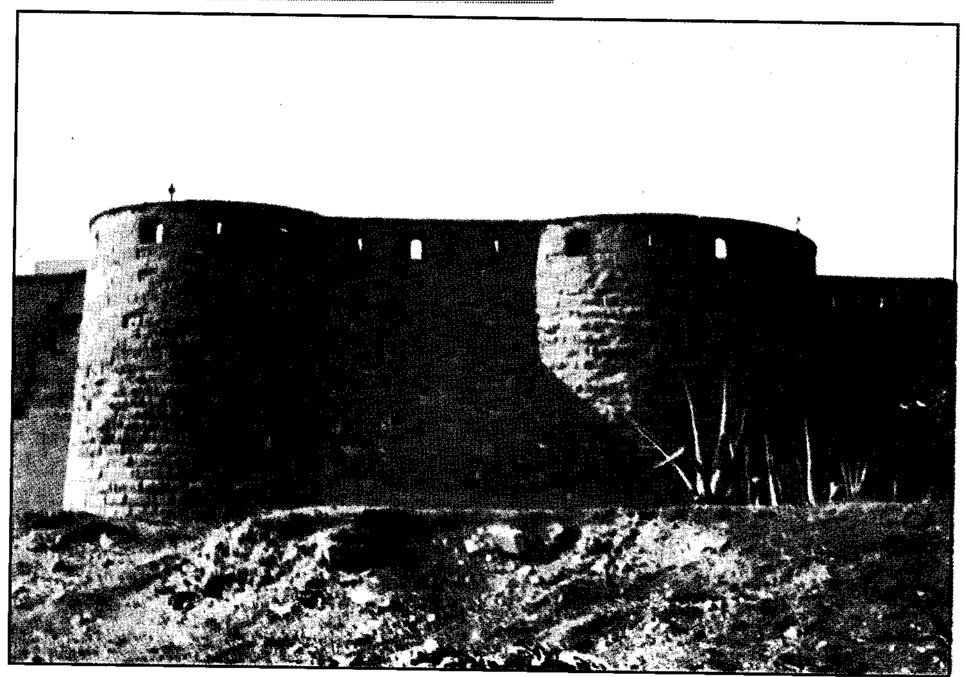


اللوحة رقم (٦٠)

قلعة الجبل، السور الشرقى، منظر عام لأبراج المقوصر، الإمام، الرملة، نقلا عن archnet.org



اللوحة رقم (٦١)
قلعة الجبل، السور الشرقي، برج المقوصر

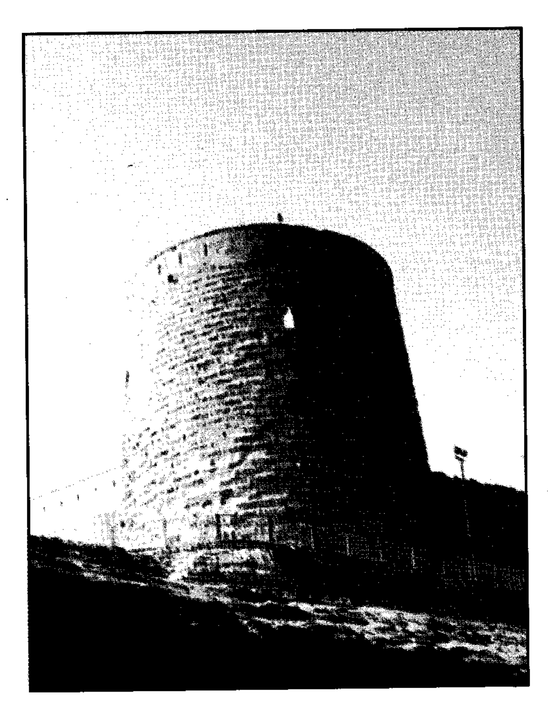


اللوحة رقم (٦٢)
قلعة الجبل، السور الشرقى، برج الإمام



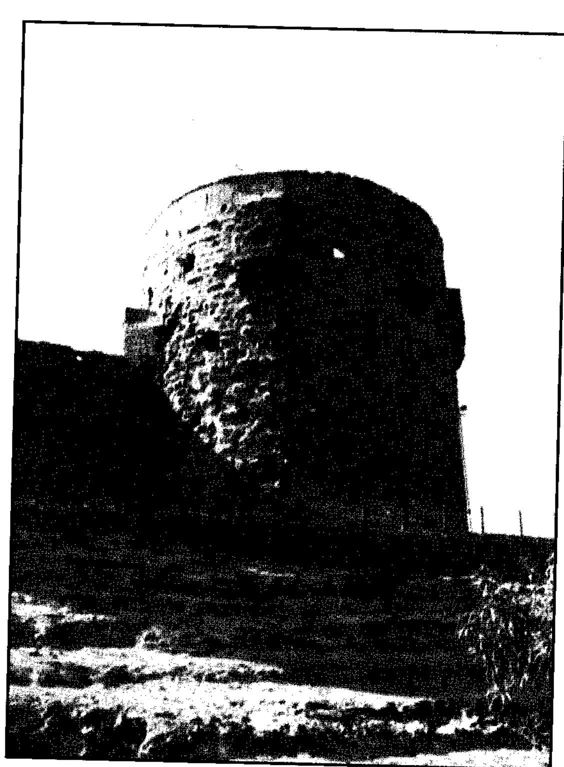
اللوحة رقم (٦٣)

قلعة الجبل، السور الشمالى الشرقى، برجا الرملة والحداد

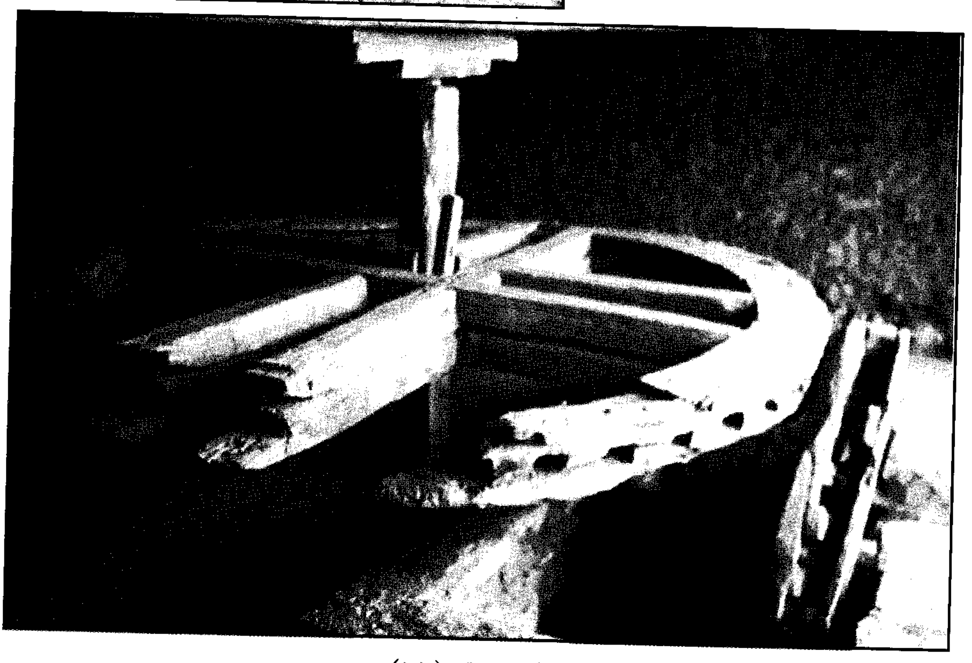


اللوحة رقم (٦٤)

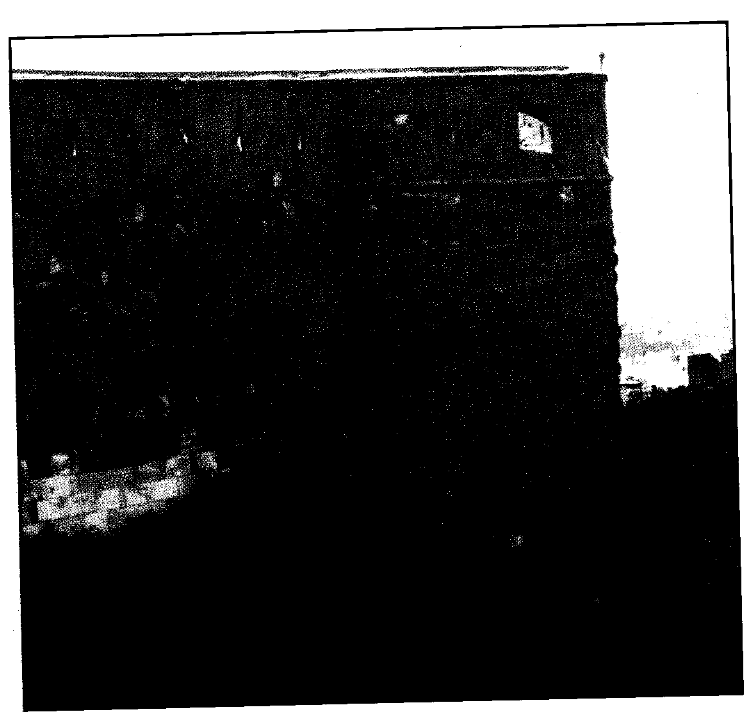
قلعة الجبل، السور الشرقى، برج الرملة



اللوحة رقم (٦٥)
قلعة الجبل، السور الشمالى الشرقى، برج الحداد

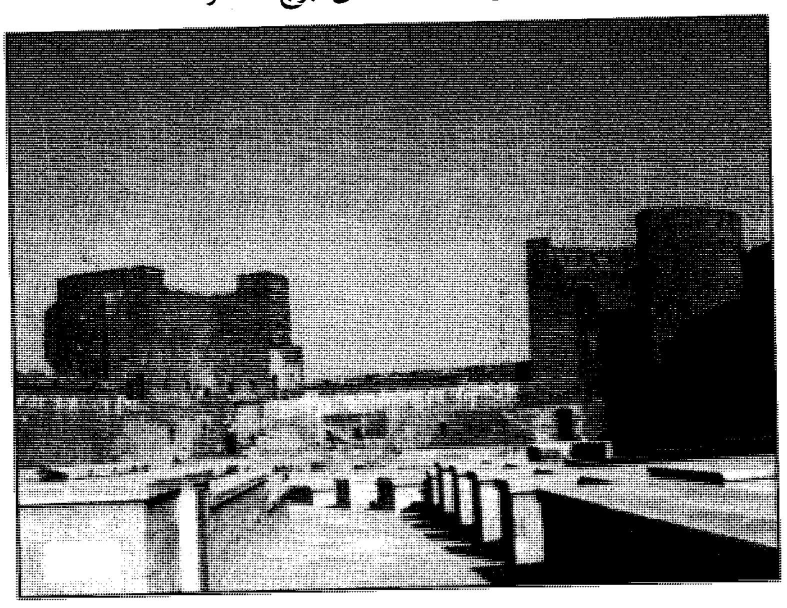


اللوحة رقم (٦٦)
قلعة الجبل، بئر يوسف، نقلا عن archnet.org



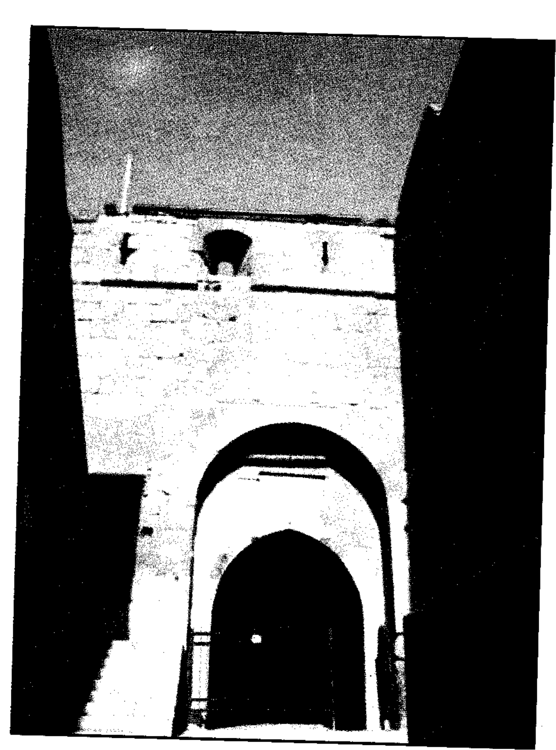
اللوحة رقم (٦٧)

قلعة الجبل، السور الشمالى، برج الصحراء

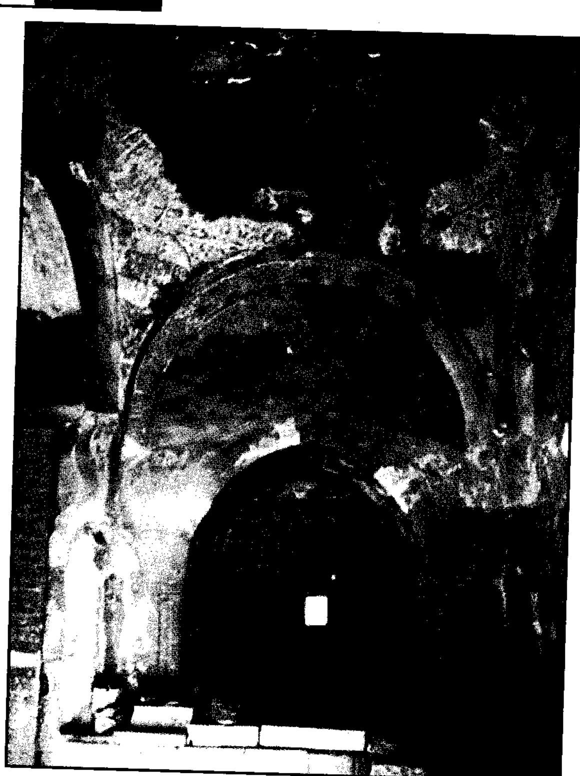


اللوحة رقم (٦٨)

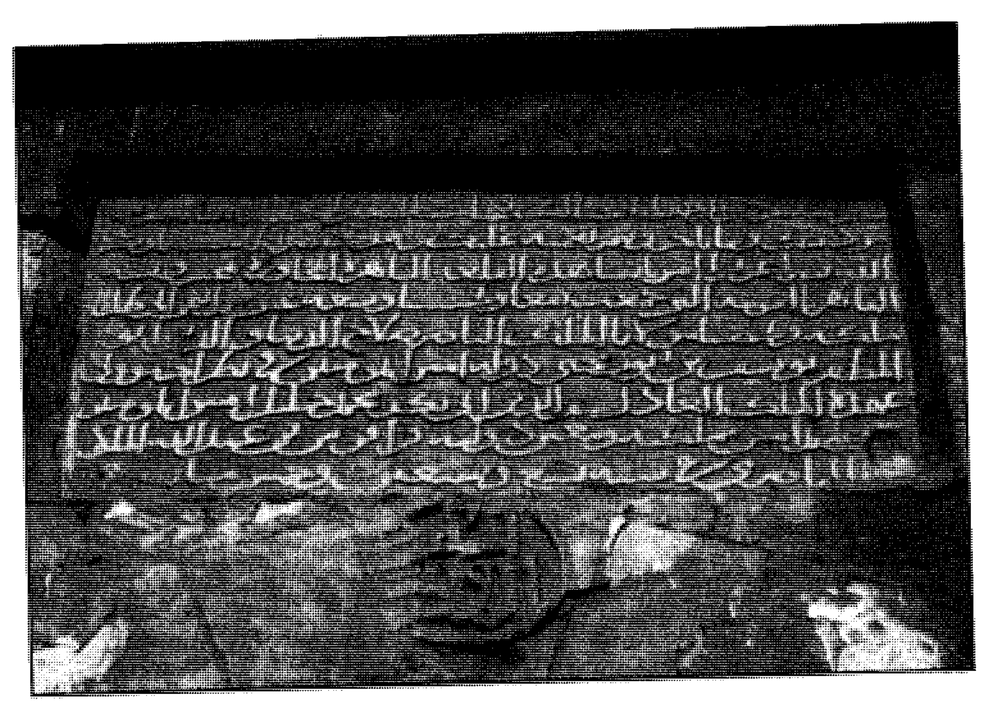
قلعة الجبل، برجا الرملة والحداد من الداخل بالسور الشمالى الشرقى



اللوحة رقم (٦٩)
قلعة الجبل،السور الغربى، باب المدرج،
منظر عام

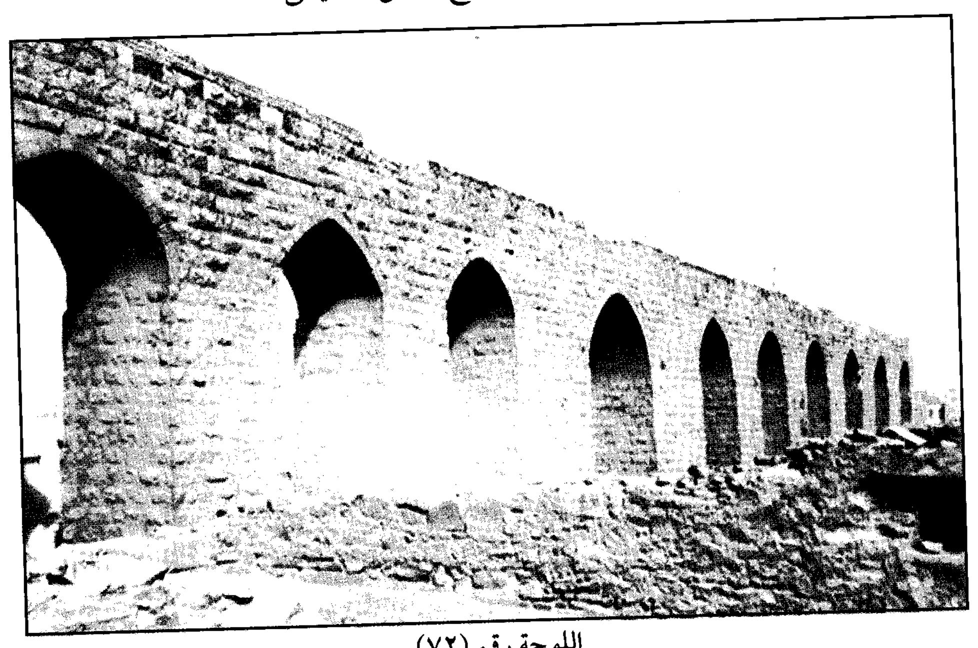


اللوحة رقم (٧٠)
قلعة الجبل، السور الغربى، باب المدرج،
منظر داخلى



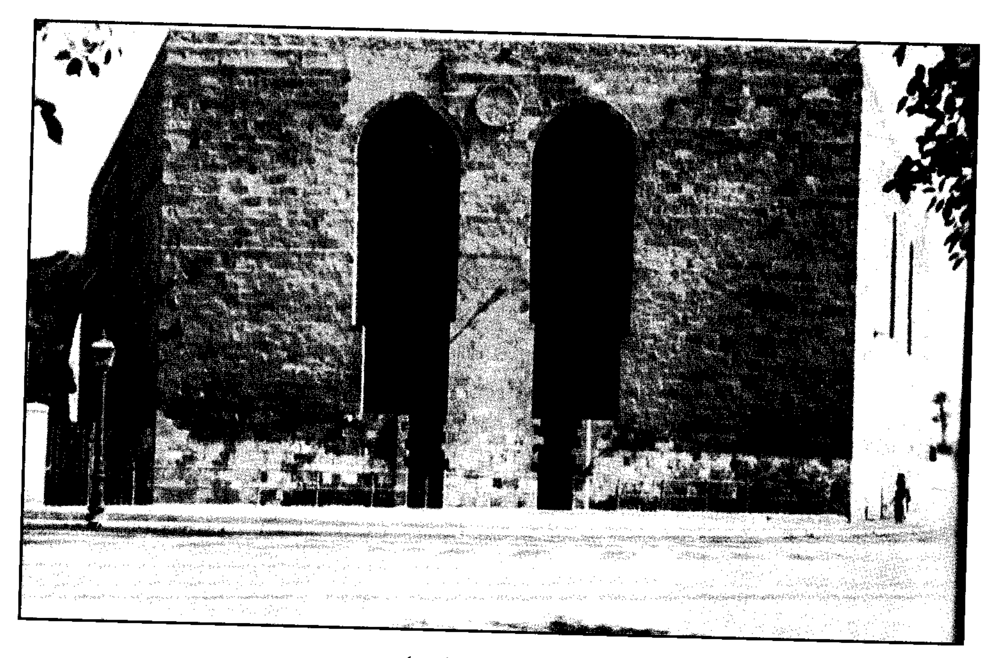
اللوحة رقم (٧١)

قلعة الجبل، باب المدرج، النص التأسيسي



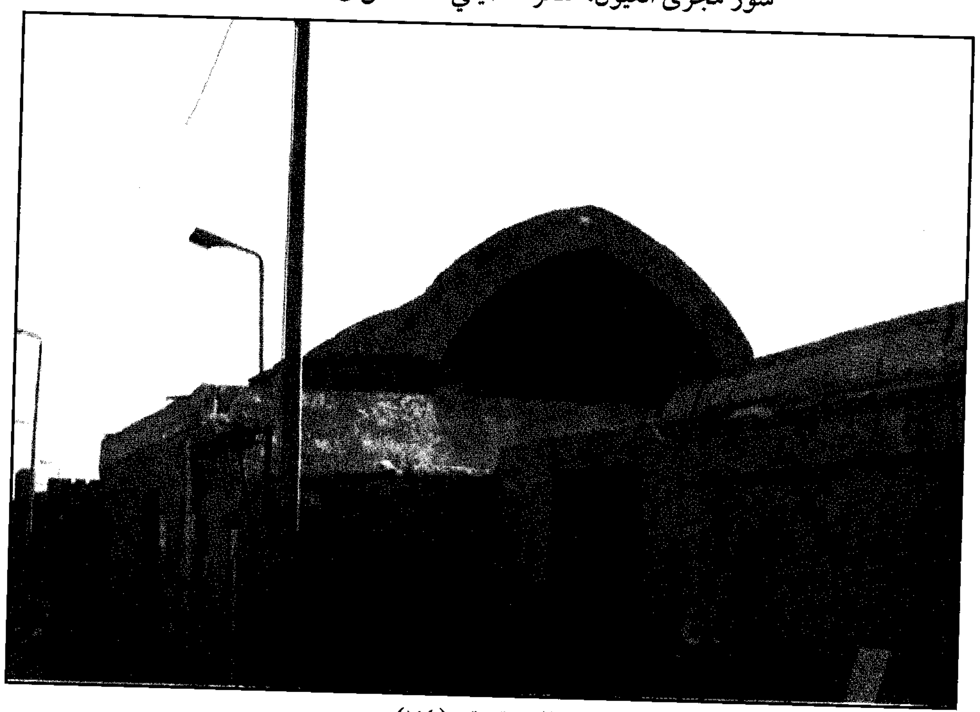
اللوحة رقم (٧٢)

سور مجرى العيون، منظر عام. نقلا عن archnet .org



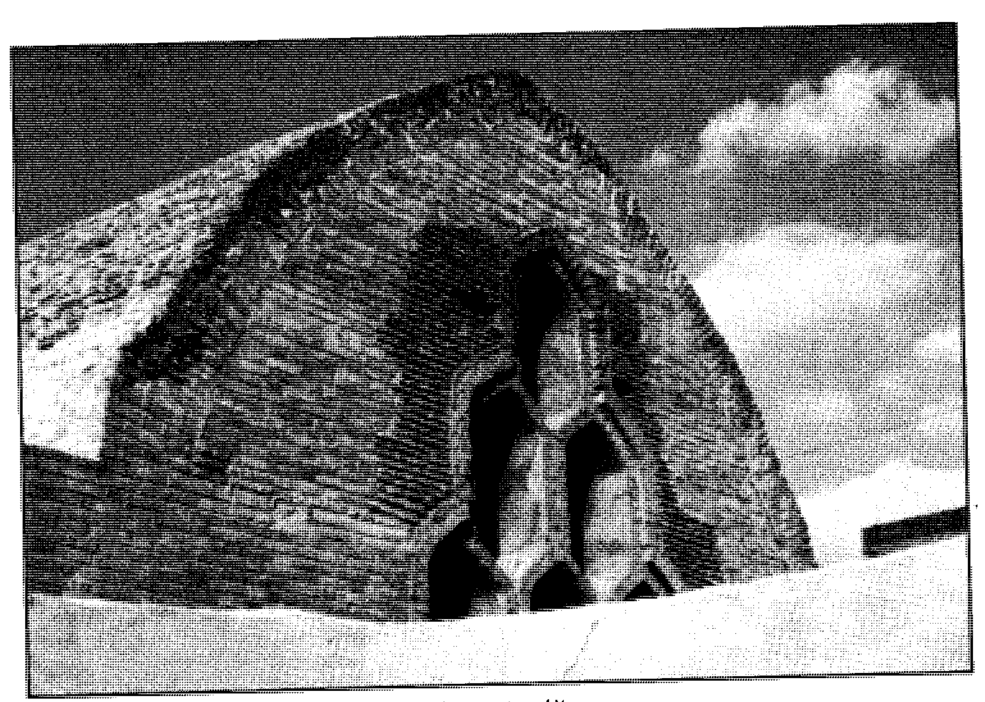
اللوحة رقم (٧٣)

سور مجرى العيون، منظر تفصيلي. نقلا عن archnet.org



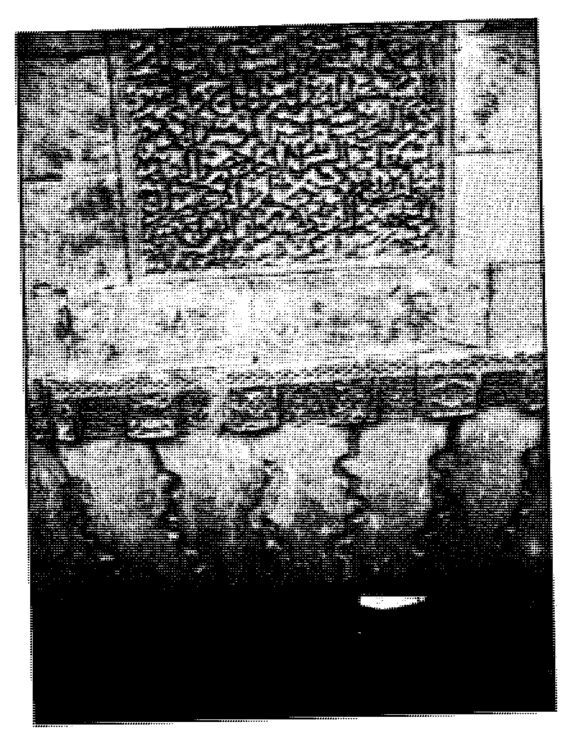
اللوحة رقم (٧٤)

مدرسة وقبة السادات الثعالبة، منظر عام



اللوحة رقم (٧٥)

مدرسة وقبة السادات الثعالبة، تفاصيل الإيوان الشرقى

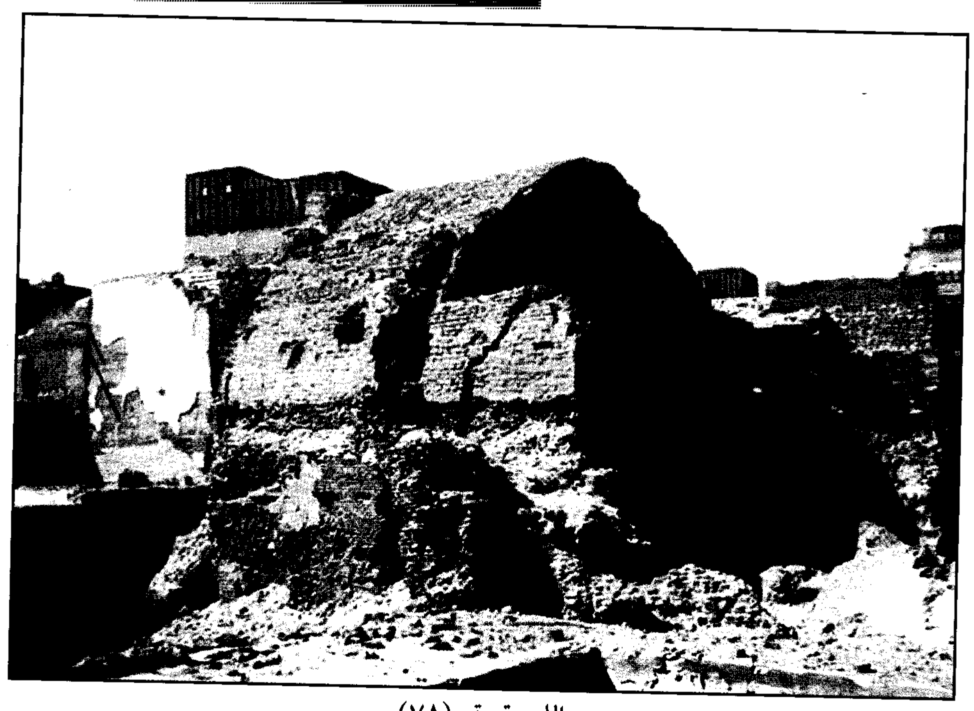


اللوحة رقم (٧٦)

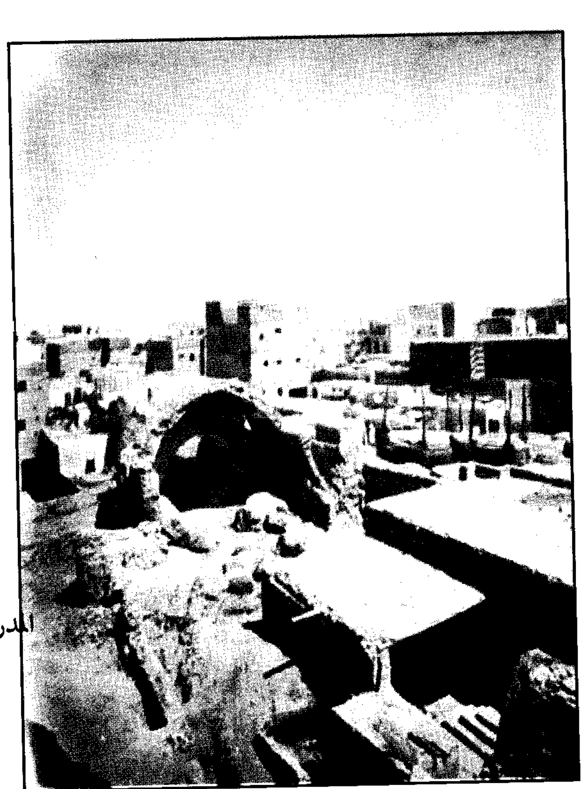
مدرسة وقبة السادات الثعالبة، المدخل الشمالى، والنص التأسيسى



اللوحة رقم (٧٧)
مدرسة وقبة السادات الثعالبة، المدخل
الشمالى، تفاصيل الزخارف



اللوحة رقم (٧٨)
المدرسة الكاملية، منظر عام نقلا عن archnet.org



اللوحة رقم (٧٩)

المدرسة الكاملية، منظر عام نقلا عن -arch
net.org

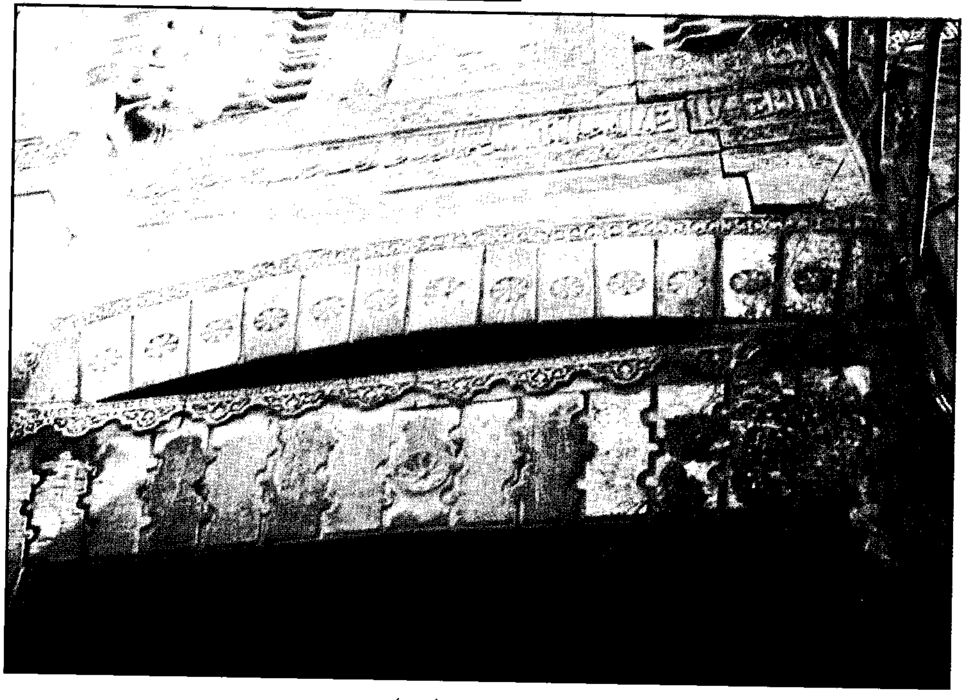


اللوحة رقم (٨٠)

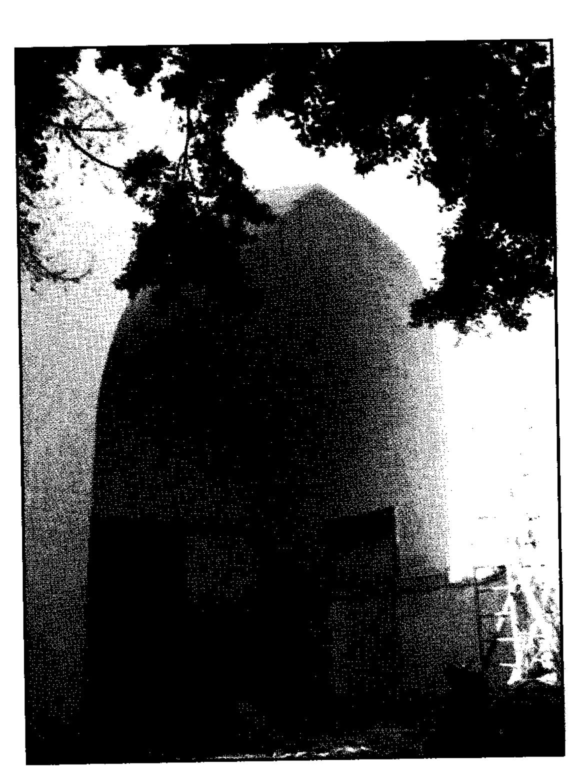
المدرسة الصالحية، منظر عام للمدخل والمئذنة، نقلا
عن archnet.org



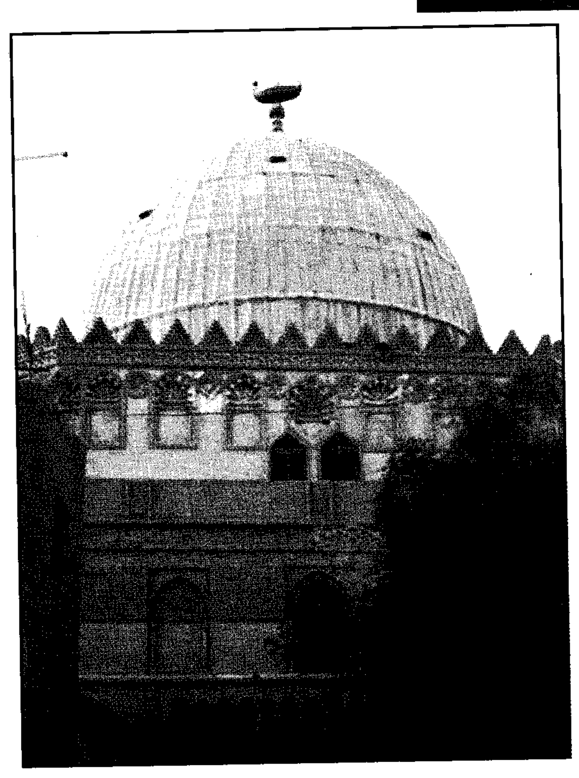
اللوحة رقم (٨١)
المدرسة الصالحية، المئذنة، نقلا عن
archnet.org



اللوحة رقم (٨٢)
المدرسة الصالحية، المدخل، نقلا عن archnet.org



اللوحة رقم (٨٣)
المدرسة الصالحية، بقايا الإيوان الغربى



اللوحة رقم (٨٤)
قبة الإمام الشافعي، منظر عام من الخارج



اللوحة رقم (٨٥)

قبة الإمام الشافعي، تفاصيل الواجهة من الخارج



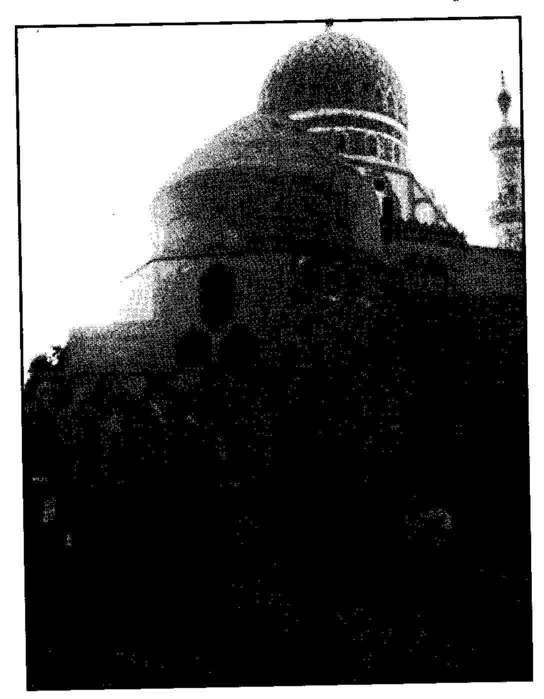
اللوحة رقم (٨٦)

قبة الإمام الشافعي، منظر داخلي، محراب ابن الزمن



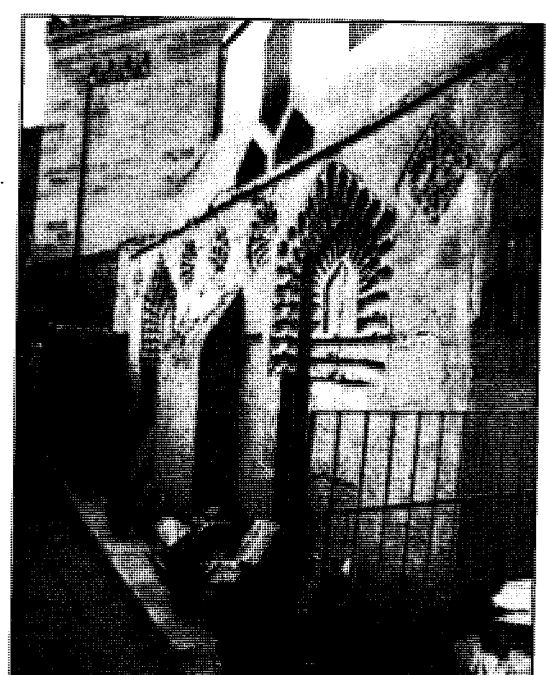
اللوحة رقم (٨٧)

قبة الإمام الشافعي، منظر داخلي، مناطق الانتقال بالقبة



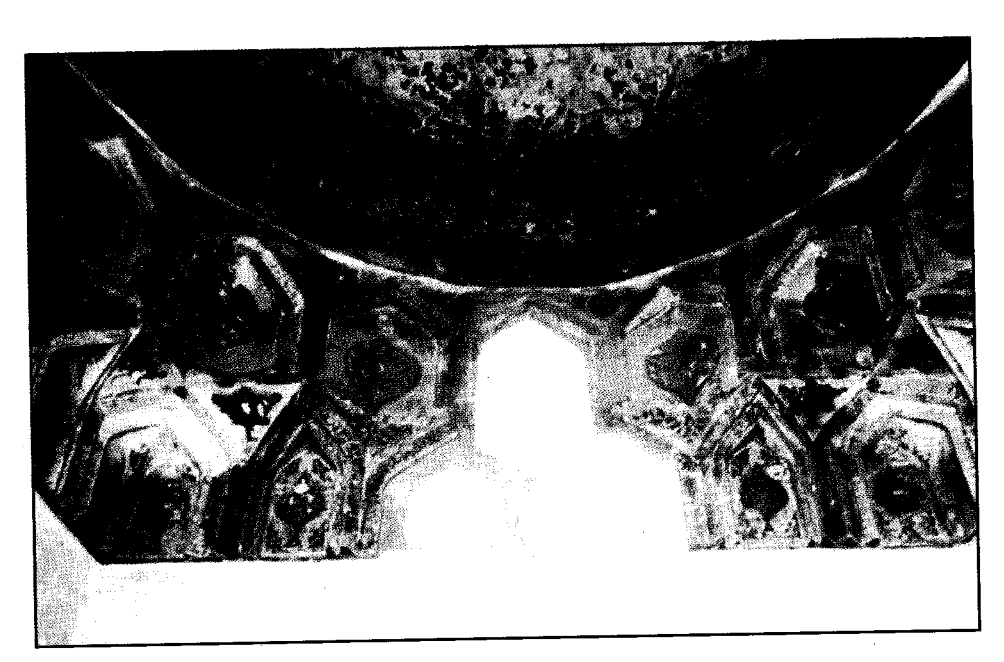
اللوحة رقم (٨٨)

قبة الخلفاء العباسيين، منظر خارجي للقسم الشمالي



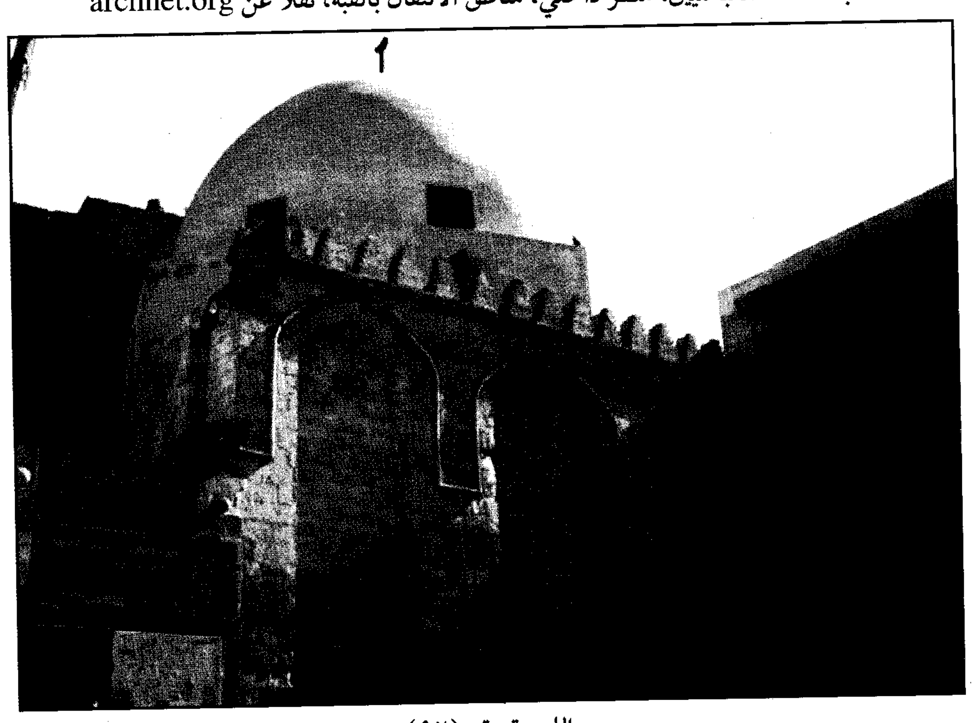
اللوحة رقم (٨٩)
قبة الخلفاء العباسيين، منظر خارجي، الجدار الشرقي

اللوحة رقم (٩٠)
قبة الخلفاء العباسيين،منظر داخلي، المحراب، نقلا عن archnet.org



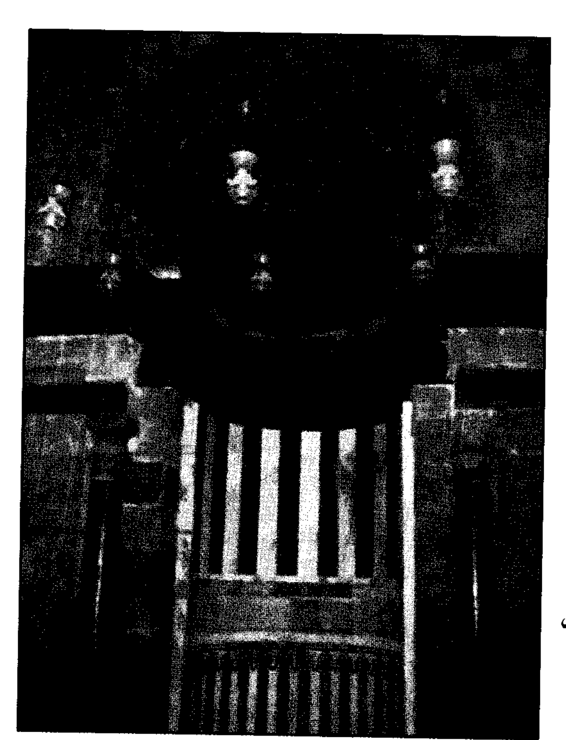
اللوحة رقم (٩١)

قبة الخلفاء العباسيين، منظر داخلي، مناطق الانتقال بالقبة، نقلا عن archnet.org

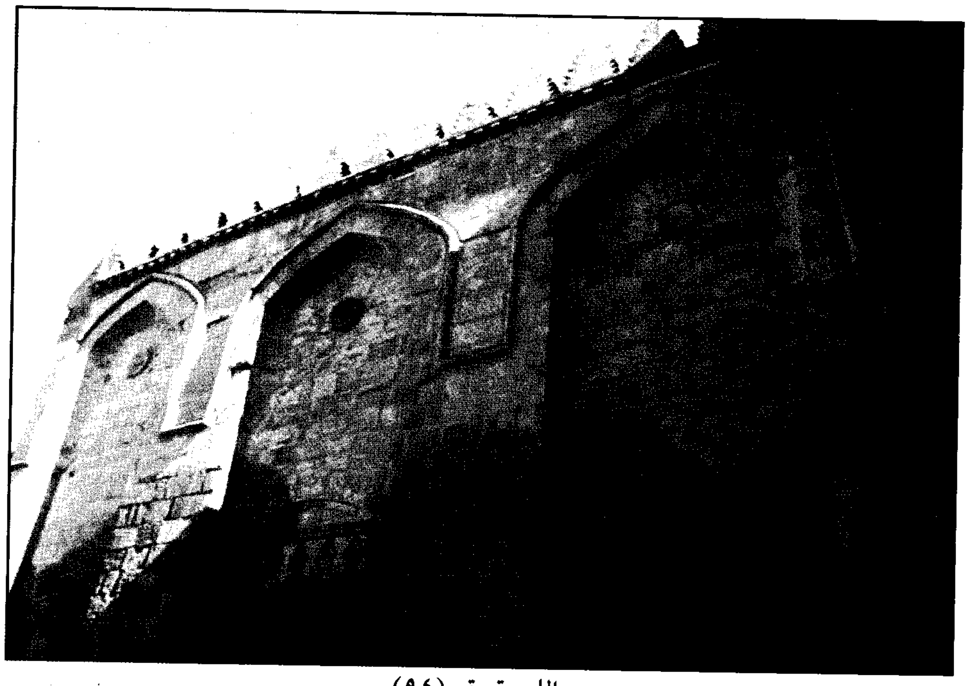


اللوحة رقم (٩٢)

قبة الصالح نجم الدين أيوب، منظر خارجي،الواجهة الغربية

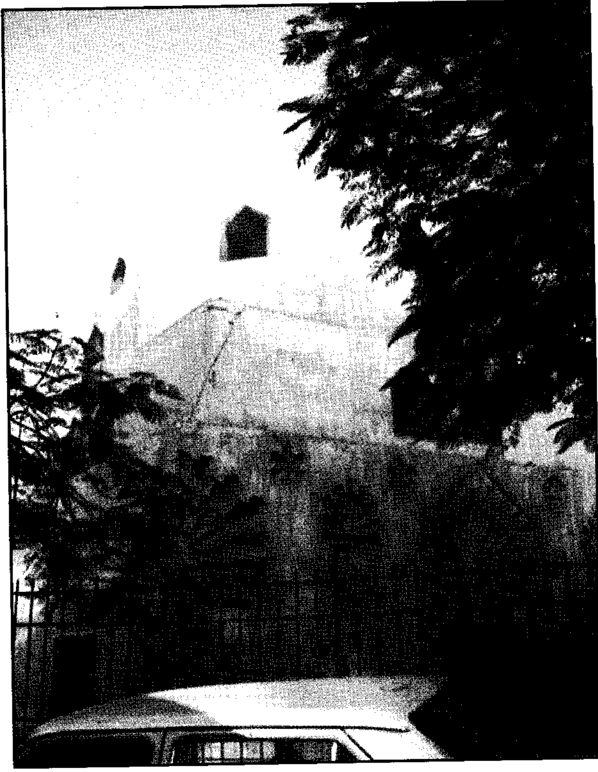


اللوحة رقم (٩٣)
قبة الصالح نجم الدين أيوب، منظر داخلي، المحراب

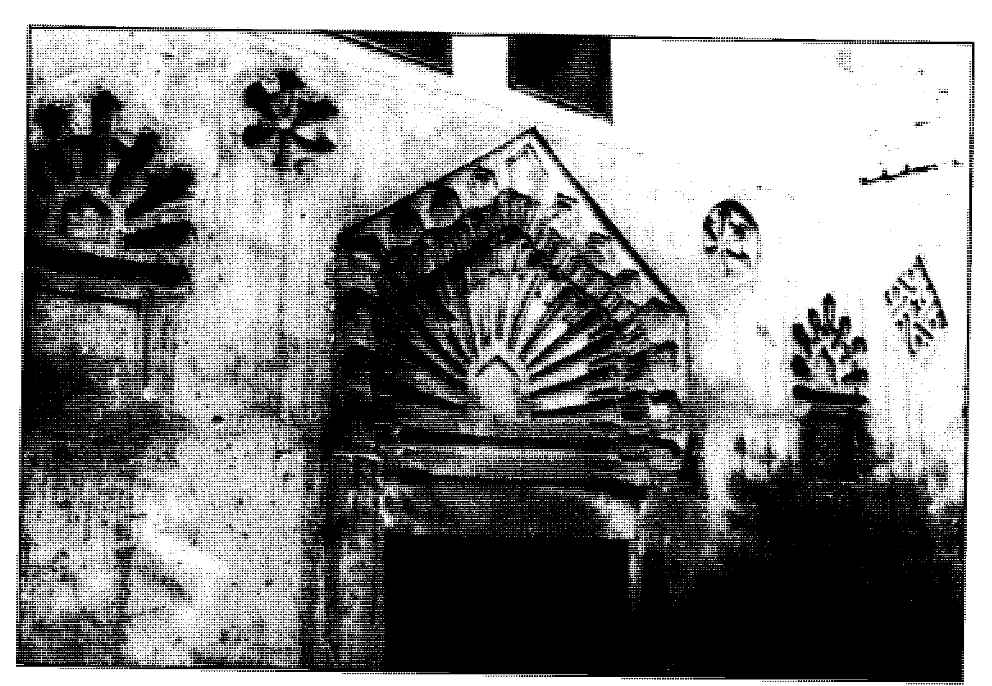


اللوحة رقم (٩٤)
قبة الصالح نجم الدين، تفاصيل للواجهة الغربية

اللوحة رقم (٩٥)
قبة الصالح نجم الدين، اللوحة التأسيسية



اللوحة رقم (٩٦)
قبة شجر الدر، منظر خارجي، الواجهة الغربية



اللوحة رقم (٩٧)

قبة شجر الدر، تفاصيل المدخل



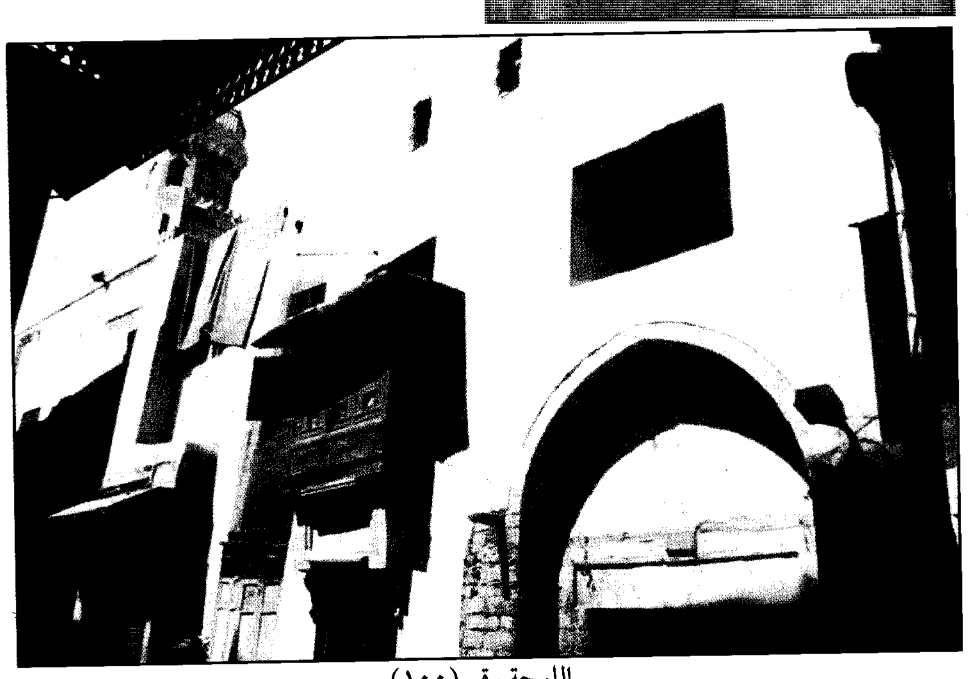
اللوحة رقم (٩٨)

قبة شجر الدر، منظر داخلى، المحراب



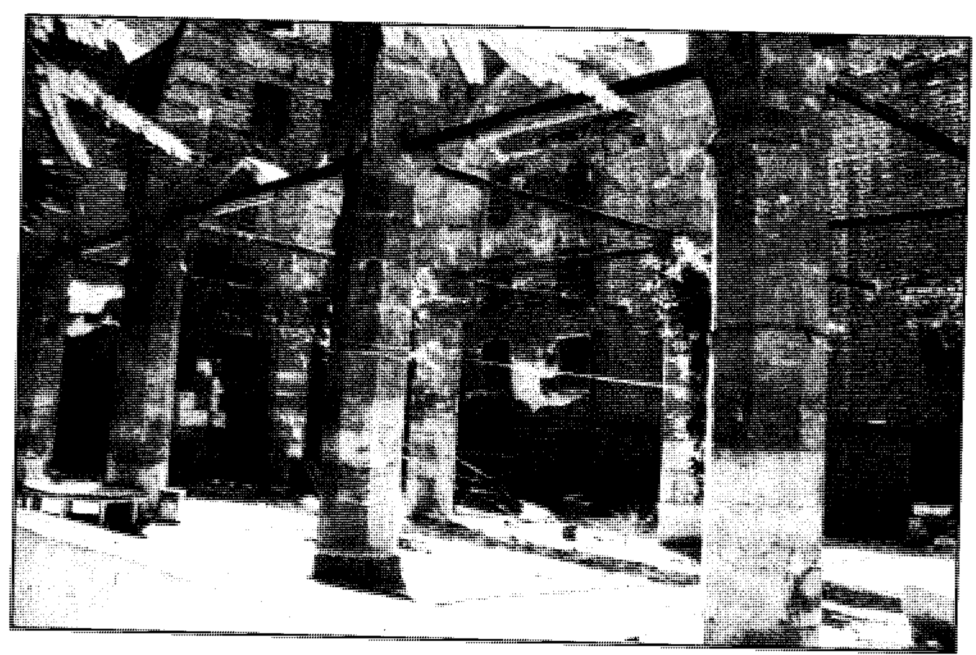
اللوحة رقم (٩٩)

قبة شجر الدر، تفاصيل بعض زخارف الواجهة الغربية



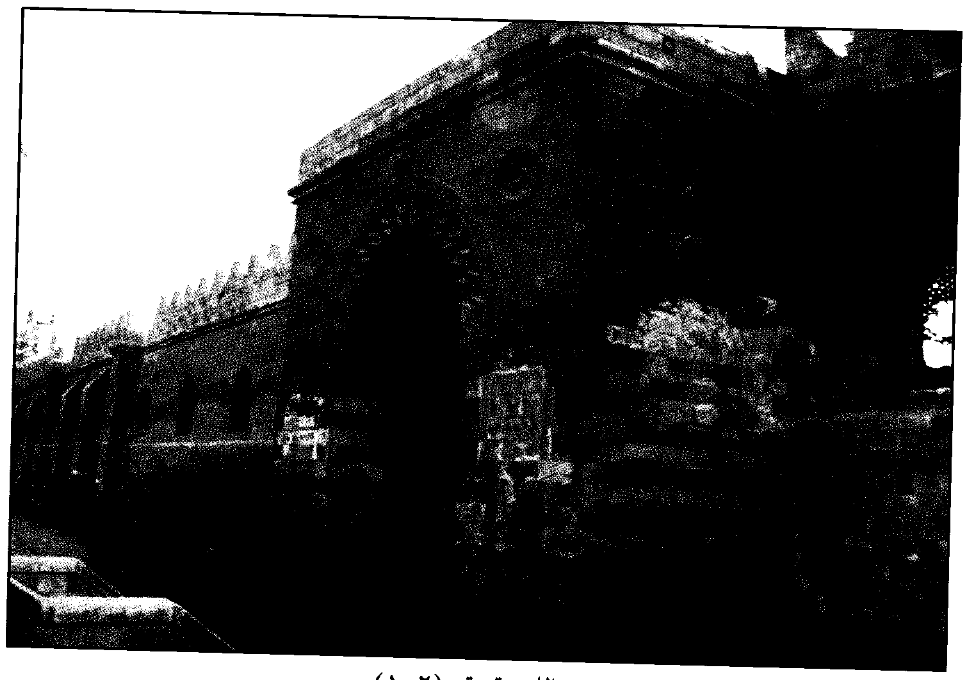
اللوحة رقم (١٠٠)

خانقاة سعيد السعداء، منظر خارجي، الواجهة الشرقية. نقلا عن مشروع القاهرة التاريخية - وزارة الثقافة



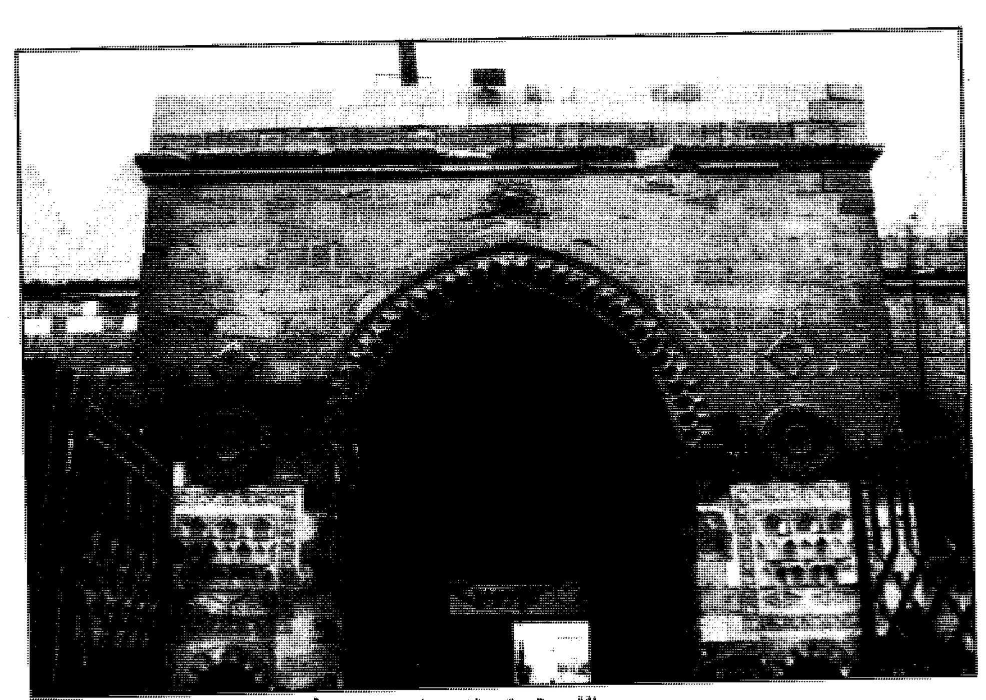
اللوحة رقم (١٠١)

خانقاة سعيد السعداء، منظر داخلي، القسم الغربي، نقلا عن مشروع القاهرة التاريخية - وزارة الثقافة



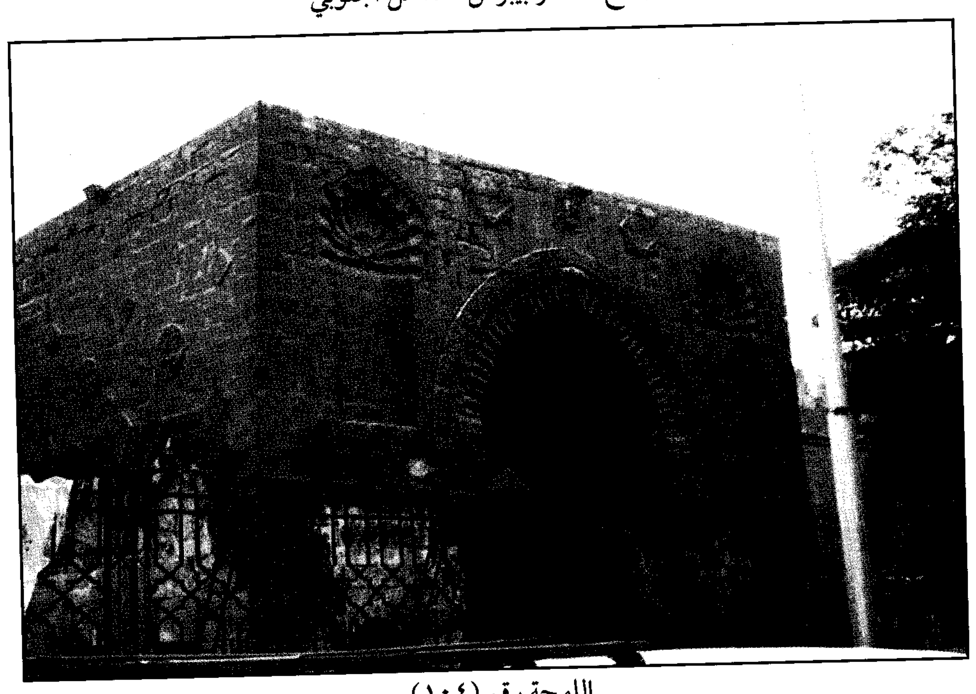
اللوحة رقم (١٠٢)

جامع الظاهر بيبرس، المدخل الشمالي



اللوحة رقم (١٠٣)

جامع الظاهر بيبرس، المدخل الجنوبي

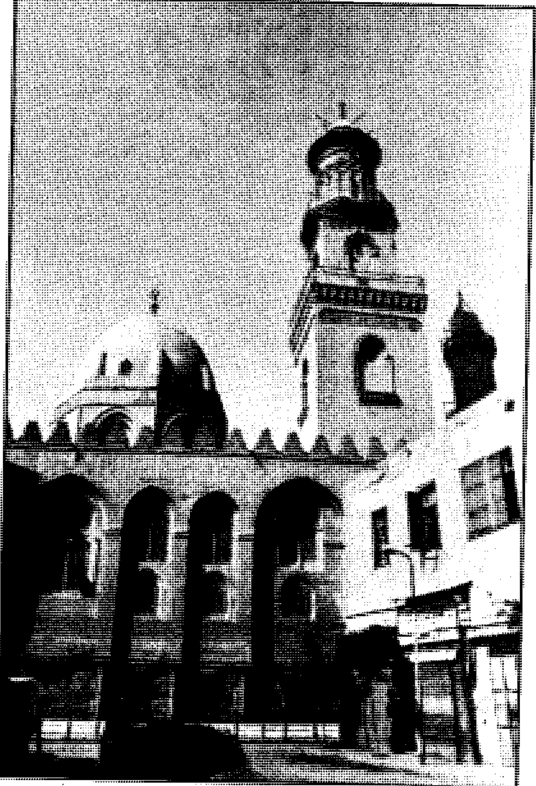


اللوحة رقم (١٠٤)

جامع الظاهر بيبرس، المدخل الغربي

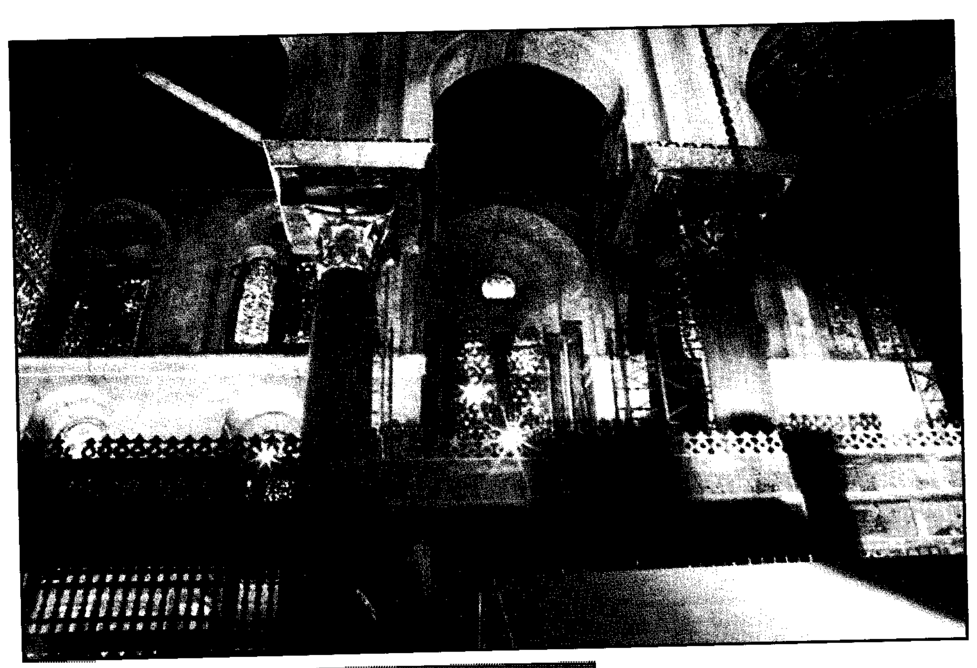


اللوحة رقم (١٠٥)
جامع الظاهر بيبرس، منظر داخلي،
جدار القبلة

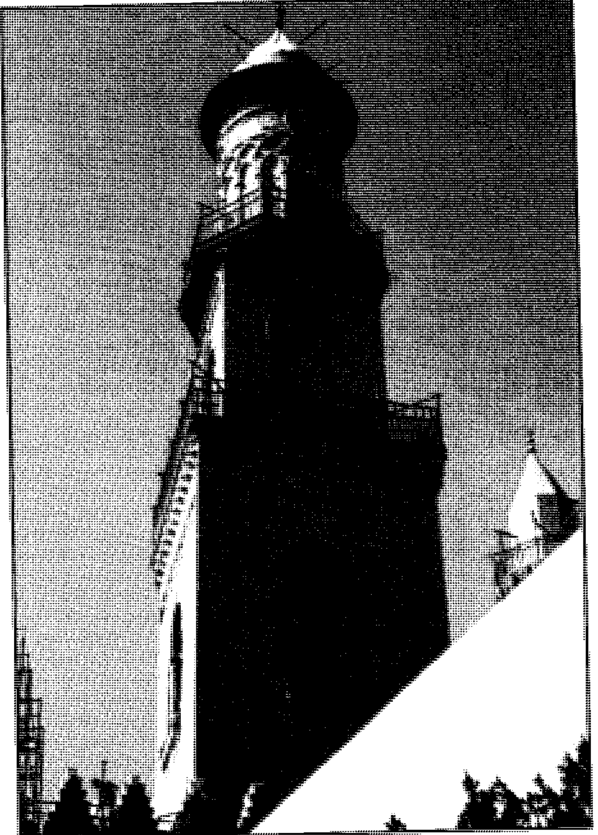


اللوحة رقم (١٠٦)
مجموعة السلطان قلاوون، منظر عام،
الواجهة الشرقية، نقلا عن مشروع القاهرة
التاريخية - وزارة الثقافة



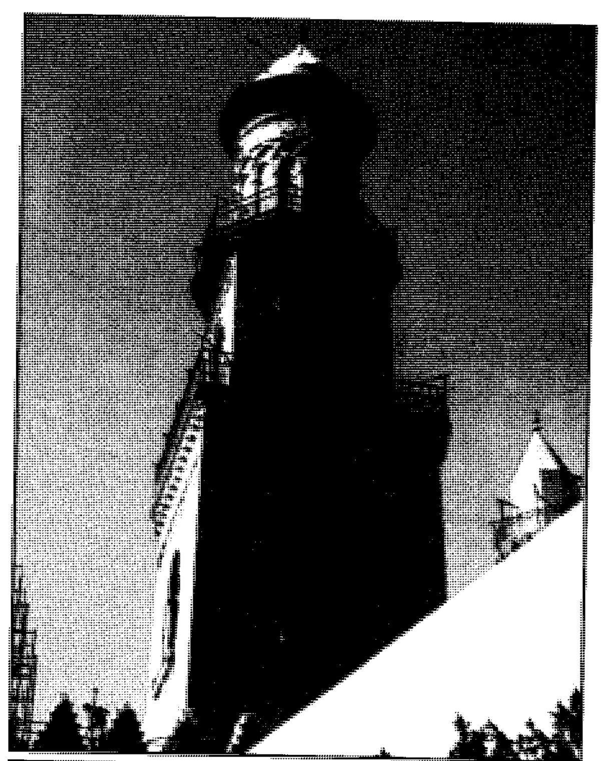


اللوحة رقم (١٠٧)
مجموعة السلطان قلاوون، القبة من الداخل، نقلا عن مشروع القاهرة التاريخية - وزارة الثقافة



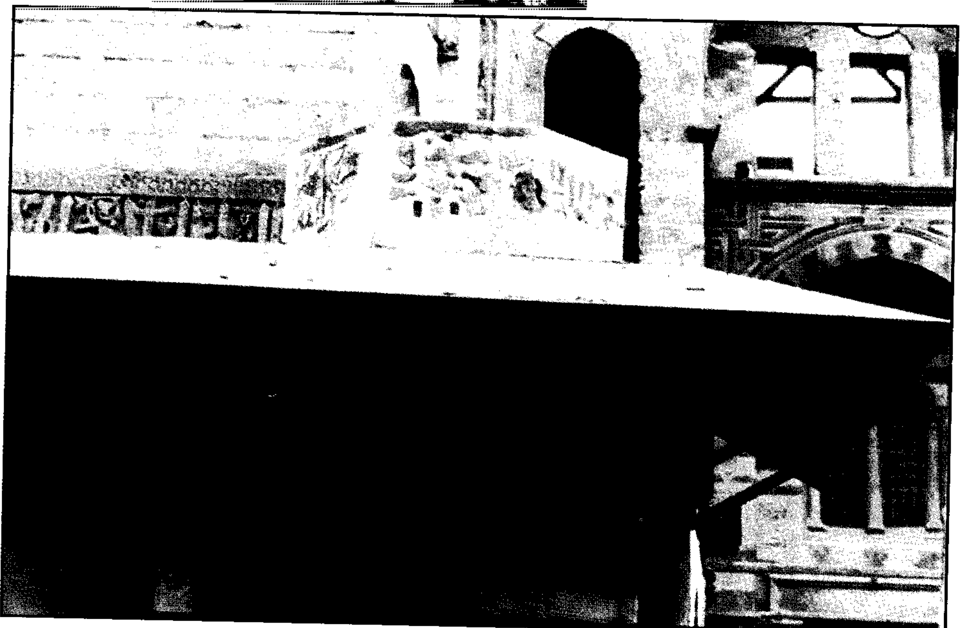
اللوحة رقم (١٠٨)
مجموعة السلطان قلاوون، المئذنة، الواجهة الشرقية





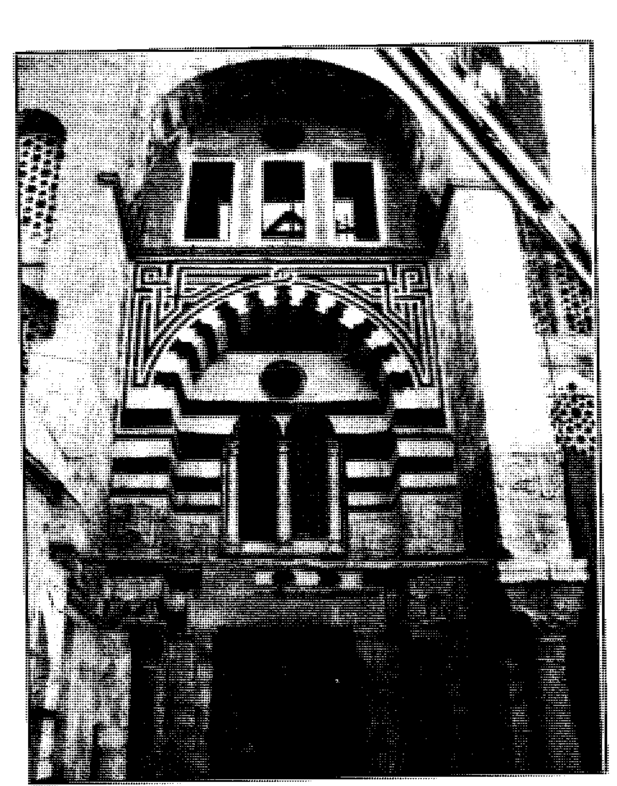
اللوحة رقم (١٠٩)

مجموعة السلطان قلاوون، القبة من الداخل، المقصورة، نقلا عن مشروع القاهرة التاريخية - وزارة الثقافة

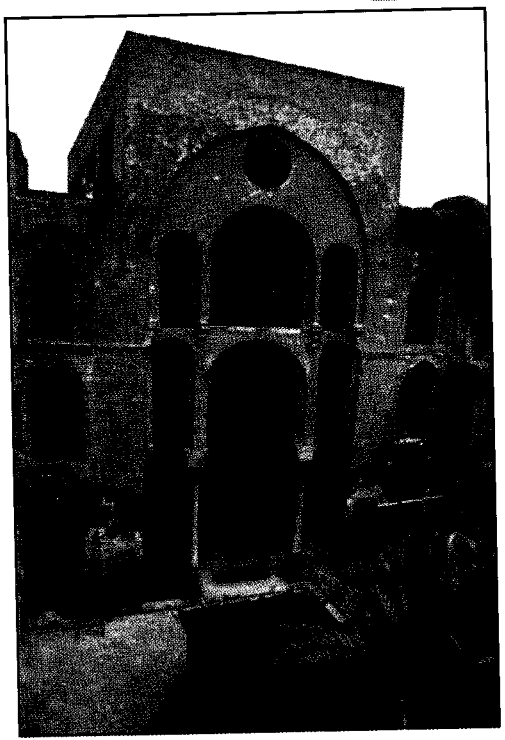


اللوحة رقم (١١٠)

مجموعة السلطان قلاوون، منظر خارجى للسبيل، نقلا عن archnet.or

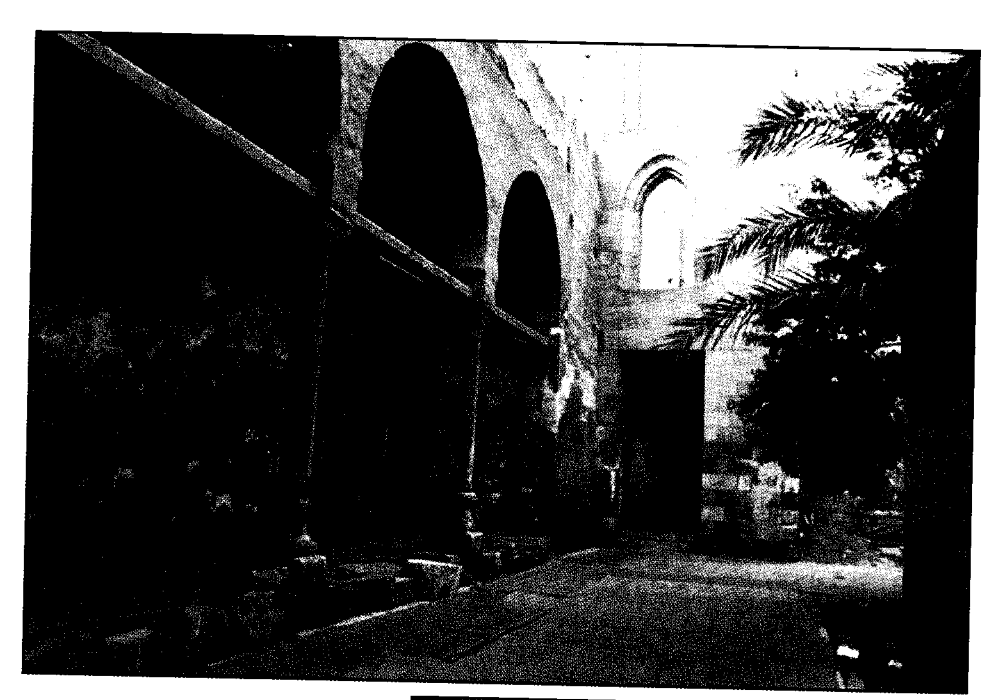


اللوحة رقم (١١١)
مجموعة السلطان قلاوون، المدخل الشرقي



اللوحة رقم (١١٢)
مجموعة السلطان قلاوون، المدرسة،إيوان القبلة، نقلا عن مشروع القاهرة التاريخية - وزارة الثقافة

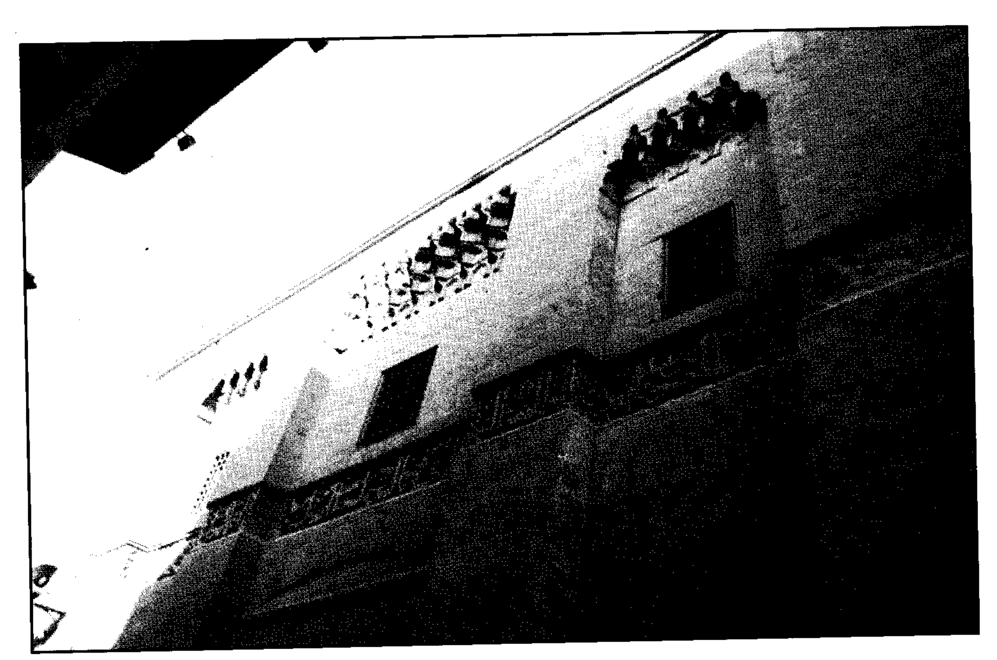






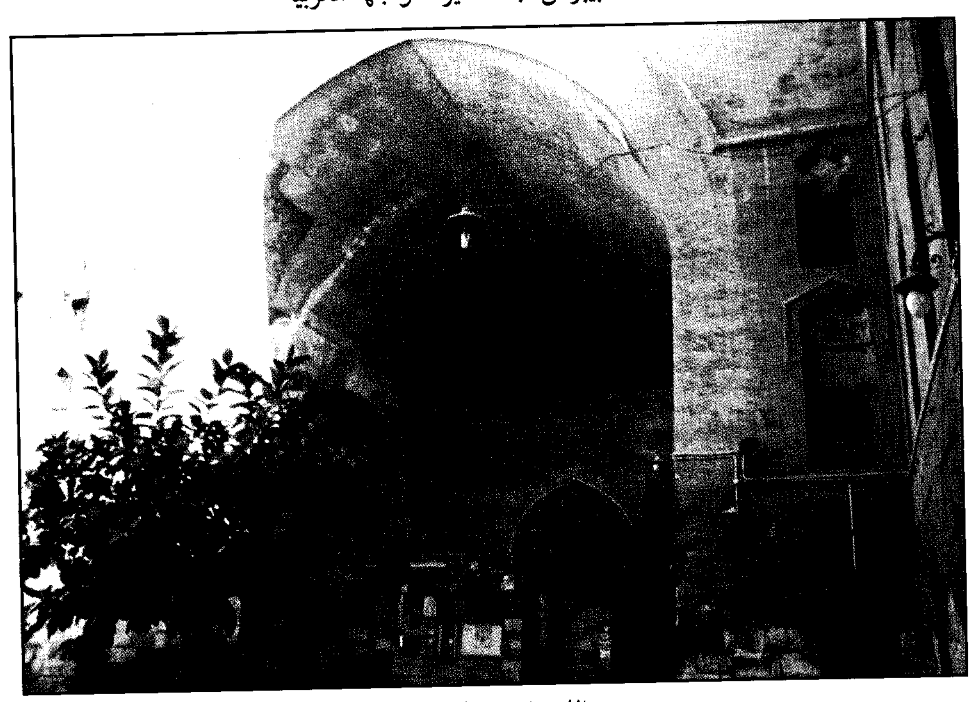
اللوحة رقم (١١٣)
مجموعة السلطان قلاوون،المدرسة، السدلة الجنوبية، نقلا عن مشروع القاهرة التاريخية - وزارة الثقافة

اللوحة رقم (١١٤)
خانقاه بيبرس الجاشنكير، المدخل الرئيسي، الواجهة الغربية، نقلا عن archnet.org



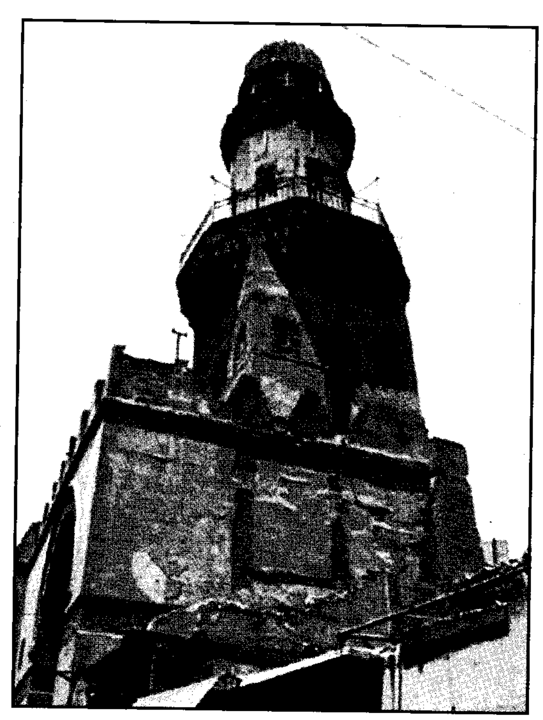
اللوحة رقم (١١٥)

خانقاه بيبرس الجاشنكير، الواجهة الغربية



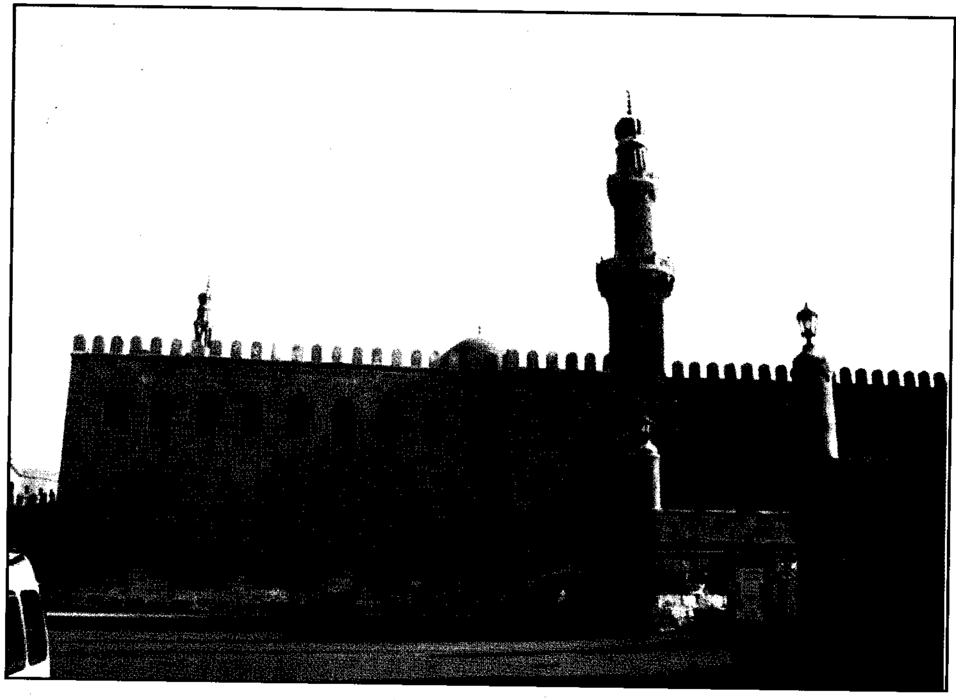
اللوحة رقم (١١٦)

خانقاه بيبرس الجاشنكير، منظر داخلى، إيوان القبلة



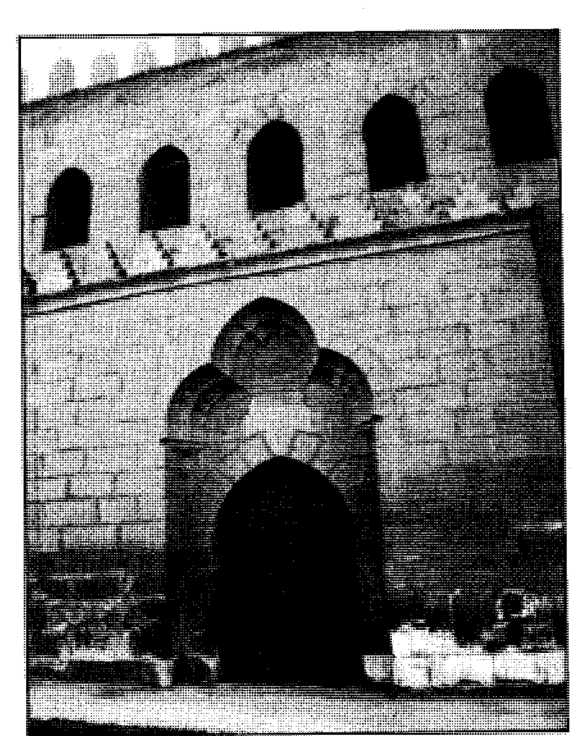
اللوحة رقم (١١٧)

خانقاه بيبرس الجاشنكير، المئذنة، نقلا عن archnet.org



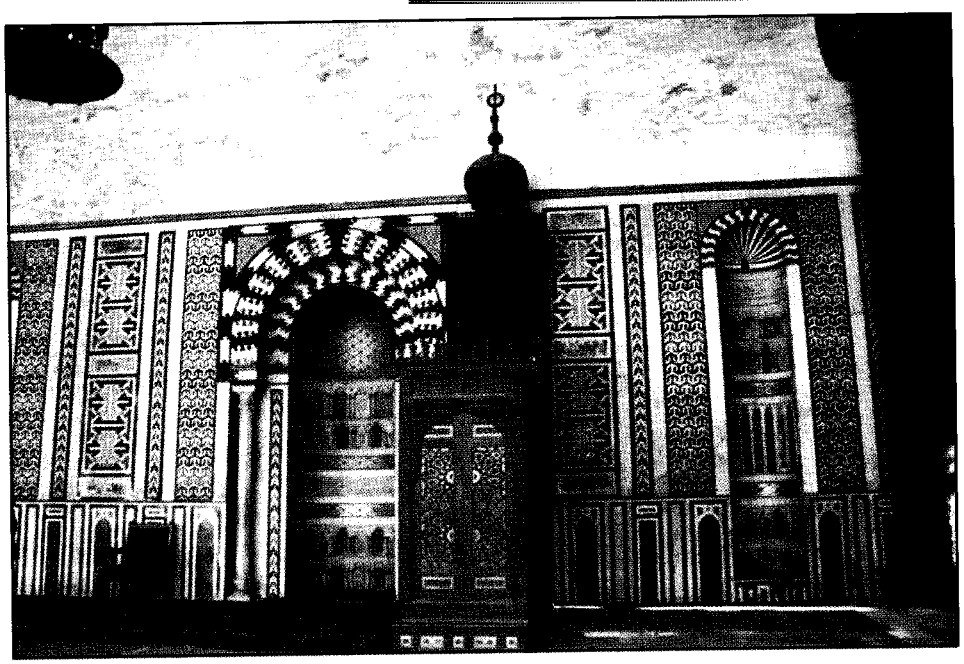
اللوحة رقم (١١٨)

جامع الناصر محمد بالقلعة، الواجهة الغربية، منظر عام



اللوحة رقم (١١٩)

جامع الناصر محمد بالقلعة، الواجهة الشمالية

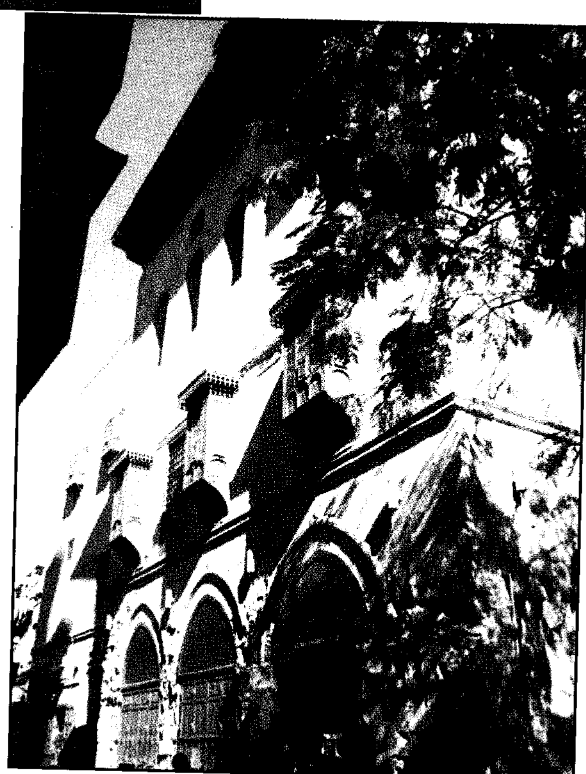


اللوحة رقم (١٢٠)

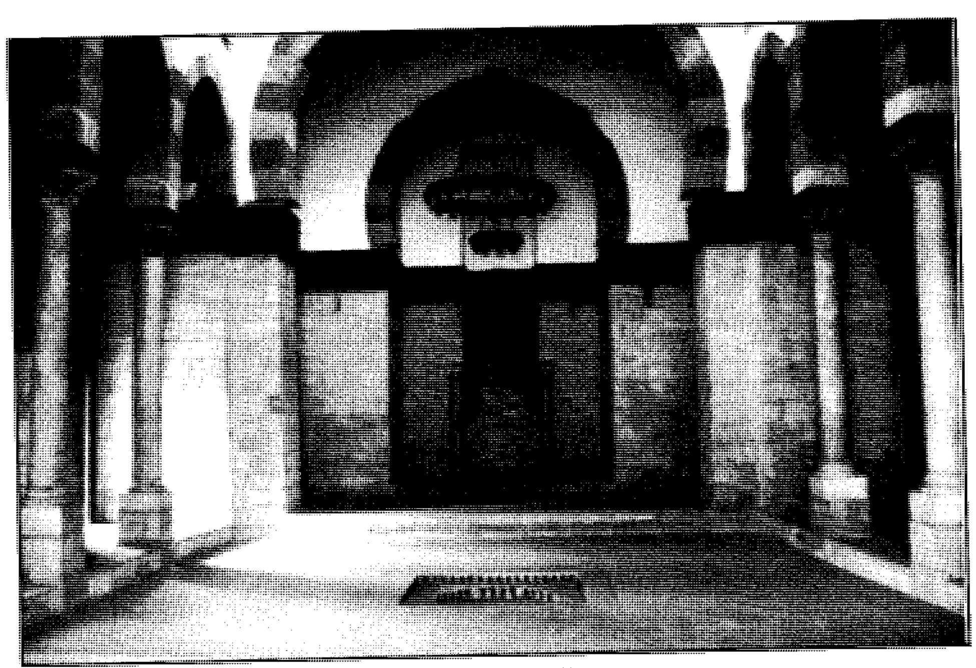
جامع الناصر محمد بالقلعة، منظر داخلي، جدار القبلة



اللوحة رقم (١٢١)
جامع الناصر محمد بالقلعة، المئذنة الغربية



اللوحة رقم (١٢٢)
قصر بشتاك، الواجهة الغربية



اللوحة رقم (١٢٣)

قصر بشتاك، منظر داخلى، القاعة الرئيسية



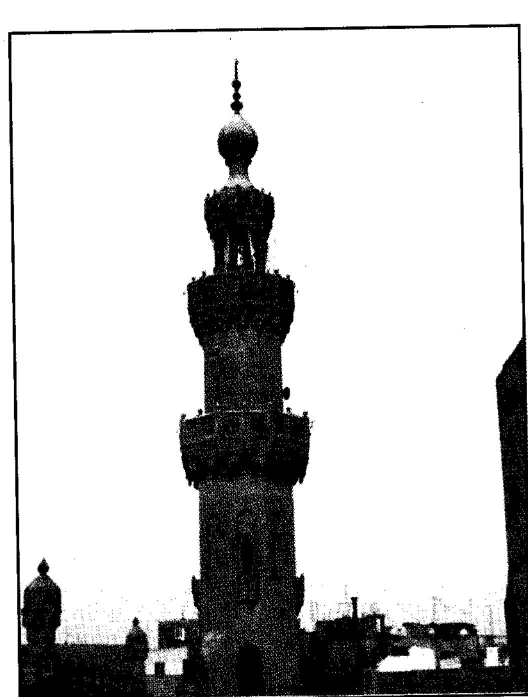
اللوحة رقم (١٢٤)

قصر بشتاك،منظر داخلى، المغاني

اللوحة رقم (١٢٥)
قصر بشتاك،منظر خارجى،
المدخل الشرقي



اللوحة رقم (١٢٦)
جامع الطنبغا الماردانى، منظر خارجى،
المدخل الشمالي



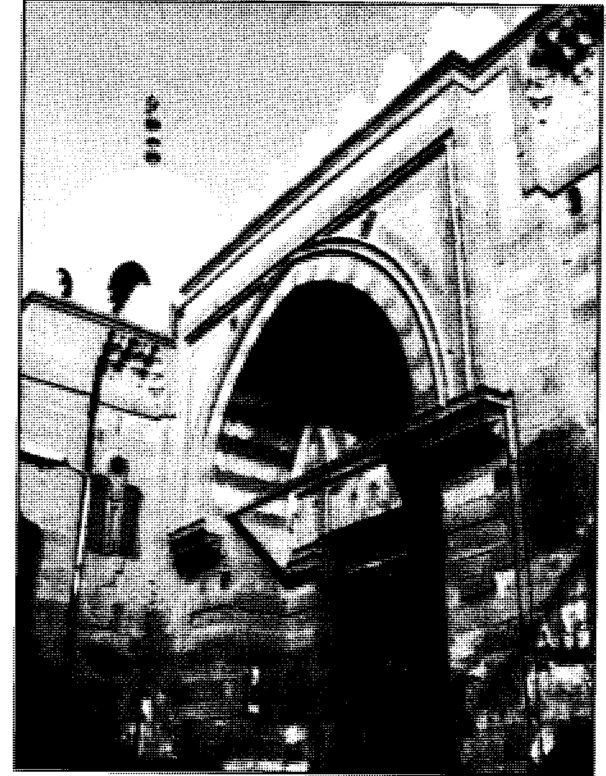
اللوحة رقم (١٢٧)
جامع الطنبغا الماردانى، المئذنة،
الجهة الشمالية

اللوحة رقم (١٢٨)

. جامع الطنبغا الماردانى، منظر داخلى، واجهة رواق القبلة

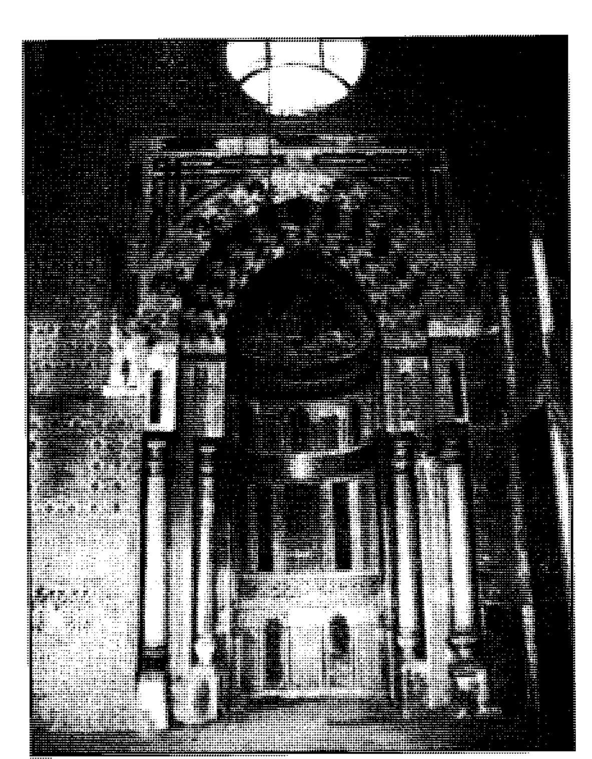
اللوحة رقم (١٢٩)

جامع الطنبغا الماردانى، منظر داخلى، مناطق الانتقال بالقبة، نقلا عن archnet.org

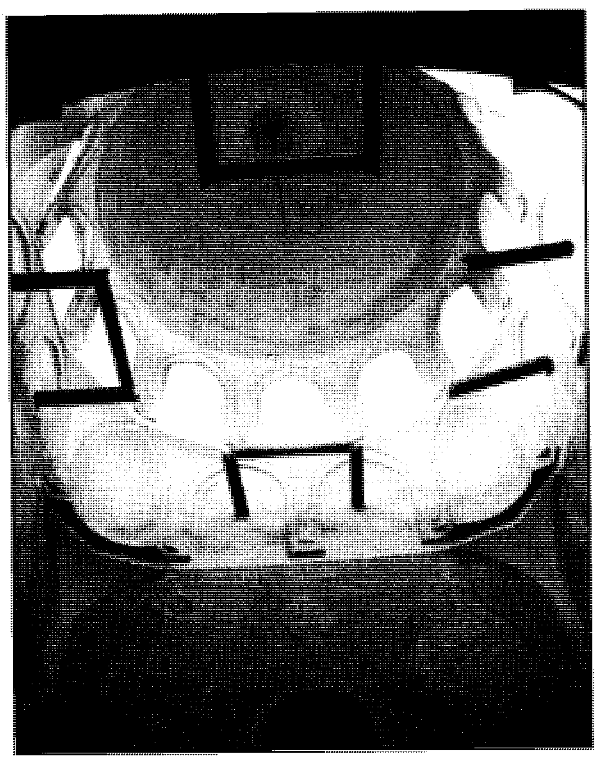


اللوحة رقم (١٣٠)

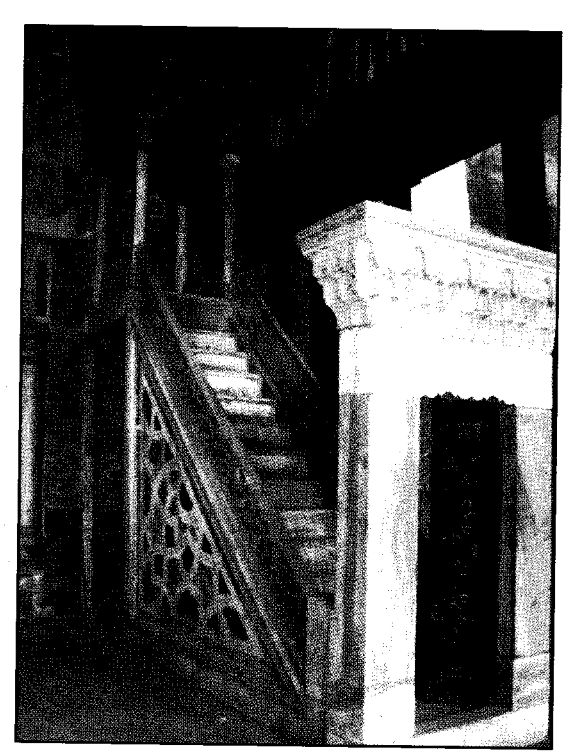
جامع آق سنقر، الواجهة الغربية، المدخل



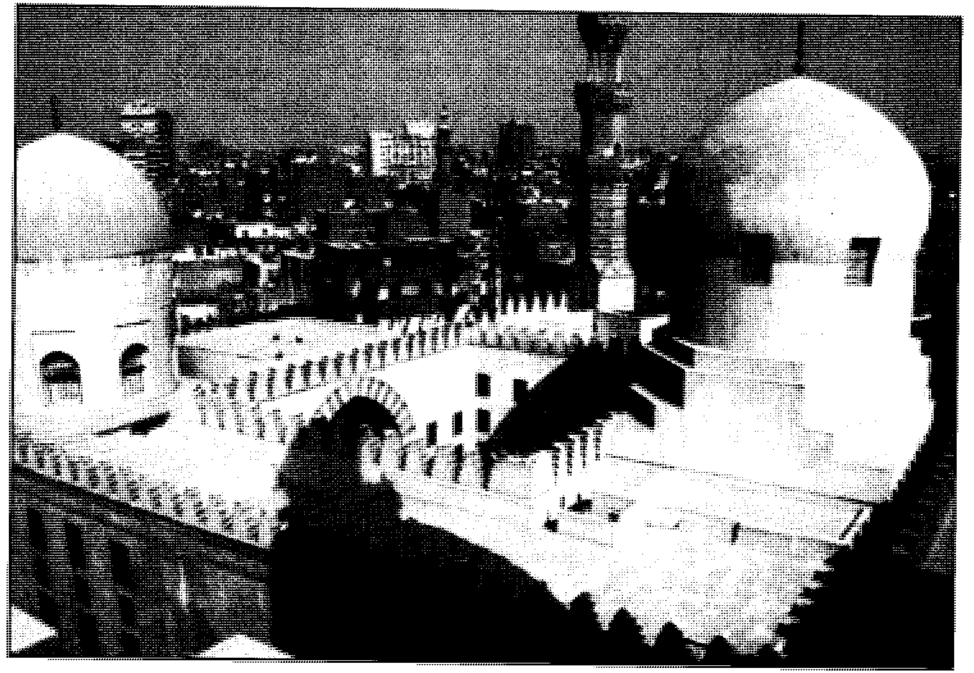
اللوحة رقم (١٣١)
جامع آق سنقر، منظر داخلى، رواق القبلة، المحراب



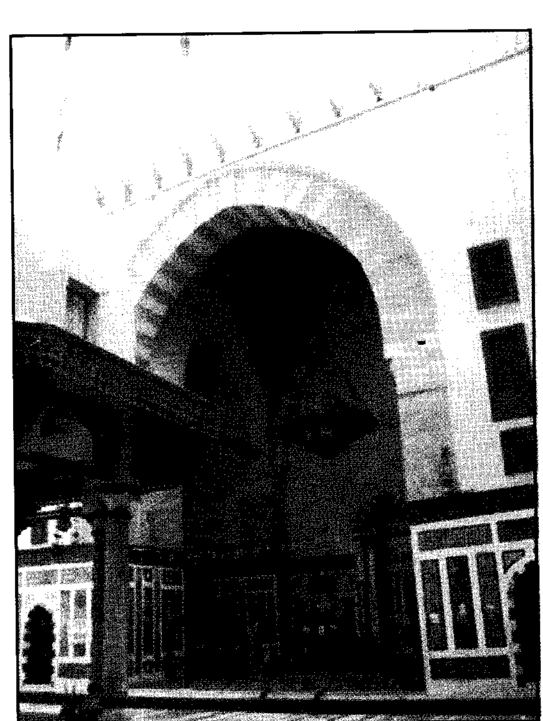
اللوحة رقم (١٣٢)
جامع آق سنقر، قبة علاء الدين كجك، منظر داخلي



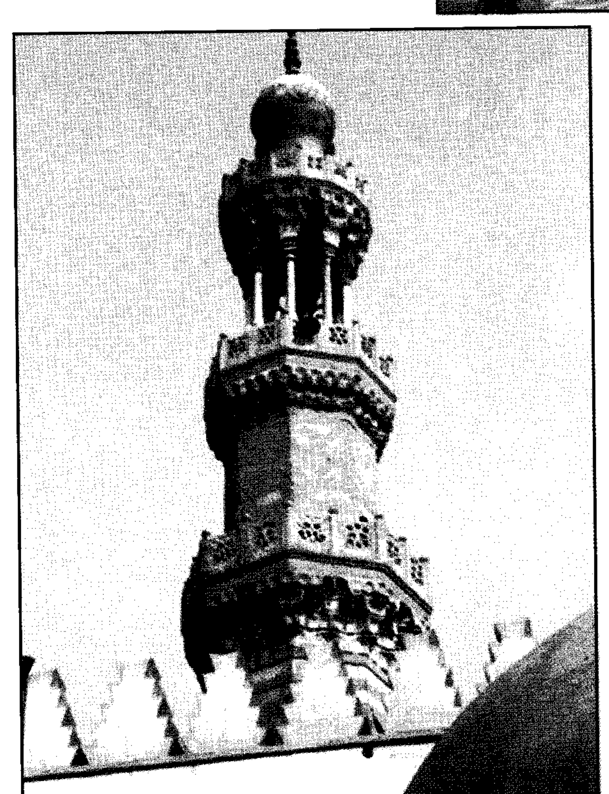
اللوحة رقم (١٣٣)
جامع آق سنقر، رواق القبلة، المنبر الرخامي.



اللوحة رقم (١٣٤)
مدرسة صرغتمش، الواجهة الشرقية، منظر عام



اللوحة رقم (١٣٥)
مدرسة صرغتمش، منظر داخلى، إيوان القبلة



اللوحة رقم (١٣٦)
مدرسة صرغتمش، المئذنة

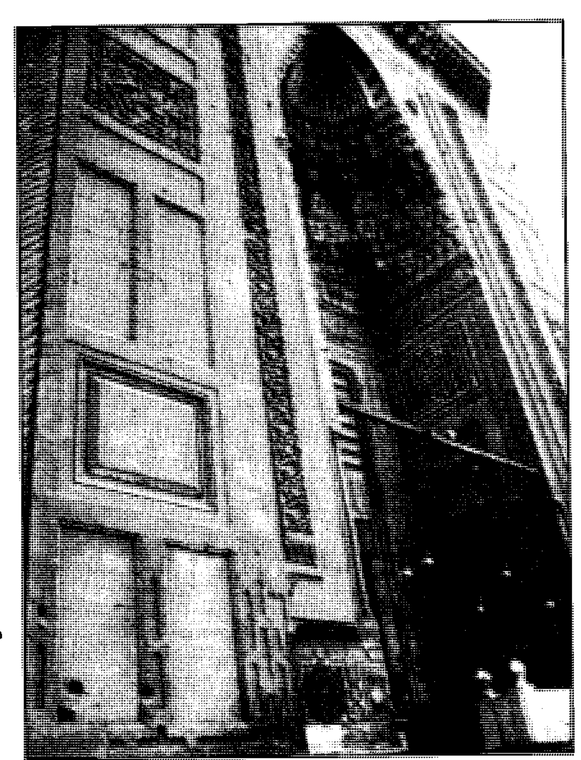
اللوحة رقم (١٣٧)

مدرسة صرغتمش، منظر داخلى، المدفن

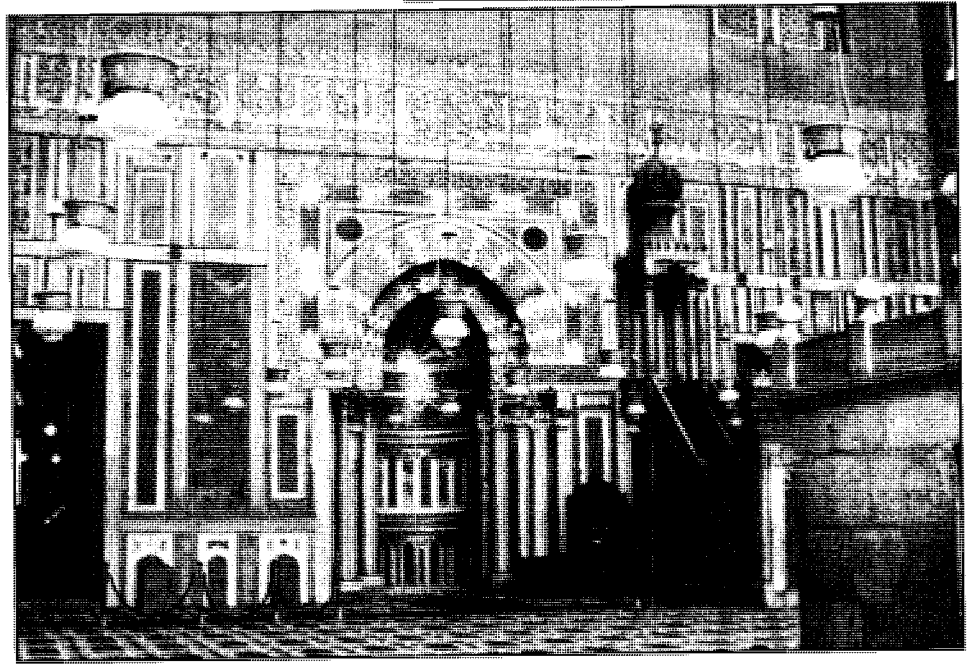


اللوحة رقم (١٣٨)

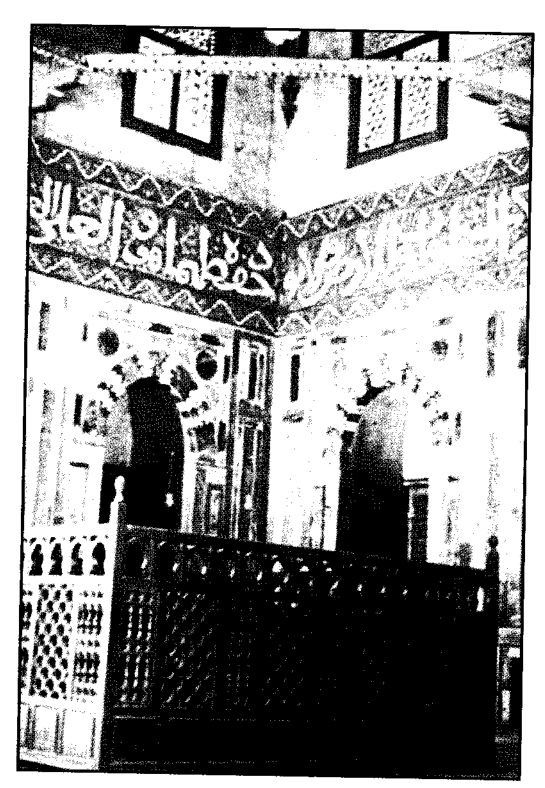
مدرسة السلطان حسن، الواجهة الشرقية



اللوحة رقم (١٣٩)
مدرسة السلطان حسن،المدخل الشمالي الغربي، سقيفة المقرنصات

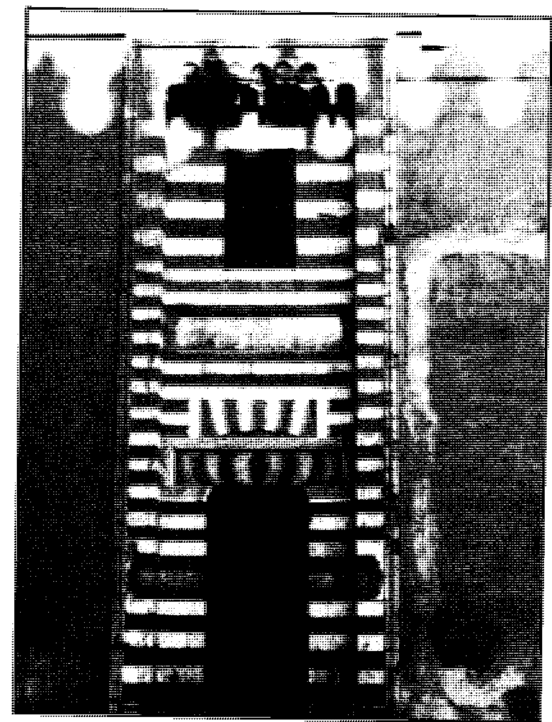


اللوحة رقم (١٤٠)
مدرسة السلطان حسن، منظر داخلى، إيوان القبلة



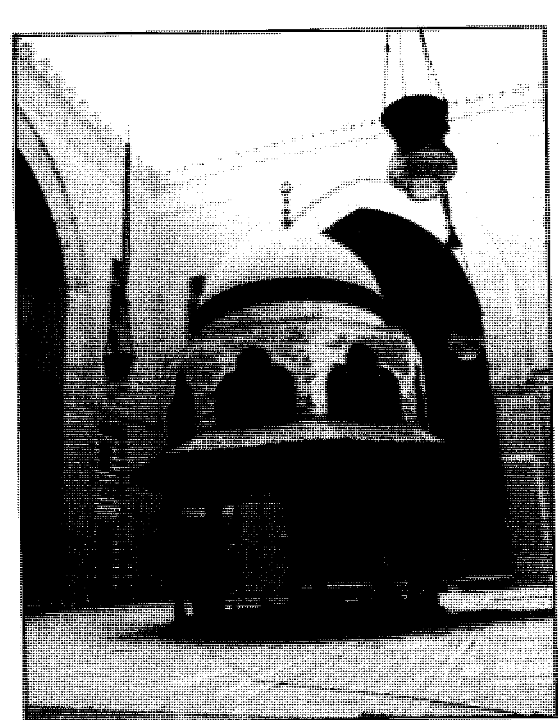
اللوحة رقم (١٤١)

مدرسة السلطان حسن، منظر داخلى، القبة من الداخل يتوسطها المقصورة الخشبية نقلا عن archnet.org



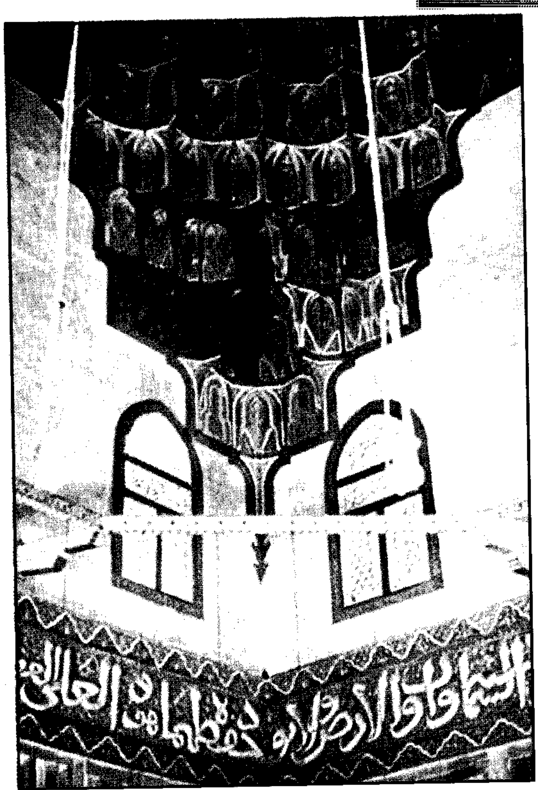
اللوحة رقم (١٤٢)

مدرسة السلطان حسن، منظر داخلى، واجهة المدرسة الشمالية الغربية



اللوحة رقم (١٤٣)

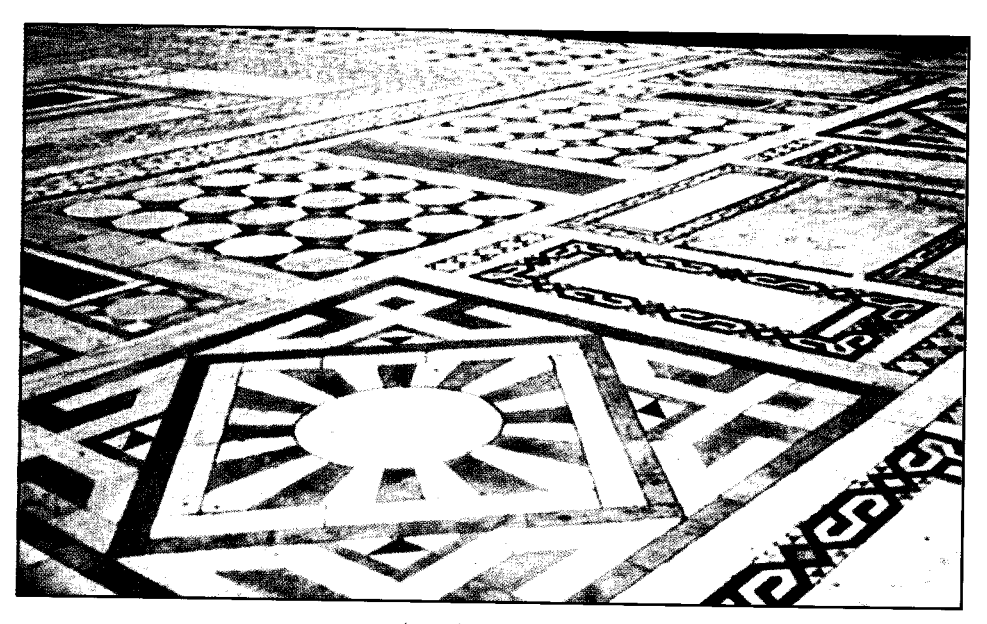
مدرسة السلطان حسن، منظر داخلى، الفوارة



اللوحة رقم (١٤٤)

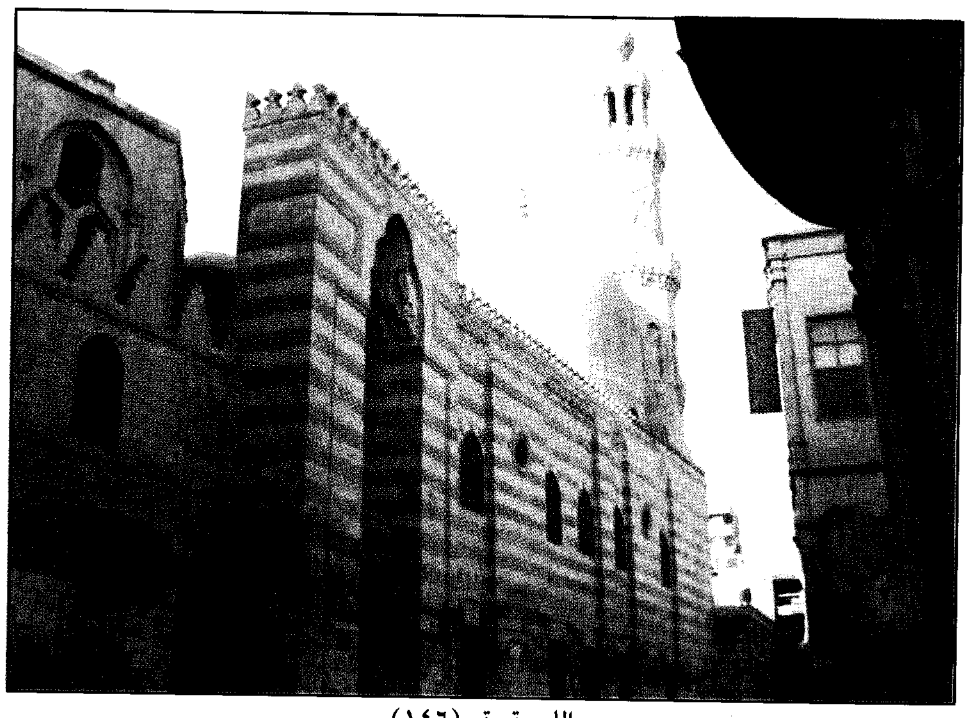
مدرسة السلطان حسن، مناطق الانتقال بالقبة، نقلا عن archnet.org





اللوحة رقم (١٤٥)

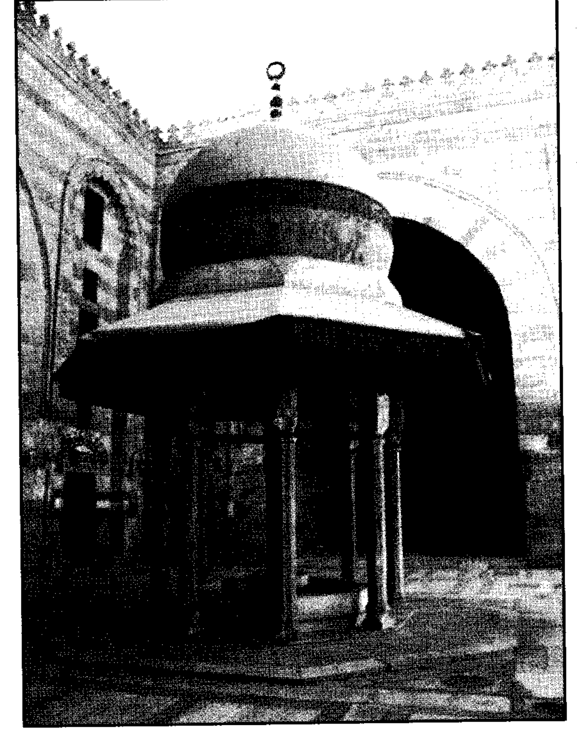
مدرسة السلطان حسن، أرضية الصحن، نقلا عن archnet.org



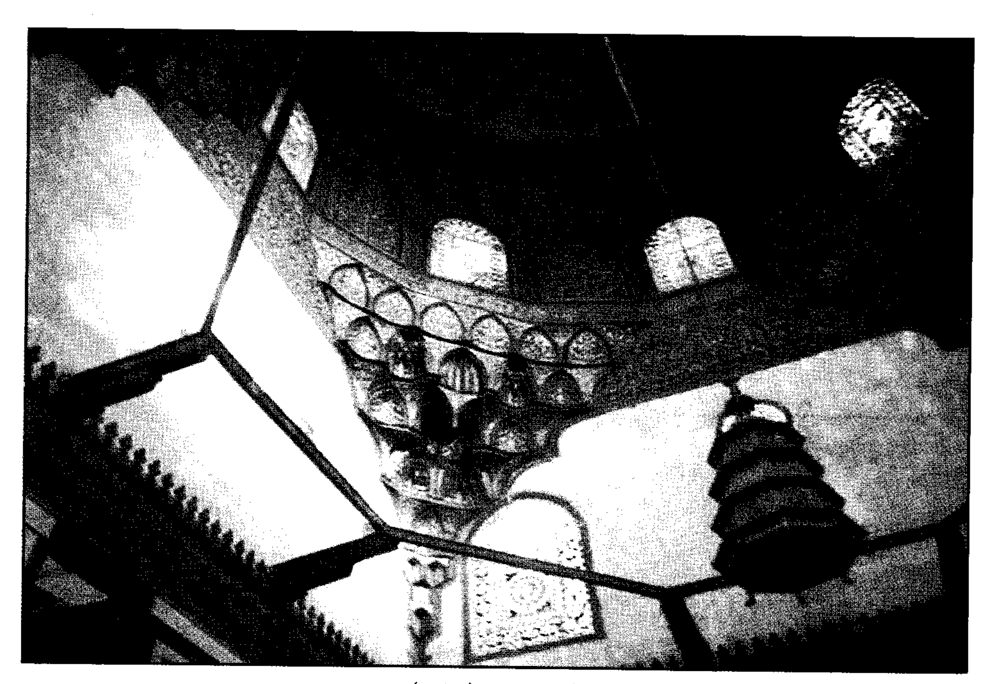
اللوحة رقم (١٤٦)

مدرسة السلطان الظاهر برقوق، الواجهة الشرقية، المدخل

اللوحة رقم (١٤٧)
مدرسة الظاهر برقوق، قبة المدخل



اللوحة رقم (١٤٨)
مدرسة الظاهر برقوق، منظر داخلى، الصحن، الفوارة، الإيوان الغربي



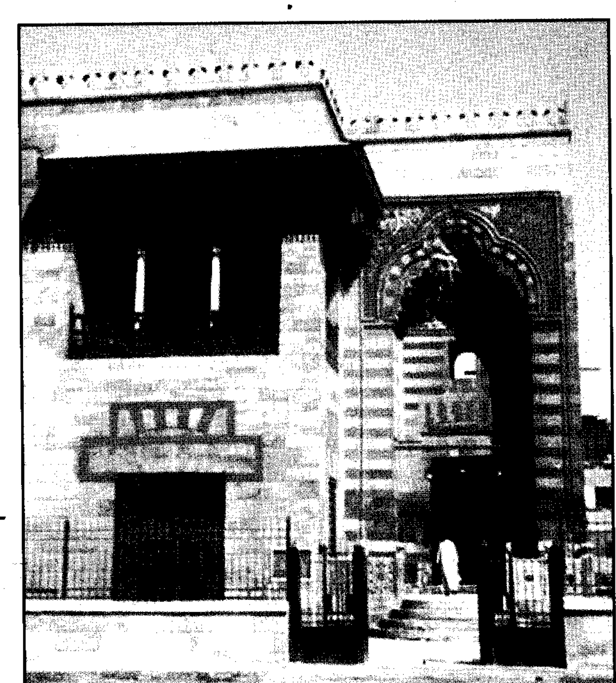
اللوحة رقم (١٤٩)

مدرسة الظاهر برقوق، منظر داخلى، مناطق الانتقال بالقبة



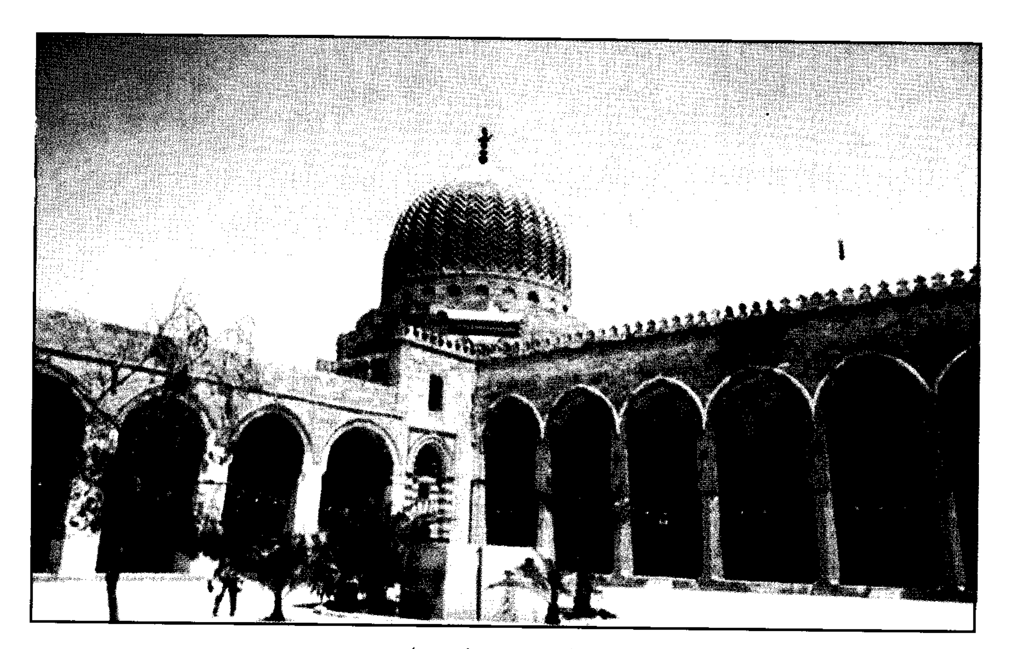
اللوحة رقم (١٥٠)

خانقاه الناصر فرج بن برقوق، الواجهة الغربية، منظر عام



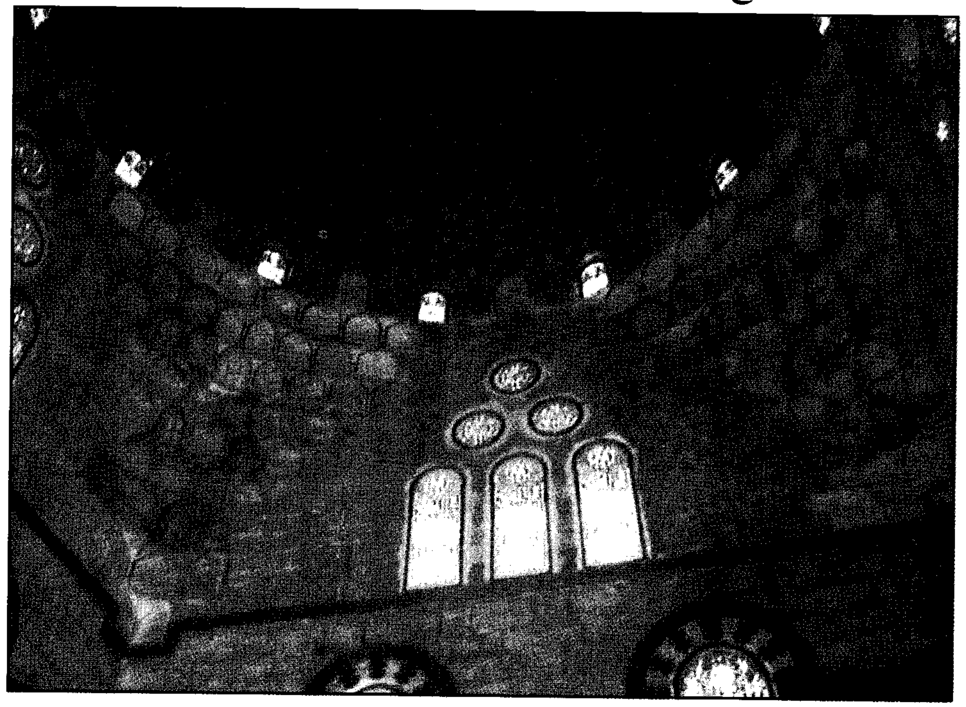
اللوحة رقم (١٥١)
خانقاه الناصر فرج بن برقوق،السبيل والكتاب الجنوبي الغربي، نقلا عن archnet.org

اللوحة رقم (١٥٢)
خانقاه الناصر فرج بن برقوق،الرواق الغربي



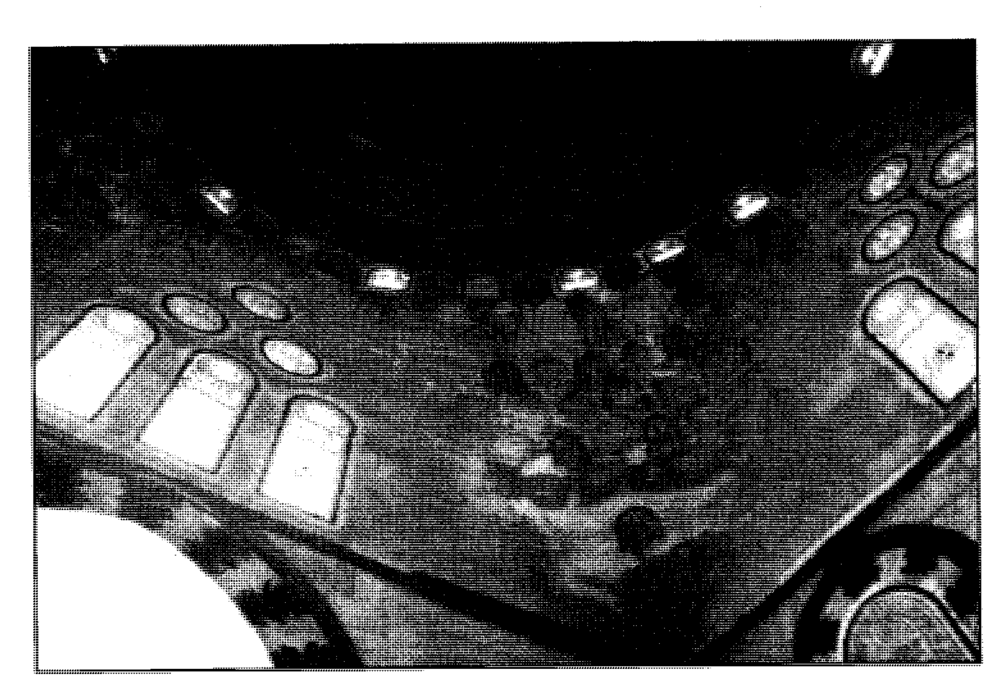
اللوحة رقم (١٥٣)

خانقاه الناصر فرج بن برقوق، القبة الشمالية الشرقية، قبة الرجال، نقلا عن archnet.org



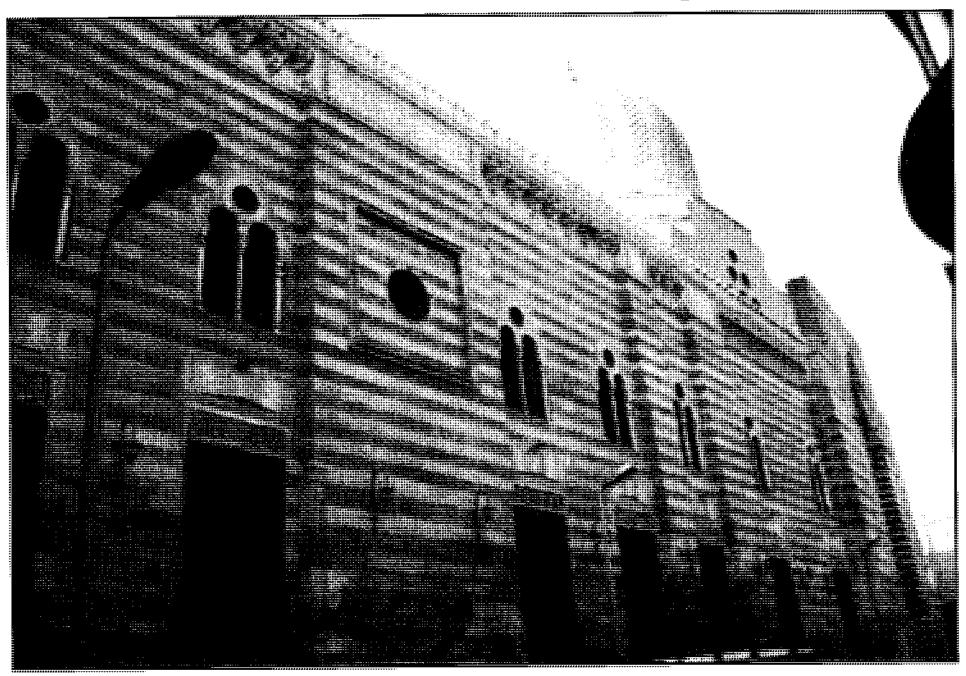
اللوحة رقم (١٥٤)

خانقاه الناصر فرج بن برقوق،القبة الجنوبية الشرقية، قبة الحريم، مناطق الانتقال



اللوحة رقم (١٥٥)

خانقاه الناصر فرج بن برقوق،القبة الشمالية الشرقية، قبةالرجال، مناطق الانتقال



اللوحة رقم (١٥٦)

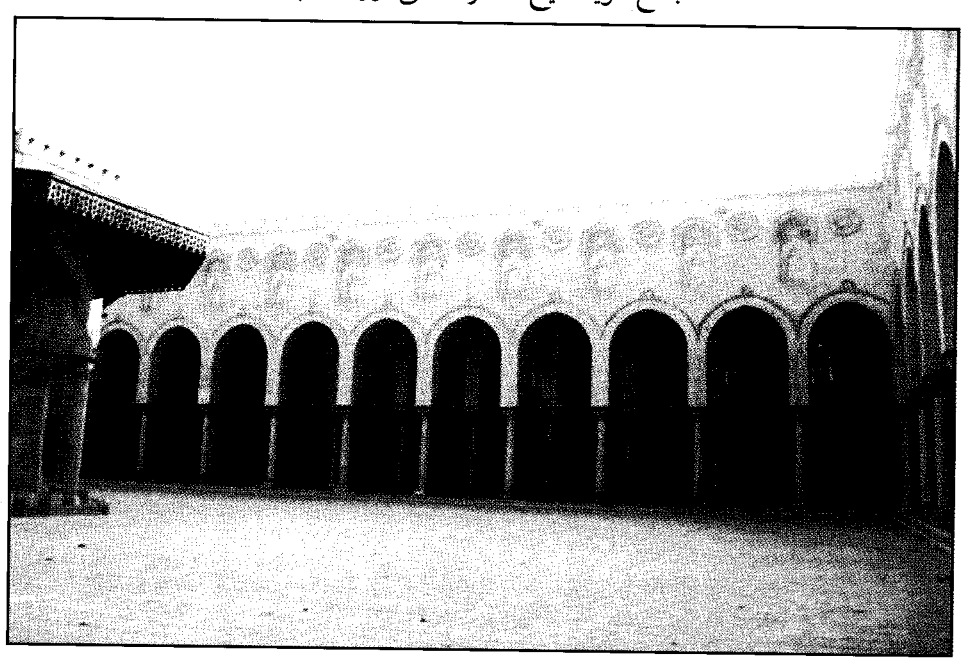
جامع المؤيد شيخ، الواجهة الشرقية





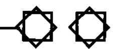
اللوحة رقم (١٥٧)

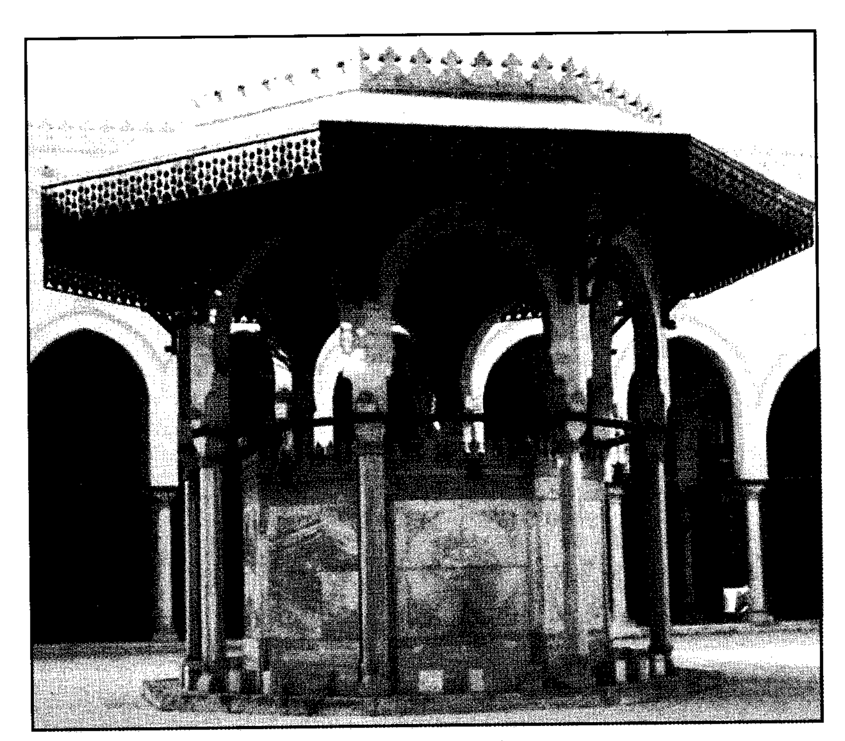
جامع المؤيد شيخ، منظر داخلى، رواق القبلة



اللوحة رقم (١٥٨)

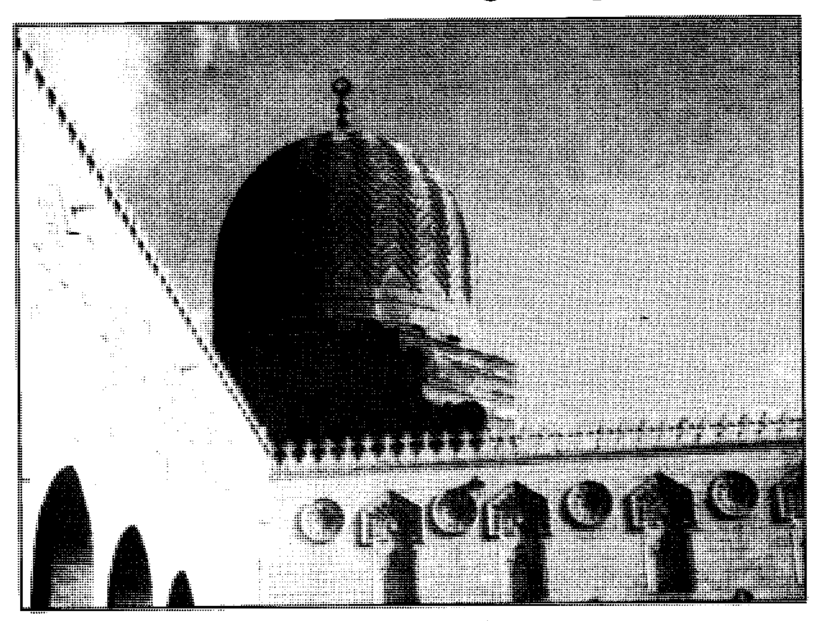
جامع المؤيد شيخ،منظر داخلى، الرواق الجنوبي المجدد





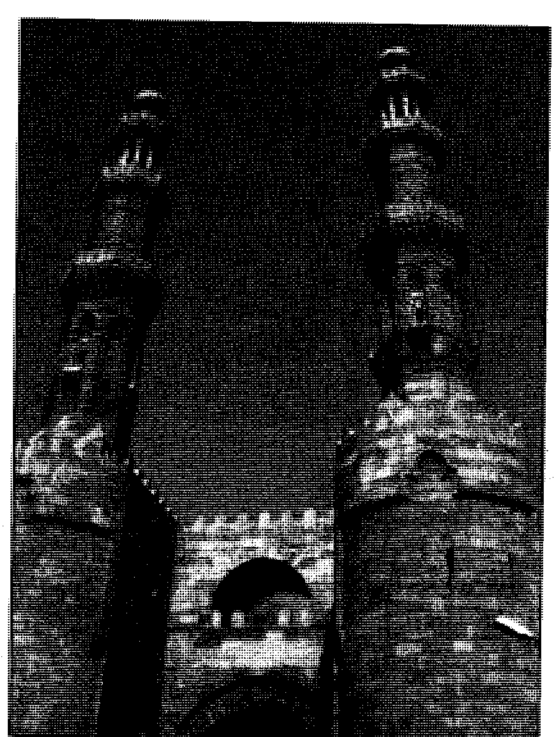
اللوحة رقم (١٥٩)

جامع المؤيد شيخ، منظر داخلى، الصحن والفوارة



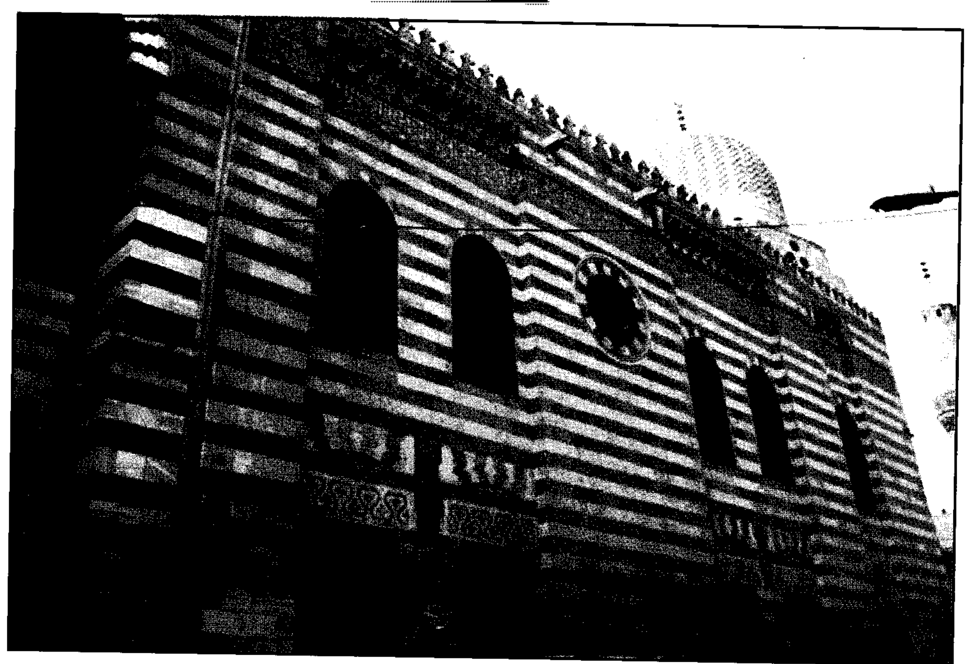
اللوحة رقم (١٦٠)

جامع المؤيد شيخ،منظر داخلى، القبة،بالزاوية الشمالية الشرقية



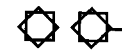
اللوحة رقم (١٦١)

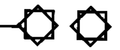
جامع المؤيد شيخ، منظر خارجى، المئذنتان وباب زويلة

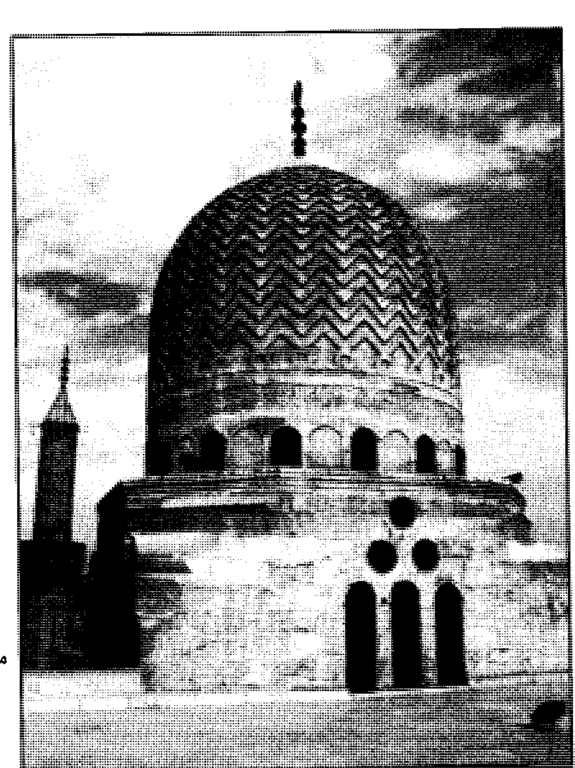


اللوحة رقم (١٦٢)

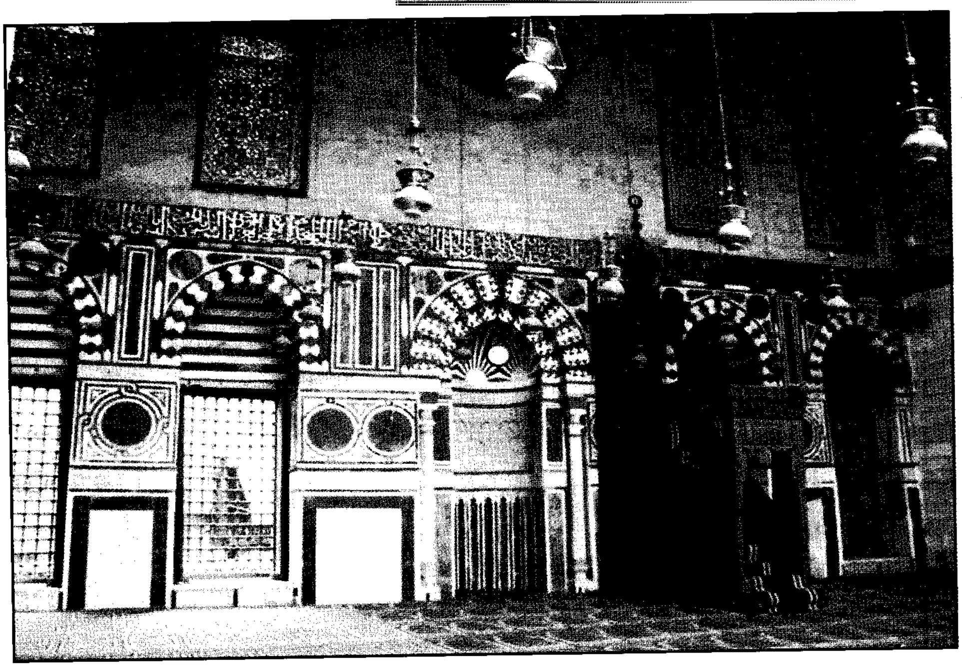
مدرسة الأشرف برسباي، الواجهة الشرقية



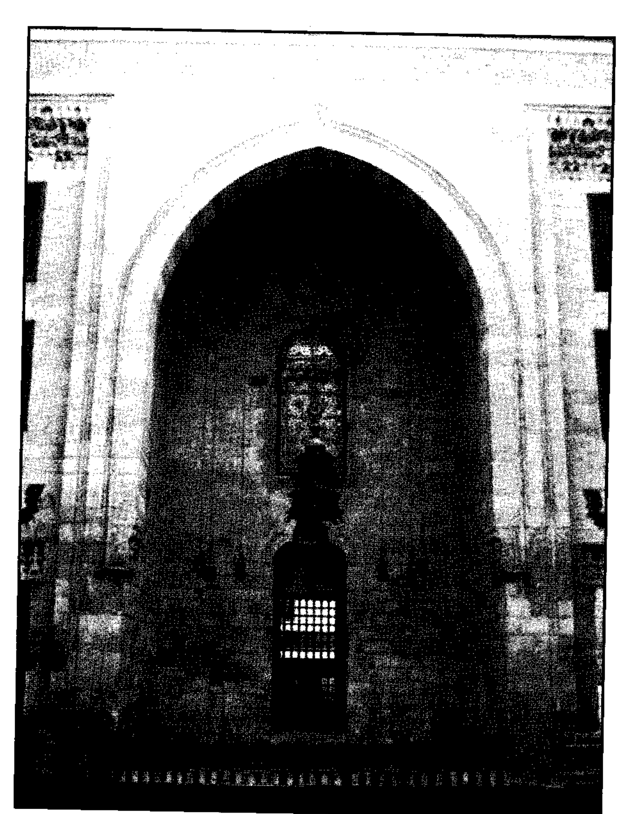




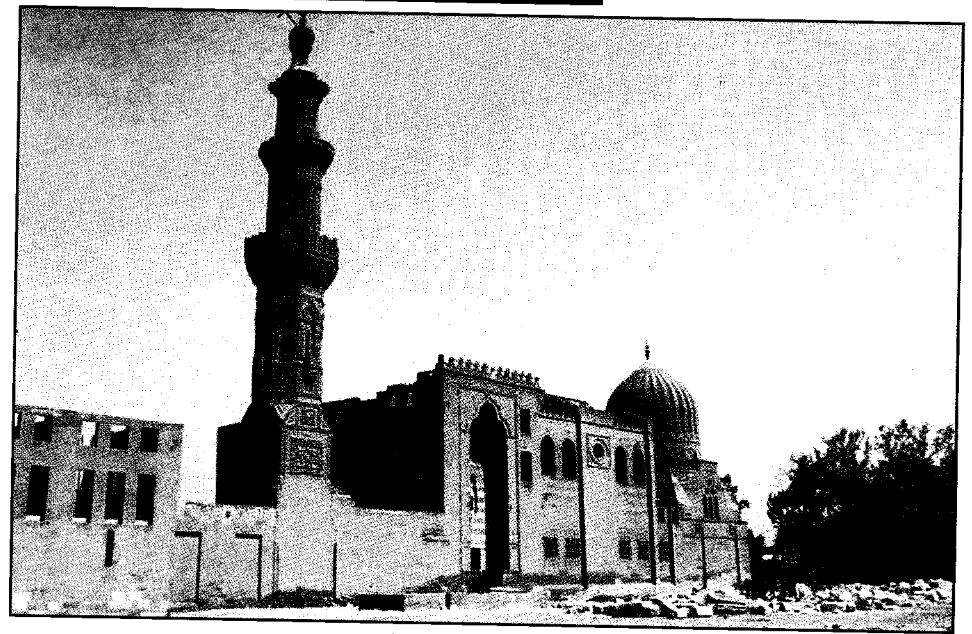
اللوحة رقم (١٦٣)
مدرسة الأشرف برسباي، منظر خارجى، قبة المدفن



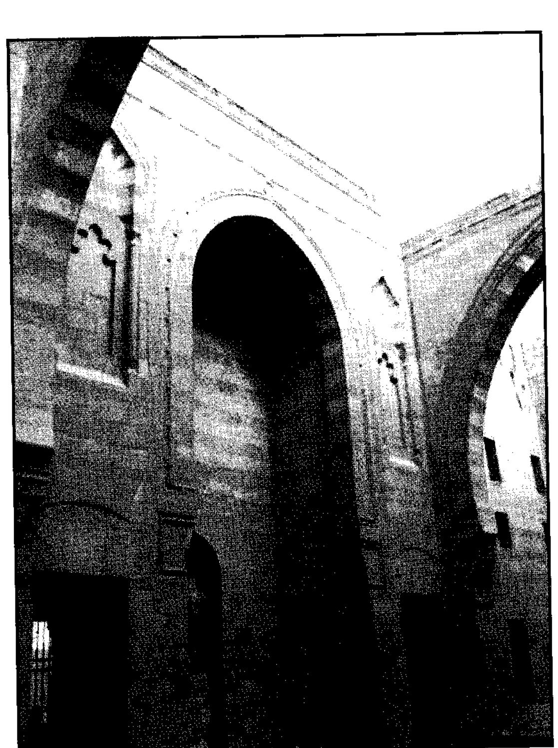
اللوحة رقم (١٦٤)
مدرسة الأشرف برسباي، منظر داخلى، إيوان القبلة



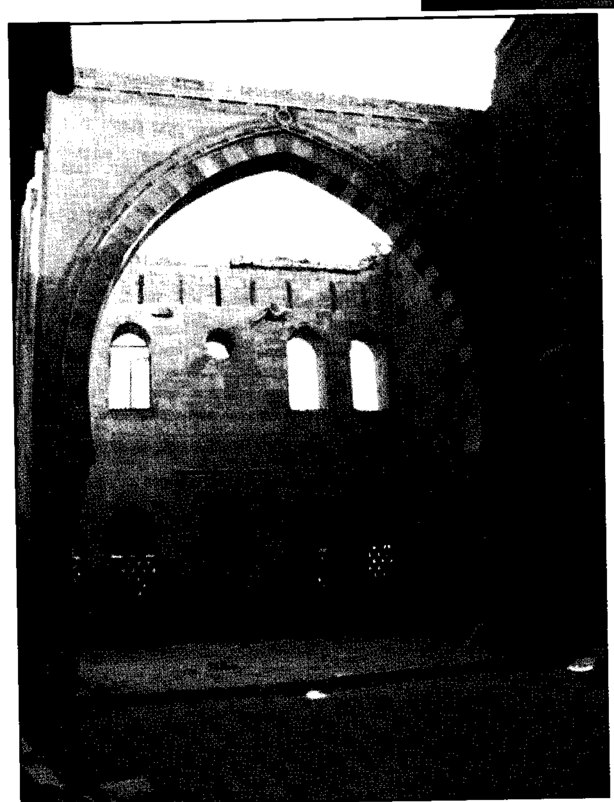
اللوحة رقم (١٦٥)
مدرسة الأشرف برسباي، منظر
داخلي، الإيوان الجنوبي



اللوحة رقم (١٦٦)
مدرسة وخانقاه الأشرف إينال - منظر عام من الخارج



اللوحة رقم (١٦٧)
مدرسة وخانقاه الأشرف إينال، منظر داخلى، الإيوان الشمالي

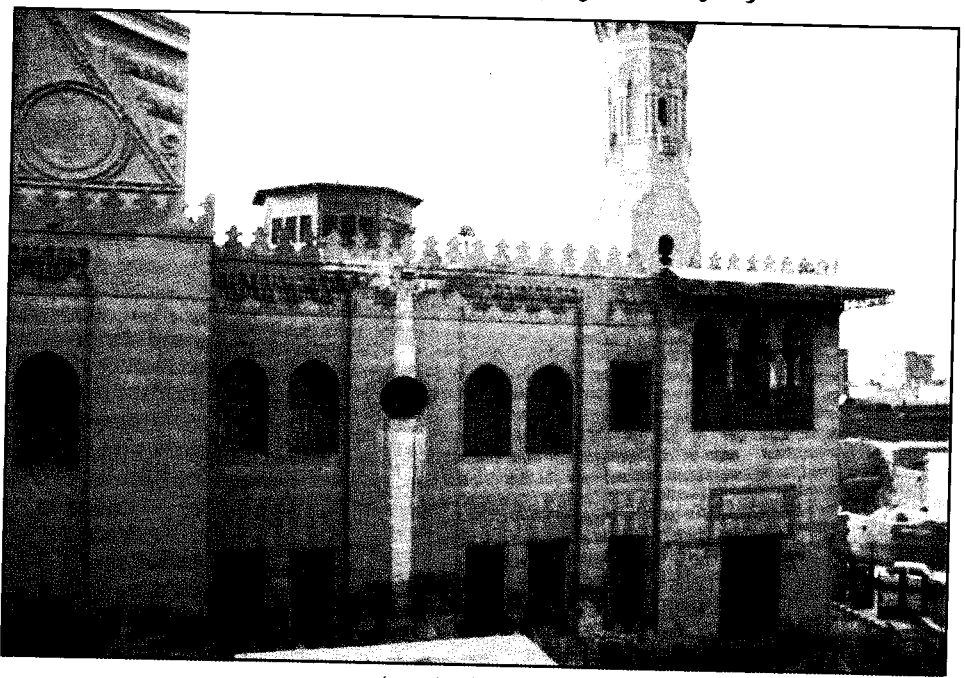


اللوحة رقم (١٦٨)
مدرسة وخانقاه الأشرف إينال، منظر داخلى، إيوان القبلة



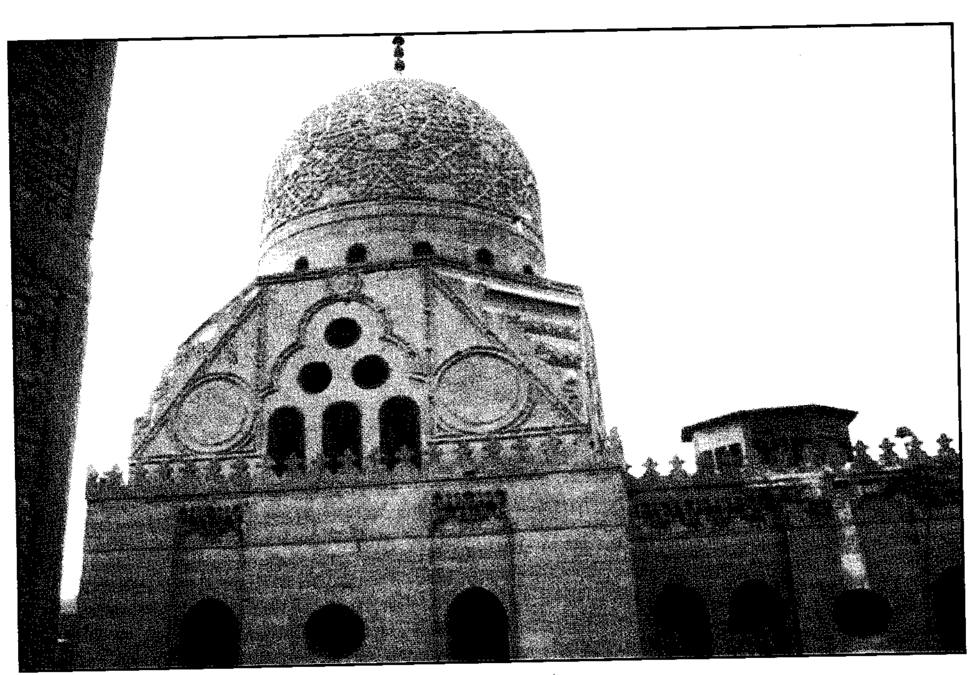
اللوحة رقم (١٦٩)

مدرسة وخانقاه الأشرف إينال، منظر داخلى، مناطق الانتقال بالقبة



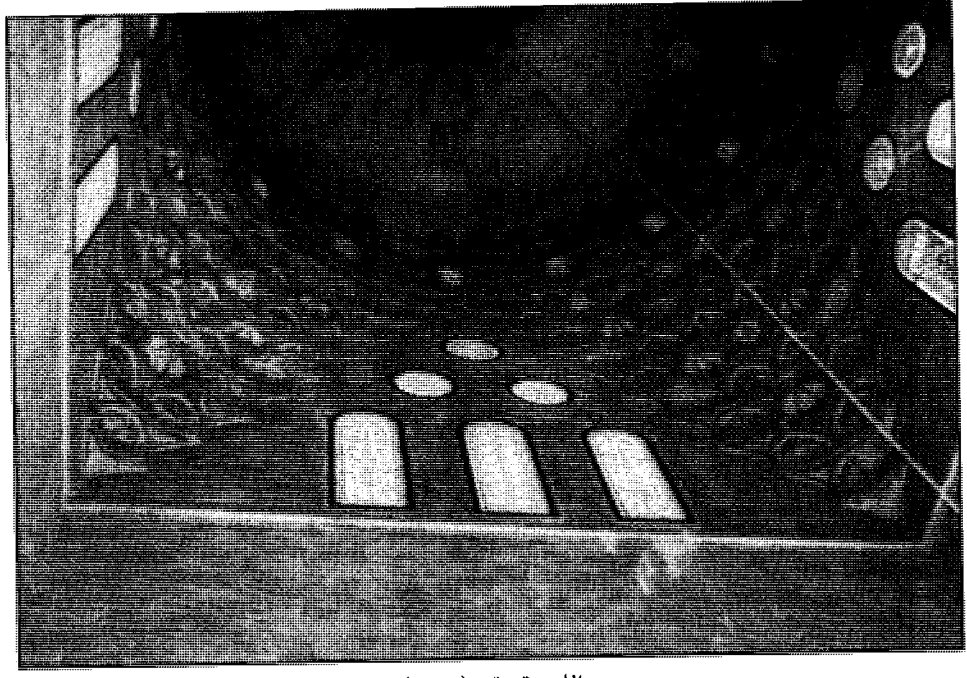
اللوحة رقم (١٧٠)

مدرسة قايتباي، الواجهة الشرقية



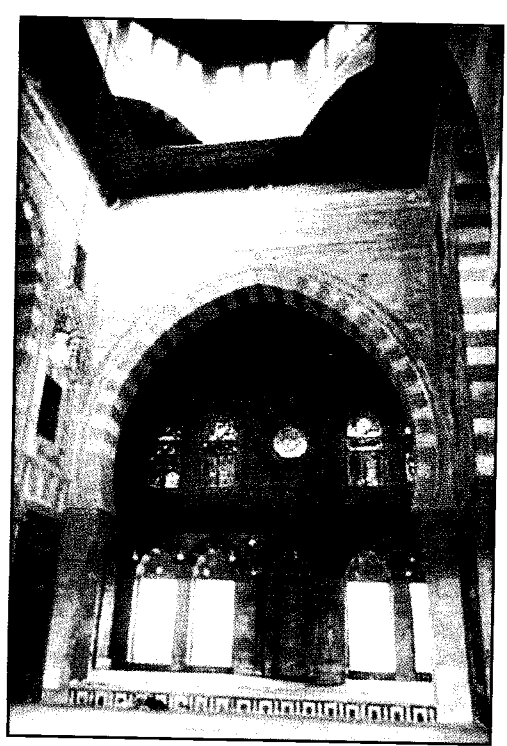
اللوحة رقم (١٧١)

مدرسة قايتباي، منظر خارجى، القبة، الجهة الجنوبية الشرقية



اللوحة رقم (١٧٢)

مدرسة قايتباي، القبة من الداخل، مناطق الانتقال



اللوحة رقم (١٧٣)

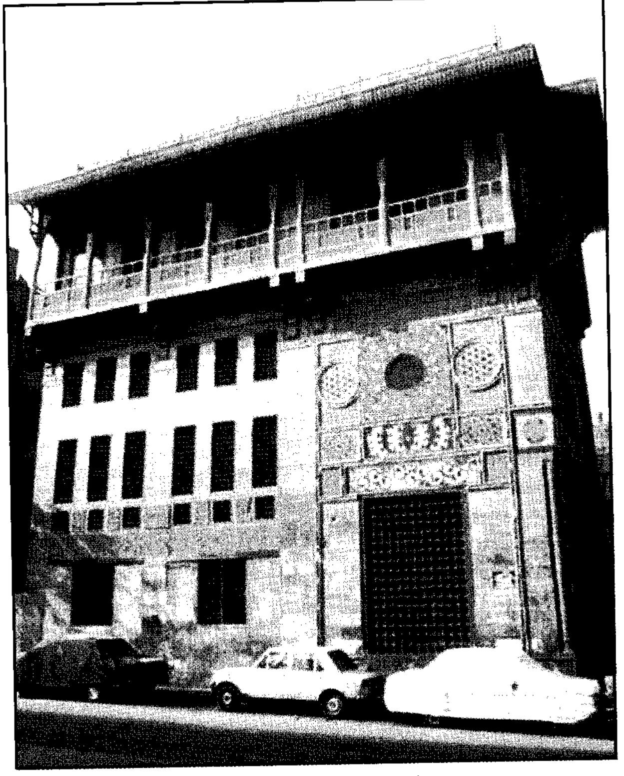
مدرسة قايتباي، منظر داخلى، إيوان القبلة، نقلا عن archnet.org



اللوحة رقم (١٧٤)

مدرسة قايتباي، منظر داخلى، الإيوان الغربي

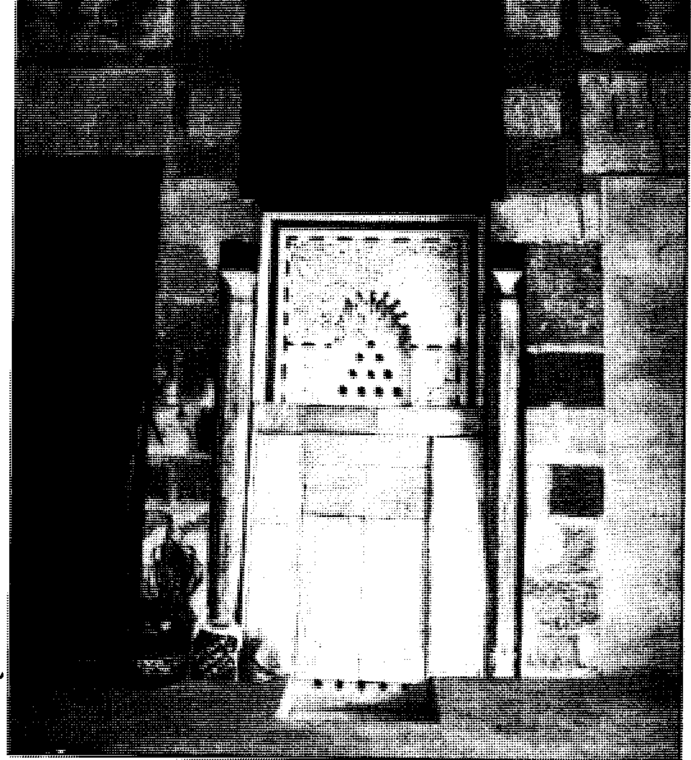
اللوحة رقم (١٧٥)
مدرسة قايتباي، منظر داخلى،
الشخشيخة التى تغطى الصحن



اللوحة رقم (١٧٦)
سبيل قايتباي بالصليبة، منظر عام،
نقلا عن archnet.org

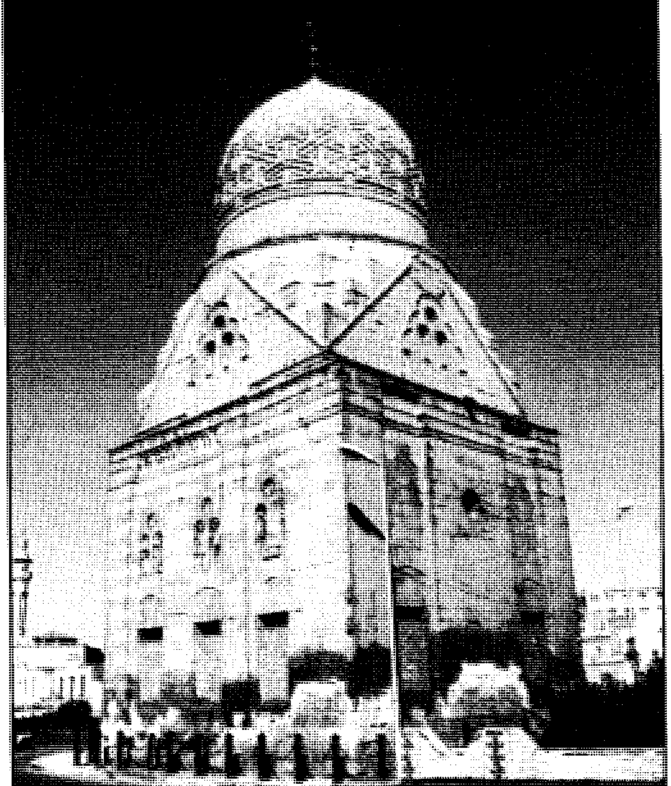


اللوحة رقم (١٧٧)
سبيل قايتباي بالصليبة،
المدخل الجنوبي والسبيل
والكتاب



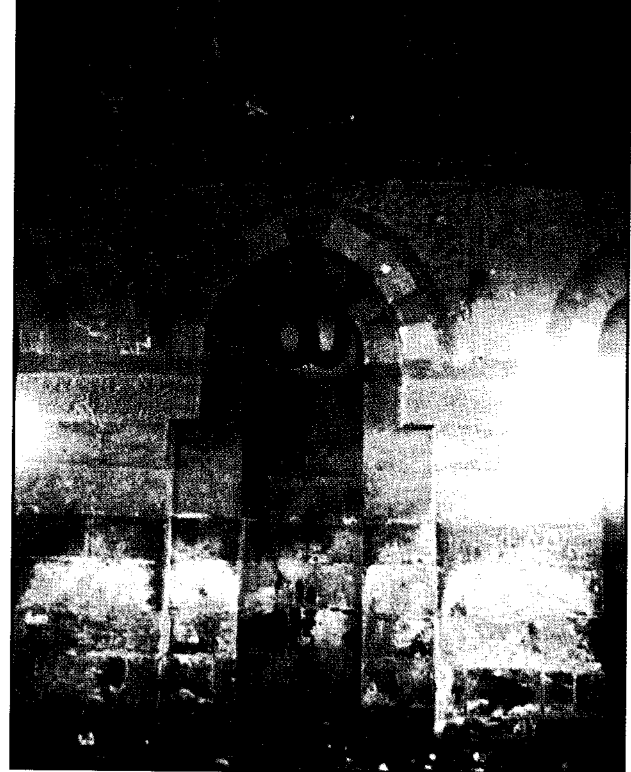
اللوحة رقم (١٧٨)
سبيل قايتباي، منظر داخلى،
الشاذروان

اللوحة رقم (١٧٩)
سبيل قايتباي، منظر داخلى، حوض التسبيل بقاعة السبيل



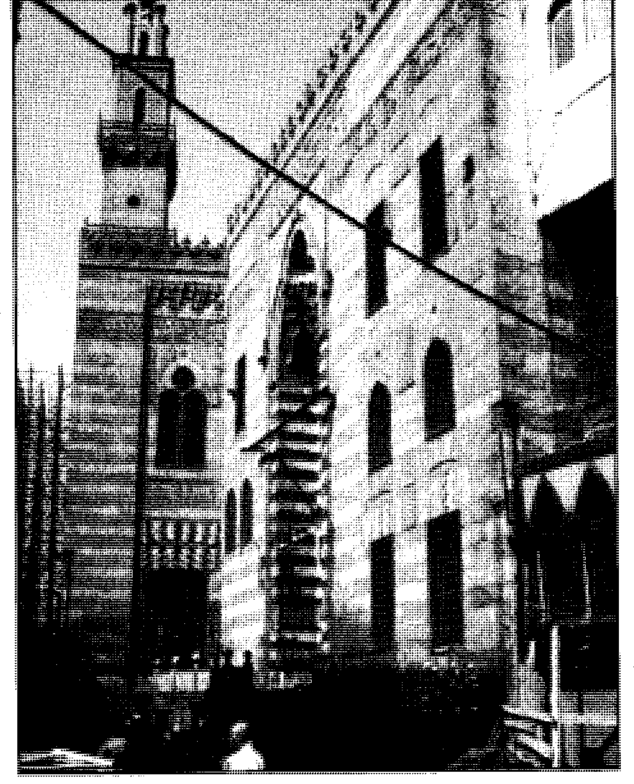
اللوحة رقم (١٨٠)
قبة السلطان أبو سعيد قانصوه، منظر خارجى، الجهة الجنوبية الشرقية

اللوحة رقم (١٨١)
قبة السلطان أبو سعيد قانصوه، منظر داخلى، زخارف القبة من الخارج

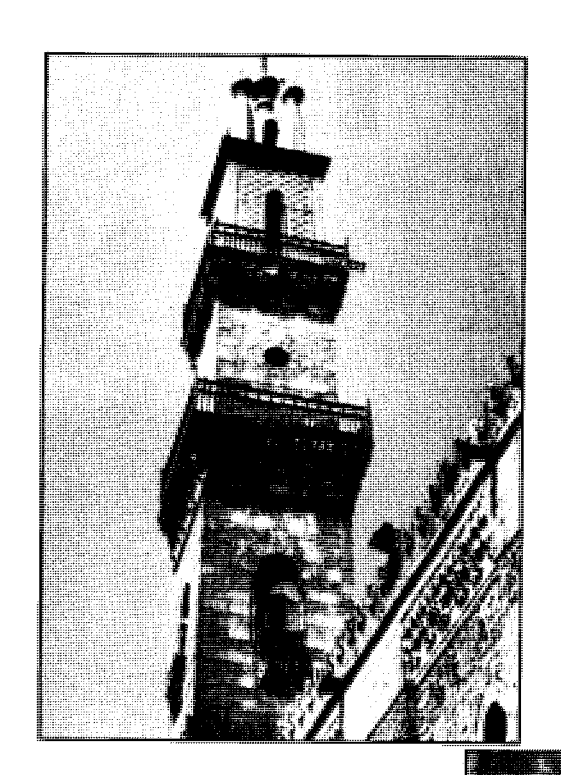


اللوحة رقم (١٨٢)
قبة السلطان أبو سعيد قانصوه، منظر داخلى، المحراب

اللوحة رقم (١٨٣)
قبة السلطان أبو سعيد قانصوه، منظر خارجى، تفاصيل الواجهة الجنوبية

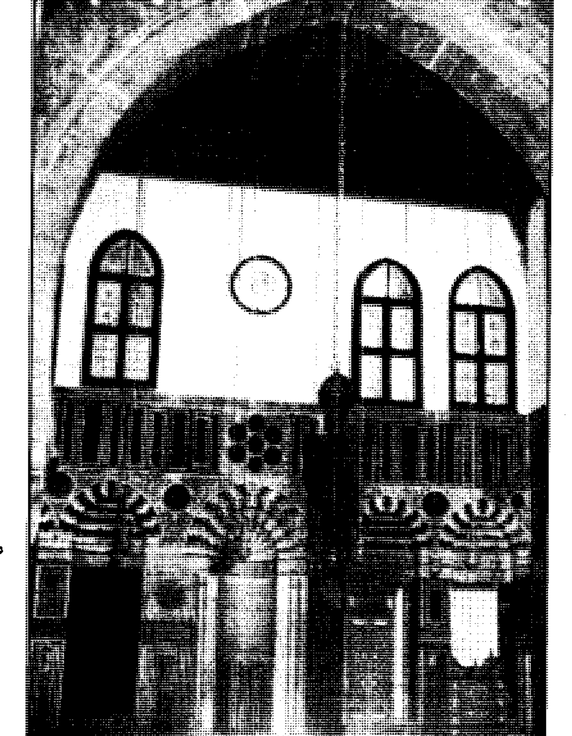


اللوحة رقم (١٨٤)
مدرسة الغوري، الواجهة الشرقية، منظر عام، نقلا عن archnet.org



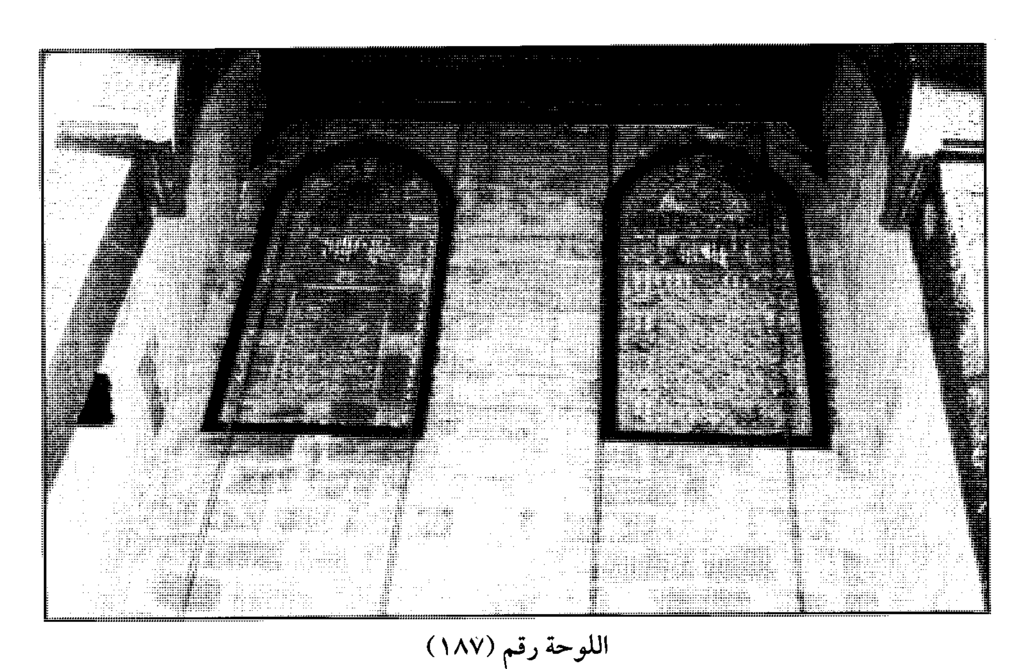
اللوحة رقم (١٨٥)

مدرسة الغوري، المئذنة، نقلا عن المجلس الأعلى للآثار، مشروع ترميم مدرسة الغوري



اللوحة رقم (١٨٦)

مدرسة الغوري، منظر داخلى،إيوان القبلة، نقلا عن المجلس الأعلى للآثار - مشروع ترميم مدرسة الغوري



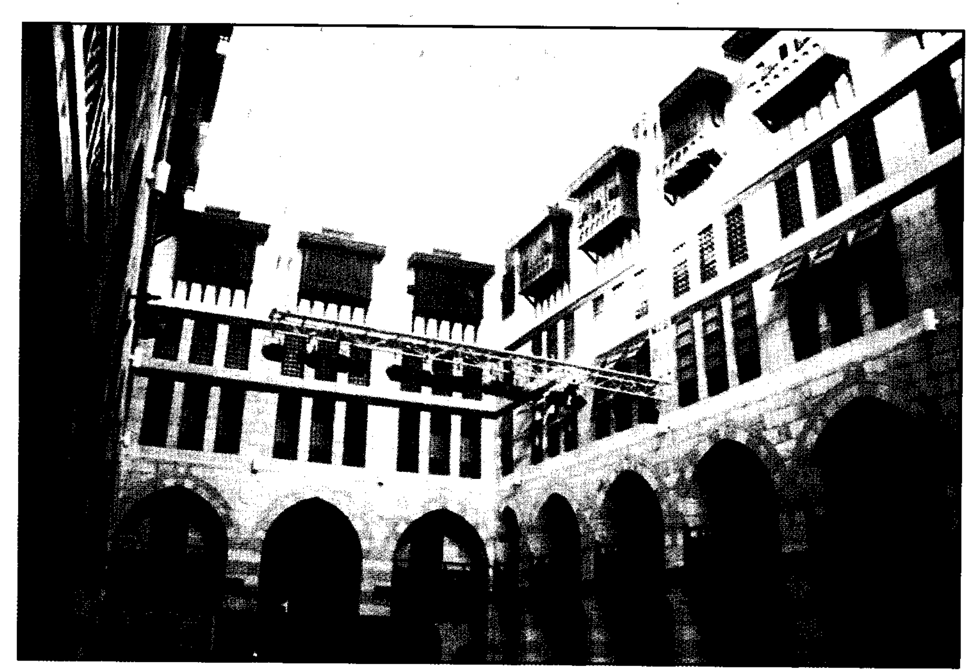
اللوحة رقم (١٨٧)

مدرسة الغورى،منظر داخلى، الإيوان الشمالي، الشبابيك الجصية، نقلا عن المجلس الأعلى للآثار - مشروع ترميم مدرسة الغوري



اللوحة رقم (١٨٨)

وكالة الغوري، الواجهة الشمالية



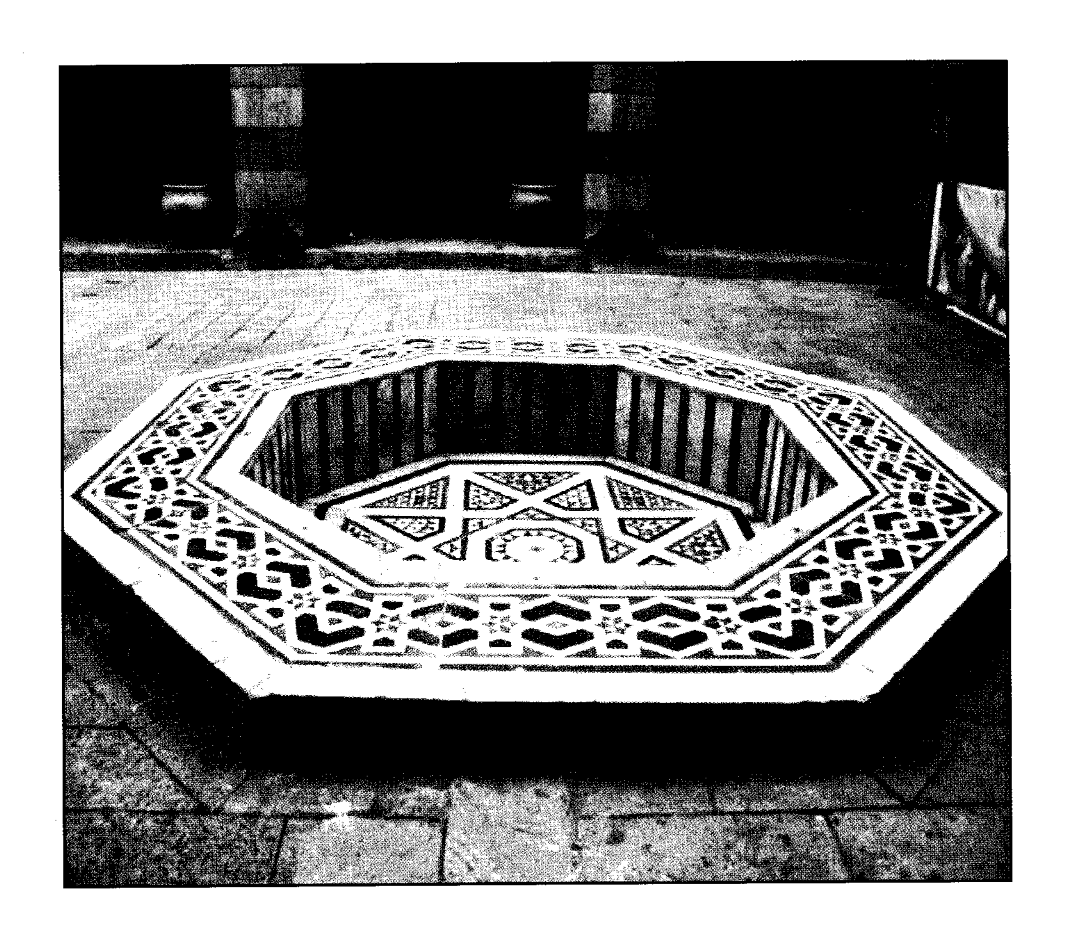
اللوحة رقم (١٨٩)

وكالة الغوري، الواجهة الجنوبية الغربية



اللوحة رقم (١٩٠)

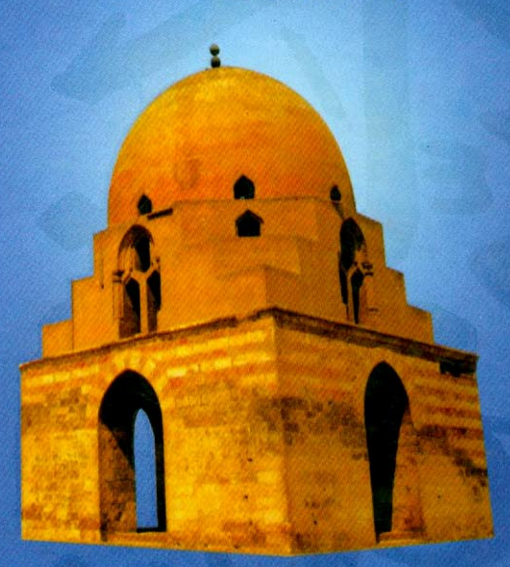
وكالة الغوري، منظر داخلى، الواجهة الشرقية



اللوحة رقم (١٩١)

وكالة الغوري، منظر داخلى، فوارة الدور قاعة







- ليسانس آداب من قسم الآثار الإسلامية - جامعة القاهرة ١٩٦٣.
- ماجيستير في الآثار الإسلامية - جامعة القاهرة ١٩٦٨.
- دكتوراه المرحلة الثالثة في الآثار الإسلامية- جامعة باريس (السربون) ١٩٧٠.
- دكتوراه الدولة في الآداب جامعة باريس (السربون) ١٩٧٢.
- يعمل أستاذا للآثار الإسلامية بكلية الآداب- جامعة عين شمس.
- عمل عميدا للمعهد المصري العالي للسياحة والفنادق بمصر الجديدة (من سنة ٢٠٠١ إلى ٢٠٠٧).
- عمل وكيلا بكلية الآداب جامعة عين شمس ورئيسا لقسم الإرشاد السياحي.
- عمل أستاذا ورئيسا لقسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة عين شمس.
- عمل أستاذا للحضارة الإسلامية بكل من جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة، وجامعة الكويت وجامعة الإمارات العربية المتحدة.
- عمل أستاذا زائرا بجامعة هولواي بإنجلترا.
- عمل خبيرا للآثار الإسلامية - بمتحف الكويت الوطني.
- حائز لجائزة الدولة التشجيعية في التاريخ عام ١٩٨١ عن كتاب (البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك).
- حائز لجائزة جامعة عين شمس التقديرية عام ٢٠٠٠.
- له أكثر من خمسة وستين بحثا ومؤلفا في التاريخ المملوكي والآثار الإسلامية باللغتين العربية والفرنسية.